الأسباب الشرعية للمغازي
وصدى الوحي والشعر فيها

الأسباب الشرعيّة للمغازي وصدى الوحي والشعر فيها

بحث تحليلي مقارن للتأصيل

الدكتور
فخر الدّين قباوة

دار الملتقى

دار الملتقى
من أجل وعي أعمق
بقضايا الإنسان والعصر

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

التصنيف الموضوعي : ٢٧٠
الموضوع : السيرة النبوية
العنوان : الأسباب الشرعية للمغازي وصدى الوحي والشعر فيها
المؤلف : د.فخر الدين قباوة
عدد الصفحات : ٤٧٢
قياس : ١٧ × ٢٥
عدد النسخ : ١٠٠٠

سورية - حلب - طلعة الإنشاءات
هاتف: ٢٢١٤٩٦٧ /٠٢١
تلفاكس: ٢٢٨٩٣٤١ /٠٢١
ص.ب ٧٨٤٢
www. dar-almultaka.net
Email: info@dar-almultaka.net

المقدمة

ألا كلّ الحمد والتمجيد والثناء لله ـ عز وجل ـ أن أمَرَنا في محكم كتابه، بقوله الكريم: ﴿وجاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾، ثم حدَّد لنا ذلك آمرًا وموجِّهًا إلى طريق العمل: ﴿وقاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُم، ولا تَعتَدُوا. إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ﴾.

والصلاة والسلام تامين كاملين على النبيّ العظيم، أن أخذ بأيدينا إلى خير الدنيا والآخرة، فقال: «أفضَلُ الأعمالِ الإيمانُ باللهِ وَحدَهُ، ثُمَّ الجِهادُ»، ووضع في أعناقنا مسؤولية الآمنين الموادِعين قائلًا: «لا تَبعَثُوا الرّابِضِينَ»، أي: ما تَرَكُوكُم، و حمّلنا وصيته الدائمة: «لا تَمَنَّوا لِقاءَ العَدُوِّ»، وعلّمنا في الدعاء أن نقول كل صباح: أعُوذُ بكَ ـ اللّهمَّ ـ أن أظلِمَ أو أُظلَمَ، أو أعتَدِيَ أو يُعتَدَى علَيَّ».

ورضي الله عن الصحابة الأبرار، أن كانوا جنودَ صدق، للصبر على حمل الدعوة ومسؤولياتها في العلم والعقيدة والعبادة والعمل والأمانة والنَّصفة، ولقمع البغي والعدوان وإقرار الأمن والاطمئنان لجميع الناس بالجهاد الطيب والتقوى والإحسان، فيما بذلوا وضحَّوا وافتدَوا، ورسموا لنا من قدوة حسنة لطاعة القيادة والبذل الكريم.

وبعدُ، فقد شاع بين الناس عامة منذ عِدة قرون أن الجهاد يعني حربَ غيرِ المسلمين حتى يكونوا مسلمين أو يدفعوا الجزية، وكثر الكلام في هذا التوجّه بين بعض الفقهاء والمؤرخين والدارسين والباحثين الجاهلين، وتشعبت سبله حتى ظُنَّ أن الدين الحنيف عدوّ للسلام ونقيض للمودة والوئام. وقد

استغل أعداء الإسلام هذه المقولات في التشنيع والترهيب، وضخموها بالأكاذيب والأباطيل والأقاصيص المصطنعة، والتفسير لبعض أحداث التاريخ، لينفّروا الناس منه ويبعدوهم عنه، ويؤلّبوا عليه وعلينا رَعاع المرتزقة والأفّاقين من الغُزاة والحلفاء والطواغيت.

فإذا بنا في هذا العصر الحديث قد غزت ديارنا دولهم النصرانية المتهوّدة، الأوربية ثم الإنكليزية فالأمريكية فالشرقية الملحدة، ودمرت وفتكت واستباحت الحرمات والأوطان، وسلبت العلوم والثروات والعقول والضمائر، واستبدت بأزمّة البلاد والعباد، ولوّثت إنسانية الإنسان في العقيدة والشريعة والعبادة والأخلاق والقِيم واللغة والتفكير والسلوك والأذواق والعلم والعمل.

فعلتْ هذا كله، ثم قبعتْ وسط بحار الدماء وأخاديد النيران وسحب الإذلال والامتهان، فوق تلال الجماجم والحرائق والتخريب وأطلال الأوطان، تبشر بمبادئ السلام والوئام، وتتغنى بما فيهما من سحر وجمال ومفاتن، لتؤمّن لنفسها مواطئ أقدام ومورد رزق وسوق استهلاك وعبيد استخدام.

وكثير منا نحن، المغلوبين على أمرنا، قد استناموا لتلك التراتيل الساحرة النغمات، وتابعوها بالإقرار وزعموا أنها صادرة عن قصد كريم، فانطلقوا بلا رؤوس ولا قلوب ولا استبصار، يرددون مع الطغاة أصداءها في ميادين الإعلام والتعليم والوعظ والبحث والتأليف والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، ويوسعون دائرتها في نفوسنا مبرمَجين مدبلَجين و مبرمِجين مدبلِجين، ومستغيثين بمزيد من ذلك السلام المشؤوم، حتى أصبح في حناجرهم قد نمى وتعمم: «السلام العالمي الشامل». فعلوا ذلك متجاهلين ما حولهم، من المجازر والملاحم والمحارق والمفاسد والتدمير والارتزاق والابتزاز والبلايا والبغي والعدوان.

وقد أعجبت الطاغين هذه النداءات، وطربوا لأنغامها ومقاصدها، فراحوا يُمعنون في البغي والإفساد والتلويث الحضاري، ولسان حالهم يقول: ﴿لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم﴾. فليس عجيبًا أن ترانا اليوم تائهين مضيَّعين لانعرف: من أين تأتينا النكبات والزعازع والجائحات، في جنبات هذا الوطن الإسلامي المنكوب، وفي صلبه وحناياه؟ وكيف نتلقاها ونعاني شدائدها، في أحضان التشتت والخيانات والمؤامرات، وارتزاق سماسرة القيم والشعوب؟

ولذا كان علينا أن نتصدر هذا المعمعان اللاهب، لنرى حقيقة مفهوم الجهاد ومقاصده، وحدوده الشرعية في نصوص القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة، فتزول الصور المتضاربة في إدراك معالمه، ويكون الناس جميع الناس على بيّنة من الأمر، ووضوح في الرؤية والحوار والبحث والتوجه والتصرفات.

ولسوف ترى معنا أن ذلك المفهوم بجهاد الكافرين كان خاصًّا بالمشركين العرب، وردًّا على ما شنّوا من العدوان والتعذيب واستباحة الأعراض واحتلال الديار وسلب الأملاك، وتشريد المؤمنين أرسالًا إلى الحبشة والمدينة المنورة، ومحاربة الدعوة وأصحابها ربع قرن من الزمان.

ولما انتهت الوثنية العربية، واستجاب أصحابها للحق والوئام، أخذ المفهوم حدّه النهائي من التنفيذ، واستقرت الأحكام كما رأيت منذ قليل، بوجوب البر والعدل والإنصاف: ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقاتِلُوكُم في الدِّينِ، ولَم يُخرِجُوكُم مِن دِيارِكُم، أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطُوا إلَيهِم﴾. على هذا رقد جنب المطالبة والقتال للكفر.

ثم إذا عاد علينا التاريخ بأمثال أولئك المشركين، في العدوان والاستباحة والاحتلال والتكفير والتخريب والسلب والفتك والتقتيل والتشريد، كان علينا أن نستجيب لأمر المولى، عز وجل: ﴿واقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم، وأخرِجُوهُم

مِن حَيثُ أخرَجُوكُم﴾. فالمسألة إذًا ليست قضية دين واعتقاد، كما يتصور كثير من الناس، وإنما هي حماية لكرامة الإنسان وحقوقه المشروعة، وقصم لرقاب الطواغيت الذين ينتهكون حريات الشعوب وديار الآمنين وحرمات البشر.

وهذا ما نعانيه منذ قرنين في ديارنا المستعمَرة بزبانية الشرق والغرب، وأكثرنا يتغنى بأمانيّ السلام والطمأنينة والأمان، ثم تبين لنا أننا نُساق بتلك الأغاني إلى مسلخ السياسة الدولية، والجزّارون فوق رؤوسنا يُنشدون تراتيلهم، لتخديرنا وتعطيل كل حركة أو تنبه أو مقال، وللإجهاز على البقية الباقية من الصحو والعزة والكرامة.

وقد علت أصداء تلك الأناشيد بشكل صارخ في منتصف القرن الماضي، لتحجب صخب المجازر في فلسطين والجزائر وكشمير وإيران وباكستان ومنغولية ويوغسلافية وأمثالها، غمرتنا نداءات التخدير من جميع الجهات، في هاتيك السنوات العجاف، فانطلقت حناجر بعضنا وأقلامهم تجاري التيار في اندفاعه، لتوضح النظرية الإسلامية في موضوعات الحرب والقتال.

هنالك تقدمتُ ببحث إلى أستاذي الكريم الدكتور عمر فرّوخ ـ رحمه الله ـ موضوعه **«أسباب الفتح الإسلامي»**، وجعلتُ المغازي منطلقًا لبيان التنفيذ الشرعي، وهي القدوة الرائدة في جميع مراحل الفتوح المعروفة. بدأت حينئذ بتفصيلِ الفروق بين الجهاد والغزو، وبيانِ أسباب الحروب قبل الإسلام وبعده، وخلاف الفقهاء والمستشرقين والدارسين في مسوّغات حركة الفتوح.

ومن ثَمّ بسطت القول عن المغازي الكريمة للفئات التاريخية المعروفة آنذاك: قريش والقبائل وبني إسرائيل والروم، لبيان أسباب كل منها على حدة، فكان لديّ نتيجة مستخلصة من كل ذلك، هي اجتماع متشعبات الأسباب في بؤرة واحدة: الدفاع عن الإسلام والمسلمين. فكل مَن سالم ولم يحارب لا

يقاتَـلُ، سواء كان كتابيًّا أو مشركًا، على ما يقول الإمام ابن تيمية.

كان تاريخ ذلك البحث في ١٩٥٧/٥/٢، كما جاء في مطالعة الأستاذ الفاضل له، وقد علق عليه بقوله الكريم: «غير أنك توسعت كثيرًا في أمور جانبية». وقد بقي ذلك الموضوع هاجسي في التفكير والتدبر. حتى إذا كُلِّفت تدريسَ الأدب الإسلامي في كلية الآداب بجامعة حلب، أي: عام ١٩٦٧، اخترت للطلاب أن أحاضر فيهم ببحث أدبي فني، يواكب ما كان لديّ منذ ١٠ سنوات. وهو: **شعر الفتوح في عهد النبوة**.

إذ ذاك تيسر لي أن أربط بين التاريخ والأدب، لتحقيق مسوّغات الحروب الإسلامية الدفاعية في الحقبة المدينية الكريمة، على أمل أن أتابع ذلك بالتفصيل في أعوام قادمة. بيد أن انصرافي إلى الدرس النحوي شغلني عن ذلك، فأرجأت أمره إلى فرصة سانحة، تساعد على المتابعة والبحث العلمي المنشود.

ثم كانت النقلة المباركة بي من شعاب النحويين ومسالكهم إلى مجاني السيرة النبوية الحبيب، ورياض القرآن الكريم، فإذا أنا واجد في هذه وتلك مادة وافية تعدّل التوجه السابق، وتغنيه بالأحداث والمقولات والوقائع، ليأخذ البحثُ شكله الموضوعي القويم، يجمع بين الشريعة والأدب والتاريخ، فيما كنت أصبو إليه.

وهكذا أصبح بين يديّ أطروحة جديدة عنوانها: **«الأسباب الشرعية للمغازي وأصداء الوحي والشعر فيها»**. وقد انقسم هذا البحث، بما يحمله من المواد العلمية والأدبية الغنية، إلى تمهيد وبابين اثنين، يتواصل بعضها والبعض، لتحقيق المبادئ التي تضبط حركة الجهاد، وتوصل إلى الخاتمة الملخِّصة لحقائق الواقع والتاريخ.

ففي **«التمهيد»** عرضنا لما تميز به مفهوم الجهاد وتطبيقه عن مقاصد

الغزو عند عرب الجاهلية والأمم الأُخرى، بخلاف ما استقر لدى كثير من المؤرخين القدماء والمعاصرين، في مصنفات وأبحاث إسلامية أو معادية للإسلام، إذ جمعوا بينهما في المفهوم والدلالة والاستعمال، من دون تبصر وتحرير لمسارب الإشكال.

وقد تحصل من هذا، بعد عرض الجدل المذهبي، أن مشروعية الجهاد كانت على مراحل، انتهت بالمسالمة للآخَرين ما داموا مسالمين، وفي بؤرتها ترسيخ الكرامة الإنسانية لجميع البشر، وتأمين حرية الاعتقاد تبعًا للفطرة الربانية الخالصة، وأن نصوص القتال للناس والكافرين هي خاصة بالوثنيين العرب الذين شنوا الحروب على الدعوة وأصحابها ربع قرن من الزمان.

ثم جاء **الباب الأول** تحت عنوان: **«جهاد العرب»**، فانقسم **إلى فصلين: أولهما** لـ **«مغازي قريش»**، حيث بدأتْ بالجهاد الأكبر في مكة المكرمة، وهو الموادعة والصبر على البطش والتنكيل والتشريد والسلب والانتهاك. وعندما تأسست الدولة الإسلامية في المدينة المنورة شُرع الجهاد الدامي، فاستُهلّ بالردع والقمع لفلول قريش دون قتال، تهيئة للنفوس وتدريبًا على اللقاء وحثًّا على البذل والفداء.

وأخيرًا اشتعلت نيران الحرب بسرايا وغزوات، يواصل بعضها بعضًا في ٢٣ حلقة لسلسلة من قتال البادئين بالبغي والعدوان والمصرّين على محو الإيمان. وقد انتهت الحلقات الغفيرة تلك، بتهديم أصنام مكة وما حولها، واستسلام أصحابها للإيمان والموادعة والطاعة في العسر واليسر، والدخول في كتائب الجهاد المظفر.

فانتقل **الفصل الثاني** إلى **«مغازي القبائل العربية»**، إذ دخلت هذه الجماعات دائرةَ النفوذ الإسلامي مهدَّدة بالمحق والإبادة أيضًا، لوأد الدولة

الجديدة في منبتها، وللحفاظ على المصالح الجاهلية الموروثة، وتكريس هياكل التشتت القبلي والخضوع لسلطان الدولتين الكبرَيَين آنذاك: الفرس والروم.

هنالك تطاول من العدنانيين فَرعا نزار، أي: قبائلُ الياس بن مضر بن نزار، خُزيمةُ بعضَل وقارة، وهُذيلٌ بلِحيان، وتميمٌ بالعنبر، ثم قبائلُ قيس عيلان بن مضر، خَصَفةُ بهوازن وبكر وجُشم ومعاوية وعامر بن صعصعة وثقيف وكلاب، وغطفانُ بمحارب وثعلبة وسُليم وعُوال وفَزارة ومُرّة.

ثم تقتحم ميدانَ التآمر على الدولة المسلمة قبائلُ وائل وأسد من بني ربيعة ابن نزار، ومن القحطانيين طيئ ولخم وجُذام وضُلَيع ومَذحِج وغسان وعاملة وخثعم والأزد، وحِمْيَر بقضاعة وسلامان وسعد بن هُذيم وعُرينة وعُذرة وبليّ.

المسيرة واحدة، تبدأ باعتداء القبائل على مشارف المدينة أو صميمها، فيتلقاها المسلمون بالجيوش تلو الجيوش، والحربُ سجال أحيانًا، ولمصلحة المجاهدين في كل حين، إذ تتساقط هذه القبائل وتلك في أتّون الكيد والحرب للإسلام، باختلاط وتعاون وتناصر بين بعضها والبعض الآخَر، أو بينها وبين بني إسرائيل والروم.

ومع هذا كله، فقد انتهت تلك السيول بعد٦٠ جولة بالهزيمة والاستسلام: الأوثان محرّقة مهدّمة بلا أثر بعد عين، والوثنيون مسلمون مبايعون، وغيرهم مسالم موادع بعهود ومواثيق تقيّد الهمجية وتستبعد العدوان. وقد مهد هذا لاقتناع القبائل العربية الباقية المتفرقة، بأفضلية الإيمان والاندماج في المجتمع الجديد، فجاءت وفودها أرسالًا تبايع وتعاهد على الإيمان والصلاح.

ثم تلقّانا بعد ذلك شطر آخر من البحث، في **الباب الثاني** بعنوانه الخاص **«جهاد أهل الكتاب»**، حيث انشطر هو أيضًا إلى فصلين، **أولهما** اختص بـ **«النفوذ الاقتصادي»** الذي تميزت به سلالة بني إسرائيل بين الأمم. فهي

مطبوعة على عبادة المادة، وتخريب العالم كله للحصول عليها واحتجازها دون الناس، تشدهم بها إلى أخاديد الكفر والفساد والفتن والقتال والبلاء والفناء.

فالمخلوقات من جماد ونبات وحيوان وبشر لكل منها مدى محدود يعيش فيه، ويمارس خصائصه وطاقاته ويؤدي رسالته في الوجود، ليكون بينها جميعًا تعاون لبناء الكون والحياة. وهذا يعني توزع الخلائق في مناطق للنفوذ الحيوية، تتشكل أنواعها في حيائزها المعيّنة وترعاها بما لديها من القدرات، وربما تطاولت إلى أصقاع مِن جاراتها، فكان النزاع الدائم بين الرغبات والقوى والوسائل والظروف والأحوال، لتسيطر بعض العناصر على غيرها، وتكوّن أفلاكًا جديدة وأمداء توسعية لنفوذها الخاص المتميز.

هذا القانون الرباني الحيوي الذي يبدو طاغيًا في الطفولة الدنيا من البشر، واشتهرت به الوحوش فسمي بشريعة الغاب، فُطرت عليه ذرية يعقوب ﷺ، منذ نشأتها الأُولى. وكثيرًا ماتراه يتولد ويتجسد بين أفراد آخرين وجماعات مختلفة، فيكوّن جشعًا في النفوس وانحرافًا في التفكير والتقدير، وعدوانًا في التوجه والتصرف والسلوك والمعاملة للآخرين.

ونتيجة لتلك الأحداث الحيوية المقررة وهذه الوقائع المنحرفة، تتكوّن دوائر النفوذ المتنوعة المحدّدة، ثم تنداح بالنشاط الحيوي الدائب أو بالمنازع العدوانية الآنية، وقد يصطدم بعضها ببعض استجابة للجشع والنزعات المغرقة في الأنانية والاستئثار. وقد جاءت رسالات السماء تشذب تلك التطلعات الخبيثة بين البشر، وتحدّ من تجذرها وتطاولها في منازع الحياة، لتقيم في الأرض شيئًا من الاستقرار والطمأنينة والأمان، وتجرد الإنسان من منغصات فطرته البديعة النقاء، ومشوهات صِبغة الله الخالصة الصفاء.

وعندما نبتت الغرسة الإسلامية الزاهرة في وسط الجزيرة الجاهلية

القاحلة، انصب عليها غضب الصناديد في مكة، لوأدها في مهدها وحماية منافعهم وهياكل الجبروت والتحكم والارتزاق، فقيض الرحمن للغرسة الكريمة تربة صالحة في يثرب، وأنسامًا ودِيَمًا من العنصر الأنصاري النبيل.

هنالك اشرأبت واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فانداحت دائرتها تشق في الرمال لها جذورًا وأوتادًا، وفي السماء لها منارات وأجواء ومسارات للفروع والأزهار والثمار، فغاظ ذلك من حولها من المتسلطين، وفتح عليها نيران المنافسات والعداوات والحروب، من القبائل المجاورة وجبابرة قريش وسماسرة بني إسرائيل.

كان في ذلك ابتلاء رباني، يهيئ النفوس للجلاد، ويمتحنها لتصفو من كل شوائب الجاهلية الجهلاء، فامتزجت شرور العدوان بخيرات الظفر، واتسعت دائرة القرآن على حطام كثير من المستجيبين لشهوات التسلط والفساد. وبهذا كان الاحتكاك التاريخي بين الدولة الواعدة والدول المستبدة حينذاك، تخاف على سلطانها من الانتقاص، وتُعِدّ العدة للانقضاض والفتك والإجهاز النهائي على كل تفتح نوراني.

أما بنو إسرائيل فقُدّر لجدهم الأول إبراهيم ﷺ أن يولد من أبوين سُومريَّين حامِيَّين، وتُشرِّدَه في الآفاق منازع طغيان النماردة، ويكون له زوجة حامية عقيم وأُخرى سامية عربية تحمل بإسماعيل. وإذ ذاك استبدت الغَيرة في الضَّرّة الأُولى، وتشكلت عقدة النقص في نفسها واتسعت على الرغم من حملها بعدُ بإسحاق، فكان انشقاق الأسرة الكريمة فرعين: حاميًّا غريبًا تولّد منه قوم تشردوا بين المشارق والمغارب، وعربيًّا ساميًّا كان له الحظوة بوطن قرب بيت الله في مكة المكرمة.

ثم جاء يوسف ﷺ من ضَرّة لزوجة يعقوب أيضًا، فانبعثت عُقدة الغَيرة

من جديد مضخمة طاغية، ولّدَتِ الائتمارَ لدى الإخوة الآخَرين بقتل المنافس الصغير، أو صرفه إلى مصر عبدًا مملوكًا. ولما ظهرت سيادة هذا النبي الكريم في مُقامه الجديد، واكتشف إخوته عظمة شأنه واعتذرَ هو لهم بتفضله واستغفاره، ازدادت منازع الحسد في ذُرّيّتهم تأرُّثًا، وصارت عقدة متأصلة في سلالتهم، وُزّع منها شياطين للبشر في أصقاع المعمورة، تائهين مشرّدين بلا وطن ولا يقين.

كان الهم الهاجس في نفوس هؤلاء المتشردين بالآفاق حسدًا دائبًا، وحقدًا متجذّرًا وكيدًا أبديًّا، للانتقام ممن يكرمه الله ببعض النعم والخير والأمان. ولذلك صبوا جامّ سخطهم على الملائكة فأساؤوا إلى أكرمِهم جبريل، وعلى الأنبياء من آدم إلى خاتمهم الحبيب، يحوكون الدسائس والأباطيل، ليشوهوا مراتبهم في نفوس البشر. ولكن الله غالب على أمره، فضح الإسرائيليات المصطنعة، وختم الديانات بتمجيدِ الملائكة والنبوات والرسالات كافة، وفرضِ محبتها على كل مؤمن يطلب الهداية والصلاح.

وعلى هذه الحال من الحقد والضغينة، لم تستقر بالحاقدين الناقمين أرض، وما تيسر لهم وطن منذ نشأتهم الأولى، فكان لهم التطفل على الأمم، ثم الكيد لمن آواهم وإثارة الفتن في كل مُقام، ليُطردوا من جديد ويلجؤوا إلى مفسدة تلو مفاسد.

ولما ضاق بهم أبناؤهم النصارى المؤمنون بإخلاص، في بيت المقدس، فتكوا بالكثيرين منهم، وهرب الباقي لاجئًا حول يثرب، يحوك الدسائس والمؤامرات، بين النُّعرات المتناحرة، لتملّك النفوذ الاقتصادي والسيطرة على عصب الحياة والاستبداد: المال والزراعة والتجارة والمَؤونات الغذائية، وصناعات البغي والبغاء والفساد: الخمور والفجور والسلاح.

معبودهم العِجل الذهبي، أُشربوا في قلوبهم حُبَّه، ونُكبوا من أجله مرارًا وتكرارًا، وما زالوا يسعون إلى تملك آثاره في كل ملجأ وزمان. فلا غرو أن يصطدموا بالغرسة الإسلامية في المدينة المنورة، ويتفننوا في المكايد لها، رغم ما كان بينهم وبينها من المواثيق بالمسالمة. والعجيب في تاريخهم المَقيت أن امرأة منهم بدأت بالعدوان تحرّض الأنصار على اغتيال النبي ﷺ، لأنه كما قالت غريبٌ بينهم، وليس عليهم الانقياد له وترك الزعامات الجاهلية المأفونة.

وقد توالت نقوض القوم للعهود الموثقة، بفتن متنوعة متكاثرة، منها الائتمار باغتيال النبي ﷺ أيضًا، ومحاولة تسميمه كذلك، وتحريض قريش والقبائل والروم على حربه واستئصال قراره. ومن ثَمّ تولّد عن ذلك ١٣ وقيعة، أنهت أمرهم بالجلاء تشريدًا في المجاهيل، أو تقتيلًا بحكمِ أعزِّ حلفائهم عليهم، أو إقامات جبرية مقيدة بالوفاء والانقياد والعمل المأجور.

كذلك تم القضاء على النفوذ الاقتصادي، بمن معه من أوليائه في جزيرة العرب، ليكون **الفصل الثاني** منصرفًا إلى «**النفوذ السياسي**». وهنا وقفنا مع التاريخ، نستعيد صفحاته من حياة أبناء النصرانية الكريمة، فإذا نحن أمام نقيض لتاريخ الإسرائيليين المشؤوم، نعم على نقيض مباين، يتعذر قبوله للقبائح والخبائث والحقارات، ما دام في الهالة النيرة التي قدّرها العزيز العليم، برسول المحبة والسلام عيسى بن مريم ﷺ.

بزغت تلك الهالة بالكريمة الطيبة المعطاء حنّة أُمِّ مريم، إذ وهبت وليدتها الوحيدة لخدمة بيوت العبادة، فكانت أول تجربة إنسانية في التضحية بأعز ما تملك امرأة قدّيسة. تلا ذلك تنافسُ الأحبار في كفالة هذه الضيفة الغالية، وانصرافُها إلى التبتل وجهاد النفس، فأكرمها الله بالرزق من حيث أدهشت النبي زكرياء ﷺ.

ثم كانت معجزات عظيمة متوالية: ولادة ابن لهذا النبي من زوجته العاقر، واستشهاده معه على أيدي أحبار بني إسرائيل، وحمل المطهَّرة البتول بكلمة الله، وتحمُّلها افتراءات الإسرائيليين عليها، وتبليغ الطفل الوليد قومَه رسالةَ التوحيد، وتضحية حواريّ بنفسه فداء لعيسى ـ عليه السلام ـ أن يصلب بمسامير تَصِرّ في عظامه، لتُنازِعَه الجوارحُ مقلتيه والكبد والأحشاء، وهو يتذوق ذلك صاحيًا واعيًا، مراقبًا طريقه إلى الشهادة في سبيل الله.

أما رسالة السماء التي حملها السيد المفتدَى إلى الأرض فهي المحبة والسلام، كما ذكرنا منذ قليل وقد تقدمتها إرهاصات كريمة تهيئ النفوس لها، وهي التسميات المباركات: عِمران وحَنّة ومريم والمسيح والحَواريّون، ثم التمجيدات من الله وشفاء المرضى وإحياء الموتى وتبليغ الناس نشرَ المحبة لتزول معالم البغضاء والشحناء.

كذلك نشأت أُمّة السيد المسيح ﷺ، لتجتث جذور الهمجية الإسرائيلية، وتزرع الطهر وسلامة الصدر وصلاح النية والأعمال. وما كان هذا ليُرضي نزعات الشرور والآثام عند أولئك، فدارت الأيام بين الطرفين، في مجازر وفتن ومؤامرات، انتهت بترحيل أُمّة الخسة والدناءة عن الأرض الطيبة، كما عرفنا من قبل، ليعودوا متشردين لاجئين في جنبات الأرض.

لقد رحلوا بعد أن تركوا آثار الوثنية والطغيان في نفوس الأباطرة المستبدين الطغاة، يحملونها عنهم مضخمة شنيعة إلى التاريخ والإنسانية، في إمبراطوريات رومانية متوالية وأذناب لها، تزرع البؤس والشقاء والقضاء على كل بادرة صلاح. ومع هذا فإنه بقيت بقاع نورانية، تستنير بوصايا سيدها المسيح ﷺ، موزعة فيما حول جزيرة العروبة.

وهذا يعني انشطار النصارى وتوزعهم في وادِيَين: أحدهما للمخلصين

والصالحين والمحسنين لم تدنسهم أنفاس اليهود، والآخر للمنساقين وراء وثنية بني إسرائيل الخبيثة، يحملون شعار الطغيان والجبروت والفساد. وقد تمثل هذا وذاك في استقبال الدعوة الإسلامية المباركة، على ضربين متناقضين:

فأبناءُ الوادي الأول هللوا للرسالة والرسول، فكانت أصداء ذلك في الحبشة ومصر وبقاع من الشام والحجاز تبشر بالخير والصلاح، ورجالاتُ الوادي الثاني قتلوا سفير النبي ﷺ ومن أسلم أيضًا، وتهيؤوا للغزو والانقضاض على موئل الدعوة. ثم انصبت عليهم لعنة أبي عامر المنافق وبني إسرائيل المطرودين من جوار المدينة المنورة، فكانت ٧ غزوات وسرايا موفقة بنصر الله، لمصلحة المجاهدين في سبيله.

وقد حار المستشرقون وربائبهم المستغربون في تفسير ذلك وبيان أسبابه، أن تتغلب دولة ناشئة قليلة العدد والعُدد والسلطان على الدولة العظمى المنفردة بأمجاد وسيادات قديمة مؤثلة. ولذلك راحوا يضربون أخماسًا لأسداس، ويُلقون التُّرّهات والأباطيل ليضللوا الفكر ويشوهوا صفحات التاريخ، كدأبهم فيما بلبلوا عندنا من العلوم والمعارف والعقول والألسنة والأخلاق والسلوك والشرائع والعبادات والمثل والقيم والأذواق والصناعات والعمل والتوجهات.

وهنا يكتمل البابان بفصولهما الأربعة. فقد أنجزنا عرض المغازي المِائَة، بما لَها من أسباب ومسوّغات، وما تضمنته من الأحداث المرافقة والوقائع الظافرة، والوحي الكريم الآيات القرآنية البيّنات وسِفارات جبريل ﷺ، والأشعار والخطب العربية المتواليات.

فصار علينا واجبًا لإعطاء البحث حقَّه أن نتوج ذلك بـ «**الخاتمة**»، تتناول المعلومات والحقائق المنتظمة في أسلاكها الأربعة، فتنشرها وتعيد صياغتها بما يواكب الإجابات التي يطرحها عنوان الموضوع ومنظوره، ويبين

تأديتها للمقاصد التي وُظّفت فيها وعَرضت لها، ويعطينا النتائج المرجوة منها، أي: **حصائل البحث**.

وأول ما نلقاه من هذا النظم الجديد، للأحداث والوقائع والنصوص، أن التاريخ المسجّل للمغازي استقصى أخبارها ومقولاتها، وما تضمنت من أحداث وأسماء وجزئيات، بالتفصيل والتوثيق والدقة والتفسير، مما أسس علمًا لا نظير له في الوجود: علم المغازي والسِّيَر، يقدم للمسلمين نُظم اللقاء الحربي وأساليب تنفيذه، في ظروفه المختلفة، وأحواله المتباينة.

وخلال ذلك كان اتفاق ظاهر في الخطوط العامة للأحداث بين العلماء، مع خلاف يسير في بعض الجزئيات، كعدد الوقائع في السرايا وتعيين العناوين والزمان والمكان والقيادات ويسيرٍ من النتائج، لخلافهم في المفهوم الاصطلاحي والنسبة إلى مكان أو قوم، واختلاف مصادر الرواية والمشاهدة العِيانية.

وإذا كان الفقهاء والدارسون قد حددوا مسوّغات الجهاد القتالي بالهجومِ لتحقيق فريضته، والدفاعِ عن النفس، والتنوعِ المرحلي، واحتمالِ الوجهين، والحصارِ الاقتصادي، فإنك واجد في استعراض ما جرى بدقة في كل وقيعة على حدة أن السُّنّة المشرفة حددت ضروبًا واضحة موحَّدة للأسباب الشرعية أدقَّ من ذلك وأخصر وأبين.

فأنت تتلمس بوضوح أن الأصل في تلك اللقاءات هو للمُحارِب من الأعداء أو المواطنين، كالذي حصل في مغازي قريش وأحلافها وبعض القبائل العربية، وفي صدامات بني إسرائيل والدولة الرومية والمرتدّين والغادرين. ثم تجد بعض النماذج للجهاد الوقائي، كما كان مع بني غطفان وأسد والمصطلِق وهَوازن وبعض إمارات تابعة للنفوذ الرومي. وأخيرًا يرد الطلبي للقضاء على الوثنية العربية لا غير.

وفي مجموع تلك الحلقات الثلاث، فإنك تفتقد ما عُرف بالجهاد الهجومي دون سابق عدوان، إذ يمتنع القتال لمَن لزم عهوده مِن أيّ دين أو قوم كان، أو مَن لبث في مقره رابضًا لا يريد خصومة أو نزاعًا أو نزالًا. ومع هذا كله، فإن الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لا يَحدّه إلّا موادعةُ الآخَرين وتركُ المسالِمين مع شؤونهم الخاصة، يقضون حياتهم بجد ونشاط وإيمان وصلاح.

وبما أن هذا أمر مفروغ منه، لا يرضى عنه شياطين اليهود وأتباعهم من وثنيِّي النصارى والملحدين والمستبدين، ويأبون حصوله أو استمراره، فقد ثارت قبائل عربية بتحريض من هؤلاء وأولئك بعد وفاة النبي ﷺ، وكانت المعارك معها مظفرة لمصلحة المجاهدين، توسعت بها دائرة النفوذ الإسلامية، فتساقطت فيها جيوش المجاورين من الأمم المهاجِمة شرقًا وغربًا.

ثم توالت بعد ذلك جحافل المغول والتتر والصليبيين، فارتدت الشرقية مسلمة، والغربية مهزومة على أعقابها. إلّا أن ما انصب على النصرانية الغربية من الأحقاد اليهودية وهمجيتها في القرون الأخيرة، وما تراكم في ذلك من تاريخ حربي خاسر، وأطماع في الثروات القومية والتسلط والارتزاق، قد جددا العدوان على جميع ديار المسلمين في هذا العصر، وأوقدا شعلة الجهاد الإسلامي: الفردي والجماعي والوطني والقومي، لدحر الغازين ومن معهم من الحلفاء والمرتزقة وسماسرة القيم والشعوب.

وهذا أمر فرضتْه على المسلمين مطامع الآخَرين، وهو مما وضحتْه لنا النصوص الشرعية المشرّفة، منذ ألف وأربعِمائَة عام ونيف، وحققتْ أنه مستمر أبدي، ما دمنا مؤمنين بهذا الدين الحنيف، ولن يجد أحدنا استقرارًا حتى يتخلى عن عقيدته وإيمانه، أو يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا. تلك هي المعادلة التاريخية المقرّرة في الوجود العدواني، ولا مجال لحلها أو تغيير توجهها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وتلك الحصائل هي إجاباتنا عن الشطر الأول من تساؤلات البحث، إذ فصلنا بيان الأسباب والمسوّغات للمغازي الشريفة، لنقف عند الشطر الثاني منها. وهو أصداء الوحي والشعر فيها، تحت عنوان «**أدب المقاومة**». وهنا تملأ سمعك وبصرك وفؤادك النصوص الربانية والفنية التي واكبت أحداث الجهاد في عهد النبوة، لترى أن ما زُرع في ثقافتنا، من قيادة الأدب البشري للحضارة والاستقلال، هو خرافة ضللنا بها رجالات الاستعمار وصنائعهم، فيما أشاعوه من الأباطيل، ليصرفونا عن فعّالية القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة.

فالنتائج الطيبة، من المقاومة الجهادية في عهد النبوة، وجّهتها تلك الفعّالية الكريمة من الآيات والأحاديث ومقولات الصحابة، فهيأت النفوس بالتربية الإسلامية للصبر أولًا، ثم للمواجهة الحربية بالسلاح، وخططت سبل المعارك وأشرفت على تنسيقها و تنفيذها وختمها ببيان ما حصل فيها من خير وشر، ثم رسمت أصول أحكام الجهاد وتوجهاته المختلفة بين الأمم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد كان لها تلك الآثار العملية الواقعية العظيمة لأنها صدرت عن مشاركة فعلية في المعارك، وامتزجت بالأحداث واصطبغت بالدماء والتضحية والفداء.

وعندما تضع شعر المغازي في هذا الميدان، فلن تستسيغ المقارنة بينه وبين ما كان من تلك الحصائل والآثار والمشاركة المباركة، بل تجدك على نقيض ما زعمه عبيد الاستشراق من تضخيم الوظيفة للأدب الفني، وإخفاء مهام الوحي الكريم والحديث الشريف، لتؤكد لهم وللتاريخ والحقيقة أن هذه المهام الربانية والنبوية هي العنصر الوحيد في توجيه النفوس والتحركات، ورسم الخطط الآنية والمستقبلية.

يحملك على ذلك قسرًا ما تستعرضه من أثر الشعر في تضخيم الفساد

الجاهلي والتخلف الحضاري، وآثار الوحي الرباني والسُّنّة المطهرة في إنقاذ الأمة والسَّير بها في مضمار التاريخ، رائدة قائدة لركب الصلاح والعلم والعمل والحضارة الإنسانية.

فنصوص الوحي، بما كان من آيات وتوجيهات توحَى، بدأت بتربية النفوس وتقويم السلوك، ومهدت بتهيئة أجواء الصبر والبذل والتضحية، ثم تقدمَتِ المغازيَ بالترشيد والتقوية والتعزيز والتسديد، وتابعتها بالرعاية وتبليغ خفايا الأمور والتعليق على الأحداث والوقائع، وتقرير الأصول الشرعية في السلوك الجهادي، ليكون ذلك دستورًا للأُمة في حاضرها والمستقبل الأبدي القادم بالظروف والأحوال المختلفة. وبهذا تتعانق الوظيفة والوسيلة والغاية متلازمات لتحقيق النصر المبارك، بعيدًا عن المكاسب الشخصية والتغني بالانفعالات الآنية، للسمسرة في أسواق القيم والشعوب.

هذا في حين أن الشعر غالبًا ما كان تابعًا للأحداث، يسجل تفصيلاتها، بذكر أسباب الصراع ومبدأ الخصومة بين التوحيد والشرك، والمسالمة والعدوان، والموادعة وخيانة العهد، والدفاع عن التوحيد أو الوثنية. ثم تسمع التغني فخرًا بالنصر والغلبة والإقدام والتضحية، وهجاءً بالذلة والخيانة والهزيمة والجبن والكفر، ورثاءً للقتلى والشهداء من أقارب وأصحاب.

وفي معمعان هذه المعارك الفنية، نشأت بذور النقائض بين الشعراء، إذ توالت قصائد ومقطعات يناقض بعضها بعضًا، في كثير من سمات هذا الفن المعروف. فقد أصبح الشاعر المناقض لآخَر يلازم الموضوعات المَعنيّة، في مجال قولي من الردّ والمعارضة، وإطار فني من البحر العروضي ونوع القافية والروي أيضًا. وهو ما ستراه في العصر الأموي قد تلبس ثوبًا فاقعًا، بما يحمله من التجارب والسمات الموضوعية والقولية والفنية.

وكذلك كان شأن الرجز الفنِّ الرديف للشعر، إذ دخل ميدان النقائض في مجال الفخر والاستبسال والحماسة والرثاء. ولمّا كان قد تميز عن الشعر في تلك الآونة، بكونه فنًّا آخر، فقد شارك النبي الكريم ﷺ في نظم بعضه للحماسة والاستبسال، وإنشاده مع المنشدين والتغني به في مواقف العمل لإثارة النشاط والاستمرار. ومثل هذه الظواهر لا ترى لها مثيلًا في ميدان الشعر، مع ظاهر اهتمامه - عليه الصلاة والسلام - به والاستماع إليه والتشجيع عليه وتسديد بعض عباراته، لتكون أقرب إلى تعاليم الدين الحنيف.

فلا غرو أن تخرج معي من هذا كله - أيها الأخ الكريم - بنتائج علمية محددة تزيل الضبابيات الشائعة في عقول الناس، حول هذه المسائل المُثارة بين يديك. ومن هنا تتضح لديك معالم الطريق بجلاء ونقاء، أن الأسباب الشرعية للجهاد مرسومة بدقة واستيعاب، في نصوص الوحي الكريم، والسيرة النبوية الشريفة، وهي نبراس الخلفاء والقادة والمجاهدين، لأنهم حافظون لها واعون لأبعادها وتفصيلاتها وتوجهاتها المختلفة، عنها يصدرون وبها يستضيئون وتحقيقها يطلبون.

ثم إن الوحي يستبق الأحداث، فيهيئ لها الظروف والنفوس ويُعدّ العُدد اللازمة، ويأمر بالتوجه إليها وممارستها في الوقت المناسب، ويواكب تحركاتها للتقويم وبيان الحكم الشرعي في التصرفات الفردية والجماعية، ويرسم لنا أخيرًا المخططات الحربية في مجالات الحياة. إنه القائد الرباني، يسدد الخطوات ويثبت الأقدام ويُنزل السَّكينة، ويعين على النصر بالتوجيه والقول والفعل والقوى الخارقة للمألوف: الرياح والملائكة، ويختتم الوقائع بالتمجيد والتزكية، والعفوِ عما بدا من تقصير أو ضعف أو إخلال.

هذا على حين أن الشعر وما يُلحق به من رجز هما أقرب إلى وسائل

الإعلام، تكون تابعة للأحداث، تنفيسًا عن الأشواق والصبوات والعواطف والأخيلة، فتتغنى وتمدح وتفتخر وتهجو وترثي وتصف ما كان، ثم تُطوى مع الأيام، لتبقى في الذاكرة أناشيد وأغاني وصبوات وأشواقًا وإيحاءات فنية، لا تصنع حاضرًا ولا توجه إلى مستقبل ولا ترسم مخططًا لحياة فرد أو جماعة أو أُمّة.

أضف إلى ذلك كله أن النصوص الشعرية ليس لها من التوثيق ما يجيز الاعتماد عليها باطمئنان تام. ولو أنك قارنت هذا بما كان للنثر النبوي والصحابي، في ميادين المقاومة الجهادية، لرأيت أن ما أحاط بها وتخللها من مقولات الصحابة الكرام ﷺ له أسانيد موثقة أو معتبرة، وكثير من الأثر الفعّال، والحضور العملي والمشاركة الصميمية والامتزاج الكامل، بمظاهر التضحية والاستشهاد والصبر على البلاء والمحن.

فهذا الأدب الجهادي العملي هو الذي يصنع النصر والاستقلال، لأنه ذخيرة حية، لا خُلّبيّة كما انصب في القضية الفلسطينية منذ ستين سنة، من أدب فني تجاري للدعاية والتصدير السياسي، فلم يكن له فائدة في المعركة، بل زادها ضعفًا وعجزًا وتشتيتًا وتسيبيًا.

حتى إذا صحا الشعب الفلسطيني لنفسه، وتجند للمقاومة المسلحة الحقيقية، صار له من القرآن والحديث والشعر والنثر أدب جهادي أيضًا، ممزوج بالدماء والتضحيات، يحرك النفوس نحو الاستشهاد، فأصبح الحَجرُ في يد الطفل أعظم من الذخائرِ الفتاكة والأسلحة المدمرة، والدولِ العظمى المتهودة ومَن خلفها مِن الحلفاء الوثنيين والملحدين. ونظير هذا ما رأيناه منذ بضع سنوات ثم في تموزِ العام الحالي، من نصر لمقاومة الجنوب اللبناني المؤمن، وسحق لقوى اليهودية والحلفاء الأذناب، بعد أن تربّت كتائب «حزب الله» بالأدب القرآني والروح الإسلامي النبيل.

تلك هي الحصائل التي يسرها الله لنا، بفضله وعونه، عرضنا مضمونها ومعلوماتها وبحثنا معطياتها ونتائجها، مع الاستعانة بالأدلة والبيان، من الآيات الكريمة ومقولات الرواة والمؤرخين. نقلنا ذلك من المصادر التراثية للسيرة والتراجم والطبقات والأدب، وعززناه بالتفسير للغريب وتوضيح المشكل، والإحالة على المصنفات التي اعتمدناها خلال البحث.

وهكذا استوى الموضوع التحليلي المقارن التأصيلي، استوى على سوقه الراسخة الجذور وآتى أُكله، بحمد الله وشكره، نقدمه خدمة لسيرة نبينا العظيم ﷺ، وتعزيزًا لدراسة تاريخنا الكريم، ومَشعلًا يستضيء به رجالات الفكر والوعظ والتوجيه، يستمدون منه بوارق التفكير والتدبر في المسيرة الجهادية من الحاضر والمستقبل.

وإننا لنأمل أن يحظى من الله هذا الجُهدُ المتواضع النبيل بالرضا وأحسن القبول، ومن الزملاء والعلماء والدارسين والباحثين بتفهمِ طالب الحقيقة والإخلاص والإحسان، ليكون فيه تصحيح مسيرة الفكر والقول والعمل. وما ذلك على الله بعزيز.

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا

حلب في ١٧ رمضان لسنة ١٤٢٧
و١٠ تشرين الأول لعام ٢٠٠٦

خادم السُّنّة الشريفة
الدكتور فخر الدين قباوة

التمهيد

الغزو والجهاد

تاريخ الحروب بين الأمم والقبائل والجماعات والأفراد قديم جدًّا، نعرف مبدأه ولا نعرف له حدودًا. فالصراع من أجل الشهوات والمصالح والمنافع والمكاسب والمعاش سُنّة بشرية، عرفنا أصداءها من عهد آدم ﷺ، إذ كانت منافسة بين ولدَيه قابيلَ وهابيلَ، انتهت بعدوان الأول على الثاني وترحيله من الحياة.

وقد ذكَرَتِ الروايات لهذا الصراع التاريخي الأقدم بين الناس أسبابًا مختلفة، حتى لقدْ زعمت إحداها أنهما كانا من بني إسرائيل ولم يكونا ولدَي آدم لصلبه.(١) ونحن نجمل المشهور من تلك القصص فيما يلي:

عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه لم يكن في عهد آدم مساكين يُتصدّق عليهم، وإنما تُقدّم قرابينُ لطاعة الله ورضاه، فإن تُقبِّل القربانُ أكلته النار، وإلّا خبت دون ذلك. ولما أمر آدم ابنَيه الأوّلَين أن يقدما ما يتطوعان به اختار هابيل خير غنمه، وقابيل رديء زرعه، فذهبَتِ النار بما اختاره الأول لتقواه وصلاحه وسماحته، وتركتْ تقدمةَ الثاني لِما في نفسه وعمله من الخبث والفساد.(٢)

هنالك غضب المأفون وهدّد أخاه بالعدوان، ثم احتال عليه حتى قتله، فكان ذلك سُنّةً إجرامية للبشر في ذِمّة قابيل، امتدت ذيولها مع التاريخ،

---

(١) انظر الدر المنثور ٢: ٢٧٣ ـ ٢٧٧ و تفسير ابن كثير ٢: ٣٩ ـ ٤٤ وتفسير البغوي ٢: ٢٨ ـ ٢٩ وفي ظلال القرآن ٢: ٦٩٨ ـ ٧٠٨.

(٢) تفسير الطبري ١٠: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذا ما تفيده الآيات ذوات الأرقام ٢٧ - ٣٠ من سورة المائدة والأحاديث الشريفة. قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتَلُ نَفسٌ ظُلمًا إلّا كانَ علَى ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفلٌ مِن دَمِها، لأنَّه أوَّلُ مَن سَنَّ القَتلَ».(١)

غير أن الإخباريين حاكُوا حول القصة تفصيلات من الإسرائيليات، دُسّت فيها دوافع جنسية شهوانية، تعبيرًا عن النزَعات الشيطانية عند اليهود والمتهودين. وهي أنه وُلد لآدم في بطنين مع كل ذكرٍ - وهما قابيل وهابيل - أُنثى، فكان عليه إن يزوِّج غلام كل بطن جارية البطن الآخَر بعدُ. وكانت توءمة قابيل أجمل من توءمة هابيل، فأبى الأول أن يتنازل عن شقيقته لأخيه، وأرادها لنفسه، فأمرَهما أبوهما بتقديم القُربان، ليظهر من يكون زوج الجميلة. ثم كان ما حصل بعد هذا، من غضب قابيل وقتله هابيلَ.

وهكذا تشعبت أسباب النزاع بين أبناء آدم فيما جرى بعدُ، وصار لها مظاهر مختلفة، تلتقي في الاستئثار والجشع، لتدفع الأفراد والجماعات إلى البغي والعدوان والقتال، في سبيل الكسب والتملك والسيادة. بل لقد أصبح الظلم وسلب الحقوق بالتقليد والوِراثة من العادات المتأصلة في الناس، وكأنها في جِبِلّة الخلق والبنيان.

هذا ما نعرفة في صفحات التاريخ المدوّن، تتعدد أشكاله ومنازعه ودوافعه، وتتحد فيما ذكرنا من الأصول. فليس من وازع لأحد غيرُ الضعف والتهيب من القوي، ولا مانع إلّا فقدُ القدرة على التغلب والاستبداد، كالذي تراه في شريعة الغاب، حيث يستأثر الباغي بالنصيب الوافر، ويقضي على من

---

(١) الأحاديث: ٣١٥٧ و ٦٤٧٣ و ٦٨٩٠ في البخاري و١٦٧٧ في مسلم و ٢٦٧٥ في الترمذي والنسائي ٧: ٨٢ والمسند ١: ٤٣٠ و ٤٣٣. والكفل: النصيب من إثم القتل. وسن أي: ابتدع.

هو دونه لتحقيق ذلك، فيعيش الضعيف في هرب وفزع مهددًا بالفناء طيلة حياته. وفي هذا قول المتنبي:

الظُّلمُ مِن شِيَمِ النُّفُوسِ، فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلِعِلَّةٍ لا يَظلِمُ[1]

ولذا جاءت رسالات السماء تُلجم التشهي والتهور والاندفاع، وتقوم بتوجيه الإنسان نيّة وقولًا وفعلًا، لضبط جشعه واستئثاره، وتحديد أسباب النزاع بأحكام الشريعة الربانية، وهي أدرى بمصالح الكون والحياة، تضع الموازين بالقسط، وتوجه الخلق إلى الهداية والرشاد. وقد استطاع بعض الرسل والأنبياء أن يغرسوا شيئًا من ذلك في المجتمعات الإنسانية القُدمَى.

لكن طغيان أعداء الدعوات ـ وهم أصحاب الترف والمصالح والسيادة والبغي والبِغاء، والتحكم في مصاير الأمم والشعوب والقبائل ـ كانوا حربًا على تلك الشرائع وأصحابها ومن جاء بها، يمانعون ويكفرون ويكيدون ويخرّبون ويقتلون ويفسدون، لتبقى بأيديهم أزمّة التسلط والارتزاق والاستبداد.

وقد أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك في تعميم يشمل جميع الأقوام[2]: ﴿وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن نَذيرٍ، إلّا قالَ مُترَفُوها: إنّا بما أُرسِلتُم بِهِ كافِرُونَ﴾. ثم عمدوا إلى المكر والخداع ليطمسوا معالم الدعوات[3]: ﴿وكَذلِكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَريةٍ أكابِرَ مُجرِمِيها، لِيَمكُرُوا فِيها﴾، فكانوا يتهددون الأنبياء بالطرد والتشريد[4]: ﴿لَنُخرِجَنَّكُم مِن أرضِنا، أو لَتَعُودُنَّ في مِلّتِنا﴾.

ثم انتقل الإرث الخبيث إلى بعض العرب وبني إسرائيل، فصار يأمر

---

(١) ديوانه ٤: ١٢٥.

(٢) الآية ٣٤ من سورة سبأ.

(٣) الآية ١٢٣ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

بعضهم بعضًا بذلك التشريد فعلًا[1]: ﴿أخرِجُوهُم مِن قَريتِكُم. إنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وكانوا ﴿كُلَّما جاءَهُم رَسُولٌ بما لا تَهوَى أنفُسُهُم فَرِيقًا كَذَّبُوا، وفَرِيقًا يَقتُلُونَ﴾،[2] ويفاخرون بمثل ذلك أحيانًا، كذبًا وادِّعاء، لتثبيت التهديد والوعيد: ﴿إنّا قَتَلنا المَسِيحَ عِيسَى بنَ مَريَمَ رَسُولَ اللهِ﴾.[3]

ذلك هو دأبهم مع كل صلاح أو إصلاح، لتبقى مصادر الأمور في أيديهم، ومصاير الناس والبلدان تحت تصرفهم، وعائدات البغي والبِغاء إليهم وحدهم. وهذا ما نراه ونسمعه ونعيش فيه منذ مِائَتي سنة إلى اليوم، من الغزو لديار المسلمين، والتقتيل والتشريد والتدمير والإفناء، باسم الاستعمار والتمدين والحماية والوصاية، أو السلام العالمي ومقاومة الإرهاب.

بين الجهاد والغزو:

رأينا فيما مضى نماذج من الصراع الداخلي والخارجي، الداخلي بين أفراد الأمة الواحدة، والخارجي بين الأمم والشعوب. وهو في الأول خصام وقتال غالبًا ما ينتهيان إلى القضاء على منافذ الخير والهداية. أما في الثاني فهو غزو بالجيوش والسلاح، لتدمير البلاد وسحق العباد والنبات والحيوان والجماد.

بدأ ذلك في قديم الزمان طلبًا للمعاش، حين تضيق بيئة بأصحابها فينصبّون على من جاورهم بالغزو، لامتلاك ما يقتاتون به ويدفعون عن أنفسهم خطرَ الفناء. فالحياة الشظفة في البلاد العربية وغيرها من الصحارى والأصقاع الماحلة، وضعف الموارد الحيوية، والمصاعب الكثيرة التي تكتنف الجماعات

(١) الآية ٨٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٧٠ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٥٧ من سورة النساء.

والأفراد، كل هذا أو بعضه كان يدفع القبائل والعشائر والأشخاص إلى التناحر على وسائل المعيشة، من إبل ومراع وخصب ووديان.

لذا كان الغزو عُرفًا سائدًا، كثُر تردده وحصوله عن غير إنذار أو حق خفي أو ظاهر. وهذه لصوصية صارت في النفوس والمجتمعات الجاهلية من أركان البناء الاقتصادي المقرر،(١) يحتكمون إليها بمنطق القوة والغدر والهجمات الساحقة، ثم أصبح لها العُرف السائد بين العرب وغيرهم من الأمم في الشرق والغرب، يسبب المجازر والتخريب والسلب والإذلال والسبي والاستعباد، عدوانًا على المسالم أو انتقامًا من المعتدين.

وقد طغى هذا الضرب من الحروب على نفوس البشر، وقادها إلى الظلم والبغي، لا على الخصم فحسب، بل على الجيران والأقرباء والأدنَينَ، إن لم يكن مجال لغزو الأعداء. وفي هذا يقول الشاعر القُطامي من تغلب:(٢)

وأحـيانًا، علَـى بَـكرٍ، أخِيـنا … إذا مـا لَـم نَجِـدْ إلّا أخانـا

وعندما تكونت الممالك والدول الكبرى والإمارات المحلية في التاريخ، اتسم الغزو بألوان جديدة من الدوافع، هي حب التوسع والسيطرة على ما يمكن من الأمم والقبائل والأوطان في العالم،(٣) للتحكم في منافذ الملك ومسارب التجارة ورقاب الناس وثرواتهم. وهذا ما نعرفه عن اجتياح الإسكندر المقدوني لأصقاع المعمورة، وغزوات الرومان والفرس والأحباش للشرق.

وكذلك كانت الحروب بين الدول الكبرى حينذاك، من نحو الصراع الدائم بين الفرس والروم على عرب مصر والشام والجزيرة، وزحف الأحباش

---

(١) العرب لفيليب حتى ص ٣١.

(٢) ديوان القطامي ص ٧٧ وشرح الحماسة ص ٣٤٩.

(٣) انظر الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ص ٦ - ١٤.

إلى اليمن وما جاوره من الجزيرة، وتصدّي الفرس لهم، وما كان من المطامع بين الإمارات والمجموعات الصغرى، تحت مظلة الدول العظمى.

فالروم والفرس يشكلون آنئذ الدولتين العُظمَيَين تقتسمان ما يحيط بالجزيرة العربية،[1] وتقوم بينهما الحروب لتوسعة سيطرة الغالب منهما. وبذلك صارت مملكة المناذرة كالجند تحت مظلة الفرس، ومملكة الغساسنة كالمرتزقة تحت المظلة الرومية، وكل من المملكتين حرس على الحدود الشمالية والشرقية للدولة القائدة الموجِّهة، أو قل: تشكلان حزامًا أمنيًّا لحماية الدولتين العظمَيَين ومصالحهما من هجمات القبائل العربية، فتمر التجارات والمسيرات والمؤامرات بحراسة جنود المملكتين، كما هي حال الدول العربية والإسلامية اليوم، في ظل اليهودية العالمية وحلفائها من ساسة العدوان والاستنزاف، تسير في ركاب الغزو الإجرامي وتمده بالحماية والعون والتشجيع، وتندفع بين صفوفه لمحاربة المجاهدين في فلسطين والعراق وأفغانستان والسائر بلاد العالم.

وتلك الدوافع العامة للدولتين والخاصة للمملكتين تسيّر الجيوش وتقيم المجازر والدمار بين القوتين المتناحرتين على مناطق النفوذ، والغساسنة والمناذرة في ركاب الروم والفرس، يقودون بعض القبائل معهم بالجشع، ويحملون شعار العبودية والهوان، ويخوضون معارك دامية لا ناقة لهم فيها ولا جمل، يولّد بعضها بعضًا على توالي الأيام والأعوام.

ثم ترى صراعات جانبية تسبب الفتن والقتال أيضًا، كالذي حدث بين بكر وتغلب في أيام البسوس، وبين عبس وذبيان في أيام داحس والغبراء، وبين المناذرة بقيادة عمرو بن هند وبني تغلب بزعامة عمرو بن كلثوم. وحصاد كل من ذلك انتشار الويل والفناء، في كثير من البقاع والقبائل والعشائر والجماعات.

---

(١) انظر أحداث التاريخ الإسلامي ١: ٢١ - ٢٤ وتاريخ الطبري ٢: ٧٠ وتاريخ العرب قبل الإسلام ٢: ٣٨ - ٣٩ و٣: ١٩٤ - ١٩٨.

روي أن عمرو بن هند أراد أن يُظهِر سيادته على العرب قاطبة، فقال لجلسائه يومًا: هل تعلمون أن أحدًا من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أُمُّه أُمّي؟ فقالوا: لا، ما خلا عمرَو بن كلثوم التغلبيَّ. ثم ذكروا ما لأُمّه ليلى بنت مهلهل من النسب والاعتزاز. فاستزار الملكُ عَمرًا وأُمَّه مع وجوه أهل المملكة ليكذب مقولتهم، وطلب من أُمّه هو أن تنحِّي الخدم وتستخدم ليلى بالملاطفة.

فلما قالت لها: «ناوليني الطبق» أجابتها ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فألحّت عليها، فصرخت ليلى: واذُلّاهْ، يا لَتَغلِبَ. فنهض عمرُو بن كلثوم إلى سيف معلق قربه وضرب به رأس عمرِو بن هند، واستثار بني تغلبَ، فدارت الحرب بين الطرفين، وكانت المعارك والقتل والسبي والنهب، وقال في ذلك عمرو بن كلثوم بعض معلقته.[1] ثم قال أُفنون التغلبي:

لَعَمرُكَ، ما عَمرُو بنُ هِندٍ، وقَد دَعا لِتَخـدُمَ لَيـلَى أُمَّـهُ، بِمُوَفَّـقِ

وقد استمرت تلك الحروب بين الجماعتين، حتى جلا بنو تغلب من ديارهم إلى الشام. ثم أوقدتْ أنفتهم وكبرياء الحارث الغساني حربًا أُخرى. وذلك حين مر الملك الغسانيُّ ببني تغلب فلم يقدّموا له مظاهر الطاعة، فقامت المعارك بين الجانبين، واضطُر التغلبيون أن يعودوا إلى موطنهم في الجزيرة الفراتية.

وكذلك كان شأن العصبيات القبلية والدولية، تثير الحروب والغزوات بين المجموعات المتجاورة، للتسلط والاستعلاء، فيدوم التفاني عشرات السنوات بين الفرقاء المَعنيّة، ثم ينخرط فيها آخرون للصيد في الماء العكر والكسب والابتزاز والارتزاق. فقد تطاولت الأزمان على تلك العصبيات، حتى تجسدت في نفوس الأفراد بغضاء وشحناء وأحقادًا، وتوارث الأبناء والحفدة ذلك عن أسلافهم فكوّن فيهم شعورًا باطنيًّا، ومنطقًا عقليًّا يجدد القتال بعد القتال.

---

(١) شرح السبع الطوال للتبريزي ص ٢٦٧ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٨٤ ـ ٨٨٦. وانظر الجهاد والقتال ص ١٦ ـ ٣٠.

فالمرء الحاقد ينتظر من خصمه التقليدي هفوة عارضة، وإن لم تكن فالغِرّة الخاطفة، لينقض عليه ويُروي سُعار الضغينة والتعطش إلى البطش والانتقام. ولهذا كانت تندلع الحروب لأتفه الأسباب، وعندك منها ما تعرفه لدى العرب عن حرب البسوس، ومجازر داحس والغبراء، وأيام الفِجار... عشرات من الأيام والمعارك.

ثم إن النصر في موقعة أو حرب يكون عنه القتل والأسر والسلب للغنائم والذراري والرجال والسبي للنساء، فيتحصل من ذلك عبيد وإماء، ويتولد عنه ثارات وأحقاد جديدة تنتظر الانتقام. فإذا سنحت الفرصة قامت الفئة المغلوبة بشن الغارات وحروب الانتقام، لتكبيد العدو أضعاف ما ناله في جولته المتقدمة. وهكذا تتوالى الأيام دوالَيك، متكاثرة تحمل في طياتها سلاسل من الوقائع والتفاني والبلاء.

ويضاف إلى هذا هنا ما يكون من الخلافات الفردية وتنافس الزعماء والملوك والأباطرة. وبما أنه لم تكن ثمة سلطة عليا تملك أزمّة الجميع، وتوقف المعارك والتطاحن، وتقدم لكل ذي حق حقه، وتنال الباغي بالعقاب والمظلوم بالعوض والثواب، فإن الملاحم إذا نشبت استمرت وامتدت، حتى يفنى أحد الجانبين أو يجلو عن وطنه موليًا الأدبار.

والعصبية الدينية أمرها غير خفي عليك. فاختلاف العقائد والعبادات والمعبودات والشرائع والتوجهات، وانقسام أنصار الدين الواحد إلى مذاهب، كان لهما أثر كبير في المذابح والحروب بين فئات الأمم والشعوب، ثم ما عرفتَه عن ملاحم اليهود، وكذلك بينهم وبين النصارى في الشام واليمن، وما جرى في صفوف هؤلاء الآخيرِين أيضًا في الدولة البيزنطية.

ذلك أن تعاليم «التُّلمود» وضعت اليهود في واد وسائرَ الأمم في واد

آخر، وهم حرب عليها. وقد جاءت تفصيلات هذا التقسيم[1] في الأصحاح ٢٠ من سفر التثنية: فإن أجاب الناس إلى الصلح فكلهم ملك لليهود مستعبد بالتسخير، وإلّا فالقتل بالسيف لجميع الذكور. ثم إنّ النساء والأطفال وكل ما عندهم غنيمة قدمها الرب إلى بني إسرائيل. وإنما يختص هذا الحكم بالبلاد البعيدة جدًّا. أما المدن القريبة من شعب الله المختار، كالحِثّيِّين والعموريِّين والكنعانيِّين والفرزيِّين والحويِّين واليبوسيِّين، فلا يجوز أن يبقى منهم نَسَمةٌ ما، لأن الرب جعلهم كالقُربان محرّمين تحريمًا مطلقًا.

وقد غزت هذه الروح العصبية العدوانية شعوب العالم القديم، فأصبح للحروب بين الأمم، كالروم والفرس مثلًا، ذيول دينية مشهورة. إذ كل من القومين يرى الآخر كافرًا مخاصمًا له في العقيدة والعبادة والتشريع، ويثير هذه العصبية المتأصلة بين أفراد شعبه، لتحقيق أهدافه السياسية. وعلى هذا فإن الملك أو الإمبراطور يلقّب نفسه بحامي الديانة التي يصطبغ بها الشعب.

وبعض هذا هو الذي حمل ملك اليمن ذا نُواس على اضطهاد النصارى قبل الإسلام، فيقتّل الكثير من أهل نجران. الأمر الذي احتج به ملك الحبشة حينذاك لنجدة أتباع دينه، فدارت المعارك الضَّروس، وانتهت برأس ذي نواس، وخضوع اليمن لسلطان الأحباش، ثم استغاثة سيف بن ذي يزن بالفرس.

وقد تضيق البلاد بمن فيها، لمحْل أو كارثة أو طغيان أو جشع في الموارد والارتزاق، ويكون الزحف للعيش والاستيطان، يتولد عنه هجرة إلى بلاد الآخرين وتقتيل أو إفناء وإبادة. فالتفاوت الحضاري والمعيشي شاسع بين الأمم والممالك والقبائل، لضعف الصلات وعسر المواصلات، والجماعاتُ المتخلفة لا ترضى بأوضاعها، وتطمح إلى ما تسمع من مظاهر الخصب والنعيم والترف والأبّهة في مواطن الازدهار والحضارات.

---

(١) انظر فقه السنة ٣: ٧ والإصحاح ٢٣ من سفر الخروج.

وهذه الأوضاع المتفاوتة المتناقضة، بالإضافة إلى قساوة الظروف الحيوية والحاجات المستعصية، تثير طموح المتوحشين وجشعهم وأطماعهم، لاجتياح ما حولهم أو يبعد عنهم من الممالك والإمارات، وتأمين مواطئ أقدام لهم، وموطنٍ يَلقون فيه الراحة والرفاهية والتملك والسيادة. ولا بد أن يتولد قبل ذلك مذابح وملاحم وفناء وتدمير.

وكثيرًا ما سجل التاريخ اندفاع الشعوب البدائية على المجاور والقصيّ لمثل ذلك، نحو ما جرى من هجوم الصقالبة والبلغار في غزوهم لمناطق كثيرة من بيزنطة، وانسياح عرب اليمن لانهيار سد مأرب، وتشرد بني إسرائيل حتى اكتسحوا ديار العماليق العرب في الشام وأبادوا جموعهم، وغزْو جحافل أبناء الغرب منذ قرون بالإبادات الجماعية لقارة الهنود الحمر، المسماة الآن بالقارة الأمريكية كذبًا وافتراء.

والمطامع الاقتصادية كانت تسيّر كثيرًا من المعارك الطاحنة. فامتلاك الطرق التجارية والموارد الحيوية والزراعية الضخمة يشكل صراعًا بين الممالك والدول، على غرار ما كان بين الفرس والروم للصراع على بلاد العراق والشام. فهذه الديار كانت في ذلك العصر ممرًّا اقتصاديًّا خطيرًا، تتوزع فيه سبل التجارة البرية والمائية، والثغور البحرية المتحكمة بمصاير البضائع والمتبضعين.

فلا غرو أن يطول العراك في هذه البقاع بين الدولتين المجاورتين، لينتصر الروم حينًا فيتحكموا في حركات القوافل، ويضيّقوا الخناق على العدو، ثم تعود الكرة إلى الفرس ليقطعوا التجارة عن الروم، ويفرضوا ما يشاؤون من الرسوم على البضائع والمسالك والأسواق والمتاجر. هكذا عاشت ديار العرب في تلك البقاع، بين تسلط الفرس وسيطرة الروم، من دون ذنب اقترفته، إلّا أنها مركز خطير الأهمية في التجارة الدولية، وأهلها مطايا للقوي المستبد.

يضاف إلى ذلك كله ما كان يعرف بالرياضة القومية أو الوطنية، مع اختبار السلاح والذخائر والمهارات القتالية. فالشعوب والأفراد تجد من الواجب عليها أن تكون دائمًا في استعداد لمواجهة العدوان بالقوة والعتاد والقدرة الحربية، ولا بد من ممارسة ذلك دائمًا، وتجربته محليًّا بالتدرب الخُلّبي، وخارجيًّا بالغزوات تلو الغزوات، لتستمر القدرات على مستوياتها العليا، وتَثبت صلاحية الإمكانات والمهارات والعُدد والمُعَدّات، وتبقى النفوس على تأهب لرد المعتدين، أو الزحف على المجاورين والأبعدين.

تلك هي أبرز الدوافع الحيوية للحروب في العالَم، كانت قبل الإسلام الحنيف في جاهلية الأمم،، بين الدول والشعوب والقبائل والأفراد في الشرق والغرب والأنام الإنساني كله. وقد بُعثت هذه النزعات الخبيثة من جديد في القرون الثلاثة الأخيرة، للقضاء على الخلافة الإسلامية، وتفريق أُمتها ممالك وإمارات وإمبراطوريات ومحميات ومستشاريات.

وأمكن بعد حروب وفتن وخيانات محلية تحقق ذلك بسحق الشعوب، واجتياح البلاد والأوطان، وامتلاك الثروات ومنابع الخير، واصطناع الزعامات والحكام زورًا وبهتانًا بالمعاهدات المشبوهة، والتلويث الحضاري في بلبلة العقائد والألسنة والضمائر والشرائع والقيم والمعايير والأذواق والتفكير والتدبير والسلوك، وبلبلة الإبداع والعلوم والمعارف والبحث العلمي والأخلاق والأعمال والاقتصاد والتربية والتعليم.

وبذلك تكوّنت في كل قطر إسلامي عصابات دستورية وأُخرى غير دستورية، لتنشب المجازر بين الطرفين دائمًا، ويستمر تقتيل العباد وتدمير البلاد، وجرّها إلى التخلف والاستنامة للعبودية والامّحاق. وهو ما يسمى اليوم بالعَولمة أو التبويش.

أما الجهاد الإسلامي فقد حاز منه النبي ﷺ ذروته في أيام بِعثته كلها، حتى لقي حبيبه المولى - عز وجل - شهيدًا بسُمّيّةِ أكلة خيبر. بدأ جهاده في مكة المكرمة بالمقاومة السلمية بيانيًّا باللسان، إذ أُمر أن يصارع الشرك وصناديده بتبليغ القرآن وحجج الوحي الكريم: ﴿فلا تُطِعِ الكافِرِينَ، وجاهِدْهُم بِهِ جِهادًا كَبِيرًا﴾.[١]

ولما انتهى العهد المكي بالهجرة المباركة، وصار للإسلام منزلة في المدينة المنورة، انضاف إلى المشركين بغي المنافقين، فجاء الأمر السماوي أن يُقاوَم هؤلاء أيضًا باللسان والغلظة،[٢] لأن معالجة دسائسهم وقبائحم ومكايدهم أصعب وأشد من مواجهة الكافرين المعارضين، المعتدين بالقتل والتعذيب والتشريد وسلب الممتلكات.

ثم استقر تأسيس الدولة النبوية في المدينة المشرَّفة، فكان أن تألب عليها جميع المحيطين بهذه الدولة الفتية، من وثنيين ومشركين ونصارى ويهود ومجوس وملحدين، بكافة الجنسيات والألوان والمعتقدات، إضافة إلى افتئات المنافقين وخبائثهم. وبذلك تواصلت مؤامرات الأعداء وإثارة الفتن والحروب، خوف استمرار قوة الحنيفية وتهديدها مصالحَهم الاستبدادية في مواطنهم، وما لهم من النفوذ السياسي أو الاقتصادي، يسيطرون عليه بين البلاد والشعوب المستضعفة، فكانت مرحلة جديدة من الجهاد.

ولذلك انطلقت شرارة المقاومة الحربية هذه مع مشركي مكة المكرمة أولًا، وتشعبت حتى استغرقت الجزيرة العربية بما فيها من القبائل، ثم دخلت فيها بلاد الشام والعراق وشماليّ إفريقية وشرقيّها، بجيوش الدول الكبرى

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الفرقان. وانظر زاد المعاد ٣: ٥.

(٢) الآية ٣٧ من سورة التوبة.

المسيطرة على الشعوب العربية هناك، وهؤلاء المحكومين بالقوة لا ناقة لهم في ذلك ولا جمل، إلّا أنهم همل في نطاق النفوذ للقوي المستبد. وأخيرًا انضمت دول الشرق والغرب والشمال والجنوب في العصر الحديث، للإجهاز على الأمة الإسلامية، وابتزاز أوطانها وما فيها من الثروات والنتاج الكريم.

تلك الموجات التاريخية الضخمة الغامرة، من المقاومة الحربية، انبعثت دفقاتها من مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، فاكتسحت الزعامات الخرافية الهلامية الرجراجة بين القبائل والجماعات داخل الجزيرة العربية، ثم زلزلت العروش العظمى من أقاصي الشرق إلى أوساط الغرب.

فقد هَزَمت أعظم دولتين في ذلك العصر: حطمت دولة الفرس نهائيًّا بما فيها من قيادات وزعامات، ودفعت الهِرَقلية البيزنطية شمالًا، حتى حصرتها في الجناح الغربي من بلادها. بل إن هذا الجناح نفسه لم يسلم من شظايا معارك الفتح العظيم، إذ تعرضت إيطالية وصِقِلِّية والأندلس والقسطنطينية أنفسها للزحف العربي الإسلامي، فدخل بعضها تحت السيادة، أو بقي في أخطار تهدده بالفناء والاضمحلال.

كانت تلك المقاومات الحربية الإسلامية القديمة والمتوسطة تسجَّل في المصادر التاريخية بروايات مختلفة، مع بيان بعض أسبابها وأحداثها ونتائجها، وما حيك حولها وفيها من المؤامرات لإيقادها واستمرارها، وإضعاف العَظَمة التي تتصاعد كفاياتها، وتتطاول انتصاراتها بكل حزم وتوفيق من المولى، عز وجل. وفي تسجيلها ذلك نُثر بين الأخبار بعض دوافع الوقائع ومسوغاتها وطوابع جريانها، وما كان لها من آثار عظيمة في تاريخ الحضارة الإنسانية، وتحرير الإنسان من ظلم شياطين الإنس والجان.

ولمّا تعرض رجالات العَولمة والاستعمار وأنصارهم وصنائعهم المستغربون

للحديث، عن هذه المقاومة الجهادية في الإسلام، حاروا في تعليلها واتخذوا لذلك طرائق متباينة، لاختلافهم في المقاييس والمعايير، ولكنهم اتفقوا على شيء واحد، هو الظلم الفادح لما تعرضوا له من الحدَث العظيم.

فقد بعثر جميعهم أحداث التاريخ وحرفوا توجهاتها الصالحة، فجعلوا تلك المقاومات الحربية استمرارًا للغزو الجاهلي، وسوّدوا حقائقها بأنظارهم الخبيثة المفسدة، ثم وصموا جهاد المسلمين بكثير مما ذكرناه قبلُ عن الغزو العدواني، ليجعلوه مثله في نزعات البغي والتكسب والاستعلاء.

يل لقد أضافوا بعد ذلك لمسات متميزة بعضُها للتشهير والتشنيع، من مثل: تصريف الطاقات الكامنة، وتوسيع رقعة ديار الإسلام، وسلب الغنائم وفرض الجزية، واستغلال الشعوب للعيش على حسابها، والمنافسة بين الخلفاء والأمراء والولاة والقادة، والبعضُ الآخر للتسويغ والتعذير، كتحرير الشعوب المضطهدة في الأندلس، والدفاع عن الحرية الدينية في بلاد الشام، ونشر دعوة الإسلام وجهاد الكفار من شرك وضلال وانحراف...

ثم جاء وريثهم الشرعي والجدّ الروحي لطه حسين عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢) ـ وهو من سلالة الصَّفَويِّين[1] أعداء الخلافة في التاريخ وربيبُ السياسة الإيطالية ـ[2] فقد زعم أن العرب لم يحاربوا باسم الجهاد منذ سبعة

(١) الصفويون أسرة إيرانية، حاربت الخلافة الإسلامية كثيرًا، وأحيانًا بمساعدة الإفرنج، عدة قرون، ثم تفرق أبناؤها، وكانت منهم أسرة الكواكبي، نزلت في مدينة حلب تحمل معها حقد القرون الماضية على الخلافة. انظر تاريخ الدول الإسلامية ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦.

(٢) انظر إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٧: ٤٨٠ و ٤٨٢ والرحالة كاف عبد الرحمن الكواكبي ص ٤٢ و ١٠١ وعبد الرحمن الكواكبي لقدري القلعجي ص ٣٠ و ٤١ ـ ٤٣ والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١: ٢٨٤ وأم القرى ص٢١٣ وزعماء الإصلاح الإسلامي لأحمد أمين وص ٩ ـ ١٠ من كتابنا: ولا يزالون يقاتلونكم في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان.

قرون، وأن الحروب التي شنتها دول الغرب على المسلمين كانت ردًّا لغارات التتر على شمالي أوربة، وغارات العثمانيين العدوانية على شرقيها. فهؤلاء جعلوا الجهاد، كما قال، وسيلة إلى الفتوح وتوسعة لمجالها.

فهي عنده ليست من الجهاد، بل عمليات همجية ملحقة بغارات البرابرة الشماليين. ذلك أن العثمانيين، كما يقول، أرادوا التلاعب السياسي بالدين لقيادة الناس إلى مآربهم بسهولة، وإرهاب أوربة باسم الخلافة والرأي العامّ، فأفنوُا الأُمة الإسلامية بفتوحات شرقي أوربة ومدافعة تلك الدول، وتخلوا عن المسلمين في الأندلس و الهند وإفريقية والصين للطامعين مساهلة.(١)

ثم لم يكتف بهذه الأباطيل، وإنما انطلق مع مقاصد الأوربيين والصِّهيَونية، وتطاول إلى الخلافة العثمانية، فزعم أنها غررت بالمسلمين وجلبت لهم الضرر ولم تنفعهم بشيء في عز شبابها. بل لقد افترى على السلاطين العثمانيين أنهم تركوا الدين تعبث به الأهواء بلا مرجع، وتركوا المسلمين صُمًّا بُكمًا عُميًا بلا مرشد، وسعوا إلى انقراض ١٥ دولة إسلامية، وخصَّ محمدًا الثاني الفاتح ﷺ بأنه تواطأ مع زعماء الكفر على تنصير ٥ ملايين من مسلمي الأندلس أو تقتيلهم.(٢)

والناظر في هذه وتلك وتالك التُّرّهات، من المقولات والتعليلات والدوافع، يجدها قائمة على ما ذكرناه من العَولمة القديمة، والتلويث الحضاري وبلبلة الفكر والضمير والحياة، وتشويه التاريخ الإسلامي الكريم. نعم قد ترى في بعض المواقف الحربية المذكورة ما يمكن أن تُلوى عنقه، ليُدخل في حيز عنصر مما ذُكر، ولكن النظر المنصف يجد مذهبًا آخر في التفسير والتعليل والبيان.

---

(١) أم القرى ص ٢١٠ - ٢١٣ وتركية ميدان الصراع بين الشرق والغرب ص ١٣٢.

(٢) أم القرى ص ٢١٠ - ٢١١ وتركية ميدان الصراع بين الشرق والغرب ص ١٣١ و١٢٤- ١٣٥.

أضف إلى هذا أن هاتيك الأحداث بمجموعها كان لها الظروف الخاصة البعيدة عن المنظور التاريخي المدوَّن، إذ لم يسجل إلّا بعضها كما ذكرنا، وفيها أيضًا ما هو موجِّه للأحداث والوقائع والأيام، يفرض الأساليب والتصرفات والأعمال، ولا يتيسر ظهوره للبحث الموضوعي والدرس العلمي المطلوب.

فقد طوت صفحات التاريخ كثيرًا مما يفسّر الأحداث ويقرّب ما هو بعيد خفي، وجاءتنا مقطعات من الروايات ليس بينها وحدة كاملة أو انسجام مفيد، وبعضها صاغته نفوس لا نعرف مدى صدقها وإخلاصها في البيان. ثم إن لكل حدث أسبابًا كثيرة، يتعذر تمييز المباشر منها عن غير المباشر، ولا سيما فيما مضى عليه قرون وقرون، في أصقاع نائية متباعدة.

ونحن - المسلمين - إذا أردنا أن نعرف الأسباب والدوافع الحقيقية، لهذه الفتوحات المباركة، فإن علينا أن نطرد من مخيلتنا تلك التُّرّهات التي أوحتها أبحاث المستشرقين وربائبهم من المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين، وفرضتها علينا باسم البحث العلمي المجرد والعَولمة الخبيثة القاهرة.

فإذا استطعنا أن نقذف تلك الصور الزائفة والمعلومات المشوهة، عن أفكارنا وتدبُّرنا، فإن بمكنتنا أن ندرس الموضوع مهتدين إلى الصواب، ونخرج منه بالحقائق الدامغة، أو بما هو أقرب إلى الحقيقة من تلك العَولمات الحاقدة التي أملاها التعصب الديني القديم والجشع السياسي اللئيم، والنُّعرات القومية والصفوية والوطنية الخبيثة، وأحقاد القرون الماضية من هزائم الكفر أمام الزحف الإيماني الكريم.

لكننا لن نخوض مع تلك الحروب، في درس الأسباب والدوافع، لأنها ليست من صلب موضوعنا، ولها رجالاتها المؤمنون المخلصون المتخصصون، ويكفينا أن نبحث مشروعية الجهاد الإسلامي، فيما قرره الدين الحنيف، وأن

نحلل ما كان تنفيذًا عمليًّا لتلك المشروعية في حياة النبوة. أعني المغازي المطهرة التي جرت تطبيقًا واعيًا، ودروسًا تشريعية، تُفهَم بها النصوص والأحكام، وتكون نبراسًا لجميع المسلمين، قادة وجنودًا وشعوبًا وقبائل.

أما تصرفات القيادات المتعدّدة في التاريخ فلكل ظروفها الخاصة والعامة، واجتهاداتها الفردية أو الجماعية، وليس الإسلام مسؤولًا عنها، إلّا فيما وافق أصوله ومبادئه. بل ربما كان لبعض هؤلاء وجهة نظر توافق الأحكام المشروعة المعروفة، أو استمدها من المذهب الفقهي الذي حوله حينئذ ولم يصل إلينا تفصيله، وكان على وفق الشريعة الغراء، إذ لكل حدث مسوّغاته وخصائصه، ولا يجوز التعميم المطلق في الحكم ليشمل جميع الأحداث والوقائع.

المفروض عقلًا وعُرفًا في هذا الجميع أن يكون موافقًا للنهج الشرعي النظري، وللتطبيق النبوي العملي. فإن ظهر في بعضه خلاف لذلك فلربما كان في مطاويه ما يفسر هذا الخلاف، ويردّ مضمونه إلى الجادة المشروعة، أو ربما كان تطبيقًا لنظرة فقهية لا نعرف مضمونها ولا مداها في حيز النص والتنفيذ، لأن المذاهب كثيرة بين العلماء، ثبَتَ المشهور منها فيما وصل إلينا، وذهب الباقي مع أصحابه العظام.

ثم لا ننسَ أن كل قيادي في تلك المعارك الجهادية، خليفةً كان أو أميرًا أو واليًا أو مجنّدًا، هو حافظ للقرآن الكريم والسُّـنّة النبوية المشرفة والأصول والفروع الفقهية وتاريخ العصر الراشدي الناصع، خلافًا لقيادات العرب والمسلمين المعاصرة لنا، ويصدر عن ذلك بفِقه وخبرة وإيمان وإخلاص، للعقيدة والشريعة ومصلحة المسلمين والإسلام في الحاضر والمستقبل. وإذا سها عن شيء من الأصول والأحكام التشريعية المعهودة نبّهه وسدّده مرافقوه، وهم في الإخلاص والحرص مثله أو أشد.

كلهم يعلم أن القتال، بعد انتهاء الوثنية العربية، هو مقاومة للمعتدي أو المتجهز للحرب أو الناقض للعهد أو الباغي بالردّة الفسادَ في الأرض. ثم يكون حكم سائر الناس كما جاء في النَّظم الكريم، أي: قول العزيز الحكيم[1]: ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقاتِلُوكُم في الدِّينِ، ولَم يُخرِجُوكُم مِن دِيارِكُم، أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطُوا إلَيهِم﴾. فالبرّ والعدل أصل في معاملتهم، أيًّا كان الدين أو الجنس أو الوطن.

إذ كثيرًا ما يصادف المسيرات الجهادية أقوام لا ناقة لهم في مناطق النفوذ ولا جمل يسالمون ويوادعون، وهؤلاء لهم الأمن والسلام وأفضل المعاملات الإنسانية. وقد جاء في حديث معاوية ﵁[2]: «لا تبعَثُوا الرّابِضِينَ، التُّركَ والحَبَشَةَ»، أي: المقيمين الساكنين، لا تُهيّجوهم ما داموا لا يقصدونكم، كما جاء في حديث آخر: «دَعُوا الحَبَشَةَ ما وَدَعُوكُم، واترُكُوا التُّركَ ما تَرَكُوكُم»[3].

والأصل في هذا هو قول الله العزيز الحكيم: ﴿وقاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُم، ولا تَعتَدُوا. إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الـمُعتَدِينَ﴾، ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلمِ فاجنَحْ لَها، وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ. إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾.[4] فالمشروعية واضحة المعالم في النصوص القرآنية وسُنّة رسول الله ﷺ، ولا حاجة بعدُ إلى افتراضات وتكهنات ومزاعم، وخلاف ونزاع وزعزعة للأُصول والفروع والأعلام ومسيرات المقاومة الجهادية.

---

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة. وانظر تفسير الجلالين الميسر ص ٥٥٠ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٩٤٥.

(٢) النهاية واللسان والتاج (ربض).

(٣) رواه الإمام أحمد والنسائي وأبو داود وابن أبي شيبة، بخلاف يسير في اللفظ.

(٤) الآيتان: ١٩٠ من سورة البقرة و ٦١ من سورة الأنفال.

ثم إن المراد بالفريقين هنا في الحديثين هم الوثنيون: الترك ومَن شابههم، والنصارى: الروم ومَن ماثلهم، أي: غير المسلمين وغير مشركي العرب. أما يهود بني إسرائيل فما كان لهم ولن يكون أبدًا أن يدَعوا المؤمنين أو يتركوا الكيد لهم في كل زمان أو مكان، لأنهم شياطين البشر، كما جاء[1] على لسان المسيح ﷺ وكما سمَّيتُهم منذ نصف قرن، خُلقوا للفساد والإفساد، وعدوُّهم الأول هو الإسلام والمسلمون بحق، ثم سائر الأمم المخالفة لوثنية اليهود.

الجهاد الإسلامي:

انبثق الدين الحنيف ختامًا للعصر الجاهلي، ولكن أحمال ذلك العصر من الجنايات والمجازر والحروب والغزوات كانت تستعر، وتشمل جميع أصقاع العالم وأُممه، وتنشر ذيولها بامتداد على مر الأيام واختلاف الأوطان والأجناس والأديان، ولا تترك للناس بارقة خير أو طمأنينة أو استقرار.

حسبك أن تعلم أن مولد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في عام الفيل،[2] إذ جاء الأحباش مع فيلهم، ليهدموا الكعبة ويذلّوا العرب جميعًا، فجرى فيهم قضاء الله بالفناءِ على بَكرة أبيهم، وجعلِهم كعصف مأكول. ثم كانت حرب الفِجار في فتوّته ﷺ أيام الأشهر الحرام بين قريش وهَوازن وقيس عيلان، فحضرها وكان يُنبّل أعمامه، أي: يردّ عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ويناولهم إياها.[3] وفي أوائل بِعثته العظيمة حصل انتصار العرب على الفرس

---

(١) في الإصحاح ٨ من إنجيل يوحنى ص ٥٣ أن المسيح عليه السلام قال لليهود: أنتم من أب هو إبليس، وشهواتِ أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالًا للناس من البدء، ولم يثبُت في الحق، لأنه ليس فيه حق.

(٢) تفسير ابن كثير ٤: ٥٥٢.

(٣) السيرة ١: ١٨٦ والعقد الفريد ٣: ٣٦٨ والكامل في التاريخ ١: ٥٨٨ ـ ٥٩٥.

في ذي قار، وبلّغ أصحابَه به، ورُوي عنه أنه قال: «اليَومُ أوَّلُ يَومٍ، انتَصَفَتْ فِيهِ العَرَبُ مِنَ العَجَمِ، وبي نُصِرُوا».[1]

هذا ما كان في الأرض العربية. فما قولك فيما هو حولها أو قريب منها أو بعيد عنها من أقاصي المعمورة؟ تلك سُنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنته تبديلًا ولا تحويلًا. وإنك لترى تحقيق ذلك فيما قص علينا المولى - عز وجل - من اقتتال الأمم المتقدمة، ثم قال: ﴿ولَو شاءَ اللهُ ما اقتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعدِهِم... ولَو شاءَ اللهُ ما اقتَتَلُوا، ولكِنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يُرِيدُ﴾.[2]

وقد بحث ذلك ابن خلدون، وذكر أن الحرب أمر طبيعي في البشر، لا تخلو عنه أُمّة ولا جيل، وسببه الانتقام أو العدوان أو الغضب لدين الله أو للمُلك. فالأول بين القبائل المتجاورة، والثاني بين الأمم المتوحشة، والثالث هو المسمَّى في الشريعة بالجهاد، والرابع ما تقوم به الدولة مع الخارجين عليها. وعلى هذا فالأولان حرب بغي وفساد، والأخيران مقاومة العدوان لتحقيق الجهاد والعدل والأمن.[3]

فالحروب إذًا منها الخير النافع لنصرة دين الله أو إخماد الفتن - وهو القليل واسمه الجهاد في سبيل الله - ومنها الظلم والفساد، وهو الكثير في كل زمان ومكان، واسمه البغي والعدوان. ولكي نحكم على وقائع تاريخية من هذه وتلك، يتوجب علينا أن نتجرد من مفاهيمنا المعاصرة المستحدثة، ونستحضر الحِقب والظروف التي تعاصرها وتطيف بها، والمفاهيم والقيم التي كانت تسود حينذاك. وإلّا كنا ظالمين في الأحكام، ومخطئين في البحث والنتائج.

---

(١) انظر العقد الفريد ٣: ٣٧٤ والأغاني ٢: ٩٧ ومعجم البلدان ٧: ٨.

(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) المقدمة ص ٢٢٦. والجهاد الحربي هو غير الروحي والاجتماعي، أو المجاهدة بالدعوة والمحاورة والتوجيه. انظر ص ١٩ - ٢٢ و ٤٧ من الجهاد في الإسلام.

وإنما نستطيع تفهم حقيقة الجهاد، إذا أدركنا أصول الدعوة والنهج الذي رُسم لها. فقد بدأت مقاومة سِرّيّة تتجنب صدام الأعداء والمخالفين، ولمّا ظهرت جهرًا أصبح أتباعها من رجال ونساء وأطفال دعاة إليها بالوعظ والتوجيه والقدوة الحسنة والصبر، يتحملون الظلم والعدوان وأمرّ العذاب والتقتيل والتشريد والنفي والتهجير، حفاظًا على سلامة المجتمع واستقراره. وكانوا كلما اشتكوا إلى الرسول الكريم ﷺ، منتظرين منه السماح لهم بالمواجهة القتالية، جاءهم جوابه الكريم: اصبروا. فإني لم أُومَر بالقتال.(١)

واستمرت هذه الحال من المقاومة السلمية في مكة المكرمة، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة، بل إن المشركين منعوا المهاجرين أن يرحلوا، ولما نجا بعضهم منعوهم أن يحملوا معهم الأهل والأموال. فلما أراد صهيب الهجرة خرجوا يمانعونه، فقال لهم: أرأيتم إن تركتُ مالي تُخلُّون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم. فجعل لهم ماله أجمع.(٢)

وفي مستهل العهد المدني نشأت الدولة الإسلامية، فعُقدت معاهدة مسالمة ونصرة لأهل يثرب، تحفظ سلامة الجميع وتبيّن أساليب المعاملة بالعدل، فكان للعرب مسلمين ومشركين ويهود حقوق واحدة. أما يهود بني إسرائيل(٣) فهم لاجئون في الجوار، عاهدوا الدولة الفتية ورعاياها على المسالمة والوفاق، لا يقاتلون أهل المدينة، ولا يقاتلون معهم إلّا إذا هوجمتْ.

---

(١) المفصل في تفسير القرآن العظيم ص ١٢٤٠ والسيرة ١: ٤٦٧ والفتح القدير ١: ٢٨٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٣: ٢٢٧ - ٢٢٨. وانظر السيرة ١: ٤٦٩.

(٣) كثيرًا ما أخطأ الباحثون، فجعلوا عهد هؤلاء الإسرائيليين كالعرب، فيجب أن يوضح للناس. انظر الوثائق السياسية للعهد النبوي ص ٤١ - ٤٧ وتفسير البغوي ٤: ٣١٣ وتفسير الرازي ١٠: ٥٠١ وأسباب النزول للواحدي ص ٤٤١ وتفسير الجلالين الميسر ص ٥٤٥ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٩٣٠ والسيرة ٢: ١٩٠ و ٢٢٠ و ٤٧.

وكل هذا يعني أن الدعوة القرآنية ترى السلام والمسالمة هما القاعدة الأصيلة لحياة الأُمّة، في مجتمعها الخاص وما حولها من الجوار والمجتمع الدولي العام، وأن الحرب استثناء تبيحه أو توجبه ظروف طارئة من قِبل الآخَرين، لا يكون بغيرها استقرار وعدل وأمان.

فالدين الإسلامي(١) ينكر الحروب التي تثيرها النُّعرة العنصرية الخبيثة لأن الناس من أصل واحد، أو تهيجها العصبية الدينية لأنه لا إكراه في الدين، أو توجهها المطامع والمكاسب لأنه قد حُرِّم السلب والنهب والغصب، أو تسببها الأمجاد الزائفة والدوافع الشخصية لأنها تجانب الإخلاص لله، و «مَن قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمةُ اللهِ هِيَ العُليا فهُوَ في سَبِيلِ اللهِ».(٢)

وإنما يكون ذلك القتال الشرعي عندما تقوم الدولة الإسلامية، وتدعو الناس بالحكمة لإنقاذهم من الكفر أو طغيان المستبدين، ويسعى الآخرون لحربها وإثارة الفتن فيها، أو يمنعون بالقوة والسلاح وصول الدعوة إلى بلادهم، أو يظلمون المسلمين المستضعفين عندهم. إذا حصل بعض هذا منهم أو من بعضهم فهم المعتدون، ومجابهتهم بما يناسب جرائمهم أمر شرعي واجب، لتقرير الصلاح والعدالة والحرية القويمة بكامل صورها. فهو واجبٌ مقاومةً بالسلاح، حتى لو أن المظلومين لم يقوموا بشيء من ذلك، لأن القوة هي في أيدي الأُمّة الإسلامية، وليست ميسّرة لهؤلاء المنكوبين.

فإذا تحقق ذلك التحرير وزال افتتان الناس وإذلالهم والعدوان على حقوقهم، ورفع المخاصمون شعار المسالمة، وجب وضع السلاح والمقابلة

---

(١) انظر السلام العالمي والإسلام ص ١٨ ـ ٢٣ وسيرة عمر بن الخطاب ص ١٠٨ ـ ١٠٩ والعلاقات الدولية في الإسلام ص ١٢٩ ومجلة الحضارة الإسلامية ٩: ٤: ٤٥ ـ ٤٦ والجهاد والقتال ص ٥٥٧ ـ ٨٣٠.

(٢) الأحاديث: ١٢٣ و ٢٦٥٥ و ٢٩٥٨ و ٧٠٢٠ في البخاري و١٩٠٤ في مسلم.

بالمثل، كما جاء في سورة «الأنفال» التي نزلت في أعقاب غزوة بدر[1]: ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلمِ فاجنَحْ لَها، وتَوَكَّلْ علَى اللهِ﴾.

أما إذا فُقِدَتِ الدولة الإسلامية، ولم يكن للمسلمين إمام أو خليفة يعلن الحرب ويقودها، ثم غزا ديارَهم قوم من الأعداء، أو قاربها مهدّدًا ولم يدخلها،[2] أو اغتصب بعض حقوقهم، فكل مسلم هو إمام نفسه، ذكرًا كان أو أُنثى، شيخًا كان أو طفلًا، يجابه العدوان بجميع وسائل المقاومة والجهاد. إنه هو القائد والجندي، وهو السلاح والعتاد والبذل والتضحية، يتفجر في وجوه الغزاة أو المغتصبين بدياره وديارهم، حتى تَمَّحق كل مظاهر البطش والطغيان، ويعود للمسلمين والإسلام كامل الحرية والكرامة والعزة والاستقلال.

فإن قلتَ: إن بعض المسلمين يرون من مذهبهم أنه لا يكون جهاد الأعداء المغيرين، إذا فُقد الإمام، ولا بد من تعطيلِ المقاومة الحربية، والتربصِ والانتظار حتى يظهر من له الحق أن يعلن الحرب. فكيف توجبُ خلافهم؟ إن قلت هذا قلنا: ذلك أصل عندهم وهم يلزِمون أنفسهم إياه. أما نحن فلسنا ملزمين الأخذ برأيهم. بل إنهم خالفوه بأنفسهم غير مرة في الظروف العصيبة الطارئة، كالذي جرى قريبًا في ثورتهم على الحاكم المستبد المستنيم للاستعمار، دون أن يكون لهم إمام شرعي. وأظهر من هذا مشاركتهم في مقاومة بعضهم للتتر، بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم. فالأمر كما ترى هو من باب «الصِّيال»، أي: أن يَعتدي على المسلم من يريد قتله أو سلب ماله أوانتهاك عرضه وكرامته. والدفاع حينذاك واجب محتم وفرض عَين.

---

(١) الآية ٦١ من سورة الأنفال. وانظر تفسير الطبري ٢: ٢٧٠ والسيرة ١: ٦٦٦ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٣٣ والأم ص ٧٥٩ وفتح القدير ١: ٢٨٢ - ٢٨٤.

(٢) تفسير القرطبي ٨: ١٥١ - ١٥٢ ومشارع الأشواق ص ١٠٣.

والحكم الشرعي في هذه الظروف محمول على الإمامة في الصلاة. فالمسلمون يقيمونها جماعة خلف ما يتيسر لهم ممن يُقتدى به، حتى لو وُجد اثنان فقط كانت الجماعة وأحدهما هو الإمام. ثم إذا اضطُرّ واحد منهم أن ينفرد في مكان، ولم يجد من يأتم به، لم يجز له أن يترك الصلاة، بل صلى وحده على أنه هو الجماعة إمامًا ومقتديًا، والقاعدة في هذه الأحوال أن تصلي وحدك لأنك أنت الجماعة.(١)

هذه هي أصول الفكر الإسلامي في أوضاع الأفراد والشعوب والأمم، السلم قاعدة الحياة العامة، والحرب حدث طارئ لتحقيق خير جميع البشرية، لا خيرِ أُمّة أو جنس أو شعب أو جماعة أو فرد. تكون مشروعة لدفع الظلم والضُّر، وتقرير العدل في الأرض. وبذلك تصبح كلمة الله هي العليا في حياة الناس، ويبقى الجهاد في سبيل الله، لا في سبيل الشهوات وإرضاء الشيطان.

مشروعية الجهاد:

الأصل في الجهاد أنه بذل المجهود في حصول المقصود، من النفس أو الغَير. والمراد به هنا بذل الجُهد، أي: أقصى الطاقة،(٢) بالمال والنفس والعلم والوقت وجميع القدرات، لإعلاء دين الله ومقاومة المعتدين عليه، أو على دولته أو وطنه أو أفراده. وقد رأينا فيما مضى عرضًا مبسطًا لدوافع الحرب الإسلامية.

أما في التاريخ فقد كان محظورًا على المسلمين في مكة المكرّمة مواجهة العدو بالسلاح، كما ذكرنا قبلُ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة المشرّفة وبدأ تأسيس الدولة، فنزلت إباحة ذلك مع البشارة بالنصر، على ما كان من قتل

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) انظر تفسير النيسابوري ١١: ١٢٦ و شرح القسطلاني على البخاري ٥: ٣٠ وحاشية ابن عابدين ٣: ٣٣٦.

وظلم وسلب وتشريد[1]: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ، بأَنَّهُم ظُلِمُوا ـ وإِنَّ اللهَ علَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ ـ الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ...﴾.

كان هذا إذنًا بالمقاومة الحربية وإباحة لها، وليس فيه فرض أو إيجاب. ثم نزل الوحي في السَّنة الهجرية الثانية بعد بدر بفرض ذلك، مع وعظ المشركين من أهل مكة: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا: إن يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُم ما قَد سَلَفَ، وإن يَعُودُوا فقَد مَضَت سُنَّةُ الأَوَّلِينَ. وقاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ، ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ. فإنِ انتَهَوا فإنَّ اللهَ بما يَعمَلُون بَصِيرٌ﴾.[2]

فإذا ترك هؤلاء المشركون ماهم عليه من الكفر والمشاقّة والسلب والبغي والعدوان كانت المسالمة، وغفرت ذنوبهم الماضية بدخولهم في الإسلام، وإن عادوا إلى سابق عهدهم فالدائرة عليهم كما كانت في بدر، قتالًا لهم حتى تكون الطاعة والعبادة لله وحده، ولا يبقى منهم افتتان للمؤمنين أو محاربة لهم. وإذ ذاك فالله يعلم ما يكون فيهم من خير وشر، ويحاسَبون عليه آنيًّا أو بعد. هذا هو ما تقرره الآيات الكريمة. غير أن الفقهاء كان لهم خلاف في هذه الأحكام على مذهبين:

أما بعضهم ـ وهم القلة كما ذكر ابن تيمية ـ فيرون أن قتال[3] غير المسلمين من أهل الكتاب والمجوس وأمثالهم فرض طلبي، كما هو في مقاومة

(١) الآيات ٣٩ ـ ٤١ من سورة الحج. وانظر السيرة ١: ٤٦٧ والأم ص ٧٦٠ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٢٤٠.

(٢) الآيتان ٣٨ و ٣٩ من سورة الأنفال. وانظر السيرة ١: ٦٧١ ـ ٦٧٢.

(٣) مجموعة رسائل شيخ الإسلام ص ١١٥. وجاء عنه أيضًا في السياسة الشرعية ص ١١٧ ـ ١٢٥ وجوب قتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. فليحرَّر. أما العميل الإيطالي عبد الرحمن الكواكبي فزعم أنه ليس في علماء الإسلام مطلقًا من يجعل الجهاد لمحاربة غير المسلمين. أم القرى ص ٢١٣.

المشركين العرب أصلًا، وإن لم يبدؤوا بحرب، لأن الجهاد هو الدعوة إلى دين الله، وهم حرب عليه يقابَلون بالمِثل. فإن استجابوا للدعوة كان بها، وإلّا خُيِّروا بين القتال ودفع الجزية ليصيروا في حماية الدولة. فإذا اختاروا القتال كان الأسر والغنائم والسبي.

وقد استغل المستشرقون وربائبهم هذا القول، وغالَوا في توسعته وتعميقه، حتى ذكروا أن الجهاد مشروع لقتال من رفض الإسلام، ويجب على المسلم أن يعالن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم، وإن لم يعتدوا عليه، لأن محاربتهم واجب ديني.[(١)] وما زال هذا القول يتردد في كثير من المصنفات إلى الآن، وأنصارُ الاستشراق يدّعون أن المسلمين خرجوا للفتح، القرآنُ في يد كل منهم والسيف في الأُخرى لمحاربة الكُفّار أو غير المسلمين، حتى نشروا الدعوة، إذ القاعدة عندهم: يحارَب غيرُ المسلم حتّى يُسلم.

وأمّا جمهور الفقهاء، الأئمة مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وآخرون، فقد ذكر ابن تيمية أن الجهاد عندهم هو لمن يقاتِل المسلمين أو يعاديهم.[(٢)] إنه إذاً لمشركي قريش ومن لفَّ لِفَّها، الذين ناصبوا الدعوة

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٣: ٢٥٦ ودائرة المعارف الاستعمارية (الإسلامية) ١٢: ٤٣٢ - ٤٣٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ١: ٩٣ ودائرة المعارف للبستاني ٦: ٧٢ والجهاد والحقوق الدولية ص ١٢٢ وموسوعة المورد ١: ٤٠٠ والاستعمار الفرنسي في إفريقية السوداء ص ٤٨. وانظر ص ٣٢ - ٣٣ و ٣٨ و ٤٢ - ٤٧ من صور وعبر والجهاد والقتال ص ١٧٠٣ و ص ١١٥ - ١٢٠ من فكر جارودي بين المادية والإسلام.

(٢) مجموعة رسائل شيخ الإسلام ص ١١٥ والبحر المحيط ٢: ٢٨١ والناسخ والمنسوخ ٢: ٣٨٥. وانظر ص ٤٦ من الإسلام دين المستقبل وص ٤٧٢ - ٤٧٤ من كتاب منهجية الثورة الإسلامية و ص ١٨٤ - ١٨٥ من تفسير الجلالين الميسر وص ٦٦٢ - ٦٦٣من المفصل في تفسير القرآن الكريم.

عِداءهم، وقتّلوا وشرّدوا وسلبوا الحرية والأملاك والأهل والوطن.[1] أمّا غير هؤلاء فلهم المُوادعة، ما سمحوا بالدعوة إلى الإسلام في ديارهم، ولم يناصبوا المسلمين عداوة.

وكان لكل من فقهاء الفريقين حجج وأدلة تقتضي البسط والبيان. فأصحابُ التعميم الطلبي والإيجاب فيه يذكرون أن الإسلام دين الكافّة، فيجب عمومه للعالم كله بالقوة إن اقتضى الأمر، ويرون أن نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية، فينبغي لهم الاستمرار بالجهاد حتى يدخل الناس في حكم الإسلام مؤمنين أو أهلَ ذِمّـة.

وقد بدأ هذا العمل، كما يقول هؤلاء، في المدينة المنورة لرد عدوان أهل مكة واستبدادهم، ثم أُمر بالقتال دائمًا لكل من كفر بالإسلام لأنه يكون حربًا على المسلمين، ونُسخت أحكام المُوادعة، فاتسع موضوع الجهاد ليشمل البلاد المحيطة، وكانت مكاتبة حكامِها للدعوة، ثم زحفت الجيوش الإسلامية بعدُ إلى خارج الجزيرة، في البلدان المختلفة.[2]

هذا ما ذهب إليه أصحاب التعميم وإيجاب السيف فيه. أما جمهور الفقهاء فحجتهم ما يدل عليه الكتاب والسنّة والاعتبار. فأمر الله، بما يلي: ﴿وقاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَـكُم﴾،[3] ورد فيه «الذين يقاتلونكم»، وهو يعني تعليق الحكم بكونهم يقاتلوننا، أي: يبدؤون بالقتال وما يتعلق به من اعتداء أو تهديد عملي، فدل على أن هذا علة الأمر بالقتال.[4]

وهؤلاء هم المعتدون، أي: العرب في مكة والقبائل المحاربة للمسلمين،

---

(١) انظر أنساب الأشراف ١: ٢٦٩.

(٢) دائرة المعارف (الاستعمارية) وفتح القدير وشرحه ١: ٢٧٩ - ٢٨٢.

(٣) الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

(٤) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١١٥. وانظر ص ٣٦ - ٣٧ من صور وعبر.

وكل من أيّدهم أو ساعدهم بالعون ويسّر لهم سبل العدوان. ولذلك كان الجهاد لهم فرضًا، ولمن كان مثلهم أو مناصرًا أمثالهم مع التاريخ في العداوة والمحاربة والعون: ﴿وقاتِلُوا المُشرِكِينَ كافّةً، كما يُقاتِلُونَكُم كافّةً﴾.[1]

ومن ثَمَّ جُعل حكم الآية وما يشبهها حينئذ خاصًّا بالمشركين من العرب وأنصارهم أو من صار مثلهم في الاعتداء والبغي من أهل الكتاب وغيرهم. ولكن الإمام مالكًا ـ رحمه الله ـ ضيق حكم المقاومة الحربية، وجعله لمشركي مكة خاصة، إذ هم المنفردون باستمرار العدوان والبغي.[2]

وحين عرض الإمام الشافعي ﷺ لهذا الموضوع كان مذهبه كهؤلاء مع شيء من التفصيل، خلافًا لما هو شائع عنه. فقد ذَكر أن الآيات المَعنيّة بالجهاد نزلت في أهل مكة، وفُرض الجهاد لهم لأنهم البادؤون بالعدوان في مكة، ثم نُسخ ذلك القيد، وفُرض قتالهم بعد نقضهم هدنةَ الحُديبية، وإن لم يبدؤوا هم بحرب. وعلى ذلك استمر الحكم، فرضًا لجهاد المشركين من قريش ومن كان معهم، وحثًّا عليه في العسر واليسر، وأمرًا بالصبر وإنكارًا للتثاقل عنه ومذمةً للمتخلفين، وبشارة بمحبة الله للمجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم، للمسارعة إلى النفير ومجابهة الأعداء. ذلك هو الأصل في مشروعية المقاومة الحربية.

ولبيان الملابسات في تفريعات هذا الأصل من محاربة المشركين، فصّل الإمام الشافعي حالَ من يجب الجهاد عليه أو له حصرًا، والأعذارَ العارضة لبعض من فُرض عليه، وحكمَ زوال هذه الأعذار، ومكانةَ النساء والعبيد والأطفال من ذلك في سُنّة رسول الله، وحضورَ المنافقين معه أيضًا في المغازي الأُولى، ثم منْعَهم من الخروج مع المسلمين إلى حرب.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة. والمشركون هم الوثنيون ومن يجعل عيسى أو عُزيرًا ابنًا لله.

(٢) البحر المحيط ٢: ٢٨١ والناسخ والمنسوخ ٢: ٣٨٥. وانظر ص ١٨٤ ـ ١٨٥ من تفسير الجلالين الميسر وص ٦٦٢ - ٦٦٣من المفصل في تفسير القرآن الكريم.

أما غير المسلم، كافرًا كان أو كتابيًّا أو معاهدًا أو ذِمّيًّا، فليس له مشاركة المسلمين في جهادهم،[1] وإن أبدى حرصًا على نصرهم وهزيمة الأعداء، لأن حاله أخطر من المنافق، وهمه تفريق جماعة المسلمين. وقد ردّ النبي ﷺ يوم بدر كافرًا عن المشاركة، ولمّا أعلن إسلامه أجاز له الحرب معه، كما رفض الاستعانة باليهود أيضًا. وأمّا إغراء بعض الكفّار على بعض فلا محذور فيه.[2]

وأمّا الاستعانة بكافر لدلالة على عورة أو طريق من دون إسهام في الحرب فلا بأس فيها، شريطة أن يكون مِن الرعية تابعًا لمن يقوده خاضعًا له، لا مِن الأعداء المحاربين للمسلمين. وأمّا من يجب جهاده بعدُ فالمشركون العرب حتى يسلموا، الأقرب منهم فالأبعد، والأنكى منهم فالأضعف، ثم المعادي المحارِبُ من أهل الكتاب وغيرهم، حتى يسلم أو يعطي الجزية.[3]

هذان هما المذهبان الرئيسيان في مشروعية الجهاد. ويدخل فيهما قتال المتمردين على الدولة ـ وهم المواطنون الذين يحاربون الله في البلاد وخارجها ـ والمرتدين عن الإسلام ابتغاء مناهضته، فتجب مقاومة هؤلاء وأولئك ـ وهي العلة الأساسية عند الجمهور[4] لجهادهم وجهاد الكفرة من قُريش ـ حتى يعودوا إلى الاستسلام والإيمان والطاعة.

ثم تجد في رأي الخوارج وبعض غُلاة الباطنية أنه يكون الجهاد والقتل

---

(١) انظر الأحكام السلطانية ص ٥٥. أما ما أجازه أبو حنيفة في بعض هذا فمشروط بأن يكون حكم الإسلام هو الغالب، لا الكفر أو الشرك.

(٢) الحديث ١٨١٧ في مسلم وشرح النووي ٧: ٤٧٧ ـ ٤٨٧. وانظر المستدرك ٢: ١٢١ ـ ١٢٢ ومجمع الزوائد ٥: ٣٠٣ والمطالب العالية ٤: ٢٢٢ وشرح السير الكبير ص ١٤٢٣ والفتاوى الكبرى ٢: ٢٥ و٤: ٢٢٢.

(٣) الأم ص ٧٥٩ ـ ٧٦٨.

(٤) بداية المجتهد ١: ٣٦٩ ـ ٣٧٢ ومغني المحتاج ٤: ٢٣٤. وانظر المغني لابن قدامة ١٠: ٩٥ والأحكام السلطانية ص ٦٢.

للحاكم المخالف لمذهبهم، لأنه يُعَدّ من الكافرين المحاربين لله أيضًا. ولكن هذا الرأي فيه نظر إذ لا تجيز مخالفةُ المذهب قتالًا للحاكم، وإنما يجب ذلك حين يظهر منه كفر صُراح أو يرتد عن الإسلام. أما رأي أولئك فمبني على تكفير مَن عداهم، وهو تفردٌ بالمذهب والتشريع وانسياق مع باطل الأباطيل. وإلّا كان لحكمهم حروب داخلية لا تنتهي، إذ لا بد أن يوجد في الدولة من يخالفه الحاكم في مذهبه.

ثم ترى كثيرًا من الحنابلة قد عمم الجهاد ليشمل جميع المشركين العرب، وآخرون ضموا إليهم الملحدين عامة،[1] في حين أن الإمام الثوري كان يرى تعطيل الجهاد، وتابعه على ذلك بعض المعتزلة والبابية والبهائية، ثم جدد ذلك بشكل بعيد جدًّا عن الحقيقة صنائع الاستعمار في الهند وتركية وبلاد العرب والمسلمين عامّة.

وهم دعاة الأحمدية القاديانية، وعناصر حزب تركية الفتاة ومن سار على مخططاته الانهزامية من الأحزاب والجماعات والهيئات، وبعض الساسة المعاصرين لنا وسدنتهم من العرب والمسلمين، بأسماء وشعارات استسلامية ماسونية مشبوهة مارقة. والغاية من ذلك أن ننقاد للأعداء، يتحكمون في البلاد والثروات والعقائد والعبادات والأعراض والشرائع والضمائر والأذواق والألسنة والسلوك والعلم والعمل، تلويثًا وبلبلة وتخريبًا وتسييبًا وإفسادًا.

الكرامة الإنسانية:

أنت معي، بعد هذا كله، على أن مذهب الجمهور هو المحقِّق لروح الإسلام السمحة. فالأصل في هذه الرسالة المباركة هو كرامة الإنسان، وقد جاءت دعوة الدين الحنيف تثبت تلك الحقيقة الربانية الأبدية، إذ منح الله ـ

---

(١) الجهاد في الإسلام ص ٦٢.

عز وجل ـ هذا المخلوق مرتبة عالية في الكون[1]: ﴿ولَقَد كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ... وفَضَّلناهُم علَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنا تَفضِيلًا﴾.

فقد ميّزه الله بالعقل والتبصر، وأعطاه حق التدبر والإرادة والاختيار وتحمُّل المسؤولية في ذلك، وأسجد له الملائكة عندما أظهر قدرته المتفرد بها وتفوّق عليهم جميعًا في الاختبار. ولما أبى إبليس أن يسجد، لهذا المخلوق الكريم المتميز بالإنسانية، وبّخه المولى ـ جل ثناؤه ـ منكرًا ومذكّرًا بما لآدم من المنزلة الرفيعة[2]: ﴿يا إبلِيسُ، ما مَنَعَكَ أن تَسجُدَ لِما خَلَقتُ بِيَدَيَّ﴾؟

ومثل هذا التأسيس لشخصية آدم وأبنائه يقتضي ما يناسبه في ميادين العقيدة، من اعتماد على التفكر والتقدير، واختيار ما تهتدي إليه قدراته وإمكاناته. فلا بد من احترام الحرية، ضمن هذه الحدود، في تبليغ الدعوات وتيسير سبل قبولها واعتقادها، ولا يجوز أن يكون للحرب هنا مجال للفرض والإلزام، إذ يكون فيهما امتهان لهذه الكرامة التي أقرها الإسلام وأكدها في دستوره الأبدي غير مَرّة.

أجل لقد أقرها وأكدها في كثير من المواطن أيضًا. فقد دعا بوضوح مرارًا إلى رسالته بالحجة والدليل، وبشّر بكشف حقائق كثيرة توضح السبيل[3]: ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ الحَقُّ﴾، ثم حرّض الإنسان على تدبر ذلك والبحث فيه، مستبعدًا كل وسيلة من الضغط والإلزام[4]: ﴿قُلِ: الحَقُّ مِن رَبِّكُم. فمَن شاءَ فلْيُؤمِنْ، ومَن شاءَ فلْيَكفُرْ﴾، وحمّله مرارًا وتكرارًا مسؤولية بحثه وتدبره واختياره في عدة آيات،

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٧٥ من سورة ص.

(٣) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف.

منها: ﴿مَنِ اهتَدَى فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ، ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ علَيها﴾.[1]

وأخيرًا نبّه الله على ذلك رسولَه الكريم ﷺ، ليستبعد كل وسيلة من الضغط والإكراه[2]: ﴿ولَو شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ جَمِيعًا. أفأنتَ تُكرِهُ النّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾؟ إنه استفهام تنبيه وتأديب، بعد تقرير حقيقة الاختيار الإنساني للعقيدة. فإذا كان الله ـ وهو القادر المقتدر الرحمن الرحيم ـ لم يُجبر هذا المخلوق البشري، ولم يُجِز إجباره، على الإيمان برسالته فمِن الظلم والطغيان محاولةُ ذلك، أو الظنُّ أنه سبيل قويم في الدعوة والهداية.

وظاهر هذا الخطاب أنه للنبي ﷺ، وحقيقته لكل داع ومرشد، أي: لا ينبغي لك ولا يمكنك أن تحمل الناس على الإيمان. وإذا كان هذا قد تقرر فعلًا، واستُبعدت أساليب الضغط أصلًا، عن وسائل الدعوة والوعظ والإرشاد، فأنَّى يجوز القول بالحرب لنشر عقيدة الإسلام وشريعته وعبادته وأخلاقه وسلوكه؟

إن سبيل الدعوة والإرشاد هي البيان والحجة والأدلة، لترسيخ الإيمان والطاعة والانقياد، وهي التي سنَّها لنا الرسول ﷺ في حياته النبوية، يوجه الناس معتمدًا على منطق العقل في الآيات القرآنية المشرَّفة، وفي الأحداث المألوفة بواقع الإنسان، وما حوله من الآيات الكونية الظاهرة للعِيان. هذه هي الوسيلة الوحيدة التي قررها الإسلام للدعوة إلى رسالته، واستبعد كل طريقة تناقض حقيقته، وتستهين بكرامة الإنسانية والإنسان.

حقيقة الإسلام هذه هي حقيقة ما خُلق عليه آدم وأبناؤه، تلائمهم ويستجيبون إليها بما جُبلوا عليه من الصفاء والطهارة[3]: ﴿فأقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٩٩ من سورة يونس. وانظر المفصل في تفسير القرآن العظيم ص ٧٨٦.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم.

حَنِيفًا، فِطرةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ علَيها. لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ. ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمُونَ﴾. فالعقيدة الفِطرية تقتضي الوسائل المناسبة لها، إزاء فِطرية الإنسان وكرامته وتمتُّعه بالتدبر والإرادة والاختيار. وهي تتدرج في التاريخ مع رقي هذه الفطرة في التفكير والتدبر والتقدير، لتخاطب الناس على قدر عقولهم وإمكاناتهم، وما هم عليه من مستوى في القدرات وأساليب التلقي والمعارف والعلوم.

هذا إبراهيم ﷺ وقد حاجّه النُّمروذ في تفرُّد الله بالألوهية والسلطان، وادعى أنه قادر على التصرف في الكون والحياة، فكان جواب إبراهيم الطلب منه أن يغيِّر ناموسًا من نواميس الوجود، ليثبت حقه في التأله والطغيان: ﴿فإِنَّ اللهَ يأتِي بالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ. فائتِ بِها مِنَ المَغرِبِ﴾[1]. هنالك أفحَمَ الاختبارُ ذلك المتكبر الجبار، وصعقته الحجة القاطعة للتعنت والاغترار. وقد أكرم الله نبيه هذا بأن آتاه حجته على قومه، لإدحاض ما هم فيه من الأوهام والأباطيل.

وآيات الأنبياء المعجزة تكون حججًا عملية لتحقيق صحة ما جاؤوا به، من رسالة ودعوة وتوجيه، وفيما يناسب الأقوام المخاطَبة. فموسى ﷺ يحمل ابيضاض يده من غير سوء، آيةً[2] على تكليف الله إيّاه الدعوةَ إلى التوحيد، ويضيفها إلى تَثَعبُن عصاه، فإذا هما آيتان من آيات الله الكبرى، وبرهانان[3] من عند الله للاحتجاج على فرعون في بطلان تألُّهه، وفي تحقيق التوحيد والرسالة والتكليف بالدعوة.

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة. وانظر الإغراب في جدل الإعراب ص ٣٩.

(٢) الآية ١٨ من سورة طه.

(٣) الآية ٣٢ من سورة القصص.

ولذلك فإنك ترى أن تلقُّف العصا لما اصطنعه جهابذة السَّحَرة قد قطعَ عليهم سبيل العناد والمكابرة ـ وهم أعرف الناس بأكاذيب الخداع والتخييل والتمويه ـ فزهدوا في صنيعهم كله وفي ألوهية فرعون الوهمية، واستجابوا للفطرة السليمة بالسجود للحق الساطع والبرهان الرباني الدامغ.

ولأن بني إسرائيل شعب يعبد المادة ولا يؤمن بالروحانيات والمعاني الإنسانية الكريمة، عظم عليهم وكبر في نفوسهم أن يكون مَلِكًا عليهم من هو أقل منهم نسبًا ومالًا، فأنكروا قبول ملكيّة طالوت الذي اختاره الله لهم، ولم يَثنِهم عن إنكارهم أنه ذو سعة في العلم والجسم والكفاية في القيادة. فكان لهم آيةً على أهليته أن جاءتهم الملائكة بالتابوت المقدس، وفيه ما يُرَى بالأعين ويُطمْئن النفوس.[1] إن في ذلك لآية، أي: حجة عملية تدمغ المكابرة وتهزم العصيان.

وهؤلاء هم يستقبلون نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ بالإنكار والجحود. لم يكفهم أنه تكلمَ بالمهد معلنًا العبودية لله، ومبشرًا بالتوحيد والصلاح، ثم نقلَ إليهم الحكمة والإنجيل الكريم، فإذا هم يجابهونه بالكفر والعناد، حتى أتاهم بالحجج المادية القاهرة: ﴿قَد جِئتُكُم بآيةٍ مِن رَبِّكُم، أنّي أخلُقُ لَكُم مِنَ الطينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ، فأنفُخُ فِيهِ فيَكُونُ طَيرًا بإذنِ اللهِ، وأُبرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ وأُحيِي المَوتَى بإذنِ اللهِ، وأُنَبِّئُكُم بِما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكُم﴾ [2].

وإذ ذاك بهتهم بهذه الآيات البيِّنات العظيمة التي تَضطرّ المرء إلى الإيمان، حُججًا دامغة تقهر المكابرة وتذل العناد. ومع هذا فإن المؤمنين

(١) الآيتان ٢٤٧ و ٢٤٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

الـخُلَّص منهم تحركت في قلوبهم النزعة المادية، وطلبوا مائدة من السماء فيها الطعام والشراب لتطمئنّ قلوبهم، فكان لهم ذلك، ولكن بعضهم ما صدَقوا الإيمانَ، رغم ما رأوا وسمعوا وباشروا عيانًا، فكان منهم ما كان.

كذلك توالت الصراعات الفكرية بين الأنبياء وجماهير أقوامهم، تبهتهم الحجج الربانية القاهرة، بما يخاطب تجاربهم وتطلعاتهم، فتجرّهم إلى الإيمان قسرًا من صياصي عقولهم، أو تلقي بهم في دركات الهلكة والاستئصال، لِما يُصرُّون عليه من الحِنث العظيم.

ولقد كانت آلاف المواقف العملية في تلك الدعوات، يتخللها الحجاج والاستدلالات المتعددة الوجوه والأساليب والمستويات، حتى جاء الوحي الرباني إلى محمد ﷺ في أُمّة تستطيع أن تقدّر المعاني الإنسانية، وتعظم شفافية الروح والمفاهيم الروحية العالية، وتتحسس أبعاد الـمجردات العقلية الـخالصة، بلا تطلب للحجج المادية الحاسمة، والأدلة القاهرة المعجزة.

وعلى هذا كان منهم، بعد صراع لهول المفاجأة، أن استجابوا للمقاصد العليا من مثل: التوحيد والبعث والحساب والروح والملائكة والجنّ، وتسجيل ما يعمله الإنسان وما يقوله وما توسوس به نفسه، والخلود في جهنم أو الجنان. ثم تشربت أفئدتهم ونفوسهم وأرواحهم هذه المعاني البعيدة الأمداء والأغوار، واندفعوا بها يصنعون تاريخ الإنسانية بقوالبَ أبكارٍ من الطهر والصلاح والعمل الكريم، في كل مجالات العلوم والفنون والفلسفات، وميادين السياسة والحرب والسلام والقيادة للأمم والشعوب، وقطاعات الصناعة والزراعة والتجارة والمعاملات المالية النظيفة.

نعم لقد كان من صناديد قريش وبعض زعماء الكفر من أهل الكتاب، سماسرةِ القيم والاستعباد وامتصاص الدماء، تعنت ومكابرات وطَلِبات للبراهين

المادية أحيانًا، وكادت نفوس المؤمنين تميل إلى تحقيق ذلك ليستجيب الكافرون إلى الإيمان. ولكن الآيات كانت تبلّغهم أن ذلك لا يجدي المكابرين في هذه المراحل التاريخية، ولن يؤمنوا لرؤية المعجزات، وأن في نواميس الكون والحياة ما يملأ القلوب المتفتحة، ويغني عن الحوادث الخارقة بالإعجاز.

فجمهور العرب حينذاك ليس في حاجة إلى القهر والبهت، بل تكفيه الإشارة البيانية الرائقة، والنظرة الخاطفة في ملكوت الله بالتدبر، والاستغراقة الآنية في أعماق النفس بالتأمل، ليسجد للحق ويؤمن بالدعوة المباركة. حتى إن معجزة الإسراء والمعراج لم يكن لها فيهم تأثير إيجابي ظاهر، بل سببت ارتداد بعض المسلمين.

ولولا عناد أولئك الجبابرة وكفهم الناس بالسلاح والكيد عن متابعة الإيمان لكان للدعوة، بإعجاز القرآن الكريم والحديث الشريف، مسار معبد بين قلوب العرب أرباب البيان، المقدِّسين للكلمة الطيبة بكل الجوارح والمعاناة والعرفان. فلقد شبت الفطرة الإنسانية الكريمة عن الطوق، بين أبناء العروبة حينذاك، وصاروا أهلًا وأكفاء لمخاطبة قلوبهم وأرواحهم بالحجج والبراهين، بعيدًا عن حياض التطلعات المادية والآيات القاهرة التي تسفع بالنواصي، فتركع لها الهامات قهرًا وتتهافت إزاءها القدرات البشرية القاصرة.

نعم لقد شبت الفطرة عن الطوق، في ديار العروبة قُبيل الإسلام، وأصبحت جاهزة لتدبر العقل وتلقي خِطاب الفكر والوجدان. ولهذا اختارها الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ موطنًا أصيلًا لخاتم الأديان، وأوضح لنا ذلك بقوله الكريم: ﴿اللهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ﴾.(١) وهو يصطفي ما يناسب الدعوة القرآنية، من رسول يحملها ويبلّغ ويعمل، وقوم يتلقي ويعي ويعتقد ويخدم

(١) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

ويخلص ويجاهد، ولغة تستوعب الرسالة العُظمى لفظًا وغاية.

ولذلك تجاوزت حكمة الرحمن متطلبات الصناديد والمترفين المجرمين، الذين يعارضون مكابرة ودفاعًا عن هياكل بغيهم، وقرّبت مفاهيم الإيمان بالأدلة الكونية، في مظاهر الحياة ومكامن النفوس وتاريخ الأمم والبشرية جمعاء، وهي من أعظم الآيات وأظهرها للقلب والعِيان. إنه خطاب للعقل الحصيف، يتلمس الحقائق بالنظر والملاحظة والتدبر والاعتبار، مهما كانت المفاهيم بعيدة عميقة غائبة عن البصائر والأبصار.

لقد جاء القرآن الكريم حُجّةَ الله البالغة، يخاطب الأفئدة بالنَّظم الرباني الكريم، وما فيه من إعجاز بياني خالد ومعلومات حقيقية بكر، عن الشرائع والأخلاق والعبادات، والعلوم الكونية والإنسانية، وتاريخ الأمم الغابرة والآتية، ومصير البشرية من فناء وبعث وحشر وحساب وجزاء، ودقائق الأحداث الحيوية المنتشرة في مطاوي الكون والمخلوقات، برًّا وبحرًا وجوًّا وسماء وفضاء وغيبًا، وماضيًا أزليًّا وحاضرًا مديدًا ومستقبلًا أبديًّا.

وبمجمل ذلك وتفصيلاته كان التحدي بالإعجازين: الإعجازِ البياني الذي لا يجارى ولا يُرى فيه من فطور أو خلاف، والإعجازِ العلمي الذي يسبر أعماق النفوس، ويتناول معالم الوجود من إنسان وحيوان ونبات وجماد وروح وملائكة وجانّ، مما يعلمه المخاطَبون وما لا يعلمون، يوظِّف ذلك كله لتبسيط معاني الإيمان ومراميه وأبعاده، ويغرس في الأفئدة والأرواح والجوارح كلماته الطيبات، فإذا بالتربة الإنسانية الفطرية الطاهرة قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

إنّ لكل دعوة في الحياة، ولكل رسالة في عالم المبادئ، أساليبها التي تناسب حقيقتها وتلائم ماهيتها. وقد رأينا وما نزال نرى في تاريخ الرأسمالية

والشيوعية شرقًا وغربًا ألوان البطش والفتك والتدمير، بمذابح مئات ملايين المسلمين في الشرق والغرب وإفريقية والقارة الهندية الحمراء، وإفساد عقائد أمثالهم بالقوة والسحق والمحق والأباطيل.

ثم طلعت علينا هذه الأيام جريمة العَولمة، وما معها من وسائل التبويش[1] - أعني صبغ العالم بالخبائث البوشية - فيما تشهده أفغانستان وداغستان

---

(١) في اجتماع لأعضاء الكونجرس يوم ٢٩ / ١ / ٢٠٠٢، ذكر الرئيس الأمريكي جورج بوش صلابة الاتحاد اليهودي والمسيحي الأبيض الثري، وهيمنة القوات الأمريكية على العالم، وتحدث عن إطلاق الحرية في زراعة الأفيون بأفغانستان، ثم قال: «لن نتوقف حتى يصبح كل عربي مسلم مجردًا من السلاح، وحليق الوجه وغير متدين، ومحبًّا لأمريكة، ولا يغطي وجه امرأته نقاب... ونعتبر أن جميع المنظمات الدولية، التي تعارض كل هدف يتعلق بالمصلحة الوطنية الأمريكية الإسرائيلية، يجب حلها فورًا... سنقوم نحن، شعوبَ العالم من الجنس الأبيض المتحضر، بفرض معتقداتنا على عالم جائع لأموالنا ورسالتنا. ولن يخضع الرجال بعد الآن لشرط إطلاق اللحى، ولن تخضع النساء لشرط تغطية وجوههن وأجسادهن.

ومن الآن فصاعدًا يحق للعالَم تناول الخمر والتدخين وممارسة الجنس السوي أو الشذوذ الجنسي، بما في ذلك سفاح القُربى واللواط والخيانة الزوجية، والسلب والقتل وقيادة السيارات بسرعة جنونية، ومشاهدة الأفلام والأشرطة الخلاعية داخل فنادقهم أو غرف نومهم. وبالنسبة إلى شركاتنا التي تنتج مثل هذه المنتجات فسيحقّ لها الوصول، من دون عقبات للدول المتخلفة التي منعت تلك الحريات عن شعوبها».

انظر ص ١٧ من العدد ٨٣٠٠ لجريدة الخليج، الصادر في ٨ / ٢ / ٢٠٠٢. هذه هي خزائن ضمائرهم، ومنتهى مقاصدهم بما يخططون وينفذون من المجازر والتخريب، وامتطاء سماسرة القيم والشعوب في العالم الإسلامي. إنها دعوة صريحة إلى ما كان عليه الوثنيون في تاريخ الأنبياء، عليهم السلام.

وبعد أن اطلعتُ على هذا الخطاب بأيام، رأيت في المنام أنني أتحدث إلى بعض الزملاء والأصدقاء بما فيه، ثم سألتهم: نحن نفهم اختصاصه المسلمين بهذه الأحقاد والأهداف الإجرامية، لما بينهم وبينه من عداوة أزلية أبدية أوضحها القرآن الكريم في=

والعراق وفلسطين والسودان والصومال، وكل قطر مسلم لا ينقاد بذلة واستخذاء للسياسة الأمريكية.

ذلك ضرب من المذاهب يناسبه ما يجري الآن على الساحة العالمية المعاصرة، وفي القديم كانت عقليات أكثر الناس ونفوسهم، من السادة والمَسودين، تتحكم فيها الخوارق والمعجزات القاهرة أو الشهوات واللذائذ والخبائث، فجاءت الرسالات إليهم مع الأحداث الخارقة تجرهم إلى الإيمان، كعصا موسى ويده وناقة صالح، والمستبدون آنذاك يقودون من حولهم بمفاتن المغريات وبهارج المتاع.

فكل دعوة قد تنجح بوسيلتها المعهودة، التي تنبثق عن ماهيتها، وإن حاولتْ أن تجرب غير ذلك أخفقت فيما تروم، لأنها لا تلتزم منطق العمل المنهجي القويم. ثم إنه كلما كانت المبادئ والغايات معقدة ومتطرفة، ومنافية

= غير آية. انظر الآيتين ٢١٧ من سورة البقرة و ١٤٩ من سورة آل عمران. ولكن ما جريمة النصارى وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين، ليكون لهم مصيرنا في حروب البغي والتخريب وإشاعة الفواحش والمنكرات؟ فقال أحد المخاطبين بابتسام: «ذلك لأنهم إخوانُ المسلمين». يعني أنهم يشركونهم في الوطن والتاريخ، أي: جيرانهم في الحاضر والمصير. وقد يؤخذ الجار بتهمة الجار.

والتبويش: ترجمة سياسية لما يعرف اليوم باسم العولمة. فهذه الصرخة المعاصرة كشفٌ لما كان يسعى إليه جميع زعماء أمريكة وحلفائها في السر والخفاء منذ عقود، تنسب الآن إلى صاحبها، بما تحمله من غوغائية وتسلط وطغيان وعدوان، وتدمير للبلاد والعباد والحضارات والقيم. فكأني به يرى نفسه زعيم يأجوج ومأجوج، ليزحف بهم إلى ما في الدنيا من خير يستأصله وينهي الحياة الدنيا. والأصل في التبويش هو الصخب والجعجعة والاضطراب. والبوش: الغوغاء والاختلاط، جمعه: أبواش وأوباش، على القلب المكاني. وعندي أن هذا الرئيس الأحمق هو غضب من الله ـ تعالى ـ صبه علينا لتقصيرنا في عُدد الجهاد والسيادة، وانشغالنا بحب الدنيا وكراهية الموت.

لفطرة البشرية وطوابع الحياة، كان الإقبال عليها نادرًا وعسيرًا، وأصبح من الواجب أن تلجأ إلى العنف والقسر والقوة والغي والعدوان.

أما إذا كانت الحقائق التي يدعى إليها يسيرة سهلة لا تعقيد فيها ولا تكلف، تلائم الفطرة والصِّبغة الربّانيّتين والصفاء وقرار النفوس، فإنها تغزو القلوب والضمائر ولا تحتاج إلى غزو حربي بالسلاح. وكذلك هي خاتمة رسائل السماء، تحمل السعادة في الدنيا والآخرة للأُمّة والفرد وللناس جميعًا، وتخاطب العقل السليم من الهوى، وتدعو إلى الرحمة واليسر، ومحاربة البغي والفساد والركود العقلي، وتكرّم إنسانية الإنسان، وتصدّق ما جاء قبلها من سماويات الأديان، وتعتمد صفاء الجِبِلّة البشرية الرفيعة البنيان.

وعلى ذلك جاء نداء الرحمن للمؤمنين في الآيات المشرفة: ﴿قُولُوا: آمَنَّا باللهِ وما أُنزِلَ إلَينا، وما أُنزِلَ إلَى إبراهِيمَ... وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم... ونَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ... صِبغَةَ اللهِ. ومَن أحسَنُ مِنَ اللهِ صِبغَةً﴾؟[1] والمراد بقولهم الأخير هو[2]: ونحن له مسلمون إسلامَ صبغةِ الله وفِطرته المباركة، مطهَّرين من الكفر والزيغ والضلال وكل أنواع الفساد.

حرّيّة الاعتقاد:

العقيدة الفطرية الخالصة من الشوائب والضلال يكفيها البيان والتوجيه، وليست في حاجة إلى العنف كي تفرض على الناس، لأن الضغوط المادية قد تصل إلى الجسم فتخضعه لما تريد، لكنها لا تستطيع سبر الأعماق لتفرض رأيًا يعاند صِبغة الله في خلقه.

ولذا أعلمنا القرآن الكريم بوضوح وجلاء أن المولى ـ جل ثناؤه ـ لا يرضى

(١) الآيات ١٣٦ ـ ١٣٨ من سورة البقرة.

(٢) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٥ ـ ٦٧ والقرآن والقتال ص ١٢ ـ ١٥.

أن نؤمن عن طريق القهر والإلجاء، بل عن طريق النظر والتدبر والاطمئنان. ولو أراد إيمان المكرَه المضطرّ لطبعنا على ذلك من أول وهلة، ولكنه تركنا وما نختار لأنفسنا من إيمان أو كفر، وللبيئة والأسرة تعبثان بما تيسر، واكتفى بأخذ مواثيق الفطرة والنبوات، والتبليغ بما يوجه إلى الهداية والصلاح.

على هذه السُّنّة الكونية جاءت شرائع الرحمن، وإن كان في بعض قديمها ما يصاحبه المعجزات القاهرة. هذا نوح ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه بما حمل إليهم من الرسالة: ﴿أنُلزِمُكُمُوها، وأنتُم لَها كارِهُونَ﴾؟[1] ويدّعي قومُ عادٍ أنهم لم تأتهم أدلة كافية[2]: ﴿يا هُودُ، ما جِئتَنا بآيةٍ، وما نَحنُ بتارِكِي آلهتِنا عَن قَولِكَ، وما نَحنُ لَكَ بمُؤمِنِينَ﴾. وبعد حوار وجدال ومماراة تنتهي القضية بإصرار القوم على المكابرة والعناد، فيكون جواب نبيهم: ﴿فإن تَوَلَّوا فقَد أبلَغتُكُم ما أُرسِلتُ بِهِ إلَيكُم﴾.[3]

تلك هي طريقة الدعوات السماوية، تلائم بناءها الرباني وخليقة البشر الفطرية. فلا بد أن تُفهم رسالة القرآن الكريم وأساليب دعوتها على هذه الصورة، لتكون في انسجام مع أسلافها ومع الناس كافة، فيما تعتمد عليه من حقائق الوجود والكون والحياة. ولو سلكتْ غير هذه السبيل، بالعنف والسيف والحديد والنار، لكانت شبيهة بما صدر عن النمارذة والفراعنة وأقوام الأنبياء من قبل، جبابرة المشركين في مكة. فقد فرض الأوائل مذاهبهم بالقوة ومنعوا الناس من الحق، فكان لهم الهلاك والدمار، وحاول الأواخر مثل ذلك، فتفلتت منهم أزمّة الأمور، ورجعوا هم بالحسرة والخسران ثم الانهزام.

نعم لقد لجؤوا إلى القوة والقسر والإكراه، فسدوا بطغيانهم وسلاحهم

---

(١) الآية ٢٨ من سورة هود.

(٢) الآية ٥٣ من سورة هود.

(٣) الآية ٥٧ من سورة هود. وانظر القتال والقرآن ص ١٦ ـ ١٧.

منافذ الدعوة على من حولهم، وأنزلوا بالمؤمنين ألوان العذاب والقتل والهوان والفجور، ثم تحالفوا بميثاق صحيفة مسجّلة على المقاطعة والحصار في الشِّعب،[1] يمنعون عن المؤمنين أبسط وسائل العيش، حتى أكل هؤلاء ما تقتات به الحيوانات والوحوش.

فالمشركون هم الذين سلكوا ما ينافي جِبِلّة الإنسان، ليمنعوه من الإيمان ويجروه إلى مستنقعات الكفر والبهتان. وهذا يعني أنهم أهانوا الكرامة الإنسانية، وحاولوا سدّ الطريق على الفطرة المباركة بالضغط والقهر والحديد والنار، ثم بالتشريد وسلب الأوطان والأهل والمال، فتداعت خططهم واحدة تلو الأُخرى، وجاءت أباطيلهم بالهزيمة النكراء، واستُدرجوا بقضاء الله ونهج النبوة في التدبر والاستدلال من حيث لا يحتسبون، فباؤوا بالخسارة والاندحار. ثم استسلموا بالعفو الكريم يوم فتح مكة للإيمان طائعين. فأين ما يزعمه المرجفون، من نشر الدعوة بالسيف والقهر والعدوان؟

لا عجب أن يكون دواء هؤلاء المشركين الحرب، ولهم خياران: الإسلام أو القتل، لا ثالث لهما. وأمثالهم في التاريخ كثيرون، من عهد النُّمروذِ الذي أراد إحراق إبراهيم الخليل، إلى فرعونَ الذي كان يقول: «أنا ربكم الأعلى، ولا أُريكم إلّا ما أرى»، فبني إسرائيل الذين قتّلوا الأنبياء وأرادوا قتل المسيح ﷺ، فصاحبِ الأخدود فالجبابرة والأباطرة المجرمين منهم، حتى بويشٍ الصغير الذي جاءنا أخيرًا بقوله: «سنقوم نحن، شعوبَ العالم من الجنس الأبيض المتحضر، بفرض معتقداتنا على عالَم جائع لأموالنا».

فهؤلاء فئات بغي وبطش وتنكيل وتخريب وإبادة، يسلكون منحرِفَ السبل والدروبَ الوعرة لمنع الهداية والصلاح. والحق أنه إذا أراد دعاة العقيدة

---

(١) السيرة ١: ٣٥٠ ـ ٣٥١.

لها أن تغزو النفوس والسلوك والحياة فلا بد لهم من مخاطبة الفطرة، واعتماد الكرامة الإنسانية، ومراعاة الحرية الواعية. وعلى هذا كان تحريرُ الأمم المعاصرة لقرن النبوة من سلطان المتنفذين المعتدين أولَ وسيلة لتقبل الإيمان والصلاح، ثم استمر هذا المبدأ الإنساني العظيم سببًا ظاهرًا من أسباب الحرب المشروعة في الإسلام.

بل إنه إذا حاولتْ نفس أو فئة فرضَ عقيدة على الغير، ومنْعَهم من اعتناق ما يرتضون، كان على الدولة الإسلامية واجب الجهاد لتحريرِ أولئك من نير البغي والعدوان والاستعباد الفكري، ومنحِهم حق الإرادة الحرة والاختيار لما تقرّ عقولهم وضمائرهم، شريطة ألّا يحاربوا من أنقذهم من الفتنة والقهر والتسلّط والاستبداد.

هذا هو مبدأ سياسة الإسلام لوطنه والعالم أجمع[1]: ﴿لا إكراهَ في الدِّينِ، قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ﴾. إنه تأمين الحرية الدينية غير المحارِبة، وإطلاق القيود الاستبدادية عن الفكر البشري، ليستبين له الهدى من الضلال، ويختار ما تعشقه الفطرة السليمة المعافاة.

ولذا كان خطاب السماء للمؤمنين، يحثهم على مجابهة المشركين المحتكرين للعقائد والفاتنين للناس[2]: ﴿وقاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ، ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ أي: للصِّبغة الربانية التي فُطر البشر عليها، تستجيب بشوقها الإبدي لِما تعشقه وتترقبه، بكامل الرغبة والحماسة والسعي الحميد. وإنما يتحصل هذا إذا مُحق التحكم في العباد، ولم يبق في الدنيا إلّا مسلم أو مسالِم.[3] فالأول مستجيب للفطرة، والثاني يوادع أصحاب الإيمان، وييسر

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٣٩ من سورة الأنفال. وانظر الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

(٣) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ص ٩٨.

لدعوتهم سبل التبليغ والبيان.

فأنتم معي - أيها الإخوة الأكارم - أن دفعَ الفتنةِ، أي: الاستبدادِ بالعقائد، وتحريرَ الدين كله لله في هذه الآية المباركة، أي: تأمينَ حرية الاعتقاد لجميع الناس، هما الغاية التي ينتهي عندها قتال المتحكّمين في مصاير الاعتقاد. وإذا هُزم هؤلاء أو كفّوا عن فتنة الناس في دينهم لم يجُز أن تكون مقاومة بحرب،[1] لأنه يصبح عدوانًا وهو لا يوجَّه إلّا إلى المستبدين[2]: ﴿فإنِ انتَهَوا فلا عُدوانَ إلّا علَى الظّالِمينَ﴾. أفيجوز لك، بعد هذا، أن تسوّغ الجهاد الطلبي، أي: الحرب والقتال لنشر الإسلام؟

وإذا كان ما قرأتَه حتى الآنَ لم يملأ نفسك، بالطمأنينة إلى ما نقول، فاقرأ معي أول نص قرآني سمح للمسلمين بالجهاد[3]: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ، بأنَّهُم ظُلِمُوا - وإنَّ اللهَ علَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ - الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ، إلّا أن يَقُولُوا: «رَبُّنا اللهُ». ولَولا دَفعُ اللهِ النّاسَ بَعضَهم ببَعضٍ لَهُدِّمَت صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومَساجِدُ، يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كَثِيرًا. ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾.

أفلست ترى أن ما في هذا تشريع لجميع الرسالات السماوية، أن يكون أتباعها حماة لبيوت الله ولأصحابها؟ وإلّا فلِمَ ذكرت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات الأحبار ومساجد المسلمين؟ ثم لماذا قدِّم ورود الصوامع والبيع والصلوات على المساجد الإسلامية، في خطاب معاصري النبوة ومَن بعدهم إلى الأبد؟

إن هذا النص العظيم يبين بجلاء أن الجهاد مرسوم لدفع الظلم والطغيان، وتأمين الحرية الدينية، وحماية أماكن العبادة لجميع الأديان، حمايتها من

---

(١) نظام السلم والحرب ص ٢٠ - ٢١.

(٢) الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان ٣٩ و ٤٠ من سورة الحج.

عدوان الملحدين والمتعصبين لعقائدهم وسماسرة القيم والشعوب.(١) لا شك أن بسط هذا غايته تبليغ كل أصحاب الكتب السماوية، تبليغهم أنهم مسؤولون عن حماية أتباعها جميعًا، وصيانة معابدها من العدوان في كل زمان ومكان. ولذلك جاء ختام النص أن تلك الحماية هي نصر لله، واللهُ ناصرٌ من يقوم بها.

فأنت أيضًا ـ أيها المسلم ـ واجب عليك ذلك، إذا لم يَشنَّ عليك اليهود والمتهوّدون والوثنيون والملحدون حروبًا، أو لم يثيروا في بلادك فتنًا وتخريبًا ودمارًا وإفسادًا، ولم يحاربوا دينك في بلادهم ومناطق نفوذهم. نعم أنت مطالب في الدنيا والآخرة عن عملك في هذه السبيل، وليس لك أن تكون صاحب فتنة أو قتل أو تهديم، لمن وادعك وسالمك في القول والعمل. أما النية في النفس فأمرها للهِ ـ عز وجل ـ يحاسب عليها كلًّا بما يحوي في مطاوي ضميره.

وحرية العقيدة التي يقاتِل الإسلام لتحقيقها وإثباتها والدفاع عنها، ويفرض الجهاد على أتباعه لتحطيم من يهددها، إن هذه الحرية لا يمكن أن توافقها حرب لنشره، أي: أن يقاتَل غيرُ المسلم حتى يُسلم. بل لا يجوز أن يُسمح بشيء من الضغط والإكراه في سبيل الدعوة إلى الله. تلكم هي نظرية القرآن الكريم وتشريعاته في موضوع المقاومة الحربية بالسلاح.

ثم تأتينا السُّنّة النبوية المشرّفة في هذا الميدان الكريم، أي: وسائل التبيين والتوجيه والتنفيذ والصبر، مع توسعة التطبيق في المجالات المختلفة من ظروف الحياة، مع الجماعات المتعددة الأوضاع. وهو ما قد جمعتْه عبارة الرحمن: الحكمة والموعظة الحسنة. فإن ضاقت بك سبل هداية الآخرين كان قولك ما جاء عن النبي الكريم: اللّهُمَّ اهدِ قُرَيشًا،(٢) واهدِ دَوسًا وائتِ بهم

---

(١) نظام السلم والحرب ص ٢٢.

(٢) مختصر شرح الجامع الصغير ١: ٩٣ والأحاديث: ٢٧٧٩ و٤١٣١ و٦٢٩٠ و٦٥٣٠ في

مُؤمِنِينَ، واهدِ ثَقِيفًا وائتِ بِهِم، واللّهُمَّ اغفِرْ لِقَومِي. فإنَّهُم لا يَعلَمُونَ.

ذلك لأن الإيمان ليس شعارًا يطلق من فراغ إزاء التهديد والوعيد، ولا أعمالًا تصدر عن نفاق أو خداع. إنه التصديق اليقيني الكامل، بعد المعرفة الحقيقية والإدراك التامّ، إنه اعتقاد يخالط النفس ويوجه الفكر والتدبر والقول والعمل، عن علم راسخ وإدراك واع وتثبت مطمئن. وقد عبر عنه الرسول ﷺ بقوله(١): «الإيمانُ مَعرِفةٌ بالقَلبِ، وقَولٌ باللِّسانِ، وعَمَلٌ بالأركانِ».

ولما كان الأصل في ذلك هو التصديق النفسي بعد العلم، يَقِرّ في الصدر وتطمئن إليه الجوارح، فإن الشريعة الإسلامية تُقرر أن أساسه العقل والدليل والبرهان، وكل إيمان يكون بالإكراه فهو قول باللسان، كالنفاق لا يُطمأنُّ إليه، والقلب فيه متردد بين التصديق والتكذيب. فإذا جاز مثل هذا كان سطحيًّا لا أساس له ولا نفع في الحقيقة والواقع لصاحبه منه ولا لأُمّته. ومن ثَمّ لم يقبل الله ـ سبحانه ـ إيمان فرعون، حين عِرفانه أنه من المغرقين، إذ لم يكن عن اعتقاد طوعي.(٢)

فقد أوضح لنا القرآن الكريم أن إيمان المكره لا يجديه شيئًا، بما كان من بعض الأقوام(٣): ﴿فلَمّا رأوا بأسَنا قالُوا: «آمَنّا باللهِ وَحدَهُ، وكَفَرْنا بما كُنّا بِهِ مُشرِكِينَ». فلَم يَكُ يَنفَعُهُم إيمانُهُم، لَمّا رأوا بأسَنا﴾. فلماذا يُحمل الناس على الإسلام بالسيف، إذا كان لا يجدي الأُمّة، ولا يفيد صاحبه؟ وعلامَ يَفرض الإسلامُ الحرب، كما يرى دعاة السيف والطلب، لكل من أبى وانصرف؟

البخاري و١٧٩٢ في مسلم و ٣٩٣٧ في الترمذي والجهاد في الإسلام ص٦٨ ـ ٦٩.

(١) مختصر شرح الجامع الصغير ١: ٢١٢.

(٢) المجاهدون ص ٢٤.

(٣) الآيتان ٨٤ و ٨٥ من سورة غافر.

النسخ والجدل المذهبي:

يرى أصحاب السيف أن الدعوة الإسلامية بدأت تبشيرًا بالحكمة والموعظة الحسنة، على ما ذكرنا قبل، ثم جاء الأمر بقتال من يقاتِل، وأخيرًا أصبح الأمر بوجوب الجهاد لكل من كفر،[1] فنَسَخَ أحكامَ الآيات التي تحدد العمل بالتبشير أو المقاومة لرد الاعتداء، وصار السيف هو الوسيلة الوحيدة في ذلك. والناسخ المذكور هو الآيات ١ ـ ١٣ من سورة التوبة.

فهؤلاء كلما عرضوا لنص من النظم الكريم، فيه خلاف ذلك، ذكروا أنه منسوخ بآيات السيف. وعلى هذا فقول العزيز الحكيم[2]: ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقاتِلُوكُم في الدِّينِ، ولَم يُخرِجُوكُم مِن دِيارِكُم، أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطُوا إلَيهِم﴾، نُسخ ما فيه من البرّ والعدل للمسالِم من غيرنا، وأصبح قتاله واجبًا علينا. والحق أن البرّ واجب مع كل مسالِم، والعدل واجب أيضًا معه، ومع المقاتل أيضًا إلّا في ميدان المعركة.

وبناء على قولهم ذلك صار في مذهبهم منسوخًا حكم[3] عدمِ الاعتداء، والموعظةِ الحسنة، وانتظارِ هلاك الكافرين، وتركِ الجدال وقطع المحاجّة، والصبرِ والمسالمة والمداراةِ بالتي هي أحسن، وموادعةِ أهل الكتاب والمجادلين، وتفويضِ أمرهم إلى الله. سبحانه وتعالى.

وإذا رجعتَ أنتَ إلى الآيات التي فيها هذه الموضوعات رأيت أنها

---

(١) فتح القدير وشرحه ص٢٨٢.

(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة. وانظر تفسير الجلالين الميسر ص ٥٥٠.

(٣) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٩٦ و ٥٣٧ ـ ٥٣٨ و٦٢١ و ٦٦٢ و ٧٦٢ و٧٩٠ و ١٠٢٦ و ١١٨٥ و ١٢٥١ و ١٢٨٠ و ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣ و ١٧١١ و ١٧٥٧ و ١٩٤٥ و ٢٠١٣ و ٢٠٣٥ والميسر ص ٢٩ و ١٥٠ و ٢٨١ و ٣٢١ و ٣٤٠ و ٣٤٨ و ٤١٧ و ٤٨٤ و ٥٦٨ و ٥٧٤.

مُحكَمة واجبة قطعًا، ثم إذا بحثتَ في كتب «الناسخ والمنسوخ» وجدتَ أقوال العلماء تحقق ذلك بالأدلة والبراهين النصّية، فيما لا يدع مجالًا للشك أو التردد، ووقفتَ على ما استوفتْه من البيان والتوضيح. الأمر الذي يدفع دعاوى النسخ، ويجعل مذهب أصحابه مردودًا عليهم.

ومن أعجب ما انساق إليه دعاة الحرب الطلبية، في هذا، أنهم حين عرضوا لقول المولى، جل ثناؤه[1]: ﴿وقاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُم، ولا تَعتَدُوا - إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ - واقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم، وأخرِجُوهُم مِن حَيثُ أخرَجُوكُم - والفِتنةُ أشَدُّ مِنَ القَتلِ - ولا تُقاتِلُوهُم عِندَ المَسجِدِ الحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُم فِيهِ، فإن قاتَلُوكُم فاقتُلُوهُم - كَذلِكَ جَزاءُ الكافِرِينَ - فإنِ انتَهَوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وقاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ، ويَكُونَ الدِّينُ للهِ، فإنِ انتَهَوا فلا عُدوانَ إلّا علَى الظّالِمِينَ﴾، حين عرضوا لهذا النص المبارك زعموا أن «واقتلوهم» ناسخ لما قبله، وأن «وقاتلوهم» ناسخ لقوله تعالى: ولا تقاتلوهم.. فاقتلوهم.

وهكذا ترى أن الآيات الأربع صارت بين أيديهم بهذا الصنيع: آيتين ناسختين وآيتين منسوختين، الثانية تنسخ الأولى، والرابعة تنسخ الثالثة. وقد علق الإمام الرازي على ذلك بتضعيف ذلك الادعاء الواهم، ثم قال: يبعد من الحكيم أن يَجمع بين آيات متوالية، تكون كل واحدة منها ناسخة للأُخرى.[2] وكذلك الزعم بنسخ آية الاستجارة.

لقد تبنى أولئك وجوب القتال الطلبي لنشر الإسلام، فجعلوا «واقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم» ناسخًا لآيات العفوِ والحكمةِ، ومجابهةِ المعتدي فقط، وعدمِ

---

(١) الآيات ١٩٠ - ١٩٣ من سورة البقرة.

(٢) تفسير الرازي ٢: ٢٨٩. وانظر القرآن والقتال ص ٣٩-٤٠ والجهاد في الإسلام ص ٥٦ -٥٧.

الإكراه في الدين. ولهذا تراهم يقولون مثلًا: هذه الآية لا تتفق ومذهبَ الحنفية، وتأويلها كذا وكذا. وتلك الآيات ـ وهي تزيد على السبعين ـ لا تتفق ومشروعيةَ القتال فهي منسوخة. «وهكذا صار القرآن عندهم فرعًا بعد أن كان أصلًا، وتابعًا بعد أن كان متبوعًا، وموزونًا بعد أن كان ميزانًا».(١)

وعندما تعرض ابن تيمية لهذه المسائل أكد أن مذهب السيف فيه مغالاة، وأن عدمَ الإكراه في الدين غير منسوخ، ومقاتلةَ المعتدي فقط معتبرة كذلك.(٢) أما أوائل سورة براءة فهي نص في حرب مشركي مكة ومن ظاهرهم، أي: المحاربين الذين قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم بالتعذيب والإهانة والتشريد، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، ووقفوا فتنة للناس في دينهم. وهم الذين جاء وصفهم وحكمهم في تلك الآيات.(٣)

وقد بيّن الله في بعضها صفات هؤلاء: ﴿وإن يَظهَرُوا علَيكُم لا يَرقُبُوا فِيكُم إلًّا ولا ذِمّـةً... لا يَرقُبُون فِي مُؤمِنٍ إلًّا ولا ذِمّـةً، وأُولئكَ هُمُ المُعتَدُونَ... ألا تُقاتِلُون قَومًا نَكَثُوا أيمانَهُم، وهَمُّوا بإخراجِ الرَّسُولِ، وهُم بَدؤُوكُم أوَّلَ مَرّةٍ؟... قاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيدِيكُم، ويُخزِهِم ويَنصُرْكُم علَيهِم﴾.(٤)

هذه الصفات تعني المشركين الذين بدؤوا بحرب المسلمين في مكة فقتلوا منهم، وشرّدوهم من ديارهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة، وأجمعوا في دار الندوة على سجن الرسول الكريم ﷺ أو قتله أو تهجيره، ونقضوا عهود الحُديبية الموثقة.(٥) فالمقصود بهم أهلُ مكة وأمثالهم ومَن

---

(١) القرآن والقتال ص ٦.

(٢) رسائل ابن تيمية ص ١١٨ ـ ١٢٤.

(٣) القرآن والقتال ص ٣٥.

(٤) الآيات ٨ ـ ١٤ من سورة التوبة.

(٥) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٧٠.

أعانهم على البغي والعدوان، لا كلُّ المشركين، لأن مِن هؤلاء مَن «له حال لا يجوز قتاله فيها، مثل أن يكون له أمان أو عهد. كذلك إن لم يكن من أهل القتال»،[١] وتفصيل ذلك مذكور في آيات من النظم الكريم.

فقد استثنى الله من المشركين المقاتلين المعتدين كل مستجير، عَصم دمه حتى يسمعَ نصوص القرآن العظيم ثم يبلَّغَ مأمنه، لأنه مسالم لا يريد حربًا ولا عدوانًا،[٢] واستثنى منهم أيضًا من لم ينقض عهده ولم يساعد أولئك الأعداء المستبدين، فله المُوادعة والمُسالمة مادام محافظًا على العهد، ولو كان أبديًّا.[٣]

ثم يُلحَق بأولئك المشركين المحاربين وجوبًا يهودُ قُريظة من بني إسرائيل وأمثالهم. فقد عاهدوا النبي العظيم، حين هاجر إلى المدينة المنورة، على المُوادعة ألّا يحاربوه ولا يعينوا عليه، ونقضوا العهد وأعانوا المشركين بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: «نسينا وأخطأنا»، وعاهدوا ثانية وثالثة، ونكثوا بتأييد المشركين يوم الخندق...

ولهذا نزل فيهم[٤]: ﴿الَّذِينَ عاهَدتَ مِنهُم، ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهدَهُم في كُلِّ مَرّةٍ، وهُم لا يَتَّقُونَ. فإمّا تَثقَفَنَّهُم في الحَربِ فشَرِّدْ بِهِم مَن خَلفَهُم﴾. فهؤلاء وأشباههم كالمشركين المذكورين قبل في المواقف العدوانية، ينقضون العهود ويثيرون الأعداء على المسلمين بالعون والتأييد والسلاح، وهو شأنهم الآن في الغزوات البوشية لبلاد المسلمين، كما ترى في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان وكل بقعة إسلامية.

فالحكم بالمقاومة الحربية هو، كما ترى، مخصوص به المعتدون بقتال

---

(١) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١١٧.

(٢) انظر الآية ٦ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٤ من سورة التوبة وتفسير الجلالين الميسر ص ١٨٧- ١٨٨ والمفصل ص ٦٧١- ٦٧٢.

(٤) الآية ٥٧ من سورة الأنفال.

وخيانات وتعذيب وتشريد وفتنة وإفساد أو عون للعدو. وقد كان المشركون، من قريش ومَن معها وبنو إسرائيل من قُريظة والنَّضير وقينِقاع، يقومون بذلك في عهد النبوة، فنزل الحكم لجهادهم، وليس لهم إلّا القتل أو الإسلام، سواء أكانوا داخل البلاد الإسلامية أو على حدودها أو بعيدينَ عنها وقائمين بالتهديد والوعيد. وجهادهم فرض كفاية، إذا وجد من يقوم به أغنى بقية المسلمين عن متابعته، وإلّا فهو فرض عين على الجميع.[1]

وينسحب ذلك الحكم على من قام بمثل أفعال قريشٍ ويهود بني إسرائيل وأنصارِهم في التاريخ، كغزوِ الروم لديار الشام، والتتر والمغول للعراق والشام ومصر، والفرنجة الصليبيين في حروبهم المعروفة، ثم ما كان من غزو الأوربيين والصينيين للشرق الإسلامي وأوربة وإفريقية في القرنين الماضيين، وما يجري الآن من الاحتلال، في فلسطين وأفغانستان والشيشان والعراق ومنغولية وكل بلد مسلم لا يخضع للعولمة والتبويش.

ثم هم يتوزَّعوننا مملكات وجمهوريات وإمارات ومحميات، ويفصلونها بعضها عن بعض بشعارات نتنة، من النُّعرات والمصالح المحلية والوطنية والقومية والقبلية والمذهبية والطائفية والحزبية، لتعيش كل جماعة منا في قوقعة محجوبة عن أخواتها، وكأننا في سجون إفرادية، لا يجوز الاتصال بيننا أو التعاون أو التناصر إلّا من خلال القنوات الاستعمارية الصارمة، لتحقيق مصالحها وجعلنا جيوشًا في ركابه تساعده في البطش والتنكيل، وحُزُمًا أمنية تحفظ غزوه الهمجي وتحميه من روح الجهاد والاستشهاد المتوثبة في نفوس المؤمنين.

فهؤلاء الغزاة يَقتّلون مئات الألوف بل الملايين من الرجال والنساء والأطفال، ويخرّبون المنازل والمساجد والمدارس والمستشفيات والمكتبات

(١) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢: ١٧٤ وحاشية ابن عابدين ٣: ٣٣٧.

التراثية والمرافق العامة، ويعذبون المعتقلين بوحشية وقذارة وانحطاط، ويشردون الآمنين عن أوطانهم، ويشترون الضمائر ويفسدون النفوس والبلاد بإشاعة الاقتتال الطائفي والسياسي والقومي، والفواحش والمنكرات والمخدرات وجرائم الجاسوسية والخيانة، ويسرقون الثروات الطبيعية للأُمّة، ولا يلتزمون عهدًا أو قانونًا أو عُرفًا إنسانيًّا أو دوليًّا.

وكذلك شأن من يساعدهم في القتل والتشريد والفتن، أو ييسر لهم وسائل الغزو وأساليبه، أو يحميهم من أعمال المجاهدين، أو يواجههم بالصمت في مواقف القول والبيان، أو يُمدهم بالعون عملًا أو كلامًا في وطننا والمحافل الدولية ووسائل الإعلام، ولو بكلمة أو حرف أو حركة أو إشارة، أو يساهم معهم في إدارة البلاد المغزوّة وتقتيل المواطنين والاستبداد بأزمّة الأُمور.

وما دامت الولاية الإسلامية مفقودة الآن، إذ ليس في عالمنا دولة يحكمها الإسلام بحق، ولا إمام أو خليفة للمسلمين اليوم، فحكم أولئك المذكورين جميعًا هم وأنصارهم واحد، هو الجهاد الحربي فرضَ عين،[١] أي: واجبًا على أفراد المسلمين رجالًا ونساء وشيوخًا وأطفالًا، بكل وسائل القتال. وكل منهم هو أمير نفسه وإمامها، كما ذكرنا منذ قليل، يتوجه في سبيل الله، ويقاوم بما يتيسر له من السلاح والعتاد، حتى يزول العدوان وأعوانه بشكل نهائي، ويطمئن المسلمون في ديارهم وبلاد غيرهم بالعقيدة والشريعة والعبادة والسوك والأعمال، ويصبح الحكم للإسلام وحده.

وعلى هذا يكون للمعتدين وزبانيتهم وأعوانهم، في بلادنا وبلادهم وحيثما كانوا، أحد خيارين لا ثالث لهما: إما الإسلام وإما القتل، حتى يضعوا أوزار الحرب، وتتخلص ديار المسلمين من الغاصبين وأعوانهم. وبذلك ينتهي

---

(١) خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

أمر العدوان، ويزول تسلط الاستسلاميين المنقادين للغزاة بخيانة وذلة واستخزاء.

أمّا الأصوات المشبوهة التي نسمعها من مذهب بعض الإسلاميين الأغرار، تنادي بأن يكون موقفنا من الغزو هو المعاملة الودية اللطيفة والمسامحة والصبر، حتى يرعوي المعتدون، وتنقشع الظلمات، ويصيروا أصدقاء مخلصين، عملًا بقول الله، جل ثناؤه[1]: ﴿ادفَعْ بالَّتِي هِيَ أحسَنُ، فإذا الَّذِي بَينَكَ وبَينَهُ عَداوةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، أما تلك الأصوات فمصدرها الانهزامية النفسية التي تسيطر عليهم، وتوجههم إلى غير الصواب، فيفهمون النصوص الكريمة فهمًا منحرفًا.

ذلك لأن هذه الآية المشرّفة تتحدث عن العلاقة بين طرفَينِ، لا أحدِهما، قابلَينِ للتقارب والمسالمة والإحسان، وليست مطلقَة في أحوال الناس جميعًا. إنما تُفهم دلالتها الحقيقية بما جاء بعدها، في الوحي الكريم[2]: ﴿وما يُلقّاها إلّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وما يُلَقّاها إلّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، لأنه يتم يه المعنى المراد، إذ تجد فيه أن القابلية للموادعة بعد العدوان، وللمودة بعد البغض والخصام، إنما يُوفَّق فيها الطرفان وتتحقق لديهما، إن كان عند كل منهما ضبط النفس للصلاح ونصيب من الإيمان عظيم، أي: استعداد للمسالمة الحقيقية ورغبة صادقة في الخير والوفاق.

أما إذا كان المعتدي مصرًّا على الغزو، لعداوة متأصلة ومطامع في نفسه وجشع لا يهدأ وغطرسة لا ترعوي، فإنه يزداد عنجهية وتمردًا، كلما أبديت له لينًا وتسامحًا ورغبة في المسالمة، لأنه يفسر ذلك بما في نفسه، ويفهمه على أنه استخرجه بقوته وجبروته وضعف منك واستخذاء. وهذا يعني التنازلات المُهينة من طرفك، والاستعلاء والتجبر من طرفه، ويكون تحكيم الآية المذكورة في غير ما يناسبها وغير ما أُريدت له.

---

(١) الآية ٣٤ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٣٥ من سورة فصلت.

ومع ذلك الواجب المحتم بالمقاومة الحربية، ترى بعض الزعماء والسدنة يتنصلون من نصرة المستضعفين ويقولون: ﴿إنَّ بُيُوتَنا عَورةٌ﴾. ونحن ـ علماءَ العروبة والإسلام ـ نقول مع الله تعالى: ﴿ وما هِيَ بِعَورةٍ. إنْ يُرِيدُونَ إلّا فِرارًا ﴾. وهم يقولون أيضًا: ﴿شَغَلَتنا أموالُنا وأهلُونا﴾ و﴿نَخشَى أن تُصِيبَنا دائرةٌ﴾. ونحن نقول لهم أيضًا: ﴿لَن يُصِيبَنا إلّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾، ﴿وإنِ استَنصَرُوكُم في الدِّينِ فعَلَيكُمُ النَّصرُ، إلّا علَى قَومٍ بَينَكُم وبَينَهُم مِيثاقٌ﴾، فهل بينكم وبينهم معاهدات سرية؟ و﴿إلّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُم عَذابًا أَلِيمًا ويَستَبدِلْ قَومًا غَيرَكُم﴾. ثم لا نجد لنا سبيلًا غير الحث على الجهاد، ورفع الشكوَى إلى الله والدعاء بالعون وكشف الضر والعجز والبلاء، وتوجيه السهام إلى مقاتل الغزو الفكري الخبيث.

وإذا راجعتَ الآن ما مضى، من البسط للجدل والاحتجاج وفضح النفاق والخيانة والتآمر، رأيت أن الإسلام فصّل لأتباعه أحكام الجهاد، وما يقتضيه أمر غيرهم فجعلهم صنفين: المعتدين أيًّا كان اعتقادهم ودينهم حكمُهم القتال، والمسالمين الموادعين لهم العدل والبر، أي: مراعاة العِشرة. وما ذلك إلّا لأن الله وضع في نفوس المؤمنين كُره القتال وحب السلم والخير والصلاح: ﴿كُتِبَ علَيكُمُ القِتالُ، وهُوَ كُرهٌ لَكُم. وعَسَى أن تَكرَهُوا شَيئًا وهُوَ خَيرٌ لَكُم، وعَسَى أن تُحِبُّوا شَيئًا وهُوَ شَرٌّ لَكُم﴾.(١)

وعلى هذا، فإن المشركين الذين لم يقاتلونا ولا يريدون قتالنا، وعرضوا علينا الموادعة أيضًا ـ تجب مسالمتهم،(٢) كما أمر الله سبحانه: ﴿فإنِ اعتَزَلُوكُم، فلَم يُقاتِلُوكُم، وألقَوا إلَيكُمُ السَّلَمَ، فما جَعَلَ اللهُ لَكُم علَيهِم سَبِيلًا﴾.(٣) وشرطُ

---

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٢) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ١: ١٤٢.

(٣) الآية ٩٠ من سورة النساء.

هذا أن يكون ميلهم إلى المسالمة عن قصد وعزم، لا بنية الغدر أو الذبذبة والمكايدة، وهم ﴿كُلَّما رُدُّوا إلَى الفِتنةِ أُرْكِسُوا فِيها. فإن لَم يَعتَزِلُوكُم، ويُلقُوا إليكُم السَّلَمَ ويَكُفُّوا أيدِيَهُم، فخُذُوهُم واقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُ. وأُولئكُم جَعَلنا لَكُم علَيهِم سُلطانًا مُبِينًا﴾.[1]

فالجهاد هو لهؤلاء وأمثالهم، وما احتج به دعاة السيف من قول المولى، عز وجل[2]: ﴿فقاتِلُوا أئمّةَ الكُفرِ﴾، غفلوا فيه عن الشرط الذي بُني عليه هذا الأمر. وأنت إذا استعرضتَ ذلك رأيت أنه مبني على نقض العهود ومحاربة الإسلام، لا على أنهم غير مسلمين: ﴿وإن نَكَثُوا أيمانَهُم مِن بَعدِ عَهدِهِم، وطَعَنُوا في دِينِكُم، فقاتِلُوا أئمّةَ الكُفرِ. إنَّهُم لا أيمانَ لَهُم﴾.

ثم إن ما ذكروه من القتال لجعل الدين لله مراد به منعُ فتنة المؤمنين عن إيمانهم، كما يقول ابن تيمية، وتحريرُ العقيدة من سيطرة الدول أو الجماعات أو الأفراد. فإن الحرية الدينية، بلا شطط أو نزاع أو عدوان، هي الغاية التي ينتهي عندها القتال في الإسلام. فإذا كف غيرنا عن العدوانِ، وفتنةِ الناس في دينهم، امتنع سبيل المقاومة الجهادية: ﴿فإنِ انتَهَوا فلا عُدوانَ إلّا علَى الظّالِمِينَ﴾.[3]

ومهما يكن فإن الماوردي،[4] حين عرض لبسط مذهب دعاة السيف، ذكر أن المشركين في دار الحرب صنفان: الذين امتنعوا من الإيمان وحاربوه، فقتالهم واجب بإنذار أو بدونه، والذين لم تبلغهم الدعوة، فإن أبوا بعد التبليغ وجبت الحرب لهم كالمحاربين الأوائل.

---

(١) الآية ٩١ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٢ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

(٤) الأحكام السلطانية ص ٣٥.

وقد استشكل أحد الباحثين المعاصرين هذا القول، ونسبه إلى الخطأ في فهم حقيقة الإسلام، لأن معناه الإكراه في الدين.[1] والاستشكال المذكور مبني على الغفلة عما عرض له الماوردي، فهو إنما يتكلم هنا على «دار الحرب»، وهي البلاد التي لا يبقى فيها مسلم ولا ذمّي آمنًا أمان المسلمين لمن تحت أيديهم، ويكون فيها الأمان للكفرة والخوف للمسلمين على الإطلاق.[2] وهذا أمر واضح الدلالة، ولا إشكال فيه ليقتضي التلبث والجدال.

قتال الناس:

وأخيرًا نقف عند القول المُطهَّر، في كتب الصحاح والسنن[3]: «أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النّاسَ، حَتَّى يَشهَدُوا أن لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ. فإن فَعَلُوا ذلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِماءهُم وأموالَهُم، إلّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهُم علَى اللهِ». وفيه الشروع[4] في مقاتلة المشركين من العرب، حتى يدَعوا الشرك ويدخلوا في الإسلام. وهم مقاتِلون محارِبون قبلُ، اعتدوا على المسلمين بالتعذيب والإهانة والمحاصرة والقتل والتشريد، واغتصاب المال والأهل والأولاد. فـ «أل» في «الناس» عهدية ذهنية تخص من ذكرنا هنا، وليست جنسية للاستغراق، كما يدعي أنصار السيف.

---

(١) نظم الحرب ص ٢٢.

(٢) مجلة المسلمون ٦٧: ٨: ٥.

(٣) الأحاديث: ٢٥ و ١٣٣٥ و ٢٧٨٦ في البخاري و ٢٢ في مسلم وفي النسائي ٥: ١٤ و٧: ٧٧ والمسند ٢: ٥٢٨ والترمذي ٤: ١١٧ وأبي داود ٣: ١٠١ وابن ماجه ص ١٢٩٥.

(٤) هذا هو نص الحديث، لأن الفعل «أقاتل» يدل على المشاركة في القتال يبدأ به الفاعل، ثم يشاركه الآخر بالمقابلة في القتال. وهذا خلاف ما ذكره أحد الباحثين، من أن البادئ قاتلٌ والمقاوم له مقاتلٌ. الجهاد في الإسلام ص٥٨ ـ ٦٢ و ١٠٢.

ولعلك تستأنس بما ذهبنا إليه، إذا قرأت معنا هذا القول الكريم[(١)]: ﴿الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ: «إنَّ النّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم. فاخشَوهُم»، فزادَهُم إيمانًا، وقالُوا: حَسبُنا اللهُ، ونِعمَ الوَكِيلُ﴾! فإنك واجد فيه أن «أل» تكررت مع «الناس»، والمراد في كل منهما غير الذين تعنيهم الأُخرى.

فليس من المعقول أن يكون من يهدِّد المؤمنين هنا بأعدائهم هو نفس الذين جمعوا جموعهم للقتال. وإذا رجعتَ إلى أسباب نزول الآية عرفت أن المهدِّد قوم من بني عبد القيس، كلفهم مشركو قريش بذلك ليضمنوا كفَّ المسلمين عن مطاردتهم إياهم، في غزوة حمراء الأسد بعد أُحُد.[(٢)] وهكذا يتبيّن أن «أل» الأُولى للقوم من بني خُزاعة، والثانية للهاربين من مشركي قريش، فكل منهما عهدية ذهنية أيضًا.

وقد أوضح الإمام ابن تيمية[(٣)] معنى ذلك الحديث بأن المراد ذكر الغاية التي يباح فيها قتال هؤلاء المشركين، والمعنى: «أني لم أُومر بالقتال إلّا إلى هذه الغاية... ليس المراد أني أُمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية. فإن هذا خلاف النص والإجماع». فالقضية إذًا هي مقاومة حربية لفئة من المشركين، اضطهدَتِ المؤمنين في مكة، واستمرت على الظلم والقتال والتشريد وسلب المال والوطن والأهل. فلا مجال للتعميم وتحكيم السيف في أعناق غير المسلمين جميعًا.

ثم ترى في قول الإمام أيضًا ما يوضح ذلك بالتفصيل،[(٤)] حين يذكر أنه

---

(١) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.

(٢) انظر تفسير الطبري ٧: ١١٠ وتفسير ابن كثير ١: ٤٠٤ - ٤٠٦ والبحر ٣: ١١٧ والسيرة ٢: ٩٤ و ١٠١ والميسر ص ٧٢ - ٧٣ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

(٣) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١١٧.

(٤) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١٢٣ و ١٣٦.

لا إكراه في الدين، وقتال الكافر حتى يسلم هو أعظم الإكراه، ومن سالم ولم يحارب لا يقاتَل سواء كان كتابيًّا أو مشركًا. وعليه فالجهاد للمحارب فقط، وجهاد غيره عدوان ينكره الشرع[1]: ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقاتِلُوكُم في الدِّينِ، ولَم يُخرِجُوكُم مِن دِيارِكُم، أن تَبَرُّوهُم وتُقسِطُوا إلَيهِم. إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ﴾.[2] ولذلك سُمح لأسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما أن تكرم أُمَّها المشركة وتقبل هداياها، حين جاءت إليها زائرة من مكة.[3]

ومع هذا كله، فقد اختلف العلماء في دلالة الحديث المذكور، إذ جعله دعاة الجهاد الطلبي عامًّا لغير المسلمين، من المشركين وأهل الكتاب والمجوس والملحدين، واعتمدوه في الاحتجاج لمذهبهم، على أنه ناسخ لما كان من الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.[4] أما الآخرون فيرون أنه خاص بالمشركين العرب،[5] إذ جاءت روايته عند النسائي: «أن أقاتِلَ المُشرِكِينَ»، وهي مفسرة للمطلق بهذا القيد الصريح، لأن الروايات يفسر بعضها بعضًا.

ثم إن الإمام البخاري أخرجه بفقهه تفسيرًا لحكم الجهاد ووجوب الزكاة، وقتال المشركين في قول المولى، عز وجل: ﴿فإن تابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فخَلُّوا سَبِيلَهُم. إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[6] وقد تردد إخراجه لدى رجال الصحاح والسنن، ممن ذكرنا قبلُ، في أحكام: توبةِ المشركين العرب،

(١) نظام السلم والحرب ص ٣٤.

(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

(٣) المستدرك ٢: ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٤) انظر الجهاد والقتال ص ٧٥٢ - ٧٥٤ و ١٤٣٨ - ١٤٣٩والجهاد في الإسلام ص ٥٣ و ٥٥ ومشارع الأشواق ص ٧٩ - ٨١.

(٥) مجموعة رسائل شيخ الإسلام ص ١١٧ وصور وعبر ص ٣٧ والجهاد في الإسلام ص ٥٣ - ٦٠.

(٦) الآية ٥ من سورة التوبة. وانظر فتح الباري ١: ١٠٢ - ١٠٥.

واستتابةِ المرتدين والمنكرين للفرائض والمانعين للزكاة، ومحاربةِ الفتن، والجهادِ. فهو أولى أن يكون خاصًّا بالحِرابة، أي: ما يكون من المشركين المذكورين والمرتدين والمفسدين في الأرض، والبغاة الخارجين على الدولة الإسلامية أو على حكم شرعي.(1)

أضف إلى هذا أن إيمان المكره غيرُ معتدّ به، كما ذكرنا قبل، وأن وقف قتال المحارِب إذا دفع الجزية يعني أنه لم يكن لفرض الإسلام، وكذلك ما يدل عليه إجارةُ المستجير حتى يسمع كلام الله ويبلغ مأمنه، وإقرارُ الهدنة في الحُديبية، وقبولُ مسالَمة المعادي إذا جنح للسلم، والخيارُ بين الفدية من أسرى المشركين والمنّ عليهم، وعدمُ قتل المشركين يوم فتح مكة عندما ألقوا السلاح، ونهيُ المجاهدين عن قتل غير المحاربين أمثال الرهبان المنقطعين في صوامعهم والأطفال والشيوخ والعبيد والنساء.

قال حنظلة الكاتب: غزونا مع رسول الله ﷺ، فمررنا على امرأة مقتولة، قد اجتمع عليها الناس، فأفرَجُوا له فقال: «ما كانَت هذِهِ تُقاتِلُ فيمَن يُقاتِلُ». ثم قال لرجل «انطَلِقْ إلَى خالِدِ بنِ الوَلِيدِ، فقُلْ لَهُ: إنَّ رَسُولَ اللهِ يأمُرُكَ، يَقُولُ: لا تَقتُلَنَّ ذُرِّيّةً ولا عَسِيفًا».(2) وهذا نص صريح بأن العقيدة لا صلة لها بجهاد غير المسلمين. وإلّا فلماذا يحارَب الخارجون على الدولة أو المنكرون لركن من أركان الإسلام كالصلاة والزكاة، وهم مسلمون فيما يقولون، وكان لهم في الشريعة حكم خاص اسمه الحِرابة، وقُوتل منهم العشرات والمئات والآلاف ومئات الآلاف في عهد النبوة وأوائل الخلافة الراشدة؟ ولماذا جاز قتل المسلمين الذين خرجوا مع أبي جهل يوم بدر، وقصتهم مشهورة مقرّرة؟

---

(1) انظر السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ٧٧ ـ ٩٧.

(2) الحديث ٢٨٤٢ في ابن ماجه. والذرية: الأولاد. والعسيف: الأجير للعمل.

ثم لماذا يُعفى من حكم القتل هؤلاء القُرَظيُّون: عطيةُ بحجة أنه لمّا يبلغ الحلم، وعمرُو بن سُعدى الذي أبى أن يدخل مع قومه في نقض العهد، ورِفاعةُ ابن السموءل الذي شفعت له سلمى بنت قيس قبل أن يسلم، والزَّبيرُ بن باطا الذي شفع له ثابت بن قيس، ومن المشركين: ثُمامةُ بن أُثال الحنفي حيث أُطلق سراحه من الأسر، والعباسُ بن عبد المطلب لأنه كان يراسل النبي ﷺ بأخبار قريش، وأبو البختري لأنه كان قد نقض صحيفة مقاطعة المسلمين في مكة، وعِكرمة بن أبي جهل بشفاعة زوجته، وعبدُ الله بن سعد بشفاعة عثمان، والحارثُ بن هشام وزهير بن أبي أميّة بشفاعة أُمّ هانئ، وزوجُ حليمة السعدية بشفاعتها، ويُطلق سراح بنت حاتم الطائي، وتقتل اليهودية التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، والثانية التي سمَّمت بِشر بن براء بأكلة الشاة بعد خيبر؟

ثم لماذا تكونُ معاهدات النبوة مع بعض المشركين في المدينة المنورة وحولها وحول مكة أيضًا، ومعاهدة اليهود في المدينة وبني إسرائيل وحولها، ومعاهدة الحديبية نفسها مع مشركي مكة وتتضمن محالفة خزاعة للمسلمين وفيها مشركون، ويكونُ آمنًا يوم فتح مكة ويعفى من القتل مَن أغلق بابه عليه أو دخل المسجد الحرام أو دار أبي سفيان أو دار حكيم بن رُويحة، وجميع مشركي مكة حينئذ فيكونوا من الطلقاء، ويصحُّ قبول الجزية من المجوس؟

تلك أنظار توجّه إلى نظرية السيف، فتزيل التسليم بها تضعها في قفص الاتهام، ليتحقق لديك مصداق ما ذهبنا إليه من تحرير لمسائله وإزالة الشبهات من حولها. وخلاصة القول أن المقاومة بالسلاح شُرعت في قمع المحاربين للدولة الإسلامية فعلًا أو تهديدًا عمليًا، أو للدعوة بالمنع والقهر، أو لحقوق بعض المسلمين وحرياتهم وأوطانهم. فهؤلاء المحارِبون هم الذين تجب

مقاومتهم، سواء أكانوا مسلمين أم مشركين أم ملحدين أم مرتدين أم من أهل الكتاب أم مجوسيين.

وعلى هذا يدخل في حكمهم أيضًا أولئك المسلمون الذين يمتنعون عن ركن من أركان الإسلام كإقامة الصلاة ودفع الزكاة، أو يحاربون الحاكمين المسلمين ويفسدون في الأرض. فالفئة الأولى حاربها أبو بكر حتى رجعت إلى الصواب، والفئة الثانية جاء حكمها في الآيتين ٣٣ و٣٤ من سورة المائدة، يعاقَبون بما يناسب أفعالهم.

ولكي تتضح لنا هذه الرؤية بجلاء وتفصيل، ونتلمس دقائقها بالاستيعاب والتمام، يجدر بنا أن نستعرض التطبيق العملي في السُّنّة الشريفة، أي: في سياسة النبي ﷺ للقبائل والأمم التي كانت حوله خلال الدعوة الكريمة. وهنا نجدنا إزاء أربع جبهات: قريش وتوابعها من العرب، والقبائل العربية، وبني إسرائيل، والدولة الرومية. أما الدولة الفارسية فبقي أمرها للخلافة الراشدة، وكان منها ما كان. وليس علينا الاستطراد إلى ذلك وأمثاله، لأنه خلاف ما نصبنا أنفسنا له، بعون الله.

الباب الأول
جهاد العرب

الفصل الأول
مغـازي قـريـش

إنما يتحقق الوفاء لمشروعية الجهاد الإسلامي، بعد ما عرضناها بحثًا بالتفصيل، إذا صاحبْنا القائد الأول الرسول الأعظم ﷺ، في حياته العملية مع الدعوة إلى التوحيد والبعث والصلاح، نتلمس سياسة المقاومة التي كان يخطط لها ويسير عليها، وهي التطبيق الفعلي لشريعة الإسلام، كما جاء بها الوحي الكريم. فتصرفاته الجهادية هي المثل الأعلى الذي تُلزِم الشريعةُ الإسلامية أتباعها باحتذائه، وتحرّم عليهم الخروج عنه، أيًّا كانت الظروف والأحوال.

الجهاد الأكبر:

بدأت السيرة العطرة بالجهاد الأكبر، ضبط النفس لتحمل واجبات الرسالة السماوية، وما يترتب على ذلك من المشاقّ والخصومات والعداوات والبلايا. ولتخفيف حدة ذلك في مبدأ العمل كان التبليغ للنفس وأهل البيت، بما فتح الله على النبوة من وحي مبارك، يزلزل أركان الوثنية والزعامات والعروش والهياكل السياسية العظمى، ويبشر بفتح أبواب المعرفة والصلاح، وتهيئة الذات المجاهدة لما سيكون من تمرد الطغاة وعدوان الصناديد المستبدين.

ولمّا استقرت الموجات الاندفاعية الأُولى، بإيمان النفس وتصديق الأهل وتشجيع المصلحين، جاء الأمر الإلـهي بنقل قبسات الخير إلى الأقربين. وهنا انفجرت مكامن الشر في الصناديد، تدافع عن الأعراف المستحكمة والمفاهيم البالية، من وثنية واستغراق في الأباطيل والبغي والاستبداد، فكان الجِدّ في

العمل بما يقتضي مقاومة سلمية بالصبر والحكمة واستيعاب المشكلات والتحديات. وهو عبء كبير يضاف إلى واجبات الدعوة والتبليغ.

وقبل أن تهدأ تلك الفورة العارمة، وتضعف حِدّة وقعها على النفوس، كانت أمواجها قد اتسعت لها الرقعة، وتعقدت بها المداخلات الجانبية من زعماء الكفر والطغيان. فهؤلاء لهم مصالح موروثة وسلطة مؤثّلة ومطامع في الحاضر والمستقبل، يخافون أن تمس الدعوة الجديدة شيئًا منها، فتنهار من جذورها وتنقضّ على رؤوسهم، بما فيها من الأثقال والأوهام.

هنالك تلاحم جبابرة قريش، واتحدت توجهاتهم جميعًا، لسحق الدعوة ومحق الأصوات والحركات، والذود عن هياكل الارتزاق ومناطق النفوذ. وبذلك انطلقت شرارة البغي والعدوان، فلقي المسلمون الأوائل أصناف العذاب والإهانة والتحدي والتشهير، ثم تفاقم الطغيان فتمادى في تشديد التعذيب وهتك الحرمات وإزهاق الأرواح، وليس للمؤمنين أن يقابلوا ذلك بغير المقاومة الصابرة واحتمال للبلاء.

كان التصبر والمصابرة، فوق الطاقة البشرية، يثيران في نفوس الطغاة ضروبًا من الغيظ والتهور، ليزداد الإيذاء والاضطهاد والتضييق، فجاء الإذن الرباني بالهجرة إلى الحبشة، ونجا بعض الصحابة بأنفسهم لاجئين في حمى النجاشيْ ﷺ، ورأوا في ضيافة هذا الغريب البعيد ما يفوق التصور والخيال. فهو، على الرغم من كثرتهم وخلافهم لبعض معتقداته، رحّب بهم وأوسع لهم في موطنه، ليعيشوا في وداعة وإكرام وحماية وأمان.

لقد حصلت الهجرة الأولى في شهر رجب من خامس سنة للمبعث الشريف.[1] غير أن الجبروت القرشي لم يقرّ له قرار بنجاة هؤلاء، واحتفاظهم

---

(١) زاد المعاد ٣: ٢٣ - ٢٦.

بالعقيدة الإيمانية المهدِّدة للطغيان بالانهيار في كل زمان ومكان، فلحقت بهم صناديده تطاردهم في البر، حتى نجوا بركوب البحر، ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضًا. غير أنها ظهرت أشد وأنكى على المهاجرين، لِما فعل المشركون بهم من المنع والحجز والتضييق والمثبطات، بل لقد بعثت قريش مِن زبانيتها إلى النجاشيْ ﷺ مَن يوغر عليهم صدره بمقاصد الدعوة الجديدة، ليبطش بهم أو يطردهم من بلاده، فيعودوا بهم إلى مسارح الظلم والاضطهاد.

ولكن الرجل الكريم وجد في حوار الطرفين ما حببه بالرسول الأعظم ﷺ، وغرس في قلبه وقلوب بعض ممن حوله أنوار الإيمان والصلاح، حتى قال: «لئن قدَرتُ أن آتيه لآتينّه». إذ ذاك باءت مساعي الزبانية بعكس أمانيهم وانقلب السحر على الساحر، وصارت الحبشة موئلًا للدعوة، ومرتعًا للتبشير بالدين الجديد والنبوة الكريمة.

فلا غرو أن تشتد النقمة والضغينة والعُنجهية لدى سَدَنة الشرك والأوثان، ليزدادوا تفننًا في الظلم والتعذيب والتضييق في بطحاء مكة وشعابها، لمن بقي من المؤمنين. كل هذا والرسول العظيم ﷺ يأمر أصحابه بالتحمل والاصطبار لمقاومة الاضهاد[١]: «صَبرًا، يا آلَ ياسِرٍ. فإنَّ مَوعِدَكُمُ الجَنّةُ»، ويجابه التحديات والمضايقات بالعفو والصفح، والدعاء لأصحابها بالهداية: اللّهُمَّ اهدِ قَومِي. فإنَّهُم لا يَعلَمُونَ.[٢] كذلك استمرت أعماله القويمة، تتابع النهج النبوي في الدعوة المباركة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وجبابرةُ قريش يتمزقون غيظًا وتحرقًا، ويصبّون على المؤمنين أفظع العذاب والتنكيل.

---

(١) الحديث في المستدرك تحت الرقم ٥٦٢٦.

(٢) الحديث في شعب الإيمان تحت الرقم ١٤٢٤.

ولما ضاقت السبل وانسدت منافذ الدعوة، في شعاب مكة ورجالاتها، تطلعت النفس الشريفة للقائد الأعظم ﷺ إلى فُسحة في موطن آخر، بعيد عن نفوذ هذه الطغمة المستبدة بمجامع الأمور. وقد شجعت على ذلك بادرةُ النجاشيْ المفضال، إذ هيأت متنفسًا لدعوة الإيمان، وفتحت أبواب التبشير بالنجاح، وقدمت مثلًا يحتذى لتقبل النفوس رحمةَ الله - جل ثناؤه - واستجابتها لنداء الفطرة الإنسانية الأصيلة والصبغة الربانية المباركة.

فمكة مأمن الخائفين وملجأ المضطهدين، مكة التي هي موئل المظلومين والهاربين من مطاردة العُداة والبغاة، مكة الحاضنة لـ «دارِ الأرقم» ملجأِ المستضعفين المستهدفين، ضاقت بالصالحين من أهلها، وصارت لهم قلعة سَجن وظلم وتعنت وهتك حرمة وسفك دماء،[1] لا يجدون فيها لحظة طمأنية، أو مصدر عيش أو لمحة ضوء تبشر بالانفراج. حتى إن المضايقة وصلت بجمهور قريش وأعوانها إلى المقاطعة والحصار، ومنع كل وسيلة عيش أو معونة أو لقاء. فكان لابد من متنفَّس جديد يفتّق للنور سبل الانطلاق.

رأت حكمة الله - تبارك وتعالى - أن توجِّه الرسالة إلى بلد آخر، يرجَى منه الخير والاهتداء، فألهم الرحمنُ نبيَّه ﷺ أن يلقى وفود الحَجيج، ويعرض عليهم دعوته ومصيره إليهم بها، فكان أهل يثرب أول من استجاب لذلك، إذ آمن بعضهم عن طيب نفس واطمئان، وراحوا إلى ديارهم مبلِّغين مبشِّرين بالدين الحنيف. وهكذا لم تمض أشهر حتى انتشر الإسلام في تلك الأوساط،

---

(١) لا عجب أن يعيد التاريخ نفسه، لنرى أمثال الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمحكمة الدولية، والضمير العالمي وعُصبة حقوق الإنسان، والمنظمات العالمية والقومية والوطنية والمحلية والشعبية والمؤتمرات الدينية، والمؤسسات الدستورية والقانونية تكون مسارح وجسورًا وقنوات لتسويغ المجازر والبطش والتدمير والبغي والعدوان.

وما بقي بيت منها إلّا وقد صار فيه ذكر وحديث عن الإسلام ونبيّه العظيم ﷺ وميل إلى ذلك ونصرة له.

أصبح من الواجب أن تنتقل الرسالة بصاحبها إلى ذلك الموطن المكرَّم المشجِّع الحصين، ولكنَّ أمام هذه الواجبات القاهرة صعابًا وصعابًا. فحب الوطن عميق الجذور في النفس الإنسانية عامة وأعماق النبوة خاصة، وقدسية مكة وما تحمله من تاريخ الخير القديم وبركاته، ونقمة الجبابرة المتنطعين بالتسلط والطاغوت، والرغبة في هداية القوم وصلاحهم للنجاة من غضب الله وانتقامه، كل هذا بما فيه وما حوله يعرقل التفكير في الرحيل والتطلع إلى الهجرة.

نعم لقد كان صراع بين الضرورات والصعوبات والتطلعات، وليس من اليسير تغليب بعضه على بعض. إلّا أن مصلحة الدعوة باستقرار نشأتها وحماية المؤمنين ورعاية الأنصار تفوق كل قصد وطموح، وتهوّن خوض أمواج الصعاب، وتشجّع النفوس على ركوب مخاطر التضحية والفداء.

وقد يسّر الله تعبيد السبيل الجديد، فكانت بَيعتان متواليتان في موسم الحج من سنتين متعاقبتين: الأولى للإيمان والهداية، والثانية للنصرة والجهاد، بعد أن أذن الله للنبي ﷺ بالحرب. وقد حاولت قريش تثبيط الأنصار بالتهديد والتعذيب والإهانات، لينقضوا البيعة والعهد، فما كان لها من ذلك إلّا الخيبة والخسران،[1] ثم طاردت بعضَهم لقطع طريق العمل، تريد لهم الأسر والقتل، ولحقت بالمنذر بن عمرو وسعد بن عُبادة، فنجا الأول هاربًا، وأُسر الثاني ليكون رهينة بالعذاب والهوان: رُبطت يداه إلى عنقه، وتهاوت عليه سياط التنكيل والبطش والجبروت، يُضرب ويُجرّ من شعره إلى مكة. ولمّا علم بذلك من كان له عنده عهد ويد سالفة أنقذه من الأسر بشفاعة وجوار.

---

(١) السيرة ١: ٤٤٧ - ٤٥٠.

فقال الخطّاب بن مرداس القرشي يلوم من أنقذ هذا الأسير، متمنيًا عليه أن لو كان سعى بأسر المنذر أيضًا لا بتخليص سعد من السجن والعذاب. وهذا أول ما قيل من الشعر في موضوع الهجرة:[١]

تَدارَكتَ سَعدًا، عَنْوةً، فأخَذتَهُ ... وكانَ شِفاءً لَو تَدارَكتَ مُنذِرا

ولَو نِلتَهُ طُلَّت، هُناكَ، جِراحُهُ ... وكانت حَرِيًّا أن يُهانَ، ويُهدَرا

وهو يعني ما تنوي قريش من صنيعها في اللحاق والأسر.

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدة، يهجوه ويتهدّده بجيش المهاجرين لو بقي منهم أسير عند قريش، وبقصائد تغمر ما لديه من شِعر:[٢]

لَستَ إلَى سَعدٍ، ولا المَرءِ مُنذِرٍ ... إذا ما مَطايا القَومِ أصبَحْنَ ضُمَّرا

فإنّا، ومَن يُهدِي القَصائدَ نَحوَنا ... كَمُستَبضِعٍ تَمرًا، إلَى أرضِ خَيبَرا

ومهما يكن فقد أخفقت مساعي قريش في تخزيل الأنصار. وعندما توثق هذا العهد الأخير نزل الوحي بالتوجه إلى يثرب، لتكون المدينة المنوّرة موئل الرسالة ومنطلقها إلى الناس كافة. وعلى هذا توالى الصحابة الكرام أرسالًا نحو الموطن الجديد، وكلهم أمل أن يجدوا فُسحة لحمل الإيمان ومطمأنًّا لتثبيته ونشره بين الناس، وإنقاذهم من متاهات الشرك والطغيان والجهالة والعبودية لغير الله. جل ثناؤه.

غير أن جبابرة قريش هالهم ذلك، لِما فيه من الخطر عليهم بتفلت الزمام من أيديهم، وانداياح نطاق الدعوة في النفوس والبقاع، وحاولوا منع المؤمنين بالقوة فلم يفلحوا، فلجؤوا إلى التضييق بحجز الأهل والأموال عن القاصدين للهجرة، لعلهم ينثنون عما عزموا عليه. لكن هؤلاء باعوا دنياهم: الديار

(١) السيرة ١: ٤٥٠ ـ ٤٥١. وطلت أي: أُهدرت ولم يطلب بثأرها.

(٢) ديوانه ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩. والضمر: الخيل المعدّة للحرب. وخيبر مشهورة بكثرة تمرها.

والذرية والمتاع، بسلامة الإيمان وعزة الإسلام، وانصرفوا عمن خاصم وأبغض واضطهد إلى من أحب وعاهد على العون والإيواء والنُّصرة.

ولما اطمأن النبي ﷺ إلى نجاة المؤمنين رضي الله عنهم واستقرارهم في المُهاجَر الأمين، ولم يبق في المدينة غير أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما ومن حُبس أو فُتن، جاءه الإذن من المولى - عز وجل - في الهجرة إلى الموطن الجديد، حيث الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار، والدولة الإسلامية الواعدة تنتظر وصول قائدها العظيم.

كانت قريش قد أرهبها خبر ما في المدينة، من ظهور لدعوة الإسلام وعِزة أصحابها، وائتلاف الأنصار والمهاجرين على قلب واحد، وما سيكون عن ذلك من قوة وغلبة، فسارعت في التبييت لقتل الرسول ﷺ. ولمّا علم بذلك، وكان الإذن في الهجرة قد أُوحِي إليه، خرج مع أبي بكر رضي الله عنه من موطنه ليلًا، وأبقى في داره بفراشه عليًّا رضي الله عنه للتمويه والتضليل، مع الودائع التي كانت للناس، يردّها إليهم عن الرسول الأمين.

توجه للهجرة في الليل، ولسان حاله يقول بحسرة وتلهف: «واللهِ، إنَّكِ لَخيرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلَيَّ. واللهِ، لَولا أنِّي أُخرِجتُ مِنكِ ما خَرَجتُ».(١) وعندما افتقد المشركون النبي ﷺ في مكة ذهبوا يبحثون عنه في طريق المدينة، فخاب ظنهم ورجعوا باليأس والغيظ والقنوط، وقد علموا أن الأمر فاتهم، وسيكون لهم منه بلاء عظيم.

الجهاد الدامي

لبثَتِ المدينة المنوّرة أيامًا تنتظر قائدها الحبيب بلهفة وشوق، من الصباح إلى المساء، وعندما أطلّ بنوره الفياض على شخوص الصحابة العظام

(١) انظر الحديثين: ٣١٠٨ في ابن ماجه و٣٩٢١ في الترمذي.

من بعيد، سارعوا لاستقباله بالحفاوة والإكرام، وكل من زعماء القبائل يرغب في نزوله عنده. وشاء الله له أن ينزل في مِربد ليتيمَينِ، اشتُري منهما وبُني فيه الحرم النبوي المطهَّر، وما يكون حوله للمبيت والإقامة والدعوة المشرَّفة بأنفاس النبوة وأنوار الله.

هكذا تمت الهجرة من مُقام الكفر والظلم والطغيان، واستقرت الدعوة بقائدها وجنوده من المهاجرين والأنصاري في مُقام النصرة والأمل الكبير للإيمان. وبذلك ظهرت الدولة الحنيفية لأول مرة بعد إبراهيم ﷺ، في كامل بنيانها، أي: ما يُعرف في الفقه بدار الإسلام، حيث يسود المسلمون أنفسَهم، ويستعلنون بأحكام الشريعة وشعائرها.[١] وهو ما ننتظر حصوله في عصرنا هذا، بعون الله تعالى.

نعني وطنًا مستقرًّا بحماية الله والمؤمنين، وزعيمًا مخلصًا محبوبًا يوجّهه كتاب الله وإلهامه وهدايته لقيادة الدولة في ميادين الحياة، وشعبًا مؤمنًا مطيعًا في العسر واليسر موحّد الكلمة والهدف والمصير، ودينًا راسخًا شاملًا للعقيدة والعبادة والشريعة والسياسة والعمل، ودستورًا تنزلت من السماء قوانينه وأحكامه في كل حين بما تقتضي الظروف والأحوال الآنية والقادمة حتى الأبد، وهدفًا واحدًا يشد أبصار المؤمنين وبصائرهم، ويحملهم على نشر الدعوة بالعمل الكريم والموعظة الحسنة، ويدفعهم لبناء الأمة الإسلامية الواعدة.

عدوان قريش ونداء السماء:

على هذا، استطاعت الرسالة الإيمانية أن تجد لها سبل البيان والتوضيح، لأهل المدينة ومن حولها بحرية وانطلاق وصفاء، فكان لها مناصرون ومؤمنون وجنود من جميع القبائل هنا وهناك، يتعاونون لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه

(١) انظر المغني لابن قدامة ٩: ٢٤٧ - ٢٤٨ وحاشية ابن عابدين ٣: ٢٦٠.

من كل غاشم. لكن ذلك كله لم يشغل النبي العظيم ﷺ والمهاجرين الأبرار رضي الله عنهم عما لقوا في مكة، وما عانَوا فيها من القهر والاضطرار.

كيف تُنسى تلك السنوات العجاف، بما فيها من الظلم والاضطهاد والإهانة والتشريد والحجز والحبس والتعذيب والتهجير والتقتيل، وسلب المال والأهل والوطن؟[1] كيف تُنسى وهي قائمة في النفوس والعقول والعاطفة والخيال والأبدان، وهذه غربة قاهرة هجروا فيها البلد الكريم المعظّم، تاركين فيه الوطن والمال والأهل والعشيرة، للنجاة بالعقيدة والروح والجسم والآمال؟ كيف يُنسى ما احتجزته بمكة قريش وشقائقها الكِنانيّات من المؤمنين والمؤمنات في الحبس والتضييق والحرمان؟

ثم هؤلاء هم الصحابة المهاجرون لاجئين مغتربين، وكل ما كان لهم هو الآن في حوزة الكفر والطغيان، موزعين بين فقير بائس يَشرَك الأنصار في أموالهم، وأرمل بلا أولاد أو منزل خاص أو مهنة للرزق والاعتمال، ومريض محموم تعتاده شدائد الوباء والأوجاع. وقد زاد الأحوالَ بلاءً أن كانت المدينة المنورة حينذاك أوبأ أرض بالحُمَّى، وأصاب ذلك كثيرًا من المهاجرين.

فأبو بكر وعامر بن فُهيرة وبلال رضي الله عنهم في بيت واحد مع نوبات الحُمَّى، وعائشة رضي الله عنها تدور بينهم للعناية والعون.[2] فإذا سألت أباها عن حاله أنشد بيأس وقنوط:

كُلُّ امرِئٍ مُصَبَّحٌ، في أهلِهِ، والمَوتُ أدنَى مِن شِراكِ نَعلِهِ

فتقول في نفسها: واللهِ، ما يدري أبي ما يقول. وإذا سألت عامرًا أنشد:

---

(١) انظر الروض الأنف ٢: ٤٨ و٦٧- ٦٩ والحديث ٣٦٧٨ في البخاري وفتح الباري ٧: ٢٢.

(٢) السيرة ١: ٥٨٨ - ٥٨٩ والأحاديث: ١٧٩٠ في البخاري و ١٣٧٦ في مسلم و ١٦٠٦ في الموطأ والمسند ٥: ٣٠٩.

لَقَد وجَدتُ المَوتَ، قَبلَ ذَوقِـهِ ... إنَّ الـجَبانَ حَتـفُهُ مِن فَوقِـهِ

فتردَّد في نفسها: واللهِ، ما يدري عامر ما يقول.

أما بلال فكان يهذي أيضًا، وإذا تركتْه الحُمَّى اضطجع بفِناء الدار ورفع عقيرته، يتغنى بالشوق إلى ربوع مكة، وما فيها من النبات والمعالم الطيبة:(١)

ألا لَيتَ شِعرِي: هَل أبِيتَنَّ لَيلَةً ... بفَخٍّ، وحَولِي إذخِرٌ وجَلِيلُ؟

وهَل أرِدَنْ، يَومًا، مِياهَ مَجَنَّةٍ؟ ... وهَل يَبدُوَنْ، لِي، شامةٌ وطَفِيلُ؟

فيقول له النبيّ ﷺ مداعبًا ومعاتبًا، وهو أشد منه حنينًا وأحوج إلى العتاب، ولكنه يعتصم بالصبر وصفات النبوة والقيادة: «حَنَنتَ؟ يا ابنَ السَّوداءِ». ثم يدعو بضراعة: «اللّهُمَّ، حَبِّبْ إلَينا المَدِينةَ، كَحُبِّنا مَكّةَ أو أشَدَّ».(٢)

هذا بعض ما يعانيه المؤمنون، ونداءُ السماء يؤرقهم ليل نهار: ﴿وما لَكُم، لا تُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ والمُستَضعَفِينَ، مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا، أخرِجْنا مِن هٰذِهِ القَريةِ الظّالِمِ أهلُها، واجعَلْ لَنا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا، واجعَلْ لَنا مِن لَدُنكَ نَصِيرًا﴾؟(٣)

فهم في هذه الضوائق والشدائد والصراعات المريرة، وهناك وطنٌ مغتصب يستبد به صناديد المجرمين المتنفذين، وإخوةٌ وأخوات وأطفال مضطهَدون بعدوان قريش ومَن حولها من الشقائق الكِنانية، وأموالٌ وعقارات احتجزها المشركون، وتصرفوا فيها(٤) وحرموا أصحابها ما تتضمنه من الخير والنعيم،

---

(١) معجم البلدان ٣: ٣١٥ و ٥: ١٨٣ وأنساب الأشراف ١: ١٩٣. وفخ: موضع قرب مكة. والإذخر والجليل: نباتان هناك. ومجنة: ماء في سوق عكاظ بأسفل مكة. وشامة وطفيل: جبلان مجاوران لمكة.

(٢) الأحاديث: ١٧٩٠ في البخاري و ١٣٧٦ في مسلم و ١٦٠٦ في الموطأ والمسند ٥: ٣٠٩.

(٣) الآية ٧٥ من سورة النساء.

(٤) انظر الحديثين: ١٥١١ في البخاري و١٣٥١ في مسلم وزاد المعاد ٣: ١١٧ و ٤٣٦ - ٤٣٧ و ٥: ٧٦ وتصرف أبي سفيان بن حرب في الأموال، في أنساب الأشراف ١: ٢٦٩..

وذكرياتُ بؤس وشقاء تحت أيدي الجبابرة وألسنتهم وسياطهم، وثاراتٌ متراكمة في بضعَ عشْرةَ سنة، مضرجةٌ بالدماء والهتك للحرمات والبطش والبغي والجبروت، قُتل فيها شهداء عُزل من كل سلاح وحول وقدرة على الدفاع.

هذه الفظائع القرشية والكِنانية تصطرع أصداؤها في الأفئدة والنفوس، ولا تجد متنفَّسًا يمحق الطغاة ويردّ الحقوق وينقذ المظاليم، ويمسح آثار التنكيل والعدوان والتشرد. نعم إن حياة المهاجرين في المدينة المنورة عزيزة بالحرية والتفتح والبناء لأُمة الإسلام، وكريمة بسماحة الأنصار وبذلهم الضيافةَ والمحبة والعون والإيواء والنصر، ولكنهم في الوقت نفسه مهاجرون، أي: لاجئون في غير ديارهم، يعيشون عالة على إخوانهم، ويضيّقون عليهم مجال الأعمال والأرزاق والسعي للدعوة بسعة وانطلاق.

ثم هذا صوت السماء أيضًا قد رفع عنهم إصرهم والأغلال، وجعل للمقاومة وجهًا قتاليًّا للطغاة، فأباح الانتصار ممن اعتدى وظلم وشرد واغتصب المال والوطن والأهل(١): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ، بأَنَّهُم ظُلِمُوا ـ وإنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ ـ الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ، إلّا أن يَقُولُوا: «رَبُّنا اللهُ». ولَولا دَفعُ اللهِ النّاسَ بَعضَهُم ببَعضٍ لَهُدِّمَت صَوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومَساجِدُ، يُذكَرُ فِيها اسمُ اللهِ كثِيرًا. ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ. إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فعدوان أهل مكة ومَن حولها قائم على المسلمين والإسلام، وتنكيلهم بمن بينهم من المؤمنين مستمر كما هو قبل الهجرة أو أشد، ولولا هروب المهاجرين لما نجَوا مما كانوا يلقَون. فكيف ينسون عداوة قريش؟ وكيف يتركون لها ميادين البغي تسعى فيها بأنواع الاستبداد والبطش والغصب والبغي والحبس والاستعلاء؟ وبناء على هذا فحرب قريش وشقائقها الكِنانيات للإسلام

---

(١) الآيتان ٣٩ و٤٠ من سورة الحج وزاد المعاد ٣: ١٦٣ ـ ١٦٧.

والمسلمين مُعلَنة، نافذة بكامل مظاهرها وحقائقها، لأن عناصر العدوان قتّلت وشرّدت واغتصبت، وهي تمنع المسلمين من وطنهم وديارهم، وتستبد بالتصرف في الأموال والأهل والأملاك، وتصرّ على التسلط والبطش والتنكيل، ثم تهدّد الأنصار[١] بالغزو والقتل والمنع من زيارة البيت الحرام.

كل هذا وحكم الله ـ عز وجل ـ يتردد في جنبات النفوس، أن هلُمُّوا إلى المقاومة الدامية، أنقذوا أنفسكم والوطن والأقربين والأموال جهادًا بالقوة والسلاح: ﴿وقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُم، ولا تَعتَدُوا ـ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ ـ واقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم، وأخرِجُوهُم مِن حَيثُ أخرَجُوكُم ـ والفِتنةُ أشَدُّ مِنَ القَتلِ﴾.[٢] فلا غرو أن تشرئب القلوب والأجسام والأرواح إلى لقاء المعتدين، وكشف ظلمات الماضي والحاضر بصباح أبلج، يرد للنفوس الهدوء والطمأنينة بالانتقام منهم والتأديب لهم ولأمثالهم ممن في المدينة وما حولها من اليهود والأعراب، لكيلا تتكرر المأساة ويتنمر كل جبان خبيث.

ولهذا لمعت في المجتمع الجديد بوارق الأمل والإقدام، بعد أن استقرت قواعد الدولة والأُمة في الأرض الجديدة. بل لقد كانت تلك البوارق تداعب الأعين والضمائر منذ اللحظة الأولى لهجرة النبي ﷺ، إذ استشفّ لمحاتِها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه من كلمات المولى، عز وجل. فقد كان أبو بكر في الهجرة هذه مرافقًا للرسول الغالي ﷺ، ولما خرجا من مكة قال: «أخرَجُوا نَبِيَّهُم. لَيَهلِكُنَّ»، إذ المعروف من تاريخ الأنبياء، في القرآن الكريم وتاريخ الإنسانية، أن هجرة أحدهم من موطنه مضطرًّا تعني غضب الله وانتقامه من

---

(١) انظر الحديثين: ٣٧٣٤ و٣٩٥٠ في البخاري وفتح الباري ٧: ٢٨٢ والجهاد والقتال ص ٤٧٥ ـ ٤٧٧.

(٢) الآيتان ١٩٠ و ١٩١ من سورة البقرة.

القوم. أضف إلى هذا أنه نزلت حينذاك آيات الإذن بالجهاد، فقال الصِّدّيق[1]: لقد علمتُ أنه سيكون قتال.

الردع والقمع دون القتال:

غير أن الوضع الحالي في المدينة لا يسمح بشيء من الجهاد الحربي آنذاك. ومن ثَمّ أمضى المسلمون العام الهجري الأول في إعداد وتدريب شديدين بمناورات خُلّبيّة، إعدادٍ للنفس بتثبيت العقيدة ومشاق العبادة والطاعة قيامًا في الليل يستغرق أكثره، وتدريبٍ للجسم والجوارح في النهار على حمل السلاح واستخدامه للمقاومة القتالية. فهم أُمة مستهدفة ومهدَّدة بالغزو صباح مساء ـ وكان مضيَّقًا عليهم أن يمارسوا مثل هذا من قبلُ خشية العصيان والتمرد على الطغاة ـ ولا بد أن يصبحوا جنودًا ماهرين في التصدي واللقاء، وصابرين على الأمر الحازم والمقاومة الحربية كاملة وما تجره من البلاء.

تلك حالهم بشكل عامّ، ثم منهم فئة خاصّة للفداء، عرفت بـ «أصحاب الصُّفّة». وهم قُرابة المِائَة من فقراء المهاجرين يقلّون ويكثرون بحسب الظروف، ويقال لهم:«أضياف أهل الإسلام»، ليس لهم منازل يسكنونها، فيبيتون في موضع مظلَّل من المسجد النبوي،[2] ويؤثرهم الرسول ﷺ بالعناية والتوجيه والإعداد والإكرام.

إنهم متفرغون للعِلم الدائم[3] والجهاد المفاجئ، وطعامهم يسير خفيف محدود، لفقرهم وضعف حال المسلمين عامّة. حتى إنه قال واحد منهم مرّة:

---

(١) الحديث ٣١٧٠ في الترمذي وتفسير ابن كثير ٣: ٢١٨.

(٢) تاج العروس (صفف).

(٣) المسند ٥: ٣١٥.

يارسول الله، أحرَقَ بطونَنا التمرُ.[1] فليس عجيبًا أن يكونوا أشد حقدًا على قريش وشقائقها، وأحرص من غيرهم على انتظار لقائها في ميادين الحرب، لرد العدوان وإدراك الانتقام والانتصاف، واسترداد الحقوق المغتصبة.

على هذه الحال أمضى المسلمون شهورهم الهجرية الأُولى، حتى استقرت الأمور بالطمأنينة والإعداد اللازم، وانتشرت الدعوة في البيوت والمجالس، وصار لها زمام الأمر والتوجيه في المدينة وما حولها، وتكونت المهارة القتالية في الأرواح والأبدان. إذ ذاك تفرغت القيادة الحكيمة لمطاردة الكِنانيين من قريش وشقائقها ومجابهتهم في الميدان، فكانت مقابلة العدوان بالجهاد الدامي: إعلان الحرب عليهم، ومحاولة لقاء ما يتيسر من رجالهم، في الظروف والمناسبات المختلفة.

لكننا نتساءل هنا: إذا كان الجهاد لنشر الإسلام بالسيف، كما يرى أصحاب المذهب الطلبي، فلماذا تتوجه القيادة النبوية إلى قريش؟ وهل يكون حب الانتقام أولى من نشر الإسلام، كما يزعم هؤلاء؟ إن في المدينة وحولها من جميع الجهات قبائل عربية مشركة، ويهودَ ونصارى من العرب ولاجئين من بني إسرائيل، وهؤلاء كلهم أيسر منالًا من قريش، لقربهم وخلوّ قلوبهم من العداوات والأحقاد المتأصلة خلال الدعوة في مكة. فالانصراف إلى جهادهم أحق وأكثر نفعًا، وأظهر في تحقيق مبدأ السيف المزعوم.

وكلنا يعلم أن النبي ﷺ لم يفكر في حرب هؤلاء أصلًا، وهم أرباب وثنية وكفر وشرك، بل عاهد مَن في المدينة منهم على الموادعة والنصرة في الحروب، وعاهد اليهود الإسرائيليين على الموادعة أيضًا، وعامل جميع القبائل مِن حوله بالحسنى. وسوف ترى أنه لا يحارب أحدًا منهم إلّا بعد أن

---

(١) المسند ٣: ٤٨٧.

يصدر منه عدوان أو غدر، أو استعداد لبغي أو نكث لعهد.

ثم لماذا يوجه المولى - عز وجل - أنظار المسلمين والمهاجرين منهم بخاصة إلى قريش ومن يناصرها من كِنانة، وهم بعيدون عن المدينة جدًّا، والأقربون أولى بالمعروف، إن كانت الدعوة بالسيف من المعروف؟ لقد كانت حرب هؤلاء المجاورين في المدينة وما حولها أيسر وأنجع، إذا صحّ أنّ مشروعية الجهاد للدعوة هي بالقتال. وحين يتحقق إرغام هؤلاء على الإيمان وتثبيته في الأقربين، يتسنى للمسلمين التطلع إلى ما في مكة من شرك وكفر وكفران وعدوان.

لكن الحكمة الربانية أثارت كوامن النفوس، وصرفتها إلى الأبعدين في مكة، لبيان علة مشروعية الجهاد. ثم كان انصراف النبي ﷺ إلى تنفيذ ذلك، ليكون التشريعان: السماوي والنبوي، في خط واحد من التوجيه والعمل، ولتتضح في أذهان المسلمين على مدى الزمن أنهم لا يحاربون لنشر الإسلام، لأنه ينتشر بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن السيف يكون لرد الاعتداء والظلم والطغيان والمنع والكف والإحباط.

أفلستَ معي، بعد هذا كله، في أن مشروعية الجهاد وُضعت لمثل هذه الأعمال الإجرامية الخبيثة، على مدى الزمان واتساع المكان، وأن ما قيل عن الحرب الطلبية لنشر الإسلام في جميع الناس أمر ضعيف البنيان، و فيه نظر من جميع الجهات والأركان؟

والمعروف أن العرب كانوا قبل الإسلام يُطلقون على الحرب اسم: الغزو. ولقد تبيّنّا في «التمهيد» معنى ذلك ومسوّغاته. ثم بقي هذا الاسم يرافق ما كان من الجهاد الإسلامي، ولكنه بمسوّغات وأساليب وأعمال تخالف ما ألفه الناس جميعًا وأقروه من قبل ومن بعد، تخالفه بما تضمنت من الروح الإسلامي الرباني الكريم.

ونحن عبّرنا عن تلك العمليات الحربية بلفظ «المغازي»، وهو جمع للمصدر الميمي: مَغزًى، أو للمرة منه أي: مَغزاة. ولهذه المفاهيم الإسلامية عِلم تاريخي خاص، جعل له بعض علماء الحديث عنوانًا متميزًا في مجاميع الصحاح والسنن، وصنّف فيه كبار الأعلام كتبًا وأسفارًا، أمثال: عروة بن الزبير ومحمد بن مسلم الزُّهري ومحمد بن إسحاق ووهب بن منبّه ومحمد بن عائذ القرشي ويحيى بن سعيد الأُموي، وكثير من المؤرخين.(١)

وإنما اخترنا هذا اللفظ لأنه المصطلح الأكثر استخدامًا عند المؤرخين - وقد رأيتَ تصنيفاتهم فيه - ثم كان لنا مقصَد أمر آخَر، هو ألّا نقتصر على الغزوات بل نضمّ إليها السرايا والبعوث أيضًا، وأن نستبعد عن الأذهان ما هو معروف، من مساوئ الغزو الجاهلي والعالمي في التاريخ، وخصائص الحروب بين القبائل والدول والأقوام والأُمم.

فما كان للغزو في ذلك من العدوان والقتال، كما رأينا فيما مضى، غابت معالمه في المفهوم الإسلامي، إذ أصبح المراد بالغزوة: الجيش الإسلامي يقوده النبي الكريم ﷺ، لردع المعتدين والغادرين والمهدّدين والباغين في الأرض والمفسدين أو لقمعهم، أو لحربهم بالسلاح انتقامًا منهم وثأرًا لما كان من بغي ومظالم.

أما الردع فهو كف المعتدي فعلًا أو تهيُّؤًا، كفُّه عن فعله بالاستعداد والترهيب والتهديد. وأما القمع فهو الضرب بشدة للقهر والإذلال، ومنع العدوان والبغي وصرف الظالم عما هو فيه. فإن لم تنحل القضية بهذا أو ذاك وجبت المقاومة القتالية، أي: الجهاد لإعلاء كلمة الله: نصرةِ دينه وتحرير الناس وعقائدهم من الطغيان، وتحقيقِ العدالة بينهم.

---

(١) مفتاح السعادة ١: ٢٨٣ - ٢٨٤ وكشف الظنون ص ١٧٤٦ - ١٧٤٧.

فالحرب إذًا هي آخر سهم يُرمى في هذه الضروب من المقاومة الجهادية، خلافًا لِما كان في شرائع بني إسرائيل، كما عرفنا في غزوهم ديار العماليق بالشام للقضاء عليهم وفي عزم سليمان ﷺ على غزو مملكة بِلقيس لحملها على الإسلام، وخلافًا لِما عُرف به الغزو في التاريخ حتى اليوم، أي: السير إلى قتال الغَير وانتهابه «في بلاده».

والغير هنا بين الأمم لا يعني العدو أو المعتدي، وإنما يراد به مَن هو ليس مِن عشيرة الغازي أو قومه، وقد يكون أحيانًا من القوم نفسه، كما رأينا من قبل. وسترى أن في «المغازي» مَن كان عدوًّا مِن العشيرة أو الأقارب، إذ القضية جهاد في سبيل الله، وليست عصبية أو عُنجهية طلبًا لسلب ونهب وسبي. ثم إن قولنا «في بلاده» يعني حقيقة الغزو الإجرامي المعروف، وهذا ليس من صفات المغازي، لأنها غالبًا ما تكون بعيدة عن ديار العدو، بل قريبة من ديار المسلمين لأنهم هم المعتدى عليهم.

والسرايا: جمع سَرِيّة. وهي الجيش من الصحابة لا يكون النبي ﷺ فيه، للردع أو القمع أو للحرب انتقامًا أيضًا.(١) فما يراد بالسَّرِيّة من المقاومة الجهادية شبيه جدًّا بالمَغزاة أو الغزوة، والفارق الوحيد بينهما هو قيادة الرسول ﷺ للجيش في الغزوة وغيابه عنه في السَّرِيّة. وإنما سُميت هذه كذلك لأن المجاهدين فيها يَسرون في الليل ويكمنون في النهار. ثم ينضم إليها ما كان من بعوث للقضاء على مجرم خبيث أو عدوّ متخفّ، أو خائن متنكر للعهود والمواثيق. وربما كان عدد جنود السَّرِية أو البَعثة قليلًا، يصل إلى الفرد أحيانًا.

وأمر القتال هو آخر ما يرد في المغازي عامة، غزوةً كانت أو سريّة أو بعثة، كما رأيت. ولذا ستجد فيما نورده بعدُ كثيرًا منها لم يكن فيه قتال أو

---

(١) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٧٣٥.

قتل، وإنما كان للتدريب العملي وتهيئة النفوس واختبار الاستعداد من جهة، وإرهاب العدو بالقوة والعتاد والاستعداد، لردعه عن التفكير بالمباغتة، بله أن يباشرها أو يقوم بها فعلًا.

هذه حقائق تاريخية في حياة النبوّة، يجب أن توضّح وتحدّد أمام الأعين والقلوب والضمائر، وإن كان رجال العلم والبحث والتأليف قد غفلوا أو تغافلوا عنها، وتركوا المصطلح الجاهلي يسري في أوصال التعبير اللغوي، فتُفهم المغازي وتُفسَّر بين الكاتبين والقارئين على أنها امتداد لما هو شائع في الأوساط القبلية والدولية حتى اليوم. فلا بد أن تستضيء أنت بما ذكرنا، حتى تدرك مضامين النصوص النبوية والتاريخية التي يرد فيها ذكر الغزو وما يتعلق به.

ولكي تتضح لك المفاهيم بدقة، نقف معك إزاء النصوص المعبرة عن ذلك. وأولها الحديث المشهور المؤسِّس لمشروعية الجهاد. فقد سئل النبي ﷺ مرارًا عن الرجل يقاتل للمَغنم، أو للمفخرة والذِّكر وليُرَى مكانُه، أو شجاعة وغضبًا وحمية ورياء... أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَن قاتَلَ، لِتَكُونَ كَلِمةُ اللهِ هِيَ العُليا، فهُوَ في سَبِيلِ اللهِ». (١) يعني: من قاتل لإعلاء دين الله، (٢) بحيث لا يبقى في العالَم إلّا مسلم أو مسالِم، كما ذكرنا ونذكر دائمًا في مطاوي هذا البحث.

وتفسير ذلك بوضوح تجده في قول الله، جل ثناؤه (٣): ﴿وقاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ، ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ. فإنِ انتَهَوا فإنَّ اللهَ بما يَعمَلُون بَصِيرٌ﴾. فالمقاومة الحربية مشروعة بالجهاد الدامي، لتحرير الدين من سلطة المتنفذين

---

(١) الأحاديث: ١٢٤ و ٢٦٥٥ و٢٩٥٨ و ٧٠٢٠ في البخاري و ١٩٠٤ في مسلم.

(٢) فتح الباري ١: ٢٩٦.

(٣) الآية ٣٩ من سورة الأنفال.

والمتحكمين في أمور الناس. وهذا يعني أن يترك أمر الدين للفِطرة الإنسانية تختار ما خُلقت عليه، ولا يكون لأحد تسلط عليها في العقيدة والعبادة.

فإذا كان ذلك، وأخذ كل حقه من الاعتقاد والحماية والحرية بالفِطرة والصِّبغة الربّانية، مع إمكانية التصرف في وطنه وأمواله وأعماله، فقد انتهى أمر هذا الجهاد، وأصبح القيام به ظلمًا، ثم يبقى مشروعًا أبدًا للضرب على أيدي الظالمين لتلك الفطرة الرحمانية[1]: ﴿فإنِ انتهَوا فلا عُدوانَ إلّا علَى الظّالِمينَ﴾. وإنما سمي هنا عدوانًا لئلا يقع على غير هؤلاء المعتدين الظالمين المذكورين والمقصودين دائمًا بالقتال.

الحث على الجهاد:

من خلال ذلك البيان والتفسير والتوضيح، نستطيع أن ندرك ربطَ الرسول الأعظم ﷺ الجهادَ بالغزو، وإلحاحَه على تثبيتِ العلاقة بينهما، وتحبيبِ المؤمنين بهما، والحث عليهما في كثير من أقواله. ومن ذلك أنه كان ﷺ يتمنى أن يغزو مرارًا ويقتل في سبيل الله، ليتكرر له ما لقي من الإكرام الرباني. وقد أوضح لنا هذا المعنى المتميز، حين ضرب المثل بذاته الشريفة: ﴿والَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَوَدِدتُ أن أغزُوَ فأُقتَلَ، ثُمَّ أغزُوَ فأُقتَلَ، ثُمَّ أغزُوَ فأُقتَلَ﴾.[2] وفي رواية «ثم أحيا» موضع «ثم أغزو» في المرتين الأخيرتين. أضف إلى هذا أن ذكر العدد هنا لا يراد به التعيين، بل الكثرة والمبالغة في التكرار إلى ما لا نهاية له.

وأبلغ من هذا في إظهار قيمة الجهاد أنه دليل الإيمان ومقارِن له، فغيابه

---

(١) الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

(٢) الحديثان: ٢٧٥٣ في ابن ماجه و١٨٧٦ في مسلم. وانظر مشارع الأشواق ص ٢٢٣ - ٢٢٦ و ٦٦٥- ٦٦٦ و٧١٧.

عن حياة المسلم يعني خلل العقيدة وافتقاد اليقين، حتى إنه ليدركُ مراتب المنافقين[1]: «مَن ماتَ ولَم يَغزُ، أو يُحَدِّثْ بِهِ نَفسَهُ، ماتَ علَى شُعبةٍ مِن نِفاقٍ». فلا بد أن يكون المسلمون دائمًا على أُهبة للجهاد، يعدّون أنفسهم له، وينتظرون مزاولته تصديًا للعدوان والغدر والبطش والطغيان. وتحقيقًا لهذه المعاني في النفوس والتصرفات، جاء في الحديث الشريف وصف ما يلقاه الشهيد من إكرام المولى ـ تعالى ـ بأنه: «ما أحَدٌ يَدخُلُ الجَنّةَ يُحِبُّ أن يَرجِعَ إلَى الدُّنيا، ولَهُ ما علَى الأرضِ مِن شَيءٍ، إلّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أن يَرجِعَ إلَى الدُّنيا، فيُقتَلَ عَشْرَ مَرّاتٍ، لِما يَرَى مِنَ الكَرامةِ».[2]

والظاهر من هذا القول الكريم تفضيل الشهادة على البقاء في الجنة، ولكن المراد أبعد من ذلك، وهو إبراز ما في الجنة من النعيم الخاص بالشهيد إكرامًا وتقديرًا للبذل والفداء. ثم ليست الشهادة غاية مقصودة بذاتها، وإنما هي وسيلة للغاية القصوى: الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمته ونصرة دينه، بما شرع من الوسائل والأسباب. فالمجاهد في مقاومته المادية والمعنوية يطلب باستشهاده رضا لله، فيما بذل وقدّم بنيته الخالصة من كل كسب أو مطمع.

وإذا كان أعداؤه يتربصون به إحدى الحُسنيَينِ: النصر أو الشهادة، فإن الله منحه الحسنيَينِ معًا، لأنه حين يَستشهِد ويُستشهَد يكون قد حقق ذلك كله دُفعة واحدة. فقد افتدى دين الله والمسلمين والوطن الإسلامي بروحه وجسده، وزرع في الأرض دماء ترسم طريق النصر لمن معه أو بعده. وهذا نصر حقيقي للدعوة والدعاة، وإن كان يبدو يسيرًا في موازين بعض الغافلين. إنه خط عظيم الهمية في تاريخ الأمم التي تطلب حياة العزة والفخار والعبودية لله وحده.

---

(١) الحديث ١٩١٠ في مسلم وسنن النسائي ٦: ٨ وسنن أبي داود ٢: ١٣.

(٢) الحديثان: ٢٦٦٢ في البخاري و ١٨٧٧ في مسلم. وانظر فتح الباري ٦: ٤٠ وعمدة القاري ١١: ٣٥٥.

وهذا يقتضي من أبناء الأمة ورعاتها متابعة الإعداد لوسائل المقاومة القتالية والاستعداد بممارسة الأعمال الحربية تدرُّبًا وإتقانًا، لتبقى المهارة والقدرات القتالية جاهزة للعمل وقت الحاجة. وإذا لم يكن داع لذلك اللقاء فلا بد من إحكام الحصون بالقوة والعتاد وحماية الحدود بالمرابَطة في ثغور حول الوطن الإسلامي، مع التدرب فيها مدةً معيّنةً كلَّ سنة، ليشارك المؤمن في حفظ الأُمّة وحماية البلاد والعباد، ويتأهَّب للقاء ما يكون من المعتدين.

ثم إن له أجرًا عظيمًا بهذا العمل الكريم، يستمر تسجيله له بعد شهادته أيضًا. فعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن رابَطَ في سَبِيلِ اللهِ يَومًا ولَيلةً كانَت لَهُ كَصِيامِ شَهرٍ كامِلٍ وقِيامِهِ. فإن ماتَ جَرَى علَيهِ عَمَلُهُ الَّذِي كانَ يَعمَلُ».[1] يعني أن أجر الجهاد يستمر له اعتدادُ أمثاله في موته، وكأنه يمارسه فعلًا في ميادين الحياة.

كل هذا وذاك للدفاع عن الحُرُمات: الدين والوطن والأُمّة والمال والأعراض والسيادة والعزة والكرامة. فإن كان قتل فهو الشهادة في سبيل الله، إذ أنه «مَن قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهُوَ شَهِيدٌ، ومَن قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهُوَ شَهِيدٌ، ومَن قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهُوَ شَهِيدٌ، مَن قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهُوَ شَهِيدٌ».[2]

هذا هو الحكم في الدفاع عن الحُرُمات العامّة لتحقيق الطمأنينة والأمن، للإسلام والمسلمين ومن كان في ذِمّتهم، وفيه أيضًا الدفاع عن الحُرْمة الخاصة بالإنسان نفسه. أعني ما هو معروف بالصِّيال، أي: هجوم فرد أو جماعة على إنسان، للاعتداء على حياته أو ماله أو عرضه، فيقاوم هذا المعتدَى عليه بالجهاد قتالًا في سبيل الله، ضمن الحدود الشرعية، فيكون مقتله استشهادًا أو

---

(١) سنن النسائي ٦: ٣٩ والمسند ٥: ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٢) سنن النسائي ٦: ١١٤ ـ ١١٦. وانظر سنن أبي داود ٤: ٣٣٩ ومغني المحتاج ٤: ١٩٤.

قتل المعتدي الأثيم، أو كلاهما معًا. ومقاومة المعتدَى عليه هنا أيضًا لا تنتظر أمر إمام أو خليفة، لأنها من أحكام التبليغ لا الإمامة.[1] وأنت ترى من هذا أن حُرُمات الفرد والأمة واحدة، في القيمة والمنزلة الجهادية.

ومن خلال ما ذكرنا حتى الآن، ترى أن المسلمين كانوا حينذاك يهيّؤون استعدادًا للمعارك التي ستحصل حتمًا مع المشركين من قريش وأنصارهم، ويزوّدون بالسلاح اللازم لذلك. وهذا هو الإرهاب في العُرف اللغوي والمفهوم الإسلامي، يعني أن مجموع الإعداد للسلاحِ والذخائر، وإحكام الحصون وحماية الحدود والمرابطةِ في الثغور، والتدرب الدائم على الممارسة لتكوين المهارة، سيرهب العدو فيُقلع عن طغيانه ويمتنع عن مباشرة عدوانه.

وإلّا كان الجهاد القتالي أي: المقاومة المسلحة. وليس هذا أيضًا في شيء من الإرهاب الذي يتردد ذكره اليوم بين الناس، لأنه لقاء حربي يكون النصر فيه لمن نصرَ اللهَ ورسوله وكان عمله في سبيل الله. أما المراد بسبيل الله فهو ما شرعه من أحكام للجهاد في القرآن الكريم والسُّنّة الشريفة ـ وقد فصلنا أمره فيما مضى ـ لإعلاء كلمته وإعزاز دينه،[2] دين الفطرة، أعني[3]: ﴿فِطرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ علَيها، لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ﴾. فمن حال دون ذلك بتسلط أو عدوان أو قهر، أو اعتدى على وطن أو أُمّة أو مال أو عرض، كان ظالمًا يجابَه بالمقاومة المسلحة حتى يردّ الحق إلى نصابه.

على هذه الحال، كانت الدولة الإسلامية الناشئة تُعِدُّ أبناءها المنكوبين بظلم قريش ومن لفّ لِفها: تزوّدهم بالذخائر النفسية المتفجرة، والتدريب القتالي الدائم، والمرابطة على حدود المدينة بالسهر والاستعداد، ومختلِف

---

(١) الجهاد في الإسلام ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٧٤.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم.

أنواع السلاح المناسب للمعارك القادمة. وفيها يكون تحقق مشروعية الجهاد، سحقًا للعدوان وتنكيلًا بمن تحدثه نفسه به، وثأرًا بما كان من قتل وتشريد، واستردادًا للحقوق المغتصبة، بعد تظلم وتصبر وتشرد وتهيؤ مريرات.

العرض التاريخي للمغازي:

فالحرب مُعلَنة في صدور المؤمنين، ومحقَّقة بفعل المشركين من قريش وشقائقها في جميع صورها، ولا غرو أن تندلع، في أيّة لحظة تكون بها المفاجأة. وخلال ذلك الاستعداد يكون استدراجٌ للعدو من قِبل المظلومين، ومناوراتٌ باردة للترهيب والإعلام، فمناوشاتٌ خفيفة حامية للتدريب وتكوين المهارة العملية، فمعاركُ دامية تحقق أساليب القتال ومنجَزاته فيما يلي:

١ـ **سرية حمزة:**(١) علم رسول الله ﷺ، في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، أن تجارة لقريش هي في الطريق من الشام إلى مكة ـ وهي فرصة لمواجهة قريش والنيل منها ما يمكن، باسترداد بعض حقوق المهاجرين المهضومة ـ فعقَدَ راية بيضاء لعمّه حمزة ﷺ بيد أبي مَرْثد الغَنَويّ، على سَرِيّة من ٣٠ مهاجرًا، لتُغير على العِير ومن معها من المشركين في أرض جُهينة.

وكأن قريشًا كانت تتوقع مثل هذا، فجمعت من أهل مكة للقافلة ٣٠٠ راكب مقاتل، بقيادة أبي جهل. فلما صارت في ساحل البحر لقيها المهاجرون، وكادت تتقد الحرب بين الجانبين. إلّا أنه حجز بينهما سيّد جُهني، هو مَجديّ ابن عمرٍو، وكان موادعًا للفريقين، فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن قتال أو صدام.

---

(١) السيرة ١: ٥٩٥ ـ ٥٩٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٤ ـ ٤٠٥ والكامل ٢: ١١١ والطبقات الكبرى ٢: ٦ وزاد المعاد ٣: ١٦٣ والبداية والنهاية ٢: ٢٣٨ وشرح المواهب ١: ٣٩٠ والاستيعاب ص ٢٧٠.

ورُوِي أن حمزة نظم قصيدة، يسجل فيها ما كان من ظلم قريش وجهلها، ويعتز براية الجهاد وخيبة أبي جهل:(١)

ألا يـا لَقَـومِي، لِلتَّحَـلُّمِ والجَهـلِ ... وللنَّقصِ، مِن رأيِ الرِّجال، ولِلعَقلِ!
ولِلرّاكِبِينـا، بالـمَظالِـمِ، لَـم نَطَـأْ ... لَهُم حُرُماتٍ، مِن سَوامٍ، ولا أهلِ!
كأنّـا تَبَلناهُـم، ولا تَبـلَ عِنـدَنـا ... لَهُم، غَيرُ أمرٍ بالعَفافِ، وبالـعَدلِ
فمـا بَرِحُـوا حَتَّـى انتَـدَبتُ لِغـارةٍ ... لَهُم، حَيثُ حَلُّوا، أبتَغِي راحةَ الفَضلِ
عَشِيّةَ سـارُوا، حاشِدِينَ، وكُلُّنـا ... مَراجِلُهُ، مِن غَيظِ أصحابِـهِ، تَغلِي
فثارَ أبُـو جَهـلٍ، هُنـالِكَ، بـاغِيًا ... فخـابَ، ورَدَّ اللهُ كَيـدَ أبِـي جَهـلِ
فيـا لَلُـؤَيٍّ، لا تُطِيعُـوا غُـواتَكُم ... وفِيئُو إلى الإسلامِ، والمَنهَجِ السَّهلِ

فرد عليه أبو جهل بقصيدة، ينعَى على المسلمين خروجَهم من دين الأجداد، ودعوتَهم للمشركين إلى ذلك، ويذكر التهديد لهم والتنكيل بهم، وقصده إياهم للقتال بغارة تفنيهم جميعًا، وكيف انتهى اللقاء بحجز الجُهني بينهم ومنع ما كان قد أعدّه من التقتيل:(٢)

أتَونـا بإفـكٍ، كَـي يُضِلُّوا عُـقُولَنا ... ولَيسَ مُضِلًّا إفكُهُم عَقلَ ذِي عَقلِ
فقُلنا لَهُـم: يـا قَومَنـا، لا تُخالِفُـوا ... عَلَى قَومِكُم، إنَّ الخِلافَ مَدَى الجَهلِ

---

(١) السيرة ١: ٥٩٦ - ٥٩٧ والروض الأنف ٢: ٥٦ والبداية والنهاية ٣: ٢٤٥. والتحلم: تكلف العقل والحلم. والسوام: الإبل الراعية. وتبلناهم أي: أصبناهم بظلم. وانتَدبت: أجبت الطلب. والمراجل: جمع مِرجَل. وهي القِدر، استعيرت لمكامن الحقد والغضب. ولؤيّ: قوم من قريش. والغواة: جمع الغاوي. وهو الضالّ. وفيئوا أي: عودوا والجؤوا.

(٢) السيرة ١: ٥٩٧ - ٥٩٨ والروض الأنف ٢: ٥٦ والبداية والنهاية ٣: ٢٤٦. والإفك: الكذب. والمدى: نهاية الشيء. والجماع: الجميع. وتيممت: قصدت. والملاحم: جمع ملحمة. وهي المكان تكثر فيه لحوم القتلى. والعكوف: جمع عاكف. وهو المقيم اللازم للمكان. وبلا تبل أي: لا يُثأر بها. وذكر ابن هشام أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكر نسبة القصيدتين.

فلَمّـا أبَـوا إلّا الخِـلافَ، وزَيَّـنُوا   جِماعَ الأُمُورِ، بالقَبِيحِ، مِنَ الفِعـلِ
تَيَمَّمـتُهُم، بالسّـاحِلَيـنِ، بغـارةٍ   لِأترُكَهُم كالعَصفِ،لَيسَ بذِي أصلِ
فلَولا ابنُ عَمرٍو كُنتُ غادَرتُ مِنهُمُ   مَلاحِمَ، لِلطَّيرِ العُكُوفِ، بلا تَبـلِ
فـإن تُبقِنِـي الأيّـامُ أرجِـعْ علَـيهِمُ،   ببِيضٍ رِقاقِ الحَدِّ، مُحدَثَةِ الصَّقلِ

٢ـ سرِيّة عُبيدة بن الحارث:(١) عاد الجيش بكسب ظاهر من تلك السرية المتقدمة، إذ بدا منه مقابلة بنيّة الحرب والانتقام، فكان في ذلك رفع لمعنويات المؤمنين أمام قريش وأعوانها، وتفاؤل بتدرج إلى آخَر تحقيقًا لإرادة الله. تعالى. وفي شهر شوال من السنة الأولى كان العائدون قد استقرت بهم الديار، وذاع أمرهم في القبائل، فأصبح من الواجب متابعة الاستدراج.

وحينذاك جهز الرسول الكريم ﷺ سَرِيّة ثانية في ٨٠ رجلًا من المهاجرين أيضًا، فيهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وأمثاله، وعقد رايتها لعُبيدة بن الحارث بن المطَّلب رضي الله عنه، وكانت بيضاء يحملها مِسطح بن أُثاثة. والقصد من هذه السرية هو تهديد قريش خارج ديارها، وإشعارها بتصميم المؤمنين على الثأر والانتقام.

سارت هذه الجماعة المباركة حتى وصلت ماء في ثنيّة بالحجاز من بطن رابغ، فلقيت جمعًا في ٢٠٠ من العدو بإمرة عِكرمة بن أبي جهل، ونجا هذا مع أصحابه دون قتال، ليحتمي بالحرم المقدس أيضًا، فانصرف المسلمون عائدين إلى المدينة بنصر جديد أظهر مما كان قبل.

وقد فرّ من بين المشركين اثنان، هما المِقداد بن عمرٍو البهراني وعُتبة ابن غزوان المازني، ليلحقا بجماعة المهاجرين، وكانا مسلمَينِ من قبل،

---

(١) السيرة ١: ٥٩١ ـ ٥٩٢ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٤ والكامل ٢: ١١١ والطبقات الكبرى ٢: ٧ وزاد المعاد ٣: ١٦٣ والاستيعاب ص ١٠٢٠ ـ ١٠٢١ والإصابة ٤: ٤٢٥ والبداية والنهاية ٢: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

خرجا مع الكفّار ليتسنى لهما النجاة من إيذاء قريش. ورمى سعد بن وقاص ﵁ المشركين خلال ذلك بسهم لتحقيق الرغبة في القتال، فسُجل في التاريخ أول سهم رُمي به في الإسلام.

وبهذه الواقعة الخفيفة السريعة الناجحة، أطلق الشعر لأصحابه العِنان، فقال سعد يفتخر بجهاده ويسخر بقائد المشركين حينذاك:(١)

أَلا هَلَ أَتَى رَسُولَ اللهِ أَنِّي ... حَمَيتُ صَحابتِي، بصُدُورِ نَبلِي؟
أَذُودُ، بها، أوائلَهُم ذِيادًا، ... بكُلِّ حُزُونةٍ، وبكُلِّ سَهلِ
فما يَعتَدُّ رامٍ، في عَدُوٍّ، ... بسَهمٍ، يا رَسُولَ اللهِ، قَبلِي
فمَهلًا، قَد غَوَيتَ، فلا تَعِبْنِي ... غَوِيَّ الحَيِّ، وَيحَكَ، يا بنَ جَهلِ

وقال أبو بكر الصِّدِّيق في هذه الوقعة، يذكر ضلال قريش وإصرارها على الكفر والطغيان، ويدعوها إلى الحق والبر، ويهددها بالغزو المبيد:(٢)

تَرَى، مِن لُؤَيٍّ، فِرقةً لا يَصُدُّها ... عَنِ الكُفرِ تَذكِيرٌ، ولا بَعثُ باعِثِ
فإن يَرجِعُوا، عَن كُفرِهِم وعُقُوقِهِم، ... فما طَيِّباتُ الحِلِّ مِثلُ الخَبائثِ
وإن يَركَبُوا طُغيانَهُم وضَلالَهُم ... فلَيسَ عَذابُ اللهِ، عَنهُم، بلابِثِ

---

(١) السيرة ١: ٥٩٤ - ٥٩٥ والروض الأنف ٢: ٥٦ والبداية والنهاية ٣: ٢٤٤ والاستيعاب ص ٦٠٧ - ٦٠٨ والإصابة ٣: ٧٧. وأذود: أطرد وأحمي. والحزونة: الأرض الوعرة. ويعتد به أي: يذكره ويفخر به. وغويت: ضللت. يخاطب عكرمة بن أبي جهل ويناديه ويوبخه.

(٢) السيرة ١: ٥٩٢ - ٥٩٣ والروض الأنف ٢: ٥٥ والبداية والنهاية ٣: ٢٤٣. ولؤي: بطن من قريش. والبعث: التحريض والحث. والخبائث: جمع خبيثة. واللابث: المبطئ. والحانث: المخالف المبطل لما أقسم عليه. وتبتدرهم أي: تفاجئهم. والمصدق: القوة والبأس. والأطهار: جمع طُهر. وهو الخلوّ من الحيض. والطوامث: جمع طامث. وهي الحائض. يعني أن الغارة تشغلهم عن مضاجعة النساء.

لَئن لَم يُفِيقُوا عاجِلًا ،مِن ضَلالِهِم، ولَستُ، إذا آلَيتُ قَولًا ، بحانِثِ
لَتَبتَدِرَنْهُم غارةٌ، ذاتُ مَصدَقٍ تُحَرِّمُ أطهارَ النِّساءِ الطَّوامِثِ

فأجابه عبد الله بن الزِّبَعرَى، يسخر بما قال، ويعتز بميراث الوثنية، مدعيًا خوف المسلمين، ومهددًا بالفناء:[1]

ومِن عَجَبِ الأيّامِ، والدَّهرُ كُلُّهُ لَهُ عَجَبٌ، مِن سابقاتٍ وحادِثِ
لِجَيشٍ، أتانا ذِي عُرامٍ، يَقُودُهُ عُبَيدةُ ،يُدعَى في الهِياجِ ابنَ حارِثِ
لِنَترُكَ أصنامًا، بمَكّةَ عُكَّفًا مَوارِيثَ مَورُوثٍ كَرِيمٍ، لِوارِثِ
فكَفُّوا، علَى خَوفٍ شَدِيدٍ وهَيبةٍ، وأعجَبَهُم أمرٌ، لَهُم، غَيرُ رائِثِ
ولَو أنَّهُم لَم يَفعَلُوا ناحَ نِسْوةٌ أيامَى لَهُم، مِن بَينِ نَسءٍ وطامِثِ

ومهما يكن فقد تركت هذه السرية أثرًا جديدًا، يعزز ما كان لغزوة حمزة، إذ بدا تهلهل صف قريش بتحول اثنين منها إلى جيش المسلمين، وعلمت أن المهاجرين غير تاركيها تنعم بالاستبداد والغصب والعدوان، وأن المقاومة المسلحة ستكون مستمرة حتى يعود الحق إلى أصحابه.

٣ - سرية سعد:[2] بعث النبي الكريم في ذي القعدة من السنة الأولى سعد بن أبي وقاص ﵁ بسرية، في ٢٠ من المهاجرين، لمطاردة بعض قريش في تجارة لهم، فخرج حتى بلغ الخرّار من أرض الحجاز، ولم يلق المشركين خارج مكة حيث هربوا يحتمون بالحَرَم، فرجع دون حرب.

---

(١) السيرة ١: ٥٩٣ - ٥٩٤ والروض الأنف ٢: ٥٥ والبداية والنهاية ٣: ٢٤٤. والعُرام: الشِّدة. والهياج: الحرب. والرائث: المتمهل المقدر للعواقب. والأيامى: جمع أيِّمَى. وهي الأيّم، أي: التي فقدت زوجها. والنسء: التي تأخر حيضها. وذكرابن هشام أن أكثر أهل العِلم بالشعر ينكر نسبة هذه الأشعار. وكذلك حال بعض ما سيلي في المغازي.

(٢) السيرة ١: ٦٠٠ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٦ والكامل ٢: ١١٢ والطبقات الكبرى ٢: ٧ وزاد المعاد ٣: ١٦٤ ومعجم البلاد ٢: ٣٥٠.

٤ ـ غزوة وَدّانَ:[(١)] في ختام العام الأول من الهجرة، اكتمل الإعداد للجهاد الدامي بين يدَيِ القائد الحكيم ﷺ، بعد التهيئات المادية والمعنوية، والتجارب الثلاث في السرايا المتقدمة، أمام عدوّ يتهيب اللقاء، وهو فرح بما لديه من نصر على المهاجرين: تشريد لهم وغصب للمال والأهل، بعدَ تعذيب وإهانة وتقتيل وحرمان.

كان على القائد العظيم إذًا أن يَشرع بنفسه في الجهاد العملي، فخرج بجيشه الناشئ من المهاجرين في أول غزوة للباغين من قريش، وحلفائها بني ضَمرة بن بكر الكِنانيين. كان خروجه في شهر صفر من العام الهجري الثاني بعد مضي الأشهر الحُرُم.

كان اللواء أبيض بيد حمزة، واستمر الذهاب في طريق مكة حتى لقي بني ضَمرة في قرية ودّان، ويقال: أنواط، فوادعه هؤلاء بعهد في كتاب على المسالمة وعدم المحاربة، إذ لم يكن لهم رغبة في معاداةٍ لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وتولَّى تلك المعاهدة سيدهم مَخشيّ بن عمرو.

صار هذا كافيًا للحملة الإعلامية الأولى، لأنه لا مجال لغزو قريش في الحَرَم. فهي تحتمي فيه، وسيبلّغها خُذلان حلفائها لها، فتعلم أن الأمر بلغ حد الانفجار، بعد انطواء أعوام على التظلم والاصطبار. ولذلك رجع الجيش دون قتال، إذ الموادعة نصر محقق، وكسب لبعض أحلاف قريش. فقد تخلَّوا عن نصرتها من ناحية، وأصبحوا مسالمين للدولة الإسلامية من ناحية ثانية. وهذا منتهى الظفر في منطق المناورات الحربية.

---

(١) يقال لها أيضًا: غزوة الأبواء. السيرة ١: ٥٩٠ ـ ٥٩١ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٤ والكامل ٢: ١١١ ـ ١١٢ والمحبر ص ١١٠ والطبقات الكبرى ٢: ٨.

٥ ـ **غزوة بُواط:**[(١)] إنك لترى، مما مضى في الوقائع المتلاحقة، أن الفريقين مستعدان للحرب في كل لحظة، ينتظران الظروف المواتية ليلتحم بعضهما في بعض، وكل يُعِدّ لخصمه الجيوش والمواقف، ثم يَجِدّ في لقائه ومناجزته. إلّا أن فتيلة الحرب لم تشتعل بعد، لحُؤول بعض الموانع الشخصية أو الاجتماعية آنذاك.

لكن هذا لم يُنه العداوة بينهما، لأنها مؤرّثة بماض يملؤه التسلط والبغي من جهة، والتظلم وطلب الثأر من جهة ثانية. أما سائر الناس المحيطين بالدعوة، من المشركين وأهل الكتاب، فقد عاشوا بعيدين عن هذه الوقائع، إذ ليسوا معادين ولا مخاصمين. بل إن بعضهم كان له عهود موثقة للمسالمة. وهذا يعني أن الجهاد الإسلامي منصبّ على المعتدين الآثمين فقط.

ولذلك التوجُّه وحده ترى أنه، في ربيع الأول من العام الثاني، قد جهز النبي ﷺ جيشًا فيه ٢٠٠ من أصحابه، يريد عِيرَ قريش، والراية بيد سعد بن أبي وقاص. كان في العِير ٢٥٠٠ بعير معها ١٠٠ رجل بقيادة أُميّة بن خلف. فسار جيش النبوة حتى بلغ جبلًا قرب يَنبع، يقال له: بُواط. وهناك علم القائد العظيم أن قريشًا قد نجت بمالِها، فرجع إلى المدينة، دون أن يلقى كيدًا، وأقام فيها يستعد للقاء آخَر.

٦ ـ **غزوة سَفَوان:**[(٢)] غزا كُرْز بن جابر الفِهري من كِنانة بعضَ الإبل

---

(١) السيرة ١: ٥٩٨ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٥ والكامل ٢: ١١٢ والطبقات الكبرى ٢: ٨ ـ ٩ وزاد المعاد ٣: ١٦٥ والبداية والنهاية ٢: ٣٦١ وعيون الأثر ١: ٢٢٦ ومعجم البلدان ١: ٥٠٣.

(٢) يقال لها أيضًا: غزوة بدر الأولى. السيرة ١: ٦٠١ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٧ والكامل ٢: ١١٢ ومعجم البلدان ٣: ٢٢٥ والمحبر ص ١١١ والطبقات الكبرى ٢: ٩ وزاد المعاد ٣: ١٦٦والاستيعاب ص ١٣١٠.

الراعية بعيدًا عن المدينة، واستاقها هاربًا بها نحو مكة. كان ذلك في ربيع الأول أيضًا، فخرج النبي ﷺ مع بعض المهاجرين لمتابعته، واللواء بيد عليّ، وبقي يلاحقه حتى وصل إلى وادي سَفَوان قريبًا من بدر، ولم يدركه فيه إذ صار قريبًا من الحرم يحتمي به. وهناك لقي بني غِفار وبني أسلم، فكتب بينه وبينهم كتاب مُدامَجة،(١) وعاد إلى المدينة دون أن يلقى كيدًا.

٧ ـ **غزوة العُشيرة:**(٢) سار الرسول الكريم في جُمادى الآخرة بجيش من ٢٠٠ مهاجر، يريد قريشًا وما معها من تجارة إلى الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب، والراية بيضاء يحملها حمزة، فسلك السبيل حتى أدرك فيفاء الخَبار بنواحي العقيق، حيث نزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر، يقال لها: ذات الساق، فصلى عندها ـ وصار في المكان مسجد بعد ـ وصُنع له طعام ثَمّةَ فأكل منه وأكل الناس معه، واستُقي له من ماء هناك يقال له: المُشَيرِب. وما يزال موضع الأثافي معروفًا هناك.

ثم سار نحو مجتمعات قريش وأحلافها بعيدًا عن الحَرم، حتى نزل في العُشيرة من بطن يَنبع، وقد نجت قريش بما معها قبل ذلك، فأقام عدّة أيام. وهناك وادعَ بني مُدلج بن مُرة الكِنانيين بعهد مكتوب، وكانوا من حلفاء قريش، وانضم إليهم في ذلك حلفاؤهم من بني ضَمرة بن بكر الكِنانيون، ثم رجع إلى المدينة دون قتال، وبكسب سياسي جديد يَخذل قريشًا.

---

(١) المدامجة: المقاربة والتعاون في التعامل.

(٢) يقال لها أيضًا: ذات العُشيرة. السيرة ١: ٥٩٨ ـ ٥٩٩ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٥ ـ ٤٠٩ والكامل ٢: ١١٢ والمحبر ص ١١٠والطبقات الكبرى ٢: ٩ ـ ١٠ وزاد المعاد ٣: ١٦٦ وعيون الأثر ١: ٢٢٦ والبداية والنهاية ٢: ٣٦١.

٨ ـ **سرية نخلة:**[١] لما رجع رسول الله من غزوة سفَوان جهّز سرية من ١٢ مهاجرًا، ثم جعل عليهم عبد الله بن جحش الأسدي ﷺ، سمّاه أمير المؤمنين، وكتب له كتابًا وأمره ألّا ينظر فيه قبل يومين من مسيره ـ وهو في أواخر رجب ـ حيث يكون في وادي مَلَل، فيمضي لما في الكتاب من أمر، ولا يستكره من أصحابه أحدًا على ما يكون.

فض عبد الله في وادي مَلَل كتاب رسول الله، فإذا فيه أن يمضي إلى وادي نخلة، بين مكة والطائف، ليرصد قريشًا ويعود بأخبارها إلى المدينة. ثم قال لأصحابه: «من كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلْينطلق، ومن كره ذلك فليرجع». فتابع القوم المسير معه، ثم تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان رضي الله عنهما للبحث عن بعير لهما ضل عنهما.

وفي وادي نخلة مرّت بالسريّة عِير لقريش تحمل تجارة زبيب وأدَم، وفيها عمرُو بن الحضرمي مع ثلاثة آخَرين، فتردد القوم في الإقدام عليهم، لأنهم في آخر يوم من الشهر الحرام رجب. فإن قاتلوهم كان ذلك منكرًا، وإن تركوهم دخلوا مكة وامتنعوا بالحَرَم. ثم أجمعوا على الإقدام وقتلوا ابن الحضرمي، وأسروا اثنين وهرب الرابع، فكان هذا أُولَى مقاومة مسلحة بين المسلمين ومشركي قريش، واستاقوا العِير بما فيها إلى المدينة.

وهناك لقيهم الرسول ﷺ بالإنكار، وتوقف في شأن العِير والأسيرين، لأنه طلب منهم رصد أخبار العدو، ولم يأمرهم بقتال في الشهر الحرام. فعنّفهم إخوانهم فيما صنعوا، وأشاعت قريش أنِ محمدًا استحلّ الشهر الحرام، وتفاءل اليهود بتوقد الحرب بين الطرفين.

---

(١) السيرة ١: ٦٠١ ـ ٦٠٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤١٠ ـ ٤١٥ والكامل ٢: ١١٣ ـ ١١٥ وزاد المعاد ٣: ١٦٧ ـ ١٧١ والطبقات ٢: ١٠ ـ ١١ وعيون الأثر ١: ٢٢٧ والبداية والنهاية ٢: ٣٦٦ ـ ٣٧١ والمحبر ص ١١٦.

كان وقع ذلك على أفراد السريّة عظيمًا، وظنوا أنهم هلَكوا بما فعلوا، فأنزل الله الحكم في ذلك، وهو أن ما فعلتْه وتفعله قريش من كفر ومنع للتوحيد وتعذيب وتشريد وظلم أعظم خطرًا مما جرى في السريّة، لأن الفتنة أكبر من القتل[1]: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرامِ، قِتالٍ فِيهِ. قُلْ: قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ، وصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وكُفرٌ بِهِ والمَسجِدِ الحَرامِ وإخراجُ أهلِهِ مِنهُ، أكبَرُ عِندَ اللهِ﴾.

وبهذا وضح أن ما حدث أمر لا بأس فيه، فقبل النبي ﷺ ما كان من العير والأسر. ثم رضي فداء الأسيرين، وأسلم أحدهما وبقي في المدينة، وهو الحَكَم بن كَيسان. أما رجال السريّة فطمعوا أن يكون لهم أيضًا أجر المجاهدين، فنزل قول الله، جل وعلا: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، والَّذِينَ هاجَرُوا وجاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ، أُولئكَ يَرجُونَ رَحمةَ اللهِ. واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2]

وفيما جرى من أمر السرية هذه، وتعيير قريش بما كان، قال عبد الله أبياتًا، يرد على مزاعم قريش، ويشنّع عليها ما تقوم به من الكفر والظلم والتشريد، ويفخر بقتل من قُتل وأسر من أُسر:[3]

تَعُدُّونَ قَتلًا، في الحَرامِ، عَظِيمةً ... وأعظَمُ مِنهُ، لَو يَرَى الرُّشدَ راشِدُ
صُدُودُكُمُ، عَمّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ... وكُفرٌ بِهِ، واللهُ راءٍ وشاهِدُ
وإخراجُكُم، مِن مَسجِدِ اللهِ، أهلَهُ ... لِئلّا يُرَى، للهِ في البَيتِ، ساجِدُ
سَقَينا، مِنِ ابنِ الحَضرَمِيِّ، رِماحَنا ... بنَخلةَ، لَمّا أوقَدَ الحَربَ واقِدُ

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

(٣) السيرة ١: ٦٠٥ - ٦٠٦ والروض الأنف ٢: ٦٠ والبداية والنهاية ٣: ٢٥٢. ونسبت الأبيات هذه إلى أبي بكر. والعظيمة: الجناية الفادحة. وابن الحضرمي هو عمرو الذي رماه يومذاك واقد بن عبد الله اليربوعي بسهم فقتله.

٩ ـ **غزوة يَنبُع:**[١] خرج رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من شعبان للسنة الثانية، يطلب قريشًا، فسار حتى بلغ مدينة يَنبُع، ورجع ولم يلق كيدًا.

١٠ ـ **غزوة بدر:**[٢] رأيتَ في الوقائع التسع الماضية تحقيقًا واضحًا، لمشروعية الجهاد المسلح في الإسلام. إنه الردّ العملي على ما كان من طغيان قريش وجبروتها، وتنفيذ لما توجبه الأعراف الإنسانية في مثل هذه الأحوال.

فما لقيه المسلمون في مكة، من تعذيب وإهانة وقتل وحبس وإكراه على الكفر وتهجير من الوطن، وسلب للمال والأهل والأولاد، يقتضي من الدولة الإسلامية التي حوتهم وأعدّتهم للجهاد بالصبر والعبادة والتدريب والتهيئة أن تؤدّب المعتدين وتقمعهم، وترد للمعتدَى عليهم ما أمكن من حقوقهم المغتصبة.

ولذا كانت المغازي ـ أعني الغزوات والسرايا ـ المتقدمة تقتنص غفَلات قريش، لتنقض على بعض أبنائها، وشيء من أموالها وسيادتها، بالمطاردة والتهجم والمناوشات الخفيفة، تهيئة ليوم لقاء يكون فيه تصفية لكثير من المترسّبات في الماضي بين الطرفين. وكان فعلًا ما هو منتظر من قيادة المؤمنين، فخذّلت عن قريش بعض حلفائها، واكتسبت بعضًا آخر بالإيمان، وغنمت شيئًا من أموالها، وقتلت واحدًا منها وأسرت اثنين، وكان كُرْز الفِهري قد غزا سرحًا في المدينة ونجا به، كما رأينا فيما مضى.

---

(١) المحبر ص ١١١ ومعجم البلدان ٥: ٤٥٠.

(٢) الأحاديث: ٣٧٣٤ ـ ٣٨٠٣ في البخاري و ١٢٥٤ في مسلم والسيرة ١: ٦٠٦ ـ ٧١٥ و٢: ١ ـ ٤٣ وتاريخ الطبري ٢: ٤١٨ ـ ٤٧٩ والكامل ٢: ١١٦ ـ ١٣٧ وأنساب الأشراف ١: ٢٨٨ ـ ٣٠٩ والطبقات الكبرى ٢: ١١ ـ ٢٧ وزاد المعاد ٣: ١٧١ ـ ١٨٨ والبداية والنهاية ٢: ٣٨٠ ـ ٥١٥ وعيون الأثر ١: ٢٣٠ ومشارع الأشواق ص ٨٤٥ ـ ٨٥٧ وشرح المواهب ١: ٤٠٦ ـ ٤٥٣ وروح المعاني ٩: ١٨٧ ومعجم البلدان ١: ٣٥٧ ـ ٣٥٨ والمعارف ص ١٥٢ ـ ١٥٨.

وهذا يعني أن النفوس والأسلحة والأعتدة قد توطدت فيها الظروف القتالية، وأصبحت جاهزة لخوض المعارك الدامية، بجميع أشكالها وأساليبها المعهودة. فالنفوس تترقب، والأسلحة تُتعهد بالإصلاح والصيانة، والأعتدة تخزَّن لخوض ميادين الصراع الدامي، بعد بضعة عشر عامًا من الصبر والاحتمال.

وخلال هذا الترقب المتلهب، حاولت قريش أن تخذّل المنافقين ويهودَ، وتحملهم على حرب المسلمين، فكتبتْ إلى الأولِين[1]: «إنكم آويتم أصحابنا، وإنّا نُقسِم بالله لتُقاتلُنّه أو لنَسيرَنّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مُقاتِلتكم ونستبيح نساءكم». ثم كتبتْ إلى الآخَرين: «إنكم أهل الحلقة [أي: السلاح] والحصون، وإنكم لتُقاتلُنّ صاحبنا أو لنفعلنّ كذا وكذا. ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء».

ولكن هذا كله لم يؤثر في الجانبين حينذاك، وكانت عيون الدولة الإسلامية ترصد تحركات قريش، كما رأينا في سَرِيّة نخلة، فعلم الرسول القائد أن أبا سفيان بن حرب سيعود في مستهل رمضان من الشام بقافلة - وهي العِير التي كانت ذاهبة إلى الشام، وأفلتت في غزوة العُشيرة - في تجارة عظيمة لقريش يقدَّر ما تحمله بمبلغ ٥٠٠٠٠ دينارٍ حينئذ، ومعه عشرات من الرجال للحراسة والحماية.

كان هذا، مع أمر الوحي بالخروج للجهاد والانتصاف من الباغين، كافيًا لندب المسلمين إلى اعتراض سبيل التجارة بمن معها وتحصيل ما يتيسر من ذلك، فقال النبي العظيم ﷺ للصحابة الكرام: هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم. فاخرجوا إليها، لعلّ الله يُنفِلْكُمُوها.

ثم تجهز للمسير، فخرج معه ٣٠٠ وبضعة عشر رجلًا من المهاجرين

---

(١) الوثائق السياسية ص ٤٨.

والأنصار، على ٧٠ بعيرًا يتعاقبون ركوبها، لنيل تلك العِير بما فيها، وأرسل النبي ﷺ من يتحسس له أخبار القافلة، ويأتيه بالخبر اليقين، ليكون على بيّنة من التدبير والتصرف.

كان أبو سفيان يتتبع الأخبار أيضًا ويسأل من يلقى من الرُّكبان، حتى علم بذلك، فبعث إلى مكة من يستنفر قريشًا لحماية أموالها. حينذاك تجهز المشركون بسرعة في جيش يجمع أشرافهم وفرسانهم إلّا أبا لهب لمرض فيه، فاحتشد أكثر من ١٠٠٠ مقاتل، وأصلحوا خلافهم مع بني بكر بن عبد مناة، ليأمنوا جانبهم بعد المسير.

حصل الخروج من المدينة المنورة لثماني ليال من رمضان، والراية البيضاء يحملها مُصعب بن عُمير رضي الله عنه، ورايتان سوداوان إحداهما بيد علي والثانية مع سعد بن معاذ رضي الله عنه. ولما علم النبي الكريم بخروج قريش للحرب استشار أصحابه، إذ كانوا قد نفروا للعِير ولم يستعدوا للقاء جيش، قائلًا: أشِيروا عليَّ، أيُّها الناس.

وأجابه المهاجرون والأنصار جميعًا بالعزم على الجهاد معه حتى الموت، فسُرّ لذلك كثيرًا وازداد حماسة ونشاطًا، وقال لهم: «سِيروا وأبشِروا. فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. واللهِ، لكأني أنظر إلى مَصارع القوم». وروي أنه التحق به رجل من غير المسلمين، فقال له: أتؤمن بالله؟ قال: لا. قال له: ارجع. فلن أستعين بمُشرك.

أما أبو سفيان فقد ساحَلَ في العِير باتجاه آخَر متفاديًا اللقاء، ونجا بمن معه، فأرسل إلى كتائب قريش يعلمها بنجاة المال والرجال، لترجع عن عزمها على الحرب. ولكن أبا جهل أقسم أن يذهب إلى بدر ويقيم فيها الأفراح، لترسيخ الهيبة في قلوب العرب. وخالفه بنو زُهرة بزعامة الأخنس بن شُريق،

وأفراد آخرون فانخزلوا عنه، ورجعوا مع طالب بن أبي طالب، وهو ينشد قصْده للمسالمة، ويدعو على نفسه بالخسران إذا حاربَ:[١]

لاهُـمَّ، إمّـا يَغـزُوَنَّ طـالِـبْ في مِقـنَبٍ، مِن هـذِهِ المَقانِـبْ

فلْيَكُنِ المَسلُوبَ، غَيرَ السّالِبْ

وقد غضب أبو جهل لذلك، وأصرّ على الحرب والقتال، ثم وقف يستفتح، أي: يدعو الله بإهلاك المعتدي من الجانبَين: «اللّهمَّ، أقطعُنا للرَّحِمِ وآتانا بما لا يُعرفُ فأحِنْه الغَداة». أي: أهلكْه هذا الصباح. وقد نزل الوحي بعدُ، يخاطب من بقي من المشركين، متهكمًا بما كان من ذلك الدعاء[٢]: ﴿إن تَستَفتِحُوا فقَد جاءكُمُ الفَتحُ، وإن تَنتَهُوا فهُوَ خَيرٌ لكُم، وإن تَعُودُوا نَعُدْ، ولَن تُغنِيَ عَنكُم فِئَتُكُم شَيئًا، ولَو كَثُرَت. وأنَّ اللهَ مَعَ المُؤمِنينَ﴾.

ولمّا نزل جيش المسلمين في أرض سبخة بعيدة عن الماء أشار الحُباب ابن المنذر ﷺ على النبي الكريم أن يكون موقعهم قرب الماء، ويجعلوا له حوضًا يملؤونه، ويغوّروا ما وراءه من الآبار، ليمنعوا عن المشركين الماء. وقد جاء الوحي على لسان جبريل بأن الرأي ما أشار به الحُباب، فكان ذلك.

ثم أنزل الله على المسلمين طلًّا وطّأ الأرض وطهّرهم، وعلى المشركين وابلًا شديدًا ثبّطهم، وأشرف النبي القائد ﷺ على موضع المعركة، فجعل يشير بيده ويبشر المؤمنين بقوله: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، إن شاء الله». وقد حصل في الغزوة فعلًا ما قال، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته.

---

(١) السيرة ١: ٦١٩ وتاريخ الطبري ٢: ٤٣٩ والكامل ٢: ١٢١. ولاهمّ أي: اللّهمّ. والمقنب: جماعة الخيل فيما يقرب من ثلاثِمائَة.

(٢) الآية ١٩ من سورة الأنفال.

وفي الصباح تقابل الجيشان ببدر، فشرع النبي ﷺ يعدل الصفوف. فلما رأى تقدم سَواد بن غزيّة رضي الله عنه على زملائه ضرب بطنه بعود كان في يمينه، ينبهه إلى وجوب الانتظام، وقال له: استوِ، يا سَوادُ. فقال: أوجعتَني - وقد بعثك الله بالحق - فأقِدْني. فكشف النبي العظيم عن بطنه الشريف وقال: «استقِدْ»، فاعتنقه سواد يقبّل بطنه. قال: ما حملك على هذا؟ يا سواد. قال: يارسول الله، حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدَك. فدعا له النبي بخير.

ثم شرع يدعو اللهَ أن ينصر المؤمنين: «اللّهمَّ، إني أنشُدك عهدك ووعدك»، ويحرضهم بقوله: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيُقتلُ صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، إلّا أدخله الله الجَنّة». فقال عُمير بن الحُمام رضي الله عنه، وفي يده تمَرات يأكلهنّ: بَخْ بَخْ![1] فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلّا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف بالتمَرات وأخذ سيفه ليكون شهيدًا. وأخذ النبي ملء كفه من الحصباء، ورمى بها وجوه العدو، يدعو عليه بالهزيمة والانكسار.

أما هؤلاء فخرج فيهم حَكيم بن حزام وعُتبة بن ربيعة، يطلبان من أبي جهل أن يعود الجيش إلى مكة بدون حرب، فأبى وأمر أخا عَمرِو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عَمرو - وكان قُتل في سريّة نخلة - فكشف هذا عنِ استه أمام القوم، وصرخ بحرقة: واعَمراهْ. فحميت نفوس المشركين واندفعوا للموت والثأر.

بدأت المعركة بمبارزة ثلاثة من الصحابة رضي الله عنهم لأكفائهم من قريش: عُبيدةُ ابن الحارث لعُتبة بن ربيعة، وحمزة لشَيبة بن ربيعة، وعليّ للوليد بن عُتبة، فقُتِل المشركون الثلاثة، وتزاحف الجانبان فالتحما، وكان النبي العظيم ﷺ قد نها أصحابه عن قتل من خرج كُرهًا مع جيش المشركين، ومنهم العباس بن

---

(١) أي: العجب العجب.

عبد المطلب، وأبو البَخترَي العاص بن هشام، لأنه كان في مكة يثبط الناس عنه وممن نقض صحيفة المحاصرة والمقاطعة.

وعندما التحم الجيشان كان عُمير بن الحُمام ﷺ أول من أسرع، وهو ينشد:(١)

رَكــضًـا، إلَــى اللهِ، بـغَـيـــرِ زادِ   إلّا التُّقَـــى، وعَـمَــلِ الـمَـعَــادِ
والـصَّبرِ، فـي اللهِ، علَـى الجِهـادِ   وكُـــلُّ زادٍ عُـرضــةُ الـنَّـفـــادِ
غَيـرُ التُّقَى، والـبِـرِّ والرَّشـادِ

ودخل في صفوف المشركين يقاتل، حتى نال الشهادة.

ولقي أحدُ الصحابة أبا البَختَري ومعه زميل له من مكة، فطلبْ منه أن يستأسر لنهي النبي ﷺ عن قتله، فأبى إلّا إذا سلم معه زميله، قائلًا: لا واللهِ إذًا، لأموتنّ أنا وهو جميعًا، لا تَحَدَّثُ عني نساء قريش من أهل مكة، أني تركت زميلي حِرصًا على الحياة. ثم قاتل وهو يرتجز:(٢)

لَـن يُسلِمَ ابـنُ حُـرّةٍ أكِيــلَـهْ   حَتَّـى يَمُـوتَ، أو يَــرَى سَبِيـلَهْ

وحقق الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعده بإنزال الملائكة، وعليهم عمائمُ بيضٌ مرسلة في ظهورهم، لعون المؤمنين على الأعداء، يضربون فوق الأعناق ويضربون كل بنان. وهكذا استمرت المعركة في القتل والأسر، حتى كان النصر وهُزم المشركون تاركين قتلاهم وأسلابهم، لا يَلوُون على شيء.

أما أبو جهل فكان يصول ويجول بين الطرفين، متحدّيًا الأبطال، وهو

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٨ والبداية والنهاية ٣: ٢٧٧ ومشارع الأشواق ص ٢١٢. والنفاد: الذهاب والاضمحلال.

(٢) السيرة ١: ٦٣٠ وتاريخ الطبري ٢: ٤٥١.

يردّد قول الراجز:[1]

ما تَنقِمُ الحَربُ العَوانُ، مِنِّي ... بازِلُ عامَينِ، حَدِيثٌ سِنِّي؟
لِمِثلِ هذا، وَلَدَتنِي أُمِّي

ولما صادفه مُعاذ بن عمرو ﵁ حمل عليه، وأطَنَّ قدمَه بنصف ساقها، فتلقى عِكرمة بن أبي جهل مُعاذًا بضربة على عاتقه، أطاحت يده، وهي متعلقة بجلدة من جنبه. ومع هذا فقد لبث معاذ يقاتل عامّة يومه، وهو مشغول عنها يسحبها خلفه. فلما شعر بها تؤذيه وضع عليها رجله، وتمطى بها عليها حتى طرحها عنه. ثم شدّ الفَتَيانِ ابنا عفراء ﵄ على أبي جهل مثل الصقرين ـ وقد عاهد كل منهما الله أن يقتله أو يموت دونه ـ فما زالا يضربانه حتى بَرَدَ في الأرض، مجرّحًا متطامنًا وبه رمق. ومر به أيضًا عبد الله بن مسعود ﵁ وهو يطوف بين المتحاربين. قال:

فوجدته بآخِرِ رمق، فوضعتُ رجلي على عنقه، ثم قلتُ له: أأنتَ أبو جهل؟ هل أخزاك اللهُ؟ ياعدوَّ اللهِ. قال: وبماذا أخزاني؟ هل أعْمَدُ مِن رجلٍ قتلتموه؟[2] أخبِرْني: لمن الدائرةُ اليومَ؟ قلتُ: للهِ ورسوله. وهل أخزاك اللهُ؟ يا عدوَّ اللهِ. قال: وهل فوق رجلٍ قتله قومُه؟ لقد ارتقَيتَ مُرتقًى صعبًا، يا رُوَيعِيَ الغنمِ. قلت: إني قاتِلُك. قال: ما أنت بأول عبد قتل سيّده. أما إن أشدّ شيء لقيتُه اليوم قتلُك إيّاي. وألا قتلني رجل من المطيَّبينَ الأحلاف.

ثم احتززتُ رأسَه، وجئت به رسول الله ﷺ فقلت: هذا رأس عدوّ الله أبي جهل. فقال: «آللهِ الذي لا إلهَ غيرُه»؟ ردّدَها ثلاثًا، وكانت هذه يمينَ

---

(١) السيرة ١: ٦٣٤. والعوان: المتكررة مرارًا. والبازل: البعير خرج نابه، وعامين أي: منذ عامين. استعار ذلك لفتوته وشبابه.

(٢) يعني: هل أعجب من رجل قتلتموه؟ هل زاد على رجل كان منه كذا؟ أعارٌ عليه؟ ليس بعار. يريد التحقير منه لفعلهم به. النهاية وغريب الحديث واللسان والتاج (عمد).

رسول الله ﷺ. قلتُ: نعم، واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه. ثم ألقيتُ رأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحَمِدَ اللهَ وسجد شاكرًا. وقال: اللهُ أكبر. الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده. انطلِقْ أرِنِيه. فانطلقتُ فأريته إياه، فقال: هذا فرعونُ هذه الأُمّةِ.

أمّا أُميّة بن خلف فمرّ به عبد الرحمن بن عوف ﵁، وقد غنم أدراعًا، فقال له أُميّة وابنه عليّ: نحن خير لك من هذه الأدراع. أي: أسرُهما أعظم من الغنيمة. فطرح الأدراع، ومشى بهما أسيرَين له. سأل أُميّة عبدَ الرحمن: مَن الرجل المُعلِم في صدره بريشة نعامة؟ فقال له: ذلك حمزة بن عبد المطلب. فقال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيلَ. ولمّا رأى الصحابيُّ بلالٌ ﵁ أميّةَ، وكان قد عذّبه أشد العذاب بمكة، صرخ: أُميّةُ رأسُ الكفر! لا نجوتُ إن نجا. يا أنصارَ الله، رأسُ الكفر أُميّة بن خلف. لا نجوتُ إن نجا.

فأحاط بهما المسلمون، وقتلوا أُميّة وابنه. فكان عبد الرحمن بن عوف يقول: رحم الله بلالًا. ذهبتْ أدراعي، وفجعني بأسيرَيّ.(١) وقال أبو بكر ﵁ يمتدح فعل بلال ويهنئه بثأره:(٢)

هَنِيئًا، زادَكَ الرَّحمنُ عِزًّا ... فقَد أدركتَ ثأرَكَ، يا بِلالُ
فلا نِكسًا وُجِدتَ، ولا جَبانًا ... غَداةَ تَنُوشُكَ الأسَلُ الطِّوالُ

وفي أتّون المعركة لقي أبو بكر ﵁ ابنَه عبد الرحمن، وهو يومئذ مع المشركين، فقال: أينَ مالي؟ يا خبيثُ. فقال عبد الرحمن:(٣)

---

(١) السيرة ١: ٦٣١ - ٦٣٢ والكامل ٢: ١٢٦- ١٢٨ والروض الأنف ٢: ٨٤.

(٢) أنساب الأشراف ١: ١٩٣. والنكس: الضعيف العاجز. وتنوش: تتناول. والأسل: الرماح.

(٣) السيرة ١: ٦٣٨. والشكة: السلاح. واليعبوب: الفرس الكثير الجري. وصارم أي: وغيرُ سيف قاطع. عطفه على «غير شكة» بملاحظة معنى النفي في: غير. ويجوز العطف بالكسر على: شكة.

لَم يَبقَ غَيرُ شِكّةٍ، ويَعبُوبْ وصارمٌ، يَقتُلُ ضُلّالَ الشِّيبْ

كأنه يسخر من والده، ويتهدده قاصدًا قتله، بالسيف الذي يحمله.

انتهت الغزوة المباركة بنصر الله للقائد العظيم وأصحابه الأكارم، فكان أن استُشهد من المسلمين ١٩، وقُتل من المشركين ٧٠، وأُسر منهم ٧٠ أيضًا. وقد جاء جبريل بأن يُستشار المؤمنون في أمر الأسرى، ولمّا استُشيروا كان لهم رأيان: إمّا القتل وإمّا الفداء بما يقوّي حال المؤمنين. فاختار رسول الله ﷺ الأرفق، ولم يقتل منهم إلّا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعيط، وافتُدي الباقي بما تيسر من المال أو تعليم أطفال المسلمين الكتابةَ، ثم آمن بعضهم بعد.

أما قتلى المشركين فطُرحوا في القلِيب، ثم أقام النبي ﷺ هناك ٣ أيام - وهي عادته كلما انتصر على قوم - فلما انتهى من ذلك وكان جوفُ الليل جعل النبي ﷺ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم قال[1]: «فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا. فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»؟ قال له الصحابة: أتكلّم قومًا مَوتى؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمعَ لِما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وفي هذا يقول حسان بن ثابت:[2]

يُنادِيهِم رَسُولُ اللهِ، لَمّا قَذَفناهُم، كَباكِبَ في القَلِيبِ:
ألَم تَجِدُوا كَلامِي كانَ حَقًّا، وأمرُ اللهِ يأخُذُ بالقُلُوبِ؟
فما نَطَقُوا، ولَو نَطَقُوا لَقالُوا: صَدَقتَ، وكُنتَ ذا رأيٍ مُصِيبِ

ثم جُمع ما بقي في معسكرهم من أنفال، واختلف المسلمون فيمن

---

(١) انظر الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٢) ديوانه ص ٧٣ والسيرة ١: ٦٤٠. والكباكب: جمع كبكبة. وهي الجماعة المكدسة. والقليب: بئر مهجورة ببدر.

تكون له، فنزعها الله من أيديهم، وجعلها لرسوله ﷺ، فقسمها بينه وبينهم على ما أنزل الله من الحكم، واطمأن الصحابة إلى العدل فيما كان، ورجعوا بالنصر والكسب العظيم والتوجّه الرباني الكريم، والسعادة برضا الله ورسوله.

وذلك أنه نزل الوحي بعد هذه المَغزاة المباركة، على لسان جبريل ﷺ بسورة «الأنفال»،[1] يبين حكم الله في الأنفال والفيء، ويصف ما كان من خروج لنيل التجارة، وما حصل من تغيير التوجه ليصير للمقاومة المسلحة، وما جرى من نزول الملائكة وحربهم مع المسلمين، وتطمين المؤمنين بالنعاس والمطر وتثبيت الأقدام والقلوب، ورمي الرسول ﷺ للحصى في وجوه العدو، وحض المؤمنين على الطاعة ومواصلة حرب مشركي مكة، حتى تتحرر عقائد مَن حولهم مِن التسلط والتضليل، ويصير دينهم لله بما فطرهم عليه من التوحيد والإيمان.

وخلال هذا كله أمر الله المسلمين أن يكون استقبالهم للمعتدين في الزحف بعزم واستبسال دون تراجع أو بانحراف مُحكَم، لئلّا ينالهم غضبه، ومنّ عليهم بتنزيل نصره المؤزّر، وتفصيل أحكام الغنائم والصدقات، وبيان تاريخ المشركين الحافل بالتكذيب والمكر والتآمر والمكابرة، والتحدي بطلب عذاب الله وانتقامه، مع ما كان من استدراج الكافرين ليزدادوا طغيانًا وجبروتًا، وتثبيط المنافقين وتردّدهم، وتثبيت المؤمنين حين الزحف للقتال، وحضّضَ المؤمنين على الإعداد لترهيب العدو، وطمأنهم بالحماية والعون والنصر، وما كان من قذف الرعب في قلوب المشركين، وتغليب للمهاجرين والأنصار وتكريم.

أما حُكم الأسرى[2] فكان فيه عرض لتاريخ النبوات والرسالات بشأنه، مع عتاب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمسلمين في قبول الفدية: ﴿تُرِيدُونَ

---

(١) انظر السيرة ١: ٦٦٦ ـ ٦٧٧ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٣٣ ـ ٦٦٠.

(٢) الآيات ٦٧ ـ ٧١.

عَرَضَ الدُّنيا، واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي: قتلهم ليظهر الدينُ، صِبغةُ الله الخالصة من كل ضغط أو إكراه. وأنهى ذلك بأن أحلّ ما كان من الفِدية، وأمر بحض للأسرى على الإيمان، وحث للمسلمين على التواصل، ورد للمواريث إلى الأرحام، بعد أن صارت في الهجرة لأُخوّة الإيمان.

فقد كان للوحي الرباني أثر بالغ في نفوس المؤمنين والكافرين، وسِجلّ تاريخي حافل بما حصل في ذلك اليوم الغني بأحداث الجهاد الإسلامي الكريم، ثم جاء الشعر يعرض أبرز المواقف والأعمال والأقوال، فصدر عن الجانبين قصائد ومقطعات عفيرة جدًّا،(١) نقتطف منها ما يفي بالدلالة والبيان.

هذا حمزة ﷺ يبسط أسباب المَغزاة، فيذكر نجاةَ العِير، وقصدَ المشركين للقتال مكابرة، وإصرارَهم على اللقاء، وما كان من هلاكهم بالتجبر والضلال، وعونَ الله بالرحمة والملائكة:(٢)

أَلَم تَرَ أمرًا، كانَ مِن عَجَبِ الدَّهرِ؟ ... ولِلحَينِ أسبابٌ، مَبَيِّنَةُ الأمرِ
عَشِيَّةَ راحُوا، نَحوَ بَدرٍ، بجَمعِهِم ... فكانُوا رُهُونًا، لِلرَّكِيّة مِن بَدرِ
وكُنّا طَلَبنا العِيرَ، لَم نَبغِ غَيرَها ... فسارُوا إلَينا، فالتَقَينا علَى قَدرِ
فلَمّا التَقَينا لَم تَكُنْ مَثنَوِيّةٌ ... لَنا، غَيرُ طَعنٍ بالمُثقَّفَةِ السُّمرِ
أولئكَ قَومٌ، قُتِّلُوا في ضَلالِهِم ... وخَلَّوا لِواءً، غَيرَ مُحتَضَرِ النَّصرِ
لِواءُ ضَلالٍ، قادَ إبلِيسُ أهلَهُ ... فخاسَ بهِم، إنَّ الخَبِيثَ إلَى غَدرِ
وفِينا جُنُودُ اللهِ، حِينَ يُمِدُّنا ... بهِم، في مَقامٍ ثَمَّ مُستَوضِحِ الذِّكرِ

فيجيبه أخو أبي جهل الحارث بن هشام بقصيدة، يهدد بمواصلة

---

(١) انظر السيرة ١: ٦٣٠ - ٦٦٤ و ٢: ٨ - ٤٣.

(٢) السيرة ٢: ٨ - ٩. والحين: الهلاك. والركية: البئر المهجورة. والمثنوية: الرجوع. والمثقفة: الرماح المقوّمة. وخلوا: تركوا. وخاس: غدر. والمستوضح: الواضح.

القتال، ويحرّض قومه على الثأر لمن هلَك، ولا سيما أخوه أبو جهل عمرو ابن هشام:[1]

فإن يَكُ قَومٌ صادَفُوا، مِنكَ، دَولةً ... فلا بُدَّ، لِلأيّامِ، مِن دُوَلِ الدَّهرِ
فيا لَلُؤَيٍّ، ذَبِّبوا عَن حَريمِكُم ... وآلِهةٍ، لا تَترُكُوها، لِذِي الفَخرِ
وجِدُّوا، لِمَن عادَيتُمُ، وتَوازَرُوا ... وكُونُوا جَمِيعًا،في التَّأسِّي وفي الصَّبرِ
لَعَلَّكُمُ أن تَثأرُوا، بأخِيكُمُ ... ولا شَيءَ، إن لَم تثأرُوا، بذَوِي عَمرِو

وذهب حسان ﷺ يتغنى بما كان من الحدث العجيب، في جيشين: أحدهما للمشركين ضخم كالجبال، وآخر للمسلمين فيه الأبطال بقيادة النبي العظيم ﷺ، لهلاك كل جبار مستبد:[2]

وخَبِّرْ، بالَّذِي لا عَيبَ فِيهِ ... بصِدقٍ، غَيرِ إخبارِ الكَذُوبِ
بما صنَعَ المَلِيكُ، غَداةَ بَدرٍ ... لَنا، في المُشرِكِينَ، مِنَ النَّصِيبِ
غَداةَ كأنَّ جَمعَهُمُ حِراءٌ ... بَدَت أركانُهُ، جِنحَ الغُرُوبِ
فلاقَيناهُمُ، مِنّا، بِجَمعٍ ... كأُسدِ الغابِ، مُردانٍ وشِيبِ
أمامَ مُحَمَّدٍ، قَد آزَرُوهُ، ... علَى الأعداءِ، في لَفحِ الحُرُوبِ
فغادَرْنا أبا جَهلٍ صَرِيعًا، ... وعُتبةَ، قَد تَركْنا بالجَبُوبِ
وشَيبةَ، قَد تَركْنا في رِجالٍ ... ذَوِي حَسَبٍ، إذا نُسِبُوا، نَسِيبِ

ورجع علي بن أبي طالب ﷺ إلى مبدأ الخصام والعداوة، ليذكر نزول

(١) السيرة ٢: ١٠ - ١١. والخطاب بـ «منكَ» لأبي جهل. والدولة: الغلبة. ولؤي: من قريش. وذببوا أي: دافعوا وامنعوا. وتوازروا أي: تآزروا وتعاونوا. وذوو عمرو: أهل أبي جهل وعشيرته.

(٢) ديوانه ص ٧٢ - ٧٣ والسيرة ١: ٦٣٩. وحراء: جبل بمكة. وجنح الغروب أي: حين تميل الشمس إلى الغروب. واللفح: شدة النار وحرها. والجبوب: وجه الأرض. والنسيب: العالي النسب.

الوحي بالآيات البيّنات للهداية، فكان إيمانُ من وحّدَتِ اللهَ قلوبهم، وكفرانُ من زاغت نفوسهم بالبغي والجبروت، فجعل الله عليهم الدائرة:(١)

أَلَـم تَـرَ أنَّ اللهَ أبـلَـى رَسُـولَـهُ ... بَلاءَ عَزيزٍ، ذِي اقتِدارٍ، وذِي فَضلِ
فجـاءَ بفُرقـانٍ، مِـنَ اللهِ، مُنـزَلٍ ... مُـبَيَّنَةٍ آيـاتُهُ، لِـذَوِي العَقـلِ
فـآمَنَ أقـوامٌ بـذاكَ، وأيـقَنُـوا ... فأمسَوا، بحَمدِ اللهِ، مُجتَمِعِي الشَّملِ
وأنكَـرَ أقـوامٌ، فـزاغَت قُلُـوبُهُم ... فزادَهُمُ ذُو العَرشِ خَبلًا على خَبلِ
وأمكَـنَ مِـنهُم، يَـومَ بَـدرٍ، رَسُـولَهُ ... وقَومًا غِضابًا، فِعلُهُم أحسَنُ الفِعلِ؟
فكَـم تَركُـوا، مِـن ناشِـئٍ ذِي حَمِيَّةٍ ... صَرِيعًا، ومِن ذِي نَجدةٍ، مِنهُمُ كَهلِ!
دَعا الغَـيُّ، مِنهُم، مَن دَعا فأجابَـهُ ... ولِلغَيِّ أسبـابٌ، مُرَمَّـقَـةُ الوَصـلِ

وفي هذا أيضًا، قال كعب بن مالك ﷺ، يبيّـن عدوان المشركين على المسلمين، لأنهم عبدوا الله وحده، وكان لقاء الجيشين لذلك:(٢)

ألا هَل أتَى غَسّانَ، في نأيِ دارِها، ... وأخبَـرُ شَـيءٍ، بـالأُمُورِ، عَـلِيمُها
بأن قَد رَمَتنـا، عَـن قِسِيٍّ عَـداوةٍ، ... مَعَـدٌّ، مَعًـا، جُهّالُهـا وحَلِيمُهـا
لأنّـا عَـبَدنـا اللهَ، لَـم نَـرجُ غَيـرَهُ ... رَجاءَ الجِنانِ، إذ أتانـا زَعِـيمُهـا
فـسارُوا وسِـرنا، فالتَقَيـنا كـأنَّنـا ... أُسُـودُ لِقـاءٍ، لا يُرَجَّـى كَلِـيمُها؟

أما عُبيدة بن الحارث ﷺ فيعرض علينا المبارزة التي كانت قبل الصِّدام، ويفخر بإسلامه وثواب قطع رجله فيها، واختيار النبي ﷺ له بين الأبطال،

---

(١) السيرة ٢: ١١. وأبلاه أي: منَّ عليه وأنعم. وزاغت: انحرفت ومالت عن الحق. والخبل: الفساد. والمرمقة: الضعيفة.

(٢) ديوانه ص٢٦٦ والسيرة ٢: ٢٥. وغسان: إمارة الغساسنة بالشام. والقسي: جمع قوس. ومعد: قبائل عرب الشمال. يعني قريشًا ومن كان ناصرها. ومعًا: حال مقدمة على صاحبها. والزعيم: الكفيل والضامن للحق. وهو هنا النبي ﷺ. والكليم: الجريح.

وتقتيل فرسان المشركين الثلاثة:(١)

فَإن تَقطَعُوا رِجلِي فإنِّيَ مُسلِمٌ أُرَجِّي بها عَيشًا، مِنَ اللهِ، دانِيا
مَعَ الحُورِ، أمثالِ التَّماثِيل، أُخلِصَت مَعَ الجَنَّةِ العُليا، لِمَن كانَ عالِيا
ولَم يَبغِ، إذ سألُوا النَّبِيَّ، سِواءَنا ثَلاثَتَنا، حَتَّى حَضَرْنا المُنادِيا
لَقِيناهُمُ، كالأُسدِ، تَخطِرُ بالقَنا نُقاتِلُ، في الرَّحمٰنِ، مَن كانَ عاصِيا
فما بَرِحَت أقدامُنا، مِن مَقامِنا، ثَلاثَتِنا، حَتَّى أُزِيرُوا المَنائِيا

وأما حسان فقد وجد في هرب المشركين مجالًا للسخرية والتهكم، إذ تراه يعرّض بالحارث بن هشام أخي أبي جهل، لأنه رأى أخاه قتيلًا، وتركه لينجو بنفسه وبفرسه. ولولا ذلك لكان بين القتلى أو الأسرى:(٢)

تَرَكَ الأحِبَّةَ، أن يُقاتِلَ دُونَهُم ونَجا، بِرأسِ طِمِرَّةٍ ولِجامِ
مَلأت بِهِ الفَرجَينِ، فارمَدَّت بِهِ وثَوَى أحِبَّتُهُ، بِشَرِّ مُقامِ
لَولا الإلهُ وجَريُها لَتَرَكْنَهُ جَزَرَ السِّباعِ، ودُسْنَهُ بحَوامِي
بالعارِ، والذُّلِّ المُبَيَّنِ، إذ رأى بِيضَ السُّيُوفِ تَسُوقُ كُلَّ هُمامِ

وقد تلقى الحارث هذا التبكيت باعتذار يسوّغ له الهرب، إذ أراد أن ينجو من القتل، ليكون له فرصة بعدُ يثأر فيها وينتقم:(٣)

(١) السيرة ٢: ٢٣ - ٢٤. وأخلصت: كانت خالصة مخصصة للمؤمنين. ويبغي: يقصد ويختص للمبارزة. وبرحت: فارقت وتزحزحت. وأزيروا أي: جعلوا زوّارًا وضيوفًا. والمنائي: جمع منية. وهي الموت. قال أبو ذر الخشني: وقد تكون هذه الهمزة منقلبة عن الياء الزائدة في: منيّة.

(٢) ديوانه ص ٤١٩ - ٤٢٠ والسيرة ٢:١٧. والطمرة: الفرس الكثيرة الجري. وارمدّت: أسرعت. وتركنه أي: جعلته الخيل. والحوامي: جمع حامية. وهي ما عن يمين الحافر وشماله، ثبتت الياء فيها في القافية لعدم التقاء الساكنين بحذف التنوين.

(٣) السيرة ٢: ١٨والحماسة ١: ١٨٣والصناعتين ص ٣٩٨. والأشقر: الدم. وينكئ: يؤلم.

اللهُ يَعلَمُ، ما تَرَكتُ قِتالَهُم ... حَتَّى حَبَوا مُهرِي، بأشقَرَ مُزبِدِ
وعَرَفتُ أنِّي إن أُقاتِلْ واحِدًا ... أُقتَلْ، ولا يُنكِئْ عَدُوِّي مَشهَدِي
فصَدَدتُ عَنهُم، والأحِبَّةُ فِيهِمُ ... طَمَعًا لَهُم، بِعِقابِ يَومٍ مُفسِدِ

ومع ما كان حينئذ من التصبر وافتعال الجَلَد، فقد عجزت النفوس عن الاحتمال، إذ راح شعر المشركين يبكي ما نزل بهم من البلاء. فالأسود بن المطَّلب يحث المرأة على بكاء أبنائه:[1]

وبَكِّي، إن بَكَيتِ، علَى عَقِيلٍ ... وبَكِّي حارِثًا، أسَدَ الأُسُودِ
وبَكِّيهِم، ولا تَسَمِي، جَمِيعًا ... وما لِأبِي حَكِيمةَ مِن نَدِيدِ

وصفيّةُ بنت مسافر ترثي جميع قتلى المشركين في القَليب، وقد هرب عنهم أصحابهم وأقرباؤهم:[2]

يا مَن لِعَينٍ، قَذاها عائرُ الرَّمَدِ ... حَدَّ النَّهارِ، وقَرنُ الشَّمسِ لَم يَقِدِ
أُخبِرتُ أنَّ سَراةَ الأكرَمِينَ مَعًا ... قَد أحرَزَتهُم مَنايَاهُم، إلَى أمَدِ
وفَرَّ بالقَومِ أصحابُ الرِّكاب، ولَم ... تَعطِفْ، غَداتئذٍ، أُمٌّ علَى وَلَدِ

وفي هذه الميادين الشعرية، دخل أُميّة بن أبي الصلت.[3] فقد رجع من

---

(١) السيرة ١: ٦٤٨ والمغازي ص ٩٢. وتسمي أي: تسأمي. حذف الهمزة بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها. وأبو حكيمة هو زَمَعة بن الأسوَد. والنديد: الشبيه.

(٢) السيرة ٢: ٤٠. والقذى: ما يقع في العين من أوساخ. والعائر: الموجع. وحد النهار: آخره. وقرن الشمس: أعلاها. ويقد: يتقد.

(٣) أمية هذا شاعر من بني ثقيف ومن دهاة العرب، كان تاجرًا بين مكة والشام والبحرين، تحنّف ولبس المسوح وحرّم الخمرة، وقرأ كتب المتقدمين، وذكر الأنبياء والقيامة والدين في شعره، ونُسبت إليه أساطير فيها معرفة لغات الحيوان والجن، ثم تطلع أن يصير نبيًّا وحدّث الناس بذلك. ولما بُعث النبي ﷺ امتنع أُمية عن الإسلام قائلًا: يمنعني الاستحياءُ من نساء ثقيف، لأنني كنت أحدثهن أنني هو، ثم يرينني تابعًا لغلام بني عبد مناف. وقد اجتمع بالنبي ﷺ في مكة، ثم سافر إلى الشام بالتجارة التي ذكرنا. البداية والنهاية ٢: ٢٣٤.

الشام بعد بدر، ليلقى النبيَّ ﷺ ويعلن إسلامه، فقيل له: أتدري من في القَليب؟ قال: لا. قيل: فيه عُتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة، وهما ابنا خالك. فجدع أُذنَي ناقته وقطع ذنبها إشعارًا بالحزن، ثم وقف على القَليب ينشد قصيدته:[1]

مــاذا ببَــدرٍ، فــي العَقَنــ ـقَلِ، مِــن مَرازِبــةٍ، جَحاجِـحْ؟

وله في ذلك شعر آخر.

هذه الأشعار اليسيرة التي عرضناها هي بعض ما انتثر في حنايا بدر وأعقابها من شعر ورجز، بين المؤمنين والمشركين، وأمثالها كثيرة جدًّا، كان لها أثر بالغ في نفوس المنتصرين والمهزومين.

١١- غزوة السَّويق:[2] لقد كثرت قصائد الرثاء ومقطعاته بين المشركين، كما ذكرنا، يتغنى بها الشعراء والشواعر، للبكاء والحسرة وإثارة همم الثائرين، ويقابلها شعراء المسلمين بالسخرية والتبكيت. لكن أبا سفيان بن حرب - وهو سيد قريش - أزعجه ذلك فأنكر على الموتورين هذا التضعضع، ورأى فيه ذلة وانكسارًا وتشجيعًا لشماتة المسلمين، فمنع على أهل مكة البكاء والرثاء، مع أنه كان قد قُتل ابنه حنظلة في بدر، ووقع ابنه عمرٌو في الأسر.

---

(١) الراجح أن هذا البيت هو مطلع القصيدة. انظر ديوانه ص ٣٤٦ و السيرة ٢: ٣٠ - ٣٢ والأنساب والأشراف ١: ٣٠٦. وقد أعرضنا عن بسط ما فيها، لأن النبي رخّص في شعر الجاهلية، كما قال أبو ذرّ الخُشني، إلّا هذه القصيدة وقصيدة الأعشى الرائية، لما فيهما من تنقص للصحابة الكرام. وقيل: كان هذا في أول عهد المدينة، ولما عم الإسلام زالت الموانع فلا بأس في إنشادهما. شرح السيرة لأبي ذر ص ١٩٨ - ١٩٩. والعقنقل: كثيب من الرمل معقد في بدر. والمرازبة: الرؤساء، جمع مَرزُبان. والجحاجح: السادة، جمع جَحجاح.

(٢) السيرة ٢: ٤٤ - ٤٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤٨٣ - ٤٨٥ والكامل ٢: ١٣٩ - ١٤١ والطبقات الكبرى ٢: ٣٠ والمحبر ص ١١١ والمغازي ١: ١٨١ وزاد المعاد ٣: ١٨٩ والبداية والنهاية ٢: ٥٢٠ وشرح المواهب ١: ٤٥٨ وعيون الأثر ١: ٣٤٤.

بل لقد نذر ألّا يَدَّهِن ولا يمَسّ رأسَه ماء من جنابة ـ وكان معروفًا هذا من بقايا دين إبراهيم. عليه السلام ـ حتى يغزو المدينة، وعندما طالبه أهله أن يَفدي ابنه الأسير قال: «أيُجمع عليّ دمي ومالي؟ قتلوا حنظلةَ، وأفدي عَمرًا! دعُوه في أيديهم، يمسكوه ما بدا لهم».

ثم حدث أن جاء معتمرًا شيخٌ أنصاري من بني عمرِو بن عوف في غنم له ـ وهو سعد بن النعمان بن أكّال ـ مطمئنًا إلى حُرمة بيت الله، فعدا عليه أبو سفيان، وحبسه عنده بابنه عَمرو، وصار يحرّض أهله ليفتدوه:[1]

أرَهـطَ ابـنِ أكّـالٍ، أجِيبُـوا دُعـاءهُ تَعاقَدتُـمُ، لا تُـسلِمُوا السَّـيِّدَ الكَهلا
فـإنَّ بَـنِي عَمـرٍو لِئـامٌ أذِلّـةٌ، لَئن لَم يَفُكُّوا، عَن أسِيرِهِمُ، الكَبلا

ومِثل هذا العمل الذي قام به أبوسفيان يراه العربي غدرًا بالمعتمرين، وانتهاكًا لحُرمة البيت المكرّم. فراح حسان يسخر من أبي سفيان، لأن الأسير سعدًا كان في عُمرته لا يجيز قتالًا، ولولا ذلك لدافع عن نفسه وانتصر لها بثارات قبل أسره:[2]

لَـو كـانَ سَـعدٌ، يَـومَ مَكّـةَ، مُطلَقًـا لأكثَرَ فِيكُم، قَبلَ أن يُؤسَرَ، الـقَتلا
بعَضبٍ حُسـامٍ، أو بـصَفراءَ نَبعـةٍ تَحِنُّ، إذا مـا أُنبِضَت، تَحفِزُ النَّبلا

إلّا أن الشعر قد يعقّد المشكلات ولا يكون به حل لها، فاضطُرّ بنو عمرِو بن عوف أن يلجؤوا إلى المبادلة بين الاثنين، وأخبروا الرسول ﷺ بما كان، ورجَوه أن يعطيهم عمرَو بنَ أبي سفيان ليفكّوا به صاحبهم، فأجابهم إلى

---

(١) السيرة ١: ٦٥١ وأنساب الأشراف ١: ٣٠١. وتعاقد: تعاهد بقسم مؤكد. وبنو عمرو هم قوم الأسير سعد. والكبل: القيد.

(٢) السيرة ١: ٦٥١. وصدر البيت الأول فيه خرم. والعضب: السيف القاطع. والصفراء: القوس. والنبعة: التي هي من شجر النبع. وتحن: تصوت بوترها. وتحفز: تقذف.

ذلك، وأرسلوا إلى أبي سفيان ابنه، فخلّى لهم سبيل سعد. وهكذا استطاع إنقاذ ابنه بالغدر، من دون فداء ولا وساطة.

وفي الخامس من ذي حجّة هذا العام، جهز أبو سفيان جيشًا من ٢٠٠ راكب قرشي، وسلك الطريق النجدية حتى نزل في جبل قرب المدينة. وكان فيما قال، وهو يتجهز للخروج من مكة، أنه حرض القرشيين على الثأر والغنائم، وذكر قسَمَه للانتقام:(١)

كُرُّوا علَى يَثرِبٍ، وجَمعِهِمُ ... فإنَّ ما جَمَّعُوا، لَكُم، نَفَلُ
آلَيتُ، لا أقرَبُ النِّساءَ، ولا ... يَمَسُّ رأسِي، وجِلدِيَ، الغُسُلُ
حَتَّى تُبِيرُوا قَبائلَ الأوسِ، والـ ... ـخَزرَجِ، إنَّ الفُؤادَ مُشتَعِلُ

وعندما بلغ الشعرُ كعبَ بن مالك الأنصاريَّ رضي الله عنه، قال يرد عليه، ويصف ما تحصل من هرب جيش المشركين حينئذ، وما كانوا عليه من الضعف والجبن:(٢)

إذ يَطرَحُونَ الرِّحالَ، مَن سَئمَ الطَّيـ ... ـرَ تَرَقَّى لِقُنّةِ الجَبَلِ
جاؤُوا بجَيشٍ، لَو قِيسَ مُعرَسُهُ ... ما كانَ إلّا كَمُعرَسِ الدُّئلِ
عارٍ مِنَ النَّصرِ والثَّراءِ، ومِن ... أبطالِ أهلِ البَطحاءِ، والأسَلِ

وكان أبو سفيان قبل الهرب يومئذ قد قصد مع بعض أصحابه، تحت الليل، أحد زعماء اليهود من بني النَّضير ـ وهو حُيَيُّ بن أخطب ـ وطرق عليه

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٨٤ والكامل ٢: ٥٣ والأغاني ٦: ٣٥٨ وشرح أدب الكاتب ص ٣٩٩ وشرح شواهد الشافية ص ١٤. والنفل: الغنيمة. وتبير: تفني وتهلك.

(٢) ديوانه ص ٢٥١ وشرح شواهد الشافية ص ١٣. والطير: الطيران. والقنة: رأس الجبل. والمعرس: مكان النزول في آخر الليل. والدئل: حيوان صغير كالثعلب. والثراء: كثرة العدد. والبطحاء: موضع في مكة. والأسل: الرماح.

الباب، فخاف هذا ما يراد به ولم يفتح لهم، فانصرفوا إلى سلّام بن مِشكم سيد بني النَّضير في زمانه وصاحب كنزهم، فأذِن لهم وقراهم وأعلمهم أسرار المدينة.

رجع أبو سفيان من دار ابن مِشكَم بخُطة الغزو، فأرسل في الصباح بعض القرشيين إلى ناحية من المدينة، حيث قتلوا رجلين أنصاريًّا وحليفًا له ﷺ، وحرّقوا بعض النخل والبيوت، ونجوا هاربين.

ولما علم النبي ﷺ بذلك استنفر الناسَ للَّحاق بالغُزاة، وخرج يطاردهم، وكان يرى في الطريق ما طرحوه ليتخففوا في الهرب، فإذا أكثرُه من السَّويق. وبذلك سمِّيَتِ الغزوة. واستمرت المتابعة حتى بلغت قَرقَرة الكُدر، على بعد ثمانية بُرد عن المدينة، دون أن يدركهم، لأنهم كانوا قد بلغوا الحَرم المكي، فرجع إلى المدينة وهو يسوق أمامه النعم والرعاء.

وقد أشاد أبو سفيان بإكرام ابن مِشكم له يومذاك ومساعدته، وتعهدَ له بالنصر على المسلمين وكثرة الغنائم:[1]

سَقانِي، فرَوّانِي، كُمَيتًا مُدامةً ... علَى عَجَلٍ، مِنِّي، سَلامُ بنُ مِشكَمِ
ولَمّا تَوَلَّى الجَيشُ قُلتُ، ولَم أكُنْ ... لأُفرِحَهُ: أبشِرْ، بعِزٍّ ومَغنَمِ

١٢ ـ **سَرِية القَرَدة**:[2] علمت قريش أن طريق الحجاز إلى الشام أصبح مطوّقًا بأيدي المسلمين، يطاردون تجاراتها في كل حين، فخافت ذلك وتوجّهت في رِحلاتها من طريق آخر يمر بالعراق. ولذلك استأجر أبو سفيان بن حرب رجلًا من بني وائل يدلهم في تلك السبيل، اسمه فُرات بن حيّان، وخرج مع مال وافر، وفضّة كثيرة هي عُظم تجارة قريش، بمقدار ١٠٠٠٠٠ درهم.

---

(١) السيرة ٢: ٤٥ ـ ٤٦ والروض الأنف ٢: ١٢٠ وأنساب الأشراف ١: ٣١١ ـ ٣٣٥ والبداية والنهاية ٣: ٣٤٤ والمغازي ص ١٤٢. و«سلام» يكون بتشديد اللام وتخفيفها. والكميت: الخمرة. وأفرحه: أُزيل فرحه وأشق عليه.

(٢) السيرة ٢: ٥٠ ـ ٥١ والكامل ٢: ١٤٥ والطبقات الكبرى ٢: ٣٦ والإصابة ٢: ٦٠١.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بذلك بعث زيد بن حارثة في ١٠٠ من الصحابة، ليلقى أبا سفيان وما معه من المال، فصادفه على ماء القَرَدة بنجد في جُمادى الآخرة من السنة الثالثة، وأصاب تلك العِير بما فيها، وهرب منه الرجال، فعاد إلى المدينة ظافرًا بغنيمة خُمسها ٢٠٠٠٠ درهم، وبفُراتِ بن حيّان أسيرًا فأسلم، وعادت قافلة قريش بالهزيمة والخسران.

وحينما هجا حسان قريشًا، بعدغزوة حمراء الأسد، أشار إلى ما كان منهم في هذه السريّة، وهدّدهم بشدّ الخناق عليهم، لِما صار حولهم من حصار المسلمين، بغية النيل من كل تجارة تريد الشام أو العراق:(١)

نَسِيرُ، فلا تَنجُو اليَعافِيرُ وَسْطَنا ... ولَو وَألَت مِنّا، بِشَدٍّ مُواشِكِ
دَعُوا فَلَجاتِ الشّام، قَد حالَ دُونَها ... جِلادٌ، كأفواهِ المَخاضِ الأوارِكِ
بأيدِي رِجالٍ، هاجَرُوا نَحوَ رَبِّهِم ... وأنصارِهِ حَقًّا، وأيدِي المَلائكِ
إذا سَلَكَت لِلغَورِ، مِن رَملِ عالِجٍ، ... فقُولا لَها: لَيسَ الطَّرِيقُ هُنالِكِ
فإن نَلقَ، في تَطوافِنا والتِماسِنا، ... فُراتَ بنَ حيّانٍ يَكُن وَهنَ هالِكِ

وهذا يعني أن ما سلبته قريش، من أموال المسلمين وأهليهم في مكة، صارت بعض تعويضاته قريبة من أصحابها، ينالون منها ما تيسر لهم في رحلات أهل مكة إلى الشام، من حيثما توجهوا.

---

(١) ديوانه ص ٣٥٠ - ٣٥١ والسيرة ٢: ٢١١ - ٢١٢. واليعافير: صغار الظباء، جمع يَعفور. ووألت: طلبت النجاة والهرب. والشد: الجري الشديد. والمواشك: المسرع. والفلجات: الأودية والأنهار والعيون والآبار الكبيرة، جمع فلْج. والجلاد: المجالدة والمضاربة بالسيوف. والمخاض: الحوامل من الإبل، واحدتها خَلِفة. والأوارك: التي ترعى شجر الأراك. ونحو ربهم أي: إلى طاعته ورضاه. وسلكت أي: سارت قريش. والغور: المنخفض من الأرض. وعالج: مكان فيه رمل كثير. وهنالك أي: في ذلك المكان. يعني: حذار هذا السبيل لما فيه من الخطر. والتطواف: كثرة الجولان. والالتماس: الطلب للعدو. والوهن: الضعف والتهافت.

١٣ ـ غزوة أُحُد:[١] خرج أهل قتلى بدر يستنجدون أصحاب التجارات التي نجت من تلك الغزوة، ويستنفرونهم للانتقام من المسلمين، فاجتمع لديهم أموالٌ من مرابح التجارة الناجية ورجالاتٌ من كنانة وثقيف وأحابيش بني المصطلق. وكان معهم الأوسي أبو عامر عبدُ عمرِو بنُ صيفيّ الراهبُ ـ وقد سمّاه النبيُّ ﷺ الفاسقَ ـ في ٥٠ من أصحابه، وهو يَعِدُ الأحزاب أنه إذا لقي محمدًا سيلحق به جميع الأنصار. وقد أخبر العباسُ رسول الله بما كان من ذلك.

وساهم الشعراء في السعي، يحرّضون الناس على الغزو، فكان في ذلك ما قال أبو عَزة الجُمحي، يستحث بني عبدِ مناةَ على العون فورًا:[٢]

لا تَعِـدُونِي نَـصرَكُم، بَعـدَ العـامْ ... لا تُـسلِمُونِي، لا يَحِـلُّ إسـلامْ

وما قال مسافع بن عبد مناف الجمحي، يطالب بني مالك الكِنانيين بالحلف والتناصر:[٣]

أنـشُدُ ذا القُربَـى، وذا التَّذَمُّـمِ ... ألحِلـفَ، وَسْـطَ البَـلَدِ المُحَـرَّمِ

وفي أوائل شوّال من العام الثالث للهجرة، خرج المشركون بظعائنهم ونساء قتلى بدر وبناتهم، لإثارة الحمية والحرص على الغلبة. كانوا في ٣٠٠٠ رجل مع السلاح والعتاد وكثرة الزاد، يقودهم أبو سفيان بن حرب. ودعا جُبيرُ بن مُطعم ـ وكان قُتل عمه طُعيمة ببدر ـ دعا غلامَه وحشيًّا المشهور برمي الحراب، قائلًا له: إن قتلتَ حمزة عمَّ محمد بعمّي فأنت عَتيق. وصارت

---

(١) الأحاديث: ٣٨١٥ ـ ٣٨٥٧ في البخاري و ١٨٩٩ و٢٥٠٥ و ٢٣٠٦ و١٧٩١ و ١٧٩٣ في مسلم والسيرة ٢: ٦٠ ـ ١٠٥ والطبقات الكبرى ٢: ٣٦ ـ ٤٨ والمعارف ص ١٥٨ ـ ١٦١ وزاد المعاد ٣: ١٩٢ ـ ٢٤١ ومشارع الأشواق ص ٨٥٨ ـ ٨٦٠ ومعجم البلدان ١: ١٠٩.

(٢) السيرة ٢: ٦١ وأنساب الأشراف ١: ٣١٢. وإسلام أي: إسلامي للعدو. يعني تسليمي ليقتلني كما فعل في بدر. حذف ياء المتكلم للتخفيف.

(٣) السيرة ٢: ٦١. وقطع همزة «ألحلف» للضرورة في أول البيت الثاني.

هند بنت عتبة تحرضه بقولها: وَيهًا - أبا دَسْمةَ - اشفِ واستشفِ.

نزل جيش المشركين على شَفير وادي جبلٍ مقابلِ المدينة، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه، يشاورهم في الأمر بين البقاء في المدينة والخروج للقاء العدو بعيدًا عنها، فكان الرأي للثاني. وقال بعض الأنصار: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ يعني من كان حول المدينة من لاجئي بني إسرائيل. فقال: «لا حاجة لنا فيهم». وقال في موقف آخر: لا يصحبنا إلّا من كان على ديننا.[1] وكان عاهدهم أن يدافعوا عن المدينة، إن هاجمها العدوّ.

وعندما خرج الجيش من المدينة التحق به بعض اليهود العرب بالسلاح والعتاد، فردهم النبي شاكرًا جهدهم، ولم يرض عونهم على المشركين في حرب، قائلًا: لا نستعين بأهل الشرك على أهل الشرك. غير أن يهوديًّا اسمه مُخَيرِق من بني ثعلبة قام يحرّض أصحابه على عون المسلمين، وأبوا أن يسمعوا له، فخرج بسلاحه ودخل جيش المسلمين ليحارب معهم، ثم قُتل فيمن قُتل. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: مُخيريقٌ خيرُ يهودَ.

كان خروج النبي ﷺ بعد صلاة الجمعة منتصف شوال في ١٠٠٠ من الصحابة، واللواء بيد مُصعب بن عُمير. وفي منتصف الطريق انخزل عبد الله بن أُبيّ بجماعته من المنافقين - وهي ثلث الجيش - بدعوى أنه لن يكون قتال وأن جماعته لا تُحسِنُ الحرب، وكادت تلحق به بعض القبائل، لولا أن ثبّتها الله سبحانه وتعالى.

فتابع المجاهدون المسير حتى عسكروا في الشِّعب بجانب جبل أُحد، حيث صار ظهر الجيش إلى الجبل، وفيه الرماة ٥٠ رجلًا بإمرة عبد الله بن جُبير رضي الله عنه، لينضحوا فرسان المشركين عن المجاهدين بالنبل، ويَثبتوا في

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٢٨٨.

مكانهم لا يغادرونه أيًّا كانت نتيجة المعركة. وتفقد القائد العظيم ﷺ جيشه في الميدان، فوجد فيه أطفالًا اندسّوا ليحاربوا، فعزل منهم من كان صغيرًا، وأبقى من شُهد له بالقدرة على الجهاد، أو كان فيه مِثل ذلك.

ثم خطب في الجميع يذكّرهم بتقوى الله، وأن رزق الإنسان سيصل إليه مهما كانت العوائق، وأن المؤمنين كالجسد الواحد في السرّاء والضرّاء. وكان أبو سفيان أراد أن يخذّل الأنصار، فبعث إليهم: «خلُّوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرفَ عنكم. فلا حاجة بنا إلى قتالكم». فردُّوا عليه بما يكره.

وفي صباح السبت عبّأ أبو سفيان جيشه، إزاء صفوف الصحابة، فجعل على ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عِكرمة بن أبي جهل، واللواء لطلحة بن أبي طلحة. وكان أبو عامر المنافق أول من أنشب الحرب رميًا بالحجارة، ومعه أصحابه الخمسون وعبيدُ قريش. ثم قامت هند بنت عتبة في نسوة معها، يضربْنَ الدفوف خلف الرجال للتحريض، وهي تردد:(١)

وَيهـًا، بَنِـي عَبـدِ الـدَّارْ ... ضَـربًا، بكُـلِّ بَتَّـارْ
إن تُقبِـلُوا نُعانِـقْ ... ونَفـرُشِ النَّمـارِقْ
أو تُدبِـرُوا نُفـارِقْ ... فِـراقَ غَيـرِ وامِـقْ

وعندئذ برز صاحب لواء المشركين بين الفئتين، يسخر من المسلمين مطالبًا إياهم أن يبارزه من يعجّله بسيفه إلى النار أو يعجّله هو إلى الجنة، فبرز اليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت مضاربة يسيرة بُترت فيها قدم طلحة، ثم سقط وانكشفت عَورته، فانقض عليه الإمام ليقتله. هنالك ناشده اللهَ والرحم،

---

(١) السيرة ٢: ٦٧ ـ ٦٨ والكامل ٢: ١٥٣ وأنساب الأشراف ١: ٣١٧ والطبقات الكبرى ٢: ٤٠. وبنو عبد الدار: بطن من لؤي بن غالب الكنانيين. والنمارق: جمع نُمرقة. وهي الوسادة. والوامق: المحب.

فاستحيا منه وأعرض عنه وخلاه لسبيله. فجاء أخوه عثمان بن أبي طلحة، وتسلّم اللواء، وهو يرتجز:[1]

إنَّ علَى أهــلِ اللِّــواء حَــقّــا   أن يَخضِبُوا الصَّعدةَ، أو تَندَقّا

فانتدب إليه حمزة وقتله.

ثم بدأت المعركة بالتحام الجيشين. وكان أبو دُجانة ﷺ معروفًا باختياله في الحروب، وله عصابة حمراء، إذا اعتصب بها علم الناس أنه مستشهِد، أي: طالب للشهادة في سبيل الله. وقُبيل المعركة عرض رسول الله ﷺ سيفًا على أصحابه قائلًا: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه بعضهم، وهو يمسكه عنهم، إلى أن قام أبو دُجانة، وقال: وما حقه؟ يارسول الله. قال: أن تضرب به العدوَّ حتى تُثخِن. قال: أنا آخذه - يا رسول الله - بحقه. فأعطاه إياه، وتناوله وجعل يتبختر بين الصفَّين، فقال النبي ﷺ: إنها لَمِشية يُبغضها الله، إلّا في مثل هذا الموطن.

قال الزبير بن العوّام ﷺ: وجدتُ في نفسي حين سألتُ الرسول السيف، فمنعنيه وأعطاه أبا دُجانة. ثم قلت: «والله، لأنظرَنَّ ما يصنع»، فاتّبعته فأخرج عصابته وعصب بها رأسه، فقال الأنصار: أخرج أبو دُجانة عصابة الموت. ولما التقى الجيشان أسرع أبو دجانة ﷺ بينهما، وهو يرتجز:[2]

أنــا الَّــذِي عـاهَدَنِــي خَلِيلِــي   ونَحــنُ بالــسَّفحِ، لَـدَى النَّخِيــلِ
ألّا أقُــومَ، الــدَّهرَ، فــي الكَيُّــولِ   أضــرِب بِّسَيفِ اللهِ، والرَّسُــولِ

(١) انظر المغازي ص ١٧٦ والسيرة ٢: ٧٤ والطبقات ٢: ٤١. والصعدة: قناة الرمح أو اللواء.

(٢) السيرة ٢: ٦٨ وتاريخ الطبري ٢: ٥١٠ والمغازي ص ١٧٦ والجمان ص ٣٥٦ ومشارع الأشواق ص ٩٨٢. والكيول: آخر الصفوف في الحرب. وسكن باء «أضربُ» لإدغامها في الباء التالية.

وهكذا انطلق أبو دُجانة في صفوف المشركين، يقتل بالسيف من يلقاه، حتى إذا رفعه على رأس هند بنت عتبة عدله عنها، لئلّا يقتل به امرأة. قال أبو دُجانة: رأيتُ إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا، فصمدت له، فلما حملت عليه بالسيف وَلوَل، فإذا هو امرأة. فأكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكان أبوعامر الراهبُ الأوسي مع المشركين، كما ذكرنا قبل، فنادى قومه من الأنصار: يامعشر الأوس. أنا أبو عامر. فأجابوه: فلا أنعم الله بك عينًا، يافاسقُ. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ. وصار يقاتلهم هو والأحابيش قتالًا شديدًا. وهند بنت عتبة كلما مرّت بوحشيّ تحرّضه على قتل حمزة.

أما حنظلة بن أبي عامر الغسيل فقد لقي أبا سفيان، وهمّ به وعلاه بالسيف، فعاجله شدّاد بن الأسود بطعنة دون ذلك فقتله، وهو يرتجز:[1]

لأحمِيَنَّ صاحِبِي ونَفسِي بِطَعنةٍ، مِثلِ شُعاعِ الشَّمسِ

فقال النبي ﷺ: «إنّ صاحبكم لَتُغسِّلُه الملائكة». فسألوا أهله بعدُ: ما شأنه؟ وسُئلت زوجته عنه، فقالت: خرج للحرب، وهو جُنب، حين سمع الهاتفة. أي: صوت النفير.

والرجز أناشيد الحرب عند العرب. فكان أبو زَعنة الخزرجي رضي الله عنه يردّد، وهو في صدام أبطال المشركين:[2]

أنا أبُو زَعنةَ، يَعدُو بِي الهُزَمْ لَم تُمنَعِ المَخزاةُ، إلّا بالألَمْ
يَحمِي الذِّمارَ خَزرَجِيٌّ، مِن جُشَمْ

ومن المشركين كان عِكرمة بن أبي جهل يرتجز أيضًا بما كان من فرسه:[3]

---

(١) السيرة ٢: ٧٥.

(٢) السيرة ٢: ١٦٥. والهزم: اسم فرسه. والمخزاة: الحالة المخزية. والذمار: ما تجب حمايته.

(٣) السيرة ٢:١٦٦. وأرحب وهلا: كلمتان لزجر الخيل بالإقدام. ورئيسًا: معطوف على: مقبلا. والجحفل: العظيم.

كُـــلُّهُمُ يَزجُـــرُهُ: أرحِـــبْ هَـــلا ولَـــن يَـــرَوهُ، اليَـــومَ، إلّا مُقـــبِلا
يَحمِلُ رُمحًا، ورَئيسًا جَحـفَـلا

وأما الغلام وحشي مولى جُبير بن مُطعِم فقد حمل في نفسه تعهُّد سيده له بالعِتق، وصار يترقب حمزة بين الصفوف، ويراه لا يصادفه فارس إلّا قتله، ومنهم حامل لواء المشركين، وسِباع بن عبد العُزَّى. قال وحشي: «وهززتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، فوقعتْ في ثُنّته[1] حتى خرجتْ من بين وركيه. فأقبل نحوي فغُلب فوقع، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي، ثم تنحَّيت إلى المعسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيرَه». ولمّا تنبأ مُسيلِمة خرج وحشي مع المجاهدين، فقتل مُسيلِمةَ ليكفّر عن صنيعه بحمزة ﷺ قبل.

ثم جاء معاوية بن المُغيرة مع بعض أصحابه، فجدعوا أنف حمزة ومثّلوا به تمثيلًا شنيعًا. وكذلك فعل أبو سفيان، حتى غضب سيد الأحابيش - وهم من بني المصطلقِ والحارثِ بن عبد مناة والهونِ بن خُزيمة - وقال: يا بني كِنانة، هذا سيّد قريش يصنع بابن عمه لحمًا ما ترون. فخجل أبو سفيان، ورجاه أن يكتم ذلك.

وعندما قَتَلَ حمزةُ عثمانَ بن أبي طلحة حاملَ لواء المشركين، صار اللواء في يد غلام لهم حبشي اسمه صُؤاب، فقاتل به حتى قُطعت يداه، ثم برك عليه وأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه، وهو يقول: اللهمّ هل أعزَرتُ؟ يعني: أعذَرتُ. أبدل الذال لعُجمته زايًا. وقال حسان ﷺ في ذلك يعيّر المشركين:[2]

---

(١) الثنة: أسفل البطن.

(٢) ديوانه ص ١١٨ والسيرة ٢: ٧٨. وخفف همزة «صؤاب» بإبدالها واوًا، وحذف همزة «ألأم» الأولى ونقل حركتها إلى الساكن قبلها، وأبدل همزة «يطأ» ألفًا للتخفيف. والعفر: التراب لونه إلى الحمرة. قال ابن هشام: والبيت الأخير يروى لأبي خِراش الهذلي بلفظ: «يَداها» يعني امرأته.

فَخَرتُم باللِّواءِ، وشَرُّ فَخرٍ ... لِواءٌ، حِينَ صارَ إلَى صُوابِ
جَعَلتُم فَخرَكُم، فِيهِ، لِعَبدٍ ... مِنَ الأمِ مَن يَطا عَفَرَ التُّرابِ
أقَرَّ العَينَ، أن عُصِبَت يَداهُ ... وما إن تُعصَبانِ عَلَى خِضابِ

وهكذا سقط اللواء، ولم يزل صريعًا حتى حملته عَمرةُ بنت علقمةَ الحارثية، فرفعته لقريش واجتمعوا حوله والتفّوا به. فقال حسان ساخرًا منهم بذلك: (١)

فلَولا لِواءُ الحارِثِيَّةِ أصبَحُوا ... يُباعُونَ، في الأسواقِ، بَيعَ الجَلائبِ

ثم أحاط المسلمون بهذا اللواء، وأصابوا مَن يحمله ومَن حوله، فما يدنو منه أحد منهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وصدَقهم وعده، فقتلوا في المشركين بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، ودخله المسلمون يجمعون الغنائم، وكانت لعدوهم الهزيمة بلا شك.

هنالك نزل بعض الرماة المسلمين من موقعهم لجمع الغنائم أيضًا، بعد جدال وخلاف، وبقي البعض في مواقعهم مع ابن جُبير ﵁، فحمل خالد بن الوليد عليهم وقتلهم، وخلت ظهور الصحابة لفرسان المشركين، فجاؤوهم من الخلف، وصرخ صارخ: ألا إنّ محمدًا قد قُتل، يا لَلعُزّى يالَهُبل. فانكفأ المسلمون وانكفأ عليهم العدو، وقُتل منهم من قتل وتفرّق الباقي.

والواقع أن النبي ﷺ كان في الميدان بين المجاهدين، يدعو الله بالعون والتأييد والنصر، ويقول لسعد بن أبي وقاص: «ارمِ. فِداك أبي وأُمّي». وهو أيضًا يرمي الأعداء بالسهام. وقد استمر على ذلك حتى فني نبله واندق طرف القوس وقُطع وترها، وسقط في إحدى الحُفر التي جعلها أبو عامر للمسلمين،

---

(١) ديوانه ص ٨١ ـ ٨٣ والسيرة ٢: ٧٩. والجلائب: جمع جليب. وهو ما يُجلب إلى البلاد للبيع من عبيد وإماء وإبل وغنم.

فهاجمه عدد من المشركين، كانوا تعاقدوا على قتله: رماه عُتبة بن أبي وقّاص فكسر رَباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته، وشجّه عبد الله بن شهاب في جبهته. وروي له ﷺ رجز في ذلك.(١)

وأقبل ابن قَمئة يقول: دلّوني على محمد. لا نجوتُ إن نجا. فاعترضتْ سبيله أُمّ عُمارةَ نُسيبةُ بنت كعب المازنيّة، تدافع بالسيف والسهام فنالها من ذلك جراح، واستطاع ابن قمئة أن يجرح وجنة النبي ﷺ، فدخلت حلقتان من حَلَق المِغفر على رأسه في وجنته المشرّفة، ثم علاه بالسيف فوقع في الحُفرة.

جعل النبي ﷺ يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: «كيفَ يُفلح قوم خَضَبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم»؟ فأنزل الله في ذلك أن الأمر له لا للنبي ﷺ، يؤمن بعضهم فيتوب، ويبقى آخرون في الكفر فيكون لهم العذاب(٢): ﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيءٌ أو يَتُوبَ علَيهِم، أو يُعَذِّبَهُم. فإنَّهُم ظالِمُونَ﴾.

وقد شاركت أم عُمارةَ ﵂ في القتال إلى جنب النبي ﷺ بسيف وسهام معها، كما ذكرنا قبل، حتى سقطت جريحًا، وترّس أبو دُجانة عليه بظهره، والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك. وبعض نساء المسلمين، وفيهم عائشة، ينقلن المياه بالقُرَب، ليُفرِغْنَها في أفواه القوم، ثم يرجِعْنَ فيملأنها ليُفرغنها أيضًا.

ثم هاجم ابن قَمئة مُصعبَ بن عُمير ﵁ وقتله، ظانًّا أنه النبيُّ، فرجع إلى قريش وقال: قتلت محمدًا. ولهذا صار يتردد بين الناس: ألا إنّ محمدًا قد قُتل. ولما رأى ضعفَ المسلمين أنسُ بن النضير قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء. يعني المشركين. ثم استقبل

---

(١) انظر البدء والتاريخ ٤: ٢٢٠.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.

العدو بسيفه، وهو يقول: «إني لأجد ريح الجَنّـة من دون أُحد». وقاتل حتى قُتل، فوُجد به أكثر من ٨٠ ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم.

ومع هذا فإن كعب بن مالك عرف سلامة النبي ﷺ، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشِروا. هذا رسول الله حيّ لم يُقتل. وتسلم اللواءَ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخيرًا رجع النبي ﷺ ببعض الصحابة إلى الشِّعب، فهجم عليه أُبيٌّ ابن خلف بحربة، وهو يقول: يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ. فاختطفها النبي ﷺ من يده وخدشه بها في عنقه خدشًا غير كبير. ولما رجع أُبيّ إلى قومه قال: قتلني محمد. قالوا: ما بك بأس. قال: والله لو بصق عليّ لقتلني. ثم مات بعدُ عدوُّ الله بذلك في طريقه إلى مكة، على ٣ أميال منها.

وكان في المشركين عمرو بن ثابت الأُصَيرم، وقذف الله في قلبه الإسلام يوم أُحد، فلحق بالنبي ﷺ مجاهدًا معه، وأسقطته الجراح. ولما رآه قومه بين قتلى المسلمين سألوه عن سرّ ذلك، فقال لهم: إنه جاهد رغبة في الإسلام، آمن بالله ورسوله، وقاتل مع الرسول حتى أصابه ما يرون. ثم مات من وقته. ولما بلغ خبره النبيَّ ﷺ قال: هو من أهل الجنة.

وفي نهاية المعركة، صعِد أبو سفيان بن حرب بنشوة الظفر مع بعض المشركين في الجبل، فقال النبي ﷺ: ليس لهم أن يعلونا. فخرج عُمر وجماعة من المهاجرين رضي الله عنهم إليهم، ورموهم بالحجارة والسهام حتى أهبطوهم. وقال أبو سفيان مفتخرًا: اعلُ، هُبَل. فقال النبي ﷺ لأصحابه: قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ. قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. قال النبي ﷺ: قولوا: اللهُ مولانا ولا مولى لكم.

ومهما يكن فقد انتهت المغزاة بهزيمة جماعة المسلمين، إذ استُشهد[1]

---

(١) انظر السيرة ٢: ١٢٢ - ١٢٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٢٨ - ٣٣٥.

منهم ٧٠ دُفنوا حيث كانوا، وقُتل من المشركين ٢٢. فانصرف أبو سفيان وهو يقول لهم: هذا يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجال:(١)

فيَومٌ علَينا، ويَومٌ لَنا ... ويَومٌ نُساءُ، ويَومٌ نُسَرْ

فأجابه عمر رضي الله عنه: لا سواءٌ.(٢) قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: موعدكم العامَ القابل. فقال النبي ﷺ لأحد أصحابه: قل: نعم. هو بيننا وبينك موعدٌ. وكانت هند قد راحت وصواحباتها بين الشهداء، يتخذن من آذانهم وأنوفهم خلاخيل وقلائد. ثم بقرت هي بطن حمزة رضي الله عنه عن كبده، ولاكتها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتْها.

ثم صعِدت صخرة مرتفعة، وصرخت بأعلى صوتها تنشد:(٣)

نَحنُ جَزَيناكُم، بيَومِ بَدرِ ... والحَربُ، بَعدَ الحَربِ، ذاتُ سُعرِ

شَفَيتُ نَفسِي، وقَضَيتُ نَذرِي ... شَفَيتَ، وَحشِيُّ، غَلِيلَ صَدرِي

فأجابتها هند بنت أثاثة المطَّلبيّة بقولها:(٤)

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٢٧.

(٢) انظر زاد المعاد ٣: ٢٠٣ والمسند ١: ٢٨٨. ولا سواءٌ أي: لا نحن سواءٌ، وبعد «لا» مبتدأ وخبر. وجاز عدم تكرار «لا» مع أن بعدها معرفة مبتدأ لأن المراد هو نفي الفعل، كأنه قيل: لا نستوي. وروي أيضًا: لا سواءَ ولا سواءً. فالفتح على البناء اسمًا لـ «لا»، والخبر محذوف، أي: لا سواءَ كائنٌ بيننا، كما تقول: لا بأسَ ولا ضيرَ ولا بدَّ ولا محالةَ. والنصب على إعمال «لا» عمل «ليس» في المعرفة، أي: لا نحن سواءً. وهو نادر في الكلام شاذ عند جمهور النحاة، أجازه ابن جني. وقال ابن مالك: والقياس على هذا سائغ عندي. انظر شرح التسهيل ١: ٣٢٥ و ٣٧٧ والتذييل والتكميل ٤: ٢٨٦ وتعليق الفرائد ٣: ٢٥٦. والراجح أن الرواية كانت بالوقف: «لا سَواءْ»، ليس فيها الضبط الذي ذُكر، وأجاز النحاة ما يحتمله من الأوجه الثلاثة استظهارًا.

(٣) السيرة ٢: ٩٢. والسعر: التوقد والالتهاب. والغليل: حرارة الجوف.

(٤) السيرة ٢: ٩١ - ٩٢. والوقاع: الكثير الوقوع في الدنايا.

خَزِيتِ في بَدرٍ، وبَعدَ بَدرِ ... يا بِنتَ وَقّاعٍ، عَظِيمِ الكُفرِ
حَمزةُ لَيثِي، وعَلِيٌّ صَقرِي ... ونَذرُكِ السُّوءَ فشَرُّ نَذرِ

وكأن هندًا كانت تغالي حين زعمت أنها شفت نفسها، إذ رُوي عنها أنها قالت، حين انصرف المشركون عن أُحد:[1]

رَجَعتُ، وفي نَفسِي بَلابِلُ جَمّةٌ ... وقَد فاتَنِي بَعضُ الَّذِي كانَ مَطلبِي
ولكِنَّنِي قَد نِلتُ شَيئًا، ولَم يَكُنْ ... كَما كُنتُ أرجُو، في مَسِيري ومَطلَبِي

ولمّا رأى بعض الصحابة ما في الشهداء من صنيع المشركين قالوا: لنُمثّلنّ بهم مُثلةً لم يُمثّلها أحد من العرب. فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذلك[2]: ﴿وإن عاقَبتُم فعاقِبُوا بمِثلِ ما عُوقِبتُم بِهِ. ولئن صَبَرتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصّابِرِينَ﴾، إلى آخر سورة النحل، وفي إنكار ادّعاء ما لا ينفّذ، ووجوب التلاحم في المعركة كالجسد الواحد بلا خلاف أو اضطراب أو تخاذل أنزل[3]: ﴿لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفعَلُونَ؟... كأنَّهُم بُنيانٌ مرصُوصٌ﴾، وفي توجيه المعركة حضّ على قتل المشركين وبيّن حكم الأسرى قائلًا[4]: ﴿فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فضَربَ الرِّقابِ... حَتَّى تَضَعَ الحَربُ أوزارَها﴾.

ثم نزل الوحي الكريم أيضًا، على لسان جبريل، بعشرات الآيات[5]: ﴿وإذ غَدَوتَ مِن أهلِكَ، تُبوِّئُ المُؤمِنِينَ مَقاعِدَ... لا يُضِيعُ أجرَ المُؤمِنِينَ﴾. وقد جاء فيها: أنها تَذكرُ ما كان من هرب المنافقين، وتنظيم النبي جيشَه،

---

(١) السيرة ٢: ١٦٨. والبلابل: الأحزان، جمع بَلبلة.

(٢) الآية ١٢٦ من سورة النحل.

(٣) الآيتان ٢ و ٣ من سورة الصف.

(٤) الآية ٤ من سورة محمد.

(٥) انظر الآيات ١٢١ ـ ١٧١ من سورة آل عمران والسيرة ٢: ١٠٦ ـ ١٢٠.

وتُذكِّرُ بما كان من عون الملائكة والنصر يوم بدر، وتحض على الطاعة والجهاد والصبر والتقوى والتوبة، وتعاتب المسلمين على ضعفهم وتقصيرهم وخلافهم أمر النبي ﷺ، وتصديقهم مزاعم المشركين بمقتله، وتبيّن لهم أن كثيرًا من الأنبياء قتلوا وثبَت أصحابهم وانتصروا، وتعرِضُ عليهم ما كان من تأييد الله في أول أُحد بنصر ظاهر، لولا الخسارة باختلال الطاعة والتقوى والصبر، وما أشاعه المنافقون من تثبيط.

ثم تلا ذلك أن ما حصل للمجاهدين هو بوسوسة الشيطان وضعف النفس البشرية، وبإذن الله وإرادته، لينكشف ما في النفوس من الإيمان والنفاق. فلا يأس ولا عجز ولا قنوط، وقد عفا الله عما جرى منهم، وأوصى رسوله الكريم أن يعفو أيضًا، ويشاورهم في مثل تلك المواقف، حتى لا يكون منهم نظير ما حصل حينذاك من خلل واضطراب. وقد كان لهم ولإخوانهم من الظفر قبلُ أضعاف ما يقابل خسارتهم هذه، ثم للشهداء من النعيم عند الله في الجنة محقٌّ لما يثيره المنافقون من توهين وتفظيع للموت في سبيل الله.

وقد ساهم الشعر كثيرًا في هذه المَغزاة، وكان له صولات وجولات بين شعراء الجانبين.(١) فهُبيرة بن أبي وهْب المخزومي ينظم قصيدة يفخر فيها بجمع كِنانة، وما فعلت بالمسلمين من تقتيل:(٢)

قالَت كِنانةُ: أنَّى تَذهَبُونَ بِنا؟ قُلنا: النُّخَيلَ، فأمُّوها ومَن فِيها
نَحنُ الفَوارِسُ، يَومَ الجَرِّ مِن أُحُدٍ هابَت مَعَدٌّ، فقُلنا: نَحنُ نأتِيها

---

(١) السيرة ٢: ١٢٩ - ١٦٨.

(٢) السيرة ٢: ١٢٩ - ١٣١. والنخيل: اسم لعين قرب المدينة. وأموها أي: قصدوها. والجر: أصل الجبل. والهام: الرؤوس، اسم جنس جمعي واحدته هامة. والوغى: الحرب. والفلق: القطع. والقيض: قِشر البَيض. والربد: النعام، جمع أربد وربداء. والأداحي: جمع أُدحية. وهي مكان البَيض.

كـأنَّ هـامَهُمُ، عِـنـدَ الـوَغَى، فِلَـقٌ   مِـن قَـيضِ رُبـدٍ، نَفَتهُ عَـن أداحِيها

فرد عليه حسان رضي الله عنه بالتسفيه، والتذكير ما كان في بدر من تقتيل وأسر:(١)

سُقتُم كِنانةَ جَهلًا، مِن سَفاهتِكُم،   إلَـى الرَّسُـولِ، فجُنـدُ اللهِ مُخـزِيها
ألا اعتبَـرتُم بخَيـلِ اللهِ، إذ قَتَلَـت   أهـلَ القَلِيـبِ، ومَـن ألقَيـنَهُ فِيـهـا
كَـم مِـن أسِيرٍ فكَكناهُ، بـلا ثَمَـنٍ   وجَـزِّ ناصِـيـةٍ، كُـنّـا مَوالِـيهـا!

وساهم كعب بن مالك رضي الله عنه في الرد على هُبيرة، بأن المسلمين يدافعون عن الدين ويقودهم رسول يوحى إليه، وبما كان من كثرة المشركين، وهزيمتهم أمام قلة المسلمين في أول المعركة، وأن الحرب سِجال، وثواب الله للمؤمنين أكبر من نصر موقت:(٢)

ألا هَل أتَـى غَسّانَ عَـنّا، ودُونَهُـم،   مِنَ الأرضِ، خَـرقٌ، سَيرُهُ مُتنَعـنِعُ
مُـجالَدُنا، عَـن دِينِـنـا، كُلُّ فَخمـةٍ   مُدَرَّبَـةٍ، فِـيهـا القَـوانِـسُ تَـلـمَـعُ
وفِـيـنـا رَسُـولُ اللهِ، نَتبَـعُ أمـرَهُ   إذا قـالَ فِـيـنـا الـقَول لا نَتَطَلَّـعُ
ثَـلاثَــةُ آلافٍ، ونَحــنُ نَـصِيَّـةٌ:   ثَـلاثُ مِئِـيـنَ، إن كَثُـرْنا، وأربَـعُ

---

(١) ديوانه ص ٤٨٥ والسيرة ٢: ١٣٢. وأعاد على الجند ضمير المفرد في «مخزي» لأنه اسم جنس جمعي. والقليب: البئر المهجورة أُلقي فيها قتلى المشركين يوم بدر، تؤنث وتذكر. والموالي: أهل الإنعام. وسكن الياء في موضع النصب حملًا له على الرفع والجر للتخفيف.

(٢) ديوانه ص ٢٢٢ والسيرة ٢: ١٣٢ - ١٣٤. وغسان أي: الغساسنة في الشام. والخرق: الفلاة الواسعة. والمتنعنع: المضطرب. والمجالدة: القتال. وقال ابن هشام: كان كعب بن مالك قال: «مُجالدنا عن جِذمنا»، فقال رسول الله ﷺ: أيصلح أن تقول: «مُجالدنا عن ديننا»؟ فقال: نعم. فقال رسول الله: «فهو أحسن». وكل: بدل من «نا» على المحل لأن المصدر «مجالد» مضاف إلى فاعله في المعنى. والفخمة: الكتيبة الضخمة. والقوانس: رؤوس بَيض السلاح، جمع قونس. ولا نتطلع: نكف بصرنا عن النظر إليه إجلالًا وهيبة له. والنصية: الخيار من القوم. والموجف: المسرع هربًا. والجهام: السحاب الرقيق لا ماء فيه. والمقلع: المنكشف.

وراحُوا سِراعــًا مُوجِفِيــنَ، كـأنَّهُم   جَـهامٌ، هَراقَت ماءَهُ الـرِّيحُ، مُقـلِعُ
فنِـلنـا، ونـالَ الـقَومُ مِنّـا، ورُبَّمـا   فَعَلنـا، ولكِن ما لَدَى اللهِ أوسَـعُ؟
بَنُو الحَربِ، إن نَظفَرْ فلَسنا بفُحَّشٍ   ولا نَحـنُ، مِن أظفـارِهـا، نَتَـوَجَّعُ

أما عبد الله بن الزِّبَعرَى، وهو من المشركين، فيعتزّ بمقاتل المسلمين وجثثهم في أُحد، ويتمنى أن يكون قتلى بدر قد شهدوا ذلك، إذ انتُصف لهم بثأر يعادل ما كان قبل:(١)

أبلِـغَن حَسّـانَ، عَنِّـي، آيَـةً   فقَريـضُ الشِّعرِ يَشفِي ذا الغُلَلْ
كَم قَتَلْنـا، مِن كَريـمٍ سَيِّـدٍ   مـاجِدِ الجَدَّيـنِ، مِقـدامٍ بَطَـلْ!
فَسَلِ المِهـراسَ: مَن ساكِنُـهُ،   بَيـنَ أقحافٍ، وهـامٍ كالحَجَـلْ؟
لَيـتَ أشيـاخِـي، بِبَدرٍ، شَهِدُوا   جَزَعَ الخَزرَجِ، مِن وَقـعِ الأسَـلْ
فقَتَلنـا الضِّعفَ، مِـن أشرافِـهِم   وعَدَلنـا مَيـلَ بَـدرٍ، فاعتَـدَلْ

فكان الرد من حسان رضي الله عنه بأن الحرب سجال، وقد هرب المشركون في أول معركة أُحد، وهُزموا في بدر بعد مقتل ساداتهم بنصر الله والإيمان، شاهدًا عليهم رسول الله، وتنابل قريش الهاربون:(٢)

ولَقَـد نِلـتُم، ونِلـنـا مِـنكُـمُ   وكَـذاكَ الحَـربُ، أحيـانًا، دُوَلْ

---

(١) السيرة ٢: ١٣٦ - ١٣٧. والآية: العلامة البيّنة. والغلل: جمع غُلة. وهي الحرارة في الصدر. والمهراس: جبل أحد. والأقحاف: جمع قحف الرأس. والهام: الرؤوس. والأسل: الرماح. والضِّعف أي: ضعف ما قتل من المشركين في بدر. وهذا غير صحيح، لأن شهداء المسلمين كانوا ٧٠. وهو عدد قتلى المشركين ببدر، وكان منهم ٧٠ أسيرًا أيضًا.

(٢) ديوانه ص ٣٥٨ - ٣٦٠ والسيرة ٢: ١٣٧ - ١٣٨. والدول: جمع الدولة. وهي المداولة. وأجأناكم أي: ألجأناكم. والرأس: الرئيس والقائد. والجحجاح: السيد. والرفل: من يجر ثوبه خيلاء. وأعدادهم أي: أسرى بعدد من قتلنا. والتنابل: جمع تِنبال. وهو القصير اللئيم. والهبل: ذوو اللحم المترهل، جمع هَبِيل.

إذ شَدَدنا شَدّةً، صادِقةً فأجأناكُم، إلَى سَفحِ الجَبَلْ
وعَلَونا، يَومَ بَدرٍ، بالتُّقَى طاعةِ اللهِ، وتَصديقِ الرُّسُلْ
وقَتَلنا كُلَّ رأسٍ، مِنهُمُ وقَتَلنا كُلَّ جَحجاحٍ، رَفِلْ
وأسَرنا، مِنكُمُ، أعدادَهُم فانصَرَفتُم، مِثلَ إفلاتِ الحَجَلْ
ورَسُولُ اللهِ، حقًّا، شاهِدٌ يَومَ بَدرٍ، والتَّنابِيلُ الهُبُلْ

ثم إن شعر الرثاء لدى المسلمين يعبّرعن الإيمان والتصبر، لأن الشهادة في سبيل الله دفاعًا عن حرية دينه هي نعمة منه، وسبيل إلى الجنة، وما زال لحرب المشركين في الدنيا أبطال وأبطال، بقيادة النبي الصابر على الحق، كما يقول كعب بن رَواحة ﷺ، في خطابه المشركين: (١)

فَخَرتُم بِقَتلَى، أصابَتهُمُ فَواضِلُ، مِن نِعَمِ المُفضِلِ
فحَلُّوا جِنانًا، وأبقَوا لَكُم أُسُودًا، تُحامِي عَنِ الأشبُلِ
تُقاتِلُ عَن دِينِها، وَسْطَها نَبِيٌّ، عَنِ الحَقِّ لَم يَنكُلِ

وقد كان للنساء المؤمنات نصيب من ذلك. فهذه صَفيّة بنت عبد المطلب رضي الله عنها تعزّي نفسها، وتعتزّ باستجابة حمزة لدعوة الله إلى الجنة، وتتمنّى أن تكون استُشهدت معه في تلك المفخرة: (٢)

دَعاهُ إلهُ الحَقِّ، ذُو العَرشِ، دَعوةً إلَى جَنّةٍ، يَحيا بها، وسُرُورِ
فذلِكَ ما كُنّا نُرَجِّي، ونَرتَجِي لِحَمزةَ، يَومَ الحَشرِ، خَيرُ مَصِيرِ
فيا لَيتَ شِلوِي عِندَ ذاكَ، وأعظُمِي لَدَى أضبُعٍ، تَعتادُنِي، ونُسُورِ

وهذه نُعمُ رضي الله عنها زوجة شمّاس بن عثمان المخزومي، ترثي زوجها بشيء

---

(١) السيرة ٢: ١٠٦. وينكل: يجبن وينكص.

(٢) السيرة ٢: ١٦٧. والشلو: ما يبقى من الجسد. وتعتادني أي: تتعاهدني بالزيارة.

من الحزن، لِما ذهب باستشهاده من الجود، وتتمنّى أن تلحق به أيضًا:[1]

أقُولُ، لَمّا أتَى النّاعِي لَهُ، جَزَعًا: أودَى الجَوادُ، وأودَى المُطعِمُ الكاسِي
وقُلتُ، لَمّا خَلَت مِنهُ مَجالِسُهُ: لا يُبعِدِ اللهُ، عَنّا، قُربَ شَمّاسِ

وفي هذه الأشعار، وتلك الآيات البيّنات، سِجلّ خالد لما كان في غزوة أُحد الكريمة، يشهد برحمة الله - تعالى - وعونه للدفاع عن دينه، حين يكون الصبر والتقوى والطاعة للحق، وبأن الزيغ عن هذه الصفات أو عن بعضها تتحصل معه فتنة الرحمن للمؤمنين، حتى يعودوا إلى جادّة الصواب.

١٤ - غزوة حمراء الأسد:[2] رجع رسول الله ﷺ من أُحُد في يوم السبت نفسه، والصحابة في جَهد وحسرة وبلاء، لِما كان من قتل وجراح وهزيمة وخسارة، والأعداء يظنون أنهم أنهكوا المسلمين ولن تقوم لهم قائمة بعد، فنزلوا في حمراء الأسد للراحة. ولهذا رأى النبي ﷺ أن يوجه أذهان الطرفين إلى عكس ما يُظَنُّ، فنادى المؤذّن في صباح الأحد بالغزو: لا يخرج معنا إلّا من حضر بالأمس. قال عبد الله بن أبيّ: أركبُ معك؟ فقال ﷺ له: لا.

وهذا يعني أن الجيش الذي حضر أُحدًا ما زال على أُهبة للحرب والقتال، بخلاف الظنون السائدة، ولم تُنهك قواه بما حصل في الأمس. وهكذا انطلق المجاهدون رضي الله عنهم وفيهم من الجراح والآلام ما يحملون، حتى أدركوا الموضع الذي كان قد نزل فيه العدو، حمراء الأسد - وهو على ٧ أميال من المدينة - فأقاموا هناك، ليعلم أبو سفيان أنهم على استعداد للقاء، ولم يُعجزهم ما كان من مِحَن في أُحد.

---

(١) السيرة ٢: ١٦٨. والناعي: من ينقل خبر الموت. وأودى: هلك.

(٢) السيرة ٢: ١٠١ - ١٠٥ والكامل ٢: ١٦٤- ١٦٦ وتاريخ الطبري ٢: ٥٣٤ - ٥٣٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٣٥ - ٣٣٩ والطبقات الكبرى ٢: ٤٨ - ٤٩ وزاد المعاد ٣: ٢٤١ - ٢٤٢ ومشارع الأشواق ص ٨٦٠.

وهناك مرّ مَعبد الخُزاعي - وهو مشرك مُوادع للمسلمين مع قبيلته وناصح - بهذا الجيش المؤمن فلقي النبي ﷺ مواسيًا له وأسلم، وكان مما قال: يا محمد، لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوَدِدنا أن الله عافاك منهم. فأمره النبي ﷺ أن يلحق بأبي سفيان ويُخذّله. ولمّا انصرف مَعبد إلى سبيله لقي جيش المشركين في الروحاء، على ٣٠ ميلًا من المدينة، وقد أجمعوا أن يرجعوا ليستأصلوا المسلمين بزعمهم.

سأل أبو سفيان مَعبدًا، ولا علم له بإسلامه: ما وراءك؟ يا مَعبد. قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم، في جمع لم أر مثله قطّ، يتحرّقون عليكم تحرّقـًا، قد جمع معه مَن تخلف عنه، وندموا على ما صنعوا، وما ترحَلُ حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيّتهم.

فقال له مَعبد: إني أنهاك عن هذا. فلا تفعل، فإني ناصح لك. وأنشده في وصف جيش المسلمين أبياتًا جاء فيها:(١)

كادَت تُهَدُّ، مِنَ الأصواتِ، راحِلتِي ... إذ سالَتِ الأرضُ، بالجُردِ الأبابِيلِ
فقُلتُ: وَيلَ ابنِ حَربٍ، مِن لِقائكُمُ، ... إذا تَغَطمَطَتِ البَطحاءُ بالجِيلِ
مِن جَيشِ أحمَدَ، لا وَخشٍ تَنابِلَةٍ ... ولَيسَ يُوصَفُ ما أنذَرتُ، بالقِيلِ

فثنى ذلك أبا سفيان عن عزمه.

ثم مرّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان، فقال لهم: هل أنتم مبلّغون عني محمدًا رسالة أُرسلكم بها، وأُحمّل لكم إبلكم هذه زبيبًا بعُكاظَ، إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: أخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه

(١) السيرة ٢: ١٠٣ وتاريخ الطبري ٢: ٥٣٥ - ٥٣٦. والجرد: جمع أجرد. وهو الفرس القصير الشعر. والأبابيل: الجماعات. وتغطمط: اضطرب. والبطحاء: الأرض السهلة. والجيل: الجماعة من الناس. والوخش: الرذل الضعيف. والتنابلة: القصار الأدنياء. وليس: حرف نفي. والقيل: القول.

لنستأصلهم. ولما بلّغوا رسول الله ﷺ ذلك التهديد تقبّله باطمئنان قائلًا: حسبنا الله، ونعم الوكيل!

مضت ٣ أيام على الإقامة في حمراء الأسد، ولم يظهر لجيش العدو أثر، فعاد النبي ﷺ إلى المدينة، وقد استردت نفوس المجاهدين كثيرًا من العزيمة وبشائر النصر، وتثبيت الهيبة بين القبائل في الحجاز وتهامة. وبهذا ارتفعت القوة المعنوية لديهم بعد نكبة أُحد، وسجلوا على أبي سفيان هربًا من اللقاء. وهو ما سيكون له أثر في الغزوات المقبلة، إن شاء الله.

وفي طريق العودة ظفروا باثنين من جنود أبي سفيان، فكان لهما القتل. وهما معاوية بن المغيرة الذي مثّل بحمزة، وأبو عَزة الجمحي الذي أُطلق أسرُه في بدر من غير فداء، على ألّا يقاتل المسلمين ولا يعين في ذلك، ثم حصل منه ما ذكرنا قبل، في تحريض القبائل وجمعها ليوم أُحُد.

وقد سجل الوحي الكريم هذه المَغزاة، بقول الله تعالى[1]: ﴿الَّذِينَ استَجابُوا لِلهِ والرَّسُولِ، مِن بَعدِ ما أصابَهُم القَرحُ، لِلَّذِينَ أحسَنُوا مِنهُم واتَّقَوا أجرٌ عَظِيمٌ. الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ: «إنَّ النّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم. فاخشَوهُم»، فزادَهُم إيمانًا، وقالُوا: «حَسبُنا اللهُ، ونِعمَ الوَكِيلُ»!... وإن تُؤمِنُوا وتَتَّقُوا فلَكُم أجرٌ عَظِيمٌ﴾.

فكان في ذلك تعظيم لشأن المجاهدين المنكوبين المجرّحين، الذين لبَّوا نداء النفير، صباح عودهم من أُحُد، ليطاردوا فلول قريش وأنصارها، وتلقَّوا بازدياد الإيمان الراسخ والاتكال على الله ما جاءهم من التهديد، ورجعوا بفضله ورضوانه غانمين الهيبة وإرهاب العدو. وقد تحقق لهم هذا كله لأنهم لا يخافون إلّا الله، ولا يهمهم تخاذل المنافقين وتجبر الكافرين، ويعلمون أن ما جرى في الغزوات إنما هو امتحان، لكشف ما في النفوس من ثقة ونفاق

---

(١) الآيات ١٧٢ - ١٧٩ من سورة آل عمران. وانظر السيرة ٢: ١٢١.

وكفر، وأن الإيمان والتقوى والصبر عماد رضا الله ـ تعالى ـ وتفضله بالأجر والعون والنصر العظيم.

١٥ ـ **سرية الضَّمري:**(١) طلب أبو سفيان بن حرب من قريش أن ينتدب أحدُهم لاغتيال النبي ﷺ فاستجاب له أعرابي، وقدِم إلى المدينة ودخل المسجد، فقال النبي لأصحابه: «إن هذا لَيُريد غدرًا». ثم أمسكوا به فخلّى عنه وآمنه وعلم منه ما جاء لأجله، فأسلم وبايع.

أضف إلى هذا أنه بلغ النبيَّ الكريم ﷺ ما كان من مقتل أهل الرَّجيع، فأرسل في صفر السنة الرابعة عمرَو بن أُميّة الضَّمريَّ وأحدَ الأنصار رضي الله عنهم لقتل أبي سفيان في مكة ـ وقد كان منه ما كان في قتل خُبيب وصاحبه ـ فاكتشف المشركون أمرهما وهربا. وفي طريق العودة لقي عمرٌو خُبيبًا رضي الله عنهما مصلوبًا، وحمله ليهرب به فلحق به المشركون، واضطُرّ أن يتركه وينجو بنفسه.

وقتلَ عمرٌو رضي الله عنه في طريق عودته عثمانَ بن مالك التيميَّ، ورجلًا يتجسس أمر المسلمين، وأسر ثالثًا متجسِّسًا وجاء به إلى المدينة. وكان قد لقي رابعًا من بني الدُّئل الكِنانيِّين جماعةِ قريش، جالسه على أنه من قبيلته، وصار ذلك يرفع عقيرته متغنيًا بقوله:

ولَستُ بِمُسلِمٍ، ما دُمتُ حَيًّا ... ولَستُ أَدِينُ دِينَ المُسلِمِينا

فاحتال عليه وقتله.

١٦ ـ **غزوة بدر الآخرة:**(٢) كان أبو سفيان بن حرب في منتصف شوال

---

(١) السيرة ٢: ٦٣٣ ـ ٦٣٥ وتاريخ الطبري ٥٤٢ ـ ٥٤٥ والكامل ٢: ١٦٩ ـ ١٧٠والطبقات ٢: ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) السيرة ٢: ٢٠٩ ـ ٢١٣ وتاريخ الطبري ٢: ٥٥٩ ـ ٥٦١ والكامل ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦ وزاد المعاد ٣: ٢٥٥ والطبقات ٢: ٥٩ ـ ٦٠ والبداية والنهاية ٣: ١٦٩ ـ ١٧٢ وعيون الأثر ٢: ٥٣ وشرح المواهب ٢: ٩٣ ـ ٩٥.

من العام الثالث، قبل انصرافه من أُحُد، نادى فيما خاطب به المسلمين: موعدُكم العامَ القابل بدرُ الصفراء على رأس الحول، نلتقي فنقتتل. فقال النبي ﷺ لأحد أصحابه: «قل: نعم، إن شاء الله، هو بيننا وبينك موعدٌ». ولكن أبا سفيان لقي قُبيل ذلك الوقت المحدد نُعيمَ بن مسعود الأشجعي في مكة ولمّا يسلمْ، وسأله عن أخبار المسلمين، فأعلمه أنهم يتهيئون للقائه، فطلب منه أن يثبّطهم عن ذلك، ليكون الخُلف منهم لا من قريش، وله عشرون فريضة يضمنها له سُهيل بن عمرو.

ولما صار نُعيم في المدينة اندس بين المسلمين يخذّلهم، فبلغ الخبرُ رسول الله ﷺ فقال: «والله، لو لم يخرج معي أحد لخرجتُ وحدي». ثم فتح الله على المسلمين باب الوِفاق فسار معه ١٥٠٠ محارب ﷺ إلى بدر، والراية بيد علي رضي الله عنه، في شعبان من العام الرابع، وأقام فيها ٨ ليال، ينتظر قدوم أبي سفيان لميعاده، دون أن يظهر له أثر أو خبر.

فجاء مَخشيٌّ بن عمرٍو الضَّمري، صاحب الميثاق بموادعة غزوة ودّان، وقال: يا محمدُ، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم، يا أخا بني ضَمرة. وإن شئت، مع ذلك، رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك. قال: لا والله ـ يا محمد ـ ما لنا بذلك من حاجة.

وعندما علم أبو سفيان بخروج المسلمين إلى بدر غادر مكة مع ٢٠٠٠ من المشركين للقاء، ثم تذكر في الظَّهران بطريقه إلى بدر ما كان منه بعد أُحد، حين وصف معبد الخزاعي جيش المسلمين له، وجبُن عن لقائهم في حمراء الأسد، فبدا له الرجوع. إذ ذاك جمع قومه وخاطبهم بقوله: يا معشر قريش، إنه لا يُصلحكم إلّا عام خصيب، تَرعَون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإنّ عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجع. فارجعوا.

كان هذا الجيش لم ينس الهزائم القريبة، فاستجاب لرغبة قائده، ورجع إلى موطنه خائبًا، وسماهم أهل مكة جيش السَّويق. إذ كانوا يقولون لهم: خرجتم تشربون السَّويق. يعني أنهم كانوا في نزهة، تمتعوا بما معهم من الزاد والشراب، ولم يكونوا خرجوا للجلاد.

وبعد انتظار النبي ﷺ عدوَّه المتخلف، عاد إلى المدينة مع جيشه الصحابي الكريم، مزوَّدًا بالمرابح الوافرة في التجارة، ومكلَّلًا بالنصر والهيبة والاعتزاز. فقد انتشر خبر وفائه بما وعد، ونكوصِ أبي سفيان وإخلافه الميعادَ الذي قطعه هو على نفسه، فقام الشعراء يسجلون هذه اللمحات التاريخية اللامعة، بصفحات مجد للمسلمين وخزي للكافرين.

فعبد الله بن رَواحة رضي الله عنه ينعى على أبي سفيان ما عُرف به، من إخلاف العهود والجبن عن اللقاء الماحق، والعصيان لدعوة الحق ومتابعة الغَيّ، ويفخر بطاعة المسلمين للنبي ﷺ، فيما جاء به من الهداية وتبديد الظلمات:[1]

وَعَدْنا أبا سُفيانَ بَدرًا، فلَم نَجِدْ ... لِميعادِهِ صِدقًا، وما كانَ وافِيا
فأُقسِمُ، لَو وافيتَنا فلَقِيتَنا ... لأُبتَ ذَمِيمًا، وافتَقَدتَ المَوالِيا
عَصَيتُم رَسُولَ اللهِ، أُفٍّ لِدِينِكُم ... وأمرِكُمُ السَّيْءِ، الَّذِي كانَ غاوِيا
أطَعناهُ، لَم نَعدِلْه فِينا بغَيرِهِ ... شِهابًا، لَنا في ظُلمةِ اللَّيلِ، هادِيا

وقام حسان رضي الله عنه يسخر من المشركين لتخلف أبي سفيان، ويهددهم بقطع سبيل التجارة إلى الشام، لأن المهاجرين إلى الله والملائكة حالوا دون ذلك، وهم في قوة تهزم كل معين للعدو، وقد جعلت زعيمَ قريش في عداد

---

(١) نسبت الأبيات إلى كعب بن مالك أيضًا. انظر ديوانه ص ٢٩١ والسيرة ٢: ٢١٠ - ٢١١.
ووافيتنا أي: جئتنا في الميعاد. وأبت: رجعت من الحرب. وافتقدتهم أي: ضيعتهم بالقتل أو الأسر. والموالي: جمع مولى. وهم الأقرباء. ولم نعدله أي: لم نقارنه أو نساوه.

الأشرار المساكين:[1]

أقَمنا، علَى الرَّسِّ النَّزُوعِ، لَيالِيًا ... بأرعَنَ جَرّارٍ، عَرِيضِ المَبارِكِ
دَعُوا فَلَجاتِ الشّامِ، قَد حالَ دُونَها ... جِلادٌ، كأفواهِ المَخاضِ الأوارِكِ
بأيدِي رِجالٍ، هاجَرُوا نَحوَ رَبِّهِم ... وأنصارِهِ حَقًّا، وأيدِي المَلائكِ
إذا سَلَكَت لِلغَورِ، مِن رَملِ عالِجٍ، ... فقُولا لَها: لَيسَ الطَّرِيقُ هُنالِكِ
فإن نَلقَ، في تَطوافِنا والتِماسِنا، ... فُراتَ بنَ حَيّانٍ يَكُن وَهنَ هالِكِ
فأبلِغْ أبا سُفيانَ، عَنِّي، رِسالةً ... فإنَّكَ مِن شَرِّ الرِّجالِ الصَّعالِكِ

فأجابه أبو سُفيان بن الحارث، يعيره بأكل التمر الفجّ، وخسارة أُحُد، وما فعلته قريش يومذاك:[2]

---

(١) ديوانه ص ٣٤٩ - ٣٥١ والسيرة ٢: ٢١١ - ٢١٢. والرس: البئر التي في بدر. والنزوع: التي يخرج ماؤها بالأيدي. والأرعن: الجيش العظيم له أتباع وفضول. والجرار: الذي يجر معه عتاد الحرب. والفلجات: الأودية والأنهار والعيون والأبار الكبيرة، جمع فلْج. والمخاض: الحوامل من الإبل، واحدتها خَلِفة. والأوارك: التي ترعى شجر الأراك. ونحو ربهم أي: إلى طاعته ورضاه. وسلكت أي: سارت قريش. والغور: المنخفض من الأرض. وعالج: مكان فيه رمل كثير. وهنالك أي: في ذلك المكان. يعني: حذار هذا السبيل لما فيه من الخطر. وفرات بن حيان: رجل من بكر بن وائل، استعان المشركون به ليدلهم على طريق الشام من قِبل العراق. وذلك أنهم خافوا طريق الحجاز بعد بدر، وقصدوا بالتجارة طريق العراق، فطاردهم زيد بن حارثة ﷺ بسَرِيّة المجاهدين في نجد وأُسر فراتًا، وغنم المجاهدون ما كان من التجارة. والوهن: الضعف والاستكانة. والصعالك: الفقراء العاجزون، جمع صُعلوك. وأصله «الصعاليك»، حذفت ياؤه للتخفيف.

(٢) السيرة ٢: ٢١٢ - ٢١٣. والفغا: غبرة تعلو التمر قبل أن يطيب. ونغتال: نقطع ونجتاز. والخروق: جمع خَرق. وهو الفلاة الواسعة. والنخل أي: فيما حول المدينة يوم أُحُد. والمدارك: جمع مدرك. وهو الموضع القريب. والركاب: الإبل. والدكادك: جمع دَكدك. وهو الرمل الليّن. والجلاد: القتال. والعين: المال الحاضر عِيانًا. والآنك: القزدير. يعني المبادلة التجارية.

أحَسّانُ، إنّا، يا ابنَ آكِلةِ الفَغا وجَدِّكَ، نَغتالُ الخُرُوقَ كَذلِكِ
أقَمتَ علَى الرَّسِّ النَّزُوعِ، تُرِيدُنا وتَترُكُنا في النَّخلِ، عِندَ المَداركِ
علَى الزَّرعِ، تَمشِي خَيلُنا ورِكابُنا فما وَطِئَت ألصَقْنَهُ بالدَّكادِكِ
حَسِبتُم جِلادَ القَومِ، عِندَ قِبابِهِم، كَمأخَذِكُم، بالعَينِ، أرطالَ آنُكِ

ومهما يكن من القول فإن الفعل هو الذي تقاس به الأعمال، وتقدّر به الرجال. فقد اكتسب الجيش الإسلامي نصرًا جديدًا، يضاف إلى الصفحات المشرّفة المتقدمة، ويضع قريشًا في زمرة المخلفين لعهود اللقاء الحربي، والهاربين إزاء تحديات الجهاد الإيماني الصادق، بعد أن كانت المستبدة المتجبرة في الحجاز وتهامة ونجد. ولذلك بدأت تستعد بالكيد والتهيُّؤ لما سيأتي في غزوة الخندق.

١٧ ـ غزوة الخندق: [(١)] ضاق يهود بني النَّضير بما صار للإسلام، في المدينة وما حولها، من عزة ونصر وسيادة، فرأو أن يؤلبوا عليه أحلافًا كثيرة من القبائل، لينتهوا منه قبل انتشاره فيما لا يمكن السيطرة عليه. ذلك لأن هذه البقاع المذكورة كانت مِنطقة نفوذ لليهود، يتحكمون في أوضاعها، فيثيرون الفتن بين القبائل، ويوجهون التجارات والأعمال بأموالهم وما يتاجرون به من الخمور والمؤونة والسلاح، ويشيعون من الفواحش والمنكرات، ليبقى زمام الأمور بأيديهم. فظهور دولة قوية قريبًا من حصونهم يعني ضياع المجد والسلطان.

ومن ثَمّ ائتمر زعماءُ بني النَّضير من اليهود كسلّام بن أبي الحُقيق وحُييّ

---

(١) الأحاديث: ٣٨٧١ ـ ٣٨٩٠ في البخاري و ٢٠٣٩ و ٣٠٢٠ و ٢٧٢٤ في مسلم والسيرة ٢: ٢١٤ ـ ٢٣٣ وتاريخ الطبري ٢: ٥٦٤ ـ ٥٨١ والكامل ٢: ١٧٨ ـ ١٨٤ وأنساب الأشراف ١: ٣٤٣ ـ ٣٤٧ وعيون الأثر ٢: ٥٤ والبداية والنهاية ٣: ١٧٨ ـ ٢٢٢ والطبقات ٢: ٦٥ ـ ٧٤ وشرح المواهب ٢: ١٢٠ ـ ١٢٦ وزاد المعاد ٣: ٢٧٠ ـ ٢٧٥ والمعارف ص ١٦١ ومشارع الأشواق ص ٨٦٢.

ابن أخطب، وزعماءُ بني وائل بن قاسط وفيهم نصارى، على السعي لتحقيق ما يُنهي أمر المسلمين، ويئد الدولة الفتية في مهدها، فخرجوا يحزّبون الأحزاب. كان أول ما فعلوا من ذلك أن قدِموا إلى مكة، يحرّضون قريشًا والأحابيش على رسول الله ﷺ معاهِدِين لهم بالقول: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

سألتهم قريش فيما سألت: أدِينُنا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير، وأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله فيهم قوله الكريم[1]: ﴿ويَقُولُونَ لِلَّذِينَ كفَرُوا: «هـؤُلاءِ أهدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا». أولئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ .

وحين تم الاتفاق بين الجانبين على الغزو، انصرف المؤتمرون من زعماء يهود إلى بني غطفان، يدعونهم إلى ذلك ويبلّغونهم ما كان من قريش، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة تامة، للإغراء والتشجيع، ثم طافوا بالقبائل العربية يدعونها إلى ذلك، فاستجاب مَن استجاب، وكان لهم ما أرادوا من جمع الأحلاف: بني أسد وفَزارة وأشجعَ ومُرّة، في ١٠٠٠٠ محارب.

كان بين النبي ﷺ ويهود بني النَّضير وقُريظة عهد بالمسالمة، كما ذكرنا قبل، ألّا يعينوه في حرب ولا يعينوا عليه، وإذا هوجمت المدينة دافعوا عنها. وبفعلهم الذي ذكرناه الآن نقض بنو النضير العهد، ثم ذهب سيّدهم حُييٌّ بن أخطب إلى بني قُريظة لضمهم إلى الأحلاف، فأبى سيّدهم كعب بن أسد استقباله، وأغلق في وجهه باب حصنه، وقال له: «إنك رجل مشؤوم. وقد عاهدتُ محمدًا، ولم أرَ منه إلّا الوفاء». وبعد جُهد وتمنع اضطُرّ أن يستقبله، وقد عاهده حُييّ على حماية بني قُريظة، إذا هُزم الأحزاب.

وهكذا نقض الآخرون عهدهم أيضًا. إذ ذاك بعث رسول الله ﷺ بعض الصحابة، ليبلّغوه حقيقة أمر يهود: أعلى العهد هم أم ناقضوه؟ فلما دنَوا منهم

---

(١) الآيات ٥١ ـ ٥٤ من سورة النساء.

جابهوهم بالسب والعداوة، ونالوا من الرسول العظيم والصحابة، فرجع هؤلاء وأخبروه بلحن القول ما كان من غدر يهود، وعظم ذلك على المسلمين، وظهر كيد النفاق، فقال الرسول الكريم: اللهُ أكبر. أبشِروا، يا معشرَ المسلمين.

أما أبو سفيان بن حرب فقد رأى فيما تألب لديه من الأحزاب قوة يستطيع أن يُهدد بها، وهي ٤٠٠٠ مقاتل، فكتب إلى النبي ﷺ[1]: «أمّا بعدُ فإنك قتلتَ أبطالنا، وأيتمت أطفالنا، ورمّلت النسوان. والآن فقد اجتمعَتِ القبائل والعشائر، يطلبون قتالك وقلع آثارك. وقد أنفذنا إليك، نريد منك نِصف نخل المدينة. فإن أجبتنا إلى ذلك، وإلّا فأبشر بخراب الديار وقلع الآثار:

تَجاوَبَتِ القَبائلُ، مِن نِزارٍ لِنَصرِ اللّاتِ، في بَيتِ الحَرامِ
وأقبَلَتِ الضَّراغِمُ، مِن قُرَيشٍ عَلَى خَيلٍ، مُسَوَّمةٍ ضِرامِ».

فأمر النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه أن يكتب إليه جوابًا، فيه الأمرُ بترك عبادة الأصنام، والوعيدُ بالقتل وخراب الديار، مع بيتين من الشعر.

كانت المدينة تحوطها البساتين والجبال من جهات الشرق والغرب والجنوب. ولمّا بلغ النبيَّ خبر ما جمعه الأعداء استشار أصحابه رضي الله عنهم في لقائهم، فأشار سلمان رضي الله عنه بحفر خندق يُكمل حفظ المدينة من الجانب الشمالي بين الحَرّتين الشرقية والغربية، لتكون الحرب بعيدًا عن البلد، ويتحقق الأمن على الذراري والحريم.

هنالك شرع المسلمون في الحفر، فأمضوا فيه ٦ أيام، وكتائب من الأنصار والمهاجرين تطوف لحماية المدينة. وعندما أسهم النبي ﷺ في ذلك كان يُنشد ما يشبه الرجز، للتشجيع والتسلية عما يلقى الصحابةُ من الجَهد:[2]

---

(١) الوثائق السياسية ص ٥٣.

(٢) الأحاديث: ٦٠٥٠ و ٦٠٥١ و ٢٦٧٩ و ٢٦٨٠ و ٣٥٨٦ و ٣٨٧٢ في البخاري و ١٨٠٣ - ١٨٠٥ في مسلم. وانظرالبداية والنهاية ٤: ٩٧ والروض الأنف ٢: ١٨٩ والطبقات ٢: ٧٠.

اللّهُمَّ، لا عَيشَ إلّا عَيشُ الآخِرَهْ فـأصلحِ الأنـصارَ، والمُـهاجِرَهْ

والصحابة ينشدون بعده:

نَحنُ الَّذِينَ بـا يَعُوا مُحَمَّدا عـلَى الجِهـادِ، مـا بَقِينـا أبَـدا

ثم صار ينقل معهم التراب حتى اغبرّ بطنه الشريف، وهو ينشد معهم هذه الأبيات:(١)

واللهِ، لَـولا اللهُ مـا اهتَدَينـا ولا تَـصَدَّقنا، ولا صَلَّينـا

فأنـزِلَـنْ سَكِينـةً علَينـا وثَبِّـتِ الأقـدامَ، إن لاقَينـا

إنَّ الأُلَـى قَـد بَغَـوا علَينـا إذا أرادُوا فِتـنـةً أبَـينـا

ثم يَمدّ صوته بآخرها، و يرفع به صوته: **أبَيـنـا، أبَيـنـا**.

والمعهود بين العرب أن الرجز غالبًا ما يكون ارتجالًا، للتغني في مواطن العمل الشديد المديد المرهق، يروّحون به عن أنفسهم، ويشجع بعضهم بعضًا بالترديد والتقطيع للنشيد على المضي والاستمرار، دون تلكُّؤ أو انقطاع. وقد لا يكون للموضوع المضمّن كبير أهمية كما في الشعر.

ومن ذلك أن أحد المسلمين اسمه جُعيل رضي الله عنه - وهو غير حسن المعنى - وسمّاه رسول الله ﷺ عَمرًا، فصار الصحابة يرتجزون، وهم يعملون في الحفر والنقل:(٢)

سَمّاهُ، مِن بَعدِ جُعيلٍ، عَمـرا وكـانَ لِلبائسِ، يَومًـا، ظَهـرا

فكانوا إذا مروا بقولهم: «عمرا» قال رسول الله ﷺ معهم: «**عَمرا**»، وإذا وصلوا إلى قولهم «ظَهرا» ردّد معهم: **ظَهرا**.

---

(١) الأحاديث: ٢٦٨١ و ٣٨٧٨ و ٣٨٨٠ في البخاري والبداية والنهاية ٤: ٩٦ والطبقات ٢: ٧١.

(٢) السيرة ٢: ٢١٧ وتاريخ الطبري ٢: ٥٦٧ والبداية والنهاية ٤: ٩٥ - ٩٦ والروض الأنف ٢: ١٨٩. وفاعل «سمى» واسم «كان» يعود على النبي ﷺ. وجعيل: تصغير جُعَل. وهو حشرة من الخنافس تألف الأماكن القذرة. والعمر: الفضل والبناء والنماء. والظهر: العون والقوة.

أما المنافقون فإنهم لما بلغهم تألب الأحلاف، من قريش وغطفان واليهود والنصارى والقبائل العربية، هالهم الخطر وبدؤوا يتباطؤون في العمل، ثم يهربون منه متسللين إلى أهلهم بلا إذن. وقد شنّع الله عليهم ذلك وهددهم متوعّدًا: ﴿قَد يَعلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُم لِواذًا. فلْيَحذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَن أمرِهِ أن تُصِيبَهُم فِتنةٌ، أو يُصِيبَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.[1] وذلك بعد أن امتدح الذين يستأذنون لأمر اضطراري طارئ، يقضونه ثم يرجعون لمتابعة الواجبات.

كان حفر الخندق غريبًا على العرب والمسلمين، وجدوا فيه مشقة وعناء، بالإضافة إلى ما يتهددهم من الغزو المنتظر تشنّه الأحزاب. ولمّا كان سلمان يحفر ظهرت له صخرة غليظة تَعسَّر عليه الضرب فيها، فأخذ النبي ﷺ منه المِعوَل، وبطنه معصوب بحجر لم يذق هو والصحابة طعامًا ثلاثة أيام، ثم ضرب ثلاث ضربات لمعت تحتها بَوارق، من شِدّة الصلابة والكسر، والنبي يكبّر كل مرة تكبير فتح، والصحابة يردّدون بعده.

قال سلمان: بأبي أنت وأُمّي - يا رسول الله - ما هذا الذي رأيتُ لَمَعَ تحت المِعول، وأنت تضرب؟ قال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم، فرأيناك تكبّر فنكبّر. قال: أمّا الأُولى فإنّ الله فتح عليّ بها اليمنَ، وأمّا الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشامَ والمغرب، وأمّا الثالثة فإن الله فتح بها عليّ المشرق. وأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها. فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله، وعدَنا النصر بعد الحصر.

وفي شهر شوال من العام الخامس، خرجت قريش في ١٠٠٠٠ بما معها من بطون كِنانة وثقيف وأفناء العرب، وجمهورالأحابيش وأهل تِهامة، فنزلت في واد قُبيل الخندق شمال المدينة، ثم جاءت غطفان بزعامة عُيينة بن حِصن

---

(١) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة النور والسيرة ٢: ٢١٦ - ٢١٧.

ومن معها من أهل نجد، ونزلوا قرب أُحُد. وهذا ما شجع يهود النَّضير وقُريظة على نقض عهودهم، والتعهد للمشركين بنصرتهم في الحرب، كما ذكرنا من قبل، حتى أعلنت قُريظة الحرب إعلانًا.

أما النبي ﷺ فقد أمر بالذراريّ والنساء أن يُجعلوا في الحصون، وأحدها حصن حسان بن ثابت، للحماية من هجوم الأعداء، ثم خرج في ٣٠٠٠ من الصحابة، حتى عسكر أمام جبل سَلْع موجّهًا ظَهره إليه، والخندق بينه وبين العدو. ثم أرسل بعض الصحابة يكتشفون له حقيقة أمر اليهود، فكان جواب هؤلاء: مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

وهكذا تمّ تألب الأحلاف، وجاءت جيوشهم تحاصر المدينة، وتهدّد من فيها بالفناء، حتى ظن المؤمنون كلَّ ظن، وصار المنافقون يتصرفون ويتكلمون بما فيه التخذيل والتوهين. ومن ذلك أن بعضهم قالوا لرسول الله ﷺ: إن بيوتنا عورة من العدوّ، لأنها خارجَ المدينة. فائذن لنا أن نخرج إليها. فنزل الوحي الكريم[1] مُوردًا ادّعاءهم: ﴿يَقُولُونَ: إنَّ بُيُوتَنا عَورةٌ﴾، ثم كذّبهم ببيان ما يُضمرون: ﴿وما هِيَ بِعَورةٍ. إنْ يُرِيدُونَ إلّا فِرارًا﴾. وآخرون من المنافقين يهزؤون بما كان في حفر الخندق، من تبشير النبي ﷺ بالنصر القادم، ويقولون: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وقد امتدت تلك الحال قريبًا من الشهر، لا قتال فيه ولا حرب، بل تراشق بالسهام من بعيد، فاشتد الأمر على المؤمنين، حتى خطر للنبي ﷺ أن يفك جانبًا من الحصار، بمصالحة غطفان ليرجعوا عن عزمهم بمن معهم،

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأحزاب.

ولهم ثلث ثمار المدينة. كان بين الطرفين مراوضة[1] في ذلك، وسُجلت صحيفة به، دون إقرار وعزيمة.

ثم استشار النبي ﷺ أصحابه قبل التعهد، فقالوا: يارسول الله، أأمرًا نحبّه فنصنعَه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم. واللهِ، ما أصنع ذلك إلّا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مّـا».

فقال سعد بن مُعاذ رضي الله عنه: يارسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القومُ على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يَطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلّا قِرًى أو بيعًا. أفحين أكرَمَنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ واللهِ، ما لنا بهذا حاجة. واللهِ، ما نعطيهم إلّا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال الرسول ﷺ: «فأنتَ وذاك». وتناول سعد الصحيفة، ومحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليَجهدوا علينا.

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه في حِصنه مع النساء، فجاء يهودي من قُريظة يُطيف بالحِصن، ثم قعد على الباب مهدّدًا. قالت صَفية بنت عبد المطلب لحسان رضي الله عنهما:[2] انزل إلى هذا العِلج، فاقتله. قال: ما كنت لأجعل نفسي خطرًا لعِلج مِثله. فاتّزرت صفية بكساء، وأخذت فِهرًا، ونزلت إليه ففلقت رأسه، وقالت

---

(١) السيرة ٢: ٢٢٣ وأنساب الأشراف ١: ٣٤٦ وتاريخ الطبري ٢: ٥٧٣ والوثائق السياسية ص ٥٥ - ٥٦ والمغازي النبوية ص ٧٩. وانظر حضارة الإسلام ٤: ٤: ٥٢ والجهاد والقتال ص ٤٩٣ - ٤٩٥. والمراوضة: المحادثة والمداراة.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٤٧. وقد ضعّف بعض العلماء ما في هذا الخبرمن جبن حسان، وتعقّبهم آخرون بتحسينه وتعضيده. السيرة ٢: ٢٢٨ - ٢٢٩. والعلج: من كفار العجم. والفهر: الحجر الغليظ.

لحسان: انزل إليه فاسلبه. قال: مالي بسلَبه حاجة، يا بنة عبد المطَّلب.

وشرع عَمرُو بنُ ودّ وهو في التسعين من العمر، مع عِكرمة بن أبي جهل وبعض الفوارس من قريش، يقتحم الخندق من إحدى زواياه الضيقة، وهو ينشِدُ طالبًا النزال:[1]

ولَقَـد بَحِحـتُ، مِـنَ النِّـدا ءِ لِجَمعِـهِم: هَـل مِـن مُبـارِزْ؟

فاستقبله عليّ مع بعض الصاحبة رضي الله عنهم. ولمّا دعاه إلى النزال قال: لِمَ؟ يا ابن أخي. فوالله ما أُحبّ أن أقتلك. قال عليّ رضي الله عنه: لكني - والله - أُحبّ أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك، واقتحم عن فرسه وعقره، ونازله علي حتى قتله ولم يسلب ما لديه. ونازل الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه نوفلَ بن عبد الله فقتله، وأنشد في ذلك رجزًا،[2] وقُتل أيضًا مُنبّهَ بن عثمان من بني عبد الدار، فألقى عِكرمة بن أبي جهل رمحه وهرب بمن معه.

ورُوي أن عليًّا رضي الله عنه ذكر ما كان له مع عَمرِو بنِ ودّ، وعِفّته عن سلب ما معه، مبشّرًا الكافرين بنصر الله لدينه:[3]

نَصَرَ الحِجارةَ، مِن سَفاهةِ رأيِهِ ونَـصَرتُ رَبَّ مُحَـمَّدٍ، بِصَوابِي
فَـصَدَدتُ، حِيـنَ تَرَكتُـهُ مُتَجَـدِّلًا كالـجِذعِ، بَيـنَ دَكـادِكٍ ورَوابِـي
لا تَحـسِبُنَّ اللهَ خـاذِلَ دِيـنِـهِ ونَبِيِّـهِ، يـا مَعشَـرَ الأحـزابِ

وقال حسان رضي الله عنه يعيّر عِكرمة بهروبه، ويسخر منه لجبنه:[4]

---

(١) البداية والنهاية ٤: ١٠٦ والروض الأنف ٢: ١٩١ والطبقات ٢: ٦٨.

(٢) البداية والنهاية ٤: ١٠٧.

(٣) السيرة ٢: ٢٢٤ - ٢٢٥ والبداية والنهاية ٤: ١٠٥ - ١٠٧. والمتجدل: اللاصق بالأرض. والدكادك: جمع دكدك. وهو الرمل اللين. قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك في نسبة الأبيات إلى علي.

(٤) السيرة ٢: ١٢٦. وتلوي: تعطف. والفرعل: ولد الضبع.

فَـــرَّ، وألـقَـــى لَـنَـــا رُمـحَـــهُ   لَـعَـلَّـــكَ، عِـكـــرِمَ، لَـــم تَـفـعَـــلِ
ولَـــم تَـلـــوِ ظَـهـرَكَ مُستـأنِـسًـا   كـــأنَّ قَـفَـــاكَ قَـفـــا فُـرعُـــلِ

ثم تواعد فرسان الفئتين للقاء في الغد، إذ برزت كتيبة من المشركين بقيادة خالد، فجابهتها كتيبة المسلمين حتى ردتها خاسرة. وخرج سعد بن مُعاذ رضي الله عنه يجول فيما حول المدينة للحماية، وهو كامل السلاح ذراعه خارجة من الدرع المقلّصة، يتحرق للجهاد، ويُنشد قول الراجز:[1]

لَبِّثْ قَلِيلًا، يَـشـهَـدِ الـهَـيجـا حَـمَـلْ   لا بـأسَ بـالـمَـوتِ، إذا حـانَ الأجَلْ

فرماه أبو أُسامة الجُشمي بسهم قطع به أكحله،[2] وقال بعد موت سعد:[3]

أَلَستُ الَّذِي أَلـزَمـتُ سَـعـدًا مُرِشَّـةً   لَـهـا، بَـيـنَ أثـنـاءِ الـمَرافِقِ، عـانِدُ؟
قَضَى نَحبَهُ مِـنـهـا سُـعَـيدٌ، فأعْـوَلَـتْ   علَيهِ، مَعَ الشُّمطِ، العَذارَى الـنَّـواهِدُ

وكان سعد رضي الله عنه قال حين أصابه السهم: اللهمّ، إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئًا فأبقِني لها - فإنه لا قومَ أحبُّ إليّ أن أُجاهدهم من قوم آذَوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه - اللهمَّ، وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمتني حتى تُقرّ عيني من بني قُريظة.

ثم جاء نُعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه، وقد أسلم دون علم قومه، وعرض على النبي ﷺ المساعدة فأجابه: «إنما أنتَ فينا رجل واحد. فخذّل

---

(١) السيرة ٢: ١٢٦ وتاريخ الطبري ٢: ٥٧٥ و ٥٧٦. ولبث أي: تريث وانتظر. والهيجا: الهيجاء، أي: الحرب. وحمل: رجل كلبي، وهو صاحب الرجز.

(٢) الأكحل: عرق في باطن الذراع.

(٣) السيرة ٢: ٢٢٧ - ٢٢٨. والمرشة: الرمية أطارت رشاش الدم. والعاند: العِرق إذا انفجر لا ينقطع دمه. وسُعيد: تصغير سعد. والشمط: جمع شمطاء. وهي الشيباء. والنواهد: جمع ناهد. وهي الفتية ظهر ثدياها.

عنّا، إن استطعتَ. فإن الحرب خُدعة». ذهب نُعيم إلى بني قُريظة، وخوّفهم عودةَ قريش وغطفان إلى بلادهم، وترْكَ قريظة وحدها، وحرّضهم على طلب رهائن لمواصلة العهد، ثم لقي قريشًا وبني غطفان، وأسرّ إليهم أن قريظة خانتهم وتعهدت للنبي بأخذ رهائن منهم يضرب أعناقهم، وبحربها معه لاستئصالهم.

فلمّا بلّغت قريش وغطفان في الغد قريظةَ وجوب قتال المسلمين طلبت هذه منهم الرهائن، فكان بين الأحزاب خلاف وشقاق وفراق، ثم أرسل الله عليهم الريح في ليال شاتية، تطرح خيامهم وقدورهم وتخمد النيران، فتضعضعوا ومالت نفوسهم إلى اليأس، والرحيل بلا قتال.

وأرسل النبي ﷺ حُذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه يتحسس ما هم عليه، فعاد بما كان من ذكر أبي سفيان خيانةَ قُريظة، وعزمه على الرحيل، ومتابعة قومه له، ثم انطلق بنو غطفان عن المدينة أيضًا، فانصرف المسلمون عن الخندق ونزعوا عنهم السلاح، وقد استُشهد منهم في هذه الغزاة ٦.

ثم نزل الوحي المشرّف على لسان جبريل[١]: ﴿يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا، اذكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عليكُم... وكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾. وهذا النص القرآني الكريم ذكّرهم بما كانوا عليه من الشِّدة والخطر، عندما أحاطت بهم الأحزاب، وبما كان من المنافقين قولًا وفعلًا وتخذيلًا، وبصبر المؤمنين وثباتهم للجهاد وصدقهم ما عاهدوا، وبإرسال الريح والعون الرباني حتى انصرف المشركون واليهود والنصارى دون معركة.

ثم قام الشعراء يسجلون بعض الوقائع، ويعلقون عليها بما في نفوسهم من المقاصد والأخيلة والعواطف. هذا ضرار بن الخطاب يذكر حصارَ الخندق

(١) الآيات ٩ ـ ٢٥ من سورة الأحزاب والسيرة ٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٩.

والتهديدَ بالحرب والدمار، ورميَ سعد رضي الله عنه بالسهم، وتهيّؤ الأحزاب لحرب قادمة:(1)

فأحجَرناهُمُ، شَهـرًا كَريتًا ... وكُنّا فَوقَهُم، كالقاهِرينا
فلَولا خَندَقٌ، كانُوا لَدَيهِ، ... لَدَمَّرْنا، علَيهِم، أجمَعِينا
فإن نَرحَلْ فإنّا قَد تَرَكْنا، ... لَدَى أبياتِكُم، سَعدًا رَهِينا
وسَوفَ نَزُورُكُم، عَمّا قَرِيبٍ، ... كَما زُرناكُمُ، مُتَوازِرِينا

فيجيبه كعب بن مالك رضي الله عنه بصبر المؤمنين مع التوحيد والتوكل، وجهادهم المعتدين الظالمين، ليحموا عرينهم وينصروا اللهَ والنبيﷺ، ويكونوا مخلصين في الإيمان، ويذكّره بردهم خائبين مع الغيظ والخزي، وما كان من هربهم أمام الرياح، فكيف يكونون إزاء السلاح؟(2)

صَبَرنا، لا نَرَى لِلهِ عَدلًا، ... علَى ما نابَنا، مُتَوَكِّلِينا
نُقاتِلُ مَعشَرًا ظَلَمُوا، وعَقُّوا ... وكانُوا، بالعَداوةِ، مُرصِدِينا
بِبابِ الخَندَقَينِ، كأنَّ أُسدًا ... شَوابِكُهُنَّ يَحمِينَ العَرِينا
لِنَنصُرَ أحمَدًا واللهَ، حَتَّى ... نَكُونَ عِبادَ صِدقٍ، مُخلِصِينا
كَما قَد رَدَّكُم فَلًّا، شَرِيدًا ... بِغَيظِكُمُ، خَزايا، خائبِينا
بِرِيحٍ عاصِفٍ، هَبَّت علَيكُم ... فكُنتُم، تَحتَها، مُتَكَمِّهِينا

واعتذر هبيرة بن أبي وَهْب من فِراره عن عمرِو بنِ ودّ، حين قتله عليّ رضي الله عنه، ورثاه بطلب خلود ذكراه، واستحقاقه للمديح الفائق، وبطولاته في

---

(1) السيرة ٢: ٣٥٤ - ٢٥٥. وأحجر: حصر. والكريت: التام. والرهين: المثبَّت بجراحه.

(2) السيرة ٢: ٢٥٥. والعدل: الشريك والنظير. والمرصد: الذي أعد للأمر عدته. وثنّى بما حوله الخندق للمبالغة. والشوابك: المتشبه بالشيء. والفل: القوم المنهزم. والشريد: الطريد. والمتكمه: من لا يبصر.

اللقاء، وفخره بين الأقران:(١)

لَعَمرِيَ، ما وَلَّيتُ ظَهرِي مُحَمَّدًا وأصحابَهُ جُبنًا، ولا خِيفةَ القَتلِ
ولكِنَّنِي قَلَّبتُ أمرِي، فلَم أجِدْ لِسَيفِي غناءً، إن ضَرَبتُ، ولا نَبلِي
فلا تَبعَدَنْ، يا عَمرُو، حَيًّا وهالِكًا وحُقَّ لِحُسنِ المَدحِ مِثلُكَ،مِن مِثلِي
فمَن لِطِرادِ الخَيلِ، تُقدَعَ بالقَنا، ولِلفَخرِ، يَومًا، عِندَ قَرقَرةِ البُزلِ؟

وقد كان لجرح سعد بن معاذ رضي الله عنه أن انفجر، بعد غزوة بني قُريظة، وسبب له الوفاة شهيدًا، فكانت صرَخات أمه رضي الله عنها، تردِّد ما أصابها من الويل، لفقده وذهاب ما هو عليه من الصرامة والسيادة والفروسية، وإصلاح الأمور بالحكمة والقوة:(٢)

ويلِ امِّ سَعدٍ، سَعدا صَرامةً، وحَدّا
وسُودَدًا، ومَجدا وفارِسًا، مُعَدّا
سُدَّ بِهِ مَسَدّا يَقُدُّ هامًا قَدّا

فقد كانت شهادته من أعظم النكَبات حينذاك، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اهتَزَّ عَرشُ الرَّحمنِ لِمَوتِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ».(٣) وأنشد أحد الأنصار في رثائه معبّرًا عن ذلك:(٤)

---

(١) السيرة ٢: ٢٦٧. والغناء: الفائدة. ولا تبعدن أي: كن حاضرًا في قلوبنا. وحق: وجب. والطراد: المطاردة في الحرب. وتقدع: تكف. والقرقرة: من أصوات الفحول. والبزل: جمع بَزول، الإبل الفتية. استعار ذلك للفتيان المتفاخرين.

(٢) السيرة ٢: ٢٥٢ والبداية والنهاية ٤: ١٣٠. وحذفت همزة «أمّ» للتخفيف، ثم قلبت ضمة اللام قبلها كسرة لمجانسة كسرة الميم.

(٣) الأحاديث: ٣٥٩٢ في البخاري و ٢٤٦٦ في مسلم والمسند ٣: ٢٣٤ و٢٩٦ و ٣١٦.

(٤) السيرة ٢: ٢٥٢ والبداية والنهاية ٤: ١٣٠. ونُسب البيت إلى حسان. انظر ثمار القلوب ص ٦٤.

وما اهتزَّ عَرشُ اللهِ، مِن مَوتِ هالِكٍ سَمِعنا بِهِ، إلّا لِسَعدٍ، أبِي عَمرِو

أما حسان رضي الله عنه فقد بكى بعض الشهداء الذين سقطوا في غزوة الخندق، وصاروا إلى الجنة، بعد أن جاهدوا مع النبي ﷺ تحت السيوف غير مرة، وهم يرجون شفاعته، ثم عزّى نفسه والمسلمين بأنهم يؤمنون أن المُلك يبقى لله وحده، وقضاءه لا مفر منه:(١)

صَبابَـةُ وَجـدٍ، ذَكَّرَتنِـي أحِبّـةً وقَتلَى، مَضَى فِيها طُفَيلٌ ورافِعُ
وسَعدٌ،فأضحَوا في الجِنانِ،وأوحَشَتْ مَنازِلُهُم، فالأرضُ مِنهُـم بَلاقِـعُ
وَفَوا يَومَ بَدرٍ، لِلرَّسُولِ، وفَوقَهُم ظِلالُ المَنايا، والسُّيُوفُ اللَّوامِعُ
لِأنَّهُـمُ يَرجُـونَ، مِنـهُ، شَفاعَـةً إذا لَم يَكُنْ إلّا النَّبِيُّونَ، شافِـعُ
ونَعلَـمُ أنَّ المُلكَ لِلهِ، وَحـدَهُ وأنَّ قَضاءَ اللهِ، لا بُـدَّ، واقِـعُ

وهكذا انتهت مَغزاة الخندق بنزاع الحلفاء وتفرقهم، ورجوعهم إلى ديارهم مع الخسارة والحسرة، وتباعد القبائل واليهود عن قريش. وها أنت ذا ترى أن ما يحيط بالدولة الإسلامية كان قد صار كله حِلفًا عليها، يجتمع يدًا واحدة حول مدينتها، ثم يتفرق، وهو ينتظر الفرصة للمباغتة بالغزو.

فلا غرو أن يطلق النبي ﷺ شعاره العسكري آنذاك في حق القبائل المشركة المجاورة - بلهَ أمرَ يهود. فهو أظهر من أن يشار إليه - وهو قوله المشرَّف في حق الذين تحالفوا على المسلمين في الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».(٢)

---

(١) ديوانه ص ٣٠٩ - ٣١٠ والسيرة ٢: ٢٧٠. والصبابة: رقة الشوق والحنين. والوجد: الحزن. وأوحشت: خلت. والبلاقع: حمع بَلقع. وهي القفر الخالية. والنبيون: فاعل للفعل قبله. وشافع: بدل منه.انظر العيني ٣: ١١٤. وخبر «لا» محذوف. والجملة اعتراضية. وواقع: خبر: أنّ.

(٢) الحديث ٤١١٠ في البخاري وفتح الباري ٧: ٤٠٥.

فقد انتهت المرحلة الأُولى، حيث كان هؤلاء المحاربون يجابهون المسلمين بمعارك يشنها أحد الطرفين، وجاءت مرحلة ثانية تداعت فيها قوى الأعداء، وأصبحوا عاجزين عن الغزو للمسلمين، فآن لهذه الدولة الفتية المحاطة بالخطر من كل صوب أن تستعد لتباغت فلول هؤلاء المتكالبين، دون أن يفكر أحدها في الغزو أو العدوان.

وأنت ترى أن ضمير الغائبين، في القولة الشريفة، مراد به أقوام مخصوصة، هي قريش وأحلافها من قبائل العرب وبني إسرائيل. غير أن أصحاب مذهب السيف قرؤوها بحسب فهمهم للجهاد، فأطلقوا عليها شعار «الهجوم»، وأصبحوا يفسرون الوقائع من خلال ذلك، كما يحلو لهم من دون تبصر أو تدبر، مع أن سياق العبارة في مناسبة قولها واضح الدلالة والبيان.

١٨ - سرية زيد بن حارثة:(١) في جُمادَى الأُولى من العام السادس، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في ١٧٠ من الصحابة رضي الله عنهم، لاعتراض عِير قريش قادمة من الشام، وكان فيها أموال وكمّيّات من الفِضة كثيرة مع أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ، فغنم الأموال والعِير والفضة وأسر أبا العاص ومن معه.

ولما جاء بذلك إلى المدينة استجار العاص بزينب رضي الله عنها وأجارته، ونادت في الناس: إني قد أجرتُ أبا العاص. فقال الرسول ﷺ: «وما علمتُ بشيء من هذا». يعني أنه جرى من دون علمه به. ثم عرض ذلك على أفراد السرية، فرضُوا بالإجارة، فقال: قد أجرنا مَن أجرتِ. فأسلم أبو العاص رضي الله عنه ورُدّ عليه ما أُخذ منه، فانطلق به إلى أصحابه في مكة، وأعلمهم أنه أسلم.

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٦٤١ والكامل ٢: ٢٠٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٧ وزاد المعاد ٣: ٢٨١ - ٢٨٤ والطبقات ٢: ٨٧ وشرح المواهب ٢ ١٦٢ - ١٦٣.

١٩ ـ **غزوة الحُدَيبية:**[(١)] الأشهُر الحُرمُ مقدّسة بين العرب، لا يجوز فيها قتال، وتَقصد فيها القبائل مكة بحماية القدسية، فيلقى الرجل قاتل ذويه دون خصام أو إيذاء. لذلك خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة من العام السادس معتمرًا، وقد استنفر مَن حوله مِن العرب والأعراب، لئلّا تعرض قريش له بحرب أو صدّ عن البيت الحرام، فساق الهدْي ٧٠ بَدَنة أمامه وأحرم، ليُعلِم الناسَ أنه زائر للبيت معظِّم، ومعه ١٤٠٠ من المسلمين رضي الله عنهم.

ولما بلغ عُسفان بين الجَحفة ومكة جاءه الخبر، أن قريشًا قصدته بفرسانها مع الأحابيش، ونزلت بذي طُوَى، معاهدةً الله لا يدخلها النبي عليهم أبدًا، يتقدمها خالد بن الوليد بجيش، وقد صار في قرب عُسفان، فغضب النبي ﷺ لذلك وعجب من تعنت قريش وخروجها على حُرمة البيت والأشهر الحُرم، واستشار الصحابة فيما جدّ من الأمر.

قال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، خرجتَ عامدًا لهذا البيت، ولا تريد قتال أحد ولا حرب أحد. فتوجّه له. فمن صدّنا عنه قاتلناه». ومع هذا فقد توجه النبي ﷺ بالمسلمين في سبيل آخر، يتجنب الجيش القرشي وما يكون منه، لئلّا يكون منه بدء بقتال أو عزم عليه في هذا الشهر الحرام.

صار المسير الجديد في طريق وعر، ولمّا بلغوا مهبِط الحُديبية من أسفل مكة بركَتِ الناقة، فقال الناس: خلأتِ الناقة. أي: حَرَنتْ. فقال النبي ﷺ: ما خلأتْ، وما هو لها بخُلق، ولكن حبسَها حابس الفيل عن مكة. لا تدْعوني قريش اليوم إلى خُطّة، يسألونني فيها صلة الرَّحِم، إلّا أعطيتهم إيّاها.

---

(١) السيرة ٢: ٣٠٨ ـ ٣٢٢ وتاريخ الطبري ٢: ٦٢٠ ـ ٦٤٠ وزاد المعاد ٣: ٢٨٦ ـ ٣٠٠ وعيون الأثر ٢: ١١٣ والكامل ٢: ٢٠٠ ـ ٢٠٦ والطبقات ٢: ٩٥ ـ ١٠٥ والبداية والنهاية ٣: ٣١٢ ـ ٣٣٧ وشرح المواهب ٢: ١٧٩ ـ ٢١٧.

ثم أمر الناس بالنزول، فنزلوا وفجّروا قَلِيبًا بسهم الرسول، وصار ناجية ابن جُندب ﵁ يميح الماء للرجال والجواري، وهو يرتجز:[1]

قَــد عَلِــمَت جارِيــةٌ يَمــانِيَــهْ أنّي أنا المــائِحُ، واسمِي نــاجِيَهْ
وطَعنــةٍ، ذاتِ رَشــاشٍ، واهِيَــهْ طَعَنتُهــا، عِنــدَ صُدُورِ العــادِيَهْ

ثم قدِم بعض خُزاعة إلى النبي ﷺ - وهم معاهدون له من قبل - يسألونه عن قصده، فأعلمهم أنه جاء معتمرًا. ولما نقل هؤلاء الخبر إلى قريش اتهمتهم وخاطبتهم بما يكرهون، وأقسمت ألّا يدخل المسلمون مكة عَنوة، ولا تتحدث العرب بذلك، ثم أرسلت من أخبرها بصحة الأمر، ولم تقبل منه أيضًا، وأرسلت سيد الأحابيش، فلما رأى الهدْيَ رجع بمثل ما كان قبلُ، وأنكرت عليه أيضًا قوله، فهدّدها بالعودة عنها مع جميع الأحابيش.

بعثت قريش عُروة بن مسعود الثقفي سفيرًا لتبليغ عزمها، فأغلظ القول والتصرف، والنبي ﷺ يحتمل ذلك والمسلمون يتحرقون من الغيظ، حتى أبلغه ما يريد. فرجع إلى قومه وخاطبهم بقوله: يا معشر قريش، إني قد جئتُ كِسرى في مُلكه، وقيصرَ في ملكه، والنجاشيْ في مُلكه، وإني - واللهِ - ما رأيت مَلِكًا في قوم قطّ مثل محمد وأصحابه. ولقد رأيت قومًا لايُسلمونه لشيء أبدًا. فرَوا رأيَكم.

ثم أرسل النبي ﷺ خِراش بن أُمية الخُزاعي ﵁ إلى قريش أيضًا، ليبلغهم ما جاء له - وهو العزم على العُمرة - فأنكروا أن يكون ذلك، وعقروا جمله وكادوا يقتلونه، لولا حماية الأحابيش له، فعاد بخبر ما لقي.

وخلال هذه المراسلات بعث جيش قريش عشرات الرجال يُطيفون

---

(١) السيرة ٢: ٣١١ وتاريخ الطبري ٢: ٦٢٥. والرشاش: ما يتدفق من الدماء. والواهية: المسترخية اللحم الواسعة الشدق. والصدور: القدوم إلى القتال. والعادية: الكتيبة تعدو للقاء.

بمعسكر المسلمين، ليصيبوا منه ما يتيسر، فرمَوا فيه بالحجارة والنبل، ثم أحاط بهم الصحابة وقدّموهم إلى النبي ﷺ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، وقد منّ الله على المسلمين بما كان من المسالمة والظفر بهؤلاء.(١) ثم كان بين الطرفين رهائن مأسورة، وأرسل النبي عثمانَ بن عفان ﷺ إلى مكة، فلقيه أبان ابن سعيد بن العاص وأجاره، فبلّغ رسالته وأراد أن ينصرف، وسمحوا له بالطواف فأبي حتى يطوف النبي ﷺ، فاحتبسته قريش.

ولمّا تأخرت عودته بلغَ النبيَّ ﷺ أنه قُتل، فقال لأصحابه ﷺ: «لانبرح حتى نناجز القوم». ودعاهم إلى بَيعة الرِّضوان، فكانت تحت الشجرة بيعةٌ على الموت وعدم الفرار، دخل فيها جميع من كان إلّا المنافقَ الجُدَّ بن قيس، فقد اختبأ بإبط ناقته. وبايع النبيُّ عن عثمانَ ﷺ أيضًا، بعد أن جاءه تكذيب خبر مقتله. ونزل الوحي العظيم يوثق ذلك بعهد من الله(٢): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ، يَدُ اللهِ فَوقَ أيدِيهِم﴾.

ثم أرسلتْ قريش سُهيلَ بن عمروٍ، للصلح على أن يرجع المسلمون عامهم هذا عن العُمرة، فكانت محادثة ومراجعات، وقد وردَ في الشروط أن سهيلًا قال: على ألّا يأتيَك منّا رجل، وإن كان على دينك، إلّا رددتَه إلينا.(٣) وقد انتهت تلك الجلسة إلى الاتفاق على ذلك،(٤) مع هُدنة ١٠ سنوات، ومن أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يَردّوه عليه، ومن أحب الدخول في عهد أحد الجانبين كان له ذلك.

وبينما كان يَكتب عليٌّ ﷺ العهد، إذ جاء أبو جندلِ بنُ سُهيل هذا،

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الفتح.

(٢) الآية ١٠ من سورة الفتح.

(٣) زاد المعاد ٣: ٢٩٤.

(٤) انظر الوثائق السياسية ص ٥٨ ومكاتيب الرسول ص ٢٧٥ - ٢٨٧.

منفلتًا من احتباس أبيه له بمكة وهو يرسف بالحديد، فقام إليه أبوه يضربه ويشده مطالبًا بعودته، فأمر النبي أبا جندل بالصبر والاحتساب التزامًا بالعهد، ومُهِرَ الكتاب بالعزم والتوثيق والشهادات على ذلك.

وقد أغضب بعضَ الصحابة ما كان من النبي ﷺ، لِما رأوا فيه من الإجحاف الظاهر، فبلّغهم ما رأى في المنام، أنهم سيدخلون مكة محلّقين رؤوسَهم ومقصّرين لا يخافون. ثم قام يتحلل من العُمرة، فنحر هدْيه وحلق، فتابعه المسلمون بما فعل، ليرجعوا إلى الديار دون اعتمار، على أن يعتمروا في العام القابل ثلاثة أيام، بسلاح الراكب فقط.

ودخل بنو خُزاعة في عهد النبي ﷺ، وبنو بكر بن عبد مناة في عهد قريش. فنزلت الآيات المباركة على لسان جبريل، تمتدح[1] ذلك العهد وتجعله فتحًا مبينًا وإتمامًا للنعمة، وتطمئن المسلمين بعون الله لهم ورضاه عن مبايعتهم، وبالوعد إيّاهم نصرًا ومغانمَ كثيرة ودخولَ المسجد الحرام بالعُمرة والفتح، وبامتداح ما هم عليه من الإيمان والعزيمة والصلاح، وبغضب الله على المنافقين والكافرين.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة جاءهم أبو بَصير عتبةُ بن أسيد رضي الله عنه، هاربًا من مكة أيضًا، فقدِم رجل من بني عامر مع مولًى لهم بكتاب من قريش لطلب ردّه، فقال النبي ﷺ: يا أبا بصير، إنّا قد أعطينا القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرَجًا ومخرجًا. فانطلق إلى قومك. قال: يا رسول الله، أتردّني إلى المشركين، يَفتِنوني في ديني؟ قال: يا أبا بصير، انطلق. فإن الله - تعالى - سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا.

---

(١) الآيات ١ - ٢٩ من سورة الفتح والسيرة ٢: ٣٢٠ - ٣٢٢.

هنالك رجع الرجلان بأبي بصير رضي الله عنه، واستطاع في الطريق أن يقتل العامريَّ، وينجو بسيفه، فجاء المولى يبلّغ مقتل صاحبه، ويطالب بتسليمه أبا بصير. ثم قدم هذا متوشحًا بالسيف قائلًا: «يا رسول الله، وفَت ذِمّتُك، وأدّى الله عنك. أسلمتَني بيد القوم، وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن فيه أو يُعبَث بي». ثم ذهب إلى ساحل البحر يعترض طريق قريش إلى الشام، فانضم إليه قُرابة ٧٠ مستضعفًا هاربين من احتباس قريش لهم، وصاروا كلما ظفروا بقرشي قتلوه، وكلما مرت بهم تجارتها اقتطعوها، فضاقت قريش بهم، وكتبت إلى النبي ﷺ ترجوه إيواءهم وإنقاذها منهم.

ولما بلغ سهيلًا مقتلُ العامريّ أقسم أن يُودَى، فقال أبو سفيان بن حرب: «والله، إن هذا لهو السَّفه، والله لا يُودَى» ثلاثًا. وراح مَوهب بن رَباح يسخر من سهيل، ويحمل كلام سهيل على العتاب، وإلّا فهو يعاند من لا يطيق عنادَه:[1]

أتانِي، عَن سُهَيلٍ، ذَرءُ قَولٍ فأيقَظَنِي، وما بِي مِن رُقادِ
فإن تَكُنِ العِتابَ تُرِيدُ مِنّي فعاتِبنِي، فما بِكَ مِن بِعادِ
أتُوعِدُنِي، وعَبدُ مَنافَ حَولِي بِمَخزومٍ؟ ألَهفَى، مَن تُعادي؟

فأجابه عبد الله بن الزِّبعرَى، يعيّره بأنه من المَوالي. فهو كالعبد ليس له أن يتطاول إلى الأسياد:[2]

وأمسَى مَوهَبٌ كَحِمارِ سَوءٍ أجازَ بِبَلدةٍ، فِيها يُنادِي

(١) السيرة ٢: ٣٢٤ - ٣٢٥. وموهب شاعر من الأشعريين مولى لبني زُهرة، كان بينه وبين حسان مهاجاة. الإصابة ٦: ٢٣٦ - ٢٣٧ ومعجم الشعراء ص ٤٣٥. والذرء: الساقط. وتوعد: تهدد. وألهفَى أي: يا لَهفي. قلبت الياء ألفًا والكسرة فتحة للتخفيف. يسخر منه.

(٢) السيرة ٢: ٣٢٥. وأجاز: مرّ وعبر. ويناوي: يناوئُ أي: يعادي ويخاصم، أبدل الهمزة ياء للتخفيف. وأبو يزيد هو سهيل بن عمرو. وهيهات أي: بعُد جدًّا.

فإنَّ العَبدَ، مِثلَكَ، لا يُنــاوِي سُهَيلًا، ضَلَّ سَعيُكَ، مَن تُعادِي؟
ولا تَذكُـرْ عِتــابَ أبِـي يَزيــدٍ فَهَيهــاتَ البُحُـورُ مِنَ الثِّمــادِ!

ثم نجت أُمّ كُلثوم بنت عُتبة رضي الله عنها مهاجرة من مكة، فجاء أخواها يطلبان ردَّها بما في عهد الحُديبية، وكذلك صار شأن بضع نسوة من قريش، فنزل قول الله بأن النساء المهاجرات لا تحلّ للمشركين، إذ ما في العهد خاص بالرجال، أي: بضمير المذكر كما ترى في: «أتى، وليّه، ردّوه، جاء، لم يردوه». وهن لا ذِكر لهن في عبارات العهد، ثم إن المهاجرات عن الأزواج المشركين أصبحن مطلقاتٍ منهم، فلا ولاية لهم عليهنّ. وقد رأينا من قبلُ ما جاء من شرط في قول سُهيل، فلا حاجة للاحتجاج بعدُ بغيره.(١)

وعلى هذا فقد جاء الوحي الكريم، يؤكد تقييد النص نفسه ويخصص مضمونه بخروج النساء منه: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا جاءكُمُ المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ فامتَحِنُوهُنَّ - اللهُ أعلَمُ بإيمانِهِنَّ - فإن عَلِمتُمُوهُنَّ مُؤمِناتٍ فلا تَرجِعُوهُنَّ إلَى الكُفّارِ. لا هُنَّ حِلٌّ لَهُم، ولا هُم يَحِلُّون لَهُنَّ﴾.(٢) وهكذا رجع المشركون بالخَيبة، وكان للنساء المؤمنات حق الهجرة للنجاة من المِحن في مكة.

وفي ذي القعدة من العام السابع، خرج رسول الله ﷺ بمن مُنع العُمرةَ في الحُدَيبية، ودخل مكة مُحرِمًا، وعبد الله بن رَواحة رضي الله عنه آخذ بخطام ناقته ويردد:(٣)

خلُّوا، بَنِي الكُـفّارِ، عَن سَبِيـلِهِ خلُّوا، فكُلُّ الخَيـرِ فـي رَسُولِـهِ

---

(١) انظر زاد المعاد ٣: ٢٩٤.

(٢) الآية ١٠ من سورة الممتحَنة. وانظر زاد المعاد ٣: ١٤١ - ١٤٢ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٩٤٦.

(٣) السيرة ٢: ٣٧١ والكامل ٢: ٢٢٧ وزاد المعاد ٣: ٣٧١ والإصابة ٤: ٨٦. وسبيله أي: سبيل الله في الدعوة. والقيل: القول.

يـــا رَبِّ، إنّـي مُؤمِـنٌ بـقِيلِــهِ أعــرِفُ حَــقَّ اللهِ، فــي قَبُـولِــهِ

واستلم القائد العظيم الركنَ اليمانيَ من الكعبة، ثم طاف بها مُهرولًا، يشجّع الصحابة رضي الله عنهم على ذلك، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعًا، ونحر الهدْي عند المَروة وحلق رأسه وأتم الفرائض. وفي اليوم الثاني بقي في الكعبة حتى كان وقتُ الظهر، فأذّن بلال رضي الله عنه لذلك، وصلى أكثر من ١٠٠٠ مسلم بخشوع واطمئنان، والمشركون يراقبونهم من المنازل.

وبعد ثلاثة أيام خرج المسلمون رضي الله عنهم من مكة، وأنزل الله تصديق ما كان من رؤيا النبي ﷺ في الحُديبية: ﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بالحَقِّ: لَتَدخُلُنَّ الـمَسجِدَ الحَرامَ، إن شاءَ اللهُ، آمِنِيـنَ مُحَلِّقِيـنَ رُؤُوسَكُم ومُقَصِّرِينَ، لا تَخافُونَ﴾.[1]

٢٠ ـ سرية الكَدِيد:[2] بعثها النبي ﷺ بقيادة غالب بن عبد الله رضي الله عنه ـ وهو من بني عوف بن ليث ـ في شهر صفر من السنة الثامنة إلى الكَدِيد، لقتال مَن تجمّع من بني الملوّح الكِنانيِّين. وفي طريقها إلى الأعداء صادف المجاهدون رضي الله عنهم ابنَ البرصاء الليثيَّ الحارثَ بن مالك، وأعلمهم أنه ذاهب إلى المدينة ليعلن إسلامه، فجعلوا عليه حارسًا، وانطلقوا لشأنهم فكانوا في الكَديد مع الغروب.

بعثوا جُندب بن مَكيث الجهنيَّ رضي الله عنه ربيئة لهم، أي: فدائيًّا مستشهِدًا يطلب الشهادة في سبيل الله، ويكشف أمر الأعداء. ولما صار على تلّ أحس به رجل منهم، فخرج من خبائه وقال لامرأته: إني لأرى على التل سوادًا ما رأيته في

(١) الآية ٢٧ من سورة الفتح.

(٢) السيرة ٢: ٦٠٩ ـ ٦١١ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٩ والطبقات ٢: ١٢٤ ـ ١٢٥ والإصابة ٥: ٣١٦ والاستيعاب ص ١٢٥٢.

يومي. فانظري إلى أوعِيتكِ: هل تفقدين شيئًا منها؟ لا تكون الكلاب جرّت بعضها. فنظرتْ فقالت: لا ـ والله ـ ما أفقِدُ شيئًا. فقال: ناوليني قوسي وسهمين.

رمى السهمين: أحدَهما في جنب ابن مَكيث والآخَرَ في منكبه، فنزعهما هذا من جسده ثابتًا في مكانه دون حَراك. قال الرجل لزوجته: لو كان ربيئة لقوم لتحرّك، لقد خالطَه سهماي، لا أبا لكِ. فإذا أصبحتِ فابتغيهما فخذيهما، لا يمضغُهما عليّ الكلاب. ثم دخل خباءه آمنًا.

عاد ابن مَكيث إلى المجاهدين رضي الله عنهم، وأبلغهم ما رأى من غفلة القوم، فأمهلوهم حتى اطمأنوا وناموا، ثم شنوا عليهم الغارة في السَّحر، وقتلوا فيهم وسبَوا منهم وأصابوا نَعمًا، وعادوا غانمين وحاملين معهم أيضًا الحارث بن مالك. ولما تبعهم الأعداء وصاروا قريبين منهم، وبين الفريقين وادي قُديد، أرسل الله الواديَ بسيل من دون سحابة تُرى أو مطر، فوقف الأعداء بعيدًا ينظرون نَعمهم ونساءهم تساق، حتى وصلت إلى المدينة المنورة، والراجز يحدوها بقوله:[1]

أَبَـى أَبُــو القـاسِــمِ أن تَعَـزَّبِــي ... فــي خَـضِلٍ نَبـاتُــهُ، مُغْــلَوْلِبِ
صُفْــرٍ أعـالِـيهِ، كَلَــونِ المُــذهَبِ ... وذاكَ قَولُ صـادِقٍ، لَـم يَكْــذِبِ

٢١ ـ **فتح مكّة:**[2] كان في الجاهلية لبني بكر بن عبد مناة ـ وهم حلفاء قريش ـ ثأر عند خُزاعة ـ وهي حليفة للمؤمنين وفيها بعض المسلمين أيضًا ـ فاعتدَوا عليها وقاتلوها، وأعان القرشيون في ذلك بني بكر بالسلاح والرجال

---

(١) السيرة ٢: ٦١١. وتعزبي: تتعزبي، أي: تبعدي في المرعى. والخضل: النبات الأخضر. والمغلولب: الكثير يغلب الماشية حين ترعاه.

(٢) الأحاديث: ٢٨٤٥ و٣٧٦٢ و ٤٠٢٥ ـ ٤٠٥٩ في البخاري والسيرة ٢: ٣٩٨ ـ ٤٣٦ وأنساب الأشراف ١: ٣٥٣ ـ ٣٦٤ وتاريخ الطبري ٣: ٤٢ ـ ٦٩ وزاد المعاد ٣: ٣٩٤ ـ ٤١٣ والكامل ٢: ٢٣٩ ـ ٢٦٠ والطبقات ٢: ١٣٤ ـ ١٤٥ وأسد الغابة ٦: ١١٥.

والقتال متنكّرين متنقّبين، وفيهم سادة قريش، فقتلوا منها ٢٠ رجلًا، حتى صارت في الحرم المكي.

قال بنو بكر لسيّدهم نوفل بن معاوية: إنا قد دخلنا الحرم. إلـهَكَ إلـهَك. فقال: لا إلهَ اليومَ. يا بني بكر، أصيبوا ثأركم. إنكم لتسرقون في الحرم. أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ ولما حوصرت خُزاعة في الحرم لجأت إلى واد فيه دُور بعض القوم، واحتمت بها للنجاة من المعتدين.

وفي ذلك القتال نقضُ قريش وحلفائها، للعهد الموثّق في الحُديبية ولحُرمة البيت. وقد سجل الأخزر البكري هذا العدوان، يفتخر أن هَزَم قومُه بني خُزاعة، وحبسوهم مع هجمات الفرسان بالذبح والتقتيل:(١)

ألا هَل أَتـى قُصوَى الأحـابِيشِ أَنَّـا ... رَدَدنـا بَنِي كَعـبٍ، بـأفـوَقَ نـاصِلِ؟
حَبَسناهُمُ، حَتَّـى إذا طـالَ يَـومُهُم ... نَفَحنـا لَهُم، مِن كُلِّ شِعبٍ، بِـوابِلِ
نُـذَبِّحُـهُم ذَبـحَ التُّيُـوسِ، كـأَنَّـنـا ... أُسُودٌ، تَبـارَى فِيـهِمُ، بـالـقَواصِلِ

فسار عمرُو بنُ سالم الخُزاعي، من بني كعب، إلى المدينة المنورة حتى لقي النبي ﷺ في المسجد بين الناس، وأنشده أُرجوزة جاء فيها مطالبة بالعون على قريش، لأنها نقضت العهد وقتّلت المسلمين في الليل راكعين ساجدين:(٢)

---

(١) السيرة ٢: ٣٩٢. وبنوكعب: من خُزاعة. والأفوق: السهم انكسر طرفه الذي يكون في الوتر. والناصل: الذي زال نصله. استعار ذلك لوصف حال بني كعب. وهي الخيبة والانكسار. ونفحنا: أرسلنا ودفعنا. والشعب: ما اطمأن من الأرض. والوابل: المطر الشديد. استعاره للخيل بفرسانها. والقواصل: الأنياب القواطع، جمع قاصلة.

(٢) السيرة ٢: ٣٩٤ ـ ٣٩٥ وأنساب الأشراف ١: ٣٥٣ وتاريخ الطبري ٣: ٤٥ والكامل ٢: ٢٤٠ وزاد المعاد ٣: ٣٩٦. والناشد: المطالب يذكّر بالشيء. والأتلد: القديم. وبيّتونا أي: أغاروا علينا ليلًا. والوتير: اسم ماء لخزاعة في جنوبي مكة. والهجد: جمع هاجد. وهو النائم.

يَـــا رَبِّ، إنِّـي نـاشِـدٌ مُـحَـمَّـدا حِـلـفَ أبِـيـنـا، وأبِـيـهِ الأتـلَـدا
إنَّ قُـرَيـشًـا أخـلَـفُـوكَ الـمَـوعِـدا ونَـقَـضُـوا مِيثـاقَـكَ الـمُـؤَكَّـدا
هُـم بَـيَّـتُـونا، بـالـوَتِـيـرِ، هُـجَّـدا وقَـتَّـلُـونـا، رُكَّـعًـا وسُـجَّـدا

فقال له النبي ﷺ: «نُصِرتَ، يا عَمرَو بنَ سالم. لا نَصرَني اللهُ، إن لم أنصر بني كعب مما أنصرُ منه نفسي». ثم عَرضتْ سحابة، فقال: إن هذه السحابة لَتستهلّ بنصر بني كعب.

وجاء وفد من بني كعب إلى المدينة المنورة بقيادة بُديل بن ورقاء، وأخبروا الرسول ﷺ بما كان من مظاهرة قريش لبني بكر عليهم. أما أبو سفيان بن حرب فقد كان غائبًا عن مكة حين حصل النقض للعهد، ولمّا علم بذلك غضب جدًّا وقال: إنه لشر، والله. ثم قصد المدينة، ليجدد العهد ويزيد في مُدته، بعد أن رهِبت قريش ما صنعت.

ونزل عند ابنته أُمّ حبيب رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ ولم تكرمه، فذهب إليه يخاطبه فيما جاء من أجله فلم يردّ عليه بشيء، ثم كلّم أبا بكر وعمرَ وعليًّا وفاطمة رضي الله عنهم في ذلك، فأنكروا الوساطة في أمر عزم عليه النبي الكريم، ونصحه عليّ أن يجير بين الناس، أي: يجعل الطرفين في جواره، ويرحل.

ذهب أبو سفيان إلى المسجد النبوي، وقال: «إني أجرت بين الناس». ثم رحل إلى مكة، وبلّغ قريشًا بما كان، قائلًا: فوالله، ما أدري: هل ينفع ذلك شيئًا أم لا؟ أما رسول الله ﷺ فقد أمر الصحابة بالتجهّز للسير إلى مكة، وصار يدعو: اللّهمّ، خُذِ العُيون والأخبار عن قريش، حتى نَبغَتها في بلادها.

قال حسان رضي الله عنه يذكر ما حصل لبني كعب، من تقتيل بالظلم والعدوان، وما ستناله قريش جزاء ذلك الغدر، ويأسف أن المسلمين لم يحضروا يوم

الغدر:[1]

عَنانِي، ولَم أشهَدْ، بِبَطحاءِ مَكّةٍ ... رِجالُ بَنِي كَعبٍ، تُحَزُّ رِقابُها
بأيدِي رِجالٍ، لَم يَسُلُّوا سُيُوفَهُم ... بحَقٍّ، وقَتلَى، لَم تُجَنَّ ثِيابُها
فلا تأمَنَنّا، يا بنَ أُمِّ مُجالِدٍ، ... إذا احتُلِبَت صِرفًا، وأعصَلَ نابُها
ولَو شَهِدَ البَطحاءَ، مِنّا، عِصابةٌ ... لَهانَ علَينا، يَومَ ذاكَ، ضِرابُها

وأجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، وشرع يستعد ويهيىء ما يلزم للجهاد، ولكنه أظهر للناس أنه يريد غزو المشركين في حُنين،[2] ليباغت قريشًا قبل استعدادها للحرب. وعلم حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حقيقة الأمر، فبعث رسالة مع امرأة إلى قريش، يبلّغها ما يجري، وأعلم اللهُ بالوحي رسوله ما كان من حاطب.

ولما اكتُشفَتِ الرسالة اعتذر حاطب بأنه يصانع قريشًا ليأمن على أهله عندها، واراد عُمر رضي الله عنه أن يضرب عنقه، فقال الرسول العظيم: «إنه قد شهد بدرًا. وما يدريك - ياعُمر - لعل الله اطّلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم. فقد غفرتُ لكم». فذرفتْ عينا عُمر، وقال: الله ورسوله أعلم. ثم نزل الوحي الكريم بالنهي عن مصانعة العدو، لأنها خيانة للأُمّة[3]: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولِياءَ، تُلقُونَ إلَيهِم بالمَوَدَّةِ... هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فهؤلاء الأعداء حاربوا الدعوة وشردوا المؤمنين من الديار، وما يزالون

---

(١) ديوانه ص ٩٧ - ١٠٠ والسيرة ٢: ٣٩٨ وتاريخ الطبري ٣: ٤٨. وعناني: أهمّني. ولم تُجنّ ثيابها أي: قتلوا ولم يدفنوا. وأم مجالد كنية أم عِكرمة. والصرف: اللبن الخالص. وأعصل: اعوجّ. استعار ما للناقة للحرب الشديدة.

(٢) انظر تفسير الجلالين الميسر ص ٥٤٩.

(٣) الآيات ١ - ٩ من سورة الممتحنة.

يشنون الحروب على المسلمين وحلفائهم في مكة، ولن يكون للصبر نفع معهم ولا في انتظار حساب الآخرة. فلا بد من مصارحة بالمقاطعة والعداوة، كما فعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأصحابه، إذ أعلنوا لقومهم البغضاء، وتوجّهوا إلى الله متوكّلين عليه، يطلبون العون والمغفرة. ثم يجب أن يقابَل المحارِبون للمسلمين بمثل ذلك، حتى يعودوا إلى الحق. أما الموادعون فلا بأس في برّهم والعدل في معاملتهم.

خرج النبي ﷺ في العاشر من رمضانِ العامِ الثامن، ومعه ١٠٠٠٠ من المسلمين ﷺ، متوجهًا إلى مكة وهم صائمون. ولما أجهدهم الصيام وتحرّجوا من الفِطر دعا النبيُّ ﷺ بماء وشربه أمامهم، ويسّر لهم الفِطر للتقوّي على السفر والجهاد. ثم التحق بهم في الظَّهران بعض الأعراب من غِفار وأسلم ومُزينة وجُهينة وأشجع وسُليم، فصار الجيش ١٢٠٠٠ مقاتل.

وفي طريقه إلى مكة لقيه العباس ﷺ مهاجرًا يعلن إسلامه، ثم أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ﷺ كذلك، فقال لهما: ﴿لا تَثرِيبَ علَيكُمُ اليَومَ. يَغفِرُ اللهُ لَكُم، وهُوَ أرحَمُ الرّاحِمِينَ﴾،[1] واعتذر أبو سفيان بأبيات من الشعر،[2] وعاد هو والعباس إلى مكة يدعوان الناس إلى طلب الأمان بتعهد النبي ﷺ: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن رُويحة فهو آمن، ومن دخل تحت لواء أبي رُويحة فهو آمن». ثم أمر النبي ﷺ أصحابه ألّا يقاتلوا إلّا من قاتلهم.

استجابت قريش لدعوة العباس وأبي سفيان هذا، إلّا عِكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عَمرٍو مع آخَرين. فقد استعدوا للحرب واللقاء في الخَندمة، وكان بين هؤلاء رجل اسمه حِماس بن قيس يهيئ سلاحه، ويَعِد زوجته أن يجعل

---

(١) الآية ٩٢ من سورة يوسف.

(٢) زاد المعاد ٣: ٤٠٠.

لها خدمًا من المسلمين، وهو يتغنى بأنه سيلقاهم دون تقصير أو اعتلال:(١)

إن يُقبِلُوا اليَومَ فما لِي عِلَّهْ هذا سِلاحٌ كامِلٌ، وألَّهْ
وذُو غِرارَينِ، سَرِيعُ السَّلَّهْ

كان النبي ﷺ قد جعل جيشه أربع فئات، لتدخل كل فئة مكة من جهة، تحسُّبًا من المباغتة وغدر بعض المشركين. ولمّا دخلت فئة المسلمين بقيادة خالد رضي الله عنه اصطدم بها المشركون، وعليهم عِكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمية وسُهيل بن عمرٍو، فكان الجلاد بين الجمعين. قال النبي ﷺ: ألم أنهَ عن القتال؟ قيل: يارسول الله، إن خالدًا قُوتِل فقاتل. قال: قضاء الله خير.

وكان في كتيبة خالد حُبيش الكعبي وكُرز بن جابر رضي الله عنهما، شذا عن طريقه وسلكا طريقًا آخَر، فقُتل حبيش وبقي كرز وحده، وحبيش بين رجليه يدافع عنه حتى قُتل أيضًا وهو يرتجز قائلًا:(٢)

قَد عَلِمَت صَفراءُ، مِن بَنِي فِهرِ نَقِيّةُ الوَجهِ، نَقِيّةُ الصَّدرِ
لأضرِبَنَّ اليَومَ، عَن أبِي صَخرِ

وبهذا قُتل بعض المشركين، وهرب القادة الثلاثة. وكذلك فعل حِماس حتى دخل بيته، وطلب من زوجته أن تغلق عليه الباب. قالت له: أين ما كنتَ تقول؟ فأنشدها رجزًا يذكر فيه أنها لو كانت في المعركة، ورأت هزيمة زعماء قريش، لما كان لها كلمة واحدة:(٣)

---

(١) السيرة ٢: ٤٠٧ ـ ٤٠٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٥٦ وتاريخ الطبري ٣: ٥٧ ـ ٥٨ والكامل ٢: ٢٤٧ وزاد المعاد ٣: ٤٠٥. والألة: حربة لها سنان طويل. وذو الغرارين: السيف له حدّان.

(٢) الاستيعاب ص ١٣١٠ ـ ١٣١١ والإصابة ٥: ٥٨٢. وأبو صخر كنية حبيش.

(٣) الخندمة: جبل في مكة. وحذف همزة «أبو» للتخفيف. وأبو يزيد كنية سهيل بن عمرو خطيب قريش. والموتمة: المراة عندها أيتام. والمُسلمة: جماعة المسلمين، اسم جمع واحده مُسلم. والنهيت والهمهمة: صوت في الصدر.

إنَّكِ لَو شَهِدتِ يَومَ الخَندَمَهْ   إذ فَرَّ صَفوانُ، وفَرَّ عِكرِمَهْ
وابُو يَزِيدَ قائمٌ، كالمُوتَمَهْ   واستَقبَلَتنا، با لسُّيُوفِ، المُسلِمَهْ
لَهُم نَهِيتٌ، خَلفَنا، وهَمهَمَهْ   لَم تَنطِقِي، في اللَّومِ، أدنَى كَلِمَهْ

ثم أرسلت قريش بعض أوباشها لقتال المسلمين، فأمر النبي ﷺ الأنصار أن يحصدوهم جميعًا، ويوافوه في الصَّفا، فكان ما أمر به، وبذلك استسلمت بقايا قريش للموادعة. وعندما أشرف النبي الكريم على مكة وقف على راحلته، وطأطأ رأسه تواضعًا وشكرًا لله.

وبعد أن اطمأن الناس بالأمان، طاف الرسول ﷺ بالكعبة وحولها الأصنام، فكان يطعنها بعود في يده ليرميها على وجوهها، وهو يقول: ﴿جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ. إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقًا﴾.(١) ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدَعْ في بيته صنمًا إلّا كسره. ثم قام على باب الكعبة، وخطب منددًا بنخوة الجاهلية وأباطيلها، وقال: يامعشر قريش، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا. أخٌ كريم وابنُ أخ كريم.

قال: «مَثلي ومَثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تَثرِيبَ علَيكُمُ اليَومَ. يَغفِرُ اللهُ لَكُم، وهُوَ أرحَمُ الرّاحِمِينَ﴾.(٢) اذهبوا. فأنتمُ الطُّلقاء. اليومُ يومُ برّ ووفاء». وهكذا كان الفتح تحقيقًا، لِما نزل من الوحي العظيم مبشّرًا به بعد الحُديبية، وصار أهل مكة فيئًا للمسلمين، فأعتقهم النبي الكريم ﷺ وأسلموا بعضهم طائعين وبعض كارهين.

ولكنّ رسول الله قد استثنى من الأمان بضعة مجرمين أمثال: عبد الله بن سعد العامري كان قد ارتدّ بعد إسلامه، وعبد الله بن خَطَل كان قتل أحد

---

(١) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٩٢ من سورة يوسف.

المسلمين وارتدّ، وله جاريتان تغنّيان بهجاء النبي ﷺ والمسلمين في مكة، والحُوَيرث بن نُقَيذ كان قد أكثرَ الإيذاء في مكة، ومِقيس بن حُبابة كان قتل أنصاريًّا وارتدّ هاربًا إلى مكة، وعِكرمة بن أبي جهل، وسارةَ مولاةِ بعض بني عبد المطلب كانت تكثر الإيذاء أيضًا، فنجا بعض هؤلاء بالإسلام بعد الإجارة والعفو، أو بعد الهرب والاختفاء، وقُتل الباقون.

وقد أجارت أُم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها حَمَوين لها، فقال النبي ﷺ: قد أجرنا من أجرتِ، يا أُمَّ هانئ. واستأمن النبيَّ لعِكرمة زوجتُه أُمُّ حكيم بعد فراره، فأمّنه ولحقت به في اليمن، وعاد معها إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه.

ومن الناجين بالإسلام عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، كان كاتبًا للوحي في المدينة المنورة، يغيّر بعض الكلمات فيما يكتب من الآيات، ثم زعم أنه يقول مثل ما يقول محمد، ويأتي بمثل ما يأتي به، وهرب إلى مكة مرتدًّا، فأمر النبي ﷺ بقتله. وعندما فُتحت مكة استجار بأخيه من الرضاعة عثمانَ بنِ عفان فأجاره، وغيّبه حتى اطمأن الناس.

ثم جاء به يبلّغ النبيَّ ﷺ ما كان من إجارته إياه، فصمت النبي العظيم طويلًا، ثم قال: نعم. ولما انصرف عثمان بأخيه عبد الله قال النبي الكريم لأصحابه: «أما كان فيكم من يقوم إلى هذا الكلب، قبل أن أُؤَمّنه، فيقتله؟ لقد صمتُّ ليقوم أحدكم فيضربَ عنقه». فقال أحدهم: لو أومأتَ إلينا قتلناه. قال: «الإيماء خيانة. ليس لنبي أن يومئ». يعني أن الإيماء، في مجلس الائتمان بكلام يقال، لا يجوز صدوره عن نبي، لأنه يكون خيانة لما يجري من الكلام، ولا سيما أن الأمر في قتل للنفس.

وعندما دخل الرسول ﷺ البيت الحرام، استلم الحجر وطاف راكبًا راحلته، وأمر بلالًا أن يؤذن فوق ظهر الكعبة للصلاة. ولمّا رأى في داخلها صور الملائكة وإبراهيم وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ أمر بطمسها أيضًا، ولم

يدخلها حتى مُحيت كل صورة فيها، ثم ردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهو يقول: «اليومُ يومُ برّ ووفاء»، وأخذ البيعة على الإيمان والطاعة والصلاح من أهل مكة، الرجال فالنساء.

وذكر تميم بن أسد ﷺ أن ما جرى على الأصنام فيه عِبرة لأصحابها، إذ لم يكن منها ما زعم عابدوها من القدسية والتسلط والجبروت:(١)

وفـي الأصنـامِ مُعتَبَـرٌ، وعِلـمٌ ... لِمَن يَرجُو الثَّوابَ أو العِقابا

وكان للشعر في هذه الأحداث العظيمة مجالات واسعة، سجلها الشعراء في قصائد ومقطعات. ومن ذلك ما ذكره حسان ﷺ قبل الفتح، بدخول الجيوش مكة، مع الملائكة الكرام:(٢)

عَدِمْنـا خَيلَنـا، إن لَم تَروهـا ... تُثِيـرُ النَّقـعَ، مَوعِدُهـا كَـداءُ
فإمّـا تُعرِضُـوا عَنّـا اعتَمَرْنـا ... وكـانَ الفَتحُ، وانكَشَفَ الغِطـاءُ
وجِبرِيـلٌ، رَسُـولُ اللهِ، فِينـا ... ورُوحُ القُدسِ لَيسَ لَهُ كِفـاءُ

وقال نُجيدة بن عمران الخُزاعي ﷺ، يصف النصر والهجرة التاريخية المباركة، وتحليل القتال بمكة يوم الفتح للثأر، ممن أجرم واعتدى بنقض عهد الحُديبية:(٣)

وقَد أنشأ اللهُ السَّحابَ، بِنَصرِنا ... رُكامَ صِحابِ الهَيدَبِ، المُتَراكِبِ
وهِجرتُنا، في أرضِنا، عِندَنا بِها ... كِتابٌ، أتى مِن خَيرِ مُملٍ وكاتِبِ
ومِن أجلِنا، حَلَّت بِمَكَّةَ حُرمةٌ ... لِنُدرِكَ ثأرًا، بالسُّيُوفِ القَواضِبِ

---

(١) الطبقات ٢: ١٤٥.

(٢) ديوانه ص ٥٧ - ٦٦. وانظر السيرة ٢: ٤١٧- ٤٣٧. وعدمناها أي: تلفت وهلكت. يدعو عليها. والنقع: الغبار. وكداء: مدخل إلى مكة. وتعرضوا عنا أي: لا تتعرضوا لنا. والكفاء: المثيل المكافئ له.

(٣) السيرة ٢: ٤٢٨. والهيدب: ما تدانى من الأرض. والقواضب: القواطع، جمع قاضب.

أما أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه، أو عبد الله بن أُمّ مكتوم كما هو مشهور، فقد كان كُفَّ بصره في هجرته بالمدينة المنورة، ولمّا وصل إلى مكة يوم الفتح صار يمرّ بين يدي رسول الله ﷺ من الصفا إلى المروة، وهو ينشد هذا الرجز:(١)

يـــا حَبَّـــذا مَكّـــةُ، مِـــن وادِي! أرضٌ بـهـــا أهـلِـــي، وعُـــوّادِي

إنِّـــي بـهـــا تَـرسَـــخُ أوتـــادي إنِّـــي بـهـــا أمـشِـي، بِـلا هـــادِي

٢٢ ـ سرية العُزَّى:(٢) ثم بعث النبيُّ ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه لهدم العُزَّى، وهي أعظم الأصنام لقريش وجميعِ بني كِنانة، في مكان يقال له: «نخلة»، فخرج خالد لخمس بقين من رمضان في ٣٠ فارسًا من أصحابه حتى انتهوا إليها.

ولمّا سمع السادن الشيباني بذلك علّق عليها سيفه وهرب إلى الجبل، يحرّضها على قتل خالد، حين يهدّمها. فإن لم تفعل ذلك فهي آثمة، أو فلتكن نصرانية:(٣)

أيـا عُزَّ، شُدّي شَدّةً، لا شَوَى لَهـا عَلَى خـالِدٍ، ألقِي القِناعَ، وشَمِّرِي

يا عُزَّ، إن لَم تَقتُلِي المَرءَ خالِـدًا فبُوئي بإثـمٍ عـاجِلٍ، أو تَنَصَّرِي

فهدم خالد رضي الله عنه العُزَّى، ثم هدم عمرُو بن العاص رضي الله عنه سُواعًا لهُذيل برهاط، وسعدُ بن زيد الأشهلي رضي الله عنه مَناةَ بالمشلّل.

٢٣ ـ سرية جَذيمة:(٤) بعد أن رجع خالد بن الوليد رضي الله عنه من هدم العُزَّى، أسراه رسول الله ﷺ في شوّالِ السنةِ الثامنة، مع ٣٥٠ من الأنصار والمهاجرين وبني سُليم، إلى بني جَذيمة من كنانة بناحية يَلَملَم ـ وكنانة جد قريش أيضًا ـ

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٢٠٠ والطبقات ٢: ١٤١ ومعجم البلدان ٥: ١٨٣.

(٢) السيرة ٢: ٤١٧ وزاد المعاد ٣: ٤١٤ والطبقات ٢: ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) السيرة ٢: ٤٣٧ وتاريخ الطبري ٣: ٦٥. ولا شوى أي: لا بقاء. يعني أنها قاضية.

(٤) الحديثان: ٤٠٨٤ و٦٧٦٦ في البخاري وزاد المعاد ٣: ٤١٥ وسنن النسائي ٨: ٢٣٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٨١ ـ ٣٨٢ والطبقات ٢: ١٤٧ ـ ١٤٩.

يدعوهم إلى الإسلام، فأظهروا له أنهم مسلمون، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. بل جعلوا يقولون: صبأنا صبأنا.

وهذا يعني أن خالدًا ﷺ لم يسمع منهم إقرارًا بذلك ولم يصدّقهم، فوضع فيهم السيف وأمرهم أن يستأسروا. وقد أغضب صنيعُه النبيَّ ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهمّ، إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرّتين، ثم دفعَ ديات القتلى وعوّض ما تلف أو فُقد، وبقي مُعرِضًا عن خالد حينًا، وهو يتعرّض له ويحلف أنه ما قتلهم عن إحنة ولا شَرَه، وأنه لم يسمع منهم تشهُّدًا، فرضي عنه، ثم سمّاه سيف الله.

وقيل: أسراه إلى بني جَذيمة من كِنانة في الغُميصاء، يدعوهم إلى الإسلام، فرآهم في جيش مسلّح. قال لهم خالد: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون، قد صلّينا وصدّقنا بمحمد، وبنينا المساجد في ساحاتنا، وأذّنّا فيها. قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوةً، فخِفنا أن تكونوهم،(١) فأخذنا السلاح. قال: فضعوا السلاح. فوضعوه. ثم قال لهم: استأسِروا. فاستأسَر القوم، فأمر بعضَهم فكتّف بعضًا، وفرّقهم في أصحابه.

بقي بعض القوم من بَعيد يريد الحرب، ولحق الصحابة منهم رجلًا معه نسوة، فجعل يقاتل عنهن حتى أصعدهنّ الجبل ونجا بهنّ، وهو يأمرهنّ بالطمأنينة ويبشّرهن بالحماية والمَنَعة:(٢)

رَخِّينَ أذيالَ الحِقاءِ، واربَعْنْ   مَشيَ حُيَيّاتٍ، كأنْ لَم تَفزَعْنْ
إن يَمنَعِ القَومَ ثَلاثٌ تُمنَعْنْ

---

(١) في مطبوعة الطبقات: أن تكونوا هم.

(٢) الطبقات ٢: ١٤٨. ورخين أي: ارخِين. والحقاء: جمع حَقو. وهو الإزار. واربعن أي: أسرعْنَ. وتفزعن أي: تخفن وتُروّعن. وتمنعن أي: تحفظن. والنون في الأفعال الثلاثة هي نون النسوة، والضبط في المطبوعة مضطرب جدًّا ومختل.

ونجا رجل آخر بنسوة نحو الجبل، وهو يقاتل عنهنّ، ويفتخر بدفاعه عن حريمه وحمايتهنّ:[١]

قَد عَلِمَت بَيضاءُ، حَمراءُ الإطِلْ يَحُوزُهـا ذُو ثَلّـةٍ، وذُو إبِـلْ

لأُغـنِيَنَّ اليَومَ، ما أغنَى رَجُلْ

وكذلك فعل رجل ثالث بنسوته، حتى صعِد بهنّ الجبل، فقال خالد: لا تتبعوهم.

وقال أحد الصحابة الفرسان: أمرَنا النبي ﷺ بقوله: اقتلوا ما لم تسمعوا مؤذِّنًا، أو ترَوا مَسجدًا. فلحقْنا رجلًا من القوم، وقلنا له: أكافرٌ أم مسلم؟ قال: إن كنتُ كافرًا فمَهْ؟[٢] قلنا: إن كنتَ كافرًا قتلناك. قال: دَعُوني أقضِ إلى النسوة حاجة. ثم دنا إلى امرأة فقال: اسلَمي حُبيشُ، على نَفَد العيش. ثم أنشد أبياتًا منها:

أما كـانَ أهـلًا أن يُنَوَّلَ عـاشِـقٌ تَكَلَّفَ إدلاجَ السُّرَى، والوَدائقِ؟

أثِيبِي بـوُدٍّ، قَبلَ أن تَشحَطَ النَّوَى ويَنأى أمِيرِي، بالحَبِيبِ المُفارِقِ

فقالت: نعمْ. حُيِّيتَ عشرًا وسبعًا وِترًا، وثمانيًا تَترَى. ثم ضُربت عنقه، فجاءت المرأة وجعلت ترشفه حتى ماتت عليه.

وعلى هذا قُتل بعض بني جَذيمة، وانتهت رحلة النبوة الكريمة في المقاومة المسلحة مع صناديد الكفر من قريش وكنانة، بما كان منهم في الشرك والعدوان والتعذيب والتقتيل والتشريد، واغتصاب الحريات والأوطان والأملاك والأهل والأولاد. فأقام النبي ﷺ بمكة ١٥ ليلة، ثم كان له ما كان من حروب بالنصر المؤيد، إزاء بقية مشركي العرب، وبني إسرائيل والروم، على ما ترى في الفصول التالية.

---

(١) الطبقات ٢: ١٤٨. والإطْل: الخاصرة. حرك الطاء بالكسر اتباعًا لحركة الهمزة. والثلة: المجموعة من الغنم. وأغني: أمنع وأحمي.

(٢) الهاء للسكت. يريد: فما الذي تفعلون؟

الفصل الثاني

مغازي القبائل العربية

تلك الوقائع المتعددة التي مضى الحديث عنها كان ميدانها في مناطق تحرُّكات قريش وكِنانة، من حول المدينة المنورة، أي: جنوب المدينة وغربها غالبًا، حتى وصلت أخيرًا إلى مكة المكرمة. وقد لبثت تتمركز في هذه الجماعات وحدها جهود النبوة الكريمة بعيدًا عن القبائل العربية، التي لم تكن تريد بالمسلمين شرًّا، بل تجاورهم بوداعة ومسالمة. وهو ما يتمناه النبي ﷺ أن يكون من جميع ما حوله، ليستطيع تبليغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

أضف إلى هذا أن الوضع الاقتصادي للمسلمين كان، أوائل عهد الهجرة، في ضائقة وعسر. فقد تلقى الأنصار الكرام ﷺ إخوتهم في الإيمان مخلِّفين أموالهم في مكة، ليتمتع بها المشركون ويتصرفوا فيها وكأنها ملك لهم، لا ينازعهم فيها أحد. وهذا يعني نزول عشرات من الأُسر على المجتمع الأنصاري دُفعة واحدة، في هجرة من البطش والعدوان، وهي خاوية الوفاض، وغريبة الديار عاجزة عن الحركة العملية للإنتاج والاستغناء عن العون.

نعم، لقد استطاع بعض المهاجرين أن يجد منفذًا للتحرك في سوق المدينة، بعمل يُدرّ عليه وافر الكسب والغَناء، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. فقد كان ذا خبرة تجارية عالية، ولما آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع قال هو لأخيه: «دُلَّني على السوق». ثم دخلها يمارس مهنته بمهارة واقتدار، فاغتنى وأفاض على الجميع بالخير العميم.

نعم، كان هذا وبعض أحداث محدودة من أمثاله، لكن الوضع العام

للمجتمع الهِجري قُضي عليه أن يعاني مشكلة استيعاب العشرات من الأسر للعشرات، في دفقات متوالية من المجموعات البشرية. ومثل هذه الأوضاع المادية لاتحسدها القبائل المجاورة، ولا تطمع في غزوها للنيل منها، إذ ليس فيها سوى الحاجة الماسة، والقصور دون الكفاية.

لذا مضى العامان الأولان من الهجرة، والمسلمون في صراع مع مشركي مكة وحلفائها، واطمئنان من ناحية سائر العرب. غير أن ما حصل في بدر من النصر، وفيما حولها من الغزوات لقريش وبني قينِقاع، قد غير ميزان القوى في المنطقة المحيطة بالنزاع الإسلامي.

فقد ظهرت قوة جديدة فتيّة، تتصدر لقيادة الأمة برُمّتها، وتبشّر بالقديم الجديد من العقيدة والشريعة والعبادة والعمل، وتسعى لقلب ميزان القوى والمفاهيم والأعراف والنظم وأساليب الحياة. وبذلك استطاعت أن تؤلف بين المتحاربين من الأوس والخزرج، وصبّت فوقهم كتلة مكية ضابطة، فصار المجموع سبيكة ذهبية لامعة، هزمت سلطان قريش ومكايد يهود، وظهرت كدولة لها نظام مقرَّر، ومعاهدات موثقة تضمن المسالمة والحيوية والاستقرار.

وهذا أمر خطير في معيار الزعامات القبلية، وسياسة مناطق النفوذ والسلطان والتحكم لكل منها، والتكسب الحيوي بالغزو والعدوان والارتزاق، يُخشى استفحال شأنه ومنافسته للتكتلات والسيادات المجاورة. إنه يؤرقها ويقض مضجعها، وليس من اليسير قبوله أو السكوت عنه، وهو في نمو متصاعد يبشّر بالتفتح والانتشار. لا بد إذاً من التحرك السريع لإخماد أنفاسه، وتعطيل نشاطه بكل وسيلة ممكنة.

ثم إن ما غنمه المسلمون في تلك المعارك، خلال العامين الأولين، وما تيسر لهم من الاستقرار والأعمال البسيطة المتنامية، أظهرا للمجاورين من القبائل بعض تملك لأموال وأعمال وتجارات، تثير جشع المتعطشين إلى

الغزو، فتتحلّب أشداقهم لها، وتحملهم على تجديد التفكير، وتعديل النظرة إلى المجتمع المدني الحديث.

وهذا مثير آخر ينضم إلى سابقه، فيكون معه عاملًا منشطًا للتفكير في تعجيل الإخماد والتعطيل. ومن ثَمّ بدأت القبائل المجاورة تعلن الحرب، واحدة تلو الأُخرى، بغزو مع السلب والنهب أو بخِداع أو غدر وعدوان. وبذلك فُتح على المسلمين جبهات متعددة، وجُرّوا إلى معارك جانبية، ما كانوا يفكرون فيها أصلًا، لرغبتهم في مسالمة الجميع عدا قريش ومن والاها.(١)

لقد اجتمع لدى القوى المجاورة عنصران أساسيان من عناصر الرغبة في البطش والحيازة، هما قديمان عند المشركين في مكة. إنهما الخوف والطمع، وما اجتمعا في قوم من أربّاء شريعة الغاب إلّا هاجت بهما زوابع الغزو والتدخل السريع. وهو ما كانت عليه أحوالُ الفرس والروم والأحباش حينذاك، وتحركاتُ القبائل العربية فيما بينها، من حروب وغزوات وتسلط واغتصاب.

وكذلك الحال فيما استمر بعدُ من الغزو الفَرَنجي والمغولي وحملات التكفير والاستعمار، في ديار المسلمين من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. وإنك لتذكر ما استشرى في قارة الهنود الحمر، لوصفهم بالوحشية والتخلف، بغية تقتيلهم وإحراق حضاراتهم الإنسانية، واغتصاب ثرواتهم وممتلكاتهم، وبناء أوكار للمجرمين بأسماء ملفقة من الأباطيل، ثم ما اتُّهمت به ألمانية وإيطالية من تسلط وعدوان، وما وصف به زعيماها من رعونة وطيش أو جنون ظلمًا وبهتانًا، للبطش بهما وإخماد أنفاسهما. فكان عن ذلك حربان عالميتان، أحرقتا الأخضر واليابس، وفتحت للدول المجرمة أبواب التحكم في مصاير الأمم من الأوطان المختلفة.

---

(١) انظر الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ص ٤٨٠ ـ ٤٨٦.

وأخيرًا ما يشهده العالم اليوم. أعني فزع اليهودية العالمية من الإسلام والمسلمين، وجشعها للثروات الوطنية في العالم الإسلامي، وما كان عنهما من تكتل لعشرات الدول الغربية والشرقية، وهجوم وحشي على بلاد المسلمين، بالأسلحة المحرّمة والغارات المدمّرة، والهتك للأعراض والقيم، والتخريب لمراكز القوة والعِلم والدين والصحة والنماء، في فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والسودان والصومال والبوسنة وداغستان والشيشان وأندونيسية والفليبين، وكل بقعة إسلامية تأبى المذلة والهوان.

كل هذا بدعوى محاربة الإرهاب، والحلفاءُ هم الإرهابيون المعتدون، بمعونة زبانية المتمسلمين. وإلّا فما هي الخصومة بين المسلمين وكثير من أقاصي الحلفاء؟ ما هو المحرِّض لليابان والولايات المتحدة الأمريكية وأُسترالية وكَندة وإيطالية ورومانية والدنمرك وفنلندة مثلًا، على اكتساح بلاد المسلمين، وتدمير معالم الحياة والعلم والعمل فيها، وإثارة الفتن والمؤامرات بين أبنائها، وتقتيل الملايين من النساء والأطفال والشيوخ والشبان، وشراء ضمائر الخونة لتكريس البغي والعدوان وتملك الأزمّة والثروات؟

هذه الحال السائدة في العالم على مدى القرون كانت تعيش في نفوس القبائل العربية المجاورة للدولة الإسلامية الفتيّة، إرثًا همجيًّا يحرك العقول والأجسام، وهاجسًا نفسيًّا مسيطرًا على التفكير والتوجه والعمل، في ميادين الصراع الأبدي لحيازة الغلبة والاستبداد. فلا غرو أن يتطلع بعض العرب في تلك الحقبة إلى ممارسة هذا الإرث الشيطاني، وخوض المعارك والحروب، لتحطيم كل بادرة من التفتح والانطلاق في بيئة مجاورة. وإليك ما كان عن هذه الشِّحنات العدوانية المتحكمة في قلوب المتعطشين للدماء والامتلاك والسلطان، من صور لمقاومة المؤمنين الحربية بالسلاح والعتاد والجهاد في سبيل الله عز وجل.

١ ـ **غزوة ذِي القَصّة:**(١) كانت غطَفان في ذلك الحين أقرب الأعراب إلى المدينة المنورة. وهي بطن عظيم من قيس عَيلان، كثير الشعوب والأفخاذ، تنتشر في غربيّ نجد بالمنطقة الشمالية للمدينة مما يلي وادي القُرى، وقد شُغلت فروعها قبل الإسلام مدة ٤٠ سنة في حرب داحس والغبراء.

ولما انتهت تلك الأيام بالصلح بين الأطراف المتنازعة، ورجعت الوحدة القبلية إلى سابق عهدها من القوة والنشاط، آن لها أن تفتح عيونها لما جدّ حولها من تحركات بشرية قد تنافسها في الهيمنة والسيادة. وكان أول ما لفت نظرها نشوء الدولة الإسلامية الفتيّة، وما فيها من تنامي القوة وتثبيت العقيدة وموارد الرزق بعد بدر، كما ذكرنا.

غطَفان هذه تمثل في شمالي الجزيرة مركزًا قبليًّا مستبدًّا، يسيطر على ما حوله من الأعراب، ويحرك الأوضاع الحربية والسياسية في تلك البقاع وما يجاورها، ليكون له التفرد بالتسلط والاستبداد. وقد استطاعت بمجموعها أن تكسر حدّة أقوى القبائل بجانبها، بني عامر بن صعصعة، في عدة غزوات متوالية: يوم الرَّقم، ويوم القرنتين، ويوم طُوالة، ويوم قرَن. وبذلك حققت لنفسها الهيمنة على منطقة للنفوذ واسعة.

ثم إن أبناءها هم أصحاب العُزَّى أصلًا، أضخمِ وثن بعد هُبل، في بيت مقدّس له سدَنة وكهَنة، يحجّ أبناء القبائل إليه بالتقديس والتعظيم، ويحملون حلفاءهم على متابعتهم في ذلك. بل إن لهم صنمًا عظيمًا آخر اسمه الأُقيصِر في مشارف الشام، بنوا له بيتًا كالكعبة اسمه بُسّاء، يطوفون حوله ويتباركون به، ويحلقون رؤوسهم عنده.

فوجود قوة سياسية مجاورة، مع عقيدة تبعث توحيد سيدنا إبراهيم ﷺ

---

(١) الجهاد والقتال ص ٤٨٦ والمحبر ١١٢ والطبقات الكبرى ٢: ٣٤ ـ ٣٥.

وتحيي ما اندثر من شريعته، سيوجه الأنظار إليها، لأنها صارت تعني خطرًا عظيمًا على كل تلك المكتسبات والمنطلقات، وزعزعةً للسيادة القبلية والهيمنة الروحية بين قبائل الشمال من الجزيرة، وتهديدًا صارخًا لتلك العِزة الغطَفانية المقرَّرة المتصاعدة. لذا صارت أفخاذ غطَفان المتنمرة هناك تتحسس حركات الدولة الإسلامية، وترقب ثُغرات بنيانها للنفوذ إلى صميمها بالبطش والهدم والاستعلاء. وقد كان أن تجمَّع في محرمِ السنة الثالثة قوم من بني ثعلبة بن سعد ابن ذبيان، وضموا إليهم بني محارب بن خَصَفة من قيس عيلان، ليباغتوا المسلمين بغارة تنال منهم.

وهكذا دخل ميدانَ النزاع قوم آخرون، وأعلنوا الحرب على دولة الإسلام بدون عداوة سابقة،[1] يَشغلون المسلمين بمعارك جانبية ليس للطرفين فيها مصلحة، ويثيرون حروبًا في جبهات متعددة لا تنتهي إلّا بالقضاء على الوثنية العربية. ومِن ثَمّ نزل الوحي القرآني يوجه المسلمين بالجهاد إلى الجبهات المفتوحة عليهم، ليكون اللقاء بمن هو أقرب مكانًا واعتداء: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفّارِ، ولْيَجِدُوا فيكُم غِلظةً﴾.[2]

وعملًا بذلك، فإنه لمّا بلغ النبيَّ العظيم ﷺ حشدُ القبائل المذكورة خرج للقائها في ٤٥٠ صحابيًّا، حتى بلغ ذا القَصّة، فلقي رجلًا غطفانيًّا من بني ثعلبة اسمه جبّار، يريد المدينة لينظر في دعوة الإسلام، ودعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم، وأعلم النبيَّ أن المشركين أتاهم خبره، فهربوا ولاذوا برؤوس الجبال، تاركين أموالهم غنيمة للمسلمين. حينئذ أقام القائد المعظم في تلك المِنطقة ١٢ ليلة، ينتظر نزول الهاربين للقاء.

---

(١) الكامل ٢: ١٤٢ وأنساب الأشراف ١: ٣١٠ ـ ٣١١ والسيرة ٢:٤٦.

(٢) الآية ١٢٣ من سورة التوبة.

وفي هذه الأيام زاره أعرابي اسمه دُعثورٌ، فأسلم أيضًا ومضى إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام. قيل: وفي هذه الغزوة نزل قول الله، عز وجل[1]: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اذكُرُوا نِعمةَ اللهِ علَيكُم، إذ هَمَّ قَومٌ أن يَبسُطُوا إلَيكُم أيدِيَهُم، فكَفَّ أيدِيَهُم عَنكُم، واتَّقُوا اللهَ، وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾. وقد طال الانتظار دون أن يظهر من العدوّ أحد، فعاد الجيش الإسلامي ولم يلق كيدًا.

٢ ـ سرية أبي سَلَمة:[2] بنو أسد بن خُزيمة قبيلة عظيمة في الجاهلية، منازلها في نجد قريبة من غطَفان والمدينة، ولها تاريخ حربي مشهور حينذاك. ولما نشأت الدولة الإسلامية، وظهرت قوتها بعد غزوة بدر، رأى هؤلاء فيها مُنافسًا لهم، يسد عليهم سبل التكسب والاستعلاء ويهدّد مصالح الارتزاق، وأرادوا أن يخوضوا معها بعض المعارك.

وفي مستهل شهر محرّم من السنة الثالثة، جهز طُليحة بن خُويلد وأخوه سَلَمة جيشًا عظيمًا لغزو المدينة المنورة. وحينما بلغ النبيَّ ﷺ خبر ذلك بعث سرية في ١٥٠ صحابيًّا بقيادة أبي سَلَمة عبد الله بن عبد الأسد رضي الله عنه، فسارت حتى بلغت جبل قَطَن، ماء من مياه بني أسد بناحية من نجد. لكن هؤلاء الأعراب هربوا دون لقاء، واستاقت السرية أنعامهم مع ٣ رعاء غنيمة. وقيل: بل قاتلتهم وهزمتهم واستُشهد مسعود بن عُروة رضي الله عنه، وظفرت بالأنعام.

٣ ـ غزوة الكُدر:[3] بعد رجوع النبي ﷺ من حملته الماضية إلى ذي

---

(١) الآية ١ من سورة المائدة. وانظر أنساب الأشراف ١: ٣١١.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٧٤ ـ ٣٧٥ والسيرة ٢: ٦١٢ والطبقات الكبرى ٢: ٥٠ وتاريخ الطبري ٣: ١٥٥ والاستيعاب ص ١٣٩٣ وزاد المعاد ٣: ٢٤٣ ومعجم البلدان ٤: ٣٧٥ ومحمد القائد ص ٦١.

(٣) أي: غزوة قَرقرة الكُدر، أو قرارته. وقيل: إنها كانت بعد بدر مباشرة. وقد تسمى غزوة بَحران. فتجعل على قريش. انظر أنساب الأشراف ١: ٣١٠ ـ ٣١١ والكامل ٢: ١٤٢=

القَصّة، تألب جمع من بني غطَفان وبني سُليم بن منصور من قيس عيلان، يريدون غزو المدينة المشرّفة أيضًا. كان ذلك في منتصف محرم من العام الثالث كذلك، ولمّا علم بهم رسول الله خرج إليهم بلواء يحمله عليّ في ٣٠٠ من الصحابة ﷺ، دون أن يذكر: أين يريد؟ ولكنهم علموا بمَقدمه فتفرقوا مخلّفين ما معهم من النعم والرُّعاة في ٥٠٠ بعير. فاستاق المسلمون ذلك بعد إقامتهم ثلاث ليال هناك في موضع اسمه الكُدر، واقتسموه غنيمة سائغة، ورجعوا إلى المدينة بعد غيابهم عنها ١٠ ليال.

٤ ـ **سرية غالب الليثي:**(١) لمّا عاد الرسول الكريم من غزوة الكُدر بعث سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي، لجهاد بني سُليم وغطفان أيضًا. وقد التقوا بهم فقاتلوهم وقتلوا منهم حتى هزموهم، ورجعوا بالغنائم الوافرة، وكان قد استُشهد من المسلمين هناك ثلاثة.

٥ ـ **غزوة الفُرُع:**(٢) رجع الرسول ﷺ من غزوة السَّويق دون حرب مع قريش، كما رأينا من قبل، ثم من غزوة الكُدر كذلك، فأقام بالمدينة حتى ربيع الأول من العام الثالث، فبلغه أن قد تجمّع لغزوه قوم من بني سُليم، فخرج يريدهم في ٣٠٠ من الصحابة ﷺ. ولما بلغ بَحرانَ من ناحية الفُرُع علم أنهم تفرقوا، فأقام بها شهر ربيع الآخِر وجُمادى الأُولى، دون أن يلقى كيدًا، فرجع إلى المدينة بأصحابه.

= والسيرة ٢: ٤٣ و٤٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤٨٧ وزاد المعاد ٣: ١٨٩ وعيون الأثر ١: ٢٩٤ والبداية والنهاية ٢: ٥٣٩ وتاريخ ابن خلدون ٢: ٢١ وشرح المواهب ١: ٤٥٤ ومعجم البلدان ٤: ٤٤١ ـ ٤٤٢.

(١) قيل: إنها كانت في شوال من العام الثاني. تاريخ الطبري ٢: ٤٨٣.

(٢) قد تجعل هذه الغزوة على قريش. زاد المعاد ٣: ١٩٠ والسيرة ٢: ٤٦ والبداية والنهاية ٣: ٤ـ٥ والطبقات الكبرى ٢: ٣٥ ـ ٣٦ وأنساب الأشراف ١: ٣١١ وعيون الأثر ١: ٣٠٤ وشرح المواهب ٢: ١٦.

٦ - سرية الرَّجيع:[١] في صفر من السنة الرابعة، جاء وفد من بني عَضَل وبني القارة، وهم من قبيلة الهون بن خُزيمة أبناء عمّ الكِنانيين وبني أسد وحلفاء لبني هُذيل، يدّعون أنهم مسلمون ويريدون من يعلّمهم الشرائع، فبعث النبي ﷺ معهم مَرثد بن أبي مرثد الغَنَوي في ٩ من علماء الصحابة ﷺ. ولما بلغوا ماء لهُذيل اسمه الرَّجيع غدر بهم رجال الوفد، واستعانوا بمِائَة من بني لِحيان الهُذَليين، فقتلوا عامتهم ولجأ الباقي إلى الجبل، ثم أجارهم بنو لِحيان متعهدين لهم أنهم لا يريدون بهم شرًّا، وإنما يستعينون بهم على أهل مكة.

أما مرثد وخالد بن البُكير وأبو سليمان عاصم بن ثابت ﷺ فلم يثقوا بتعهد هؤلاء، وقاتلوهم حتى استُشهدوا. وكان لهم في ذلك أراجيز، منها قولُ مرثد ﷺ بأنه يستطيع القتال، داعيًا على نفسه أن تثكله أُمّه إن لم يجاهد:[٢]

مـا عِلّـتِي، وأنـا جَلـدٌ نـابِـلُ؟ الـمَـوتُ حَـقٌّ، والـحَـيـاةُ بـاطِـلُ
إن لَـم أُقـاتِلْـكُـم فـأُمِّـي هـابِـلُ

وقولُ عاصم ﷺ بأنه يلقى الحروب بإقدام واطمئنان، لأنه مؤمن بالرسالة المحمدية:[٣]

إذا النَّـواجِي أُفـرِشـت لَـم أُرعَـدِ ومُـؤمِـنٌ، بِـمـا عـلَـى مُـحَـمَّـدِ

---

(١) يقال لها: يوم الرجيع، وغزوة الرجيع. وقيل: إن السرية كانت لهذيل مباشرة لتعليمهم وجمع صدقاتهم. انظر الأحاديث: ٢٨٨٠ و٣٧٦٧ و ٣٨٥٨ و ٣٨٥٩ في البخاري والسيرة ٢: ١٦٩ - ١٨٣ وتاريخ الطبري ٢: ٥٣٨ - ٥٤٥ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٥ - ٣٧٦ والكامل ٢: ١٦٧ - ١٧٠ والطبقات الكبرى ٢: ٥٥ - ٥٦ وزاد المعاد ٣: ٢٤٤ - ٢٤٦ وعيون الأثر ٢: ٤٠ والبداية والنهاية ٣: ١٢٣ وشرح المواهب ٢: ٦٤ - ٧٤ والاستيعاب ص ٤٤٠ - ٤٤٢ والإصابة ٢: ٢٦٢ - ٢٦٤ ومعجم البلدان ٣: ٢٩.

(٢) السبرة ٢: ١٧٠. والنابل: من كان معه نبل. والهابل: الثاكل.

(٣) السيرة ٢: ١٧٠. والنواجي: جمع ناجية. وهي الناقة السريعة. وأفرشت أي: أُعدت للحرب.

وقولُ عاصم ﷺ يفتخر بقدرته على الرماية، وأنه ذو كَرَم أصيل:(١)

أَبـو سُلَيمـانَ، ومِثلـي رامَـى وكـانَ قَـومِي مَعشَرًا كِراما

وكان عاصم قد أعطى اللهَ عهدًا ألّا يمسه مشرك، ولا يمسَّ مشركًا أبدًا. وفي أُحد أصاب ابنين لسُلافة بنت سعد القرشية، فنذرت: لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربَنَّ في قحفه الخمر. وأراد الغادرون حمل الرأس ليبيعوها إياه، ولكن زنابير النحل تجمعت عليه، ثم جاء سيل فاحتمله وذهب به.

وأما الصحابيون الثلاثة الباقون: عبد الله بن طارق وخُبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة ﷺ فأسرهم اللِّحيانيون الغادرون وأوثقوهم، واستاقوهم ليبيعوهم. وفي الطريق هرب منهم عبد الله، فرموه بالحجارة حتى استُشهد، وغدروا بالاثنين الآخَرين، فباعوهما أهلَ مكة بأسيرين لهم عندهم.

ولما اجتمع أهل مكة لقتل زيد ﷺ سأله أبو سفيان: أتحب أن محمدًا عندنا الآن، في مكانك نَضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله، ما أُحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. فكان أبو سفيان بن حرب يقول: ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا، كحب أصحاب محمدٍ محمدًا.

وبقي خُبيب ﷺ في الأسر ينتظر مصيره، وعندما عزموا على قتله طلب منهم موسًى يحلق به عانته، فبعثته المرأة مع غلام. ولما ناوله إياه قال: «لَعَمرُك، ما خافت أمك غدري، حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ». ثم ركع ركعتين قبل الاستشهاد ـ فصارتا سُنّة بعده ـ وقال: «لولا أن تحسِبوا أنّ ما بي جَزَعٌ لزِدتُ». فصلبوه على خشبة ورفعوه ليقتلوه، فقال: «اللهمّ، إنّا قد بلّغْنا رسالة رسولك. فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا. اللهمّ، أحصِهم عددًا، واقتلْهم بَدَدًا، ولا تغادرْ منهم أحدًا».

---

(١) السيرة ٢: ١٧١. ورامى أي: حارب العدو رميًا بالسهام.

وأنشد أبياتًا يستقبل الشهادة بصبر وإيمان، منها:[1]

لَقَد جَمَّعَ الأحزابُ، حَولِي، وألَّبُوا قَبائلَهُم، واستَجمَعُوا كُلَّ مَجمَعِ
وذلِكَ في ذاتِ الإلهِ، وإن يَشأْ يُبارِكْ علَى أوصالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ
فواللهِ ما أرجُو، إذا مِتُّ مُسلِمًا: علَى أيِّ جَنبٍ كانَ في اللهِ مَصرَعِي؟
فلَستُ بمُبدٍ، لِلعَدُوِّ، تَخَشُّعًا ولا جَزَعًا، إنِّي إلَى اللهِ مَرجِعِي

وقد رأى المنافقون في هذه الأحداث مجالًا للتبكيت والتثبيط، فصاروا يذكرون أن رجال السَّرية لم يبقَوا بين أهليهم، ولم يؤدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يُعجِبُكَ قَولُهُ في الحَياةِ الدُّنيا، ويُشهِدُ اللهَ علَى ما في قَلبِهِ - وهُوَ ألَدُّ الخِصامِ - وإذا تَوَلَّى سَعَى في الأرضِ لِيُفسِدَ فِيها... الفسادَ﴾.[2]

وراح حسان ﷺ ينظم الشعر[3] في تخليد ذكرى الشهداء، فكان مما قال مقطوعةٌ مطلعها:[4]

صَلَّى الإلهُ علَى الَّذِينَ تَتابَعُوا يَومَ الرَّجِيعِ، فأُكرِمُوا، وأُثِيبُوا

ومقطوعاتٌ في رثاء خبيب ﷺ، ذكر الحزن فيها والأسى على فقده، والتهديد لمن غدر وظلم:[5]

---

(١) صحيح البخاري ص ١٤٦٦ والحديث ٣٨٥٨ فيه والسيرة ٢: ١٧٦ - ١٧٧ والكامل ٢: ١٦٨وزاد المعاد ٣: ٢٤٥ والاستيعاب ص ٤٤١ والإصابة ٢: ٢٦٣. والشلو: ما بقي من الجسد. والممزع: المقطع. وأرجو: أخاف وأخشى. والتخشع: التذلل.

(٢) الآيتان ٢٠٤ و ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٣) انظر السيرة ٢: ١٧٧ - ١٨٣.

(٤) ديوانه ص ٨٤ والسيرة ٢: ١٨٣.

(٥) ديوانه ص ١٠٩ - ١١٠ والسيرة ٢: ١٧٧ - ١٧٨. والسجية: الخليقة. والمحض: الخالص الصفاء. والمؤتشب: المختلط بغيره. والطية: النية للسفر. وكهيبة تصغير كُهبة. وهي الغبرة، شتم للقبيلة بهذا الوصف، جعله اسمًا علمًا لأنثى. لكأنه يريد بني خُزيمة. ولقحت: اشتد شرها. والصاب: العلقم. وتمرى: يمسح ضرعها.

يا عَينُ، جُودِي بدَمعٍ مِنكِ مُنسَكِبِ وابكِي خُبَيبًا، مَعَ الفِتيانِ، لَم يَـؤُبِ
صَقرًا، تَـوَسَّطَ فـي الأنـصارِ مَنصِبُهُ سَمحَ السَّجِيّةِ، مَحضًا، غَيرَ مُؤتَشِبِ
يا أيُّهـا الـرّاكِـبُ، الغـادِي لِطَـيّتِهِ أبـلِغْ، لَدَيـكَ، وَعِـيدًا لَيس بالكَذِبِ
بَنِي كُـهَيـبَةَ أنَّ الحَربَ قَـد لَقِحَـت مَحلُوبُها الصّابُ، إذ تُمرَى لِمُحتَلِبِ

ثم هجا الهُذليين الغادرين بالذِّمّة، لأنهم لاحرمة عندهم للجار، وكل منهم كالكلب والقرد في الدناءة، وأحط من التيس اللئيم:(١)

إن سَرَّكَ الغَدرُ، صِرفًا لا مِزاجَ لَـهُ، فائْتِ الرَّجِيعَ، فسَلْ عَن دارِ لِحيانِ
قَـومٌ، تَواصَـوا بأكـلِ الجـارِ بَـينَهُمُ فـالكَـلـبُ والقِرد والإنسانُ مِـثـلانِ
لَو يَنطِقُ التَّيسُ يَومًا قـامَ يَخطُبُهُم وكـانَ ذا شَـرَفٍ، فِـيهِم، وذا شـانِ

٧ ـ سرية بئر مَعُونة:(٢) في صفر أيضًا من السنة الرابعة، ورد سيد بني عامر بن صعصعة أبو براءٍ عامرُ بن مالك على النبي ﷺ يسأله عن دعوته، وأهدى له هدية، فقال: يا أبا براء، لا أقبل هدية مشرك. فأسلِمْ، إن أردت أن أقبل هديتك. ثم عرض عليه وقرأ عليه القرآن، ودعاه فلم يُسلم ولم يُنكر، وقال: يا محمد، إنّ أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل. فلو بعثتَ رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعَوهم إلى أمرك، لرجوتُ أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله: إني أخشى عليهم أهل نجد. قال أبو براء: أنا لهم جار. فابعثْهم فلْيدعوا الناس إلى أمرك.

---

(١) ديوانه ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ والسيرة ٢: ١٧٩ ـ ١٨٠. والصرف: الخالص الصافي. ولحيان: من قبيلة هذيل. وجعل الكلب والقرد مقابلَي الإنسان عند هؤلاء. والشأن: المنزلة العظيمة. أبدلت الهمزة ألفًا.

(٢) الأحاديث: ٣٨٦٠ ـ ٣٨٧٠ في البخاري والسيرة ٢: ١٨٣ ـ ١٨٩ وتاريخ الطبري ٢: ٥٤٥ ـ ٥٥٠ والطبقات ٢: ٥١ ـ ٥٤ والبداية والنهاية ٣: ١٣٩ ـ ١٤٤ وعيون الأثر ٢: ٤٦ وشرح المواهب ٢: ٧٤ ـ ٧٩ وزاد المعاد ٣: ٢٤٦ ـ ٢٤٧ و ٢٥٠ ومعجم البلدان ٥: ١٥٩.

بعث النبي ﷺ من خيار الصحابة العلماء القُرّاء ٧٠ رجلًا ﵃ بقيادة المنذر بن عمرو. وعندما نزلوا في غار من منطقة بئر معونة، بين ديار بني عامر وحَرّة بني سُليم، أرسلوا كتاب النبي مع حَرام بن مِلحان السُّلَمي إلى عامر بن الطفيل - وهو ابن أخي أبي براء - فلم يطّلع على الكتاب، وأمر مَن طعن حامله. ولما رأى حرام ﵁ الدم قال: «فزتُ وربِّ الكعبة»، واستصرخ عامرٌ قومه ليقتلوا الصحابة، فأبوا أن يجيبوه لأن أبا براء تعهّد لهم بالجوار. هنالك استعدى عليهم قبائل من بني سُليم، فخرج معه رجال عُصيّة ورِعل وذكوانَ حتى أحاطوا بهم، وكان قتال بين الفئتين استُشهد فيه الصحابة، عدا المنذر بن عمرٍو ﵁.

وكان عمرُو بن أُمية الضمري والمنذر بن عُقبة ﵄ في سرح المسلمين، ولمّا رأيا موضع الوقيعة قاتلا المشركين فقُتل الثاني وأُسر الأول. ثم إن ابن الطفيل عرف أن أسيره عمرًا من مضر فأُطلق سراحه بعد جزّ ناصيته، ولقي هذا في عودته بالقرقرة عامريَّين، فقتلهما ثأرًا، ولم يعلم أنهما يحملان عهدًا بالجوار من النبي ﷺ.

وعندما قدِم على المدينة المشرّفة وأخبر النبيَّ الكريم ما كان، دفع ديتهما للقوم بحق عهده المذكور، وغضب لِما حصل من غدر ابن الطفيل، قائلًا: «هذا عمل أبي براء. قد كنتُ لهذا كارهًا متخوّفًا». وقيل: نزل في أهل بئر معونة وحي قرآني، ثم نُسخ بعدُ.

وقال كعب بن مالك ﵁ يعرّض بخيانة العهد، ويثير زعماء بني عامر على ابن الطفيل، ويعيّرهم بما لهم في التاريخ من خزي:[1]

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٥٤٨ - ٥٤٩. وشعاعًا أي: متفرقة. والخفارة: العهد بالجوار. وأم البنين هي أم أبي براء.

لَقَد طارَت شَعاعًا، كُلَّ وَجهٍ، ... خِفارةُ ما أجارَ أبُو بَراءِ
بَنِي أُمِّ البَنِينَ، أما سَمِعتُم ... دُعاءَ المُستَغِيثِ، مَعَ المَساءِ؟
ولٰكِنْ عارُكُم عارٌ، قَدِيمٌ ... وداءُ الغَدرِ، فاعلَمْ، شَرُّ داءِ

وقال حسان ﷺ يحرّض زعماء القوم على الغادر، ويذكر لهم استهتاره بجوار أبي براء، وجريمته عامدًا متعمدًا:(١)

بَنِي أُمِّ البَنِينَ، أَلَم يَرُعْكُم، ... وأنتُم مِن ذَوائبِ أهلِ نَجدِ
تَهَكُّمُ عامِرٍ، بأبِي بَراءٍ ... لِيُخفِرَهُ، وما خَطأٌ كَعَمدِ؟

وقال كعب بن مالك ﷺ، يعيّر القوم أيضًا بجبنهم عن ردّ بني سُليم:(٢)

تَرَكتُم جارَكُم، لِبَنِي سُلَيمٍ ... مَخافَةَ حَربِهِم، عَجزًا وهُونا

ولما علم أبو براء بغدر ابن عمّه، وقول كل من حسان وكعب، غمّه ذلك لخِفارة عهدِه وكرامة قومه، قائلًا: «أخْفرني ابن أخي ذمتي، من بين قومي». فثار ابنه ربيعة، وحمل على ابن عمه عامر بن الطفيل، وطعنه فأخطأ مقتله وأصاب فخذه وأسقطه عن فرسه. فقال: ابن الطفيل: هذا عمل أبي براء. إن متُّ فدمي لعمّي، ولا يُتبَعَنَّ به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتى إليّ.

وكان طُعيمة بن عدي بن نوفل قُتل في بدر، فقَتل خالُه السُّلَميُّ أنسُ ابن عباس نافعَ بن بُديل بنِ ورقاء الخُزاعيَّ ﷺ ثأرًا بابن أخته، وقال:(٣)

تَرَكتُ ابنَ وَرقاءَ الخُزاعِيَّ ثاوِيًا ... بِمُعتَرَكٍ، تَسفِي علَيهِ الأعاصِرُ
ذَكَرتُ أبا الرَّيّانِ، لَمّا رأيتُهُ ... وأيقَنتُ أنّي، عِندَ ذلِكَ، ثائرُ

---

(١) السيرة ٢: ١٨٧ - ١٨٨. ويروع: يُفزع ويثير للانتقام. ويخفره: ينقض عهده.

(٢) ديوانه ص ٢٧٨ والسيرة ٢: ١٨٩. والهون: الذلة والهوان.

(٣) السيرة ٢: ١٨٨. والمعترك: موضع الحرب. وتسفي: تثير. والأعاصر: الأعاصير الرياح، جمع إعصار بحذف الياء الزائدة للتخفيف. وأبو الريان: طعيمة بن عدي.

فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يبكي ابن ورقاء:[1]

رَحِمَ اللهُ نافِعَ بنَ بُدَيلٍ، رَحمةَ المُبتَغِي ثَوابَ الجِهادِ
صابِرٌ صادِقٌ وَفِيٌّ، إذا ما أكثَرَ القَومُ قالَ قَولَ السَّدادِ

وأنشد حسان رضي الله عنه في رثاء أولئك الشهداء الأبرار، الذين غدر بهم خونة العهد والجوار:[2]

علَى قَتلَى مَعُونةَ، فاستَهِلِّي بدَمعِ العَينِ، سَحًّا غَيرَ نَذْرِ
علَى خَيلِ الرَّسُولِ، غَداةَ لاقَوا مَنايَاهُم، ولاقَتهُم بقَدْرِ
أصابَهُمُ الفَناءُ، بعَقدِ قَومٍ، تُخُوِّنَ عَقدُ حَبلِهِم، بغَدْرِ

وقنَتَ رسول الله ﷺ شهرًا، يدعو بعد الركوع على الذين قتلوا القُرّاء في بئر معونة، ثم ترك ذلك لمّا جاء أكثر المعتدين تائبين مسلمين.

٨ ـ **غزوة ذات الرِّقاع:**[3] كان للحملتين الماضيتين على بني غطَفان ردعٌ وقمع، لتحركاتهم وما في نفوسهم من الجشع، وزرعٌ فائض للخوف والخشية والامّحاق، فلبثوا أكثر من سنة بعيدِين عن حقل النزاع، يتربصون بالمسلمين الدوائر، وهم مشغولون بما بينهم من خصومات وفتن وغزوات. حتى إنهم لم

---

(١) السيرة ٢: ١٨٨. وأكثروا أي: كثر قولهم واضطرب في المعضلات.

(٢) ديوانه ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ والسيرة ٢: ١٨٩ ومعجم البلدان ٥: ١٥٩. واستهلي أي: أسبلي وأرسلي، يامقلتي. والسح: الصب الشديد. والنزر: القليل. وتخون: خانه المجرمون. والحبل: صلة الجوار.

(٣) الراجح أنها كانت بعد خيبر. انظر الأحاديث: ٣٨٩٨ ـ ٣٩٠٦ في البخاري و ٨٣٤ و٨٤١ ـ٨٤٣ و١٨١٦ في مسلم وزاد المعاد ٣: ٢٥٠ ـ ٢٥١ والبداية والنهاية ٣: ١٦٠ ـ ١٦٨ وعيون الأثر ٢: ٥٢ وشرح المواهب ٢ ـ ٨٦ ٩٣السيرة ٢: ٢٠٢ وتاريخ الطبري ٢: ٥٥٥ ـ ٥٥٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٤٠ ـ ٣٤١ والكامل ٢: ١٧٤ ـ ١٧٥ والطبقات الكبرى ٢: ٦١ـ ٦٢ ومعجم البلدان٣: ٥٦ وتاريخ ابن خلدون ٢: ٢٨.

يتسَنَّ لهم المشاركة في يوم أُحد مع صناديد قريش، وكانت فرصة لهم لامعة، لو دخلوا فيها محاربين. وفي جمادى الأُولى من السنة الرابعة أيضًا، حشد بنو مُحاربِ خصَفةَ وثعلبة ـ وهم من الأقوام الغطَفانيين ـ جمعًا عظيمًا لغزو رسول الله ﷺ في المدينة المنورة.

وعندما علم بذلك خرج بجيشه في ٧٠٠ من الصحابة ﷺ للقائهم، حتى نزل في نخل، موضع في نجد من ديار غطفان. وهناك تقارب الجمعان، ولم يكن بينهما حرب، وكره الأعداء اللقاء فولّوا هاربين، يتسنّمون جبلًا فيه بُقَع حمر وبيض وسود كأنها رِقاع. وبه سميت الغزوة، كما ترى مما ذكرنا قبل.

لقد هربوا بخوف واضطراب، حتى إنهم لم يتمكنوا من جر أموالهم معهم، ثم أرادوا أن يباغتوا المسلمين بالهجوم، لإنقاذ النساء والمال، ولم يجرؤوا على ذلك، فاستاق المسلمون من ذلك إبلًا وشياهًا وسبايا، ورجعوا غانمين سالمين، منصورين على بطون غطَفان بالرعب مسيرة شهر. ورُوي أنه في هذه الغزاة نزل حكم صلاة الخوف، مَخشاة أن يكرّ العدو على المسلمين، وهم يصلون في جماعة.

نزل قول الله، جل ثناؤه: ﴿وإذا ضَرَبتُم في الأرضِ فلَيسَ علَيكُم جُناحٌ أن تَقصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ، إن خِفتُم أن يَفتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا... وخُذُوا حِذرَكُم. إنَّ اللهَ أعَدَّ لِلكافِرِينَ عَذابًا مُبِينًا﴾.[1] وفيه تفصيل لكيفية صلاة الجماعة في ساحة القتال، إذا كان متوقَّعًا هجوم العدو.

فإمام الجيش يبدأ الصلاة وتنتظم خلفه جماعة بأسلحتها التي لا تعوّق الصلاة، وعندما تسجد هذه تكون جماعة أُخرى من خلفها ليست في الصلاة، ومواجِهةً للعدو بأسلحتها الكاملة. هذا في الركعة الأولى، وفي الثانية يبقى

---

(١) الآيتان ١٠١ و ١٠٢ من سورة النساء. وانظر الآية ٢٣٩ من سورة البقرة.

الإمام قائمًا، لتُتم الجماعة صلاتها بنفسها وتسلّم. ثم تأتم به الجماعة الأُخرى بالسلاح المناسب في الركعة الثانية، وتذهب التي أتمت صلاتها لتحمل السلاح الكامل وِجاهَ العدو. فإذا أنهى الإمام ركعته الثانية ثَبَتَ جالسًا بعدها دون أن يسلّم، وأتمت الجماعة التي خلفه صلاتها، حتى يسلّم بها.(١)

وكان أحد الصحابة ﷺ أصاب امرأة رجل من المشركين، فخرج زوجها يتبعهم حتى صادفهم ليلًا، والحارس الأنصاري ﷺ في فم الشِّعب يصلي، فرماه سهمًا فنزعه وهو في صلاته، وكذلك كان شأن الثاني، ولكنه في الثالث نزع السهم وركع وسجد، وأيقظ صاحبه المهاجريَّ، فهرب الرجل. قال المهاجريُّ: سبحانَ الله! أفلا أهبَبتَني(٢) أوّلَ ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتى أُنفِدها.(٣) فلما تابع الرميَ عليّ ركعتُ فأذِنتُك.(٤) وايمُ اللهِ، لولا خوفي أن أُضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفَسي قبل أن أقطعها أو أُنفِدها.

٩ - غزوة بني لِحيان:(٥) خرج الرسول الكريم ﷺ، في جُمادى الأُولى أيضًا من السنة الرابعة في ٢٠٠ محارب، إلى بني لِحيان الهُذَليين للطلب بدماء أصحاب الرَّجيع، وأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من العدو غِرّة. ولهذا سار على طريق الشام، ثم انعطف ذات اليسار فإلى الجنوب متوجّهًا إلى قصده، حتى نزل في وادي غُرّان قرب منازلهم.

---

(١) هذه إحدى كيفيات صلاة الخوف، المناسبة للظروف الحربية. وقيل: إن الحكم نزل بعُسفان. انظر تفسير القرطبي ٥: ٣٦٣ - ٣٧٣ والبحر ٣: ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) أهببتني أي: أيقظتني.

(٣) أنفدها أي: أنهي قراءتها.

(٤) أذنتك: أعلمتك ونبهتك.

(٥) السيرة ٢: ٢٧٩ - ٢٨١ والمحبر ص ١١٤ والطبقات الكبرى ٢: ٧٨ - ٨٠ ومعجم البلدان ٤: ١٩١.

ولما أغار عليهم في بلد ساية رأى أنهم قد حذِروه وتمنعوا في رؤوس الجبال، وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين. هنالك علم أنه أخطأ من غِرّتهم ما أراد، ثم سار إلى عُسفان ليَبلغ قريشًا ذلك وتشعر بالتهديد، وبعث السرايا في كل ناحية دون أن تلقى أحدًا، ورجَع من دون حرب، وهو يقول: آيِبُون تائبون عابدون لربنا حامدون.

وقد تغنّى كعب بن مالك ﵁ بهرب بني لِحيان. فلولا هربهم لصادفوا الجيش الإسلامي، في جماعات مشهورة بصدق اللقاء، لها مقدّمة تضيق بها السبل، والكتائب زاحفة بعدُ، تسحق ما يكون في طريقها. غير أن الأعداء لجُبنهم تفرقوا كصغار الحيوان، بين الوديان المغلقة:(١)

لَوَ انَّ بَنِي لِحيانَ كانُوا تَناظَرُوا ... لَقُوا عُصَبًا، في دارِهِم، ذاتَ مَصدَقِ
لَقُوا سَرَعانًا، يَملأُ السَّربَ رَوعُهُ ... أمامَ طَحُونٍ، كالمَجَرّةِ، فَيلَقِ
ولكِنَّهُم كانُوا وِبارًا، تَتَبَّعَت ... شِعابَ حِجازٍ، غَيرِ ذِي مُتَنَفَّقِ

وبهذا نجَوا من الانتقام، ولم يتيسر للنبي المبارك أن يعاقبهم على ما كان من العدوان والإجرام، فذهب بمِائَتي راكب حتى نزل بعُسفان، كا ذكرنا في الفصل الأول، تخويفًا لأهل مكة المكرمة، وعاد إلى المدينة المشرفة.

١٠ ـ **سرية سالم بن عُمير**:(٢) كان الحارث بن سُويد بن الصامت مسلمًا منافقًا، وحضر في غزوة أُحُد مع المسلمين، فقَتل المجذَّرَ بن زياد ﵁ غِيلة لثأر له وهرب مرتدًّا إلى مكة، فأهدر النبي ﷺ دمه فقُتل.

وقد انتصر له مسلم آخر فظهر نفاقه ـ وهو أبو عفَك شيخ كبير بلغ ١٢٠

---

(١) ديوان كعب ص٢٤٣ والسيرة ٢: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٢) السيرة ٢: ٨٩ و ٦٣٥ ـ ٦٣٦. وقيل: كانت في شوال السنة الثانية. أنساب الأشراف ١: ٢٣٨ و ٣٧٣ ـ ٣٧٤ والطبقات ٢: ٢٨.

سنة من بني عمرو بن عوف، وقيل: إنه يهودي أو مشرك لم يسلم - فارتد وقال يبكي حال الأنصار بمجيء الدعوة الإسلامية، زاعمًا أنهم كانوا في وفاء وبرّ وائتلاف وعزّة، فشتتهم النبي ﷺ وأفسدهم وأذلهم، لِما جاء به من الشريعة المضطربة:[1]

لَقَد عِشتُ دَهرًا، وما إن أرَى، مِنَ النّاسِ، دارًا، ولا مَجمَعا
أبَرَّ عُهُودًا، وأوفَى، لِمَن يُعاقِدُ، فِيهِم، إذا ما دَعا
مِنَ اولادِ قَيلَةَ، في جَمعِهِم، يَهُدُّ الجِبالَ، ولَم يَخضَعا
فَصَدَّعَهُم راكِبٌ، جاءهُم، حَلالٌ حَرامٌ، لِشَيءٍ مَعا

فأهدر النبي ﷺ دمه بقوله: مَن لي بهذا الخبيث؟ فقال سالم بن عُمير العوفي ﷺ: عليَّ نذر أن أقتل أبا عفَك أو أموت دونه. ثم انقضّ عليه في الليل وقتله، فقالت أُمامة المُزَيرية ﷺ تهجو أبا عَفَك، منكرة عليه الرِّدّة والتعرض للإسلام والرسول بالسوء:[2]

تُكَذِّبُ دِينَ اللهِ، والمَرءَ أحمَدًا؟ لَعَمرُ الَّذِي أمناكَ، أن بئسَ ما يُمنِي!
حَباكَ حَنِيفٌ، آخِرَ اللَّيلِ، طَعنَةً أبا عَفَكٍ، خُذْها، علَى كِبَرِ السِّنِّ

١١ - غزوة عُمير:[3] لمّا قُتل أبو عَفَك ظهر النفاق من عصماء بنت مروان -

---

(١) السيرة ٢: ٦٣٦. وأولاد قيلة هم الأنصار. وقيلة اسم امرأة يُنسبون إليها. وحذفت همزة «أولاد» بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها. ونصب «يخضع» بـ «لم» حملًا لها على: لن. انظر المغني ص ٧٨٠. وراكب أي: النبي ﷺ، جعله راكبًا لا فارسًا. وهو ذم منه. لعنه الله.

(٢) السيرة ٢: ٦٣٦. وأحمد هو محمد ﷺ. والذي أمناك أي: أبوك. وأمناه كان والده بما قذف من المنيّ لتحبل به أمه. وبئس أي: بلغ الغاية في الشر والبؤس والشقاء. وحبا: منح. والحنيف: المسلم. وعلى: للمصاحبة بمعنى: مع.

(٣) السيرة ٢: ٦٣٦ - ٦٣٨ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٣ والإصابة ٤: ٧٢١ والاستيعاب ص ١٢١٨.

وهي تحت يزيد بن زيد الخَطْمي من الأوس ـ فقالت تهجو الأنصار ﷺ لمتابعتهم النبيَّ العظيم، وتحرّضهم على اغتياله، بتمنّي من يقوم بذلك:[١]

باستِ بَنِي مالِكٍ، والنَّبِيتِ، وعَوفٍ، وباستِ بَنِي الخَزرَجِ
أطَعتُم أتاوِيَّ، مِن غَيرِكُم فلا مِن مُرادٍ، ولا مَذحِجِ
ألا أنِفٌ، يَبتَغِي غِرَّةً فيَقطَعَ، مِن أمَلِ المُرتَجِي؟

فقال رسول الله ﷺ، حين بلغه ذلك: «ألا آخِذٌ لي من ابنة مروان»؟ فسمع هذا عُمير بن عدي الخَطْمي الأوسي ﷺ، وهو عنده في مجلسه، فلما أمسى سرى عليها ليلًا في بيتها فقتلها، وكان ذلك لخمس بقِين من رمضان، ثم أصبح ولقي الرسول ﷺ قائلًا: يارسول الله، إني قد قتلتها. فقال: نصرتَ اللهَ ورسوله، يا عُمير. قال: هل عليّ من شيء، من شأنها؟ يارسول الله. فقال: «لا ينتطِح فيها عنزانِ».[٢] وهو ﷺ أول من قالها.

ثم رجع عُمير إلى قومه، وقد اضطرب أمرهم بمقتلها ولها بنون خمسة رجال، فقال: يا بَني خطْمة، أنا قتلت ابنة مروان. فكيدوني جميعًا ثم لا تُنظِرونِ.[٣] وبذلك ظهر عز الإسلام في بني خطْمة، فأظهر منهم من كان يخفي إيمانه، وآمن رجال منهم، لمّا رأوا عز الإيمان.

وقال حسان ﷺ منكرًا على عصماء ما أثارته من الفتنة، ومادحًا عُميرًا

---

(١) السيرة ٢: ٦٣٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٣. وفي أول البيت خَرم بسقوط حرف واحد. وروي: «فباستِ». والاست: الدبر. تشتمهم بفحش القول. ومالك والنبيت وعوف والحزرج: من الأنصار ﷺ. والأتاويّ: الغريب، منعته من الصرف للضرورة. ومراد ومذحج: قبيلتان. والأنف: الرافض للذل. والغرة: الغفلة للاغتيال.

(٢) أي: أن شأنها لا اختلاف فيه، ولا يكون لها طلب بثأر.

(٣) هذا تضمين للآية ٥٥ من سورة هود، قالها النبي هود ـ عليه السلام ـ لقومه الكافرين. وكيدوني أي: اجتهدوا في كيدي. ولا تنظرون أي: لا تؤخروني فيما تستطيعون من الكيد.

بنخوته، وإقدامه على قتلها بين قومها، دون أن يكون عليه في ذلك حَرَج:[١]

مَتَى ما دَعَت، سَفَهًا، وَيحَها بِعَولَتِها، والمَنايا تَجِي
فهَزَّت فَتًى، ما جِدًا عِرقُهُ كَرِيمُ المَداخِلِ والمَخرَجِ
فضَرَّجَها، مِن نَجِيعِ الدِّماءِ، بعدَ الهُدُوِّ، فلَم يَحرَجِ

١٢- غزوة بني المُصطلِق:[٢] عُرف هؤلاء القوم بالأحابيش وليسوا من الحَبشة، وهم خُزاعيون من بني عمرِو مزيقياءَ بن عامرٍ ماء السماء من القحطانية، حلفاء لبني مُدلج، وكانوا مع قريش في غزوة أُحد.

وفي شهر شعبان من السنة الخامسة، تجمعوا مع من قدروا عليه من العرب بقيادة الحارث بن أبي ضرار، يريدون غزو المدينة المشرفة بمن فيها وحرب رسول الله. ولما بلغ النبيَّ ﷺ خبرهم بعث من جاءه بحقيقة الأمر، فخرج إليهم بجيش من الصحابة ﭬ ٣٠ فارسًا، ومعه كثير من المنافقين، فلقي جاسوسًا لهم يتحسس أخبار المسلمين، وطلب منه إعلامه بأخبار قومه فأبى أن يجيبه بذلك فأمر بقتله، ثم سار حتى لقيهم على ماء المُرَيسيع بناحية قُديد من الساحل، وراية المهاجرين بيد أبي بكر ﭬ وراية الأنصار بيد سعد

(١) السيرة ٢: ٦٣٧. والعولة: الصرخة الشنيعة. أراد بها ما قالت من الشعر. والمنايا: جمع المنية. وتجي: تجيء. وهي لغة لبعض العرب بحذف الهمزة، يقولون: جا يَجي. وكريم: خبر لمبتدأ محذوف على القطع للمدح، والتقدير: هو. والنجيع: الشديد الحمرة. والهدوّ: الهدوء، أي: ساعة من الليل، أبدلت الهمزة واوًا وأدغمت فيها الواو الأولى. ولم يحرج أي: لم يأثم أو يلمه أحد.

(٢) الأحاديث: ٣٩٠٧ و ٣٩٠٨ في البخاري و ١٤٣٨ في مسلم والسيرة ٢: ٢٨٩ - ٢٩٦ وتاريخ الطبري ٢: ٦٠٤ - ٦١٠ والروض الأنف ٤: ٦ والكامل ٢: ١٩٢ - ١٩٤وزاد المعاد ٣ ٢٥٦ - ٢٦٨ والطبقات ٢: ٦٣- ٦٥ والبداية والنهاية ٣: ٢٩٧ - ٣٠٣ وعيون الأثر ٢: ٩١ وشرح المواهب ٢: ٩٥ - ١٠٢ ومعجم البلدان ٥: ١١٨.

ابن عُبادة ﷺ، وقد بلغ العدوَّ مقتل جاسوسهم واستعداد المسلمين لهم فأصابهم الذعر الشديد.

ولما تقابل الجيشان خاطب عُمر ﷺ الأعداء بأن يقولوا: «لا إله إلّا الله»، ليمنعوا أنفسهم وأموالهم، فلم يستجيبوا له. وإذ ذاك تراموا بالسهام ساعة ثم تزاحفوا، وكانت حرب بينهم عنيفة، قُتل فيها كثير من المشركين، ثم ولّوا هاربين مع قائدهم، تاركين أموالهم والنساء والأبناء غنائم للمسلمين، وهم يطاردونهم بالقتل والأسر للكثير منهم. وأصاب أنصاريٌّ في المعركة أحدَ المسلمين، هشامَ بن صُبابة ﷺ، وهو يظنه من الأعداء فقتله خطأً.

أما الغنائم - وهي ٢٠٠٠ بعير و٥٠٠٠ شاة - فوُزِّعت على المجاهدين مع ٢٠٠ أهل بيت من السبايا، وكان فيها جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فوقعت في نصيب ثابت بن قيس، فكاتبته على أن تفتدي نفسها، ثم جاءت النبيَّ ﷺ تستعينه على دفع ما كاتبت عليه.

قال لها: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ يا رسول الله. قال: أقضي كتابتك وأتزوّجك. قالت: نعم. يا رسول الله. فكان ما قالت، ولمّا علم الناس الخبر قالوا عن السبايا والذراري: «أصهارُ رسول الله». فأعتقوا أكثر من مِائَة بيت من بني المُصطلِق. فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وفي تلك الإقامة بالمُريسيع، ازدحم على الماء أجيرٌ من بني غِفار وحليفٌ لبني الخزرج، فاستغاث الثاني بالأنصار والأول بالمهاجرين، وكادت تكون فتنةٌ. وقد استغل ذلك رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ، وقال لرهطه: أوَقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، كما قال الأول: سمِّن كلبَك يأكلْكَ. أما واللهِ، لئن رجَعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. هذا ما فعلتم بأنفسكم. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم. واللهِ، لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

ولما علم رسول الله ﷺ بما كان أمر بالرحيل تتمة النهار وكلَّ الليل وأول النهار التالي، ليقطع بوادر الفتنة، حتى آذتهم الشمس، فأمر الناسَ بالنزول، وسقطوا على الأرض نيامًا. ثم جاء ابن أُبيّ يحلف أنه ماقال ذلك، فنزل من الوحي ما يصف أحوال المنافقين ويكذّبه: ﴿إذا جاءكَ المُنافِقُونَ... هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا تُنفِقُوا على مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ، حَتَّى يَنفَضُّوا... يَقُولُون: «لَئن رَجَعْنا إِلَى المَدِينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ مِنها الأذَلَّ». وللهِ العِزّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلمُؤمِنينَ، ولكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعلَمُونَ﴾.(١)

وفي طريق العودة حصل افتراء الإفك الخبيث، وقال أصحابه ما قالوا، وكان من شأنه ما كان، ثم جاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة بفداء ابنته جُوَيرية، ولمّا رأى من رسول الله ما أعجبه أسلم، ودفع الدِّية وتسلّم ابنته، ثم خطبها رسولُ الله ﷺ وأصدقها ٤٠٠ درهم.

وقدِمَ مِقيس بن صُبابة من مكة إلى المدينة مدعيًا أنه أسلمَ، ليطالب بدِية أخيه، وبعد أن تسلّمها عدا على قاتل أخيه فقتله، وهرب إلى مكة مرتدًّا، وهو يقول:(٢)

وكانَت هُمُومُ النَّفسِ، مِن قَبلِ قَتلِهِ، ... تُلِمُّ، فتَحمِينِي وِطاءَ المَضاجِعِ
حَلَلتُ بِهِ نَذرِي، وأدرَكتُ ثُؤرتي ... وكُنتُ، إلَى الأصنامِ، أوَّلَ راجِعِ

وقال يفتخر بغدره:(٣)

---

(١) الآيات ١ ـ ٨ من سورة المنافقون.

(٢) السيرة ٢: ٢٩٣ وتاريخ الطبري ٢: ٦٠٩ والكامل ٢: ١٩٤. وتلم: تزور وتحلّ. وتحمي: تمنع. والوطاء: اللينة، جمع وطيئة. والوتر: طلب الثأر.

(٣) السيرة ٢: ٢٩٤ وتاريخ الطبري ٢: ٦٠٩. وباءت: أخذت بالثأر. والوشل: القطر. وناقع الجوف: الدم. والأسرة: جمع سِرار، التكسر والتثني.

جَلَّلْتُهُ ضَربةً، باءت، لَهـا وَشَـلٌ مِن ناقِعِ الجَـوفِ، يَعـلُوهُ ويَنـصَرِمُ
فقُلتُ، والـمَوتُ تَغشاهُ أَسِرَّتُـهُ: لا تـأمَنَنَّ بَـنِي بَكـرٍ، إذا ظُلِمُـوا

١٣ ـ سرية ابن أُنَيس:(١) جمع خالد بن سفيان الهُذلي بعض قومه، ليغزو المدينة المنورة ويقتل النبي ﷺ، في محرّم من السنة السادسة، فدعا رسول الله عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه، وقال له: قد بلغني أن ابنَ سفيانَ بنِ نُبيح الهُذلي يجمع الناس ليغزوَني. وهو بنخلة أو بعُرَنة. فائته فاقتله. قال: يارسول الله، انعتْه لي حتى أعرفه. قال: إنك إذا رأيته أذكرَكَ الشيطانَ، وآية ما بينَك وبينه أنك إذا رأيته وجدتَ له قُشَعْريرة.

ذهب ابن أُنيس رضي الله عنه إلى حيث لقي ابن سفيان هذا، وزعم له أنه أتى ليحارب معه النبيَّ، فيما يجمع من الناس حوله، ثم شدّ عليه بالسيف فقتله ونجا بنفسه، وقال في ذلك يصف النساء حوله، وما خاطبه به حينذاك، من الإيمان والتضحية والفداء:(٢)

تَركتُ ابنَ ثَورٍ كالحُوارِ، وحَولَهُ نَـوائحُ، تَفـرِي كُلَّ جَيـبٍ مُقَدَّدِ
أَقُولُ لَـهُ، والسَّيفُ يَعجُـمُ رأسَهُ: أنـا ابنُ أُنَيسٍ، فـارِسًا غَيرَ قُعـدُدِ
وقُلتُ لَهُ: خُذْها بضَربـةِ ماجِـدٍ، حَنِيفٍ، علَى دِيـنِ النَّبـيِّ مُحَمَّـدِ
وكُنـتُ إذا هَـمَّ النَّبِـيُّ بكـافِـرٍ سَبَقتُ إلَيـهِ، بـاللِّسـانِ وبـاليَـدِ

ولمّا رجع إلى المدينة أهداه النبي ﷺ عصًا، وأعلمه أنها آية له، وطلب منه أن يلقاه بها يوم القيامة، فجعلها الصحابي مع سيفه، ولم تزل كذلك حتى مات رضي الله عنه. وكان طلب من أهله أن تُضمّ في كفنه.

---

(١) السيرة ٢: ٦١٩ ـ ٦٢١ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٦ والطبقات ٢: ٥٠ ـ ٥١ وزاد المعاد ٣: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ والإصابة ٤: ١٦.

(٢) السيرة ٢: ٦٢٠ ـ ٦٢١. والحوار: ولد الناقة. ويعجم: يعض ويفري. والقعدد: اللئيم يخفي نسبه. والماجد: الشريف. والحنيف: من ترك الشرك إلى التوحيد.

١٤ - سرية ضَريّة:[١] كان بعض الغادرين ببئر معونة قد لزموا العداوة، فأسرى النبي ﷺ جماعة من فرسان الأنصار، بقيادة محمد بن مسلمة الأوسي الحارثي رضي الله عنه، في محرَّم من السنة السادسة أيضًا إليهم بناحية ضَرِيّة - وهم القُرَطاء[٢] من بني بكر بن كلاب العامريين - فأغاروا عليهم وغنموا ١٥٠ بعيرًا و٣٠٠٠ شاة، وأسروا رجلًا لايعرفون: من هو؟ ولما رجَعوا إلى المدينة ربطه النبي ﷺ إلى سارية بالمسجد، وأعلمهم أن أسيرهم ثُمامة بن أُثال الحنفي، وأمرهم أن يُحسنوا إليه.

ثم صار يَعرض عليه الإسلام قائلًا: ما عندك؟ ياثُمامة. فيجيبه قائلًا: إن تقتلْ تقتلْ ذا دم، وإن تُنعمْ تُنعمْ على شاكر، وإن كنت تُريد الفداء فسل تُعطَ منه ما شئت. كان هذا القول بينهما ثلاث مرات، فقال: أطلقوا ثُمامة.

ولما أُطلق سراحه ذهب إلى البَقيع، فتطهّر ورجع إلى النبي ﷺ ليعلن إسلامه ويبايعه. ثم دخل مكة معتمرًا يلبّي تلبية المسلمين متحديًا قريشًا، فقالوا: أصَبَوتَ؟ يا ثُمامُ. فقال: لا، ولكني اتّبعت خير الدين، دينَ محمد. ولا والله لا تصل إليكم حبّة حِنطة من اليمامة حتى يأذن رسول الله. وأرادوا قتله فخافوا غضب بني حَنيفة في اليمامة. وفي هذا قال أحد الشعراء:[٣]

ومِنّـا الَّـذِي لَبَّـى بـمَكّـةَ، مُعـلِـنًا   بـرَغـمِ أَبِي سُفيانَ، في الأشهُرِ الحُرُمِ

ولمّا رجع إلى دياره منع أن يُحمل إلى أهل مكة شيء، فكتبوا إلى النبي ﷺ: «إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء

---

(١) السيرة ٢: ٦٣٨ - ٦٣٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٦ والطبقات ٢: ٧٨ وزاد المعاد ٣: ٢٧٧.

(٢) والقرطاء: قُراط وقُرَيط وقَرِيط، بطون من بني كلاب.

(٣) السيرة ٢: ٦٣٩.

بالسيف والأبناء بالجوع». فكتب النبي العظيم إلى ثُمامة أن يخلّي بينهم وبين ما يُحمل من التجارات.

١٥ ـ سرية الصِّدِّيق:(١) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه مع بعض الصحابة رضي الله عنهم، في ربيع الأول من السنة السادسة، لاتّباع بني لِحيان من هُذيل ـ وهم الذين غدروا بأصحاب الرَّجيع، وباعوا بعضهم قريشًا لتقتلهم ـ فكانت متابعة ومطاردة.

١٦ ـ سرية القُرَطاء:(٢) في ربيع الأول من السنة السادسة أيضًا، بعث النبي ﷺ محمدَ بن مَسلمة الأوسي الحارثي رضي الله عنه مع ١٠ فرسان، إلى القُرَطاء من هوازن بذي القَصّة، فلقي ١٠٠ رجل من بني ثعلبة بن سعد وبني عُوال، وكمن لهم الأعداء حتى ناموا، وانقضوا عليهم فاستُشهد أفراد السريّة. أما ابن سلمة رضي الله عنه فأُصيب بجراح، وسقط في الأرض مثخنًا بها. ولمّا انصرف الأعراب حمله رجل من المسلمين إلى المدينة المشرّفة.

١٧ ـ سرية الغَمرة:(٣) وهي كتيبة من ٤٠ رجلًا، أسرى النبي ﷺ بها عُكّاشة بن مِحصن رضي الله عنه إلى غمرة مرزوق على ليلتين من فَيد، في ربيع الآخِر من السنة السادسة. ولمّا علم بها الأعراب المحتشدون هربوا من ديارهم، فأرسل عُكّاشة طلائع أصحابه، فرأوا ربيئة القوم ودلّهم على النعم، فاستاقوها وهي ٢٠٠ بعير.

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٧٦..

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٦٤١ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٧ وزاد المعاد ٣ ٢٨١ والسيرة ٢: ٦١٢ والطبقات ٢: ٨٥ وشرح المواهب ٢: ١٥٤ ومعجم البلدان ٤: ٣٦٦. وانظر الصفحة الماضية.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٦٤٠ والسيرة ٢: ٦١٢ وزاد المعاد ٣: ٢٨٠ والطبقات ٢: ٨٤ ـ ٨٥ والكامل ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٧ وشرح المواهب ٢: ١٥٣ ـ ١٥٤.

١٨ ـ سرية أبي عُبيدة:[(١)] في ربيع الآخِر أيضًا من تلك السنة، أجمع بنو مُحارب وثعلبة وأنمار يريدون أن يُغيروا على المدينة، فأسرى رسول الله ﷺ أبا عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه في ٤٠ رجلًا من الصحابة رضي الله عنهم إلى ذي القَصّة، للقاء هؤلاء والنيل ممن قتلوا أصحاب محمد بن مَسلمة، فساروا في الليل مُشاة.

وعندما صبّحوا الأعداء هرب هؤلاء في الجبال، تاركين النعم والشياه وسقْطَ المتاعِ، فأخذها المسلمون غنيمة، وصادفوا رجلًا واحدًا منهم أسلم، فلم يعاقبه الرسول ﷺ، ثم بعث النبيُّ الكريم أبا عُبيدة رضي الله عنه أيضًا إليهم ثانية بجيش من الصحابة، وأغار عليهم قبل أن يتهيؤوا للقاء، فهربوا وأعجزوه في الهرب، واستاق لهم نعمًا.

١٩ ـ سرية الجَموم:[(٢)] بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه مع ٤٠ من الصحابة رضي الله عنهم في ربيع الآخِر أيضًا من السنة السادسة، لقتال بني سُليم في الجَموم، فرأوا امرأة من مُزينة اسمها حَليمة، دلّتهم على منازل القوم. ولقد فاجؤوهم بالغارة فهربوا، وأصابوا منهم نَعَمًا وشاء وأسرى، فيهم زوج حَليمة، فأطلقه الرسول العظيم مع زوجته، فقال بلال بن الحارث رضي الله عنه في ذلك:[(٣)]

لَعَمرُكَ، ما أخنَى المَسُولُ، ولا وَنَت ... حَلِيمةُ، حَتَّى راحَ رَكبُهُما، مَعا

٢٠ ـ سرية الطَّرَف:[(٤)] أرسل النبي الكريم زيد بن حارثة رضي الله عنه أيضًا في

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٦٤١ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٧ وزاد المعاد ٣: ٢٨١ والكامل ٢: ٢٠٧ وشرح المواهب ٢: ١٥٤ ـ ١٥٥ والطبقات ٢: ٨٦ والسيرة ٢: ٦٠٩. وفي الحديث ٣٩٠٩ من البخاري أن للنبي غزوة إلى أنمار أيضًا.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٦٤١ وزاد المعاد ٣: ٢٨١ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٧ وشرح المواهب ٢: ١٥٥ والسيرة ٢: ٦١٢ والطبقات ٢: ٨٦ والكامل ٢: ٢٠٧.

(٣) الطبقات ٢: ٨٦. وأخنى: أساء. والمسول: المسؤول. وهو زوج حليمة. وونت: قصّرت.

(٤) الكامل ٣: ٢٠٧ وزاد المعاد ٣: ٢٨١ والطبقات ٢: ٨٧ والكامل ٢: ٢٠٧ وشرح المواهب ٢: ١٥٨.

جُمادى الآخِرة من هذا العام إلى الطَّرَف، ماء قريب من النُّخيل، مع ١٥ صحابيًّا ﷺ، للقاء بني ثعلبة، فخاف هؤلاء أن يكون النبي ﷺ هو الذي سار إليهم وهربوا، وغنم المجاهدون ٢٠ بعيرًا وشياهًا، وعادوا إلى المدينة بعد ٤ ليال دون قتال، وكان شعارهم حينذاك: أمِتْ أمِتْ.

٢١ ـ سرية حِسمَى:(١) قدِم رِفاعة بن زيد الجُذامي ﷺ على رسول الله ﷺ في هِدنة الحُديبية، مبايعًا ومعلنًا إسلامه مع هدايا فيها غلام أيضًا. ثم حمل كتابًا إلى قومه من الرسول فأسلموا.

وكان قبل ذلك دِحيةُ بن خليفة الكلبيُّ مبعوثـًا برسالة من النبي ﷺ إلى قيصر الروم بحمص، فرجع مِن عنده بمال وهدايا وافرة. وفي طريق عودته إلى دياره أغار عليه الهُنيد وابنه عُوص الضُّلَيعيان من جُذام بوادي شَنار في حِسمَى بين مَديَن وتَبوك، فقطعوا عليه الطريق، ولم يتركوا معه شيئًا.

ولمّا علم بذلك قوم رِفاعة ـ وهم من أتباع قيصر في شمالي الجزيرة وقد أسلموا ـ نفروا إلى الهُنيد وابنه، وقاتلوهما حتى استنقذوا منهما كل شيء أُخذ من دِحية، وردوّه إليه، فرجع هذا إلى دياره، في جُمادى الآخِرة من السنة السادسة. وقبْلَ أن يدخل بيته شكا أمره إلى رسول الله ﷺ، فأسرى زيدَ بن حارثة ﷺ في ٥٠٠ رجل إلى ديار جُذام بحِسمَى، وكان قد نفر مع العدوّ بنو وائل وغطَفان ومن كان من سلامانَ وسعد بن هُذيم، ونزلوا في الحَرّة حَرّة الرجلاء.

أغار جيش المسلمين بالفَضافض على بني ضُليعة ومن معهم، وقَتلوا

(١) قيل: إنها كانت سنة سبع. انظر السيرة ٢: ٦١٢ ـ ٦١٦ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٧ والكامل ٢: ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وتاريخ الطبري ٢: ٦٤١ ـ ٦٤٢ و ٣: ١٤٠ ـ ١٤٣ وزاد المعاد ٣: ٢٨٤ والطبقات ٢: ٨٨ و ٤: ٢٤٩ ـ ٢٥١ والكامل ٢: ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وشرح المواهب ٢: ١٥٨ والإصابة ٢: ٣٨٤ ـ ٣٨٦ و٤٩٠ ـ ٤٩١ والاستيعاب ص٤٦١ ـ ٤٦٢ و٥٠٠ وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١٢: ٣٤٧ ـ ٣٥٤.

الهنيدَ وابنه عوصًا وآخرين، وأخذوا ما تيسر من السبي والمال، فكان في ذلك ١٠٠٠ بعير و٥٠٠٠ شاة و١٠٠ من النساء والذراري. وهنالك قام رِفاعة بن زيد يشدّ رحل جمله ويردّد:

هـل أنـتَ حـيٌّ، أو تُنـادِي حَـيّـا؟

وسار مع قومه ليُعلموا زيدًا أن الذين أغار عليهم مسلمون، ويطلبوا منه ردّ ما غنم، فتوقف في الحكم في الغنائم والسبي حتى بلغ الأمرُ رسول الله ﷺ وكان الاتفاق في المدينة أن من قُتل لا يطالَب به، وتُردّ الغنائم والسبايا. ومن ثَمّ سار علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيهم إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومعه سيف الرسول العظيم آية، فردّ عليهم جميع ما أخذ من المال والنساء.

وفي هذا قال أبو جِعال:[١]

وعـاذِلـةٍ، ولَـم تَعـذِل بِطـبٍّ ... ولَـولا نَحـنُ حُـشَّ بـهـا الـسَّعِيرُ
تُـدافِعُ، فـي الأسـارَى، بابنَتَيـها ... ولا يُـرجَى لَهـا عِتـقٌ يَـسِيـرُ
غَـداةَ تَـرَى الـمُـجَرَّب مُـستَكِينًا ... خِـلافَ القَـومِ، هامتُـهُ تَـدُورُ

٢٢ ـ غزوة ذِي قَرَد:[٢] في جُمادى الآخِرة من السنة السادسة أيضًا، أغار عُيينة بن حِصن الفَزاري، ومعه ٤٠ فارسًا من غطفان، على أبل ولِقاح لرسول الله ﷺ بالغابة قربَ المدينة، ومعها راعٍ غِفاريٌّ وزوجته ليلى رضي الله عنها،

---

(١) السيرة ٢: ٦١٦. والطب: الرفق واللين. وحش: أُوقد. والأساري: جمع أسرى. والأسرى: جمع أسير. والمجرب: الخبير بالحروب. وخلافهم: وراءهم.

(٢) الحديث ٣٩٥٨ في البخاري والسيرة ٢: ٢٨١ ـ ٢٨٩ وتاريخ الطبري ٢: ٥٩٥ ـ ٦٠٤ والكامل ٢: ١٨٨ ـ ١٩١ والطبقات الكبرى ٢: ٨٠ ـ ٨٤ ومعجم البلدان ٤: ٣٢١ ـ ٣٢٢ ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ١: ١٨٥. وقيل: إنها كانت في ذي الحجة بعد الحديبية. زاد المعاد ٣: ٢٧٨ ـ ٢٨٠ وعيون الأثر ٢: ٨٤ والبداية والنهاية ٣: ٢٨٦ ـ ٢٩٨ وشرح المواهب ٢: ١٤٨ ـ ١٥٣. واللقاح: النوق الحوامل، جمع لِقحة.

فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة هاربين.

كان أولَ صحابي علم بذلك سلمة بن عمرِو بنِ الأكوع رضي الله عنه، علم ذلك من غلام لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فصرخ: «واصَباحاهْ» ثلاثًا، وجرى يتابع المُغيرين على رجليه يطاردهم بالنَّبل، وهو يرتجز:[1]

خُـذْها، وانـا ابـنُ الأكـوَعِ   والـيَـومُ يَـومُ الـرُّضَّـعِ

وهم يتميّزون من الغيظ، ويقول قائلهم بعجب: أُوَيكِعُنا هو أوّلَ النهار!

كان يريد أن يَشغلهم عن الهرب حتى يحضر فرسان المسلمين. فهو يرميهم ويقتل منهم ويعقر من خيلهم، فإذا توجهوا إليه انطلق أمامهم، وبين الجبال يرميهم بالحجارة. ثم جاءهم مدد بقيادة عُيينة بن حصن، وأرادوا أن ينزلوا في غار فيه ماء بذي قَرَد ليشربوا، فمنعهم سلمة رضي الله عنه من ذلك بنباله، واستطاع أن يُنقذ منهم أكثر ما سلبوا مع ٣٠ بُردة، وهو يتابعهم بالرمي.

وقد حاول أربعة منهم أن يطاردوه، فقال لهم: أتعرفوني؟ قالوا: من أنتَ؟ قال: سلمةُ بن الأكوع. والذي كرّم وجهَ محمد، لا أطلب أحدًا منكم إلّا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركَني. فرجعوا هاربين، وبقي يلازم الغُزاة في مطاردتهم. ولمّا بلغ النبيَّ ﷺ صراخُ ابن الأكوع نادى في المدينة: «الفزعَ الفزعَ. ياخيلَ الله، اركبي»، وخرج مقنّعًا بالحديد لملاحقة المعتدين فترامت الفرسان إليه، وجعل عليهم سعد بن زيد رضي الله عنه، وقال له: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس.

---

(١) قد يروى هذا الرجز على أنه نثر. انظر الحديث ٣٩٥٨ من البخاري والسيرة ٢: ٢٨١ - ٢٨٢ وتاريخ الطبري ٢: ٥٩٩ و ٦٠١ والطبقات ٢: ٨١ و ٨٣ وزاد المعاد ٣: ٢٧٨. وحذف همزة «أنا» للتخفيف. والرضع: جمع راضع. وهو اللئيم. يعني أن ذلك اليوم هو يوم هلاك اللؤماء.

تلاحقت ٥٠٠ من الفرسان رضي الله عنهم في أثر الغُزاة، حتى وصلت إلى ابن الأكوع في مطاردته، فكان أولَ من أدركهم مُحرز بن نضلة رضي الله عنه، وهو يخاطبهم: قِفوا - يا معشر بني اللَّكيعة -[1] حتى يلحق بكم مَن وراءكم من أدباركم، من المهاجرين والأنصار.

فحمل عليه منهم مَن قتله. ثم وصل جيش المسلمين بقيادة النبي ﷺ وكانت المعركة في مطاردة للمعتدين، واستُشهد أيضًا وقّاص بن مجزِّز المُدلجي رضي الله عنه، وقُتل بعض المشركين، وكان منهم اثنان على بعير واحد، انتظمهما عُكّاشة بن مِحصن رضي الله عنه برمحه.

استمرت المطاردة والمعتدون يهربون، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى جبل ذي قَرَدة، وتلاحق به الصحابة، وقد استنقذوا ١٠ من اللقاح أيضًا، مع ما استنقذه سلمة منها ومن أحمالهم أي: ٣٠ رمحًا و٣٠ بردة، ونجا الهاربون بالباقي. فنزل جيش المسلمين في الجبل، وأقام القائد العظيم عليه يومًا وليلة، ينتظر عودة الهاربين للقاء. ولكنهم لبثوا في النجاة حتى دخلوا ديار غطَفان، فقسم الرسول ﷺ الغنائم بين المجاهدين.

وبعد أن استقر في ذي قَرَد، قال ابن الأكوع: يارسول الله، خلِّني فأنتخبَ مِائَةَ رجل من القوم، فأتَّبعَ القومَ فلا يبقى منهم عين. فضحك الرسول ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، ثم قال: أكنتَ فاعلًا؟ قال: إي والذي أكرمكَ. قال رسول الله ﷺ: إنهم ليُقرَون بأرض غطَفان.[2]

ثم استطاعت ليلى زوجة الراعي الغِفاري رضي الله عنهما أن تهرب من الغُزاة، على ناقة مما سلبوا، ولما وصلت إلى جماعة المسلمين قالت: يارسول الله،

---

(١) اللكيعة: اللئيمة.

(٢) يعني أنهم صاروا في تلك الديار، ولا يمكن متابعتهم بلا استعداد.

إني نذرتُ لله أن أنحرها إن نجّاني الله عليها. فتبسم وقال: بئس ما جَزَيتِها، أن حملكِ الله عليها ونجّاك بها، ثم تنحرينها! إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملِكين. إنما هي ناقة من إبلي.

وافتخر حسان ﷺ في قصيدة، بما كان من بطولة الصحابة، ساخرًا من فزع الهاربين وحسرتهم أمام السيوف التي تفلق الحديد والرؤوس، وقد قطع الله عليهم سبل الفوز، فكانوا جبناء كالعبيد الأذلّاء:(١)

هَــل سَــرَّ أولادَ اللَّقِيطَــةِ أَنَّنــا ... سِلــمٌ، غَـداةَ فَـوارِسِ المِقــدادِ
وسُيُوفُنا بِيضُ الـحَدائِدِ، تَجتَلِـي ... جُنَنَ الـحَدِيـدِ، وهـامةَ الـمُرتـادِ؟
أخَــذَ الإلهُ عـلَيــهِمُ، لِحَرامِــهِ ... ولِعِـزّةِ الرَّحـمـنِ، بـالأسـدادِ
كـانُوا بِـدارٍ نـاعِمِيـنَ، فـبُدِّلُوا، ... أيّـامَ ذِي قَـرَدٍ، وُجُـوهَ عِبـادِ

ولكنه أخطأ حين جعل القيادة للمقداد بن الأسود الزُّهري ﷺ، فغضب سعد بن زيد ﷺ لتجاهله، وقال: انطلَقَ إلى خيلي وفوارسي فجعلها للمِقداد. فاعتذر إليه حسان وقال: والله، ما ذاك أردتُ، ولكن الرويَّ وافق اسم المِقداد. ثم ارتجز ما يرضي سعدًا:

إذا أَرَدتُــمُ الأشَــدَّ الـجَلــدا، ... أو ذا غَنــاءٍ، فـعَلَيــكُم سَعــدا
سَعـدَ بـنَ زَيـدٍ، لا يُهَدُّ هَـدّا

فلم يقبل منه سعد ولم يُغنِ شيئًا.

وأنكر كعب مالك ﷺ على الغُزاة أن يظنّوا العجزَ في المسلمين،

---

(١) ديوانه ص ١٦٤ ـ ١٦٧ والسيرة ٢: ٢٨٦ ـ ٢٨٧ والطبقات ٢: ٨١. واللقيطة: التي لا يعرف نسبها. وسلم أي: مسالمون لا نحارب. والغداة: الصباح. وتجتلي: تقطع. والجنن: السلاح يحمي الفرسان، جمع جُنة. والهامة: الرأس. والمرتاد: من يطلب الحرب. والحرام: الحُرمة والحماية. والأسداد: جمع سدّ. والعباد: جمع عبد.

وأمرهم أن يكونوا صادقين فيما يخبِرون عن اللقاء، ويعترفوا بالهزيمة للنجاة من الهلاك المؤكد:[1]

أيَحسَبُ أولادُ اللَّقِيطةِ أنَّنا، على الخَيلِ، لَسنا مِثلَهُم، في الفَوارِسِ
إذا ما خَرَجتُم فاصدُقُوا مَن لَقِيتُمُ ولا تَكتُمُوا أخبارَكُم، في المَجالِسِ
وقُولُوا: زَلَلنا، عَن مَخالِب خادِرٍ بِهِ وَحَرٌ، في الصَّدرِ، ما لَم يُمارِسِ

وخاطب شدّادُ بن عارض الجُشمي رضي الله عنه عُيينةَ بن حِصن، يتهكم به ويوبخه على الهرب، حين رأى المؤمنين المجاهدين، الذين يطاردون الكُماة ولا يهربون:[2]

فهَلّا كَرَرتَ، أبا مالِكٍ، وخَيلُكَ، مُدبِرةً، تُقتَلُ؟
فلَمّا عَرَفتُم عِبادَ الإلهِ لَم يَنظُرِ الآخِرَ الأوَّلُ
عَرَفتُمْ فَوارِسَ، قَد عُوِّدُوا طِرادَ الكُماةِ، إذا أسهَلُوا
إذا طَرَدُوا الخَيلَ تَشقَى بِهِم فِضاحًا، وإن يُطرَدُوا يَنزِلُوا

٢٣ - سرية علقمة بن مجزِّز:[3] لمّا قُتل وقّاص بن مجزِّز المدلجي سأل أخوه علقمة رضي الله عنهما رسول الله ﷺ أن يبعثه في آثار المعتدين، ليدرك ثأره فيهم، فبعثه مع جيش من الصحابة رضي الله عنهم، في جُمادى الآخِرة كذلك، ولكنه لم يستطع إدراك ثأره.

وفي بعض الطريق، أرسل علقمة جماعة من جيشه بقيادة عبد الله بن

---

(١) ديوانه ص ٢١٧ - ٢١٨ والسيرة ٢: ٢٨٧ - ٢٨٨. وزللنا: انزلقنا وهربنا. والخادر: الأسد يلزم أجمته ويحميها. والوحر: الغضب والحقد. ويمارس أي: ينازل عدوه.

(٢) السيرة ٢: ٢٨٨ - ٢٨٩. والكماة: جمع كميّ. وهو الشجاع. وأسهل: نزل في السهل ولم يختف بين الجبال. والفضاح: المفاضحة والمكاشفة بالعمل. وينزلوا أي: لا يهربوا.

(٣) السيرة ٢: ٦٣٩ - ٦٤٠ والإصابة ٤: ٥٦٠.

أبي حُذافة - رضي الله عنه وكان مشهورًا بالدُّعابة - فأوقد نارًا وقال لأصحابه: أليس لي عليكم السمعُ والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: أفما أنا آمُرُكم بشيء إلّا فعلتموه؟ قالوا: نعم. قال: فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلّا تواثبتم في هذه النار. فقام بعضهم يحاول ذلك، فقال لهم: اجلسوا. فإنما كنت أضحك معكم. فلما رجعوا من سريتهم إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: من أمركم بمعصية منهم فلا تُطيعوه.

٢٤ - سرية وادي القُرى:(١) تجمّع بعض المشركين والنصارى من مَذحِج وقُضاعة وأفناء مُضر، في وادي القُرى لحرب المسلمين، فوجه النبي ﷺ إليهم سرية بقيادة زيد بن حارثة في شهر رجبٍ من السنة السادسة، وتفرق الأعداء هاربين دون حرب.

٢٥ - سرية فَدَك:(٢) بلغ النبيَّ ﷺ أن قومًا من بني عبد الله بن سعد بن بكر قد تجمّعوا في فدَك، لإمداد يهودِ خيبر، فبعث عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه مع ١٠٠ من الصحابة رضي الله عنهم في شعبانِ سنةِ ست، وساروا الليل وكمنوا في النهار.

لقُوا هناك جاسوسًا منهم، أمّنوه وأخبرهم أنه مبعوث إلى خيبر، يعرض عليهم النصر مقابل أن يجعلوا ثمر خيبر لبني سعد. وبذلك قُطع الطريق على معونة بني سعد ليهود خيبر، ولم يلق عليٌّ حربًا، ولكنه أغار على القوم فهربوا بالنساء مع رئيسهم وبَر بن عُليم، واستاق المسلمون ٢٠٠٠ شاة و٥٠٠ بعير.

٢٦ - سرية زيد بن حارثة:(٣) كان زيد رضي الله عنه مع بعض الصحابة في تجارة

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٧٧ - ٣٧٨ والكامل ٢: ٢٠٩ والطبقات ٢: ٨٩.

(٢) الكامل ٢: ٢٠٩ وتاريخ الطبري ٢: ٦٤٢ والسيرة ٢: ٦١١ - ٦١٢ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٨ والطبقات ٢: ٨٩ - ٩٠.

(٣) السيرة ٢: ٦٠٩ و٦١٨ - ٦١٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٨ وزاد المعاد ٣: ٢٨٥ - ٢٨٦=

إلى الشام، وأغار عليه بنو فَزارة بن بدر من غطفان بوادي القُرى، فاستُشهد بعض أصحابه ﷺ، وجُرح هو جراحًا بليغة حتى سقط بين القتلى. ولمّا رجع إلى المدينة، وشُفي من جراحه، أقسم ألّا يمس رأسَه غِسل حتى يغزو فَزارة.

بعثه رسول الله ﷺ بجيش إليهم في رمضانِ السنةِ السادسة، وقيل كان الجيش من الصحابة بإمرة أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ، فأغاروا على بني فَزارة بوادي القُرى بعد صلاة الصبح، وقتلوا منهم من قُتل، وساقوا النساء والذراري، بينهم العجوز أُمّ قِرفة وابنتها التي هي من أحسن العرب.

وقتل قيسُ بن المسحَّر اليعمريُّ ﷺ مَسعدةَ بن حَكَمة الفزاري، وقُتلت العجوز أيضًا، واستوهب النبي ﷺ ابنتها ممن صارت له في الغنيمة، وبعث بها إلى مكة، وفادى بها أُسارى كانوا في أيدي المشركين.

وقال قيس بن المسحَّر ﷺ في قتله مَسعدةَ:[1]

كَرَرتُ علَيهِ المُهرَ، لَمّا رأيتُهُ ... علَى بَطَلٍ، مِن آلِ بَدرٍ، مُغاوِرِ
فرَكَّبتُ فِيهِ قَعضَبِيًّا، كأنَّهُ ... شِهابٌ، بِمَعراةٍ، يُذَكّى لِناظِرِ

٢٧ ـ سرية كُرْز بن جابر:[2] جاء ٨ من بني عُرينة، في شوّال من هذه السنة إلى المدينة مَرضَى، وأذن لهم النبي ﷺ أن يستشفوا بألبان لِقاحه وأبوالها، فشربوا وتغذوا وصحُّوا وسمنوا، ثم ارتدّوا وقطعوا يدَيِ المولى

= والطبقات ٢: ٩٠ ـ ٩١ وشرح المواهب ٢: ١٧١ ـ ١٧٧ وتاريخ الطبري ٢: ٦٤٢ ـ ٦٤٣ والكامل ٢: ٢٠٩.

(١) السيرة ٢: ٦٠٩ و ٦١٧ ـ ٦١٨. والقعضبي: السنان المنسوب إلى قعضب، رجل كان يصنع الأسنّة الجياد. والمعراة: المكان المكشوف.

(٢) الحديثان ٣٩٥٦ و ٣٩٥٧ في البخاري وأنساب الأشراف ١: ٣٧٨ ـ ٣٧٩ والطبقات ٢: ٩٣ وزاد المعاد ٣: ٢٨٤ وشرح المواهب ٢: ١٦٢ ـ ١٦٣ والاستيعاب ص ١٣١٠ والإصابة ٥: ٥٨١ ـ ٥٨٢.

يسارًا ﵁ ورجليه وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات، واستاقوا الإبل هاربين، فبعث النبي ﷺ في أثرهم سرية بقيادة كُرز بن جابر ﵁، أحاطت بهم وأسرتهم جميعًا.

ولما رجع بهم إلى المدينة نزل الوحي بالحُكم الذي ينالونه هم وأمثالهم، وهو: ﴿إنّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ، ويَسعَونَ في الأرضِ فَسادًا، أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا، أو تُقَطَّعَ أيدِيهِم وأرجُلُهُم مِن خِلافٍ، أو يُنفَوا مِنَ الأرضِ. ذلِكَ لَهُم خِزيٌ في الدُّنيا، ولَهُم في الآخِرةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾.[1] فكان فيهم ما جاء به أمر الله، من الصلب والقتل والعذاب.

٢٨ ـ سرية عُمر بن الخطّاب:[2] احتشدت جموع من قبائل عَجُز هوازنَ في تُرَبة بقرب مكة، وهم بنو معاوية وسعد ومنبّه أبناءُ بكر بن هوازن، فأرسل النبي ﷺ إليهم ٣٠ راكبًا، سرية بقيادة عُمر بن الخطّاب ﵁ في شعبان من السنة السابعة. خرج ومعه دليل من بني هلال، ولم يلق كيدًا، لأنهم تفرقوا حين سمعوا بقدومه، فانصرف راجعًا لى المدينة من دون حرب.

٢٩ ـ سرية أبي بكر:[3] وجّهه ﵁ رسول الله ﷺ بها إلى ناحية ضريّة من نجد في ذلك التاريخ، وشن الغارة على الأعداء بني فَزارة وكِلاب من المشركين، وقتل منهم ورجع بالغنائم والسبايا نساءً وذراريَّ. ولقد كان في السبايا فتاة جميلة هي من نصيب سلمة بن الأكوع ﵁، استوهبها رسول الله منه، وبعث بها إلى مكة، فافتدى بها أسرى بعض المسلمين هناك.

---

(١) الآية ٣٣ من سورة المائدة. وروي أن قتلهم كان قبل نزول الحكم. انظر تفسير القرطبي ٦: ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩ وطبقات ٢: ١١٧ ومعجم البلدان ٢: ٢١.

(٣) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩ والطبقات ٢: ١١٧ ـ ١١٨وزاد المعاد ٣: ٣٥٩ والأحاديث: ١٧٥٥ في مسلم و ٢٦٩٧ في أبي داود والمسند ٤: ٤٦.

٣٠ - **سرية بشير بن سعد:**[١] أسراه ﷺ رسول الله ﷺ مع ٣٠ رجلًا إلى بني مُرّة من غطَفان بفَدَك، في شعبانِ السنة السابعة أيضًا، وهم في بَواديهم، فاستاق النعم والشاء. وإذ ذاك خرج الصريخ، فلحق القوم بالمجاهدين، وكان رميٌ بالنبال، أُصيب فيه أصحاب بشير ﷺ، ونال هو كثيرًا من الجراح حتى سقط بين القتلى، فظنه الناس قتيلًا، ثم تحامل حتى نزل عند بعض اليهود بفدك إلى أن شُفي.

٣١ - **سرية المَيفعة:**[٢] وجّه رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله في ١٣٠ رجلًا ﷺ، برمضانِ السنة السابعة إلى بني سعد بن ذُبيان وعُوال وعبد بن ثعلبة، في المَيفعة من نجد، فهجموا على القوم وقتلوا من قابلهم، واستاقوا النعم والشاء. قيل: وفي هذه السرية قَتل أُسامةُ بن زيد الرجل الذي قال: «لا إلهَ إلّا اللهُ». وسوف نفصّل ذلك في سرية بني مُرّة، إن شاء الله.

٣٢ - **سرية الجِناب:**[٣] بلغ رسولَ الله ﷺ في شوّالِ السنة السابعة أن جموع غطفان مع يُمن وجُبار قربَ الجِناب، واعدهم عُيينة بن حِصن ليزحفوا إلى المدينة، فأسرى بشيرَ بن سعد ﷺ في ٣٠٠ رجل، فلقُوهم وفضّوا جمعهم، ورجَعوا إلى المدينة المنورة بنعم كثير وأسيرينِ أسلما.

٣٣ - **سرية بني سُليم:**[٤] وَجّه النبي ﷺ ابنَ أبي العوجاء السُّلَميَّ مع ٥٠ صحابيًّا ﷺ، للقاء بني سُليم في ذي الحجّة من السنة السابعة، فدعاهم

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩ والسيرة ٢: ٦١٢ وزاد المعاد ٣: ٣٦٠ - ٣٦١ والطبقات ٢: ١١٨ - ١١٩.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩.

(٣) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩ والسيرة ٢: ٦١٢ والطبقات ٢: ١٢٠ وزاد المعاد ٣: ٣٦٠ و ٣٦٣ - ٣٦٤ وشرح المواهب ٣: ٢٥٢.

(٤) أنساب الأشراف ١: ٣٧٩ والسيرة ٢: ٦١٢ والطبقات ٢: ١٢٣.

إلى الإسلام. قالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا. ثم تراموا بالنبال، وتكاثر القوم على الصحابة حتى استُشهد عامّتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء رضي الله عنه بين القتلى، ونجا بنفسه جريحًا.

٣٤ ـ سرية غالب بن عبد الله:(١) أسرى النبي ﷺ غالبًا رضي الله عنه في صفرِ السنة الثامنة مع ٢٠٠ رجل، إلى جموع غطَفان الذين كانوا أصابوا سريّة بشير ابن سعد، وقال له: إن أظفرك الله بهم فلا تُبقِ منهم أحدًا. أغار هؤلاء رضي الله عنهم صباحًا على القوم، فقتلوا منهم وأصابوا نعمًا.

٣٥ ـ سرية شُجاع:(٢) بعث رسول الله ٢٤ رجلًا، بقيادة شجاع بن وهْب الأسدي رضي الله عنه في ربيع الأول من السنة الثامنة، لقتال بني عامر بن صعصعة بالسِّيّ، وأمره أن يُغير عليهم، فكان النصر لهم مع الغنيمة المباركة من نَعم وشاء.

٣٦ ـ سرية ذات أطلاح:(٣) أرسل النبي ﷺ كعب بن عُمير مع ١٥ رجلًا رضي الله عنهم إلى بعض قُضاعة وسيّدهم سدوس، بذات أطلاح من أرض الشام، في ربيع الأول من السنة الثامنة، يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه إلى ذلك. إذ ذاك هبّ سيّدهم يقاتل هو وقومه المسلمين حتى أجهزوا عليهم، ونجا منهم كعب بن عُمير رضي الله عنه، وتحامل بجراحه حتى رجَع إلى المدينة.

٣٧ ـ سرية عَمرِو بن العاص:(٤) بعث النبي ﷺ عمرَو بن العاص رضي الله عنه في رجبِ هذه السنةِ بسرية إلى الأزد في عُمان، وعليهم جَيفَر وعِياذ ابنا

---

(١) الطبقات ٢: ١٢٦.

(٢) تاريخ الطبري٣: ٧٠ ـ ٩٤ والكامل ٢: ٢٦١ ـ ٢٧٣ وأنساب الأشراف ١: ٣٦٤ ـ ٣٦٦ والطبقات ٢: ١٢٧.

(٣) الكامل ٢: ٢٧٢ ـ ٢٧٣ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٠ والسيرة ٢: ٦٢١ والطبقات ٢: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٩٥ وسبل الهدى والرشاد ١٢: ٣٦٧ وشرح الزرقاني ٣: ٣٥٢.

الجُلَندَى، فآمنا وصدّقا. وإذ ذاك جمع عمرٌو رضي الله عنه الصدقات من أغنيائهم، ووزّعها على فقرائهم. أما المجوس الذين هم أهل تلك البلاد فبقُوا على دينهم، ودفعوا الجزية إليه.

٣٨ - سرية الخَبَط:(١) أسرى النبي صلى الله عليه وسلم أبا عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه مع ٣٠٠ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم في رجبٍ من السنة الثامنة، للقاء بني جُهينة(٢) في ساحل البحر، وزوّدهم بجِراب من التمر، فكان يقتّر عليهم ليكفيهم، حتى أصبح أخيرًا يعدّ لهم عدًّا، وقد يقسم التمرة بين بعضهم.

ولمّا نَفِد ما في الجراب أكلوا الخَبَط ثلاثة أشهر، وابتاعوا جُزُرًا نحروها، ثم أدركوا ساحل البحر فرأوا حُوتًا ضخمًا ميتًا يقال له العَنبر، وأكلوه في حوالي ٢٠ يومًا، يغرفون من الشحم ويقدّدون. ومع هذا فإنهم لم يلقَوا حربًا، فعادوا إلى المدينة المشرَّفة وذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم ما كان لهم، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم. فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا؟ فقدموا بعض ذلك إلى النبي العظيم فأكله.

٣٩ - سرية مَدْيَن:(٣) بعث بها الرسول الكريم زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مَديَن بساحل البحر، ومع زيد صحابيان رضي الله عنهما، فرجعوا بسبي من النساء والأولاد. ولما أرادوا بيعهم مفرِّقين بين النساء وأبنائهن بكَوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما لهم؟ فقيل: يارسول الله، فُرِّق بينهم. فقال: لا تبيعوهم إلّا جميعًا.

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٨١ والكامل ٢: ٢٣٢ والسيرة ٢: ٦٣٢ - ٦٣٣وتاريخ الطبري ٣: ٣٢ - ٣٣ والكامل ٢: ٢٣٢. والخبط: ورق الشجر يخبط ويجفف ويطحن. وهو من علف الإبل.

(٢) في الأحاديث: ٤١٠٢ - ٤١٠٤ و ٢٣٥١ من البخاري و ١٩٣٥ من مسلم أن هذه السرية لرصد عير قريش.

(٣) السيرة ٢: ٦٣٥.

٤٠ ـ **سرية بني مُرّة:**[١] أرسلها النبي ﷺ بقيادة غالب بن عبد الله رضي الله عنه لقتال بني مُرّة الغطَفانيين، وكان فيهم حليف جُهني هو مِرداس بن نَهيك، فلحق به أسامة بن زيد وأنصاري آخر رضي الله عنهما، ولمّا رفعا السلاح عليه قال: «أشهد أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ»، فكفّ عنه الأنصاري، ولم يصدّقه فيما قال أسامة فقتله. وبعد العودة إلى المدينة أخبروا النبي ﷺ بما كان، فقال: يا أُسامةُ، من لك بـ «لا إلٰهَ إلّا اللهُ»؟ قال: إنما قالها تعوّذًا بها من القتل. قال: فهلّا شققتَ على قلبه. من لك بها يوم القيامة؟ يا أُسامة.

قال أسامة رضي الله عنه: ما زال يردّدها عليّ، حتى لودِدتُ أنّ ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني كنت أسلمتُ يومئذ، وأني لم أقتله. ثم قلت: أنظِرني، يا رسولَ الله. إني أُعاهد الله ألّا أقتلَ رجلًا يقول: «لا إلٰهَ إلّا اللهُ» أبدًا. قال: تقول بعدي؟ يا أُسامة. قال: قلتُ بعدك.

٤١ ـ **سرية أبي قَتادة:**[٢] جاء رِفاعة بن قَيس في جمع عظيم من جُشم وغطَفان إلى الغابة قربَ المدينة، يريد أن يحشد غزاة من قيس عيلان لحرب النبي ﷺ، فبعث إليه أبا قتادة النعمان بن رِبعيّ مع بعض الصحابة رضي الله عنهم، ليأتوه به أو بخبر عنه.

كمن الصحابة للجمع المحتشد، في شهر شعبان من هذه السنة، حتى مرّ قريبًا منهم رِفاعة نفسه، فرماه أبو قَتادة رضي الله عنه بسهم قتله، وكبّر فيمن حوله من الصحابة، ليهاجموا العدو، فحارب بعض هؤلاء وقُتلوا، وهرب الباقون بما يحملون، تاركين ٢٠٠ من الإبل و٢٠٠٠ من الغنم وكثيرًا من السبي. وصارت

---

(١) الحديث ٤٢٠١ في البخاري والسيرة ٢: ٦٢٢ ـ ٦٢٣ وزاد المعاد ٣: ٣٦١ ـ ٣٦٢ والإصابة ٥: ٣١٧.

(٢) السيرة ٢: ٦٢٩ ـ ٦٣١ وتاريخ الطبري ٣: ٣٤ ـ ٣٥ والكامل ٢: ٢٣٣ وزاد المعاد ٣: ٣٨٩ ـ ٣٩٠ والطبقات ٢: ١٣٢ـ ١٣٣.

من نصيب أبي قتادة فتاةٌ وضيئة، استوهبها رسول الله ﷺ منه، ثم وهبها لمَحمِية بن جَزء.

٤٢ ـ **سرية إضم:**(١) حين أراد النبي ﷺ المسير إلى فتح مكة، بعث أبا قَتادة مع ٨ من الصحابة ﵃ إلى إضم بطريق الشام، ليوهم الناس أنه لايطلب مكة. ولما صار هؤلاء في بطن إضم مرّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي، وسلّم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه لذلك. وكان فيهم محلّم بن جَثّامة، فقتله لشيء بينهما من قبل، وسلبه ما معه من بعير ومتاع. وعندما رجعوا، علموا في الطريق مسير النبي القائد إلى مكة، فساروا ليلحقوا به.

ونزل فيهم من الوحي ما يوجّه إلى التقوى في التصرف، ويذكّر بفضل الله واطّلاعه على السرائر(٢): ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إذا ضَرَبتُم في سَبِيلِ اللهِ فتَبَيَّنُوا، ولا تَقُولُوا لِمَن ألقَى إلَيكُمُ السَّلامَ: «لَستَ مُؤمِنًا»، تَبتَغُونَ عَرَضَ الحَياةِ الدُّنيا ـ فعِندَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرةٌ. كَذلِكَ كُنتُم مِن قَبلُ، فمَنَّ اللهُ علَيكُم ـ فتَبَيَّنُوا. إنَّ اللهَ كانَ بما تعمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ولذلك دُفِعت دية القتيل بعد خصام وجدال.

٤٣ ـ **سرية عُيينة:**(٣) أسرى رسول الله ﷺ عُيينة بن حِصن الفزاري ﵁ في هذا العام إلى بني العنبر من تميم، فأغار عليهم وسبى من نسائهم.

٤٤ ـ **سرية سُواع:**(٤) أسرى النبيُّ ﷺ عمرَو بن العاص مع بعض الصحابة ﵃، في رمضانِ سنة ثمانٍ حين فتحَ مكة، لهدم سُواع صنم بني هُذيل. قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدم هذا الصنم.

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٨١ والسيرة ٢: ٦٢٦ ـ ٦٢٩ والطبقات ٢: ١٣٣ وزاد المعاد ٣: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٤ ـ ٣٨٥ والاستيعاب ص ١٤٦٢.

(٢) الآية ٩٤ من سورة النساء.

(٣) الكامل ٢: ٢٧٣.

(٤) الطبقات ٢: ١٤٦ وزاد المعاد ٣: ٤١٤.

قال: لا تقدر على ذلك. قال: لِمَ. قال: تُمنعُ. قال: حتّى الآنَ أنتَ على باطل؟ ويحَكَ. وهل يسمع أو يُبصر؟ ثم دنا من الصنم وكسره، وأمرَ أصحابه أن يهدموا بيت خزنته وما يتضمنه، فلم يجدوا فيهما شيئًا. قال للسادن: كيفَ رأيتَ؟ قال: أسلمتُ للهِ.

٤٥ ـ **سرية مَناةَ**:[١] أسرى ﷺ في رمضانِ هذه السنة أيضًا، حين كان فتح مكة، سعدَ بن زيد الأشهلي مع ٢٠ فارسًا ﵁ لهدم مَناةَ ـ وهي في المُشلَّل للأوس والخزرج وبني غسّان وآخَرين ـ فخرجت السرية حتى انتهت إلى مكان مَناةَ وعليها السادن.

قال السادن: ما تريد؟ قال: هدمَ مناة. قال: أنت وذاك. فأقبل سعد ﵁ يمشي إليها، فخرجت إليه امرأة عُريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل وتضرب صدرها. فقال السادن: مناةُ، دونكِ بعضَ غَضَباتكِ. فراح سعد يضربها بالسيف حتى قضى عليها، ثم أقبل مع أصحابه على الصنم، فهدموه ولم يجدوا في خزانته شيئًا، وعادوا إلى مكة لستّ بقِينَ من رمضان.

٤٦ ـ **غزوة حُنَين**:[٢] تجمع أشراف هَوازن وغيرهم من ثقيف و قيس عيلان بأوطاس بين مكة والطائف، حين بلغهم فتح مكة، مُشفقين أن يغزوهم رسول الله ﷺ وقالوا: «قد فرَغ لنا، فلا ناهية له دوننا. والرأي أن نغزوَه».

فانطلق للقتال بنو ثقيف بقيادة قارب بن الأسود وذي الخِمار سُبيع بن الحارث، وبنو مُضر وجُشم كلها وسعد بن بكر، وناس من بني هلال وعمرِو

---

(١) الطبقات ٢: ١٤٦ ـ ١٤٧ وزاد المعاد ٣: ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٢) الأحاديث: ٤٠٦٠ ـ ٤٠٦٨ و ٤٠٧٥ ـ ٤٠٧٩ و ٤٠٨٢ و ٦٨١٨ في البخاري و ١٠٦١ و١٧٧٦و ٢٤٩٨ في مسلم والسيرة ٢: ٤٣٧ ـ ٥٠٠ والروض الأنف ٤: ١٤٨ وعيون الأثر ٢: ١٨٧ والبداية والنهاية ٣: ٦١٠ ـ ٦٥١ والطبقات ٢: ١٤٩ ـ ١٥٧ وزاد المعاد ٣: ٤٦٥ ـ ٤٧٦ وشرح المواهب ٣: ٥ ـ ٢٨ والمعارف ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

ابن عامر وعونِ ابن عامر، تحت قيادة مالك بن عوف النصري، فحمل خلفهم النساء والأموال والأبناء ليقاتلوا باستبسال وحميّة، حتى نزلوا في حُنين.

وكان مع بني جُشم دُريد بن الصِّمّة في هَودج مكشوف الأعلى يقاد به، وهو شيخ هرم أعمى مجرّبُ حروب، يتيمّنون برأيه، فاستدعى مالكًا، يدارسه أمر الحرب. حدثه عن حضور النساء والأولاد منكِرًا عليه ذلك، لما يكون فيه من الخسارة المضاعفة، ثم سأله عن بعض الأقوام من القبيلة. ولمّا علم غيابهم تمنى أن يكون الجميع كذلك، لأن الظروف غير مواتية للظفر، ثم نصحه بتعديل خُطة اللقاء، فلم يسمع له متهمًا إياه أنه شيخ خَرِف، وكارهًا أن يكون لدُريد ذكر أو رأي.

قال دريد: «هذا يوم لم أشهده ولم يفُتني»، وتمنى أن يكون شابًّا مع الفرسان في هذه المعركة، ويخوض الحرب، كما فعل من قبلُ في الوقائع الماضية:(١)

يـا لَيـتَنِي فِيهـا جَـذَعْ　　　أَخُـبُّ فِيهـا، وأَضَـعْ
أَقُـودُ وَطـفـاءَ الـزَّمَـعْ　　　كـأَنَّهـا شـاةٌ، صَـدَعْ

وحينما بلغ نبأ ذلك الحشد رسولَ الله ﷺ بعث أحد الصحابة، وجاءه بالخبر كما كان، فطلب من المشرك صفوان بن أُمية أن يعيره سلاحًا، فأعاره ١٠٠ درع بما تحتاج إليه. وهذا يعني أن تجوز الاستعانة في الحرب بسلاح غير المسلم، إذا لم يكن ممن يشارك فيها أو ممن يساعده. أما إذا كان من المشاركين فيها من قريب أو بعيد، أو من المساعدين أو المؤيدين لهم سرًّا أو

(١) السيرة ٢: ٤٣٩ وتاريخ الطبري ٣: ٧٢ وزاد المعاد ٤٦٧. والجذع: الشاب الفتيّ. وأخب وأضع أي: أمشي كالشبان أنواع المشي. والوطفاء: الفرس الطويلة الشعر. والزمع: ما فوق مَربط قيادة الدابة. والشاة: الوعل. والصدع: الفتي بين العظيم والصغير.

علانية فذاك أمر آخر لا يجير تلك الاستعانة، لأنه لا يخلو السلاح إذ ذاك من الغش والفساد وصفات التخذيل والتوهين والبلاء والاستدراج إلى الهزيمة.

ثم خرج ﷺ صباح عيد الفِطر، أول شهر شوال من السنة الثامنة، في ١٢٠٠٠ من المهاجرين والأنصار وأهل مكة رضي الله عنهم. لم يحضر معه عروة بن مسعود وغيدن بن سلمة رضي الله عنهما لأنهما كانا في جُرش من اليمن، يتعلمان صنع الدبّابات والمَجانيق والضُّبور.[١]

عبّأ النبي ﷺ جيشه ونظمه صفوفًا صفوفًا، قبل الوصول إلى الميدان، ثم وزّع الألوية والرايات على أهلها، مع المهاجرين لواء لعليّ وراية لسعد وثانية لعُمر رضي الله عنهم، ومع الخزرج لواء لحُباب بن المنذر رضي الله عنه، ومع الأوس لواء لأسيد ين حُضير رضي الله عنه، وكذلك ما كان لبقية المحاربين. أما هَوازن ومن معها فقد رجعت جواسيسهم مُرتعدة الأوصال، لأنهم رأوا بين المسلمين رجالًا بيضًا على خيلٍ بُلق. وهو مدد الملائكة من الله. عز وجل.

وفي الطريق إلى العدو، نظم عباس بن مرداس رضي الله عنه قصيدة، هدد فيها هوازن بجيش النبي العظيم، يملأ الأرض ويهزها بهيبته:[٢]

أبـلِغْ هَـوازِنَ، أعـلاها وأسفَلَهـا ... مِنِّي رِسـالةَ نُـصحٍ، فِيـه تِبيـانُ
أنِّـي أظُـنُّ رَسُـولَ اللهِ صـابِحَـكُم ... جَيشًا، لَهُ في فضاءِ الأرضِ أركانُ
تَكـادُ تَرجُفُ مِـنهُ الأرضُ، رَهبـتَهُ ... وفـي مُقَـدَّمِـهِ أوسٌ، وعُـثمـانُ

نعم لقد كان أكبر جيش عرفه المسلمون إلى ذلك الوقت، فأدخل في قلوب بعضهم العُجب والاعتزاز، حتى كادوا ينسَون الاعتماد على الله ـ سبحانه وتعالى ـ اعتمادًا مطلقًا والولاءَ له أولًا وآخرًا، وقال بعض بني بكر:

---

(١) الضبور: جمع ضَبر، أي: ما يتقى به من الحرب عند الانصراف.

(٢) السيرة ٢: ٤٤١. وأوس وعثمان: قبيلتان من مزينة.

«لن نُغلب اليوم من قِلّة». فكان أن امتحنهم الله، ليذّكّروا، ويكون في ذلك لمن بعدهم عظة واعتبار.

فقد سبقهم الأعداء إلى وادي حُنين، وكمنوا لهم في شِعابه وأحنائه ومضايقه، مستعدين ومتهيئين للهجوم مُباغتة، وهم مشهورون بين العرب بمهارة الرمي. ولمّا وصل المسلمون، وظُلمة الصباح مخيّمة، فاجأتهم كتائب العدو دُفعة واحدة بالقتل والتنكيل والرمي، وفيهم كثير ممن لم يحسن إسلامه بعد ويحمل بقايا من تاريخه القريب، فتفرّقوا فزعين مشتّتين، وانشمروا في الشِّعاب راجعين لايلوي بعضهم على بعض.

أما النبي ﷺ فقد انحاز إلى اليمين مع بعض المهاجرين والأنصار وأهل بيته رضي الله عنهم، وهو ينادي في المسلمين: «أين؟ أيها الناس. هلمُّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، ثم نزل عن دابته، وهو يرتجز: (١)

أنـــا النَّبِـــيُّ، لا كَـــذِبْ   أنــا ابــنُ عَبـدِ المُـطَّـلِبْ

وبجانبه أبو سفيان بن الحارث يقاتل، ويرتجز: (٢)

بَـنُو أبِيــهِ، اليَـومَ، مِـن أمامِــهْ   ومِــن حَوالَيــهِ، ومِــن أهــضـامِهْ
فقـاتَـلَ الـمُـسلِمُ، عَـن إسلامِـهْ   وقـاتَـلَ الحِـرمِـيُّ، عــن إحـرامِـهْ

كانت هجمات المشركين تتدفق من كل جانب، ولواؤهم أسود في رأس رمح، يحمله رجل أمامهم من هَوازن على جمل أحمر، يطعن به ويقود به مَن خلفه. هنالك حلت الفتنة في قلوب من كان حديث الإسلام، كأبي سفيان بن حرب وجبلة بن الحنبل وشيبة بن عثمان، فظهر ما يضمرون من الأحقاد.

---

(١) الأحاديث: ٤٠٦١ - ٤٠٦٣ في البخاري وتاريخ الطبري ٣: ٧٦ والكامل ٢: ٢٦٤ والبداية والنهاية ٤: ٣٢٨ وزاد المعاد ٣: ٤٧١ و ٤٨٣.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٦٥. والأهضام: جمع هضم. وهو الجانب. والحرمي: الإنسان المنسوب إلى البيت الحرام.

قال الأول شامتًا بما يرى من المسلمين: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال الثاني: ألا بطَلَ السحر اليوم. فصاح به أخوه صفوان ﷺ: اسكت. فضَّ الله فاك. فوالله لأن يَربَّني رجل من قريش أحبُّ إليّ من أن يَربَّني رجل من هَوازن. وقال الثالث، وكان أبوه قُتل في يوم أُحد: «اليومَ أُدرِكُ ثأري من محمد، اليوم أقتل محمدًا». وقد حاول ذلك فعلًا، لكنه لم يصل إليه.

وكانت أُمّ سُليم مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنهما حول النبي الكريم، وهي حامل بعبد الله بن أبي طلحة وفي يدها خِنجر، فقال لها زوجها: ما هذا الخِنجر معك؟ يا أُمّ سُليم. قالت: خِنجر أخذتُه، إن دنا مني أحد من المشركين بعجتُه به. قال: ألا تسمع ـ يارسول الله ـ ما تقول أُمّ سُليم الرُّمَيصاء؟ فقال لها النبي ﷺ: أمَّ سُليم. قالت: نعم. بأبي أنت وأُمّي. يارسول الله. اقتُلْ هؤلاء المنهزمين عنك،[1] كما تقتل الذين يقاتلونك. فإنهم لذلك أهل. فقال لها: أو يكفي اللهُ، يا أُمَّ سُليم.

ثم خاطب عمَّه العباس رضي الله عنه: «اصرُخْ: يامعشرَ الأنصار، يامعشرَ أصحاب السَّمُرة، يا أصحابَ سورة البقرة». ولمّا صرخ العباس بذلك كرّ بعض المسلمين عائدين إلى الميدان، والتفّوا حوله وهم يرددون: «يا لبَّيكَ يا لبَّيكَ». وعندما اجتمع لدى القائد العظيم مِائَة منهم، داهم الأعداءَ بهم، وهو يقول: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ». وأخذ حفنة من التراب، ورمى به وجوههم قائلًا: «شاهتِ الوجوه. انهزَموا، وربِّ محمد». فكانت هزيمتهم.

وقد افتخر العباس رضي الله عنه بموقفه هذا، مع الصحابيِّين الستة الثابتين مستبسلين حول النبي، في قوله:[2]

---

(١) ألستَ ترى أن كثيرين من المسلمين اليوم أشبه بهؤلاء المنهزمين؟ ستقول: بلى، بل أبعد منهم إجرامًا، لما يقومون به من حماية للعدو وعون له في المجازر والتدمير. إذًا فهل تردّد أنت معي عبارة الصحابية الكريمة؟ أم تكتفي بالقول النبوي: أو يكفي اللهُ، يا أُمَّ سُليم.

(٢) المعارف ص ١٦٤.

نَصَرْنا رَسُولَ اللهِ، في الحَرْبِ،سَبعةً ... وقَد فَرَّ مَن قَد فَرَّ، مِنهُم، فأقشَعُوا

وراح مالك بن عوف رضي الله عنه من بني سُليم يقتحم صفوف المشركين، وهو يرتجز بدفع فرسه للمعركة، وبحزمه وإقدامه في ميادين القتال:(١)

أقْدِمْ، مُحَاجُ، إنَّهُ يَومٌ نُكُرْ ... مِثلِي، علَى مِثلِكَ، يَحمِي ويَكُرْ

حِينَ يُذَمُّ المُستَكِينُ المُنجَحِرْ ... وأطعَنُ النَّجلاءَ، تَعوِي وتَهِرْ

قَد عَلِمَ البِيضُ الطَّوِيلاتُ الخُمُرْ ... أنِّيَ، في أمثالِها، غَيرُ غَمِرْ

ثم تدافع المجاهدون بعدَ مباغتة العدو لهم، نحو الميدان، فهرب قارب بن الأسود بالأحلاف، وثبَت بنو مالك بن ثقيف. وحينئذ استهدف عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه صاحبَ رايتهم ذا الخِمار، وضرب عرقوبَي جمله فسقط على الأرض، وعاجله أحد الأنصار رضي الله عنه بضربة ذهبت بقدمه، وعطلت عليه الحركة، فحمل الراية عثمان بن عبد الله، وقاتل بها حتى قتل.

وبذلك اعتدلت كِفّة المسلمين، وساقوا الكافرين أمامهم منهزمين، يقتلون فيهم ويأسرون منهم، ويجمعون الأسلاب والسبايا، وما كان من الذراري والأطفال والعبيد، فقالت إحدى النساء المسلمات رضي الله عنهن:(٢)

غَلَبَتِ، خَيلَ اللهِ، خَيلَ اللّاتِ ... وخَيلُهُ أحَقُّ، بالثَّباتِ

ومرّ النبي ﷺ في الطريق بامرأة قتيل، فأنكر ذلك وسأل مَن حوله: مَن قتلها؟ قالوا: خالدُ بن الوليد. فقال لبعض من معه: «أدركْ خالدًا، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدًا أو عَسيفًا». ثم عقد لواء على كتيبة

---

(١) السيرة ٢ ٤٤٧. ومحاج: اسم فرسه. ويكر: يهجم على العدو. وحذفت الراء الثانية من «يكرّ وتهرّ» للوقف على القافية. والمنجحر: المتخفي. والنجلاء: الطعنة الواسعة. وتهر أي: يكون لها صوت كالهرير. والغمر: الغِرّ لم يجرب الأمور.

(٢) السيرة ٢: ٤٤٩. وخيله أي: خيل الله. تعني فرسانه.

لأبي عامر الأشعري ﷺ، آمرًا إياه أن يطارد المنهزمين، وانتهى وهو يتابعهم إلى معسكرهم ممتنعين، فنازل ٩ منهم مبارزة وقتلهم، وجاء العاشر - وهو سَلمة بن دُريد بن الصمّة - فقتل أبا عامر، وخلَفه في القيادة أبو موسى الأشعري ﷺ، وانتصر على الباقي.

كان دُريد بن الصِّمّة في هَودج مكشوف، كما ذكرنا قبل، فانقضّ ربيعة ابن رُفيع السُّلمي ﷺ على جمله، وأخذ بخِطامه يظن أن فيه امرأة سيدة يسبيها، وأناخ به فإذا هو أمام شيخ كبير أعمى لا يعرفه. قال دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: «أنا ربيعة بن رُفيع السُّلمي». ثم ضربه بسيفه فلم يُغنِ شيئًا.

قال دُريد له: بئس ما سلّحتك أُمّك! خذ سيفي هذا من مؤخَّر الرّحل، ثم اضرب به [ههنا، واضعًا حرف كفه في أعلى عنقه]، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ. فإني كنت كذلك أضرب الرجال. ثم إذا أتيتَ أُمَّك فأخبرها أنك قتلتَ دُريد بن الصِّمّة. فرُبَّ - واللهِ - يومٍ مَنعتُ فيه نساءك. ولمّا رجع ربيعة إلى أُمّه ﷺ وأخبرها بقتله إيّاه قالت: أما والله لقد أعتق أُمَّهاتٍ لك ثلاثًا. تعني: مِن جَدّاته.

وقالت عَمرة بنة دُريد في رثائه، تهجو بني سُليم قوم القاتل، وتعدّد ما كان أبوها قدّمه لهم من عون وإنقاذ:(١)

جَـزَى، عَنـهُ، الإلهُ بَـنِـي سُلَيـمٍ ... وعَـقَّتْـهُم، بِمـا فَعَلُـوا، عَقـاقِ
فـرُبَّ عَظِيمـةٍ دافَعـتَ عَنهُـم، ... وقَـد بَلَغَـت نُفُـوسُهُمُ التَّـراقِي!
ورُبَّ كَرِيمـةٍ أعـتَقـتَ، مِنهُـم ... وأُخـرَى قَد فَكَكتَ، مِنَ الوَثـاقِ!
فكـانَ جَزاؤُهـم، مِنـهُم، عُقُوقًـا ... وهَمًّـا، مـاعَ مِنـهُ مُخُّ سـاقِـي

---

(١) السيرة ٢: ٤٥٣ - ٤٥٤. وعقاق أي: العقوق الفادح. وماع: ذاب. تعني ما يسبب الموت.

وكان أبو عامر الأشعري ﵁، وهو على كتيبته، يطارد الهاربين ويناوشهم القتال ويبارز فرسانهم، فقتله عاشر المبارزين سَلمةُ بن دُريد، وأخذ الراية ابن عمّه أبو موسى الأشعري ﵁، كما ذكرنا قبلُ، يتابع القتال حتى هزمهم بلا عودة. فقال سلمة يفتخر:(١)

إن تَسألُوا عَنّي فإنِّي سَلَمَهْ ابنُ سَمادِيرَ، لِمَن تَوَسَّمَهْ
أضرِبُ، بالسَّيفِ، رؤُوسَ المُسلِمَهْ

ونجا سلمة من المعركة، وأنقذ امرأته أيضًا، فقال يخاطبها ويذكر لها حفاظه عليها، حين هرب الفرسان عن نسائهم والأصحاب:(٢)

إنِّي مَنَعتُكِ، والرُّكُوبُ مُحَبَّبٌ ومَشَيتُ خلفَكِ، مِثلَ مَشيِ الأنكَبِ
إذ فَرَّ كُلُّ مُهذَّبٍ، ذِي لِمّةٍ، عَن أُمِّهِ، وخَليلِهِ، لَم يُعقِبِ

ولمّا هرب مالك بن عوف سيّد هوازن وقف في ثنّية الطريق وقال لأصحابه: «قِفوا حتّى يمضي ضعفاؤكم، وتلحق أُخراكم». فثبَت هنالك حتى مضى الهاربون، ثم قال يخاطب قومه معتذرًا، بخذلانهم إيّاه وتهديمهم ما صنع لهم من المجد:(٣)

كَلَّفتُمُونِي ذَنبَ آلِ مُحَمَّدٍ واللهُ أعلَمُ: مَن أعَقُّ وأظلَمُ؟
وخَذَلتُمُونِي، إذ أُقاتِلُ واحِدًا وخَذَلتُمُونِي، إذ تُقاتِلُ خَثعَمُ
وإذا بَنَيتُ المَجدَ يَهدِمُ بَعضُكُم، لا يَستَوِي بانٍ وآخَرُ يَهدِمُ

---

(١) السيرة ٢: ٤٥٥ وتاريخ الطبري ٣: ٨٠. وسمادير: اسم أُمّه. وتوسمه أي: تفرس فيه ليستدل عليه ويعرفه. والمسلمة: الجماعة من المسلمين، واحدها المسلم.

(٢) السيرة ٢: ٤٥٦ ـ ٤٥٧. والأنكب: الذي يميل في مشيه. والمهذب: الخالص من العيوب. واللمة: شعر الرأس يجاوز شحمة الأذن. ويعقب: يرجع.

(٣) السيرة ٢: ٤٧٤. وذنبه أي: إثم هربي أمامه. وخثعم: قبيلة.

ثم تعهد النبي ﷺ له إن أسلم أن يرد إليه أهله وماله، مع مِائَة من الإبل، فخرج مالك متخفّيًا حتى جاء النبيَّ الكريم، وأسلم ونال منه ما وَعد، وجعله عاملًا على من أسلم من قومه، فقال يمدحه بذكر وفائه وجوده ونبوّته، وثباته في الحرب العنيفة: [(١)]

ما إن رأيتُ، ولا سَمِعتُ بمِثلِـهِ، ... في النّاسِ كُلِّهِـمُ، بمِثْـلِ مُحَمَّـدِ
أوفَى، وأعطَى لِلجَزيلِ، إذا اجتُدِي ... ومَتَـى تَشأْ يُخبِـرْكَ عَمّـا فـي غَـدِ
وإذا الكَتِيبَـةُ عَـرَّدَت أنيابُهـا، ... بـالسَّمهَرِيِّ، وضَـربِ كُـلِّ مُهَنَّـدِ
فكـأنَّهُ لَيـثٌ، عـلَى أشبـالِـهِ، ... وَسْطَ الهَبـاءَةِ، خـادِرٌ في مَرصَدِ

وقد صارت هذه المَغزاة الخالدة متغنًّى للشعراء، يمجّد فيه المسلمون نصرهم، ويرثي به المشركون ما لقوا من القتل والشقاء.[(٢)] فعباس بن مرداس رضي الله عنه كان له عدة قصائد في هذا الموضوع، منها بعض قصيدة يشهد فيها بصدق النبوة، ويذم قيادة ذي الخِمار إذ سبب لقومه الموت، ويدعوهم إلى الإسلام والإيمان ليكون في نفوس الجميع صفاء ووئام:[(٣)]

بـأنَّ مُحَمَّـدًا عَبـدٌ، رَسُـولٌ ... لِـرَبٍّ، لا يَـضِلُّ، ولا يَجُـورُ
ولَم يَكُ ذُو الـخِمارِ رَئِيسَ قَومٍ، ... لَهُـم عَـقلٌ، يُعـاقِبُ، أو مَكِيـرُ
أقـامَ بِـهِم، علَى سَنَنِ المَنايـا، ... وقَـد بـانَت، لِمُبصِرِها، الأُمُـورُ
فقُلنـا: أسلِمُـوا، إنّـا أخـوكُم، ... وقَد بَـرأت، مِنَ الإحَنِ، الصُّدُورُ

---

(١) السيرة ٢: ٤٩١. والجزيل: الكثير. واجتدي: طلب منه العطاء. وعردت: اشتدت. والسمهري: الرمح المنسوب. والهباءة: الغبار في المعركة. والخادر: المانع لعرينه. والمرصد: مكان الترصد.

(٢) السيرة ٢: ٤٤٧ - ٤٨٨.

(٣) السيرة ٢: ٤٥١ - ٤٥٢. ويعاقب: ينظر في العواقب. والمكير: الحنكة والتدبر. والسنن: الطريق. والإحن: الأحقاد، جمع إحنة.

ومنها بعض أُخرى، أكّد ثباته على الإيمان والعون، ومحبة التقدم للجهاد، والطاعة في خوض المعارك، والتنازل عن غنائم حُنين لإرضاء من أسلم:[١]

حَلَفتُ يَميناً بَرّةً، لِمُحَمَّدٍ، فأكمَلتُها ألفًا، مِنَ الخَيلِ، مُلجَما
وقالَ نَبيُّ المُؤمِنين: تَقَدَّمُوا وحُبَّ، إلَينا، أن نَكُونَ المُقَدَّما!
أطَعناكَ، حَتَّى أسلَمَ النّاسُ كُلُّهُم، وحَتَّى صَبَحْنا الجَمعَ، جَمعَ يَلَملَما
وقَد أحرَزَت، منّا، هَوازِنُ سَربَها وحُبَّ، إلَينا، أن نَخِيبَ ونُحرَما

وقال مسلمٌ من بني هوازن، يصف هزيمة المجاهدين أولًا، ويعتذر بنصرة الملائكة لهم:[٢]

ومالِكٌ مالِكٌ، ما فَوقَهُ أحَدٌ يَومَ حُنَينٍ، علَيهِ التّاجُ يأتَلِقُ
فضارَبُوا النّاسَ، حَتَّى لَم يَرَوا أحَدًا حَولَ النَّبِيِّ، وحَتَّى جَنَّهُ الغَسَقُ
ثُمَّتَ نُزِّلَ جِبرِيلٌ، بنَصرِهِمُ مِنَ السَّماءِ، فمَهزُومٌ ومُعتَنَقُ
مِنّا، ولَو غَيرُ جِبرِيلٍ يُقاتِلُنا لَمَنَّعَتنا إذًا، أسيافُنا العُتُقُ

وتشكى أبو ثواب من نصر قريش على قومه، وذكّرها بما كان لهم من قبل، ثم وصف ما صاروا إليه من الهوان:[٣]

ألا هَلَ اتاكَ أنْ غَلَبَت قُرَيشٌ هَوازِنَ، والخُطُوبُ لَها شُرُوطُ؟
وكُنّا، يا قُرَيشُ، إذا غَضِبنا يَجيءُ، مِنَ الغِضابِ، دَمٌ عَبِيطُ

---

(١) السيرة ٢: ٤٦٩ - ٤٧٠. وحُب التقدم أي: ما أحبّه! ويلملم: جبل قريب من مكة. والسرب: المال الراعي.

(٢) السيرة ٢: ٤٧٥. ومالك هو قائد هوازن. وجنه أي: ستره. والغسق: ظلمة الغبار. والمعتنق: الأسير. والعتق: النفيسة، جمع عتيق.

(٣) السيرة ٢: ٤٧٦. وحذف همزة «أتى» بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها. والعبيط: الطري لكثرة القتل. والسعوط: ما يهيج الأنف من الأدوية. والنبيط: جيل من العرب المستعجمة بلغتها. والخسف: الذل.

وكُنّا، يا قُرَيشُ، إذا غَضِبنا · كأنَّ أُنوفَنا فِيها سَعُوطُ
فأصبَحنا تُسَوِّقُنا قُرَيشٌ، · سِياقَ العِيرِ، يَحدُوها النَّبيطُ
فلا أنا، إن سُئلتُ الخَسفَ، آبٍ · ولا أنا، أن أَلِينَ لَهُم، نَشِيطُ

وشارك الوحيُ العظيم في تخليد هذه الغزوة المباركة، فأنزل الله ما يمنّ به على المسلمين، من العون في وقائع حربية متعددة، ومنها يومُ حُنين، يعاتبهم على الاغترار بالكثرة فلم تنفعهم، إذ هربوا أولًا أمام العدو. ولولا تثبيت الله إياهم بعونه وملائكته لما كان لهم النصر: ﴿ولَقَد نَصَرَكُمُ اللهُ في مَواطِنَ كَثِيرةٍ، ويَومَ حُنَينٍ إذ أعجَبَتكُم كَثرتُكُم، فلَم تُغنِ عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا... وعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا. وذلِكَ جَزاءُ الكافِرِينَ﴾.(١)

وعلى كل حال، فقد انتهت المعركة بنصر الله، وامتنانه عليهم لتكون لهم ولمن بعدهم عظة واعتبار، فلا ينسوُا الولاء له أولًا وآخرًا، والاعتماد عليه وحده في الملمّات. وكانت غنائم هوازن ٦٠٠٠ من الذراري والنساء، ومن الإبل ٢٤٠٠٠ والشاء ٤٠٠٠٠ ومن الفضّة ٤٠٠٠ أُوقية.

فجاء وفدهم يستعطفون النبي ﷺ بصِلات القرابة والرضاعة والرعاية، وفيهم عمّه بالرضاعة أبو بُرقان، فقال في ذلك زهير بن صُرد - وهو من بني سعد بن بكر قوم حليمة السعدية - أبياتًا منها:(٢)

امنُنْ علَينا، رَسُولَ اللهِ، في كَرَمٍ · فإنَّكَ المَرءُ، نَرجُوهُ، ونَدَّخِرُ
امنُنْ علَى نِسوةٍ، قَد عاقَها قَدَرٌ · مُمَزَّقٍ شَملُها، في دَهرِها غِيَرُ

فخيّرهم بين أموالهم وبين النساء والأولاد، واختاروا الثاني، فمنّ عليهم بما لَه ولبني عبد المطلب منه أمام الناس. إذ ذاك قال المهاجرون والأنصار: وما

(١) الآيتان ٢٥ و٢٦ من سورة براءة.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٨٦ - ٨٧ والكامل ٢: ٢٦٨. والغير: التقلب والبلاء.

كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وامتنع الآخرون عن ذلك، وأراد العباس بن مرداس رضي الله عنه أن يمتنع بنو سُليم أيضًا، فأبَوا عليه وفعلوا كما فعل الأنصار والمهاجرون، فغضب لذلك وقال لهم: «وهّنتُموني». ففرض النبي الكريم لمن أبى مقابل كل إنسان ستّ فرائض، وأعطى بعض الزعماء زيادات ليتألف قلوبهم.

كان ما ناله العباس بن مرداس من ذلك لم يُرضِه، وعاتب النبي العظيم بأنه أُعطِيَ أقل مما نال عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس رضي الله عنهما، وهو ليس أقل منهما شأنًا:(١)

فأصبَحَ نَهبِي، ونَهبُ العُبَيدِ، بَينَ عُيَينَةَ والأقرَعِ
وما كانَ حِصنٌ، ولا حابِسٌ، يَفُوقانِ شَيخِيَ، في المَجمَعِ

فقال الرسول العظيم لأصحابه: «اقطعوا عني لسانه». فأُعطِيَ حتى رضي. وكان هذا قطْعَ لسانه.

وعندما لقيه قال له: «أنتَ القائل: فأصبح نهبي ونهب العُبيد بين الأقرع وعُيينة»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه يصحح الرواية: «بين عيينة والأقرع»، فقال الرسول ﷺ: «هما واحد». يعني أن المعنى واحد، إلّا أنه لا يريد لفظ الشعر كما كان. فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ، ما يَنبَغِي لَهُ﴾.(٢)

وفي طريق متابعة غزوة حُنين، كان أحد الصحابة على ناقته بجنب ناقة النبي ﷺ، فوقع حرف نعله على ساق النبي الكريم وأوجعه، فقرع قدمه بالسوط قائلًا: «أوجعتَني. فتأخّرْ عنّي». ولما كان الغد طلبه النبي ﷺ وقال

---

(١) السيرة ٢: ٤٩٣ - ٤٩٤ وتاريخ الطبري ٣: ٩١ والكامل ٢: ٢٧٠. والنهب: الغنيمة. والعبيد: فرس العباس بن مرداس. وبينهما أي: دون غنيمة كل منهما. وشيخي أي: أبي.
(٢) الآية ٦٩ من سورة يس.

له: «إنك قد أصبتَ رجلي بالأمس فأوجعتَني، فقرعتُ قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوّضك منها»، وأعطاه ٨٠ نعجة بتلك الضربة.

ثم إن الأنصار أحسّوا شيئًا من النقيصة، بالنسبة إلى ما أُعطِي غيرهم من العطايا، وذكر ذلك حسان رضي الله عنه في قصيدة بقوله:[١]

عَلامَ تُدعَى سُلَيمٌ، وهْيَ نـازِحةٌ، قُـدّامَ قَومٍ، هُمُ آوَوا، وهُم نَصَرُوا؟

ولما بلغ النبيَّ ﷺ ذلك عاتبهم، ثم قال: «ألا ترضون ـ يامعشر النصار ـ أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجِعوا برسول الله إلى رِحالكم؟ فوالذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا، وسلكَتِ الأنصار شِعبًا، لسلكتُ شِعب الأنصار. اللهمّ، ارحمِ الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناءِ الأنصار». فبكى القوم حتى أخضلوا لِحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْمًا وحظًّا.

٤٧ ـ **سرية الطّفيل بن عمرو:**[٢] أرسله النبي ﷺ ـ وهو من بني دَوس ـ لمّا أراد السير إلى الطائف في شوّالِ السنة الثامنة، لهدم «ذو الكَفَّين» الصنم الذي يعبده بنو عمرِو بن حُمَمة الدَّوسيون، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف.

خرج الطفيل رضي الله عنه سريعًا إلى ذلك، وصار يحش النار في وجه الصنم يحرّقه، ويقول:[٣]

يا ذا الكَفَيـنِ، لَستُ مِن عُـبّادِكا مِـيـلادُنـا أقـدَمُ مِن مِيـلادِكـا

إنِّـي حَشَشـتُ النّارَ في فُـؤادِكـا

ثم انحدر مع ٤٠٠ من قومه سِراعًا، فوافَوُا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه

(١) ديوانه ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ والسيرة ٢: ٤٩٧ ـ ٤٩٨. ونازحة أي: بعيدة ليست ممن نصر وأعان في الشدائد.

(٢) الطبقات ٢: ١٥٧ ـ ١٥٨ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٢ وزاد المعاد ٣: ٤٩٥.

(٣) خفف فاء الكفين للضرورة.

بأربعة أيام وهو يحاصرها.

٤٨ ـ **غزوة الطائف:**[١] عندما هرب جمع ثقيف من حُنين، رجعوا إلى الطائف وأغلقوا أبوابها وتحصّنوا فيها بما لديهم من السلاح للقتال، وتزوّدوا من الغذاء بما يكفيهم لمدّة سنة.

ثم تجهز رسول الله ﷺ لحربهم وسار يقصد مدينتهم، فقال كعب بن مالك ﵁، يهدّدهم بالزحف الماحق، ويفتخر بطاعة المسلمين للنبي الكريم والرحمن الرحيم، يضحّون بالغالي والرخيص، حتى تتحرر العقيدة وتمّحي أشكال الوثنية:[٢]

فلَستُ لِحاصِنٍ، إن لَم تَروها ... بساحةِ دارِكُم، مِنّا، أُلُوفا
نُطِيعُ نَبِيَّنا، ونُطِيعُ رَبًّا ... هُوَ الرَّحمٰنُ، كانَ بنا رَؤُوفا
نُجاهِدُ، لا نُبالِي مَن لَقِينا ... أأهلَكْنا التِّلادَ أمِ الطَّرِيفا؟
لِأمرِ اللهِ والإسلامِ، حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ، مُعتَدِلًا حَنِيفا
وتُنسَى اللّاتُ، والعُزَّى ووَدٌّ ... ونَسلُبَها القَلائدَ، والشُّنُوفا

فأجابه كنانة بن عبد يالِيلَ، يرد عليه مفاخره، ويتوعده بالهزيمة كما جاء مَن قبله، ورجَع بالعجز والخسران:[٣]

---

(١) الأحاديث: ٢٩٧٧ و ٤٠٦٩ ـ ٤٠٨٢ في البخاري و ١٧٧٨ و ٢٤٩٧ في مسلم والسيرة ٢: ٤٧٨ ـ ٤٨٨ وتاريخ الطبري ٣: ٨٢ ـ ٨٥ وأنساب الأشراف ١: ٣٦٦ ـ ٣٦٨ والطبقات ٢: ١٥٨ ـ ١٦٠ والكامل ٢: ٢٦٦ ـ ٢٦٨ وزاد المعاد ٣: ٤٧٢ و ٤٩٥ ـ ٤٩٨.

(٢) ديوانه ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ والسيرة ٢: ٤٧٩ ـ ٤٨٠. والحاصن: المرأة العفيفة. وتروها أي: تبصروا الخيل والسيوف. والتلاد: المال القديم. والطريف: المستحدث. واللات والعزى وود: أوثان في الجاهلية. والشنوف: جمع شنف. وهو القرط في أعلى الأذن.

(٣) السيرة ٢: ٤٨١. وفي البيت الأول خرم بنقص حرف من مقدمه. والمَعلم: المشهورة. ونريم: نبرح ونزول. وعمرو: قبيلة من بني عامر كانت تجاور ثقيفًا، فرحلت لعجزها عن حربها. والصعر: المائلة تيهًا وتكبرًا. والشريس: الشديد العنيد.

مَن كـانَ يَبغِيـنـا، يُرِيـدُ قِتـالَنا، فإنّـا بـدارٍ، مَعـلَمٍ، لا نَـرِيـمُهـا
وقَد جَرَّبَتنا قَبلُ، عَمرُو بنُ عامرٍ فأخبـَرَها ذُو رأيِـهـا، وحَلِيـمُهـا
وقَد عَلِمَت، إن قالَتِ الحَقَّ، أنَّنـا إذا ما أبَتْ صُعرُ الخُدُودِ نُقِيمُـهـا
نُقَوِّمُهـا، حَتَّـى يَلِيـنَ شَرِيـسُهـا ويُعـرَفَ، لِلحَـقِّ الـمُبِينِ، ظَلُومُهـا

وتناول شدّاد بن عارض الجُشَميُّ ﷺ موضوع الوثنية، يعيّر بها من ينصر حجارتها، ويسخر من نصرتها وهي عاجزة عن حماية نفسها، ويذكر أن ما حُرّق من الأصنام لا ثأر له، وأن هجوم المسلمين على ثقيف المعتدين سيمحقهم أيضًا: (١)

لا تَنصُرُوا اللّاتَ، إنَّ اللهَ مُهلِكُهـا وكَيفَ يُنصَرُ مَن هُوْ لَيسَ يَنتَصِرُ؟
إنَّ الَّتِي حُرِّقَت بالسُّدِّ، فاشتَعَلَت ولَم يُقاتَل لَدَى أحجارِهـا، هَـدَرُ
إنَّ الرَّسُـول مَتَـى يَنـزِلْ بِلادَكُـمُ يَظعَنْ، ولَيسَ بِها مِن أهلِها بَشَرُ

ولمّا وصل جيش المسلمين إلى مدينة الطائف، وهي مغلقة الأبواب وأصحابها معتصمون فيها وراء الجدران، عسكر النبي ﷺ قريبًا منها للمحاصرة، وأهلها يردّدون الرجز التالي: (٢)

واللهِ، لا نُـسلِمُ مـا حَيِينـا وقَـد بَنَينـا حائطـًا، يَحمِينـا

فكانت السهام تنهال على المجاهدين في حصار ١٨ يومًا وتقتل منهم وتجرح، فجعل القائد العظيم المعسكرَ بعيدًا عن الحِصن لتجنب ما ينصب عليهم، وأمر بتقطيع أعنابهم وتحريقها.

والحصار يقتضي أسلوبًا حديثًا في الحرب، لأن المدينة المحصنة

---

(١) السيرة ٢: ٤٨١ - ٤٨٢. واللات: وثن تعبده ثقيف. وتسكين واو «هو» لغة صحيحة. وهدر أي: باطل لا يؤخذ بثأره. ويظعن: يرحل.
(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٦٧.

المغلقة لا تنالها الرماح والسيوف والنبال، وإنما يكون بوسائل قتالية جديدة، تناسب الحال المستعصية. هنالك استعمل النبي ﷺ المَنجنيق، كما أشار سلمان الفارسي ﵁، لرمي الطائف من بعيد، فكان أول من أدخل هذه الآلة في الحروب العربية والإسلامية.

واستطاع بذلك أن يهدم بالحجارة الضخمة وأشباهها جانبًا من الجدار، فزحف بعض الصحابة تحت دبّابة من الخشب مكسوّة بالجلود، جاء بها خالد ابن سعيد بن العاص ﵁ من جُرش في اليمن، ودخلوا بها الطائف، فأرسلتْ عليهم ثقيف الحديد المُحمَّى لتحرق مَن تحت الدبّابة، وترمي من بقي منهم بالنبال. واستُشهد في الحصار ١٢ صحابيًّا.

وهكذا استمر الحصار ٢٠ يومًا ونيّفًا دون جدوى، فأراد النبي ﷺ أن يذهب عن الطائف بغير فتح، فثقل ذلك على المسلمين وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال: اغدوا على القتال. فغدَوا وأصابتهم جراح، وحاولوا أن يكون لهم مع ثقيف مفاوضة فلم ينجحوا في ذلك، ونزل إليهم بعض العبيد مسلمين، وكان منهم نُفَيع أخو زياد بن أبيه والأزرق الرومي، فأعتقهم رسول الله. وأسلم أيضًا مروان بن قيس الدوسي، فاحتجزت ثقيف أهله، وأسر هو مقابل ذلك أُبَيَّ بن مالك القشيري.

ثم سعى الضحّاك بن سفيان ﵁ في الأمر، فاضطُرّت ثقيف أن تخلّي أهل مروان، ليطلق لهم سراح أُبيّ. وقد ذكر الضحّاك في شعره سعيه ذلك، يعير أُبيًّا بالأسر والمذلة، ويمنّ عليه بما كان:[1]

أَتنسَى بَلائي، يا أُبَيَّ بنَ مالِكٍ، غَداةَ الرَّسُولُ مُعرِضٌ عَنكَ، أَشوَسُ

(١) السيرة ٢: ٤٨٥ - ٤٨٦. والبلاء: النعمة. والأشوس: من يعرض بنظره عن الآخر. والذلول: البعير المرتاض. والمخيس: المذلل.

يَقُودُكَ مَروانُ بنُ قَيسٍ، بِحَبلِهِ ذَلِيلًا، كَما قِيدَ الذَّلُولُ المُخَيَّسُ؟

وخلال ذلك الحصار، أسلم مَن حول الطائف مِن الناس، وجاءت وفودهم مبايعة. واستشار النبي ﷺ نوفل بن معاوية الدِّئلي رضي الله عنه في استمرار الحصار، فقال له: «ثعلبٌ في جُحر، إن أقمتَ عليه أخذتَه، وإن تركته لم يضرَّك». ثم استجاب المسلمون لرأي النبي ﷺ، ورحل الجيش بعد تلك المدة بِلا نيلٍ من العدو، فقال أحد الصحابة: يارسول الله، ادعُ على ثقيف. فقال: اللهمّ اهدِ ثقيفًا، وائْتِ بهم.

وقد تحدث بُجير بن زُهير رضي الله عنه عن تلك الغزاة، فوصف اعتصام بني ثقيف وراء الجدران والخندق والأبواب المغلقة، لينجوا من البلاء:[1]

لَم يَمنَعُوا، مِنّا، مَقامًا واحِدًا إلّا جِدارَهُمُ، وبَطنَ الخَندَقِ
ولَقَد تَعَرَّضنا، لِكَيما يَخرُجُوا، فتَحَصَّنُوا، مِنّا، بِبابٍ مُغلَقِ

كان ذلك في السنة الثامنة، وفي طريق العودة إلى المدينة لحق عُروةُ بن مسعود الثقفيُّ ـ وهو سيّد فيهم محبَّب ـ النبيَّ الكريم مسلمًا، ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام. وعندما قرب منهم وأعلمهم ما يريد رمَوه بالسهام، ولمّا سئل: ما ترى في دمك؟ قال:[2] كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ. فليس فيّ إلّا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم. فادفنوني معهم.

ومع هذا، فقد شعرت ثقيف بالخطر مِن حولها، إذ أسلم العرب وبايعوا، وأصبحوا يحيطون بها من كل جانب، ولن تستطيع الاستمرار في التحصن والانجحار، فاتفق رأي سادتها على اعتناق الإسلام. وفي رمضانِ

(١) السيرة ٢: ٤٨٧. وما: حرف زائد.

(٢) السيرة ٢: ٥٣٧ ـ ٥٣٨.

السنة التاسعة قدِمَ كِنانة بن عبد ياليل بوفد من ثقيف، يفاوضون النبي ﷺ.[1] كان منهم طلب الإبقاءِ على اللات ٣ سنين أو أقلّ ليجمعوا ما يُهدى إليها، وتحريمِ واديهم كتحريم مكة بشجرها وطيرها ووحشها، والإعفاءِ من الزكاة والجهاد والانحناء في الصلاة، وعدمِ حملهم على تكسير أصنامهم بأيديهم، فأجابهم إلى الأخير وأبى عليهم ما سواه. وبهذا أعلنوا إسلامهم وبايعوا النبي ﷺ ثم طلبوا رد عبيدهم الذين آمنوا إليهم، فقال: لا أفعل. أولئك عُتقاء الله.

ثم بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما، مع ثقيف لهدم اللّات. ولما شرع المغيرة في ضربها وقف قومه دونه خشية أن يقتله الناس، كما قتلوا عُروة بن مسعود من قبل. وكان أبو سفيان بن حرب من بعيد يقول، كلما ضربها عُروة: واهًا لكِ، آهًا لكِ.

وأخيرًا جُمع ما حولها من المال والذهب والحُليّ، وخرجت نساء ثقيف حُسّرًا، يبكينها بعد أن تخلّى عنها حُماتها، ويردّدن ما يلي:[2]

لَتُبكَيَنَّ دُفّاعْ أسلَمَها الرُّضّاعْ
لَم يُحسِنُوا المِصاعْ

٤٩ ـ سرية بني العَنبر:[3] هؤلاء القوم من تميم، وكانوا قد أسلموا وبايعوا

---

(١) انظر تفاسير الطبري ١٥: ٨٨ والبغوي٣: ١٢٦ ـ ١٢٧ والقرطبي ١٠: ٢٩٩ وأبي السعود ٥: ١٨٧ ـ ١٨٨ وأسباب النزول للواحدي ص٢٩٧ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٠٦٠.

(٢) السيرة ٢: ٥٤١ ـ ٥٤٢ وتاريخ الطبري٣: ١٠٠. ودفاع أي: اللّات، لأن بني ثقيف يزعمون أنها تدافع عنهم. والرضاع: جمع راضع. وهو اللئيم. ويحسن: يستطيع. والمصاع: المضاربة بالسيوف. والأبيات هي من منهوك المنسرح المرجّز. انظر الوافي في العروض والقوافي ص ١٣٣ ـ ١٣٨.

(٣) السيرة ٢: ٦٢١ ـ ٦٢٢ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٢ والطبقات ٢: ١٦٠ ـ ١٦٢ وزاد المعاد ٣: ٥١٠ ـ ٥١٤.

على السمع والطاعة. وفي شهر محرّم من السنة التاسعة، امتنعوا عن دفع الصَّدقة إنكارًا لها وللطاعة، فبعث النبي ﷺ إليهم سرية بقيادة عُيينة بن حصن، في ٥٠ فارسًا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فقتل منهم وأسر ١١ رجلًا وسبى ٢١ امرأة و٣٠ صبيًّا وحاز بعض الغنائم. وقالت سلمى بنت عتّاب، تصف ما أصاب القوم من البلاء والهوان:(١)

لَعَمرِي،لَقَد لاقَت عَدِيُّ بنُ جُندَبٍ، مِنَ الشَّرِّ، مَهواةً، شَدِيدًا كَؤُودُها
تَكَنَّفَها الأعداءُ، مِن كُلِّ جانِبٍ وغُيِّبَ عَنها عِزُّها، وجُدُودُها

ثم جاء وفد من بني العَنبر للسعي عند النبي ﷺ ينادونه من وراء الحجرات، فنزل فيهم الوحي القرآني يعنّفهم ويصبّرهم، ويوجههم إلى اللطف في الخطاب والطلب، وكان أن رد النبي الكريم عليهم الأسرى والسبي، أعتق بعضًا وأفدى بعضًا.

٥٠ ـ **سرية قُطبة بن عامر:**(٢) أرسل النبيُّ العظيم قُطبةَ بن عامر الأنصاريَّ رضي الله عنه في ٢٠ رجلًا إلى خَثعم، بناحية بِيشة قريبًا من تُربة، في شهر صفر من السنة التاسعة أيضًا، فبيّتَ حاضرهم في الليل، ثم شنَّ عليهم الغارة، فهبّ معهم قوم كثيرون، وقُتل منهم من قتل، وساق النعم والشاء والنساء، فحال السيل بين الطرفين، وانصرف عائدًا بما معه إلى المدينة.

٥١ ـ **سرية الضحّاك:**(٣) بعث رسول الله ﷺ في ربيع الأول من السنة

---

(١) السيرة ٢: ٦٢٢. وعدي: قبيلة من بني العنبر. والمهواة: المنخفض بين جبلين. والكؤود: العقبة الصعبة. والجدود جمع جد. وهو الحظ.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٨٠ والطبقات ٢: ١٦٢ وزاد المعاد ٣: ٥١٤.

(٣) أنساب الأشراف ١: ٣٨٢ والطبقات ٢: ١٦٢ ـ ١٦٣ وزاد المعاد ٣: ٥١٤ ـ ٥١٥ والوثائق السياسية ص ٢٧٥ والاستيعاب ص ٧٤٢ والإصابة ٣: ٤٧٦ ـ ٤٧٧ وإمتاع الأسماع ١: ٤٤١ ـ ٤٤٣ والأحاديث ٦٤٢٠ ـ ٦٤٢٢ في كنز العمال.

التاسعة كذلك، بكتاب إلى قوم من بني كِلاب، يدعوهم إلى الإسلام، وسيّدُهم رِعية السُّحَيمي، فسخر هذا بما في الكتاب، واحتقره وجعله رُقعة في دلوه، ليرى ذلك جميع قومه.

وفي ربيع الأول أيضًا، وُجِّه الضحّاك بن سفيان الكِلابي في جيش إلى أولئك القوم بزُجّ لاوَةَ، فدعاهم إلى الإسلام وحاربوه، وهرب رِعية تاركًا ماله وأهله، ثم جاء إلى المدينة مسلمًا، وقال: يا رسول الله، أهلي ومالي؟ فقال له: أما مالك فقد قُسِم بين المسلمين. وأما أهلك فانظر من قدرتَ عليه منهم.

وعندما دارت المعركة من قبل كان الأصيَد بن سلمة ﵁ في الجيش المجاهد، ولحق أباه يدعوه إلى الإسلام، فسبّه أبوه وسبّ دينه، فضرب الأصيدُ عرقوبي فرس أبيه، وأسقطه على الأرض واستمسك به، حتى جاء صحابي آخر وقتله.

٥٢ ـ سرية علقمة بن مجزِّز:(١) بلغ النبيَّ ﷺ أن ناسًا من الحَبشة تراياهم(٢) أهل جُدّة، فبعث في ربيع الآخِر من هذه السنة علقمة بن مجزّز المُدلجي ﵁ إلى مراكبهم بالبحر في ٣٠٠ رجل، وهي بالقرب من مكة، فانتهى بمن معه إلى جزيرة في البحر وهربوا منه وخاض إليهم البحر أيضًا، ثم رجع من دون حرب.

وفي طريق العودة تعجّل بعضُ المجاهدين، فأمّر عليهم عبدَ الله بن حُذافة السهمي ﵁، وهو ذو دُعابة. فلما غضب منهم أمرهم أن يوقدوا نارًا

---

(١) الأحاديث: ٤٠٨٥ و ٦٧٢٦ و ٦٨٣٠ في البخاري وأنساب الأشراف ١: ٣٨٢ والطبقات ٢: ١٦٣ وزاد المعاد ٣: ٥١٥ ـ ٥١٦ والإصابة ٤: ٥٦٠.

(٢) كذا في الطبقات وزاد المعاد. وفي أنساب الأشراف: أن القوم رأوا مراكب الحبشة قرب مكة. والمراكب: جمع مركب. وهو ما يركب للتنقل. ولعل المراد: تراءاهم، أي: رآهم أهل جدة. فأبدلت الهمزة ياء للتخفيف على غير قياس.

يصطلون، ثم قال لهم: عزمتُ عليكم إلّا تواثبتم في هذه النار. فقام بعضهم يحاولون ذلك، فقال لهم: اجلسوا. إنما كنت أضحك معكم. فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها. إنما الطاعة في المعروف. من أمركم بمعصية فلا تطيعوه.

٥٣ ـ سرية عليّ:(١) أسرى النبي ﷺ براية سوداء ولواء أبيض عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه مع ١٥٠ رجلًا في ربيع الآخِر من السنة التاسعة أيضًا، لهدم الفُلْس صنم قبيلة طيِّئ، وفي خزانته ٣ أسياف: مِخذم ورَسُوب واليمانيْ، أهدى الأوَّلَين إلى الصنم الحارث بن شمِر، ومع الأسياف ٣ أدراع.

فشن الغارة مع الفجر على آل حاتم الطائي، وهدمَ الصنم وعاد بالأسياف إلى النبي العظيم والأدراع، ومعه سبيّة هي ابنة حاتم، فأطلق النبي ﷺ سراحها لكرم أبيها وأسلمتْ، ثم جاء أخوها عديّ رضي الله عنه فأسلم أيضًا وحسُن إسلامه.

٥٤ ـ سرية عُذرة وبَليّ:(٢) بعث النبي ﷺ بها في هذا الشهر كذلك عُكّاشة بن مِحصن رضي الله عنه إلى هذين القومين في منازلهم بالجِناب.

٥٥ ـ سرية نَجران:(٣) كان بنو الحارث بن كعب المَذحِجيون القحطانيون يقيمون في مقاطعة نجران، بسيادة يزيد بن عبد المَدان بن الديّان، ولهم كعبة، يقال لها: كعبة نجران، يعظمونها ويعبدون يَغوث. وفي شهر ربيع الأول من السنة العاشرة، بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم بسرية في ٤٠٠ رجل، يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام قبل أن يقاتلهم. فأسلموا ودخلوا فيما دُعوا إليه، وتعلّموا ما تيسر لهم من الشريعة وأدَّوُا الصدقة، فرُدّت على

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٨٢ والكامل ٢: ٢٨٥ والطبقات ٢: ١٦٤ وزاد المعاد ٣: ٥١٧ ـ ٥١٩.

(٢) الطبقات ٢: ١٦٤.

(٣) أنساب الأشراف ١: ٣٨٤ وتاريخ الطبري ٣: ١٢٦ ـ ١٢٧ والكامل ٢: ٢٩٣ والطبقات ٢: ١٦٩.

فقرائهم، وكتب خالد إلى الرسول الكريم يُعلِمه ذلك. غير أن قومًا من القبيلة أبَوا وقاتلوا خالدًا، فظفِر بهم وسبى منهم واستاق مواشيهم، وعاد إلى المدينة مع وفد، يرأسه يزيد سيّد بني الحارث وأعظم وجوههم.

٥٦ - سرية اليمن:[١] أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في ربيع الآخِر من السنة العاشرة، بجند إلى اليمن داعيًا للإسلام، ثم أرسل عليًّا رضي الله عنه بجند آخر في رمضان، ومعه كتاب منه يُعلِمهما: إن التقيتما فالأمير عليّ.

كان قد أقام خالد ٦ أشهر بين القوم من دون جَدوَى، ولمّا حضر عليّ وقرأ الكتاب أسلمتْ همْدان كلها في يوم واحد، فكتب بذلك للنبي ﷺ. وعندما قرئ الكتاب عليه خرّ ساجدًا، وقال: «السلام على همْدان» ثلاثًا. ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام، وجاء الخبر إلى النبي ﷺ، فسجد شكرًا لله - سبحانه وتعالى - أيضًا.

٥٧ - سرية جُرَش:[٢] في هذه السنة قدِمَ وفد الأزد، وعليهم صُرَد بن عبد الله، يُسلمون ويبايعون على السمع والطاعة، فأمرهم أن يجاهدوا المشركين من قِبَل اليمن بمن أسلم، فساروا حتى وصلوا إلى جُرَش. وهي مدينة محصّنة مغلقة، وفيها قبائل أزدية انضمت إليها قبيلة خَثعم أيضًا.

حاصر صُرد رضي الله عنه تلك المدينة قريبًا من الشهر، ثم تحوّل عنها قافلًا، حتى إذا صار في جبل شَكر كمَنَ للمشركين، وخرجوا هم في طلبه، ظانِّين أنه ولّى منهزمًا، فانقض عليهم تقتيلًا وأسرًا واغتنامًا. وبذلك صارت المدينة في حوزة المسلمين، وأهلها وأموالها في القبضة المؤمنة.

---

(١) الحديثان: ٤٠٩٢ و ٤٠٩٣ في البخاري والسيرة ٢: ٦٠٠ و ٦٠٢ - ٦٠٣ و ٦٤١ وتاريخ الطبري ٣: ١٣١ - ١٣٢ والكامل ٢: ٣٠١ والطبقات ٢: ١٦٩ - ١٧٠ والاستيعاب ص ١١٢٠ - ١١٢١.

(٢) السيرة ٢: ٥٨٧ - ٥٨٨ وتاريخ الطبري ٣: ١٣٠ - ١٣١ ومعجم البلدان ٢: ١٢٦.

وفي تلك الأثناء، أي: يومِ انتصار المؤمنين على المشركين، كان في المدينة رجلان من أهل جُرَش يتقصّيان أخبار الدعوة، ويحضران مجالس النبيّ ﷺ، فسأل الصحابةَ بعد صلاة العصر: بأيّ بلاد الله شَكْر؟ فقال الجُرَشيّان: يارسول الله، ببلادنا جبل يقال له: «كَشْر»، وكذلك يسميه أهل جُرَش. فقال: إنه ليس بكَشْر، ولكنه شَكْر. قالا: فما شأنه؟ يارسولَ الله. قال: «إن بُدْن الله تُنحر عنده الآن». فتوجّها إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال لهما: ويحكما. إن رسول الله ﷺ ليَنعَى لكما قومَكما. فقوما إليه، فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما. فقاما إليه وسألاه، فقال: اللهمّ، ارفعْ عنهم.

ثم جاء وفد جُرَش مسلِمين مبايعين، فجعل لهم حمًى حول مدينتهم، وقال أحد شعراء الأزد المجاهدين، يصف ما لقُوا من أنواع الحيوان والأبنية والقبائل، ونجاة قومه من عدوان خثعم، إذ كانت تستبد بالأزد وتعتدي عليها في الأشهر الحرم:(١)

يـا غَـزوةً، مـا غَزَونـا غَيـرَ خـائبةٍ فِيها البِغالُ، وفِيها الخَيل والحُمُـرُ
حَتَّى أتَينـا حُمَيـرًا، فـي مَصانِعِهـا وجَمعَ خَثعَمَ، قَد شاعَت لَها النُّذُرُ
إذا وَضَعتُ غَلِيلًا، كُنتُ أحمِلُـهُ، فمـا أُبالِـي: أدانُـوا بَعـدُ أم كَفَـرُوا

٥٨ ـ سرية مَذحج:(٢) في شهر رمضان من هذه السنة، أرسل النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه مع ٣٠٠ فارس إلى نَجران بلاد مَذحج، لقبض صدقة المسلمين وجزية غيرهم. وقد حاربه القوم بالنبل والحجارة، فقَتل منهم ٢٠ رجلًا، وظفر بغنائم وسبي، ثم استجابوا للإسلام، وعاد عليّ بما لديه من المال إلى مكة المكرمة.

---

(١) السيرة ٢: ٥٨٨. وحُمير تصغير ترخيم لحِمْيَر. والمصانع: جمع مصنع، المدن والحصون والأبنية الضخمة. والغليل: ما في النفس من حرارة التظلم. ودانوا أي: أسلموا وأطاعوا.
(٢) السيرة ٢: ٦٠٠ والكامل ٢: ٣٠١.

ولما صار فيها تعجّل ليلقى النبي في حجة الوداع، واستخلف على الجند من يقودهم، فكان من هذا القائد أن وزّع على كل واحد حُلّة بزّ من الصدقة. ثم رجع عليّ رضي الله عنه ورأى عليهم الحُلل، فقال لقائدهم: ويلك. ما هذا؟ قال: «كسوتُ القوم، ليتجمّلوا به، إذا قدِموا في الناس». فاستردّ الحُلل منهم وردّها إلى مال الصدقات. وعندما وصل الجند إلى النبي ﷺ شكَوا ذلك، فقال: لا تشكوا عليًّا. فوالله، إنه لأخشنُ في ذات الله، (أو أوفى في سبيل الله)،[1] من أن يُشكى.

٥٩ ـ **سرية جرير**:[2] قَدِم جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه، في شهر رمضان أيضًا من العام العاشر، على رسول الله ﷺ مسلمًا مبايعًا، وحجّ معه حَجّة الوداع، ثم بعثه الرسول العظيم في سرية إلى تَبالة، لهدم صنم «ذي الخَلصة». وهو مروة بيضاء تعبدها بَجيلة وخَثعم وأزد السراة، ويقال لها: الكعبة اليمانية والكعبة الشأمية. قال النبي ﷺ لجرير: ألا تُريحُني من ذي الخَلَصة؟ فقال: بلى. وذهب في ١٥٠ فارسًا من أحمسَ، فكسرها وحرّقها، ولما عاد وبشّر النبي ﷺ بذلك سجد شكرًا لله، ودعا لبني أحمسَ بالبركة خمس مرات.

٦٠ ـ **سرية المُهاجِر**:[3] بعث رسول الله ﷺ المُهاجِرَ بن أبي أُميّة بن المُغيرة رضي الله عنه إلى صنعاء، في سرية، السنة العاشرة لجمع الصدقات، فخرج عليه المتنبئ ذو الخِمار الأسودُ العنسيّ عَيهلة بن كعب. وقد انتهى أمر هذا المتنبئ بعدُ بالقتل.

* * *

(١) ما بين قوسين هو من شكّ الراوي.

(٢) الأحاديث: ٤٠٩٧ ـ ٤٠٩٩ و ٢٨٥٧ في البخاري وأنساب الأشراف ١: ٣٨٤ والكامل ٢: ٣٠٤.

(٣) السيرة ٢: ٦٠٠ والكامل ٢: ٣٠١.

وبانتهاء هذه المسيرات الجهادية الكثيفة المتداخلة المتعددة الجبهات ـ وهي تفوق عدد ما كان من أمثالها مع سائر المعتدين ـ اطمأنت نفوس الوثنيّين من العرب إلى دعوة الإيمان، وتوالت وفود القبائل من جميع الجهات ومختلِف العشائر والبطون، تعلن إسلامها طوعًا وتبايع النبي الكريم ﷺ، على الطاعة في العسر واليسر والجهاد والعمل الكريم. وكذلك صارت أحوال الأُمة العربية، دولة واحدة بدِين رباني وشريعة مُصلِحة موجِّهة للخير، وجهاد في سبيل الله ـ جل ثناؤه ـ لضرب كل يد تمس كرامة المسلمين أو تحول دون تبليغ الدعوة، أو تمنع الحوار الديني بالحُجة والبرهان والعمل الطيب والخلق القويم.

ولكن هذا لم يقطع دابر الفتن والعدوان، إذ خرج بعض المُتنبّئين يصطادون في الماء العكر، وامتدت أيادي أُمّة الخِسة والدناءة خلال تلك المغازي، وأعناقُ الدول العظمى حينئذ، تدافع عن مناطق نفوذها، بكل وسائل الكيد والحرب والعدوان، لعلها تستنقذ بعض ما تملّص من سلطانها، وتحمي البقية الباقية، قبل أن تدخل مراحل التداعي والانزياح والتقلص والفقدان. وسوف نتابع من هذا ما له صلة ببحثنا، في الفصلين الآتيين من الباب الثاني، إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني
جهاد أهل الكتاب

الفصل الأول

النفوذ الاقتصادي

وضع الله ـ عزّت أسماؤه ـ في أفراد الخليقة قُدرات وحاجات تتطلب التفتح والممارسة، لتحقيق ذاتها وغاياتها من الوجود وقيامها بوظائف عمارة الأرض، وخلق لها عوالم من الأحياز والموارد الحيوية، تُنفّس فيها عما تحمله من تلك القدرات والحاجات والوظائف، ثم أقام لذلك كله نظامًا محكمًا ييسر للجميع استمرار الحياة بتعاون وانسجام.

تَرى نماذج ذلك بجلاء في عالم الفضاء الخارجي، إذ يكون للكواكب والنجوم والمَجرّات أمداء محدودة لكل منها، تتحرك فيه وتنشر طاقاتها وتنعم بما يضم من الأجواء الملائمة. وكذلك الشأن في عالم الأرض، إذ تجد للماء أحيازه التي يستبد بها ويمارس فيها صخبه وتدفقه واستعلاءه ورذاذه وأبخرته ونداوته، ولليابسة حدودها التي تنشر فيها القارات والجبال والوديان والجزر والحجارة والنثار والرمال والغبار. وبذلك يكون التعاون وتبادل المصالح بين الجانبين لتأمين الاستقرار والكفاية.

بل إن الهواء ليتوزع في الكون، وله مسارات ومسارب منتظمة، ينطلق فيها بحيوية ونشاط، لينقل إلى الخليقة آثار نعم الله، ويقوم بالخِدمات النوعية للإنسان والحيوان والنبات والجماد. فهو سفير مؤتمن، يؤدي رسالته ويوزع حمالته، ويتنفس بين تلك المخلوقات المتعطشة إلى أنسامه ورياحه وخطراته.

ثم تجد النبات بأنواعه وأشكاله المختلفة المتباينة، ينتشر في الغابات والبحار والجبال والسهول والبلدان، وهو يتمدد في بقاع من الأرض اليابسة

والمائية، ويتطاول في أبعاد من الجو، ويتغلغل بين منافذ الصخور والتربة والمياه، ليجد القدرة على النمو واستمرار الوجود، ويمنح أزهاره وثماره وأشذاءه.

وكذلك عالم الحيوان يذخر بتميز الأنواع والأجناس، وتوزُّع كل منها في أصقاع جوية وأرضية، تمنحه إشباع حاجاته وتطلعاته وطموحاته. ثم يتسنم الإنسان قمة ذلك التوزع، لأنه خليفة الله في الأرض، قادر على الاختيار والتدبر والعمل المنهجي المتطور، بحسب الظروف والحاجات والطوارئ. فقد استعمره الرحمن في هذا الكوكب الصغير، وأحاطه بما يساعده على ذلك، من العوالم والمخلوقات والقدرات والملَكات والمهارات، وسخرها له يستفيد من إمكاناتها المختلفة.

ثم ترى أن الملائكة، بخلقهم النوراني، يحيطون الإنسان برعايتهم ورقابتهم، ويقدمون للدنيا والآخرة ما كُلِّفوه من أمانة وما عُلِّموه من حقوق وواجبات، في حدود الإمكانات والقدرات المتميزة. بل إن عالَم الجن له أيضًا وظائف كونية يمارسها بين المخلوقات، فيما قُدّر له من الأحياز الخفية.

يا سبحان الله! ﴿سُبحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ، عَمّا يَصِفُون﴾![1] خلق كل شيء بقدر، وصمّمه في أجود تصميم لائق به، فـ ﴿أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾،[2] ثم منحه الخصائص والصفات اللازمة له، وساقه في مطاوي الوجود، متوجهًا بغرائزه وحاجاته ومنافعه إلى السبيل القويم في خدمة الكون والحياة. إنه هو ﴿رَبُّنا الَّذِي أعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.[3] وقد سبقت رحمته جميع ذلك، فأحاطت ووسعت كل شيء.

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الصافات..

(٢) الآية ٧ من سورة السجدة.

(٣) الآية ٥٠ من سورة طه.

مناطق النفوذ:

تلك سُنّة الله في خلقه، وضعها مسخَّرة مبرمَجة منظِّمة للأنام، ثم زوّد هذا الأنامَ في غرائزة ومكوّناته ومتطلباته، بنزعة إلى الحيازة والتملك والاحتجاز، ليسعى في توسيع رقعة الحقوق والواجبات وميادين الحضور والعمل، ويكون التعاون لتيسير مقتضيات الوجود من جهة، والصراع الأبدي بين عناصر الخلق من جهة ثانية، في سبيل التسلط والتفرد والاستبداد.

ولهذا تجد في كثير من الأحيان طغيانًا للبحار والأنهار والسيول، وانزياحًا للصخور والتلال والجزر والسهول، وزحفًا للرمال والتراب والحجارة والحصى، وتفجّرًا للبراكين بالحُمم والنيران، وتشققًا وزلزلة للبقاع والأصقاع، وانهيارًا للثلوج والجليد وقمم الجبال، وصخبًا وتدفقًا للرياح والزوابع والأعاصير. فهذه الكائنات الجامدة لا تقنع بما يكفيها للحياة، فتخترق حدود كِفاياتها، لتمدد مناطق نفوذها، وتفرض وجودها على حساب الغير من عناصر الخليقة.

ذلك لأنها تريد أن توسع مجالها الحيوي، فيكون لها ميدان أكبر من حاضرها ييسر تأمين احتياجاتها، وتتمتع بخيراته وتنعم في ظلاله ومنجزاته. ثم إذا دخل هذا الميدانَ عنصر غريب، غير خاضع لسلطانها، فإنها تلتهمه وتهضمه، أو تجتذبه وتسيّره ضمن مجالها، أو تفجّره لتنتهي منه، وقلما تتعاون وإياه في تبادل المصالح والمنافع والحاجات. هذا ما نعرفه عن المَجرّات والكواكب والنجوم والشهب، فيما بين مجموعاتها وأفرادها، والشظايا التي تتقاذف منها وتتناثر في الفضاء والأجواء.

فإذا دخلتَ عالم النبات شاهدت تمدد عناصره وجزئياته في الكون، فتستطيل الفروع وتتكاثر وتتسع الأغصان والأوراق وتتشكل الأزهار والثمار، لتغطي ما حولها من صغائر الجوار ودقائقه، فتعيش على حسابه من منابع

الحياة، شمسًا وهواء وتربة وماء وهناء. وحينما يدخل حيِّزَ تمددها منافس أو شريك، فلا بد من النزاع حتى تكون الغلبة والتفرد بالسلطان.

وما شأن الحيوان بأقل دلالة على تنازع ميادين النفوذ. فلكل نوع مجاله الخاص المتميز، يرتع فيه ويشمخ بأنوفه ورؤوسه، ثم تراه غالبًا ما يقتات من الأنواع الداخلة في مجاله الحيوي، إذا كانت أضعف أو أصغر منه، بل إنه ليتطاول إلى ما يجاوره لا عتداده إياه متممًا ذلك المجال. وإذا حصل اجتماع عدةُ أنواع أو أصنافُ نوع واحد فلا بد أن تدور العناصر الدنيا في فلك العُظمى، حتى تستقر معالم الحياة وتنتظم في ضوابط مناطق النفوذ وأخلاقياته.

وهذا ما يُدعى بين الناس، في المحافل الدولية والاجتماعية، بشريعة الغاب، ويُنعى عليه ما يسود في أحيازه، من العدوان والتسلط والفتك والمحق أو الإبادة. ومع ذلك فإنك واجده ظاهر التحقق في أولئك الناس وهذه المحافل، بالشكل الفعلي الواسع الشنيع، ولكنه مصبوغ بزخارف الشعارات وأباطيل المبادئ والمسوّغات، كالسلام العالمي، وحرب الإرهاب، وحفظ التوازن بين القوى، والدفاع عن المصالح، وإتلاف سلاح الدمار الشامل... أي: الحِفاظ على مناطق النفوذ والمجالات الحيوية، واستنزاف الثروات والقدرات والضمائر والخزائن والجيوب.

فالإنسان بفطرته نازع إلى التملك والحيازة والتصرف فيما بين يديه وما حوله. ثم إن «ما حوله» يختلف مفهومه ومداه بين الأفراد والجماعات والأمم، تبعًا لقدراتها وأصداء الطمع والجشع فيما بينها، والظروف المواتية للتفتح والانغلاق. فقد يكون في دائرة صغيرة تحيط بالكيان وتساعد على حفظه ونمائه، وربما امتدت إلى آفاق قاصية، ترود القارات والمحيطات والكواكب والمجرات.

وحسبك مثالًا على ذلك ما ترى اليوم، من اصطناع الحروب التبويشية المتوحشة، وفرضها على المسلمين، المسلمين فقط، في فلسطين والعراق ولبنان

وأفغانستان وداغستان والشيشان والصومال والسودان، وكل وطن مؤمن لا يستخزي للقبضة البوشية. وإلا فما صلة هذه المناطق البعيدة النائية بأجواء الدولة الأمريكية وهوائها وحدودها وجبالها والسهول والأنهار والوديان؟

بل ما هو خطر تلك البلدان الإسلامية على الحُلفاء، من أمثال اليابان وأسترالية وكَندة وروسية وفرنسة والدنمرك ورومانية وفنلندة وإسبانية وألمانية؟ وما هي منافستها لهذه الأمم الهمجية المعتدية بالقتل وانتهاك الحرمات والدمار، وانتهاب الخيرات والثروات والضمائر؟

ألا إنما هو الشَّرَهُ المتوحش مطلقًا بلا حدود، يتجاوز القارات والفضاء، ليصب نقمته على منابع الثروة وكنوز الخير، التي لم يُعِدّ أهلها القوة والمرابطة حفاظًا على الكرامة والوطن والدين والنفس والعرض والممتلكات. أي: ليس لهم راية عزيزة بالسلاح والذخائر والاستعداد وطلب الاستشهاد، تخفق فوق رؤوسهم، وتظلهم بما تحمله من العظمة والقدرات الحربية، وتُرهب كل عدو متربص، فتردع من يخطر له أن يمس كرامتهم، وتقمع من يتحرك للعدوان. فهؤلاء الذين لا يملكون ذلك كله يكون لهم الخزي والهوان، كما أعلَمَنا الرسول الكريم ﷺ، بقوله: «جُعِلَ رِزقِي تَحتَ ظِلِّ رُمحِي، وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ علَى مَن خالَفَ أمرِي»[1].

فقد حقق هو بشخصه العظيم ما كان له وعليه، من السيادة والعزة والمحبة والهيبة والكفاية المالية، واستمر ذلك له ولأُمة الإسلام آنذاك، بعد حفظ الله ورعايته، بحماية مظلّة الرمح وما يتبعه، من السلاح والعتاد والإمكانات القتالية في جماعة المؤمنين، لا بالرمح نفسه، أي: لا بالقتال والمحاربة وحدهما. ولذلك قال: «تَحتَ ظِلِّ رُمحِي»، ولم يقل: برمحي.

---

(١) الحديث في صحيح البخاري ص ١٠٦٧ في باب: ما قيل في الرماح. وانظر فتح الباري ٦: ١٢٢ - ١٢٣ والمسند ٢: ٥٠ و٩٢.

وإنما خصّ هذا من دون سائر الأسلحة، لأن العادة كانت أن تُجعل رايات الأقوام في أطراف الرماح، للدلالة على شعار كل منها ومدى احتفاظها بمنزلتها. فإذا خالفت الأُمّة سِيرة نبيها الكريم ﷺ وما أمر به من الاستعداد الدائم، وافتقدت مثل هذا الشعار مع ما يتضمنه من القوة والمرابطة، لتعيش خاضعةً تحت مظلة الأعداء والمتمسلمين المأجورين سماسرةِ القيم والشعوب، ومحجوزةً في زنزانات الوطنية والقومية والمحلية، ومندفعة خلف مفاتن البذخ والأُبّهة والكماليات والشهوات، ومبيحة لأبنائها الرشوة والنصب والفواحش والمنكرات، إذا فعلتْ هذا فقد طلبتْ لنفسها الذلة والهوان، ولم تجد لها نصيرًا، إزاء ما يحمله أكثر الناس، من طغيان الميل العدواني الغامر للنفوس، والمحرك للبغي والبطش والتنكيل.

إنه الجشع البشري يتفاقم في خيالات المتعطشين إلى الدماء والأموال، ويتنامى في صغائر النفوس، ولا يجد له من يلجمه أو يقوّمه أو يردعه. وصدق الرسول الأعظم ﷺ، يحذّرنا مخاطر الهمجية ومصاير البشرية في هذه البؤرة المتفجرة، ويوجّهنا إلى ضبط النفس والاعتدال: «لَو كانَ لابنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لابتَغَى ثالِثًا، ولا يملأ جوفَ ابنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ».(١)

وإنك لتلحظ هذا الاندفاع الهمجي في مراحل الطفولة الأُولى، لدى الأفراد ذكورًا وإناثًا. فكل منهم يرى أن ما حوله أو ما تقع عليه عينه أو يسمع به أو يتصوره هو مُلكه الخاص، لا يجوز أن ينازعه فيه أحد، ثم يثير المشكلات والفتن ليصل إلى الحيازة والتصرف فيه والتفرد به. بل إن أُمّه وأباه أيضًا هما مُلكه المتميّز، يتمتع به وحده، ويأبى أن يشاركه فيه أخ أو أُخت أو صديق أو قريب أو غريب.

---

(١) الأحاديث: ٦٠٧٢ - ٦٠٧٥ في البخاري و ١٠٤٨ و ١٠٤٩ في مسلم والمسند ١: ٢٧٠ و٣: ١٦٨.

فهو يعتقد أن ذلك مجاله الحيوي، أو نطاق نفوذه، ويَغِير ممن يمسه أو يدنو منه، ويَضيره أن يتحسس أصداء من تلك المنافسات. ثم إنه ليترعرع صاحبنا هذا، فتتغذى منازعه بتجاربِ مَن حوله وأعمالهم العُدوانية، على الآخَرين والقيم والضوابط والحقوق والواجبات:

في البيت بين الوالدَينِ والإخوة، وفي الشارع بين الجيران والزملاء والأصدقاء، وفي السوق بين الباعة والمشترين والسماسرة والمتسلطين وأرباب الإتاوات، وفي المدرسة والمعهد والجامعة بين الطلاب والإدارة والأساتذة والأنظمة والمقررات والتكاليف، وفي مجالس العبادة بين المؤمنين وبعض «رجال الدين» المبرمَجين بتثبيت الطائفية أو المذهبية، والانحرافات بمقولات فجة وأحكام وهمية، وعداوة أو منافسة مفرطة للغير.

وأخيرًا في الآفاق بلا حدود: في خدمة العَلَم الإلزامية بين الجنود والضُّبّاط والقادة، وفي السياسة الدنيا بين الأحزاب والسلطات والمتنفذين، وفي السياسة العليا بين الدول المتجاورة والحكومات المتعاقبة، وبين الأمم الضعيفة والدول الغازية المستبدة بالمحق والتدمير وهتك الحرمات واستنزاف الثروات والضمائر والأوطان، والتلويث للقيم والعقائد والعبادات والنيات والأذواق والسلوك والعمل واللغات والعلوم والفنون والآداب.

يَشِبّ صاحبنا المسكين عن الطوق، في هذه الأجواء المحمومة بروح التسلط القديم والعَولمة والتبويش المعاصرين، فتتضخم لديه تلك المنازع الهمجية وتصبح المتحكمةَ في تفكيره وتقديره وقوله وعمله، إذا لم ير لها مشذِّبًا يضبط حوافزها ومنازعها وصبواتها. ومن ثَمّ تصبح طموحاته طامّة على من حوله من الأقرباء والجيران والأصدقاء والزملاء، بل على البيئة والوطن والدين والأُمة والإنسانية والكون والحياة أيضًا.

ولهذا جاءت رسالات السماء، تكبح الجماح وتقلِّم البراثن والأظفار وتُلجم الأنياب والأضراس. جاءت تعترف بما في النفس من جشع وأطماع، وتهدي إلى صقله بحرمة التملكات الفردية والجماعية والأُممية والإنسانية، لرفع مستوى المخلوق البشري من حضيض الهمجية إلى مراتب الكرامة والمروءة والبر والإحسان، باحترام حقوق الآخَرين ومكتسباتهم، ومساعدتهم على حمايتها وتنميتها في ظل العدالة والخير للجميع.

وهذا ما فعله النبي الكريم ﷺ في سيرته المعطّرة، مع الأصحاب والمُوادِعين والخصوم غير المعتدين، يَسُنّه لمن حوله أو يأتي بعده، ثم رسّخه في حَجّة الوداع يوم النحر من الشهر الحرام في البيت الحرام، حيث خاطب الناس جميعًا، ولم يخصّ المسلمين أو الذين آمنوا، فقال: أيُّها الناسُ... «فإنَّ دِماءكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم علَيكُم بَينَكُم حَرامٌ، كحُرمةِ يَومِكُم هذا، في شَهرِكُم هذا، في بَلَدِكُم هذا».[1]

أما أمر الدماء فمعلوم لا يحتاج إلى تفصيل، وأما الأموال فهي ما يُملَك من ذهب وفضة ونقد وعقار وزراعة وصناعة وتجارة وديار ولباس وغذاء وزينة ومتاع، وأما الأعراض بالنسبة إلينا فهي ما تجب حمايته بعزة واستقلال، كالعقيدة والشريعة والعبادة والأعمال والأخلاق والشرف، واللغة والقيم والمثل، والوطن الإسلامي كله والأُمة الإسلامية بكاملها، وأفراد المسلمين وعائلاتهم في ديار الدول الأُخرى.

هذا هو المحرَّم علينا أن نسمح بمسه أو النيل منه، وأن نمس أمثاله أو ننال منها لدى غيرنا، إذا لم يكن معتديًا غازيًا أو محتلًّا أثيمًا. إنه مقدس لدينا يجب علينا حمايته ورعايته وإكرامه، ولو حُملنا على القتال والتضحية بالروح

---

(١) انظر السيرة ٢: ٦٠٣ والأحاديث: ٦٧ و ١٠٥ و٣٠٢٥ و٧٠٠٩ في البخاري.

والجسد. وقد جعل رسول الله ﷺ القتل للدفاع عن ذلك شهادة في سبيل الله، حين قال: «مَن قُتِلَ دُونَ مالِهِ فـهُوَ شَهِيدٌ، و مَن قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فـهُوَ شَهِيدٌ، ومَن قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فـهُوَ شَهِيدٌ، و مَن قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فـهُوَ شَهِيدٌ».[1] ثم جاء العلماء الكرام يشملون جوانبه وعناصره، حين عبروا عنه بمصطلح: الصِّيال.

الدوائر المنداحة:

تلك هي مِنطقة النفوذ الحقيقيةُ المقدسة لدى الإنسان، وعليه حمايتها والحفاظ عليها أن تُمس بسوء أو عدوان، وليس له أن يتطاول إلى ميادين غيره من الشعوب والأمم، أيًّا كان الخلاف أو الخصام، أو الظروف المحيطة به والحاجات المتحكمة فيه. ولكن الأحداث التاريخية التي أحاطت بالدعوة الإسلامية كانت على غير ذلك من التعقل والتهذيب والاعتدال، وفرضت على المسلمين صراعًا قاسيًا ومقاومة عالية في العهد المكي، ثم جهادًا داميًا وحروبًا متواصلة في العهد المدني، وكان أن مُنيت الدعوة بركام من البلايا والجائحات والنكبات.

لقد كانت النبتة الكريمة في أول نشأتها كالجزيرة، انبثقت في بحر الظلمات بخضرتها الوارفة وأزهارها العطرة وثمارها اليانعة وغبار طلعها المنتشر في الفضاء يبحث عن لقاح نبيل كريم، فانشق سطح الماء المالح الكدر عنها بدائرة صغيرة لألاءة فوّاحة، بهرت أبصار الصناديد من قريش وقرعت آذانهم وقلوبهم وخرّشت أنوفهم وعقّدت ألسنتهم، لِما تهدّد به هياكل الجهل والتسلط والمفاسد، فصبوا عليها جوامّ السخط والنقمة والعدوان، وكل وسائل التعذيب

(١) الحديث ٦٤٤٥ في صحيح الجامع الصغير وزيادته. وانظر مختصر شرح الجامع الصغير ٢: ٣١٠.

والتنكيل والإهانة والتشريد، ليجعلوها سائبة لا جذور لها ولا قرار. وهو ما يطمْئنهم إلى ترحيلها عن الوجود.

ولمّا علموا أنها ستنتقل إلى يثرب تحت مِظلة الأنصار، ويكون لها مستقر وظلال وحماية وانطلاق، خاب فألهم وطار صوابهم، فراحوا يخاصمون هذه القوة الجديدة التي دخلت الميدان، ويهددونها بالبطش والتقتيل. فقد انداحت الدائرة الصغيرة بدفع عنيف، وآن لها أن تزداد اندياحًا في شكل لا حد له. فلا بد من توسعة ميدان الشقاق والنقمة، لخنق الحركة قبل تفتحها وانتشار محيطاتها. ولكن باءت محاولات الناقمين بالفشل والعجز والإخفاق.

وفي المدينة المنورة ترسخت أصول الدولة، وصار لها تاريخ جديد يتلقف عناصر التخريب والهدم، بحيث إنه كلما ظهر لها شعاع قوة تهافتت عليه فراشات الأباطيل، تقتحم حَرَمها وتَشغلها بالمناوشات السريعة والمكايد الإجرامية، كيوم الرجيع وبئر معونة، ثم بالمعارك الدامية والمجازر المتكاثرة.

فقد انبثقت هنا أولًا دائرة جديدة صغيرة واعدة، بين تنفُّذ اليهود وزعامة ابن سَلول وأطماع أبي عامر، وانضافت إلى السالفة في مكة، فتضاعفت حلقاتها واشتد بنيانها حول الدولة الداعية إلى التوحيد والصلاح، وهي تقابل ذلك بحزم وجلاد، فتزحم بمناكبها الأزباد والأقذاء والحطامات المتراكمة. ولعلك تذكر تفاصيل ذلك فيما عرفته، من الكيد اليهودي وفتن النفاق والحروب مع قريش ومن لفّ لِفّها.

يضاف إلى هذا أن حول المدينة المنورة هياكل أُخرى متعفنة من قمائم الجاهلية، يُفزعها نشوء دولة ناهضة تبشر بقوة واستقلال. فلا مفر من وأدها في مهدها والقضاء عليها، للتخلص من وقوفها في وجه سيول الشرائع القَبَلية العدوانية. وهكذا ضمّت الدوائرُ المختلفة المنداحة بين جوانحها قبائل كثيرة، بدأت بالقريبة وانساقت إلى البعيدة فالبُعدى فالقُصوى.

وتبعًا لهذا، فإن الدول النائية جدًّا عن الدوائر المنداحة أقحمت أنفسها في الجوانح وشاركت في النقمة، خشية أن يكون لها نِدّ شامخ الرأس في أرض العروبة. ولذا ترى أن الفرس الذين كانوا قد جنّدوا المناذرة، والروم الذين جندوا الغساسنة، لإخضاع القبائل وحماية حدودهم ومصالحهم السياسية والاقتصادية من غزواتها، يُقضّ مضاجعهم نشوء دولة ذات رسالة وسيادة ومطامح إنسانية واسعة الأمداء.

وقد بدأت التقحمات من قِبل صنائع الروم، إذ صارت هذه تحشد القبائل والجيوش بتحريض من الخوف والجشع والطمع و من أبي عامر المنافق، للانقضاض على المدينة المنورة، ثم تنفضّ فزعًا من اللقاء. ولما أسلمتْ تلك الصنائع، وخرجت عن ربقة العبودية للدولة الأعجمية الغازية، شعرتْ هذه أن مِنطقة نفوذها العربي قد تفلّتت من يديها، وصار للعرب حضور آخر غير مرْضيّ عنه، وفيه الخطر على مصالحها في تلك المناطق، فالأمر يقتضي مباشرة القتال.

وكذلك الشأن حين دخلتْ صنائع الفرس في حوزة الإسلام، وانسحبت من أيديهم أزمّة السيطرة والسلطان. فهؤلاء المطمئنون إلى استسلام القبائل، وخضوعها لنفوذ المناذرة، أصبحوا يرون في المناذرة والقبائل قوة جديدة مستقلة تهدد بالتحدي والجلاد. وهذا ما لا يُرضيهم وهم السادة المستبدون بالأمور والمسيرون للتاريخين السياسي والحربي آنذاك.

وهكذا صارت تُفرض على الدولة الفتيّة حروب متفرقة متواصلة، من جميع الجبهات الشمالية، وانضمت إليها فتن المتنبئين في الأصقاع والمتمردين حول الدولة، فأصبحت الدوائر المنداحة متداخلة متقاطعة متناصرة، تستغرق العالم العربي وما حوله من الأعاجم، ويتقحم حدودَها أُمم من الشرق والغرب، حتى انطلقت محيطاتها، لتشغل التاريخ إلى يومنا هذا بأنماط من اجتياحات المعتدين، كان آخرها صرخة العَولمة الخبيثة والتبويش الأثيم.

فكل انتهاء من معركة يفتح على القيادات الإسلامية أبوابًا جديدة من الناقمين المجاورين، يؤرقهم ظهور قوة بجانبهم قاهرة، ويحملهم على افتعال المعارك والحروب، ليَشغلوها عن الاستقرار ويحملوها عن الخضوع والاستخزاء، فتكون الغلبة عليهم بإذن الله.

تلك قصة الجهاد في التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا وإلى الأبد. وصدق الله العظيم، مبيّنًا لنا في خطابه الخالد أن الأمل في موادعة المشركين والوثنيين والكافرين والملحدين للمسلمين ميؤوس منه ميؤوس، وأن المعركة أزلية أبدية، لايُرتجى لها انقطاع أو خمود أو نفاد: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾. فأعداء الإيمان والصلاح مُحال أن يسالموهما أو يوادعوا أصحابهما، ما دام فيهم حياة أو قدرة أو نشاط. وإنما يمنعهم من العدوان أو يوقفهم عنه رهبة القوة والرباط، أو ضعفهم يأملون تدارك ما فيه إلى حين.

وما جرى مع الخلفاء والأمراء والقادة، في تاريخ الإسلام شرقًا وغربًا، لكل معركة منه أسبابها الشرعية، التي يعرفها أصحابها، ويسيرون فيها بهدي القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المشرّفة. ثم إن كلًّا من الموجّهين والمنفّذين لها هو فقيه تقي صالح، يخشى الله ويطلب رضاه، فيلزم حدود الشرع الحنيف، وإذا حاد عنها ردّه القضاة الأوصياء على الجميع، بما أعطاهم الله من العلم والنَّصَفة والسلطان.

ونحن قد بلغتنا شذرات من تلك الظروف والمسوّغات والأحداث، لكنها لم تكن بالتفصيل والدقة والتوثيق كما جاءت أخبار مغازي الرسول العظيم ﷺ. فهي غائمة مضطربة متقطعة مخلخلة وقاصرة، لا تعطي مادة موثقة وافية للبحث العلمي السديد، ويخطئ من يحاول اعتماد بعضها أدلة كافية للتحليل والتحريم، لأن الحقائق ذهبت مع التاريخ، والحكم العدل فيها لله ـ عز وجل ـ وحده.

أُمّـة البغي والخِسّـة:

في المنطقة الشرقية من العراق، مدينةِ كُوثَى بإقليم بابل حيث سلطان النَّمارذة السومريين الحاميِّين،(١) نشأ سيدنا إبراهيم ﷺ. فقد وُلد من أبوين حامِيَّين(٢) من أهل حرّان الأعاجم، وكان له الجهاد المشهور للنُّمروذ، حيث

---

(١) النمارذة سومريون عاشوا في بابل، وليسوا من الساميين. نعم في أصل هؤلاء خلاف مشهور، حتى قيل: إنه مجهول لا يمكن تحديده. وزعم أحد االإسرائيليين أنهم مصدر الحضارة في العالم لأن العبريين منهم، وزعم بعض المعاصرين أنه لا وجود لهم، وأنما هم فرع من الأكاديين، مع فارق هو أن لهم طريقة متميزة في رسم اللغة الأكادية، فتوهم الناس أنهم قوم آخرون. وقد رجّح بعض الباحثين أن يكونوا من الهنود الآريين الحاميين. وعندي أنهم فرع من الحاميين سلالة حام بعد قرون وقرون من عهد نوح، وبديهي أن تكون لغتهم قريبة من لغة الأكاديين، لأن اللغتين متفرعتان من أصل واحد بلا شك.

وقد كان يحكم السومريين هؤلاء في عهد إبراهيم ﷺ نُمروذ بن كنعان، وأجداده النماريذ القدماء كانوا من الجيل الثاني لسلالة حام قبل إبراهيم الخليل بما لا يعلمه إلّا الله. وقد تعرض قدماء العلماء العرب لذلك، وحققوا أن النماريذ من بني حام، وزعموا أنهم من سلالة كنعان بن حام بن نوح. ولأن بني إسرائيل طارئون على بلاد العرب، جعل النبيُّ لمن لجأ منهم إلى ما حول المدينة معاهدة خاصة، على أنهم جيران لاجئون، بخلاف معاهدات غيرهم من المسلمين والمشركين والنصارى والعرب المتهوّدين. انظر المحبر ص ٤٦٥ - ٤٦٦ و ٣٨٤ و ٣٩٣ - ٣٩٤ ومروج الذهب ٢: ٩٤ - ٩٥ و ١٠٩ وتاريخ الطبري ١: ٢٠٥ و ٢٠٧ و ٢٨٧ والكامل ١: ٨٠ والموسوعة العربية العالمية ٢٥: ٥٠٨ وفقه اللغات السامية ص ١٦ واللغة العربية: جذورها وانتشارها ص ١٢ وحقيقة السومريين ودراسات أُخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية ص ٢٣ - ٤٦ لنائل حنون.

(٢) هذا الأصل لسيدنا إبراهيم ﷺ هو أقرب إلى الصواب، وخلافٌ لما زعمه أحبار اليهود في التَّلمود ومَن تابعهم من المستشرقين والمستغربين، مِن أنه ساميّ، ونقضٌ للنسب المختلَق الذي صنعوه، وقد قال الإمام النووي عنه: إنه «مختلف فيه ولا يصح في تعيينه شيء». =

اضطُرّ أن ينتقل مهاجرًا مع زوجته سارةَ ابنةِ عمّه بين بلاد العرب المستعجمين في لغتهم: الأقباط في مصر ثم الكنعانيين في فلسطين، لينزل ضيفًا في مدينة الخليل بين الكنعانيين، وهم العرب المتأثرون ببعض الأعاجم من الأمم يومئذ.

كانت زوجته المباركة سارة عقيمًا، فوَهبت إليه جارية عربية قِبطية اسمها هاجَر. ولما حملتْ هذه الجارية بإسماعيل ـ عليه السلام ـ شعرت سارة بالغَيرة منها، وكأنها أصبحت لها منافسة، تنتزع اهتمام الزوج ورعايته، فرحل إبراهيم ﷺ بزوجته الحامل إلى جوار بيت الله الحرام، وهو تلّ معهود يحجّ إليه الأنبياء، وحوله قبائل عربية خالصة العروبة، أشهرها جُرهم التي تشرف على رعاية ذلك البيت المحرم حينذاك.

وهكذا وُلد إسماعيل ﷺ من أُمّ عربية، في بيئة خالصة العروبة، وكانت هذه الولادة المباركة سببًا لاشتداد غَيرة سارةَ، فلم تحتمل رجوع الضَّرة وابنها إلى ديار الكنعانيين، فما كان من إبراهيم إلّا العودة بالأُمّ وابنها الرضيع إلى

= تهذيب الأسماء واللغات ١: ٩٩. وكان أبو إبراهيم آزر ـ ومعناه الخادم المؤازر المعين ـ يصنع الأصنام لقومه ويشجعهم على عبادتها ويؤازر طواغيت المتسلطين. فهو من قوم النماردة الحاميين.

وكذلك جَدّة اليهود سارة زوجة إبراهيم، هي ابنة عمه من قومه، ومثلهما إسحاق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ وزوجاتهما. فهم، أي: اليهود سلالة هؤلاء، من جنس آخر لا علاقة لهم بسام ولا بالسامية في النسب. إلّا أنهم ارتضخوا خلائط من طُمطمانيات السومرية واللهجات العامية المستعجمة القبطية والكنعانية وغيرهما أسموها عِبرية، عندما تشردوا في بلاد الساميين أي العرب: مصر والشام، فوضع لهم الدجاجلة نسبًا دعيًّا، وألصقوهم بأبناء سام زورًا وبهتانًا.

والفرق بين اللهجتين الكنعانية والقبطية من جهة، وبين رَطانة العِبرية من جهة، أن الأُولَيَين عربيتان غير عدنانيتين لأنهما مشوهتان بالعجمة المحيطة بهما، كما هي حال لهجاتنا المحلية في هذا العصر، على حين أن العبرية تلفيق بين السومرية وعدة لهجات من تلك المستعجِمات، لصناعة طُمطمانة لقيطة، كما لو أن أرمنيًّا صنع الآن رَطانة من لغته وعدة لهجات مصرية وشامية. انظر إحياء البحث العلمي الإسلامي ص٢٠٦ ـ ٢١٣.

البيت الحرام. وهناك نشأ إسماعيل ﷺ في أحضان أُمّه العربية وبين قبائل العرب الخُلَّص، وكانت جهوده مع أبيه، في تأسيس قواعد الكعبة المشرفة، وقصة الذَّبح والافتداء بكبش عظيم، وغير ذلك من حياة النبوة المعظمة.

ويعد بناء الكعبة بأربعين عامًا، بنى إبراهيم ﷺ المسجد الأقصى في القدس.(١) ثم قَدّر الله له بمعجزة اخترقت حُجب المُحال، وهو الشيخ الهرم وزوجته عجوز عقيم، أن يولد لهما إسحاق - عليه السلام - فعاش في الأسرة الأعجمية. ولم تسمح الولادة الجديدة لهاجَر أن تعود إلى مكان عيش إبراهيم ﷺ فعاشت الأسرتان متمايزتين: إحداهما أعجمية حامية في فلسطين، كان منها يعقوب بن إسحاق - عليهما الصلاة والسلام - بسلالته بني إسرائيل،(٢) والأُخرى سامية في مكة، ذريتها القبائل العدنانية مباركةً بإسماعيل ﷺ ثم بنبينا محمد ﷺ.

ثم كانت ولادة يوسف - عليه الصلاة والسلام - بين أبناء إسرائيل، أي:

---

(١) الحديثان ٣١٨٦ و٣٢٤٣ في البخاري. وهذا هو الصواب خلافًا لما اضطربت الروايات فيه من نسبة ذلك إلى الملائكة وآدم وشيث وسام وإيلياء ويعقوب وداود وسليمان. انظر فتح الباري ٦: ٥٠٢ - ٥٠٥.

(٢) قد يُعترض هذا بأن الحاميين بَشَرتهم سوداء، فكيف تكون بَشَرة الإسرائيليين سمراء أو بيضاء؟ والجواب يسير أمرُه تجده في وصفهم بالسُّومرية أي: السُّمرة القاتمة، ثم تراه بجلاء في تناسل الألوان المختلفة من آدم وحواء. وقد وُصف موسى ﷺ في الحديث الشريف بأنه«آدَم» في لون بَشَرته، أي: أسمر شديد السُّمرة يخالط سُمرتَه سواد - انظر الأحاديث: ٣٠٦٧ و ٣١٧٧ و ٣٢٥٥ في البخاري و ١٦٥ في مسلم والمعاجم اللغوية - وهو بعد جدود بني إسرائيل بقرون وقرون، وبعد تزاوج بشعوب متعددة الجنسيات.

فالتزاوج في مصر والشام وبلاد الغرب ولّد السمرة والبياض في بعض بني إسرائيل، كما ولّد في العرب ذرية الأحباش والأبناء بسواد وبياض من الحبشة والفرس. أضف إلى هذا أن يهود المهاجرين إلى فلسطين في عصرنا ليسوا من إسرائيل في شيء، وهم شذاذ آفاق من علوج الأعاجم وسلالات متعددة متفاوتة، لا نسب بينها ولا وفاق. وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٤: ٥٥٦ - ٥٥٧..

أولاد يعقوب، من شقيقة أُمّهم فاجعةً لهم ومثيرة لأحقاد ومؤامرات وأكاذيب ونيةِ القتل، حتى تخلصوا منه بالترحيل إلى مصر مملوكًا بدراهم معدودات. إنهم يحملون معهم في الشباب والكهولة عُقد الطفولة بالغَيرة والضَّير، مما هم فيه ومما انتقل إليهم بالوراثة من جدتهم الأولى سارة، إذ يرون الأخ الجديد قد أُضيف إلى أخيه الآخر من أُمّه، فصارا عبئًا ثقيلًا لا يُحتمل.

فهو بصِغَره المحبَّب سيشاركهم فيما لهم من أبيهم، بل سيصرفه عنهم وينفرد بنعم الأُبوّة ومكاسبها، فترحيله عن الوجود يعيد إليهم حقوقهم المزعومة، ويجعلهم قومًا صالحين على حد قولهم[1]: ﴿إِنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. اقتُلُوا يُوسُفَ، أَوِ اطرَحُوهُ أرضًا، يَخلُ لَكُم وَجهُ أَبِيكُم، وتَكُونُوا مِن بَعدِهِ قَومًا صالِحِينَ﴾. فهم في ضياع مع الضلال، ولا يكونون صالحين إلّا بعد أن يقتلوا غيرهم من الأُمم.

هكذا يفهم بنو إسرائيل أحداث الحياة، ويفسرون ظواهرها ويقفون منها مواقف التظلم والنقص والحقد والحسد والإجرام، وهم يتصورون أن المشاركة لهم في منافع الدنيا ظلم وبغي وعدوان. وعندما تخلصوا من أخيهم يوسف ببيعه رقيقًا، استشعروا خفة الأحقاد والضغينة وقضوا سنوات بعد سنوات، وهم مع أشباح عُقدة الذنب والتشفي بالانتقام. ثم فاجأتهم سيادة يوسف في مصر، ليصيروا كالطُّلَقاء بالمِنّة، يحملون خاتَم الدونية والانكسار.

ولمّا انتهت حياة يوسف الكريم ﷺ ذهب عنهم العز الآني، وتوالت على مصر فراعنة جبابرة من العرب المستعجِمين، تكره مكايد بني إسرائيل وقبائحهم، فتقتّل رجالهم وتستخدم النساء. ثم نجَوا من ذلك مع موسى ﷺ، ليتغلبوا على عمالقة العرب وكنعانيّيهم بالتقتيل وشِبه الإفناء. هذه أول علاقة ودّيّة حميمة

---

(١) الآيتان ٨ و٩ من سورة يوسف.

بيننا وبينهم. وبذلك حلوا في بعض جنوب الشام لاجئين مشردين، بعد أن انتقموا من ذرية الإنسانية كلها، بما حملوا قبلُ عن عُقد التظلم والضير والتشرد.

هذه الأحداث التاريخية واضحة، ثبَتَ أكثرها موثقًا بآيات مباركة من القرآن الكريم، وأحاديث شريفة في السُّـنّـة المعطرة. ثم توالت ذريات بني إسرائيل تحمل إرثًا مؤرِّقًا بشعور الغَيرة وعُقد النقص، وآثام الذنوب وآلام الغربة واللجوء إلى مخيمات التشرد في الآفاق بين مختلِف الأمم.

فهم فئة قميئة حاميّة غريبة عن الساميين، يعيشون عالة على مَن حولهم حيثما كانوا مع التشرد والضياع، فيأتمرون بأخيهم ويبيعونه مملوكًا بدراهم معدودات، ويطرقون باب التصدق والإحسان على عزيز مصر، وليس لجدّهم إسحاق ما لإسماعيل جدّ العرب، من مفاخرِ بناء الكعبة والافتداء، هذا المجدِ في أُمّة أرض النبوات والرسالات السماوية. وما اسم «أحمد» عندهم بمجهول، وما رمزه إلى العرب عنهم ببعيد.

لا بد إذًا من الدس والتحريف لترسيخ الأقدام في هذه المنطقة التي بارك الله فيها، وبين هذه الأمة التي وُعدت بسيّد الأنبياء وخاتم الرسالات. وقد كان أحبار يهود أعمق تحسّسًا لتلك العُقد والآلام والآثام، وأقدر على الدس والافتئات للتغطية والتعمية، فوضعوا لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مولدًا مكذوبًا ونسبًا مزيفًا، كما ذكر الإمام النووي.

فقد زعموا أنه ولد في قرية «برزة» من غوطة دمشق، ووضعوا له سلسلة نسب تصله بسامٍ لا يصح منها شيء. ثم نزعوا من التوراة ما يبشّر بالرسالة المحمدية العظمى، وكثيرًا من الأحكام التي تمنعهم من مجاراة الساسة المستبدين والأغنياء المترفين أو التقرب إليهم بالسمسرة والتودد، وكثيرًا من الأخبار الربّانية الكريمة، وأحلّوا محلّها خرافات وأساطير شوّهت التاريخ كله.

وأخيرًا آلمهم أن يكون لإسماعيل مكرمةُ الذبيح، والمشاركة في بناء البيت الحرام، فنزعوا الأُولى عنه بالزعم أن صاحبها هو إسحاق ﷺ، وتطاولوا إلى جدهم الأكبر إبراهيم ﷺ فسلبوه بناء المسجد الأقصى، ونسبوا ذلك إلى داود وسليمان. عليهما السلام.

لقد طمسوا معالم كثير من الحقائق فيما صنفوا من التُّلمود، للانحراف بالتفكير الإنساني، وإفساد معالم التاريخ على الناس إلى يوم القيامة. بدؤوا بتقزيم الحياة الدنيا ومن فيها، فحصروها في ١٠٠٠٠ سنة لا تتعداها، وجعلوا أنفسهم الشعب المختار أبناء الله وأحبّاءه، لهم السيادة على جميع البشرية، وحق التصرف في شؤونها: تقتيل من يخالف وثنيتهم، واحتلال الأوطان ونزع أموال، ونشر الفواحش والمنكرات فيها، والزنى في الإناث واللواطة في الذكور، وتلويث التفكير والتدبر والألسنة والمعارف والعقائد والعبادات والشرائع والقيم والأخلاق والإذواق والتوجهات والسلوك والمعاملات ومختلف الأعمال، من زراعة وصناعة وتجارة وتبادل مال.

هذا هو دأبهم في إفساد الكون والحياة،[1] وفي تشويه أخبار الأنبياء والرسل وأُسرهم والملائكة، ونسبة الأساطير إلى الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ لإخفاء ما لديهم من إرث حاقد على الإنسانية جمعاء والكون والحياة، ونقمة على تاريخهم في حضيض المذلة والتشرد والانكسار. ومن هذا المنطلق يفهمون أحداث الحياة، ويفسرون ظواهرها ويقفون منها مواقف التظلم والنقص والحقد والحسد، وهم يتصورون أن المشاركة لهم في منافع الدنيا ظلم وبغي وعدوان.

منِيت اليهود منذ نعومة أظفارهم في مستنقع الذلة والهوان، يشعرون بالغبن والانتقاص ويتظلمون من الأشباح والأوهام. بل لقد ائتمر بعضهم ببعض،

---

(١) انظر الأصولية الجنسية ص ١٣ ـ ١٧ و ١٦٠ ـ ٥٠٠ و ٦٦٦ ـ ٧٨٥.

في ديار الشام أيام التسلط الروماني، وكانت مجازر بينهم وحروب وفتن، فقضى الله عليهم بعقوبات أبدية ملازمة لهم رمت بهم في أصقاع من الآفاق منبوذين مشردين متفرقين.(١)

ثم إنهم تطاولوا إلى الأنبياء أيضًا فزعموا أن يعقوب خاصمه توءمه في بطن أمهما، وهدده بأنه إذا خرج قبله سيقتلها، ثم كان يتوعد يعقوبَ بالهلاك مرارًا.(٢) وهم الذين عُرفوا في التاريخ بالقتل والتشريد للأنبياء والرسل، فكان لهم تخصص في ذلك دون جميع الأمم، وأفسدوا الملاجئ التي حلّوا فيها مرارًا، فسلط الله عليهم من نكل بهم وشردهم ثانية وثالثة في الآفاق. ولذلك ربط الله - عز وجل - بين جريمة قابيل وجنايات بني إسرائيل، في أحكام قتل النفس وإحيائها.

كل هذا فيهم، من الحقارة والخسة والقبائح، مع أن أنبياءهم - عليهم السلام - كانوا يبشرونهم بالخير والوداعة والسماحة، حتى في أسمائهم الكريمة. فاسم جدهم الأول إسحاق هو من الضحك والسرور يبعث على تقبل الحياة بالرضا والسلام، وموسى من الماء والشجر وفيه البركة والنماء والنعيم، وداود من الودّ والمحبة ومراعاة عشرة الناس جميعًا، وسليمان من السلم والطمأنينة والأمان. فهل ترى في هذه البشارات النيّرة ما يحمل القوم على تلك السفاسف والانحرافات الخُلقية، والتصرفات الدنيئة المنكرة الخبيثة؟

وبهذه التركة الوراثية المتفاقمة وعقدها الشنيعة بلغوا قمة الخِسّة والحقارة في بلاد الشام، وأوقدوا فتنًا بين القوم وأثاروا الحروب والفواحش والمخازي على ما حولهم من البلاد، فكان أن وطئهم العرب بقيادة بُختَنَصَّر ونصارى الروم وقتّلوهم وفجروا في نسائهم، وأتلفوا لهم التوراة، وطردوهم من أراضي

---

(١) انظر الإصحاحات ٥ و١٢ و٢٥ من سفر حزقيال.

(٢) انظر دائرة المعارف الاستعمارية (الإسلامية) ٣: ٢٩٣.

فلسطين المقدسة. ولما أجلاهم النبي ﷺ والصحابة ﵃ مما حول المدينة، لغدرهم وخياناتهم العهودَ والمواثيق، تشردوا في بلاد الشام، دون أن يسمح لهم النصارى دخول مواطنهم.

بل إن أهل القدس من النصارى اشترطوا في معاهدة الصلح مع عمر بن الخطاب ﵁ ألّا يسكنها معهم أحد من اليهود.(١) وقد تفاقمت تلك المخازي الشنيعة فيهم على مدى الأعوام، تنتقل معهم إلى كل مكان، فضُربت عليهم الذلة والمسكنة بأمر الله إلى يوم القيامة، ولعنوا على ألسنة بعض أنبيائهم، وباؤوا بغضب من الله، وصار لهم تاريخ أسود الصفحات بين المهاجرين المشرّدين لا نظير له في العالَم، يحملون في نفوسهم وأقوالهم وأعمالهم عُقد التظلم والبغي والذنوب بعد الذنوب.

وكان عن ذلك قُبيل الإسلام أن لجأ بعضهم إلى بقاع من الجزيرة العربية تنظُّرًا للرسالة النبوية الأحمدية القادمة، فاحتلوا مخيّمات ملاجئ صارت بعدُ حصونًا وآطامًا في: وادي القُرى وفدَك وتَيماء وخيبر... حول يثرب، وجزء من اليمن. وقد تقبل العرب هذه الهجرات بكرمهم المعهود، ويسّروا لهم سبل اللجوء والعيش. لكن هذه الشراذم السوداوية النفوس المغموسة في الجبن والمسكنة كانت تخشى الخيالات والأوهام، فبنت الحصون العالية من ملاجئ التشرد، وقبعت فيها تطلب شيئًا من الأمان.

ولما تسنّت لها الإقامة هذه بدأت تثير الفتن والخصومات، لتملك توجيه العرب بالسيطرة والمال. ففي اليمن حرّض اليهود الملك ذا نواس على النصارى، حتى كانت محارق الأخدود الاضطهادية والحروب المتوالية بينه وبين الحبشة، وفيما حول يثرب استذلوا الأوس والخزرج وألزموهم أداء

---

(١) انظر الوثائق السياسية ص ٣٧٩ - ٣٨٠ واليهود المعتدون ص٤١ -٤٣.

الخراج، ثم هيجوا الفتن بينهم، وجعلوها معارك قتالية دامية، منها حروب متوالية أمثال أيام: سُمير وكعب بن عمرو وحاطب وبُعاث وسَحبل. وكذلك كانت حالهم مع سائر قبائل الأعراب في ديار العروبة.

هذا هو ديدنهم حيثما حلوا، وأينما توجهوا. فالبغيُ والعدوان يحملانهم على الرغبة في الاضطهاد والتسلط والبطش والإفساد، والخِسةُ والدناءة تولدان فيهم الكيد لمن يُؤويهم ويكرمهم، وتيسران لهم أن الغايات تسوّغ الوسائل،(١) فلا يكون منهم إلّا البلاء والشرور والآثام والمنكرات والمفاسد. كذلك حالهم لِما جُبلوا عليه، من إرث الحقد والخسف والحسد لجميع الناس.

وقد تأثر بالعقيدة اليهودية بعض العرب، فكان منهم في اليمن عدد كبير من بقايا أيام ذي نواس، وفي يثرب أفراد: من بني عوف والنجار والحارث وساعدة وجُشم والأوس وثعلبة، ولكنهم خالفوا بني إسرائيل، إذ لم يحملوا معهم الإرث المشؤوم إلّا ما ندر، وعاشوا مع جيرانهم في شيء من الصلاح والأمان.

وسوف نرى أن هؤلاء كان للنبي العظيم ﷺ موقف منهم خاص، يخالف ما كان ليهود بني إسرائيل، وأنهم هم أيضًا صاروا ذوي نيات وأعمال بعيدة جدًّا عما يصدر عن الإسرائيليين.

بين الاقتصاد والسياسة:

أضف إلى ذلك كله أن بني إسرائيل قد أُشرِبوا في قلوبهم حبَّ العجل الذهبي، وكان لهم في ذلك تاريخ شنيع مع موسى وهارون، انتقلت آثاره

---

(١) لقد امتدح اليهود المعاصرون لنا أجدادهم بالقول: «ما كان أحكم أسلافَنا في الأزمنة الغابرة، لما قالوا: إنْ في طلب الغايات لا يُقام وزن للوسائل والضحايا»! انظر البروتوكول الخامس عشر من بروتوكولات حكماء صِهيَون.

الوراثية إلى سلالاتهم ومن التحق بهم، فتمثلت في الصناعات المالية، كالتجارة بالذهب والمجوهرات وصناعة الأسلحة والخمور والمخدرات وقيادة الفواجر، واحتكار ذلك كله بالإضافة إلى المواد الغذائية، وشيء من الزراعة، وتسيير قوافل التجارة بالأقمشة بين خيبر والشام. وبذلك ملكت يهودُ أزمّة القبائل العربية المجاورة لها في يثرب، وفرضت عليها الربا برهن الأمتعة والإتاوات المجهدة المخزية.

ومثل هذه المنازع للابتزاز واستنزاف القدرات يتطلب نفوذًا سياسيًا، يقرره ويسهر على تنميته وتسلطه وحمايته وتحقيق مكاسبه. فكان يهود خيبر وما يقاربها من القلاع يطمعون أن يكون لهم التوجيه في يثرب وما حولها، عن طريق مَلِك يتمتع بعطاياهم ويضرب بسيوفهم. فهم لا يُحسنون إدارة أمور البلاد والعباد، بل لا يستطيعون إدارة أنفسهم كما تراهم الآن في فلسطين تقودهم الدول الغربية والشرقية وربائب الاستعمار، وتسيّرهم إلى القتل والإفساد بالمال والسلاح والقيادة، سياسة وتوجيهًا وتخطيطًا وإشرافًا وعونًا على التنفيذ. فحسبهم تملك أزمّة القيادات اقتصاديًّا وتسخيرها للمطامع والمكاسب والاستنزاف، ولو كانت تحت مِظلة الشيطان الرجيم.

ولذلك شرعوا قُبيل الهجرة النبوية الكريمة يرفعون شأن عبد الله بن أُبَيّ،(١) ويصقلون للناس شخصيته بالتزيين والزخارف، كما يصقلون اليوم زعماء وموجّهين ومنظّرين وقياديّين للشعوب الإسلامية ولدول العالَم الكبرى والصغرى، ثم رفعوه إلى سُدّة المُلك والسيادة، فاستتب له الأمر بين الأوس والخزرج. لقد جاء في التاريخ أن أهل يثرب اتفقوا على ذلك، وبدؤوا

---

(١) عبد الله هذا يُعرف بابن سَلُولَ جدتِه، نُسب إليها للتحقير والتهجين، وهو من الخزرج ورئيس المنافقين في عهد النبوة بالمدينة المنورة.

يصنعون ويزخرفون له التاج الذي سيتوّج رأسه حين تنصيبه ملكًا عليهم.

وبتحقيق هذا، يكون لبني إسرائيل السيطرة التامة على شؤون العباد والبلاد، يتمتعون بالنفوذ الاقتصادي، لإشاعة الفساد والشقاق والفتن، وتوجيه الأُمور في سبيل الكسب الرخيص. ولكن إشراق يثرب وتنوُّرها بالهجرة النبوية المباركة قطعا الطريق المعبّدة على اليهود الإسرائيليين، وعلى المَلِك المنتظر عبد الله بن سَلول. ولذا فإنه لمّا رأى سيّدُهم شأس بن قيس وحدةَ الأنصار في ظل الإسلام قال: قد اجتمع ملأ بني قَيلة بهذه البلاد. وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار.

مغازي بني إسرائيل:

وضع النبي الكريم ﷺ عهدًا بينه وبين مَن في يثرب وما حولها من العرب، يحفظ حقوق الجميع، ويبين ما لكل منهم وما عليه.(١) وقد جاء في نص العهد أن المسلمين من المهاجرين والأنصار أُمّة واحدة من دون الناس، وللقبائل في يثرب أعرافها بالقسط والمعروف بين المؤمنين، وأيديهم كلها تتوجه إلى من يبغى فسادًا أو عدوانًا عليهم.

وكذلك حكمُ اليهود من عرب المدينة، هم مع المسلمين يد واحدة، ولكل من الجانبين دِينه ومواليه وأمواله، شريطة أن ينفق هؤلاء مع المؤمنين في الحرب، ولا يجيروا أحدًا من مشركي قريش وأعوانهم، وبين الجميع النصرُ على من حارب أهل هذا العهد، وعلى من داهم يثرب، وهي أمن لمن فيها، لا يُعتدى فيها على أحد. وحكم يهود العرب في غير المدينة أيضًا قريب من هذا، لهم أن يبقَوا على اليهودية، مع دفع الجزية.(٢)

---

(١) الوثائق السياسية ص ٤١ ـ ٤٧.

(٢) انظر الوثائق السياسية ص ١١٤ ـ ١١٥.

أما يهود بني إسرائيل فيما حول يثرب فهم لاجئون ضيوف كالجيران للعرب، وليسوا مواطنين من رعية الدولة الإسلامية، ولذا تقرّر عليهم رعايةُ حقوق الجوار والحفاظُ على واجبات الضيافة، وإلّا كان عليهم الرحيل والجلاء. ومن ثَـمّ صار لهم عهد آخَر في كتاب بينهم وبين المسلمين، هو الموادعة والمسالمة، أي: ألّا يكونوا معهم في حرب ولا عليهم، وإذا داهم عدوّ المدينة نصروها وأمدّوا المسلمين بالمؤونة. وإلّا فهم في حكم المحاربين المغيرين من الأعداء.[1]

هذا ما عليه جمهور العلماء والمفسرين للقرآن الكريم، ولكن المؤرخين والدارسين المعاصرين اليوم توهموا أن عهد يهود العرب في يثرب يشمل يهود ما حولها من بني إسرائيل، فجمعوهم معًا في حكم واحد، وضللوا الفكر التاريخي والأحكام الشرعية للجهاد.[2]

فالنبي العظيم كان على عِلم بمكر بني إسرائيل وبغيهم ومكايدهم، وهو لا ينسى سعيهم في العهد المكّي لمحاربته بجميع الوسائل الخسيسة، إذ كان أحبارهم يَقدَمون إلى مكة المكرمة، ليحرجوه بالأسئلة التعجيزية، ثم يحرضون صناديد المشركين في زياراتهم هذه أو في استقدامهم إلى حصونهم على تكذيبه وتعذيب أصحابه وتقتيلهم، ويوحون إليهم أن يسألوه عما يعلمون أنه

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ وتفسير الرازي ١٠: ٥٠١ والمحرر الوجيز ٥: ٢٨٣ وتفاسير ابن كثير ٤: ٣٣١ والبغوي والخازن ٧: ٥٥ ـ ٥٦ والبحر والنهر ٨: ٢٤١ ـ ٢٤٢ وأنساب الأشراف ١: ٣٠٨ والكامل ٢: ١٣٧وزاد المعاد ٣: ٦٥ و ١٢٦ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ١٩٣٠ وتفسير الجلالين الميسر ص ٥٤٥ والجهاد والقتال ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

(٢) انظر شرح كتاب السير الكبير ٢: ٣٠ ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ١: ١٤٩ وتاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٥٤٤ والجهاد والإسلام ص ١٣٤ واليهود المعتدون ص٧٠ وص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ و ٢٥١ من صور وخواطر.

ليس من وظائف النبوة إجابته، للتحدي والإحراج وإثارة الشكوك والتضليل.

فكان على الرسول القائد الملهم ﷺ أن يأمن شرهم ويربطهم بعهد صريح موثق، واضح العبارة والشروط والبيان، حتى إذا نقضوا شيئًا منه أو خالفوه أو تجاهلوه وهم ضيوف لاجئون لم يكن لهم ناصر ولا شفيع. لقد عاهدهم على الموادعة والمسالمة: لا يحاربونه ولا يحاربون معه، ليعرف حدود تصرفه معهم، ويتوجه إلى ما يجب عليه من شؤون الدعوة والدولة وأعماله الداخلية والخارجية.

لكن أمة البغي والخِسة، وقد تأصلت فيها جذور الغدر والخيانة والفساد، وتوارثت مقت الحق وعُقد النقص والإثم وحسد الآخرين من أجدادها، وحاربت الأنبياء وقتّلتهم لأنهم لم يأتوا بما تهوى، هذه الأمة التي انحدرت منذ نشأتها في حضيض الشهوات والجحود والتخريب والغدر لم تستطع أن تتقبل منافِسًا لها على النفوذ، أو تقييدها بشروط وضوابط تمحق التسلط الاقتصادي والبغي والإفساد، فراحت تتنقص العهد وتنقض قيوده، وانطلقت تحوك الدسائس وتهيّج إثارة النُّعرات الجاهلية الخبيثة، وتسعى في معونة مشركي قريش على العدوان، حتى جلبت لنفسها البلاء.(١)

كان أول ما صدر عنها أن أوعزت إلى بعض أصحابها من الخزرج، بدخول الإسلام نفاقًا ومكرًا، ليُضعفوا صفوف المسلمين بالدس والتثبيط والتفريق. وقد ظهر ذلك في أن سيد بني قينِقاع شأس بن قيس أرسل أحد صنائعه، ليجالس الأوس والخزرج ويذكّرهم ما كان في يوم بُعاث، وينشدهم الأشعار التي قيلت في ذلك.

وإذ ذاك كادت الحرب تقوم بينهم، ولكن حكمة النبوة المباركة مع سداد

---

(١) انظر الأحاديث: ٣٨٠٤ ـ ٣٨٠٨ في البخاري و ١٧٦٦ و١٧٤٦ في مسلم.

توجيهها للجميع قضت على الفتنة، إذ أصلح بين الفريقين، وعفا عما قام به بنو قينقاع.(1) وكأن هذا أثار في بني إسرائيل شعور الهزيمة والعجز والذلة والانكسار، فزادهم اندفاعاً إلى التنطع والتقحم في مظاهر العداوة وإيقاد الحروب، فكان بينهم وبين القيادة الإسلامية الحكيمة وقائع ومعارك وبعوث وملاحم.

١ - **سرية عُمير بن عديّ**:(2) لما كان المجاهدون في بدر انتظر اليهود هزيمتهم، وعندما بلغهم نصرهم غضبوا وصاروا يتحسرون لذلك، وكان في بني أُميّة بن زيد الأوسيِّين امرأة يهودية تشربت قبائح بني إسرائيل، فصارت تؤذي رسول الله ﷺ وتعيب الإسلام - وهي عصماءُ بنت مروان اليهودي من بني خَطْمة - فقالت تهجو الأنصار بخضوعهم للرسول، وتحرّضهم على اغتياله، بتمني من يقوم بذلك:(3)

باستِ بَنِي مالكٍ، والنَّبِيتِ، ... وعَوفٍ، وباستِ بَنِي الخَزرَجِ
أطَعتُم أتاوِيَّ، مِن غَيرِكُم ... فلا مِن مُرادٍ، ولا مَذحِجِ
ألا أنِفٌ، يَبتَغي غِرّةً ... فيَقطَعَ، مِن أمَلِ المُرتَجِي؟

فقال رسول الله، حين بلغه شِعرها، يخاطب المسلمين في مجلسه لخمس بقين من رمضان العام الهجري الثاني: ألا آخِذٌ لي مِن ابنةِ مروانَ؟ فسمع هذا عُمير بن عديّ الأوسيّ رضي الله عنه، وهو ضرير البصر. فلما أمسى سرى إليها ليلاً في بيتها بين أولادها، وجسّها بيده حتى علم أنها هي فقتلها.

---

(1) انظر السيرة ١: ٥٥٥ - ٥٥٧.

(2) السيرة ٢: ٦٣٦ - ٦٣٨ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٣ والطبقات الكبرى ٢: ٢٧ - ٢٨ والاستيعاب ص ١٢١٨ والإصابة ٤: ٧٢١.

(3) السيرة ٢: ٦٣٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٣. وفي أول البيت خرم بسقوط حرف واحد، وروي: «فباستِ». والاست: الدبر. تشتمهم بفحش القول. ومالك والنبيت وعوف والخزرج: من الأنصار. والأتاوي: الغريب في غير وطنه، مُنع هنا من الصرف للضرورة. ومراد ومذحج: قبيلتان. والأنف: الرافض للذل. والغرة: الغفلة للاغتيال.

ثم أصبح ولقي الرسول ﷺ قائلًا: يارسول الله، إني قد قتلتها. فقال: نصرتَ اللهَ ورسوله. يا عُمير. وسمّاه عُميرًا البصير. قال: هل عليّ من شيء، من شأنها؟ يارسول الله. فقال: «لا ينتطح فيها عنزان».(١) وهو ﷺ أول من قال هذه العبارة البليغة المشهورة.

رجع عُمير إلى قومه، وقد اضطرب أمرهم بمقتلها ولها بنون خمسة رجال، فقال: يا بَنِي خَطْمة، أنا قتلت ابنة مروان. فكيدوني جميعًا ثم لا تُنظِرونِ.(٢) وبذلك ظهر عز الإسلام في بني خَطْمة، فأظهر منهم من كان يُخفي إيمانه وآمن رجال منهم، لمّا رأوا عز الإيمان.

وقال حسان ﷺ يُنكر على عصماء ما أثارته من الفتنة، ومادحًا عُميرًا بنخوته، وإقدامه على قتلها بين قومه، دون أن يكون عليه في ذلك حَرَج:(٣)

مَتَى ما دَعَت، سَفَهًا، وَيحَها بِعَولَتِها، والمَنايا تَجِي
فهَزَّت فَتًى، ما جِدًا عِرقُهُ كَرِيمُ المَداخِلِ والمَخرَجِ
فضَرَّجَها، مِن نَجِيعِ الدِّما ءِ، بَعدَ الهُدُوِّ، فلَم يَحرَجِ

٢ ـ **غزوة بني قَينقاعٍ**:(٤) كان هؤلاء أجرأ بني إسرائيل على البغي، وكأن

---

(١) أي: أن شأنها لا اختلاف فيه، ولا يكون لها طلب بثأر.

(٢) هذا تضمين للآية ٥٥ من سورة هود، قالها النبي هود ـ عليه السلام ـ لقومه الكافرين. وكيدوني أي: اجتهدوا في كيدي. ولا تنظرون أي: لا تؤخروني فيما تستطيعون من الكيد.

(٣) السيرة ٢: ٦٣٧. ومتى أي: حين. والعولة: الصرخة الشنيعة. أراد بها ما قالت من الشعر. والمنايا: جمع المنية. وتجي: تجيء. وهي لغة لبعض العرب بحذف الهمزة، يقولون: جا يَجي. وكريم: خبر لمبتدأ محذوف على القطع للمدح، والتقدير: هو. والنجيع: الشديد الحمرة. والهدوّ: الهدوء، أي: ساعة من الليل، أبدلت الهمزة واوًا وأدغمت فيها الواو الأولى. ولم يحرج أي: لم يأثم أو يلمه أحد.

(٤) السيرة ١: ٥٥٢ و ٢: ٤٧ ـ ٥٠ وتاريخ الطبري ٢: ٤٧٩ ـ ٤٨٣ وأنساب الأشراف ١: ٣٠٨ ـ ٣٠٩ والكامل ٢: ١٣٧ ـ ١٣٩ والطبقات ٢: ٢٨ ـ ٢٩ وزاد المعاد ٣: ١٢٦ ـ ١٢٧=

عفو النبي ﷺ عنهم في إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج، كما ذكرنا قبل، زادهم جرأة وضغينة شأن الخسيس من النفوس، فأظهروا خبايا قلوبهم وصاروا يواجهون المسلمين بالتحدي والخصام.

فقد غاظهم انتصار المؤمنين في بدر، وراحوا يوهّنون عليهم ذلك متجاهلين عهد الوفاق، فسار النبي الكريم ﷺ إليهم يعظهم، بما كان من هزيمة قريش ومقاتلها ليلزموا جانب الصواب، فتعدَّوُا الكياسة والمسالمة، وجابهوه بالإرهاب والتهديد: يامحمد، لكأنك ترى أنّـا قومُك! لا يَغرَّنَّكَ أنك لقِيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فُرصة. إنّا ـ والله ـ نحن بنو الحرب، ولئن حاربناك لَتَعلمَنَّ أنّـك لم تقاتل مِثلَنا.

وهكذا كانوا أول بني إسرائيل في نقض العهد بين غزوتي بدر وأُحد، كما يقول الطبري،[1] وجاهروا بالخصومة والتحدّي والاستعداد للقتال بعد غزوة بدر، فنزل الوحي العظيم يواجههم بمثل ما زعموا من الترهيب والهزيمة والعذاب، والعظة والتبصرة: ﴿قُلْ لِـلَّذِينَ كَـفَرُوا: سَتُغلَبُونَ وتُحشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، وبِئسَ المِهـادُ! قَد كانَ لَكُم آيةٌ في فِئَتَينِ التَقَتا: فِئةٌ تُقاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ، وأُخرَى كافِرةٌ، يَرَونَهُم مِثلَيهِم رأيَ العَينِ. واللهُ يُؤَيِّدُ بـنَصرِهِ مَن يشاءُ. إنَّ في ذلِكَ لَعِبرةً لأُولِي الأبصارِ﴾.[2]

= و ١٩٠ والبداية والنهاية ٣: ٥ وشرح المواهب ١: ٤٥٦ وعيون الأثر ١: ٢٩٤. وقينقاع: اسم مركب من «قين وقاع» مثل: بعلبكّ وحضرموت وبُختنصّر، يجوز جعلُه اسمًا مستقلًا، فتعرب نونه ويجرّ آخره بالإضافة: قَينُقاعٍ، أو بناءُ آخرَيِ الأول والثاني على الفتح: قَينَقاعَ، أو بناءُ الأول على الفتح وإعراب الثاني بإعراب ما لا ينصرف، فيرفع بالضمة وينصب ويجر بالفتحة.

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٧٩. وانظر الروض الأنف ٣: ١٣٧ والسيرة الحلبية ٢: ٢٢٠.

(٢) الآيتان ١٢ و ١٣ من سورة آل عمران.

ولكن ذلك لم يُجدِ فيهم شيئًا، بل لقد شرعوا يَحيكون الدسائس والفتن أيضًا، لتكون المشاحنات والحروب بين الناس، ويعود لهم السلطان بالنفوذ والتحكم. فلمّا جاءت امرأة مسلمة زوجة أحد الأنصار رضي الله عنهما إلى سوق بني قينقاعٍ تبيع بعض حُليّها، وجلست قرب صائغ منهم، شرعوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وعقده إلى ظهرها.

وعندما قامت انكشفت سَوءتها، وضحكوا لذلك فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وقتله، وهجم اليهود على المسلم رضي الله عنه فقتلوه. وبهذا نقضوا عهد رسول الله ﷺ علنًا، إذ لم يراعوا الحُرمات ثم لم يلجؤوا إلى الاحتكام والعدل، فاستصرخ كلٌّ قومَه، وحصل الشر بين الطرفين، ثم تحصن بنو قينقاع في قلاعهم.

كان ذلك في منتصف شهر شوّال للسنة الهجرية الثانية، فنزل فيهم قول الله، عز وجل[١]: ﴿وإمّا تَخافَنَّ مِن قَومٍ خِيانةً فانبِذْ إلَيهِم علَى سَواءٍ﴾. يعني أن يبادرهم بنبذ العهد الذي نقضوه، ويجاهرهم بالقتال. هنالك جهز رسول الله ﷺ جيشه، بلواء أبيض يحمله حمزة رضي الله عنه، وسار إلى حِصن بني قينقاعٍ يحاصرهم للنَّيل منهم.

استمر الحصار ١٥ يومًا حتى خضعوا لحكمه، فأُنزلوا من حصنهم ورُبطوا ليعاقبوا على الخيانة والفتن، وهم ٧٠٠ رجل. إذ ذاك قام نصيرهم وحليفهم القديم، رأس المنافقين عبد الله بن سَلول، يشفع لهم مرارًا بغلظة وحِدّة، فأجابه النبي ﷺ لِما أراد من ترك قتلهم، وقال: خلّوهم. لعنهم الله ولعنه معهم.

وجاء عُبادة بن الصامت سيّد الخزرج وحليف قَينقاعٍ أيضًا، فخلع حِلفهم القديم وتبرأ منهم، قائلًا: يارسول الله، إني أتولّى اللهَ ورسوله ﷺ، وأبرأ مِن

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

حلف هؤلاء الكُفّار. فنزلت الآيات الكريمة، تشهّر بقبائح المنافقين وحمايتهم لليهود، وتجعلهم جميعًا في منزلة واحدة من الكُفر، وتحرّم على المؤمنين موالاة أعداء دين الله من أهل الكتاب والكافرين، وتمتدح ما كان عليه الأنصار من حزم ونصرة لله ورسوله.(١)

وإذا كان هؤلاء اليهود قد نجَوا من القتل فإن ذلك لا يعني العفو المطلق. ولذلك كان حكم الرسول ﷺ عليهم بما يجب على اللاجئين الخائنين، الجلاء إلى حيث يشاؤون بعيدًا من ديار المسلمين، فرحلوا مع نسائهم وذراريهم، تاركين السلاح وما لايستطيعون حمله من المال وآلات الصياغة غنيمة للمسلمين، ومضى بهم عُبادة بن الصامت حتى بلغوا جبلًا خارج المدينة يقال له: «ذِباب»، حيث خلّى سبيلهم لينطلقوا إلى أذرِعات «دَرعا» في جنوبيّ الشام.

٣ ـ سرية كعب بن الأشرف:(٢) كان هذا شاعرًا عربيًّا من بني طيِّئٍ، وأُمّه يهودية من بني النَّضير، فتهوّد تبعًا لها وصار سيّدًا في أخواله هؤلاء واحدًا منهم ونصيرًا وزعيمًا لهم، يقيم في حِصن له قرب المدينة المنورة، ليَحيك الدسائس في نجوة من الانكشاف والنكال.

ولما بلغه انتصارُ المجاهدين في غزوة بدر، ومقتلُ من قُتل وأسرُ من أُسر من المشركين، قال لمن حوله من اليهود والمنافقين: ويلَكم. أحقٌّ هذا؟

---

(١) الآيات ٥١ ـ ٥٧ من سورة المائدة.

(٢) الحديثان: ٣٨١١ في البخاري و ١٨٠١ في مسلم والسيرة ٢: ٥١ ـ ٦٠ والروض الأنف ٢: ١٢٣ وأهل الذمة لابن القيم ٢: ٨٤٥ وطبقات فحول الشعراء ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ وتاريخ الطبري ٢: ٤٨٧ ـ ٤٩١ والطبقات ٢: ٣١ـ ٣٤ وإمتاع الأسماع ١: ١٠٧ ـ ١٠٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٤ والكامل ٢: ١٤٣ ـ ١٤٤ والبداية والنهاية ٣: ٩ ـ ١٧ وزاد المعاد ٣: ١٩١ ـ ١٩٢ وشرح المواهب ٢: ٨ والاستيعاب ص ١٤٦٣ ـ ١٤٦٤.

أترون أن محمدًا قتل هؤلاء، وهم أشراف العرب وملوك الناس؟ والله ـ لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ـ لَبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها.

وعندما تيقّن الخبرَ أعلن نقض العهد الموثّق، ودخل في زمرة المحاربين للإسلام ودولته، فذهب إلى مكة يرثي قتلى المشركين، ويحضهم على الأخذ بالثأر:[(١)]

قُتِلَت سَراةُ النّاسِ، حَولَ حِياضِهِم ... لا تَبعَدُوا، إنَّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ
صَدَقُوا، فلَيتَ الأرضَ ساعةَ قُتِّلُوا ... ظَلَّت تَسُوخُ بأهلِها، وتُصَدَّعُ
نُبِّئتُ أنَّ الحارِثَ بنَ هِشامِهِم، ... في النّاسِ، يَبنِي الصّالِحاتِ، ويَجمَعُ
لِيَزُورَ يَثرِبَ، بالجُمُوعِ، وإنَّما ... يَحمِي،علَى الحَسَبِ الكَرِيمِ،الأروَعُ

فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه أن يهجو كعبًا ومن يناصره أو يؤويه من قريش، فنظم أبياتًا يشنّع عليه رثاءه ويهجوه كما أمره الرسول العظيم، ويذكر هرب الحارث بن هشام عن أخيه. وحينذاك صار يتهرب زعماء مكة من لقاء كعب واستضافته، حتى اضطُرّ أن يعود إلى المدينة.

وقالت ميمونة بنت عبد الله المُرَيدية رضي الله عنها، تردّ على كعب أيضًا، وتتمنى له وللمشركين ما يُديم عليهم النكبات والمهالك، ليتبصّر بها أهل مكة، وبما صار إليه قتلى بدر من الذلة والهوان:[(٢)]

---

(١) السيرة ٢: ٥٢ وأنساب الأشراف ١: ٢٨٤. والسراة: السادة الأشراف، جمع سريّ. والحياض: جمع حوض، ما يجب على الإنسان حمايته. وتبعدُ: تهلك وتفنى في القلوب. والحارث بن هشام: أخو أبي جهل. ويحمي أي: يقاتل. والأروع: من يروعك بفضله وشهامته.

(٢) السيرة ٢: ٥٣. وعلت: أصيبت مرة بعد أُخرى. ولؤي بن غالب: من قريش. والأخاشب: جمع أخشب. والمراد بذلك: الأخشبان: جبلان بمكة، جُمعا بما حولهما للمبالغة. وعُبّر عمن في مكة بالمفرد تبعًا للفظ، ثم بالجمع «يبصروا» تبعًا للمعنى. والمجر: السحب على الوجه للإلقاء في القليب.

بَكَت عَينُ مَن يَبكِي، لِبَدرٍ وأهلِهِ، وعُلَّت بِمِثلَيها لُؤَيُّ بنُ غالِبِ
فلَيتَ الَّذِينَ ضُرِّجُوا بِدِمائِهِم يَرَى ما بِهِم مَن كانَ بَينَ الأخاشِبِ
فيَعلَمَ حَقًّا، عَن يَقِينٍ، ويُبصِرُوا مَجَرَّهُمُ، فَوقَ اللِّحَى والحَواجِبِ

وردّ عليها كعب يُنكر ما قالت، ويتعهّد بالرثاء الدائم لقتلى المشركين، ويهدّد قوم ميمونة بالعقوبة الرادعة:(١)

أتَشتُمُنِي، أن كنتُ أبكِي بِعَبرةٍ لِقَومٍ، أتانِي وِدُّهُم، غَيرَ كاذِبِ؟
فإنِّي لَباكٍ، ما بَقِيتُ، وذاكِرٌ مآثِرَ قَومٍ، مَجدُهُم بالجَباجِبِ
فحُقَّ مُرَيدٌ أن تُجَبَّ أُنُوفُهُم بِشَتمِهِمُ حَيَّي لُؤَيِّ بنِ غالِبِ

وعندما رجع إلى المدينة شرع يهجو النبي ﷺ والصحابة ﷺ، ويتغزّل بنساء من مكة أيضًا، فقال في ذلك يتبذّل:(٢)

أراحِلٌ أنتَ، لَم تَحلُلْ بِمَنقَبةٍ، وتارِكٌ أنتَ أُمَّ الفَضلِ بالحَرَمِ؟
يَرتَجُّ ما بَينَ كَعبَيها ومِرفَقِها إذا تأَتّت قِيامًا، ثُمَّ لَم تَقُمِ
أشباهُ أُمِّ حَكِيمٍ، إذ تُواصِلُنا والحَبلُ مِنها مَتِينٌ، غَيرُ مُنجَذِمِ

وأتبع ذلك غزله بنساء النبي الكريم والمسلمين حتى آذاهم.

وبهذا يكون كعب قد نقض عهد الموادعة والمسالمة، وصار معاديًا في زُمرة المشركين من قريش، فقال النبي ﷺ: «اللهمّ اكفِني كعبًا بما شئتَ، في إعلانه الشرَّ وقوله الأشعار». ثم أهدرَ دمه: مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله. قال محمد بن سلمة الأنصاري ﷺ: أنا لك به. أتحب أن

(١) السيرة ٢ : ٥٤. والمآثر: جمع مأثرة، الأعمال الكريمة. ومريد: قبيلة ميمونة التي هجت كعب بن الأشرف. والجباجب: منازل بمكة.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٤٨٨. وأم الفضل هي بنت الحارث زوجة العباس. وتأتت أي: أرادت. وأم حكيم: زوجة عكرمة بن أبي جهل.

أقتله؟ قال: نعم. ثم مكث ابن سلمة ﷺ ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يُعلِق به نفْسَه. ولمّا علم رسول الله ذلك دعاه وسأله: لِمَ تركتَ الطعامَ والشرابَ؟ قال: يارسول الله، قلتُ قولًا لا أدري: أَفِيَنَّ به أم لا؟ قال: إنما عليك الجَهدُ. قال: يارسول الله، لا بد لنا مما نقول. فأجابه النبي ﷺ: «قولوا ما بدا لكم. فأنتم في حِلّ من ذلك».

كان هذا في منتصف ربيع الأول من السنة الثالثة، إذ سرَّى سَرِيّةَ ابن سلمة مع بعض الصحابة ﷺ إلى حِصن كعب، وبينهم أخوه في الرّضاعة أبو نائلة عبّاد بن بِشر، وقد مشى معهم النبي ﷺ إلى بقيع الغَرقد، ثم وجههم قائلًا: «انطلقوا على اسم الله. اللهمّ أعنهم». فذهب هؤلاء إلى حِصن كعب، وأرسلوا إليه أخاه يمكر به حتى ينزل من الحصن، زاعمًا له أنهم تمرّدوا على النبي، وجاؤوا يرتهنون عنده سلاحًا، ليشتروا منه طعامًا.

وبعد أن اطمأن إليهم، هجموا عليه بالسلاح وفتكوا به وهيّجوا من حوله من قومه، ثم عادوا بخبره إلى النبي ﷺ، فقال لهم: «من ظفرتم به من رجال يهودَ فاقتلوه». فما بقي يهودي نَضيري إلّا وهو خائف على نفسه، وجاؤوا يشكون إليه أمرهم، فذكّرهم صنيع كعب وما كان يحض عليه ويحرض من القتال، ثم دعاهم أن يكتبوا بينه وبينهم صلحًا.

وقد ذكر ذلك القتل أبو نائلة ﷺ في الشعر:(١)

صَرَختُ بِـهِ، فـلَم يَنـزِلْ لِصَوتِي   وأوفَى طالِعًا، مِن فَوقِ قَصرِ
فعُدتُ، فقالَ: مَن هذا المُنادِي؟   فقُلتُ: أخُوكَ، عَبّادُ بنُ بِشرِ

وقال كعب بن مالك ﷺ، يصف مقتل ابن الأشرف وفزع بني النَّضير، ويمدح

(١) أنساب الأشراف ١: ٣٧٤. وأوفى: ارتفع يمد رأسه.

مكر السريّة به ونجاح العمل الكريم:[1]

فغُودِرَ، مِنهُمُ، كَعبٌ صَرِيعًا فذَلَّت، بَعدَ مَصرَعِهِ، النَّضِيرُ
بأمرِ مُحَمَّدٍ، إذ دَسَّ لَيلًا، إلَى كَعبٍ، أخا كَعبٍ، يَسِيرُ
فماكَرَهُ، فأنزَلَهُ، بِمَكرٍ ومَحمُودٌ أخُو ثِقةٍ، جَسُورُ

ثم أمر النبي الكريم الصحابة ﷺ أن يقتلوا من ظفروا به من بني النضير، فوثب مُحَيِّصة بن مسعود على تاجر منهم كنيته ابن سُنينة، وقتله، فعاتبه أخوه حُويِّصة غيرُ المسلم، وصار يضربه قائلًا: أيْ عدوَّ اللهِ، أقتلته؟ أما والله لَرُبَّ شحمٍ في بطنك من ماله. إنك لئيم، يا مُحَيِّصة. فأجابه: والله، لقد أمرني بقتله مَن لو أمرني بقتلك لضربتُ عنقك.

قال حُوَيِّصة: آللهِ،[2] لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: نعم، واللهِ لو أمرني بضرب عنقك لضربتها. فعجب أخوه من قوله، وجعل يتيقظ ليلًا يكرّر عجبه، حتى أصبح وهو يقول: واللهِ، إن هذا لَدِينٌ. ثم أتى إلى النبي ﷺ فأسلم. وقال مُحَيِّصة يذكر ما كان بينه وبين أخيه، وأنه لا يقبل مال الدنيا لترك قتله، إن أُمر بذلك:[3]

يَلُومُ ابنُ أُمِّي، لَو أُمِرتُ بقَتلِهِ لَطَبَّقتُ ذِفراهُ، بأبيَضَ قاضِبِ

---

(١) السيرة ٢: ٥٧. وغودر: ترك في الأرض. وأخو كعب هو أبو نائلة. وما كره أي: خادعه. وأخو الثقة: من يوثق به في الملمات. والجَسور: الذي يُقدم في الشدائد.

(٢) الظاهر عندي أن الهمزة: حرف استفهام، والألف بعدها: بدل من همزة لفظ الجلالة، وحرف القسم محذوف للتخفيف. فلفظ الجلالة مجرور بالحرف المحذوف. وقيل: إن الجر بـ «آ» عوضًا من الحرف المحذوف. وقيل: إن «آ» عوض من حرف الجر. انظر الحديث ٢٧٠١ في صحيح مسلم ص ٢٠٧٥ وشرح التسهيل ٣: ٢٠٠ وشرح الكافية الشافية ص ٨٦٥ ـ ٨٦٦. وفي السيرة: آ والله.

(٣) السيرة ٢: ٥٩ والاستيعاب ص ١٤٦٤. وطبق: قطع. والذفرى: عظم ناتئ خلف الأذن. والأبيض: السيف الصقيل. والقاضب: القاطع.

وما سَرَّنِي أنِّي قَتَلتُكَ طائعًا   وأنَّ لَنا ما بَينَ بُصرَى ومأرِبِ

٤ ـ **غزوة بني النَّضير**:[١] كان هؤلاء حلفاء لبني غطَفان وعامر، ثم نقضوا عهد النبي ﷺ حينما استقبلوا يوم غزوة السويق أبا سفيان عدوّ المسلمين، وأعانوه على الغدر في تلك الغزوة، فتجاهل النبي الكريم ذلك لخفائه. ثم كان ما كان من كعب بن الأشرف سيّدهم، وقتله كما ذكرنا قبل.

وعندما انتهى عمرُو بن أُمية الضَّمري من يوم بئر معونة، وهو عائد إلى المدينة، لقي رجلين من بني كلاب بن ربيعة، الذين غدروا بالصحابة وقتلوهم في ذلك اليوم. كان هذان الرجلان قد وادعا رسول الله ﷺ ومعهما عَقد منه وجوار لا علم للضَّمري به، فقتلهما ثأرًا بشهداء ذلك اليوم.

ولمّا رجع إلى المدينة أعلم الرسول العظيم بما فعل، فقال له: «لقد قتلتَ قتيلين، لأدِيَنَّهما». ثم جاءه كتاب من عامر بن الطفيل يطلب ديتهما، وكان بين بني عامر وبين بني النضير حلف وعَقد جوار، كما ذكرنا، فخرج الرسول ﷺ مع بعض الصحابة، في ربيع الأول من السنة الرابعة، إلى بني النَّضير يستعينهم في ذلك.

قالوا: «نعم ـ يا أبا القاسم ـ نُعينك على ما أحببتَ، مما استعنتَ بنا عليه». ثم خلا بعضهم ببعض، وقالوا: مَن يُلقي على محمد هذه الرحى فيقتلُه؟ فانبعث لذلك عمرُو بن جِحاش، ليلقيها مِن أعلى بيوتهم، والنبي ﷺ جالس إلى جنب جدار. ولكن سيّدهم سلّام بن مِشكم نصحهم بقوله: لا تفعلوا. والله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضُ العهد الذي بيننا.

---

(١) السيرة ٢: ١٨٦ ـ ٢٠٢ وتاريخ الطبري ٢: ٥٤٧ ـ ٥٥٥ وأنساب الأشراف ١: ٣٣٩ وفتوح البلدان ٢٣ والروض الأنف ٣: ٢٤٠ ـ ٢٤١ وزاد المعاد ٣: ١٢٧ ـ ١٢٩ و٢٤٨ ـ ٢٤٩ والكامل ٢: ١٧١ ـ ١٧٤والبداية والنهاية ٣: ١٤٥ ـ ١٥٤ وعيون الأثر ٢: ٤٨ وشرح المواهب ٢: ٧٩ ـ ٨٦ والطبقات ٢: ٥٧ ـ ٥٩.

فلم يسمعوا له، وجاء الوحي رسول الله ﷺ يعلمه بذلك، فرجع إلى المدينة، وأخبر الصحابة بغدرهم ونقضهم للعهد، ثم أرسل إليهم: أن اخرجوا من بلادي. فلا تُساكنوني، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر. وقد أجّلتكم عشرًا. فمن رُؤيَ بعد ذلك ضربتُ عنقه.

شرع بنو النَّضير يتأهبون للرحيل، فبعث إليهم رأسُ النفاق عبد الله بن سَلول أنّ معه ٢٠٠٠ من العرب، بالإضافة إلى بني قُريظة وحلفائهم من غطفان، يحمونهم ويمنعونهم ويقاتلون معهم، فلا يخرجوا من الحصون، وإن أُخرجوا خرجوا معهم أيضًا. ولكن بني قُريظة أنكروا ما زعمه ابن سلول وتنصلوا منه حفاظًا على العهد. أما بنو النَّضير بزعامة حُييّ بن أخطب فوثقوا بقول ابن سلول، وأبوا الجلاء وآذنوا بالمحاربة.

زحف إليهم الرسول العظيم بجيشه يحاصرهم، والراية بيد عليّ رضي الله عنه، وأمر بتقطيع نخيلهم وتحريقها، فأرسلوا إليه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتَعيبه. فما بال قطع النخل وتحريقِها؟ فنزل قول الله بإباحة ذلك[1]: ﴿ما قَطَعتُم مِن لِينةٍ، أو تَرَكتُمُوها قائمةً علَى أُصُولِها، فبإذنِ اللهِ، ولِيُخزِيَ الفاسِقِينَ﴾.

استمر هذا الحصار ١٥ ليلة، وقد خذلهم المنافقون وحلفاؤهم من العرب، حتى بلغ منهم الجَهد، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فراسلوه طالبِينَ أن يَحقن لهم دماءهم، ويخرجوا من بلده، ولهم ما حملَتِ الإبل إلّا السلاحَ والآلة، وللرسول النخل والأرض.

وهكذا شدّوا رحالهم وخرجوا من الحصون، بالدفوف والمزامير وغناء القيان، متوجّهين بعضهم إلى خيبر بزعامة ابن أبي الحُقيق وحُييّ بن أخطب، وآخرون إلى أذرِعات «دَرعا» من الشام. وكانت غنيمة السلاح ٥٠ دِرعًا و ٥٠

(١) الآية ٥ من سورة الحشر. واللينة: النخلة.

بيضة و٣٤٠ سيفًا، وأسلم منهم رجلان: يامين بن عُمير وأبو سعد بن وهب رضي الله عنهما، فأحرزا أموالهما بين المسلمين. أما بقية أموال بني النضير فكانت للنبي ﷺ، فقسّمها على المهاجرين الأولين الذين خسروا ديارهم وأموالهم في مكة، وأعطى أنصاريَّين اثنين لفقرهما الظاهر.

وفي هذا نزلت سورة «الحشر»،(١) وفيها: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، يمنُّ الله فيها على المؤمنين، بإخراج اليهود من حصونهم المحصّنة دون قتال، لغدرهم ونقضهم العهد وإعلانهم الحرب، ويجعل الفيء للنبي الكريم يحكم به لمن يشاء من المهاجرين، ويمتدح الأنصار بالإيمان والإيثار، ويذكر مكر المنافقين في تأييدهم الكاذب لبني النَّضير، ويصف اليهود عامةً بالجبن والشقاق وعجزهم عن مواجهة المؤمنين في قتال. وقد خُتم ذلك بالتوجيه إلى التقوى والصلاح، ومجانبةِ الفسق والغفلة، وإظهارِ قيمة القرآن الكريم وأثره، وتعظيم المولى - عز وجل - في ذاته وصفاته وأفعاله.

ثم توالى الشعراء من الجانبين في هذه الحلبة، يتبارون بالتهديد والتحدي والانتقام، ومفاخر الغلبة والانتصار وهزيمة الكفر والكُفّار.(٢) فهذا سمّاك اليهودي يتوعد المسلمين بالحرب مع أبي سفيان والمشركين:(٣)

فإلّا أمُتْ نأتِكُم، بالقَنا ... وكُلِّ حُسامٍ، مَعًا، مُرهَفِ
مَعَ القَومِ صَخرٌ، وأشياعُهُ، ... إذا غاوَرَ القَومَ لَم يَضعُفِ

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه، يذكر جريمة غدرهم، وحصار النبي ﷺ لهم

---

(١) السيرة ٢: ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) السيرة ٢: ١٩٥ - ٢٠٢.

(٣) السيرة ٢: ١٩٨. والقنا: الرماح، اسم جنس جمعي واحدته قناة. والمرهف: الحادّ القاطع. وصخر هو أبو سفيان بن حرب. وغاور: قاتل.

بالجيش الإسلامي، ومصيرهم كمصير بني قينِقاع في التشرد والضياع، تاركين الديار والأموال:(١)

فتِلـكَ بَنُو النَّضِيرِ، بِدارِ سَوءٍ ... أبارَهُـمُ، بِمـا اجـتَرَمُوا، المُبِيـرُ
غَداةَ أتـاهُمُ، في الـزَّحفِ رَهـوًا، ... رَسُـولُ اللهِ، وهْـوَ بِهِـم، بَـصِيـرُ
وأجلَـوا، عـامِدِيـنَ لِقَينِقـاعٍ ... وغُـودِرَ، مِنهُـمُ، نَخـلٌ ودُورُ

فأجابه سمّاك اليهودي يهدد بثأر كعب بن الأشرف، ويذكّر بهزيمة أُحد على يد صخر بن حرب:(٢)

فـإن نَسلَمْ، لَكُم، نَترُكْ رِجالًا ... بِكَعبٍ، حَولَهُم طَيرٌ تَـدُورُ
بِبِيضٍ، لا تُلِيقُ لَهُنَّ عَظمًا ... صَوافِي الحَدِّ، أكثَرُها ذُكُورُ
كَما لاقَيتُمُ، مِن بأسِ صَخرٍ ... بأُحْدٍ، حَيثُ لَيسَ لَكُم نَصِيرُ

وراح عباس بن مرداس السُّلَمي، وهو مشرك لمّا يُسلم، يرثى لحال بني النَّضير، فنعى عليه خوّاتُ بن جُبير ﷺ انشغاله باليهود، وهو حريّ به أن يبكي قتلى قومه بني سُليم، وأن يصير مع المسلمين، فيمدح أسيادهم، لما هم عليه من العزة والكرم:(٣)

تُبَكِّي علَى قَتلَى يَهُودَ، وقَد تَرَى ... مِنَ الشَّجوِ، لَو تَبكِي أحَبَّ وأقرَبا

---

(١) السيرة ٢: ١٩٨ ـ ٢٠٠. وأبار: أهلكَ. واجترموا أي: اقترفوا من الخيانة والغدر ونية الإجرام. والزحف: الجيش الزاحف بعتاده وسلاحه. ورهوًا أي: زحفًا بطمأنينة وهدوء. وعامدين أي: قاصدين. وقينُقاع: قبيلة يهودية أثارت الفتنة ونقضت العهد فهاجرت من قبل. وغودر: تُرك.

(٢) السيرة ٢: ٢٠٠. ونترك: نجعل ونصيّر. والطير: اسم جمع للطائر، مثل قوم وركب وشرب. والبيض: السيوف الصقيلة للحرب. ولا تليق لهن أي: لا تترك للطير. والذكور: جمع ذَكَر. وهو المصنوع من الحديد الصلب. وصخر هو أبو سفيان. وسكن حاء «أُحد» للتخفيف.

(٣) السيرة ٢: ٢٠١. والشجو: الحزن. وهلا: للتوبيخ والحض على ما هو أولى. وتبنوا أي: بنوا بعزم وإيمان. والمؤثل: القديم الراسخ. والترتب: الثابت.

فـهَلّا إلَى قَـومٍ مُـلُوكٍ، مَدَحـتَهُـم   تَبَنَّوا، مِن العِـزِّ الـمُؤَثَّلِ، مَنـصِبا
أُولئكَ أحرَى، مِن يَـهُودَ، بِمِدحـةٍ   تَراهُم، وفِـيهِم عِـزّةُ الـمَجـدِ تُرتُبا

فرد عليه عباس بن مرداس بوجوب الرثاء لحال اليهود معدّدًا مساعداتهم لقوم خوّات، وأجابه كعب بن مالك ﷺ، بذكر النصر في بدر وجلاء قينقاع والنَّضير، وذلة بني سُليم قوم عباس نفسه.

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ، يصف أسى اليهود على كعب بن الأشرف، وترحيلهم من دار الإكرام إلى التشرد ثانية:[١]

فبـاتَت عُيُـونٌ، لَـهُ، مُعْـوِلاتٍ   مَتَى يُنـعَ كَعـبٌ، لَهـا، تَـذرِفِ
وأجـلَى الـنَّـضِـيرَ، إلَـى غُربـةٍ   وكـانُـوا بِـدارٍ، ذَوِي زُخـرُفِ
إلَـى أذرِعـاتٍ، رُدافَـى، وهُـم   علَـى كُـلِّ ذِي دَبَـرٍ، أعـجَـفِ

فأجابه سمّاك اليهودي بمقطوعة أوردنا بعضها من قبل، وجاء فيها أيضًا ذكر مقتل كعب بن الأشرف، والتنظر انتقامًا له ولثأر بني النضير وأحلافها: المنافقين واليهود.

٥ ـ سرية أبي رافع:[٢] أبو رافع هذا يُعرف بأنه سلّام أو رافع أو عبد الله بن أبي الحُقيق، وهو يهودي من بني النَّضير الذين جلَوا إلى خيبر، وممن جمّع الأحزاب يوم الخندق أيضًا وجعل لها الحفل العظيم، ثم نجا هاربًا بنفسه. ولذا أراد الخزرجُ أن يكون لهم يد في الثأر منه، كما كان للأوس يد في الثأر

---

(١) السيرة ٢: ١٩٦ ـ ١٩٧. وينعى: يذكر موته. وأجلى أي: طرد النبيُّ. وأذرعات: موضع في الشام يعرف الآن باسم درعا. والردافى: جمع رَدفَى، أي: يردف بعضهم بعضًا على بعير واحد. والدبر: الجرح في المؤخر. والأعجف: الهزيل الضعيف.

(٢) الأحاديث: ٣٨١٢ ـ ٣٨١٤ في البخاري والسيرة ٢: ٢٧٣ ـ ٢٧٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤٩٣ ـ ٤٩٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٦ والكامل ٢: ١٤٦ ـ ١٤٨ وزاد المعاد ٣: ٢٧٥ ـ ٢٧٦ والطبقات ٢: ٩١ ـ ٩٢والاستيعاب ص ٩٤٦ ـ ٩٤٧ والإصابة ٤: ١٦٨.

من كعب بن الأشرف، واستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فسرّى منهم خمسة، كلهم من بني سَلمة ﵃، بقيادة عبد الله بن عَتيك وكان يرطن باليهودية، في ذي القعدة من السنة الخامسة، ونهاهم أن يقتلوا امرأة أو وليدًا.

خرج هؤلاء المجاهدون الكرام، وأتَوا حِصن هذا العدو الخسيس في خيبر، وقد أُغلقت جميع الأبواب، وربض هو في عِلّيّة يُصعَد إليها بدرج محفور في جذع نخلة، يقال له: عَجَلة. ولهذا صعِد الصحابة الأكارم إلى باب علّيّته وطرقوه زاعمين بلسان عبد الله ﵁ أنهم ناس من العرب يلتمسون شراء المِيرة، وهو مشهور بتجارته هذه، فأدخلهم إليه.

ولما أُغلق الباب خلفهم هجموا عليه بالسيوف، فأصابه عبد الله بن أُنيس - وهو أعشى لا يبصر في الليل - في بطنه، وراحت زوجة أبي رافع تصرخ وهم يهدّدونها، ولا يستطيعون قتلها لنهي رسول الله ﷺ إيّاهم من قبل، ثم نجَوا بأنفسهم، وهي تستغيث: «وا بَياتاهْ وا بَياتاهْ»، واليهود في ٣٠٠٠ يلاحقونهم. وأخيرًا رجع واحد منهم متجسسًا، فسمع صوت الناعي: «أنعَى أبا رافع تاجر الحجاز»، وجاءهم بخبر مقتله.

انصرفوا إلى النبي ﷺ فقابلهم بقوله: أفلحَتِ الوجوهُ. قالوا: أفلحَ وجهُك، يا رسول الله. ثم صار كلّ منهم يدّعي أنه القاتل. إذ ذاك طلب منهم عرض سيوفهم عليه، ونظر فيها فقال لسيف عبد الله بن أُنيس: هذا قتلَه. أرى عليه أثر الطعام. يعني ما كان في بطن ابن أبي الحُقيق.

فقال حسان ﵁ يسخر من هذا القتيل ومن كعب بن الأشرف، ويمتدح ما كان من المجاهدين الكرام في قتلهما: (١)

(١) ديوانه ص ٣٢٩ والسيرة ٢: ٢٧٦ وتاريخ الطبري ٢: ٤٩٧. والعصابة: الجماعة أمرها واحد. ويسري: يمضي في الليل. والبيض: السيوف الصقيلة، جمع أبيض. والخفاف: الرقاق، جمع خفيف. والمغرف: الكثير الأغصان. والذفف: السريعة القتل، جمع ذافّ. والمجحف: الذاهب بالأموال والنفوس.

لِلهِ درُّ عِـــصـابـةٍ، لاقَـيـتَـــهُم يا بنَ الحُقَيقِ،وأنتَ،يا بـنَ الأشرَفِ
يَسرُونَ، بـالبِيضِ الخِفـافِ، إلَيكُـمُ مَرَحًا، كـأُسدٍ في عَريـنٍ، مُغـرِفِ
حَتَّـى أتَـوكُم، فـي مَحَـلِّ بِلادِكُـم فـسَقَـوكُمُ حَتـفًـا، بِبِيضٍ ذُفَّـفِ
مُستَبـصِرِينَ، لِنَـصرِ دِيـنِ مُحَمَّـدٍ، مُستَـصغِرِينَ، لِكُـلِّ أمرٍ، مُجحِـفِ

٦ ـ **غزوة بني قُريظة:**[١] كان يهود بني إسرائيل حول المدينة المنورة قد ضاقوا بما يظهر من دعوة المسلمين واستقرار دولتهم، فائتمر زعماء بني النَّضير كسلّام بن أبي الحُقيق وحُييّ بن أخطب، وزعماء بني وائل بن قاسط وفيهم نصارى، على السعي لتحقيق ما يئد الدولة الفتية في مهدها، كما ذكرنا من قبل، وخرجوا إلى مكة، يحرضون قريشًا على رسول الله ﷺ معاهدين لهم بالقول: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

وحين تم الاتفاق بين الجانبين على الغزو، انصرف المؤتمرون إلى بني غطَفان، يدعونهم إلى ذلك ويبلّغونهم ما كان من قريش، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة تامّة، وانضم إليهم بنو فَزارة، بزعامة عُيينة بن حِصن ناقضًا عهده مع النبي ﷺ، فكان لبني قُريظة ما أرادوا من جمع الأحلاف يوم الخندق، واحتشادهم حول المدينة المنورة.

ثم ذهب سيّد بني النَّضير حُييُّ بن أخطب إلى بني قُريظة، لضمهم إلى الأحلاف، يبشرهم باجتماع العرب على استئصال محمد ومن معه، فأبى زعيمهم كعب بن أسد استقباله، وقال له: إنك رجل مشؤوم. وقد عاهدتُ محمدًا، ولم أرَ منه إلّا الوفاء والصدق. قال حُييّ: افتح لي أُكلّمْك. ففتح له،

---

(١) الأحاديث: ٣٨٩١ ـ ٣٨٩٧ في البخاري و١٧٦٩ و ١٧٧١ في مسلم والسيرة ٢: ٢٣٣ ـ ٢٧٣ وتاريخ الطبري ٢: ٥٨١ ـ ٥٩٣ والروض الأنف ٣: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وزاد المعاد ٣: ١٢٩ ـ ١٣٦ و ٢٥٨ وشرح المواهب ٢: ١٢٦ ـ ١٤٨ والطبقات ٢ ٧١ ـ ٧٨ والشرح الكبير للأُمّ ١٠: ٥٧٥ وأنساب الأشراف ١: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

فقال: ويحك، يا كعب. جئتك بعزّ الدهر وببحر طامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها، قد عاهدوني وعاقدوني ألّا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه.

قال كعب: «جئتَني ـ واللهِ ـ بذلّ الدهر. ويحك. فدعني ومحمدًا وما أنا عليه». فلم يزل حُيَيّ بكعب، حتى سمح له، على أن أعطاه حُيَيّ عهدًا من الله وميثاقًا: «لئن رجعتْ قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا، أن أدخلَ معك في حِصنك حتى يصيبَني ما أصابك». فنقض كعب سيّد بني قُريظة العهد أيضًا، ومزّق صحيفة العقد الموثق، وبرئ مما عاهد عليه رسول الله قبل، وانضم إلى أعداء المسلمين، في يوم الخندق. وقد بعث الرسول ﷺ من جاءه بخبر هذا النقض الشنيع، ملغزًا بالقول: عضَل والقارة، أي: غدرٌ كغدر هذين القبيلين بأصحاب الرجيع.

ولمّا انقضى حصار الخندق بهزيمة جميع الأحزاب، ورجع النبي ﷺ صباحًا مع المسلمين إلى المدينة، ليضع السلاح ويستجم مما كان، جاءه جبريل الأمين بالوحي: أوَضعتَ السلاحَ؟ يا رسول الله. قال: نعم. قال فما وضعَتِ الملائكة السلاح بعدُ، وما رجَعَتِ الآن من طلب القوم. إن الله ـ عز وجل ـ يأمرك بالمسير إلى بني قُريظة. فإني عامد إليهم، فمزلزِل بهم.

هنالك أمر النبي ﷺ أن يؤذّن في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلّيَنَّ العصر إلّا ببني قُريظة»، وجهز جيشه براية يحملها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسار حتى نزل على بئر قرب حصونهم لحصارهم، ثم تلاحق به عِشاءً من تأخر من المسلمين رضي الله عنهم، دون أن يصلُّوا العصر فصلَّوها هناك.

دام الحصار ٢٥ يومًا من ذي القعدة وذي الحجة للسنة الخامسة، واستُشهد ٣ من المسلمين خلال ذلك، فأجهد بني قُريظة ما هم فيه، وقذف الله في قلوبهم الرعب ـ وكان بينهم حُيَيّ بن أخطب سيّد بني النَّضير، وفاءً لكعب

ابن أسد بما عاهده قبل ـ فخيّرهم سيّدهم كعب بين أن يؤمنوا برسالة الإسلام، وأن يَقتلوا نساءهم وأبناءهم ثم يخرجوا لمناجزة المسلمين. كان ذلك يوم سبت، وأبوا قبول الإسلام، وأن يفسدوا سبتهم كأصحاب الحيتان الذين صاروا قِردة خاسئين. فقال لهم: ما بات رجل منكم، منذ وَلدتْه أُمّه، ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

ثم اتفقوا على مراسلة النبي العظيم لنزع الحصار، وطلبوا منه أن يبعث إليهم أبا لُبابة، يستشيرونه في الأمر فينصحهم، لأن عياله وأمواله بينهم. وعندما جاءهم استقبلتْه النساء والصبيان بالبكاء ليرقّ لهم، وسأله الرجال رأيه، فأجابهم بقبول حكم الرسول ﷺ، مشيرًا بيده إلى حَلْقِه لئلّا يستجيبوا للحكم[1]: «إنه الذَّبح». قال أبو لبابة: فوالله، ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرَفتُ أني قد خُنت الله ورسوله.

ولذا رجَع على وجهه إلى المسجد، دون أن يلقى النبي ﷺ، وارتبط إلى عمود فيه قائلا: «لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، ولا أُرى في بلد خنتُ الله ورسوله فيه». ولمّا بلغ النبيَّ ﷺ ما فعل قال: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له. فأمّا إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أُطلِقه من مكانه حتى يتوب الله عليه». فبقي كذلك ٧ أيام لا يأكل ولا يشرب، وتأتيه زوجته كل وقت صلاة، تساعده على ذلك.

وقد اضطُرَّ بنو قُريظة صباح ذلك اليوم أن ينزلوا على حكم النبي الكريم. ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد صاح فيمن حوله آنذاك: «يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقَنَّ ما ذاق حمزة، أو لأفتحنَّ حِصنهم»، فلم يجدوا

---

(١) انظر الاستيعاب ص ١٧٤٠ وأسباب النزول للواحدي ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ وتفاسير الطبري ١٣: ٤٨١ والبغوي ٢: ٢٤٢ والخازن ٣: ٢٠٣ وابن كثير ٢: ٢٨٨ والدر المنثور ٣: ١٧٨ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٤٥ ـ ٦٤٦.

بدًّا من قبول الحكم، وتواثب بنو الأوس يشفعون لهم، لأنهم مواليهم دون الخزرج، كما كان ابن سَلول الخزرجي قد شفع لبني قينِقاع، فقال لهم النبي ﷺ: ألا ترضون ـ يا معشر الأوس ـ أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلَى. قال: فذاك سعد بن معاذ.

كان سعد جريحًا بسهم أصابه يوم الخندق، فجيء به محمولًا، وقومه يناشدونه أن يرفق بمواليه بني قُريظة، وهو يقول: «لقد آن لسعد ألّا تأخذه في الله لومة لائم». ثم تلقّى منهم الميثاق أن يقبلوا حكمه، وقال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراريّ والنساء. فقال النبي ﷺ له: لقد حكمتَ فيهم بحكم الله فوق سبعة أرقِعة.(١)

وعلى ذلك فقد استُنزلوا من حصونهم وحُبسوا مقيدين، وهم بين ٦٠٠ و ٨٠٠ رجل، ومعهم امرأة كانت قتلت أحد المسلمين حين دنا من الحِصن ليكلمهم، ثم جيء بهم نهارًا فئة بعد أُخرى ليقتلوا، وقد حُفرت أخاديد يلقَى بها من تُضرب عنقه منهم. ولما أُحضر حُييّ بن أخطب قال للنبي ﷺ: «أما والله ما لمتُ نفسي على عداوتك، ولكنه من يَخذُلِ اللهَ يُخذَلْ»، ثم توجه إلى الجميع قائلًا: «أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله. كتابٌ وقدَر، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل»، وجلس فضُربت عنقه.

وقال جبل بن جوّال الثعلبي ـ وهو يهودي أسلم فيما بعد ـ يذكر ما كان لحُييّ بن أخطب، وأنه نال عقابه لبغيه، وقد بذل الكثير من الجهد والباطل، في سبيل العزة حتى يُعذر:(٢)

---

(١) الأرقعة: السماوات، جمع رَقيع.

(٢) السيرة ٢: ٢٤١ وتاريخ الطبري ٢: ٥٨٩. وقلقل: اضطرب في مصائب الدنيا. والمقلقل: مصدر ميمي للفعل: قلقل.

لَعَمرُك، ما لامَ ابنُ أخطَبَ نَفسَهُ ... ولكِنَّهُ مَن يَخذُلِ اللهَ يُخذَلِ
لَجاهَدَ، حَتّى أبلَغَ النَّفسَ عُذرَها ... وقَلقَلَ، يَبغِي العِزَّ، كُلَّ مُقَلقَلِ

وأسلمَ يومئذ ثعلبة بن سَعية وأُسَيد بن سَعية وأسد بن عُبيد ﷺ، وهم أبناء عمّ قُريظة والنَّضير من بني هَدل. وكان عمرُو بن سُعدى القُرظي قد خرج على قومه، فلم يَقبل غدرهم، وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا. وفي ليلة الحكم مرّ بمحمد بن مسلمة، ولما عرفه خلّى سبيله، فانطلق في سبيله، لايعلم أحد ما انتهى إليه. فذُكر ذلك لرسول الله فقال: ذاك رجل نجّاه الله بوفائه.

ونجا من القتل عطية القُرظي لأنه كان لمّا يبلغ الحُلم، واستوهبتْ خالة النبي ﷺ سلمى بنت قيس دم رفاعة بن سموءل القُرظي، فوهبه لها، وقد أسلما بعد ذلك. أما الزَّبِير بن باطا القُرظي فكان له يد عند ثابت بن قيس ﷺ في يوم بُعاث، فأراد هذا وهو شيخ كبير أن يجزيه بها، واستوهب دمه ثم زوجَه ثم ماله من الرسول.

ولما بلّغه ذلك ليطلق سراحه سأله هذا عن كعب بن سعد وحُييّ بن أخطب وعزّال بن سموءل، فأخبره أنهم قُتلوا جميعًا، فقال الزبير: «فإني أسألك ـ يا ثابتُ ـ بيدي عندك إلّا ألحقتَني بالقوم.[1] فواللهِ ما في العيش بعد هؤلاء من خير. فما أنا بصابرٍ للهِ فَتلةَ دلوِ ناضحٍ،[2] حتّى ألقَى الأحبّة». فقدّمه ثابت، فضُربت عنقه.

قال ثابت في ذلك، يصف وفاءه لليد الكريمة، وفضل الزَّبير عليه، وسماحة الرسول في جبر مقاصد الكرام:[3]

---

(١) أي: ما أسألك بيدي عندك إلّا إلحاقي بالقوم قتيلًا.

(٢) فتلة دلو ناضح أي: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو بحبلها من الحوض، ويفتلها ليصبها في الحوض ويردها. والناضح: الحبل يُستخرج به الماء من البئر.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٥٩١. والكوع: طرف الزند مما يلي الإبهام.

وَفَـت ذِمّتِـي، أنّـي كَرِيـمٌ، وأنّنِـي صَبُورٌ، إذا ما القَومُ حادُوا عَنِ الصَّبرِ
وكـانَ زَبِيـرٌ أعـظَمَ النّـاسِ مِنّـةً عليَّ، فلَمّا شُدَّ كُوعـاهُ بـالأسـرِ
أتَيـتُ رَسُـولَ اللهِ، كَيمـا أفُكَّـهُ وكان رَسُولُ اللهِ بَحرًا لَنا، يَجـرِي

هكذا انتهت قصة بني قُريظة، ثم جُمعت الغنائم والسبايا فكان فيها ١٥٠٠ سيف و ٣٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و ١٥٠٠ ترس، مع الذراري والنساء، فوزِّعت على المسلمين، بعد أن أُخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم: واحد له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد. وأُرسلت بعض السبايا إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري ﷺ، ليبتاع بها خيلًا للجهاد والمجاهدين.

وبعد مضي أُسبوع على ربط أبي لُبابة نفسَه بسارية المسجد، نزل الوحي بقول الله ـ سبحانه ـ في كتابه المجيد[1]: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أماناتِكُم، وأنتُم تَعلَمُونَ، واعلَمُوا أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنةٌ، وأنَّ اللهَ عِندَهُ أجرٌ عَظِيمٌ. يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إن تَتَّقُوا اللهَ يَجعَلْ لَكُم فُرقانًا، ويُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّئاتِكُم ويَغفِرْ لَكُم. واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

وفي هذا توجيه وعِظة، و بشارة بالتوبة على أبي لُبابة، فسمعتْ أُمّ سلمة الرسولَ ﷺ يضحك في السَّحَر، فقالت: مِمَّ تضحكُ؟ يارسول الله. أضحكَ الله سِنّك. قال: تِيبَ على أبي لُبابة. قالت: أفلا أُبشِّرُهُ؟ يارسول الله. قال: «بلَى، إن شئتِ». فقامت على باب حُجرتها وقالت: «يا أبا لُبابة، أبشِرْ. فقد تاب الله عليك». ولمّا سمع الناس ذلك هبّوا ليطلقوا سراحه، فقال: «لا واللهِ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده». وعندما مر عليه النبي الكريم إلى صلاة الصبح أطلقه.

---

(١) الآيات ٢٧ ـ ٢٩ من سورة الأنفال. والفرقان: الهداية إلى الحق للنجاة ومعرفة الصواب في الأمور المشكلة.

ثم كانت صولات الشعراء وجولاتهم الفنّية تتردد في المجالس والمنتديات، تسجل مواقفهم من الأحداث ومشاركاتهم فيها، من قريب أو بعيد. فحسان بن ثابت ﷺ يدعو على بني قُريظة بالمحق، لخيانتهم العهود ونصرتهم قريشًا، وكفرهم بالتوراة والقرآن، ويذكر خُذلان قريش عن إنقاذهم من البلاء:[1]

تَفــاقَدَ مَعــشَرٌ، نَـصَرُوا قُرَيــشًا ... ولَيــسَ لَهُـم، بِبَلدتِهِـم، نَـصِيـرُ
هُـمُ أُوتُـوا الـكِتــابَ، فـضَيَّعُوهُ ... وهُـم عُمـيٌ، مِـنَ الـتَّوراةِ، بُـورُ
كَفَـرتُم بـالقُــرانِ، وقَــد أُتِيــتُم ... بتَصدِيـقِ الَّـذِي قـالَ الـنَّذِيـرُ
فهـانَ، عـلَى سَـراةِ بَنِي لُـؤَيٍّ، ... حَرِيـقٌ، بـالبُوَيـرةِ، مُـستَطِيـرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، يهدّد بالغزو القادم، ويعتذر بغياب قريش عن حصار بني قُريظة. فلو كان رجال قريش حينذاك راكبين خيلهم بالنخيل بدلًا من تلك الأشجار لما استقر للمسلمين مُقام ونصر:[2]

سَتَعــلَمُ: أيُّنــا، مِنهــا، بنُــزهٍ؟ ... وتَعــلَمُ: أيُّ أرضَينـا تَـضِيـرُ؟
فلَـو كـان الـنَّخِيـلُ بـهـا رِكابًـا ... لَقالُـوا: لا مُقـامَ لَكُـم، فسِيـرُوا

وقال جبَل بن جوّال، يرد على حسان ﷺ أيضًا، راثيًا سادة اليهود، لِما كانوا عليه من الفضل والأمجاد:[3]

---

(١) ديوانه ص ٢٥٠ و السيرة ٢: ٢٧٢. وتفاقدوا أي: فقد بعضهم بعضًا، فما بقي منهم أحد. والكتاب: التوراة. والبور: الهلاك. وحذف همزة القرآن بعد نقل حركتها إلى الراء. وأُتيتم أي: جاءكم في التوراة. والنذير: رسول الله ﷺ. والسراة: السادة، جمع سَريّ. وبنو لؤي من قريش. والبوير: موضع من ديار قريظة. والمستطير: المنتشر.

(٢) السيرة ٢: ٢٧٢. والنزه: البعد. وتضير: تَضر وتُفني. والركاب: جمع الراحلة، الإبل المركوبة. يريد من عليها من الأبطال.

(٣) السيرة ٢: ٢٧٢ ـ ٢٧٣. وأقفرت: خلت. والبويرة: موضع في ديار بني قريظة. والبور: الخالية المهدمة. وميطان: جبل في المدينة المنورة. والبدور: جمع بدر. وهو القمر في منتصف الشهر. يريد تقلب الشهور والأعوام.

وأقفَرَتِ البُوَيرةُ، مِن سَلامٍ   وسَعيةَ، وابنِ أخطَبَ، فهيَ بُورُ
وقَد كانُوا، ببَلدتِهِم، ثِقالاً   كَما ثَقُلَت، بمَيطانَ، الصُّخُورُ
وَجَدْنا المَجدَ قَد ثَبَتُوا علَيهِ   بمَجدٍ، لا تُغَيِّبُهُ البُدُورُ

ثم شرع حسان رضي الله عنه يصف ما صار لقُريظة من مصير دموي، دون أن يكون لها نصير، حين حاصرها النبي ﷺ بجيشه، وأنهى حياة رجالها طُعمة للطير. فلتتعظ قريش بذلك إن كان لها قلب يعي:[1]

لَقَد لَقِيَت قُرَيظَةُ ما سآها   وما وَجَدَت، لِذُلٍّ، مِن نَصِيرِ
غَداةَ أتاهُمُ، يَهوِي إلَيهِم   رَسُولُ اللهِ، كالقَمَرِ المُنِيرِ
فهُم صَرعَى، تَحُومُ الطَّيرُ فيهِم   كَذلِكَ دِينُ ذِي العَنَدِ الفَجُورِ
فأنذِرْ مِثلَها، نُصحًا، قُرَيشًا   مِنَ الرَّحمنِ، إن قَبِلَت نَذِيرِي

وصار يردّد على الأسماع خياناتِ بني قُريظة للمواثيق، والخاتمةَ التي انتهوا إليها، بالحصار والتقتيل والفناء:[2]

فما بَرِحُوا بنَقضِ العَهدِ، حَتَّى   فَلاهُم، في بِلادِهِمُ، الرَّسُولُ
أحاطَ بحِصنِهِم، مِنّا، صُفُوفٌ   لَهُ، مِن حَرِّ وَقعَتِهِم، صَلِيلُ

وبهذا أُسدل الستار على مكايد بني قُريظة وأحابيل خياناتهم، في الشرق والغرب، وانتبذتْ من أمثالهم صور جديدة تقتضي البيان بالتفصيل.

٧ ـ سرية ابن رَواحة:[3] لما قُتل سلّام بن أبي الحُقيق أمّرت اليهود في

---

(١) ديوانه ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ والسيرة ٢: ٢٧١. وسآها أي: مزقها. والدين: العاقبة والحساب. والعند: العناد والخروج عن الحق. والنذير: الإنذار.

(٢) السيرة ٢: ٢٧١ ـ ٢٧٢. وفلاهم أي: قتلهم بالسيوف. وله أي: للحصن. والصليل: الصوت المجلجل.

(٣) السيرة ٢: ٦١٨ ـ ٦١٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٧٨ والروض الأنف ٤: ٣٩ وتاريخ الطبري ٣: ٩ وزاد المعاد ٣: ٣١٦ و ٣٦٠ والبداية والنهاية ٣: ٤١٨ ـ ٤١٩ والطبقات ٢: ٩٢ وشرح المواهب ٢: ١٧٠ ـ ١٧٧.

خيبرعليهم اليُسير بن رِزام، وشرع هذا يجمع بني غطَفان وبعض يهود بخيبر في شوّال من السنة السادسة، لغزو رسول الله ﷺ، فبعث إليه عبدَ الله بن رَّواحة في ٣٠ من أصحابه ﵃. ولما لقُوا اليُسير هذا خدعوه، بقولهم: إنك إن قدِمتَ إلى رسول الله استعملك على خيبر، وأكرمك بالسيادة.

فخرج معهم في ٣٠ من اليهود، ليقصد المدينة المنوّرة. وعندما وصل إلى القرقرة، بعد ستة أميال من خيبر، بدا عليه أنه ندم على قبوله ذلك، وأراد انتضاء السيف للحرب، فعاجله عبد الله بضربة قطعت رجله، وأحاط المجاهدون به وبأصحابه من اليهود، فقتلوهم إلّا واحدًا هرب على رجليه. واستقبل الرسولُ ﷺ أصحابه ﵃ بقوله: نجّاكم الله من القوم الظالمين.

٨ ـ **غزوة خَيبر:**[١] كانت خيبر قرية في الشمال الغربي من المدينة، واحة خضراء غنية بالمزارع والحقول، قد لجأ إليها بعض اليهود حين شُرّدوا من بلاد الشام بفتنهم والحروب بينهم، وأنشؤوا فيها مخيمات صارت مع الزمن ٧ حصون فوق الصخور ومزارع ونخلًا كثيرًا.

وعندما جلا بنو النَّضير من ديارهم قصدها زعماؤهم، فدان لهم أهلها، وسعَوا معهم في حشد الأحزاب يوم الخندق، وتجهزوا لغزو المدينة. وقد رأينا أمرهم في السَّريّة المتقدمة، كما حاولوا غزو المدينة أيضًا حين كان المسلمون في أيام الحُديبية، فلم يتيسر لهم ذلك.

فبعد الرجوع من الحُديبية بثلاثة أسابيع، أي: في بقية محرّم من السنة

---

(١) الأحاديث ٣٩٥٩ ـ ٤٠٠٣ في البخاري ومعجم البلدان ٢: ٤٠٩ ـ ٤١١ والكامل ٢: ٢١٦ ـ ٢٢٤ وزاد المعاد ٣: ٣١٦ ـ ٣٣٩ والبداية والنهاية ٣: ٤١٢ ـ ٤١٣ وعيون الأثر ٢: ١٤٣ والطبقات ٢: ١٠٦ ـ ١١٧ وشرح المواهب ٢: ٢٤٧ ـ ٢٤٩ والاستيعاب ص ١٠٩٩ ـ ١١٠٠ ومعجم البلدان ٢: ٤٠٩ ـ ٤١٠.

السابعة، خرج النبي ﷺ بجيشه في ١٤٠٠ رجل منهم ٢٠٠ فارس، إلى خيبر لمناجزة من فيها من اليهود، وفي طريقه ذلك قال لعامر بن الأكوع رضي الله عنه: «انزلْ - يا بن الأكوع - فخُذْ لنا من هَناتك»، أي: احدُ لنا الإبل ببعض ما عندك من الرجز. فنزل عامر رضي الله عنه عن ناقته، وصار ينشد في حُدائه الإبلَ:(١)

والله، لَـولا اللهُ مـا اهـتَدَيـنـا ولا تَـصَـدَّقـنا، ولا صَـلَّـيـنـا
إنّـا إذا قَـومٌ بَـغَـوا عـلَـيـنـا، وإن أرادُوا فِـتـنـةً، أبَـيـنـا
فأنـزِلَـنْ سَكِـيـنـةً عـلَـيـنـا وثَبِّـتِ الأقـدامَ، إن لاقَـيـنـا

فقال رسول الله ﷺ: «يرحمُك الله». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وجبَت - والله - يارسول الله. لو أمتعتَنا به». يعني أنك بشّرتَه بالشهادة، وكنا نتمنّى أن يبقى بيننا لنتمتّع بصحبته. وفعلًا استُشهد في غزوة خيبر، إذ رجع إليه سيفه وهو يقاتل، فجرحه جرحًا شديدًا، فمات منه، وقال بعض المسلمين: إنما قتله سلاحه. فكان أنّ سلمة ابن أخيه سأل الرسول ﷺ عن موته، فقال له: إنه لَشهيد.

ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه: قِفوا. ثم دعا ما كان يدعوه في كل قرية يدخلها، أن ييسّر الله له خيرها وخير أهلها وخير ما فيها، ويدفع عنه شرها وشر أهلها وشر ما فيها. ثم وعظ أصحابه وفرق بينهم الرايات، وأمرهم قائلًا: أقدِموا باسم الله.

نزل بالجيش في وادي الرَّجيع، بين غطفان وخيبر، ليحول دون مساعدة بني غطفان لليهود، وهم يد واحدة في الحروب والفتن كما رأينا من قبل. وفي الصباح حاصر الحصون، وهو يقول: اللهُ أكبر. خَرِبَت خَيبر، اللهُ أكبر. خَرِبَت

(١) الحديث ٣٩٥٩ في البخاري والسيرة ٢: ٣٢٨ - ٣٢٩ والكامل ٢: ٢١٦ والبداية والنهاية ٤: ١٨٢ - ١٨٣ و ١٨٧ والطبقات ٢: ١١١ وزاد المعاد ٣: ٣١٧ - ٣١٨.

خَيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فساءَ صَباحُ الـمُـنـذَرِينَ﴾![1] فلجأ أصحاب الحصون إليها متخفِّين فيها.

ثم انتاب رسولَ الله ﷺ ما كان يعاوده من صُداع، يقال له: الشقيقة، فلزم مجلسه وكان أول ما بدأ به أن عقد لواء لأبي بكر ﷺ، وأرسله في كتيبة لفتح حِصن «ناعم»، فرجع دون ذلك، ثم نهض الرسول ﷺ وقاتل قتالًا شديدًا، وأعطى الراية عمر ﷺ، فعاد دون نصر. وفي اليوم الثالث جعل اللواء لعليّ ﷺ، وأوصاه كما أوصى مَن قبله، أن يعرض على من في الحصن الإسلام قبل القتال. ولما رآه اليهود قال بعضهم لبعض: غُلبتم، يا معشرَ يهود.

سارعليّ ﷺ بالكتيبة وشن بها غارات على الحِصن موفّقة، فصار فتحه على يديه. وكان قد أطل يهودي عليه قبل الفتح من الحصن، قائلًا: من أنتَ؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال اليهودي: «علَوتم، وما أُنزِل على موسَى». فهو يبشر المسلمين بالنصر مقسِمًا بالتوراة. وهكذا صار الرسول العظيم يفتتح الحصون الباقية بالقتال والمناجزة، واحدًا بعد الآخر، ويجمع الغنائم والسبايا. وقد أوصى أصحابه ﷺ ألّا يضاجعوا حاملًا منهنّ، ولا يتصرفوا بشيء قبل التقسيم للأموال.

ومن أحد الحصون خرج مَرحبٌ اليهوديّ، مدجّجًا بالسلاح وعلى رأسه مِغفر من الصخر، يطلب المبارزة، وهو يرتجز ببطولته وحمايته لعرضه وكرامته:[2]

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة الصافات.

(٢) السيرة ٢: ٣٣٣ وتاريخ الطبري ٣: ١٠ ـ ١٣ والكامل ٢: ٢١٨ والبداية والنهاية ٤: ١٨٧ ـ ١٨٨ والطبقات ٢: ١١٠ و ١١٢ وزاد المعاد ٣: ٣١٨ و ٣٢١. والشاكي: الحادّ المؤذي. والمجرب: الخبير في الحروب. والليوث: أبطال الفرسان. وتحرب: تتميز من الغضب حمية. ويحجم: يرجع ويبتعد.

قَـد عَلِمَـت خَيـبَرُ أنِّي مَرحَـبُ ... شـاكِي السِّلاحِ، بَطَـلٌ، مُجَـرَّبُ
أطعُـنُ أحيـانًا، وحِيـنًا أضـرِبُ ... إذا اللُّيُـوثُ أقبَلَـت، تَحَـرَّبُ
إنَّ حِمـايَ، لِلـحِمَى، لا يُقـرَبُ ... يُحجِمُ، عَن صَولَتِيَ، المُجَـرَّبُ

فأجابه كعب بن مالك ﷺ، يذكر أمجاده في أيام الشدائد وجرأته وصلابته وما سيكون ليهود خيبر من النهاية:[1]

قَـد عَلِمَـت خَيبَـرُ أنِّي كَعـبُ ... مُفَـرِّجُ الـغُمَّى، جَـرِيءٌ، صُلـبُ
نَطـؤُكُم، حَتَّـى يَـذِلَّ الـصَّعـبُ ... بكَفِّ مـا ضٍ، لَيـسَ فِيـهِ عَتبُ

وكذلك أجابه عامر بن الأكوع ومحمد بن مسلمة ﷺ بأرجاز،[2] تُعَدِّد المفاخر والتهديد والوعيد. وكان محمد بن مسلمة ﷺ قد قطع رجل مرحب وتركه ليلقى العذاب مخاطبًا له بقوله: ذُقِ الموت كما ذاقه أخي محمود.

ثم سارع علي بن أبي طالب ﷺ إلى مرحب، وصار يرتجز بمفاخره في الحروب:[3]

أنـا الَّـذِي سَمَّتـنِ أُمِّي حَيـدَرَهْ ... أَكِيلُكُم، بـالسَّيفِ، كَيلَ السَّـندَرَهْ
لَـيثٌ بِغـابـاتٍ، شَدِيـدٌ، قَسْوَرَهْ

فاختلفا ضربتَين، سبقه عليّ فقدَّ الحجر والرأس حتى بلغ الأضراس. وقد بقي سلاح مَرحب عند آل محمّد بن مسلمة هذا ﷺ، وكان على السيف مكتوب باليهودية:[4]

---

(١) ديوانه ص١٨٣ والسيرة ٢: ٣٣٣. والغمى: أشد الكروب. والماضي: المقدم على الشدائد.

(٢) البداية والنهاية ٤: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ١٣ والطبقات ٢: ١١٢ وزاد المعاد ٣: ٣٢١. وحذف ياء المتكلم تخفيفًا بعد نون الوقاية من: سمتنِ. والسيدرة: مكيال ضخم. والقسورة: الشديد الغالب.

(٤) زاد المعاد ٣: ٣٢٢.

هـذا سَيفُ مَرحَبْ مَـن يَذُقْهُ يَعـطَبْ

ثم خرج ياسرٌ أخو مَرحب، يطلب المبارزة برجز من مثل ما كان لأخيه:[(١)]

قَـد عَلِمَـت خَيـبَرُ أنّي يـاسِـرُ شـاكِي السِّلاحِ، بَطَـلٌ، مُغـاوِرُ

إذا اللُّيُـوثُ أقبَلَـت، تَبـادَرُ وأحجَمَت، عَن صَولَتِي، المَغاوِرُ

إنَّ حِمـايَ فِيـهِ مَوتٌ حـاضِرُ

فخرج إليه الزُّبير بن العوّام رضي الله عنه، وهو يهدّده ويتوعّده، بقوله من الرجز:[(٢)]

قَـد عَلِمَـت خَيـبَرُ أنّي زَبّـارْ قَـرمٌ، لِقَـومٍ، غَيـرُ نِكسٍ فَـرّارْ

ابـنُ حُماةِ المَجدِ، وابـنُ الأخيـارْ يـاسِرُ، لايَغـرُرْكَ جَمـعُ الكُـفّارْ

فَجَمعُـهُم مِثلُ السَّرابِ الجَـرّارْ

فقالت أُمّه صفيّة بنت عبد المطلب رضي الله عنها: أيَقتلُ ابني؟ يا رسول الله. قال: بل ابنك يقتله، إن شاء الله. ولما التقيا قتله الزُّبير رضي الله عنه.

وجاء عبد حبشي من أهل خيبر في غنم لسيده، يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوة، وأسلم فبشّره النبي الكريم بالجنة، وأمره أن يُطلق الغنم ويرميها بالحصباء لتسير إلى صاحبها. ولمّا اشتد النزال والرمي بالسهام استُشهد العبد رضي الله عنه، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين أنه رأى عند رأسه اثنتين من الحُور العِين. وكان أعرابي قد آمن أيضًا رضي الله عنه، وفي غزوة خيبر قُسم له من الغنيمة، فجاء يعتذر عن قبولها، لأنه آمن على أن يُقتل في سبيل الله ليدخل الجنة. ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ١١ والكامل ٢: ٢١٩. وانظر زاد المعاد ٣: ٣١٨. وتبادر أي: تتسابق إلى المعركة. والمَغاور: جمع مِغوَر.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ١١. والزبار: الشديد القوة والمنعة. والقرم: السيد العظيم. والنكس: الدنيء. وفرار: صفة لـ «نكس» بملاحظة معنى: غير، أي: لا أعرف الفرار في الحروب. والنفي يعني توكيد العكس مع المبالغة.

استُشهد فكفنه النبي ﷺ بجبته وصلى عليه، ودعا له وشهد بأنه شهيد.

وعندما اشتد أمر حِصن «الزَّبير» على المسلمين جاء يهودي اسمه عزّال إلى النبي ﷺ، وقال له: «يا أبا القاسم، إنك لو أقمتَ شهرًا ما بالَوا، لأن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يَخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم، فيمتنعون منك. فإن قطعتَ مشربهم عليهم أصحروا لك». فسار النبي ﷺ إلى مائهم فقطعه عليهم، فلمّا قُطع عليهم خرجوا، فقاتلوا أشد القتال، واستُشهد من المسلمين نفر، وأُصيب نحو عشَرة من اليهود، وافتتح الحصنَ رسول الله ﷺ.

وخلال ما مضى كان قد استحرّ القتل بين الجانبين، فكان من المسلمين ١٥ شهيدًا من الأبرار ﷺ، ومن اليهود ٩٣ قتيلًا، يُفتح حصن بعد آخر. ولمّا مرّ بلال رضي الله عنه بامرأتين على القتلى من قومهما عاتبه رسول الله ﷺ قائلًا: أَنُزِعَت منك الرحمةُ - يا بلال - حين تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟

أمّا أصحاب الحِصنين: الوطيح والسُّلالم، وهما ثلث ما في خيبر، فقد لجأ إليهما الهاربون من الحصون الأُخرى، واشتد بأصحابهما الحصار وبلغهم أن المسلمين بدؤوا ينصِبون المَنجنيق لرميهم، فراسلوا النبي ﷺ بعضهم أن يصالحوا على حقن دمائهم والرحيل مع ترك الأموال، وبعضهم أن يكون الصلح على نصف أموالهم يبقَون في ديارهم لرعايتها بخبرتهم، شريطة أنه إن شاء أخرجهم بعدُ لغدر جديد منهم أو إفساد، وألّا يكتموا شيئًا من المال، وإلّا فلا ذِمّة لهم ولا عهد.

ولم ينس الشعراء أن يشاركوا في هذه المَغزاة، ليسجلوا بعض المواقف والأحوال، كما تبدو لهم من خلال الرؤى الفنية. فحسان رضي الله عنه يسخر بجبن اليهود واستسلامهم وعدم حمايتهم الأموال، وما هم عليه من كراهية الموت،

ليعيشوا حياة المَذلّة والهوان:[1]

بئسَ ما قاتَلَت خَيابِرُ، عَمّا جَمَّعُوا، مِن مَزارِعٍ ونَخِيلِ!
كَرِهُوا المَوتَ، فاستُبِيحَ حِماهُم، وأقَرُّوا، فِعلَ اللَّئِيمِ الذَّلِيلِ
أمِنَ المَوتِ يَهرُبُونَ؟ فإنَّ الـ ـمَوتَ مَوتَ الهُزالِ غَيرُ جَمِيلِ

وكذلك كان موقف ابن لُقيم العبسي ﷺ، بعد أن وهبه رسول الله ﷺ ما في خيبر من دواجن ـ وهو مشهور بلقب لُقيم الدَّجاج ـ فوصف ما نال الحصون من جيش النبوة، فأصبحت قفرًا من أصحابها، يقيم بها المسلمون منتصرين، وجموع اليهود في هرب بانكسار واستخزاء:[2]

رُمِيَت نَطاةُ، مِنَ الرَّسُولِ، بفَيلَقٍ شَهباءَ، ذاتِ مَناكِبٍ وفَقارِ
جَرَّت بأبطَحِها الذُّيُولَ، فلَم تَدَعْ إلّا الدَّجاجَ، تَصِيحُ في الأسحارِ
ولَقَد عَلِمتُ، لَيَغلِبَنَّ مُحَمَّدٌ ولَيَثوِيَنَّ بها، إلَى أصفارِ
فَرَّت يَهُودُ، يَومَ ذلِكَ، في الوَغَى تَحتَ العَجاجِ، غَمائمَ الأبصارِ

أما كعب بن مالك ﷺ فإنه راح يفتخر بالفروسية، وطلب الشهادة من الله، وبالنصرة لنبيه بالروح، والإيمان بالغيب للفوز بالخلود في الجنان:[3]

---

(١) ديوانه ص ٤٠٣ والسيرة ٢: ٣٤٧ والبداية والنهاية ٤: ٢١٧. وبئس أي: بلغ الغاية في البؤس والشر والفساد. وخيابر: جمع خيبر، أي: اليهود أصحاب الحصون في خيبر. وأقروا أي: خضعوا للهوان والمذلة.

(٢) السيرة ٢: ٣٤١ والبداية والنهاية ٤: ٢١٤. ونطاة: اسم حصن في خيبر. والفيلق: الكتيبة. والشهباء: التي تلمع لكثرة سلاحها. والأبطح: السهل من الأرض. والذيول: أي: ذيول الغبار والرمال والدمار. ويثوي: يقيم. والأصفار: جمع صَفر. والوغى: الحرب. والغمائم: جمع غميم. وهو المغضوض المنكسر. يعني: هربوا غاضّين أبصارهم.

(٣) ديوانه ص١٩٦ والسيرة ٢: ٣٤٩ والبداية والنهاية ٤: ٢١٧ ـ ٢١٨. ووردنا: دخلنا. والفروض: جمع فرض، الثغور والمنافذ. والأشاجع: جمع أشجع، العروق في ظاهر الكف. وشهادة الله: القتل في سبيله. ويريبه: يرى فيه ما يحمله على الشك والإقدام.

ونَحــنُ وَرَدنــا خَيــبَرًا، وفُــرُوضَهُ بكُلِّ فَتًى، عــارِي الأشاجعِ، مِـذوَدِ
يَرَى القَتلَ مَدحًا، إن أصابَ شَهادةً مِـنَ اللهِ، يَرجُـوها، وفـوزًا بأحـمَـدِ
ويَنــصُرُهُ، مِـن كُـلِّ أمـرٍ، يَـرِيبُــهُ يَجُـودُ بـنَفـسٍ، دُونَ نَفسِ مُحَمَّــدِ
يُـصَدِّقُ بالأنبـاءِ بالغَيـبِ، مُخلِصًا يُرِيدُ بذاكَ الـفَوزَ، والعِـزَّ في غَـدِ

وبانتهاء هذه المعارك إجلاء أو صلحًا، كانت الغنائم المجموعة كثيرة بفضل الله، فقُسّمت على المحاربين والنساءِ والذين حضروا الحُديبية والساعين في الصلح، والمستحقين من ذوي القربى واليتامى والمساكين. وكذلك شأن الأرض وما فيها من الديار العامرة والخربة. وما كان من الخيل في ذلك ميّز الرسول الكريم بينه، فعرّب عربيّه وهجّن هجينه.

على أن هؤلاء اليهود لمّا ينتهوا عن الخِسّة والدناءة، بالرغم مما لقُوا من العفو والأمان والاستقرار، إذ أن امرأة سيّدهم سلّام بن مِشكم أهدت إلى الرسول ﷺ شاة مشويّة، وقد دست السمّ فيها وأكثرته في ذراعيها، لأنها علمت أنه يحب الذراع من الأعضاء.

ولما جاءت بها ووضعتها بين يديه تناول الذراع، فلاك منها مُضغة، وكذلك فعل بِشرُ بن براء ﷺ. فأما بشر فأساغها ثم استُشهد منها بعدُ، وأما الرسول العظيم فضاق بها ولم يُسغها ولفظها، وقال: إن العظم ليُخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفتْ.

قال: ما حملكِ على ذلك؟ قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلتُ: إن كان ملكًا استرحتُ منه، وإن كان نبيًّا فسيُخبَرُ. فقال لها: «ما كان الله ليُسلّطَكِ على ذلك». وتجاوز عن إيذائها ومنع قتلها. ولكن لمّا مات بشر بالتسمم دفعها إلى أوليائه، فقتلوها قِصاصًا. وقد لبث أثر السمّ ينازعه إلى أن لقي ربه ﷺ وهو يقول: «ما زالت أكلة خيبر تُعادّني حتى قطعتْ أبهري».

ولذلك فإنه مات شهيدًا، مع ما أكرمه الله به من النبوة والسيادة. عليه الصلاة والسلام والرحمة والبركات.

ثم إن الصحابي الأنصاري عبد الرحمن بن سهل ﷺ كان يمتار التمر من خيبر، فوُجد قتيلًا هناك قد كُسرت عنقه، وكتب الرسول ﷺ إلى يهود: «إنه قد وُجد قتيل بين أبياتكم. فدُوه، أو ائذنوا بحرب» أي: فعليكم دفع ديته أو تهيئوا للحرب. فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلًا. فوداه من عنده مائة ناقة.

٩ ـ سرية مُحَيِّصة:[١] فدَكُ قرية في جنوب خيبر على طريق المدينة، يلجأ اليهود إلى حصونها بزعامة يُوشَع بن نون. ولما انتهى رسول الله ﷺ من خيبر بعث إليهم سرية بقيادة مُحَيِّصة بن مسعود ﷺ، يدعوهم إلى الإسلام في صفر من هذا العام، وكانوا قد بلغهم ما جرى في خيبر، فقابلوا المجاهدين بطلب الصلح على غرار ما كان من مُصالِحي خيبر.

وبهذا كان فيء فدك خالصًا للنبي ﷺ، إذ وقع الاتفاق في شأنها من دون حصار ولا حرب ولا خصام، على النصف مع بقاء اليهود فيها. ومن ثَمّ تولَّى أمر ريعها النبي الكريم بنفسه، وكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل والإعداد للجهاد، خلال حياتها المشرّفة.

١٠ ـ غزوة وادي القُرى:[٢] يقع هذا الوادي بين المدينة والشام، وقد لجأ إليه بعض اليهود حين طُردوا من الشام، لِما قاموا به من الفتن والحروب في قديم الزمان، وانضم إليهم بعض مشركي العرب. وفي طريق عودة

---

(١) معجم البلدان ٤: ٢٣٩. وقيل: إن أهل فدك بعثوا يطلبون الصلح من دون سرية. السيرة ٢: ٣٥٣ وتاريخ الطبري ٣: ١٥ والكامل ٣: ٢٢١.

(٢) معجم البلدان ٥: ٣٤٥ والسيرة ٢: ٣٣٨ وتاريخ الطبري ٣: ١٦ ـ ١٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٥٢ ـ ٣٥٣ والكامل ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

رسول الله ﷺ من خيبر، نزل بوادي القُرى في جُمادى الأولى من السنة السابعة، يحاصر حصونه ويدعو أهلها إلى الإسلام، فامتنعوا عليه وقاتلوه رميًا بالسهام ثم مبارزة للفرسان وبعض لقاء، وفتحت الحصون عَنوة، فكان فيها مغانم كثيرة.

أما الأرض والنخل فكان صلح عليهما كما كان لأهل فدك وبعض خيبر. ولمّا سمع أهل تَيماء بذلك صالحوا النبي ﷺ على البقاء بأموالهم. وفي هذه الغَزاة سأل النبيَّ ﷺ رجل من العرب عن اليهود، فقال له: «المغضوب عليهم»، وعن النصارى فقال له: «الضّالُّون»، وعن المغنم فقال: لله سهم ولهؤلاء - أي: المجاهدين - أربعة أسهُم.

وكان مع الرسول العظيم حينذاك غلام أُهدِي إليه، فأصابه سهم لا يُعلم مصدره وقتله. قال الصحابة: هنيئًا له الجنّة. فقال الرسول ﷺ: «كلّا - والذي نفس محمد بيده - إنَّ شملتَه الآن تحترق عليه في النار، كان غَلّها من فيء المسلمين يومَ خيبر». ولما سمع المسلمون بذلك شرع من غَلّ منهم شيئًا يردّه إلى صاحب المغانم.

* * *

وروي أن النبي - عليه الصلاة والسلام والبركات - بعث في مرضه الأخير جرير بن عبد الله البجلي برسالة، إلى ذي الكَلاع وذي عمرٍو اليهودي، في اليمن يدعوهما إلى الإسلام، فقال له ذوعمرٍو: «إن كان صاحبك صادقًا فقد مات اليوم. فإني أجد في كتبنا أنه يموت في هذا اليوم وهذا الشهر آخرُ نبيّ على وجه الأرض». ولمّا أتت الرُّكبان بنعي النبي ﷺ أنه مات في ذلك اليوم أسلما، أي: ذوالكَلاع وذو عمرٍو.[1]

(١) المحبر ص ٧٥.

وبما مضى من ختام الغزوات الإسرائيلية، خُضدت آخر شوكة ليهودَ في الحجاز: قتل من حارب منهم، وأُجلي من سالم بعد غدر، أو بقي معاهدًا أنه مهدَّد بالجلاء إذا كرر الغدر. وقد عاش من سلم منهم وفي نفسه أحقاد تاريخية متأصلة يكبتها، حتى تأتيه فرصة ينقضّ فيها على المسلمين غدرًا أو غِيلة، بمعونة المتهوّدين من النصارى والوثنيين والملحدين والمتمسلمين. وهذا ما سترى أحداثه في حروب الروم والفرنجة والاستعمارَين الشرقي والغربي، والعولمة الجديدة والتبويش في فلسطين ولبنان وأفغانستان والشيشان والبوسنة وداغستان والسودان والعراق والصومال، وكل بقعة إسلامية من العالَم.

ولعلك في هذه الأيام تسمع وترى ما يقترفونه جميعًا، من مجازر وتخريب وانتهاك للحرمات والأوطان والأموال ومؤسسات العلم والدين والمعرفة، وسلب للثروات والضمائر، وبلبلة للعقائد والعبادات والشرائع والمُثل والألسنة والأذواق والتفكير والتدبير والتوجه والسلوك والعمل، في حماية المحافل الدولية، وسماسرة القيم والشعوب من خونة المتمسلمين.

إنهم عبيد لليهودية العالمية التي تمثل شياطين البشر، وليس لها صلة حقيقية ببني إسرائيل. فقد امّحت الآثار العرقية فيهم، لِما خالطهم من اليونان والرومان والفرنجة وغجر أوربة، فأصبحوا أخلاطًا من الأجناس والأقوام والأمم، لا نسب لهم ولا أُرومة معروفة، سوى أنهم سلالة إبليس في الشر والفساد كما وصفهم السيد المسيح.(١) وإن زعموا أنهم إسرائيليون فالنصارى المعتدون الآن أيضًا إسرائيليون، لأن من اتبع النصرانية في عهد المسيح ـ عليه السلام ـ هم من بني إسرائيل أيضًا.

---

(١) انظر الإصحاح ٨ من إنجيل يوحنّى ص٥٢ ـ ٥٣.

الفصل الثاني

النفوذ السياسي

نقف هنا مع الأُمّة الثالثة التي اصطدمت بدعوة الإسلام، بعد العرب وبني إسرائيل، وهي النصارى. فقد كان هؤلاء أبعد مكانًا من الفئتين المذكورتين، إذ توضعت جماعات منهم أساقفة مبشِّرين أو رقيقًا من الخدم والجواري والقيان، في مناطق عربية قاصية عن مركز الدعوة الجديدة، كالشام والرُّصافة وقِنَّسرين والحِيرة وأيلة واليمامة ودُومة الجندل ونجران واليمن والحبشة ومصر، وانتثر بعض أفراد منهم في وادي القُرى وبقاع من الحجاز، كالطائف ومكة ويثرب.

وهذا يعني أن الاحتكاك أو الاصطدام بالدين الإسلامي سيتأخر ظهوره في التاريخ، حتى تنداح الدائرة المتفتحة في أرض العروبة، وتصبح على تماس بمصالح الفئات النصرانية الحاكمة في تلك المناطق النائية. فنزعات الأفراد المنثورين والفئات المبعثرة في بعض البقاع العربية ليس لها من المصالح ما يدفعها لخصومة الدعوة الإسلامية، وإنما يكون الاصطدام لدى ذوي إمارات مستقرة أو دولة متمكنة ذات سلطان ونطاق نفوذ.

فمن الأفراد والفئات ما كان بين قريش وتميم وتغلب وحِمْيَر وعجل وطيّئ ومذحِج وبهراء وقُضاعة وتنوخ وغسان ولخم وسليح وعاملة، وهم موزعون في الحجاز والشام، عدا الراهب أبا عامر. فليس لهم ما يحملهم على الخلاف لأنهم يعيشون بين المشركين في بيئات متباينة المشارب الدينية، وأكثريتها لا تهتم بتلك الخلافات. ثم هم على مذهب اليعقوبية البعيد عن نصرانية الروم المنحرفة، وفهمُهم للدين مسالمٌ لما يشيع بين العرب.

البذل والوفاء:

ثم لو رجعت إلى التاريخ القديم لعلمت أنه قد نشأ الدين النصراني وترعرع في أجواء عطرة، مشحونة بمعان سامية من الفناء في سبيل الهداية والصلاح ونشر ظلال الرحمة والسلام. وأول ما يلقانا هنا قصة حَنَّةَ زوجةِ عِمرانَ رضي الله عنها، حين حملتْ بجنينها الوحيد بعد انقضاء أكثر العمر، فنذرت أن يكون خادمًا في بيوت العبادة، يتفرّغ للعلم والصلاح، ومعونة المقيمن في تلك المعابد والقاصدين لها بالدعاء والتبرك والتوبة.

ليس من اليسير أن تنتزع الأُمّ طفلها الأول والوحيد من حجرها بيدها، لتبعده عنها في مجالس العابدين المتبتلين. ولقد نذرت ذلك حَنّة رضي الله عنها لمّا أحست بالحمل، وعزمت على أدائه بكل إيمان وطمأنينة. غير أنها حين وضعت ما في بطنها ورأته أُنثى، حز في نفسها أنه قد يكون ذلك مانعًا من الوفاء بالنذر، وتناست عاطفة الأُمومة التي تتشبث بالولد، وتعجِز عن مفارقته طائعة، فكان منها الأسف والحسرة خشية تعذُّر التنفيذ المعهود.

ليس ذلك لفراق الطفلة، ولا لأن هذا الفراق أيضًا أشد على الأم وأنكى، بل لعسر انقطاع فتاة حينذاك في بيوت الله، وهو مخصوص به الذكور من دون الإناث. لكنها مع ذلك كله رأت أن الوفاء لا بد منه، ولن يحول دونه أنوثة أو ذكورة، فقدّمت الطفلة هدية ترعاها عناية الله وكفالة عباده الصالحين.

وبهذا قطعَتِ الأُمّ وساوس الهم والأسى والوحشة، ورضيت أن تكون بعيدة عن ابنتها، التي أودعتْها مِحرابًا من بيوت الله، فكانت أول تجربة إنسانية، تمثل التضحية بأعز عزيز إيمانًا واحتسابًا. وهذه النقطة اللامعة هي منطلق الفتح للدين الذي يجدد ما اندثر بين أيدي جمهور بني إسرائيل، من منابع الخير والإحسان والوفاء. وحسبك ههنا تذكُّر قتلهم في تلك الآونة للنبيَّين الكريمين: زكرياء وابنه يحيى. عليهما الصلاة والسلام.

ثم تجد نفسك مع بعض الأحبار، يمثلون بقية كريمة من الصلاح والإحسان، إذ يتبارَون ويتنافسون في كفالة هذه الضيفة القادمة، وكل منهم يحرص على البذل للفوز برعايتها وخِدمتها، ريثما تشِبّ وتصبح قادرة على الاستقلال بالعمل في سبيل الله. وقد احتدّت المنافسة بينهم متجاهلة قربى الفتاة من زكرياء، حتى كانت القُرعة حَكمًا، ورست على القريب الكريم، فكان منه وفاء وتضحية بالعناية والتوجيه النبيل، مع أنه شيخ عجوز هِمّ غير ذي ولد، فاقد للأبناء وليس عندة تجربة في الأبوة والولاية.

الصبر والفداء:

وشاءت رحمة الله ـ عز وجل ـ أن يكون حدث أعظم وأجلى مما مضى، يؤسس للدين القادم معالم المروءة الحقة، فتنشأ أجيال تحمل تراث الأُنثى تُلو الأُنثى، بشفافيات متوالية من المُثل الكريمة. فلقد أثبتَتِ الفتاة رضي الله عنها المنقطعة للعبادة والعون والصلاح صِدقًا عالي المنزلة، وتبتلًا عظيم القدر، وصبرًا فائق النظير، وتقًى يُجزَى بالعون الرباني الخفي والرزق من أنواع الطعام، يحيّر عقول الأتقياء الأبرار.

ولمّا رأى زكرياء عليه السلام هذه المآثر العليا من ضيفته البتول هزته كرامة الله لها، فناداه أن ينجده بولد يسدّ منافذ البغي على جمهور بني إسرائيل بعد وفاته. فهم رموز للفساد والبغي والبِغاء، لا يُؤمَن جانبهم في تشويه العقيدة والشرائع والنهج الرباني، وظهورُ ولدٍ نبيٍّ بعد الوالد الحازم سيتجلى فيه السداد وضبط القياد بعون الله، عز وجل.

هذا ما تبدى للسيد زكرياء عليه السلام، وما علم أنه هو وابنَه سيكونان مَثار ظلم وعدوان، ليُنحرا على مذبح السلالة الإسرائيلية الغاشمة. ولقد تحققت نبوءته فيهم، ولكن قبل وفاته، على خلاف ما كان ينتظر، إذ توقدت الفتن من حوله

وحول ابنه الكريم، وشارك فيها السادة والأحبار والمجرمون الأشرار، وجابها هما معًا ذلك كله بالصبر والتقوى والاتكال على العزيز الرحيم.

فلقد قتل الابن ﷺ في حياة أبيه وقُدّم رأسه هديّة في طبق لأحد الجبّارين، ثم تبعه الوالد ﷺ حزًّا بالمناشير حتى فارق الحياة، فكانا فداءً للمُثل العليا، شهيدَين بلا جريرة ولا ذنب ولا حرب ولا جلاد، ووصمةَ خِزي وعار في جباه سلالة إبليس شياطين البشر، وأعداء النبوات والرسالات ودعوات الهداية والإصلاح. أعني بني إسرائيل.

ذلك ما جرى للنبيَّين العظيمين ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بأيدي المجرمين المترصدين للرسل بالقتل والتعذيب والتشريد، ومِثله ما وقع على الشريعة بعدهما من تشويه وإفساد. فلقد تحققت نبوءة زكرياء ﷺ فيهم، وما كانت ولادة ابنه يحيى ﷺ إلّا سبيلًا جديدًا، فُتح لبني إسرائيل بارتكاب جريمة أُخرى ما كانت لهم على بال. وكذلك يكون نورُ الله ظلماتٍ في قلوب الأشقياء، ورجالُ الهداية وسيلةً لإضلال طلَبة الإجرام في الوجود.

أما ربيبة النبي الشهيد النبيل فقد شبّت على ما زُرع فيها من صفاء وتبتل وعفاف، وبلغت مراحل العطاء الإنساني العظيم، فجاءتها في ذلك المحنةُ الربانية العظمى: حملٌ بجنين ينسّيها، ويكاد ينسّي الناس مِن حولها وفي التاريخ، ما كان من شأن الزوجات العاقرات لإبراهيم وعمران وزكرياء. عليهم السلام.

هذا المَلَك الأمين جبريل سيّد الملائكة ورسول الله إلى أنبيائه يتمثل للشابة المُعجِزة بَشرًا سويًّا في وحدتها، بلا ناصر ولا معين، فما كان منها إلّا رَباطة الجأش وصبر المخلصين، واللجوء إلى الرحمن الرحيم. وقد تلقت المِحنة بكتمان المصابرين في البأساء والضرّاء، ولم تلجأ إلّا إلى رب العالمين.

هكذا حملت مِحنتها في بطنها وقلبها، صابرة الصبرَ الجميل، محتسبة

تترقب ما يتجلى لها من حكمة الله ورحمته. وإلّا فماذا تقول عن العناية الربانية لأعدائها ومحاربيه، وقاتلي أصحابها في التاريخ؟ وكيف تقرّب مفاهيم التبتل ومكافأة السماء عليه إلى الملتصقين بالتراب الأرضي، لا يرفعون رؤوسهم عن مراتع الخِزي والدنس والخِسّة؟ وأنَّى تقابل شياطين البشر بروحانية الملائكة الأطهار؟ وبأية لغة تخاطب عما هي فيه من الطهارة والعفاف والإخلاص مَن تجلدت قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة؟

المصابرةُ والتصبر والصبر الجميل هي ملجؤها الوحيد، في هذه النعمة الربانية القاسية، والفداءُ بالمعاناة الذاتية هو السبيل الفرد للوصول إلى التكرمة الإلَهية المنتظرة. ثم جاءها المَخاض، وأجاءها إلى جذع النخلة، فكانت فرحةُ الوضع عند الأنثى كارثةً عند مريم، ولحظةُ تحقق المعجزة في الحياة الدنيا مأساةً لديها، تتمنى الذهاب قبلهما عن الدنيا، لئلّا يواجهها زبانية السوء والبهتان، بألسنة حداد وبالغ الافتراء والافتئات والكفران.

لكن رحمة الله تداركتْها وبشرتها بالعناية والطمأنينة، وأمرتها بلزوم الصبر والصمت في مواجهة المجتمع المنحدر في أنتان الكفر والفجور، والغارق في إشاعة المنكرات والفواحش وتصدير اتهامات الزور والبهتان إلى ملائكة الرحمن وأنبيائه المقرّبين. فلا بد من التضحية بالنفس في سبيل حفظ المعجزة من الضياع، واللهُ هو يرعاها بحكمته، ويجعل منها معجزات مضاعفات.

كانت العبارات الموجَّهة إليها، من أوصياء الطهارة، أقسى ما لقيتْه في الحياة: ﴿ما كانَ أبُوكِ امرَأ سَوءٍ، وما كانَت أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.[1] أهمْ يمدحون أبوَيها فيما تَرى؟ بل يعرّضون بها، ويَسِمونها جِهارًا بما نفوا عنهما. حاشا لها وتعالت عما يقولون علوًّا كبيرًا. ثم تجلّت أبعاد الإعجاز الإلَهي، بنطق الوليد

---

(١) الآية ٢٨ من سورة مريم.

في المهد، يشهد ببراءةِ أُمّه البتول، ورسالتِه المنتظرة لمحق الكفر والعصيان، وبركاتِه على الدنيا ومَن فيها، وبرِّه لمن نُبذَت بأشنع الصفات، وقوبل نقاؤها وصفاؤها بالزور والأباطيل والبهتان.

كل هذا من العِبَر الربانية لم يحرّك فيهم ساكن الوعي والاعتبار، بل زادهم تعنتًا وإصرارًا على البغي والعدوان، فراحوا يكيدون لرسولهم ﷺ، ويفتعلون له التهم بعد التهم، حتى استصدروا عليه حكم الإعدام، وهو يصابر ويتصبر ويقدم آيات التضحية والوفاء في سبيل التوجيه والإصلاح. فلقد كانت المحنة أكبر من المواجهة بالقيم المثلى، وأبعد وأقسى من التطامن لنبل النبوة والهداية والتصبر والإخلاص في الدعوة للحق والنقاء.

وهنا ظهرت بوارق الوفاء تتصدر ما يكون عن حُكم المجرمين، وسعي الأشرار في الإقدام على التنفيذ الشنيع، فإذا بالحَوارِيِّين المؤمنين المخلصين يتسارعون إلى فداء حبيبهم وإنقاذه من طواغيت الخِسة والدناءة. وما ذلك بالقليل. الإعدام صلبٌ بالمسامير تَصِرّ رؤوسُها وجذوعها في العظام، وتغوص بحِدّتها في عضلات الجسم الحي ودمائه وعظامه وذَمائه، وتشدّه إلى الأخشاب والجدار ساعات وأيامًا بلياليها، وقد تُنازِعه الجوارح حدقتَيه والكبد والأحشاء وصميم الفؤاد، وهو يتحسس ويتذوق ذلك كله بجميع كيانه، حتى يجود عليه لفظ الروح، ويخرج من الدنيا معلَّقًا بين الأرض والسماء، علوًّا في الحياة وفي الممات.

هذا هو الخِيار الذي طرحته إرادة الله في لحظة الامتحان الرهيب، وما بالهيّن أمره، وما باليسير جريانه في مطاوي المعضلات العصيبة. فالقتل بالسيف أو السم أو المشنقة أو النار قصاراه لحظات أو دقائق يفقد فيها القتيل الوعي، ويصبح في عداد الموتى. أما الصلب فأمره فظيع فظيع، وليس من المتصوَّر اختياره من دون جريرة. لكنّ ما نشأت عليه نفوس الحَوارِيِّين من

المسارعة إلى التضحية أعظم من الفظاعة، والوفاءَ الذي أُشربته قلوبهم بهدي السيّد المسيح ﷺ أسمى من التفكير في مثل هذه الأمور.

وجاءت لحظة البلاء العظيم، فتقدم شبيه عيسى ﷺ إلى الصلب والتشهير، ورَفعتْ إرادة الله النبيَّ المكرّم إليه ناجيًا من أيدي الأحبار والكهنوت الإسرائيلي. وعندما افتقده هؤلاء، ورأوا شبيهه أمامهم يدّعي أنه المطلوب، أخذوه للصلب غير واثقين أنه هو، ونفّذوا فيه حكم الظلم والعدوان، ثم راحوا يشيعون بالفخر والاعتداد والكذب والتضليل، مع السخرية والتهكم بذكر الرسالة[1]: ﴿إنّا قَتَلْنا الـمَسِيحَ عِيسَى بنَ مَريَم رَسُولَ اللهِ﴾.

المحبة والسلام:

تلك الأحداث التاريخية الثابتة تحمل في طياتها أنبل القيم الإنسانية، في أرضٍ من المحل والخسة والدناءة والامّحاق، فلم تستطع أن تُنبت بين أحبار بني إسرائيل زهرة واحدة تغطي بأريجها نتن القبائح والمفاسد والمظالم الشيطانية. أضف هذا ما حمله السيّد المسيح ﷺ إلى قومه، من تباشير الألفة والمودة والأمن والطمأنينة والاستقرار.

فقد استَهلَّتِ النصرانية ذِكرَها بالجَدّ والجَدّة: «عِمران» وفيه الاستقرار والهدوء والطمأنينة، و«حَنّة» وفيها الحنين والشوق والمحبة الغامرة. وكذلك ما يُعرف عن الأُمّ المباركة، بما اشتَهرت به بين الناس: «مَريَم البَتول»، أي: الخادمة المحبة لله والمتهالكة في الانقطاع لطلب رضاه بالبر والإحسان. وفي هذا، كما ترى، قِمم منابع السلام والتقوى والصلاح للنفس الإنسانية وجسدها ومنازعها في الدنيا والآخرة.

ثم عاش النبي نفسه ﷺ في حياته باسمه الكريم «عِيسَى»، وما يعنيه من

(١) الآية ١٥٧ من سورة النساء.

البركة النفيسة الشاملة للدنيا بما فيها، ولقبه النبيل «المَسيح» بما يحمله من دلالات اليمن والنعمة تعمّان ما حولهما في الكون والحياة، ولقبه «يَسُوع» أي: المتفاني في محبة الله وعبادته وطاعته. أما تلاميذه «الحَواريُّون» فلقبهم هذا شعار البياض الخالص من كل شائبة، يسطع بنور الصفاء والسلام والأمان.

وإنك لتجد فيما أدلى به من التعاليم روافد عظيمة، لهذه البشائر النيّرة. فهو يتحدث عن نفسه، فإذا بالأمان والطمأنينة والسلامة تعمه في الدنيا والآخرة: ﴿والسَّلامُ علَيَّ يَومَ وُلِدتُ، ويَومَ أمُوتُ، ويَومَ أُبعَثُ حَيًّا﴾.[١] إنه في كامل «السَّلام» دنيا وآخرة، سينجو من بطش زبانية اليهودية، بخلاف ابن خالته زكريّاء الذي قيل فيه[٢]: ﴿وسَلامٌ علَيهِ يَومَ وُلِدَ، ويَومَ يَمُوتُ، ويَومَ يُبعَثُ حَيًّا﴾، هكذا «سَلامٌ» من دون تعريف، لأنه لن ينجو من ذلك البطش الرهيب، وسيذهب ضحية بغي وبغاء من سماسرة القيم والشعوب.

ثم يذكر السيّد المسيح ما منحه الله من النعم بقوله[٣]: ﴿وجَعَلَنِي مُبارَكًا أينَما كُنتُ﴾. وهذا يعني أن الخير يصاحبه حيثما حلّ، يفيض على ما حوله بالنعيم والسعادة والهناءة، لأنه مؤيَّد بجبريل «رُوح القُدُس» في الحَلّ والتَّرحال. ومن ثـمّ كان يَشفي الكثير الكثير من أعسر العلل وعياء الأدواء: العمى والبرص والموت.

وإذا تتبّعتَ ما وصل إليك من وصاياه الشريفة لمست منابع المحبة والخير تنتشر في عباراته وكلماته: «أنا أُعطيكم أن تحبّوا بعضُكم بعضًا، كما أحببتكم أنا، تحبّون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا».[٤] وهو مصدر النعيم والبركة،

---

(١) الآية ٣٣ من سورة مريم.

(٢) الآية ١٥ من سورة مريم.

(٣) الآية ٣١ من سورة مريم.

(٤) الإصحاح ١٣ من إنجيل يوحنى.

خلقه الله كذلك ونزع منه ما لا يفيد: «أنا الكرْمة الحقيقيّة... كل غصن لا يأتي بثمر ينزعه، وكل ما يأتي بثمر ينقّيه ليأتي بثمر أكثر... أنا الكرْمة وأنتم الأغصان... أنتم أحبّائي، إن فعلتم ما أُوصيكم به».[1] ويخاطب اللهَ - سبحانه وتعالى - بقوله: «وعرَّفتُهم اسمَكَ وسأُعرّفهم، ليكون فيهم الحبُّ الذي أحببتَني به».[2] وتحيته لهم هي قوله: سلامٌ لكم.[3]

ها هو ذا يحث على نقاء السريرة والسعي في نشر المحبة والسلام: «طُوبَى للأنقياء القلبِ[4] لأنهم يعاينون الله، طُوبَى لصانعي السلام... كن مُراضيًا لخصمك سريعًا، ما دُمتَ معه في الطريق... سمعتُم أنه يقال: عين بعين وسنّ بسنّ. وأمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخَر أيضًا. ومن أراد أن يخاصمك، ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضًا... سمعتم أنه قيل: تحبّ قريبك وتبغض عدوَّك. وأمّا أنا فأقول لكم: أحِبُّوا أعداءكم، باركوا لاعِنِيكم، أحسِنوا إلى مُبغِضِيكم... وحين تدخلون البيت سلّموا عليه».[5]

أُمّة المُوادَعة والوئام:

بتلك الروح والمعاني الإنسانية قولًا وعملًا، واجه السيد المسيح ﷺ خساسة اليهود وبغيهم، ليقلّم براثن الشرور وأنياب الوحشية والقبائح والفظائع التي مارسوها وأشاعوها حينذاك. وعندما رفعه الله إليه وأنقذه من أيديهم، رحل

(١) الإصحاح ١٥.

(٢) الإصحاح ١٧.

(٣) الإصحاح ٢٠.

(٤) كذا بتعريف الكلمتين، على أن يكون القلب بدلًا من الأنقياء.

(٥) الإصحاح ٥ و ١٠من إنجيل متّى.

عن الدنيا، وقد أسس في حَوارِيِّيه وأنصاره مبادئ الخير والصلاح، وانتشر هؤلاء في البلاد يبلّغون ذلك، ويوجهون الناس إليه بما يتيسر لهم من الأساليب.

ومن ثَمّ استطاعت النصرانية المباركة أن تجتثّ جذور الهمجية والدناءة والسوداوية من قلوب بعض بني إسرائيل الذين تنصروا، وتجعلهم مثال الطهر والنقاء والهداية والرشاد. وكان عن ذلك رهبانيّة ابتدعها رجال الصلاح، لغسل الأدمغة الخبيثة، وصوغها من جديد بنفحات الرسالة والرسول.

وما كان هذا ليُرضي أُمّة البغي والخِسّة، لأنه عنوان التحدي والمناقضة لما هي عليه من الفساد والإفساد. ولذلك قامت الخصومات والمكايد بين الطرفين، ثم دخل فيها بعض ولاة الأُمور فازدادت حِدة وشراسة، وتولد عنها مجازر وملاحم، وعودة لليهود إلى التشرد في الآفاق، والاستغراق في الأحقاد والفتن والآثام، وما شأن الأخدود عنك ببعيد.

أما رجالات النصرانية فقد توضع بعضهم في أطراف البلاد العربية، كما ذكرنا قبل، فكانت لهم دول وإمارات وجماعات متفرقة هنا وهناك، حين وصل نداء السماء إلى الأرض بالدين الإسلامي، وصار له ذكر ظاهر في المحيط الإنساني، تتناقله الألسنة في المجالس والمنتديات والأسواق.

وفي السنة الخامسة من البِعثة الشريفة، ضاق الصحابة الأوائل باضطهاد زعماء قريش، وعجز ضعفاؤهم عن تحمل الأذى والعذاب في مكة، فأذِنَ لهم الرسول الأعظم ﷺ أن يهاجروا بدينهم إلى الحبشة بلاد إخوتهم العرب، قائلًا لهم ومرشدًا: لو خرجتم إلى أرض الحبشة. فإن فيها مَلكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.(١)

فرحل إلى هناك على دُفعتين ما يقرب من ١٠٠ مهاجر، وكان لهم النجاشيْ

---

(١) السيرة ١: ٣٢١ - ٣٣٨.

رضي الله عنه خير جار، كما قالت أُمُّ سلمة. ولمّا علمت قريش بذلك أرسلت عمرَو بن العاص وعبدَ الله بن أبي ربيعة بهدايا إلى النجاشيْ رضي الله عنه وإلى بطارقته، لإيغار صدورهم على المهاجرين واستعادتهم إلى مكة، والبلاء الذي كانوا فيه.

وقد تأثر البطارقة بالهدايا ومزاعم الرجلَين عن الدين الإسلامي، وأشاروا على النجاشيْ رضي الله عنه أن يجيب طلبهما، فغضب وقال: لا - ها اللهِ[1] إذًا - لا أُسلمُهم إليهما، لا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادي، واختاروني على مَن سِواي، حتى أدعوَهم فأسألَهم عما يقول هذان في أمرهم.

ولمّا أحضرهم سألهم، ومِن حوله الأساقفةُ ومصاحفهم، سألهم عن الدين الجديد، فذكر له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ما كان في الجاهلية من وثنية وفواحش ومظالم، وما جاء به الصادق الأمين رسول الله ﷺ من توحيد وأمانة وعبادات، وما فعلته قريش في المؤمنين من تعذيب وحمل على الشرك والخبائث، وعلى هجرتهم إلى جواره طمعًا في الحماية والسلام.

طلب النجاشيْ من جعفر رضي الله عنهما أن يُسمعه بعض ما جاء في القرآن الكريم، فتلا عليه ما في سورة «مريم»، من قصة زكرياء ويحيى - عليهما الصلاة والسلام - وآل عمران. هنالك بكى النجاشيْ رضي الله عنه والأساقفة حتى اخضلّت اللِّحى والمصاحف، وقال لرسولَي قريش: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مِشكاة واحدة. انطلقا فلا - والله - لا أُسلّمهم إليكما ولا يُكادون.

ثم زاره الرسولان في اليوم التالي للكيد والافتئات، وقال له عمرُو بن العاص عن المسلمين: «إنهم يقولون في عيسَى قولًا عظيمًا». فأرسلَ إليهم

(١) المشهور أن «ها» هنا للتنبيه، وحرف القسم محذوف قبل لفظ الجلالة، وعندي أن الهاء بدل من واو القسم مع زيادة ألف أيضًا. انظر المغني ص ٣٨٦ والتاج (ها) والتصريف المشترك ص ٦١.

وسألهم: ما ذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قال جعفر ﵁: نقول فيه: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريمَ العذراءِ البتول. فضرب النجاشيْ ﵁ بيده إلى الأرض، فأخذ عودًا، ثم قال: «والله، ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلتَ هذا العودَ»، أي: مقدارَه في الحقيقة.

وتناخرت بطارقته حينئذ، فقال: «وإن نخَرتم، واللهِ». ثم وجّه الخطاب إلى المهاجرين ﵃ أنهم في أمان، وإلى أصحابه مِن حوله: «رُدّوا عليهما هداياهما. فلا حاجة لي بها. فوالله، ما أخذ اللهُ مني رِشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذَ الرِّشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيَّ فأُطيعُهم فيه». وعلى هذا عاد رسولا قريش بالخَيبة، وقضى المهاجرون ﵃ سنواتهم في الحبشة بلاد إخوتهم العرب بخير وسلام.

ولم يرض البطارقة ما كان من النجاشيْ ﵁، وحرضوا من يناصرهم من السادة والناس فخرجوا عليه يحاربونه، فخاف المهاجرون من مغبّة ذلك، وما كان من النجاشيْ ﵁ إلّا أن أعدّ لهم سفنًا، وأمرهم أن يغادروا الحبشة إذا تغلب عليه المناوئون. ولكن الله نصره في المعركة، فعاد المسلمون إلى ما كانوا عليه في الحبشة، ولبثوا فيها حتى بعث النبي ﷺ إلى النجاشيْ عمرَو بن أُمية الضمريّ بشأنهم، فحملهم في سفينتين وقدِم بهم يوم فتح خيبر.(١)

وقد صار بتلك الهجرة ذكر ظاهر للإسلام والنبي ﷺ في جنوب الحجاز وغربيه، فجاء في العهد المكي ٢٠ رجلًا من نصارى الحبشة أو نجران، واجتمعوا به في البيت الحرام، والمشركون في أنديتهم حول الكعبة، وجلسوا إليه وكلموه. فلما فرغوا من مَسائلهم عما أرادوا دعاهم، وتلا عليهم سورة «يس»، فبكوا حتى فاضت أعينهم من الدمع، وقالوا: «ما أشبَهَ هذا بما

---

(١) السيرة ٢: ٣٥٩- ٣٧٠.

كان ينزل على عيسى»! لأنهم عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، وآمنوا به وصدّقوا. إذ ذاك اعترضهم أبو جهل ومن معه، يسفّهون عقولهم ويلومونهم على ما كان منهم، فأجابوهم بالقول: سلام عليكم لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه.

ولهذا وما قبله من واقع رجال النصارى، نزل الوحي يصفهم من بين الناس جميعًا، بقول الله تعالى(١): ﴿ولَتَجِدَنَّ أقرَبَهُم مَودَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا: «إنَّا نَصارَى». ذلِكَ بأنَّ مِنهُم قِسِّيسِينَ ورُهبانًا، وأنَّهُم لا يَستَكبِرُونَ، وإذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أعيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ، مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ، يَقُولُونَ: رَبَّنا، آمَنَّا. فاكتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ... المُحسِنِينَ﴾.

وفي السنة السابعة من الهجرة، بعث النبي ﷺ رسلًا إلى السادة والأمراء والملوك، ممن في بلاد العرب وفارس، فكان رسوله حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المُقوقِس صاحب الإسكندرية وعظيم القِبط النصارى العرب، ومعه كتاب جاء فيه(٢): «أدعوك بدعاية الإسلام: أسلِمْ تَسلمْ، يؤتِك الله أجرَك مرّتين. فإن تولّيت فعليك إثم القِبط».

فتلقى المُقوقِس الكتاب بالإعظام، وقال: «لولا المَلك - يعني مَلك الروم - لأسلمتُ». ثم أجاب رسول الله بكتاب وصفه فيه بأنه أقرب داع إلى الله، وأصدق من تكلم بصدق، واعتذر بقوله: «لولا أني ملكتُ مُلكًا عظيمًا لكنت أول من سار إليك، لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين وإمام

---

(١) الآيات ٨٢ - ٨٥ من سورة المائدة. وانظر تفسير الجلالين الميسر ص ١٢١ - ١٢٢و ١٨ - ١٩ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٤٢٠ - ٤٢٢.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٤٤٨ - ٤٤٩ والوثائق السياسية ص ١٠٥ - ١٠٨ و الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١٢: ٣٤٢ - ٣٤٤.

المتقين». وبعث مع الكتاب هدايا فاخرة، تدل على الرضا والاحترام.

وكان رسول النبي إلى هِرقل عظيم الروم دِحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه،[1] ومعه كتاب له، جاء فيها: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ. من محمّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِهِ إلى هِرَقلَ عظيمِ الروم. سلامٌ على مَن اتّبعَ الهُدَى. أمّا بعدُ فإنّي أدعوكَ بدعاية الإسلام: أَسلِمْ تَسلمْ، يؤتِك الله أجرَك مرّتين. فإن تولَّيت فإنَّ عليك إثمَ الأرِيسِيِّينَ...»، أي: الفلاحين أبناء الريف من النصارى.

ولما اطّلع هرقل على فحوى الكتاب قال: «لو كان في بلادي لاتّبعته ونصرته». ثم دعا قِسِّيسي الروم وبطارقتهم، وأغلق عليهم الباب وقال: نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليَّ يدعوني أن أتّبعه على دينه. فنخَروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا أن ندع النصرانية، أو نكون عبيدًا لأعرابي[2] جاء من الحجاز. قال: إنما قلتُ ذلك لكم، لأعلم صلابتكم على أمركم.

ثم دعا رجلًا عربي اللسان حافظًا لما يسمع، وطلب منه أن يعود إليه بما يلاحظه على النبي الكريم، وزوّده مع دِحية الكلبي رضي الله عنه ببعض الهدايا وبجواب فيه: «إني أشهد أنك رسول الله، نَجِدُك عندنا في الإنجيل، بشّرَنا بك عيسى بن مريم. وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبَوا. ولو أطاعوني كان خيرًا لهم».

ولما جاء العربي بالجواب قال له النبي ﷺ: هل لك في الإسلام، الحنيفيّةِ ملّةِ إبراهيم؟ قال: إني رسول قوم، وأنا على دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فقال النبي ﷺ: «إن لك علينا حقًّا، وإنك رسول. فلو

---

(١) الحديث ٧ في البخاري والسيرة ٢: ٦١٢ - ٦١٣ والوثائق السياسية ص ٨٠ - ٨٣ والمحبر ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) في مطبوعة الوثائق: «عبيد الأعرابي». والصواب ما أثبتنا.

وجدتُ عندنا جائزة جوّزناك بها. إنّـا سَفْرٌ مُرمِلُونَ». وإذ ذاك أسرع عثمان ﷺ بحُلّة صفّورية، وضعها في حِجر العربي، ثم أضافه أحد الصحابة عنده، لينصرف بعدُ إلى دياره.

وفي المدينة المنوّرة سنة تسع من الهجرة، وفد ٦٠ راكبًا من نصارى نجران على مسجد رسول الله، فيهم ٢٤ من أشرافهم، والباقون سيّدهم العاقب عبد المسيح، وعالمهم الأيهم، وأُسقفّهم أبو حارثة بن علقمة الوائلي، يعظّمه ملوك الروم ويموّلونه ويخدمونه بالكرامات وبناء الكنائس، لِما بلغهم من علمه وإخلاصه واجتهاده في دينهم.

جاء كل هؤلاء يحاجون في أمر عيسى ﷺ، وفي طريقهم عثرت بغلة أبي وائل، فقال له أخوه كُرز: تَعِسَ الأبعدُ. يريد رسولَ الله ﷺ. فقال له أبو حارثة: بل تَعِستَ أنتَ. قال: ولِمَ؟ يا أخي. قال: والله، إنه النبيّ الأُمّيّ الذي كنّا ننتظره. فقال أخوه: فما يمنعك من اتّباعه، وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القومُ، شرّفونا وموّلونا وأكرمونا، وقد أبَوا إلّا خلافه. ولو فعلتُ نزعوا منّا كل ما ترَى. فأضمر عليها منه أخوه كُرز، حتى أسلم بعد ذلك واستُشهد في الجهاد أيضًا.

ولمّا دخلوا مسجد الرسول وأدركتهم صلاتهم سمح لهم أن يصلّوا إلى المَشرق، ثم التقَوا هم وأحبار يهود بين يديه يكفّر بعضهم بعضًا، ويدعي التفرُّد بدين إبراهيم ﷺ، فنزل في الآية ١١٣ من سورة البقرة وفي الآيتين ٦٥ و٦٦ من سورة آل عمران ما يفضح أمرهم جميعًا.(١)

وقد كان لهم تساؤل عما يظنون من تقديس الرسول، إذ قال الحبر اليهودي أبو رافع القُرَظي: «أتُريد منّا ـ يامحمد ـ أن نعبدك كما تعبد النصارى

---

(١) انظر السيرة ١: ٥٥٣ ـ ٥٥٥.

عيسى بن مريم»؟ وقال أحد النصارى: «أوَذاك تريد منّا ـ يامحمد ـ وإليه تدعونا»؟ فأنكر عليهما ذلك قائلًا «معاذَ اللهِ أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره. فما بذلك بعثني اللهُ ولا أمرني»، أو كما قال. وقد جاء في الآيات ٧٩ ـ ٨١ من تلك السورة الثانية ما يُحق الحق ويبطل الباطل.

ثم عرض النبي ﷺ على وفد نجران ما أوحى الله إليه من وصف عيسى، وسألوه: «من أبوه»؟ فنزل أول تلك السورة أيضًا إلى بضع وثمانين آية، وفيها[1]: ﴿فمَن حاجَّكَ فِيهِ، مِن بَعدِ ما جاءكَ مِنَ العِلمِ، فقُلْ: تَعالَوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكُم، ونِساءنا ونِساءكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم، ثُمَّ نَبتَهِلْ فنَجعَلْ لَعنةَ اللهِ علَى الكاذِبِينَ﴾. وكان قد عرض عليهم التوحيد ونبوته من قبلُ في رسالة، فبعثوا يستشيرون حُكماءهم في ذلك، فجاء رأيهم بصحة ما عُرض عليهم.

ولما طال حوارهم من دون نتيجة عرض عليهم المُباهَلة، أي: الدعاء المذكور في تلك الآية الكريمة، فطلبوا التريث للغد وانصرفوا. وعندما سألوا أميرهم العاقب قال: والله ـ يا معشر النصارى ـ لقد عرفتم إن محمدًا لنبي مرسَل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبيًا قطُّ فبقي كبيرهم ولا نبتَ صغيرهم... فوادِعُوا الرجلَ وانصرِفوا إلى بلادكم.

فأتوه في الميعاد وقد خرج إليهم، ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي رضي الله عنهم، وقال لهم: «إذا دعوتُ فأمِّنوا». قالوا: «يا أبا القاسم، قد رأينا ألّا نُلاعِنَكَ، ونترُكَك على دينك ونرجعَ على ديننا. ولكن ابعثْ معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا. فإنكم عندنا رضًا». فقال: «لأبعثَنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين»، واختار أبا عُبيدة بن

---

(١) الآية ٦١ من سورة أل عمران. وانظر الأحاديث: ٣٥٣٥ و٤١١٩ و٤١٢٠ في البخاري و٢٤١٩ و٢٤٢٠ في مسلم وإرشاد الساري ٦: ٤٣٧ والمستدرك ٣: ٢٦٧ وتفسير الطبري ١: ٣٤٨ ـ ٣٥١ و٣: ١٩. وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٦١٧ ـ ٦١٩.

الجرّاح ﷺ، وقال «هذا أمين هذه الأُمّة». ثم خاطبه بقوله: «اخرجْ معهم، فاقضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه».

وقد صالحوه على الجزية، فكتب لهم كتاب عهد وذِمّة، على أن يدفعوا ٢٠٠٠ حُلّة، النصف في صفر والبقية في رجب يؤدونها للمسلمين، وعاريّة ٣٠ درعًا و٣٠ فرسًا و٣٠ بعيرًا و٣٠ من كل صنف من أصناف السلاح،[١] إذا كان كيد في اليمن أو غدر. والمسلمون ضامنون لها حتى يردّوها عليهم. ومقابل هذا أنهم في ذمة الله ورسوله، ولا تُهدم لهم بِيعة، ولا يُخرج لهم قسّ، ولا يُفتنون عن دينهم، ما لم يُحدثوا حَدَثًا أو يأكلوا الربا.[٢]

مغازي الروم:

هذه حال النصرانيةِ في أرض العروبة، النصرانيةِ التي لا تشكل إمارات سياسية تدور في فلك الروم بتصلب وحزم، ولا تجد في الإسلام والمسلمين ما يحملها على خصام أو قتال. إنها مُسالِمةٌ مُوادِعة مُوائمة، إذا لم يحرّضها المُرجِفون من المنافقين والمتهوّدين والموتورين. فمن أتباعها من أسلم وصار في عِداد الأُمّة الجديدة، له ما لأبنائها وعليه ما عليهم، ومنهم من بقي على دينه مُقِرًّا بالتعاون والوفاق والمسالة، كما ترى.

وكان من الفئة الأولى المؤمنة بعد ذلك اللقاء أصحابُ النصرانية في نجران، إذ جاءهم كتاب رسول الله ﷺ يدعوهم للإسلام، فاستجابوا طائعين ﷺ، وصاحبُ البحرين الجارودُ بن عمرو ﷺ، إذ وفد على النبي الكريم في

(١) في هذا أيضًا جواز الاستعانة بسلاح غير المسلم، كما ذكرنا من قبلُ، إذا كان ممن لا علاقة له بالحرب سرًّا أو علانية.

(٢) الحديث ٣٠٤١ في أبي داود. وانظر زاد المعاد ٣: ١٥٦ و ٦٢٩ - ٦٣٨ والبداية والنهاية ٤: ١٠٠-١٠٨ والطبقات ١: ٣٥٧.

المدينة وأسلم هو وأصحابه.[1] ولما كان النبي ﷺ في تبوك قصده أُسقفّ أيلةَ ـ وهو يوحنَّى بن رؤبة ـ وصالحه على الجزية، ثم عاد إلى موطنه أميرًا، فكان من الفئة الثانية المسلِمة. أما الحارث بن عبد كلال الحِميري فقد استمهل لينظر في أمره.[2]

وأما غير العرب، وهم في الأصل من بني إسرائيل، فتفرقوا شيعًا في حقيقة المسيح ﷺ بعد رفعه إلى السماء، واستمروا على ذلك قريبًا من ٣٠٠ سنة، حتى نبغ فيهم ملك من ملوك اليونان اسمه قِسطنطين،[3] وهو فيلسوف مشهور. فقد دخل هذا في دين النصرانية سنة ٣١٣ من الميلاد، وبدّل فيه وحرّف وزاد عليه وأنقص منه، فأحلّ لحم الخِنزير، وجعل القِبلة إلى المشرق، وابتدع الصوَر والأصنام في الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في الصيام ١٠ أيام لذنب ارتكبه، وشوّه كثيرًا من معالم العقيدة والعبادة والنظرة إلى الآخرين.

وبذلك صارت النصرانية مَلَكية شبه إسرائيلية، وهي المعروفة بدين قسطنطين. ثم خلف بعده من كان فيهم وثنيون، وانضمت إليهم الأمم الجرمانية الغجرية المتوحشة، فصبغت المفهوم النصراني بالتوجهات العدوانية. ومن ثَمّ أصبحتَ تقف في الإصحاح ١٠ من إنجيل متى على قول للمسيح: «لا تظنّوا أني جئتُ لأُلقي سلامًا على الأرض. ما جئتُ لأُلقي سلامًا بل سيفًا. فإنّي جئتُ لأفرّق الإنسان ضدَّ أبيه، والابنة ضدَّ أُمّها، والكنّة ضدَّ حماتها. وأعداءُ الإنسان أهلُ بيته». هذا مع تفصيلات أبعد في الإثارة والتحريض.

فلا غرو أن تجد دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ قد خرجت بين أيدي

---

(١) انظر الوثائق السياسية ص ٩٨ والحديث ٣٧٩١ في البخاري والسيرة ٢: ٥٧٥ و ٦٠٧ وأنساب الأشراف ١: ٥٣١ وتاريخ الطبري ٣: ١٣٦.

(٢) فتوح البلدان ص ٦٦ والسنن الكبرى ٩: ١٨٥ ـ ١٨٦ وسبل الهدى والرشاد ١٢: ٣٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير ١: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ومروج الذهب ١: ٣٥٠ ـ ٤٦٢.

اليهودية العالمية على ذلك المذهب السمح الكريم، ودخلت أتُّون شريعة الغاب، فأعادت إلى الإسرائيليين سيطرتهم الوحشية، ونقلت إلى من تابعهم المفاسد التراثية بكل صورها الشنيعة، مع خلاف ونزاع في حقيقة المسيح، فكانت النُّسطورية واليعقوبية. وأخيرًا جاء القيصر هِرقل في أيام البعثة الشريفة، يجمع في مملكته أمشاجًا من التناقضات المتعددة.

ولمّا ظهر أمر رسول الله ﷺ في المدينة المنورة،[1] واستقر الدين الإسلامي بين المهاجرين والأنصار، انداحت دائرة نفوذ الدعوة، واصطدمت بها مصالح المنافقين وبني إسرائيل. ولقد خُتمت نهاية الأوائل بموت رأسهم ابن سلول، ونهاية الآخَرين بعودتهم إلى التشرد والقتل والهوان بما جرى فيهم حول المدينة المنورة، بعد خياناتهم للعهود ونقضهم للمواثيق ومحاربتهم للمسلمين.

ثم دخل في المعمعان سلطان الروم، لِما ذكرنا من مُوادعة نصارى العرب للإسلام، والاحتكاك بمناطق النفوذ الرومية،[2] فكانت بين الطرفين مقاومات سلمية ومسلحة، نورد صورتها فيما يلي:

١ ـ **غزوة دُومة الجندل:**[3] هذه البلدة الشامية حِصن منيع حوله قرًى بين دمشق وتبوك، كان فيها قوم نصارى من بني كِنانة الكلبيين، وهم خاضعون لقيصر الروم في التوجه والسياسة، وأول جماعة نصرانية واجهت المسلمين بالحرب.

---

(١) أنساب الأشراف ١: ٢٨١ ـ ٢٨٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢ والدر المنثور ٣: ٢٧٦ ـ ٢٧٧ وتفاسير البغوي٢: ٣٢٦ وابن كثير ٢: ٣٧١ والخازن ٣: ٧١٤ والنسفي ٢: ١٤٥ والبحر ٥: ٩٨ وتفسير الجلالين الميسر ص ٢٠٤ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٧٢٦ وتاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٦٠٢ ـ ٦٠٣.

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٥٦٤ وزاد المعاد ٣: ٢٥٥ ـ ٢٦٦ و٢٨٤ ـ ٢٨٥ والبداية والنهاية ٣: ١٧٧ ـ ١٧٨ والمحبر ص ١١٤ والطبقات ٢ ٦٢ ـ ٦٣ وشرح المواهب ٢: ٩٤ ـ ٩٥ و ١٦٠ ـ ١٦٢وعيون الأثر ٢: ٥٤.

ففي ربيع الأول من السنة الهجرية الخامسة، تجمع هؤلاء في جيش وأرادوا الدنو من المدينة لغزوها، وجاء التجّار ينقلون ذلك إلى النبي ﷺ، ويشكون ظلم أمير تلك المنطقة أُكَيدر بن عبد الملك وأصحابه لهم، فخرج رسول الله ﷺ بجيشه في ١٥٠٠ من الصحابة للقائهم، وسار يطاردهم بدليل من بني عُذرة حتى دُومة الجندل، دون أن يلقى حربًا، لأنهم هربوا متفرقين وتركوا السوق والمال.

حينئذ استاق الماشية والرِّعاء، وبثّ السرايا في الطرقات فعادت دون لقاء بأحد، ولقي منهم رجلًا عرض عليه الإسلام فأسلم، ثم رجع النبي الكريم إلى المدينة، وفي مسيره هذا وادع عُيينة بن حِصن الفزاري، وسمح له أن يرعى بتَغلمَين وما والاها، إذ كانت دياره في جدب ومحل.

* * *

وكان ممن اصطدم قبلُ بالدولة الإسلامية أبو عامر، عبدُ عمرِو بنُ صيفيٍّ الأوسيُّ. وهو من أبناء المدينة المنورة، ورأس الأوس في الجاهلية، قد ترهّب وتنصّر، وأكثَرَ الرحلةَ إلى الشام، يتتبع الرهبان ويألفهم حتى سُمِّي الراهب، وأصبح يُعِدّ نفسه لأن تكون له الزعامة في تلك البلاد مع موطنه المذكور.

فلقد ضاق هذا الراهب بما صار عليه الإسلام في العهد الجديد، وأغضبه ذلك جدًّا، فتنكر لدعوة رسول الله ﷺ، وقال له: «لا أجد قومًا يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم»، فسمّاه النبيُّ العظيم لذلك أبا عامرٍ الفاسقَ، فهرب إلى مكة يحرّض المشركين ويحضر معهم الوقائع مقاتلًا. وعندما خرج أهل قتلى بدر يستنجدون أصحاب التجارات التي نجت من تلك الغزوة، ويستنفرونهم للانتقام من المسلمين، اجتمع لديهم أموال ورجالات من كنانة وثقيف، وكان معهم في ذلك أبو عامر أيضًا.

ثم صحب المشركين في غزوة أُحد، مع ٥٠ من قومه نصارى ومنافقين ومشركين، وهو يَعِدُ الجميع أنه إذا لقي محمدًا فسيلحق به جميع الأنصار. ولكنه عندما حاول أن يستدرج قومه، بقوله: «يامعشر الأوس، أنا أبو عامر»، أجابوه: فلا أنعم الله بك عينًا، يافاسق. فقال: «لقد أصاب قومي بعدي شر». وصار يقاتلهم قتالًا شديدًا، حتى إنه راضخهم بالحجارة.

ولمّا فُتحت مكة هرب إلى الطائف، وعندما أسلم أهل هذه المدينة يئس من عون المشركين، فلجأ إلى الشام يحرّض نصارى العرب والروم لحرب المسلمين، ويراسل المنافقين للعمل معًا في الكيد والتثبيط والتوهين. ثم كتب إليهم: «أن أعِدّوا واستعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا. فإني ذاهب إلى قيصر لآتيَ بجند الروم، وأُخرِج محمدًا وأصحابه». وقد ولّد سعيه في الشام استعدادَ النصارى هناك لمباغتة المدينة، وسبّب حصولَ غزوة تبوك، على ما سنرى بعد.

فرح المنافقون بما أبلغهم أبو عامر هذا، وشرعوا يبنون المسجد إلى جنب مسجد قُباءٍ، على أمل أن يكون معقلًا لهم ولأعداء الإسلام، ولأبي عامر عندما يمرّ بهم. ولمّا فرَغوا من البناء أتوا رسول الله ﷺ قائلين: «إنا قد بنَينا مسجدًا لذي العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه». كان الرسول الأعظم ﷺ حينذاك على التأهب لغزوة تَبوك، فوعدهم أن يصلي عندهم بعد عودته.

وفي طريق العودة من تَبوك نزلت الآيات الكريمة، تكشف قبائح المنافقين المتخلفين عن الغزوة، ومكايدهم وائتمارهم بالإسلام والمسلمين، ثم ما قصدوا ببنائهم الخبيث: ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسجِدًا ضِرارًا، وكُفرًا وتَفرِيقًا بَينَ المُؤمِنِينَ، وإرصادًا لِمَن حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ مِن قَبلُ. ولَيَحلِفُنَّ إن أَرَدنا

إلّا الحُسنَى، واللهُ يَشهَدُ إنَّهم لَكاذِبُونَ. لا تَقُمْ فِيهِ أبَدًا...﴾.[1] فلمّا وصل الرسول ﷺ إلى مكة أرسل جماعة هدموا ذلك البناء الخبيث وحرّقوه، فصار اسمه مسجد ضرار وجعلوا مكانه كُناسة تلقى فيها الجِيَف المُنتِنة والأقذار.

* * *

٢ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف:[2] بعث النبي الكريم عبدَ الرحمن بن عوف ﷺ إلى دُومة الجندل في شعبانِ سنةِ ست من الهجرة، وفيها قوم نصارى من بني كلب سيّدهم الأصبغ بن ثعلبة الكلبي. وقد مكث عبد الرحمن فيهم ٣ أيام يدعوهم إلى الإسلام، فوادع أكثرهم وأسلموا، وبقي بعضهم نصارى على الجِزية، وتزوج عبد الرحمن منهم تُماضِر بنة الأصبغ.

٣ ـ سرية مؤتة:[3] كان أبو عامر الفاسق يريد من مسجد ضِرار أن يصبح مركز نشاطه في المدينة لحرب المسلمين، فيجعله صلة الوصل بين المنافقين فيها ونصارى الروم والعرب ويهود بني إسرائيل اللاجئين في الشام، على أنهم يد واحدة تتوالى بينهم الرحلات والمؤامرات المشتركة، تحت ستار العبادة الإسلامية وعون الضعيف ولجوء الغريب.

لكن انكشاف أمره أدى إلى تهديم البناء، وتخريب الخُطّة كلها أصلًا،

---

(١) الآيات ١٠٧ ـ ١١٠ من سورة التوبة.

(٢) أنساب الأشراف ١: ٣٧٨ والسيرة ٢: ٦٣١ ـ ٦٣٢ والاستيعاب ص ٨٤٤ ـ ٨٤٥ وتاريخ الطبري ١: ٦٤٢ والكامل ٢: ٢٠٩ والطبقات ٢: ٨٩.

(٣) الأحاديث ٤٠١٢ ـ٤٠٢٠ في البخاري والسيرة ٢: ٣٧٣ ـ ٣٨٩ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٠ وتاريخ الطبري ٣: ٣٦ ـ ٤٢ والكامل ٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٨ وشرح المواهب ٢: ٢٦٧ ـ ٢٧٧ وعيون الأثر ٢: ١٥٣ والبداية والنهاية ٣: ٤٥٥ ـ ٤٩٣ وزاد المعاد ٣: ٣٨١ والطبقات ٢: ١٢٨ ـ ١٣٠ والاستيعاب ص ٨٩٨ ـ ٩٠٠ والإصابة ٤: ٨٥ ومعجم البلدان ٥: ٢٢٠ وتاريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٥٩٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٩. ومؤتة: مدينة في البلقاء من جنوبي الشام.

فاضطُرّ أن يحصر جهوده في بلاد الشام. ونحن رأينا معًا فيما مضى أن ملوك مصر والحبشة والشام، من النصارى، قد وادعوا المسلمين وأحسنوا تقبل الدعوة بالإكرام والإجابات الطيبة، خلافًا لما كان من البطارقة عامّة وبعض الأساقفة في الشام.

فقد شعر هؤلاء أن دعوة الإسلام تهدّد نفوذهم السياسي في بلاد العرب، وتوشك أن تمسحه من الوجود، لينحصر ثانية في موطنه من بلاد الفرنجة. وهذا لا يمكن أن تَرِد مناقشته، بلهَ أن يُقبل أو يُتساهل فيه، بخلاف ما كان عليه الملوك الثلاثة في الحبشة ومصر والشام، من جعل ذلك وسيلة لتثبيت الحكم واستقرار أُمور البلاد.

أضف إلى هذا أنه قد استطاع أبو عامر إثارة حفيظة أولئك الناقمين، وتجنيدهم في خُطته المرسومة لمحاربة دولة الإسلام الممتدة الآفاق ودوائر النفوذ، حتى إن الأساقفة قتلوا واحدًا منهم وأحد القواد لأنهما أسلما، وقتلوا أيضًا من أسلم في مدينة مَعان من جنوبي الشام.

فقد كان العرف السائد في الجاهلية أن القبائل العربية كالرعية لدولتَيِ الروم والفرس، وليس لها الخروج على ذلك. وبناء على هذا فالغساسنة حرس وخط أمنيّ من قِبل الأُولى، والمناذرة من قِبل الثانية. ولذا فإنه لمّا أسلم فروة ابن عَمرو الجُذامي رضي الله عنه - وهو عامل للروم على مَعان وما حولها من أرض الشام - وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، مع هدية إليه بَغلةٍ بيضاء، تألب عليه الروم حتى حبسوه عندهم.

فقال في سجنه يذكر تعرُّضه للهلاك:[1]

---

(١) السيرة ٢: ٥٩١ - ٥٩٢ والروض الأنف ٤: ٢١٦ - ٢١٧ وزاد المعاد ٣: ٦٤٦. وسليمى: مصغر سلمى اسم امرأة، يذكر حضور خيالها في الحلم. والموهن: بعد ساعة من الليل. والقروان: حياض من الخشب لسقي الدواب، جمع قِرْو.

طَرَقَت سُلَيمَى، مَوهِنًا، أصحابِي والـرُّومُ بَيـنَ الـبـابِ والقِـروانِ
فلَئِـن هَلَكـتُ لَتَفـقِدُنَّ أخـاكُـمُ ولِئِـن بَقِيـتُ لَتَعـرِفُـنَّ مَكـانِـي
ولَقَد جَمَعتُ أجلَّ ما جَمَع الفَتَى، مِـن جَـودةٍ، وشَجـاعـةٍ، وبَيـانِ

ثم أجمعَتِ الروم على صلبه قرب ماء بفلسطين يقال له: عفراء، فقال في ذلك بيتين من الشِّعر، ثم قدّموه ليقتلوه فقال:

بَلِّـغْ سَـراةَ الـمُـسلِمِـينَ بأنَّـنِـي سِلـمٌ، لِرَبِّي، أعظُمِـي ومَقـامِي

وكان أن ضربوا عنقه، وصلبوه قرب ذلك الماء.

يضاف إلى هذا أنه لما جاءت رسالة النبي ﷺ إلى مَلك الغساسنة في الشام، تدعوه إلى الإسلام مع بقائه على ما هو عليه قال: «من ينتزعُ مني مُلكي؟ أنا سائر إليه». ثم عبّأ الجيوش للسير إلى المدينة المنورة والقضاء على الدعوة الجديدة. أما شُرَحبيل بن عَمرٍو الغساني بمؤتة فإنه أوثق الحارث بن عُمير الأزدي رضي الله عنه حامل رسالة النبي الكريم برباط ثم قتله،(١) وانضم إلى زعماء الشام في حشد الروم وبني إسرائيل ونصارى العرب أيضًا.

كان هذا في السنة الثامنة من الهجرة، فجهز رسول الله ﷺ في جُمادى الأُولى سرية من ٣٠٠٠ جندي، وجعل القيادة لزيد بن حارثة رضي الله عنه براية بيضاء في نصل رمح، وأوصاهم أن يأتوا مكان قتل الحارث بن عُمير، ويدْعوا مَن هناك إلى الإسلام. فإن أجابوا، وإلّا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.

ثم قال: «إن أُصيب زيد فجعفرُ بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبدُ الله بن رَواحة على الناس، فإن قُتِل فلْيتربّصِ المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم». وقد علّق بعض اليهود على ذلك بأن الثلاثة مقتولون، لأن أنبياءهم كانوا إذا قالوا مثل ذلك قتل القادة المذكورون.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ١٢: ٣٤٤.

بعد ذلك خرج المسلمون لوداع الجيش، فبكى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. قالوا: ما يُبكيك؟ يا بن رواحة. قال: أما والله ما بي حبّ الدنيا ولا صَبابةٌ بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله - عز وجل - يذكر فيها النار[1]: ﴿وإنْ مِنكُم إلّا وارِدُها، كانَ علَى رَبِّكَ حَتمًا مَقضِيًّا﴾. فلستُ أدري: كيف لي الصَّدَرُ بعد الوُرود؟

قال المسلمون: صَحِبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا سالمين. فأنشد عبد الله رضي الله عنه أبياتًا، يتمنى فيها الغُفران من الله، والشهادة في سبيله أيّةً كانت الوسيلة، ليذكره الناس بالدعاء والحمد:[2]

لكِنَّنِي أسألُ الرَّحمنَ مَغفِرةً ... وضَربةً، ذاتَ فَرغ، تَقذِفُ الزَّبَدا
أو طَعنةً، بيَدَي حَرّانَ، مُجهِزةً ... بحَربةٍ، تُنفِذُ الأَحشاءَ والكَبِدا
حَتَّى يُقالَ، إذا مَرُّوا علَى جَدَثِي: ... أرشَدَهُ اللهُ، مِن غازٍ، وقَد رَشَدا

ثم تهيأ الجيش للذهاب فأتى عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه يودّع الرسول العظيم، وهو ينشده ما يعبر عن الإيمان به وبركة لقائه وطلب النصر له:[3]

أنتَ الرَّسُولُ، فمَن يُحرَمْ نَوافِلَهُ، ... والوَجهَ مِنهُ، فقَد أزرَى بِهِ القَدَرُ
فثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ، مِن حَسَنٍ، ... في المُرسَلِينَ، ونَصرًا كالَّذِي نُصِرُوا

وأخيرًا خرج النبي ﷺ مع رجال الجيش كلهم يشيّعهم ويدعو لهم، ثم

---

(١) الآية ٧١ من سورة مريم.

(٢) السيرة ٢: ٣٧٤ وتاريخ الطبري ٣: ٣٧ والكامل ٢: ٢٣٥ والطبقات ٢: ١٢٨ وزاد المعاد ٣: ٣٨٢ ومشارع الأشواق ص ٦٦٨ والاستيعاب ص ٨٩٨. والفرغ: الاتساع. والزبد: رغوة الدم الفائر. والحرّان: الغاضب المحتدّ. والمجهزة: السريعة القتل. وتنفذ: تخترق. والجدث: القبر.

(٣) السيرة ٢: ٣٧٤ والاستيعاب ص ٩٠٠ والإصابة ٤: ٨٦. والنوافل: العطايا. والهبات، جمع نافلة. وأزرى: قصّر.

انصرف عنهم راجعًا ومضَوا حتى وصلوا إلى مدينة مَعان في جنوبيّ الشام، فبلغهم أن هِرَقل وشُرَحبيل بن عمرو بمآب مع ١٠٠٠٠٠ من الروم، و ١٠٠٠٠٠ من العرب: قبائل وائل وبكر ولخم وجُذام والقين وبهراء وبليّ بقيادة مالك بن زافلة من إراشة البلَوي، وقد حرّضهم الروم بالعصبية الدينية والمواعيد المغريات من العطاء والسيادة.

أقام المسلمون في مَعان، يتشاورون في إخبار النبي ﷺ بما هم فيه، لعله يرشدهم إلى سبيل للعمل، فشجعهم ابن رَواحة رضي الله عنه بقوله: يا قوم، واللهِ إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادةُ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدِّين الذي أكرمَنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيَين: إما ظهورٌ وإما شهادة.

قال الناس: قد ـ والله ـ صدق ابن رَواحة. فاندفعوا إلى سبيلهم، وهو يُنشد ما يصف الاستعداد والانطلاق، والعزم على اللقاء، بمغادرة الحياة الدنيا، سواء كان لها غيرهم أو لم تجد لها قرينًا:(١)

فلا، وأبِي، مآبَ لَنأتِيَنْها ... وإن كانَت بِها عَرَبٌ ورُومُ
فعَبّأنا أعِنَّتَها، فجاءت ... عَوابِسَ، والغُبارُ لَها بَرِيمُ
فراضِيةُ المَعِيشةِ طَلَّقَتها ... أسِنَّتُها، فتَنكِحُ، أو تَئِيمُ

وكان مع ابن رَواحة رضي الله عنه في الطريق ربيبه اليتيم زيد بن أرقم رضي الله عنه رديفًا له على الناقة، ولمّا سمعه يتغنى بأبيات يتمنى فيها الشهادة، ليودّع الحياة غيرَ مُبال بما فيها من متاع، بكى فقال له ابن رَواحة: ما عليك ـ يا لُكَعُ ـ أن

(١) السيرة ٢: ٣٧٥ ـ ٣٧٦ وتاريخ الطبري ٣: ٣٨. ونأتيها أي: نسير إليها للجهاد. وأعنتها أي: أعنة الخيل. وبريم أي: أن الغبار خالط دمع الخيل فكان كالخيوط المبرومة من ألوان. والراضية: المَرْضية. وتئيم: تبقى دون زوج.

يرزقني الله شهادة، وترجع بين شُعبتَيِ الرَّحل؟[1]

وفي قرية مَشارِفَ تقابل الجيشان، فانحاز المسلمون إلى شماليّ مؤتة، حيث كانت المعركة، وعلى ميمنتهم قُطبة بن قتادة العُذري، وعلى ميسرتهم عَباية بن مالك الأنصاري، والراية يحملها القائد زيد بن حارثة ﷺ. وفي هذه الواقعة كان النصر للمجاهدين، ثم اندفع الجيشان إلى مؤتة، لمتابعة اللقاء.

برز قُطبة ﷺ لمالك بن زافلة قائد العرب ينازله، فطعنه بالرمح حتى تحطم ثم ضربه بالسيف فقتله، وهو يُنشد:[2]

طَعَنتُ ابنَ زافِلةَ بنِ الإرا ... شِ، برُمحٍ مَضَى فِيهِ، ثُمَّ انحَطَمْ
ضَرَبتُ، على جِيدِهِ، ضَربةً ... فمالَ، كَما مالَ غُصنُ السَّلَمْ

أما زيد ﷺ فقاتل بالراية حتى تمزق برماح العدو وسقط شهيدًا. إذ ذاك تناول جعفر ﷺ الراية بيمينه، وخاض بين الأعداء حتى ضاقت به السُّبل، فنزل عن فرسه وضرب قوائمها بالسيف، ليقاتل راجلًا وجهًا لوجه. لكنه جاءته ضربة قَطعت يمينه فأخذ الراية بشِماله، ثم قُطعت شِماله فاحتضن الراية بعضُدَيه، وهو يرتجز:[3]

يا حَبَّذا الجَنّةُ، واقتِرابُها ... طَيِّبةً، وبارِدًا شَرابُها!
والرُّومُ رُومٌ، قَد دَنا عَذابُها ... كافِرةٌ، بَعِيدةٌ أنسابُها

عليَّ، إذ لاقَيتُها، ضِرابُها

وما زال كذلك حتى أصابته ضربة قاتلة جعلته نصفين، وهو ابن ثلاث وثلاثين

---

(١) يا لكع أي: يا لئيم. تقال للزجر. وشعبتا الرحل: طرفاه من مقدم ومؤخر. انظر مشارع الأشواق ص ٦٦٩.

(٢) السيرة ٢: ٣٨١. والسلم: شجر صحراوي.

(٣) السيرة ٢: ٣٧٨ والكامل ٢: ٢٣٦.

سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة، وصار له لقبًا جعفرٌ ذو الجناحين. وقد وُجد فيه بضع وتسعون من طعنة ورمية. ولمّا استُشهد جعفر رضي الله عنه تلقى ابن رواحة رضي الله عنه الراية، واندفع بفرسه مقاتلًا يشجع نفسه بالإقدام والاستشهاد:[1]

مـا لِـي، أراكِ تَكرَهِيـنَ الـجَنَّهْ؟ قَد طالَمـا قَـد كُنـتِ مُطمَئِـنَّهْ!

ويُمنِّيها أن تنال ما نال صاحباه زيد وجعفر قبلها:

يـا نَفـسُ، إلّا تُقتَـلِي تَمُوتِـي هـذا حِمـامُ المَوتِ، قَد صَلِيـتِ

ومـا تَمَنَّيـتِ فـقَـد أُعطِيـتِ إن تَفعَلِـي فِعلَهُمـا هُدِيـتِ

ثم نزل قليلًا فجاءه ابن عم له ببعض لحم على عظم، وقال له: «شُدَّ بهذا صُلبك. فإنك قد لقِيتَ في أيامك هذه ما لقِيتَ». أخذ ذلك من يده، ولمّا نهش قطعة لحم سمع زحام القوم وتحطيم بعضهم لبعض، فقال للعظم: وأنتَ في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى استُشهد.

هنالك حمل الراية ثابت بن أقرم الأنصاري رضي الله عنه وقال: يا معشرَ المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنتَ. قال: ما أنا بفاعل. واصطلح الناس على خالد بن الوليد رضي الله عنه، فحمل الراية ودافع بالقوم حتى ثبّتهم، ثم غيّر توزيع الجيش فظنّ الأعداء أنه قد جاء المددُ للمسلمين وتخوّفوا وهُزم كثير منهم، وبقي التناوش بعد ذلك ٧ أيام، حتى اندق في يد خالد رضي الله عنه ٩ أسياف، وبقيت في يده صحيفة يمانية، وفتح الله عليه يسيرًا من دون نصر أو هزيمة، وتحاجز القومان فانصرف بجيشه عائدًا إلى المدينة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يتابع المعركة بهمّ وشوق، فجاءه الوحي بما

---

(١) السيرة ٢: ٣٧٩ وتاريخ الطبري ٣: ٤٠ والكامل ٢: ٢٣٧ والاستيعاب ص ٨٩٩. والاستشهاد هنا هو طلب الشهادة، مصدر للفعل المبني للمعلوم: استَشهَدَ، أي: طلب الشهادة. وكثيرًا ما يكون في مواقع أُخَر مصدرًا للفعل المبني للمجهول: استُشهِدَ، أي شهد له الله بالقتل في سبيله والملائكة والناس.

كان من الجَمعَين. ولذلك نودي بالصلاة جامعة، وخطب بالصحابة قائلًا: «بابُ خير بابُ خير بابُ خير. أُخبِرُكم عن جيشكم هذا الغازي. إنهم لقُوا العدو... أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قُتل شهيدًا، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قُتل شهيدًا»، ثم صمتَ حتى تغيّرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رَواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: «ثم أخذها عبد الله بن رَواحة، فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا. لقد رُفِعوا إليَّ في الجنّة على سُررٍ من ذهب، فرأيتُ في سرير عبد الله بن رَواحة ازوِرارًا عن سريرَي صاحبيه، فقلتُ: عمَّ هذا؟ فقيل لي: مضَيا وتردّد عبد الله بعض التردُّد، ثم مضى. ثم أخذ الراية خالد بن الوليد. اللهمّ إنه سيف من سيوفك. فأنت تنصره».

ولما بلغ النساءَ استشهاد هؤلاء بدأن البكاءَ والعويل، فأمر النبي ﷺ أحد الصحابة: ارجع إليهن وأسكتْهنَّ. فذهب ثم رجع قائلًا: إن النساء عنَّينَنا وفتَنَّنا. قال: فاذهب فأسكتْهنَّ، فإن أبَينَ فاحثُ[1] في أفواههنَّ الترابَ. قالت عائشة رضي الله عنها تخاطب الرجل: أبعدَكَ اللهُ. فواللهِ، ما تركتَ نفسكَ، وما أنتَ بمطيع رسولَ الله ﷺ. ثم قالت في نفسها: وعرفتُ أنه لا يقدر أن يَحثيَ[1] في أفواههنّ التراب.

وعندما قارب العائدون من مؤتة المدينةَ المنورة تلقاهم الرسول الكريم بالصبر والتصبر، والناس يظنون أنهم هربوا من المعركة، فهم يحثون عليهم التراب، ويعنّفونهم بالقول: يا فُرّارُ، فررتم في سبيل الله. فقال الرسول العظيم، يخفّف المُصاب على الجميع ويبشّر بالخير: ليسوا بالفُرّار، ولكنّهمُ الكُرّارُ، إن شاء الله.

ثم لبث بعضُ العائدين في بيوتهم يتهيّبون أن يلقَوُا الناس. حتى إن أُمّ

---

(١) يقال: حثا يحثو وحثى يحثي.

سلمة بن هشام بن العاص سألت زوجته رضي الله عنها: ما لي، لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين؟ قالت: والله، ما يستطيع أن يخرج. كلّما خرج صاح به الناس: «يا فُرّار، فررتم في سبيل الله»، حتى قعد في بيته لا يخرج.

وقد استطاع الشعر أن يسهم في تخليد المعركة،[1] بذكر ما كان فيها، ورثاء الشهداء. فهذا قيس بن المسحَّر رضي الله عنه توبّخ نفسه لأنه لم يتابع الجهاد، ثم يعتذر لها بما كان من خالد رضي الله عنه، في القيادة والانصراف الحكيم:[2]

فـوالله، مـا تَنـفَكُّ نَفسِي تَلُومُنِي ... علَى مَوقِفِي، والخَيلُ قابِعةٌ قُبـلُ
وقَفتُ بِها، لا مُستَجِيزًا فنافِذًا ... ولا مانِعًا مَن كانَ حُمَّ لَهُ القَتـلُ
علَى أنَّنِي آسَيتُ نَفسِي بخـالِدٍ ... ألا خالِدٌ، في القَومِ، لَيسَ لَهُ مِثلُ

وقال أحد المجاهدين، يرثي القادة الثلاثة رضي الله عنهم، ويتشكّى مما كان منه:[3]

كَفَى حَزَنًا أنِّي رَجَعتُ، وجَعفَرٌ ... وزَيدٌ، وعَبدُ اللهِ، في رَمسِ أقبُرِ
قَضَوا نَحبَهُم، لَمّا مَضَوا لِسَبِيلِهِم ... وخُلِّفتُ لِلبَلوَى، مَعَ المُتَغَبِّـرِ
ثَلاثـةُ رَهـطٍ، قُدِّمُـوا، فتَقَدَّمُـوا ... إلَى وِردِ مَكرُوهٍ، مِنَ المَوتِ، أحمَرِ

وراح حسان رضي الله عنه يُشيد بالشهداء جميعًا، ويدعو لهم بالخلود عند الله، ويبشر المسلمين بالسلامة، لِما فيهم من آل هاشم والنبي الكريم والقرآن العظيم:[4]

---

(١) السيرة ٢: ٣٨٣ - ٣٨٨.

(٢) السيرة ٢: ٣٨٣. والقابعة: المنقبضة. والقبل: التي تُميل كل منها عينها إلى جهة العين الثانية، جمع أقبل وقبلاء. والمستحيز: المنحاز إلى فئة. وحم: قُدّر. وآسيت نفسي: جعلتها تقتدي.

(٣) السيرة ٢: ٣٨٨. والرمس: ما يُحثى من التراب على القبر. والمتغبر: الباقي في الحياة. والرهط: الجماعة من الرجال.

(٤) ديوانه ص ٢٣٤ - ٢٣٦ والسيرة ٢: ٣٨٣ - ٣٨٥. وتواردوا أي: ورد بعضهم مع بعض. وشعوب: المنيّة، ممنوع من الصرف. والخلف: المتخلف. ويزول: ينتهي.

رأيـتُ خِيـارَ الـمُؤمِنِيـنَ تَـوارَدُوا ... شَـعُـوبَ، وخَلْفًـا بَعـدَهُـم يَتَـأَخَّـرُ
فَـلا يُـبعِـدَنَّ اللهُ قَتـلَـى، تَتـابَعُـوا ... بمُؤتَةَ، مِنهُم ذُو الجَناحَـيـنِ جَعفَـرُ
فما زالَ في الإِسلامِ، مِن آلِ هاشِمٍ، ... دَعـائـمُ عِـزٍّ، لا يَـزُلْـنَ، ومَـفـخَـرُ
هُـمُ أَولِيـاءُ اللهِ، أَنــزَلَ حُـكـمَـهُ ... علَيهِم، وفِيهِم ذا الكتابُ الـمُطَهَّـرُ

وبهذا وأمثاله من المقولات انتهت سَرِيّة مؤتة، ليكون بعدها معارك لا تنتهي إلى يوم القيامة مع الروم والفرنجة وذرياتهم المتهوّدة، رجالات التكفير والاستعمار والعولمة والتبويش والبغي والبِغاء، والتلويث الحضاري والبلبلة الإنسانية.

٤ ـ سرية ذات السلاسل:(١) تجمعت عدة قبائل من الأعداء في ذات السلاسل، وبينها وبين المدينة ١٠ أيام. كان المجتمعون من اليهود ونصارى قُضاعة وعاملة ولخم وجُذام أتباع الروم يريدون غزو المدينة، فبعث النبي ﷺ إليهم عمرَو بن العاص رضي الله عنه في جُمادى الآخِرة من السنة الثامنة، بلواء أبيض وراية سوداء، ومعه ٣٠٠ مقاتل من سروات المهاجرين والأنصار، مثل أبي بكر وعُمر وأبي عُبيدة رضي الله عنهم، وأمره أن يستعين بما يمكنه من قبائل بليّ وعُذرة والقَين.

ولمّا قرب من القوم بلغه أنهم في جمع كبير، فبعث يستمد النبيَّ ﷺ على القتال، فأرسل إليه أبا عبيدة رضي الله عنه في ٢٠٠ من سراة المهاجرين والأنصار أيضًا، وأمره أن يكونا جميعًا ولا يختلفا. وبذلك استطاع المجاهدون أن يطاردوا عدوهم ويدوّخوه، فقتلوا منه مقتلة عظيمة بعد هرب من سَلم منه، وعادوا بالظفر والغنائم.

٥ ـ غزوة تَبوك:(٢) لقد أخفقت المكايد التي أثارها أبو عامر من قبل، إذ

---

(١) الطبقات ٢: ١٣١ وتاريخ الطبري ٣: ٩٥ وزاد المعاد ٣: ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) الأحاديث: ٤١٥٣ ـ ٤١٦١ في البخاري و٢٧٦٩ في مسلم والسيرة ٢: ٥١٥ ـ ٥٣١ وتاريخ الطبري ٣: ١٠٠ ـ ١١١ وأنساب الأشراف ١: ٣٦٨ والكامل ٢: ٢٧٦ ـ ٢٨٢ والطبقات ٢: ١٦٥ ـ ١٦٨ وعيون الأثر ٢: ٢١٥ والبداية والنهاية٤: ٦٣ ـ ٦٨ وزاد المعاد ٣: ٥٢٦ ـ ٥٤٨ وشرح المواهب ٣: ٦٢ ـ ٨٩ ومعجم البلدان ٢: ١٤ ـ ١٥.

جاءت سَريّة مؤته بغير ما توقع منها. كان يريد أن تَقضي على جيش المسلمين، وتتابع سبيلها إلى المدينة المنورة، لتُجهز على الدعوة الإسلامية في موطنها، وتخلّصه من الدولة الفتية ومن النفوذ الجديد الذي يهدد بقاءه، ويمنعه من السيادتين الروحية والسياسية.

ولكن تلك المعركة انتهت بتحاجز الجمعين، وانصراف كل منهما دون نصر أو خسارة، وهذا يعني أن ٣٠٠٠ مسلم استطاعوا أن يصمدوا أمام ٢٠٠٠٠٠ نصراني من أصحابه ومؤيديه. فلا بد من جولة أعظم تحقق الآمال المرتقبة، وتنهي المعضلة إلى غير رجعة.

وقد كان على النبي الأعظم أن يجدد المسير إلى جنوبيّ الشام، بعد أن ظهر استعداد أهله للغزو في مؤتة. غير أن نقض قريش لعهد الحُديبية، وما جرّ معه من فتح مكة وغزوتي حُنين والطائف، صرفاه عن ذلك. والعجيب أن أصحاب أبي عامر من الروم والعرب لم يستفيدوا من تلك المشاغل النبوية، للانقضاض على المدينة المنورة ومن فيها. ولكنك إذا تذكرتَ ما حصل في بحر العام التالي لمؤتة عرفت سبب الإحجام.

فقد أصبح كثير من الأصقاع المحيطة بالدعوة الإسلامية مُبايِعًا مُوادِعًا، إذ دخلت قريش ومن معها في دين الله، وكذلك أهل الطائف وبطون هَوازن، وبعض القبائل العربية من الشمال والشرق جاءت مُسلِمة مُبايعة مطيعة ومُؤيّدة. أما مناطق النفوذ اليهودية حول المدينة فقد استسلمت، فقضي على المحاربين من أهلها، وأُجلي المعاندون المعارضون، وقُيّد المسالمون بالعهود المهدِّدة بالجلاء في كل حين.

وإذا كانت ٣٠٠٠ في مؤتة قد صمدت أمام ٢٠٠٠٠٠ فمُحال للعالَم كله أن يتخطى حدود الشام لحرب الإسلام والمسلمين، في ذلك البحر المائج بجحافل الدولة العظيمة. ولذا كان سعي ذلك المنافق الموتور أن يستجرّ النبيَّ

العظيم وأصحابه ﷺ باستعداد ضخم إلى ميدان بعيد عن مركز الدعوة وما يحيط بها. فعندما التقط أنفاسه بعد تلك الفاجعة الخاسرة، وتسنى له التحرك بين اليهود اللاجئين ونصارى الروم والعرب، رجع يثير الحماسة ويهيّج الحمية على النفوذ السياسي المهدِّد بالزحف الإسلامي، واستطاع أن يعيد ترتيب الأمور من جديد.

كان عن ذلك أن احتشدت في جنوبيّ الشام جيوش تحت قيادة هِرَقل، من الروم واليهود و قبائل لخم وجُذام وعاملة وغسان... احتشدت في ٤٠٠٠٠ مقاتل ـ فهم أقل مما كان في مؤتة، الأمر الذي يعني ضعف السلطان ـ وتقدمت إلى البلقاء، تريد قصد المدينة المنورة بالغزو.

وفي تلك الآونة نزل قول الله ـ جل وعلا ـ يخاطب المسلمين مبينًا حكم هؤلاء المحاربين، ومعدّدًا صفاتهم المميِّزة، وما سيقال لهم يوم القيامة عن كنوزهم: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ، ولا باليَومِ الآخِرِ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ، ولا يَدِنُونَ دِينَ الحَقِّ، مِن الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ، حَتَّى يُعطُوا الجِزيَةَ عَن يَدٍ، وهُم صاغِرُون... ما كُنتُم تَكنِزُونَ﴾.(١) فهم في حربهم للمسلمين كافرون جاحدون يَدينون بالباطل، ويشركون في عبادة عُزير والمسيح، ويعبدون الأحبار والرهبان الذين يكنزون الذهب والفضة ليعذَّبوا بهما يوم القيامة، ويريدون القضاء على الدين الإسلامي.

كان هذ أمرًا بقتال الروم ومن معهم، في تلك الصفات، أو من يماثلهم فيها إلى يوم القيامة، وبدأ تنفيذه فعلًا بغزوة تَبوك. إذ سُرعان ما بلغ النبيَّ

(١) الآيات ٢٩ ـ ٣٥ من سورة التوبة. وانظر قول ابن زيد في تفسير القرطبي ٨: ٢٩٧ وقول مجاهد في الدر المنثور ٣: ٢٢٨ والمحرر الوجيز ٣: ٢١ وتفسيرَي البغوي والخازن ٣: ٧٨ وتفسير ابن كثير ٢: ٣٣٢ والبحر ٥: ٢٩ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٦٨٥ ـ ٦٨٦.

ﷺعن طريق الأنباط خبرُ تلك الحشود، فشرع يعدّ جيشه للقائها في رجب من السنة التاسعة، وبعث إلى أهل مكة وجموع القبائل يستفزّهم، وأمر الصحابة بالتهيؤ للجهاد، وهم في سنة عُسر وشِدّة حرّ وجدب من البلاد، وقد طابت الثمار بالجنى والظلال.

كان أمره صريحًا غير مكنيّ، بخلاف ما جرى عليه توجيهه قبلُ في المواقع والوقائع المتعددة. وإنما صرّح بالمراد الآن ولم يَكْنِ أو يُوهم بمقصَد آخر، لبعد الشُّقة حينئذ وشدّة الزمان وكثرة العدوّ المقصود، إذ المراد أن يكون استعداد بـ «جيش العُسرة»، لِلقاء خطير وزمن مديد وبأس شديد. وهذا ما يجعل للمنافقين منافذ، تدخل منها إلى النفوس، تُخذّل وتوهّن، وتَمنع من الاستجابة لتوجيه الرسول الكريم.

وقد بدت آثار ذلك في عدّة مواقف، تكشف مكايد المنافقين وسعيهم الخبيث. فعندما لقي النبيُّ ﷺ أحدهم ـ وهو جُدُّ بن قيس ـ وقال له: يا جُدُّ، هل لك العامَ في جلاد بني الأصفر؟ قال:«يا رسولَ الله، أَوَتأذَنُ لي ولا تفتِنِّي؟ فوالله، لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجبًا بالنساء منّي، وإني لأخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألّا أصبر». هذا مع العلم أن الحرب للقوم وما كان معهم نساء.

فأعرض عنه النبي الكريم، وقال: «قد أذِنتُ لك». وفي هذا نزل قول الله ـ جل وعلا ـ يصف بعض أحوال المنافقين: ﴿ومِنهُم مَن يَقُولُ: «ائذَنْ لِي، ولا تَفتِنِّي». ألا في الفِتنةِ سَقَطُوا، وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطةٌ بالكافِرِينَ﴾.[1] أي: إن كان هذا قد خشي الافتتان بنساء الروم، ولسنَ في المعركة، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن الجهاد، لاستحقاقه الصيرورةَ إلى نار جهنم.

---

(١) الآية ٤٩ من سورة التوبة.

ولقد استغل المنافقون شِدّة الصيف آنئذ وعُسر الظروف، فصار بعضهم يقول لبعض وللآخَرين من ضعاف الإيمان، تثبيطًا عن الجهادِ وطاعةِ النبي ﷺ: «لا تنفِروا في الحرّ». فأنزل الله ـ جل ثناؤه ـ ما يردّ عليهم مكايدهم بالتشجيع على الجهاد، ويواجه قبائحهم بالتهديد والوعيد: ﴿وقالُوا: «لا تَنفِرُوا في الحَرِّ». قُل: نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا، لَو كانُوا يَفقَهُونَ. فلْيَضحَكُوا قَلِيلًا، ولْيَبكُوا كَثِيرًا، جَزاءً بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾.(1)

ثم إنهم اتخذوا لهم مجلسًا في بيت سُويلِم اليهودي، لتخذيلِ الناس عن غزوة تبوك، وحملِهم على البقاء في رعاية ثمارهم، ومنعِ العون بشيء من العتاد والسلاح والمال. ولمّا علم بذلك رسول الله ﷺ بعث إليهم بعض الصحابة يحرّقون لهم البيت ويخرّبونه عليهم.

وقد فوجئ بذلك مَن كان فيه من المنافقين وأصحابهم، وحاولوا الخروج من ظهر البيت للهرب، فانكسرت رجل أحدهم ـ وهو الضحّاك بن خليفة ـ فنجا بجلده، وهو يقول:(2)

كادَت، وبَيتِ اللهِ، نارُ مُحَمَّدٍ ... يَشِيطُ بها الضَّحّاكُ، وابنُ أُبَيرِقِ
وظَلْتُ، وقَد طَبَّقتُ كِبسَ سُوَيلِمٍ، ... أَنُوءُ علَى رِجلِي، كَسِيرًا، ومِرفَقِي
سَلامٌ علَيكُم، لا أَعُودُ لِمِثلِها، ... أَخافُ، ومَن تَشمَل بِهِ النّارُ يُحرَقِ

وقد تابع النبي ﷺ أمر التهيؤ بحزم، وحض الأغنياء على النفقة وتقديم العتاد والإبل والخيل، فبذل عثمان بن عفان ﵁ في ذلك ٣٠٠ بعير بحاجاتها وألف دينار عينًا، أي: ما يقابل ألف ليرة ذهبية. وبذلك جهز ثلث الجيش،

---

(١) الآيتان ٨١ و ٨٢ من سورة التوبة.

(٢) السيرة ٢: ٥١٧. ويشيط: يحترق. وظلت: ظلِلت، حذفت اللام الأولى للتخفيف. وطبقت أي: علوت. والكبس: البيت الصغير.

وفيه ٣٠٠٠٠ محارب منهم ١٠٠٠٠ فارس، كما أنفق أبو بكر ﷺ جميع ما بقي من ماله.

أما الذين ليس لديهم ما يقدّمونه، أو يمتطونه للمسير إلى العدو، فجاؤوا يطلبون العون على ذلك. وكان فيهم ٧ من بني عمرو بن عوف، شكَوا حالهم إلى النبي العظيم، وفقرهم وعجزهم عن تأمين ما يركبون، فقال لهم: ﴿لا أَجِدُ ما أحمِلُكُم علَيهِ﴾، فـ﴿تَوَلَّوا، وأعيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ، حَزَنًا ألّا يَجِدُوا ما يُنفِقُونَ﴾،[1] كما سجل لهم النظم الكريم. وقد سُمُّوا لذلك: البكّائين. ثم حمل العباس اثنين منهم للجهاد وعثمان ثلاثة، والصحابيّ ابن يامين بن عُمير ﷺ بقيتهم، فأعانوهم بمركوب وزاد للجهاد.

وجاء بعض المنافقين والأعراب يعتذرون، فأذن النبي ﷺ للمنافقين بما ادَّعوا ولفّقوا من الأباطيل، وهم بضعة وثمانون، ولم يأذن للأعراب وهم ٨٢. ثم تخلف بضعة صحابيِّين مخلصين من دون عذر، وفيهم أبو خَيثمة مالك بن قيس، والشاعر كعب بن مالك ﷺ. ثم عسكر جيش النبوة للانطلاق، وبجانبه جماعة عبد الله بن سلول من المنافقين، إشعارًا بأنهم مع الجيش للمسير. ولكن عندما انطلق الجيش في سبيله مع القائد العظيم انخزل هؤلاء واجترّوا معهم أهلَ الريب وضعافَ الإيمان، ليخذّلوا جماعة المجاهدين، ويشعروهم بمخاطر ما هم ذاهبون إليه.

ومع ذلك كله، فقد انطلق الجيش في حوالَي ٣٠٠٠٠ رجل ﷺ، يقصد جحافل الروم ومن معهم، وهو في شِدة وحرّ عظيم، حتى كان الصحابة الأكارم ينحرون الإبل ويعصرون أكراشها ليشربوا ما فيها. وكان أبو خَيثمة ﷺ قد تخلف عنهم كما ذكرنا ورجع إلى داره، فرأى زوجتيه في العريشَين من

---

(١) الآية ٩٢ من سورة التوبة.

الظل والماء والدَّعة وطيّب الطعام والشراب، فأنكر على نفسه أن يكون في ذلك، والرسولُ الكريم ومن معه في عنت الحرّ والرياح والجَهد، وقال لزوجتيه: واللهِ لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله ﷺ. فهيِّئا لي زادًا.

ثم ركب جمله وانطلق يتابع آثار الجيش، فلقي في الطريق عُمير بن وهْب الجمحي رضي الله عنه يتابع الآثار أيضًا، فترافقا حتى قرُبا من المعسكر بتبوك، فطلب أبو خَيثمة من رفيقه رضي الله عنهما التأخر عنه، ليكون له مجال الاعتذار من التخلّف. ولمّا دنا من المعسكر قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل. فقال الرسول ﷺ: «كن أبا خيثمة». ودهِشَ الصحابة لأنه كان هو بنفسه بين أيديهم.

ولمّا أخبر النبيَّ الكريم بما حدث له من تقصير وعزم على تكفير الذنب، قبِلَ عذره ودعا له بخير، فقال أبو خيثمة رضي الله عنه يذكر مجانبتَه النفاق إلى العِفة والكرم، وترْكَه متع الحياة ولذاتها للَّحاق بالمجاهدين، واستجابتَه لأمر الإيمان والصلاح:(١)

لَمّا رأيتُ النّاسَ، في الدِّينِ، نافَقُوا ... أتيتُ الَّتِي كانَت أعَفَّ، وأكرَما
تَركتُ خَضِيبًا في العَرِيشِ، وصِرمةً ... صَفايا كِرامًا، بُسرُها قَد تَحَمَّما
وكُنتُ إذا شَكَّ المُنافِقُ أسمَحَت ... إلَى الدِّينِ نَفسِي شَطرَهُ، حَيثُ يَمَّما

وكان النبي ﷺ قد مر مع المسلمين بديار ثمود في الحِجر، وهم متوجّهون إلى الشام لتلك الغزوة، فنبّههم ﷺ بقوله: «لا تَدخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم إلّا أن تَكُونُوا باكِينَ، أن يُصِيبَكُم ما أصابَهُم»، ثم تقنَّعَ

---

(١) السيرة ٢: ٥٢١. والخضيب: المرأة المخضوبة بالحِنّاء. والصرمة: مجموعة النخيل. والصفايا: المصطفاة لجودتها وكثرة حملها، جمع صَفيّة. والبسر: التمر قبل أن يطيب. وتحمم: بدأ يسودّ. وأسمحت: انقادت. وشطره أي: نحوه. ويمم: قصد وتوجه.

بردائه، وهو على الرَّحل. ولمّا علم أنهم استقَوا، أي: أخذوا ماء، من بئر القوم ليشربوا واعتجنوا به أمرَهم أن يُهَريقوا ما استقَوا، وأن يَعلِفوا الإبلَ العجينَ، وأن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها ناقة صالح ﷺ.(١)

وفي الطريق أيضًا كان يتخلف بعض المنافقين عن الجيش، وكلما تخلف رجل قال الصحابة الأكارم: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول: «دعُوه. فإن كان فيه خير فسيُلحِقه الله - تعالى - بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه». ولمّا تمهّل البعير بأبي ذرّ رضي الله عنه تركه وحمل متاعه يتبع أثر القوم، حتى قرب منهم في بعض استراحاتهم، فقال أحدهم: هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرّ». وعندما تأملوه قالوا: يارسول الله، هو أبو ذرّ. فقال: رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده.

وقد ضاق المنافقون المرافقون للجيش فيما هم عليه من الجَهد والبلاء، وصاوا يهزؤون بالدين وما فيه، وقال بعضهم لبعض إرجافًا للمؤمنين بتأفّف وتذمّر: «أتحسِبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضِهم بعضًا؟ والله، لكأنّا بكم غدًا مقرَّنين في الحِبال». ولمّا بلغ النبيَّ الكريم قولُهم وعاتبهم قالوا: إنّما كنا نخوض ونلعب. فنزل الوحي ينعى عليهم ذلك بقول الله، تبارك وتعالى(٢): ﴿ولَئن سألتَهُم لَيَقُولُنَّ: «إنّما كُنّا نَخُوضُ ونَلعَبُ». قُلْ: أباللهِ وآياتِهِ ورَسُولِهِ كُنتُم تَستَهزِئُونَ﴾؟

وأخيرًا وصل رسول الله ﷺ بالجيش إلى تبوك، فعلم أن الأعداء هابوا محاربته وتفرّقوا. فكأن هِرَقل رجع إلى رأيه الأول بالمُصانعة، وضاق بمساعي

---

(١) الأحاديث: ٣١٩٨ - ٣٢٠١ في البخاري و ٢٩٨٠ و ٢٩٨١ في مسلم. انظر السيرة ٢: ٥٢١ - ٥٢٢.

(٢) الآية ٦٥ من سورة التوبة.

أبي عامر والبطارقة، فآثر الموادعة والتخلي عن المواجهة بالحروب. وإذ ذاك استشار القائد العظيم أصحابه الأكارم في مطاردة الأعداء، فقال عمر رضي الله عنه: إن للروم جموعًا كثيرة، وليس في الشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنَونا وأفزعهم دُنُوُّك. فلو رجعنا في هذه السَّنة حتى نرى، أو يُحدِثَ الله أمرًا.

استجاب النبي صلى الله عليه وسلم لقول عمر رضي الله عنه، فأقام المجاهدون في تبوك ٢٠ ليلة، دون أن يلقَوا كيدًا، بل جاءت جماعة رسل هرقل من حمص إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمُسالمة، فكساهم وردّهم بإكرام. وكان منهم أمير أيلةَ يوحنَّى بن رؤبة، كما ذكرنا قبلُ،(١) إذ سجل له عهدًا ولمن معه من الشام واليمن والبحر. وكذلك كان شأن أهل جَرباءَ وأذرُح ومَقنى.

ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنوّرة، من دون حرب، بالظفر والموادعة لنصارى الروم والعرب، وكان له في طريق الذهاب والإياب مساجد معلومة، ما زال لها ذكر وحضور حتى اليوم. وفي طريق العودة كان للمنافقين عمل خطير شبيه بما كان من اليهود. فقد حزّ في نفوسهم ما عاد به رسول الله من النصر والتأييد والمُوادعة، فائتمروا بقتله ليتخلصوا من سلطانه ونجاح مساعيه. وذلك أنه عندما وصل إلى جبل العقبة ـ وهو يعرض للطريق بين تبوك والمدينة ـ أمر المجاهدين بسلوك الوادي، ليمر هو من العقبة مشرفًا عليهم، فعزم المنافقون أن يدفعوه عن راحلته ليقتلوه.

كان همهم أن ينتهوا منه، وقد تواصوا فيما بينهم أنهم إذا قدِموا المدينة عقدوا التاج على رأس عبد الله بن سَلول. ولكن الله أرسل إلى نبيه جبريل بخبرهم، وأمره أن يبعث إليهم من يفسد عليهم ما قصدوا، فكان أن ضرب حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه وجوه رواحلهم، وهم متلثمون للتنكر، ودفعهم في طريق

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٦ والسنن الكبرى ٩: ١٨٥ ـ ١٨٦ والسيرة ٢: ٥٢٥.

آخَر، وقطع عليهم سبيل البغي والعدوان، ثم نزل في الآية ٧٤ من سورة التوبة ما يبسط ذلك.(١)

وعندما بلغ رسولُ الله ﷺ حدود المدينة خرج الناس نساء وصبيانًا وولائد ينشدون:(٢)

طَلَعَ البَدرُ علَينا ... مِن ثَنِيّاتِ الوَداعِ
وَجَبَ الشُّكرُ علَينا ... ما دَعا، لِلهِ، داعِي

فقال، عليه الصلاة والسلام: «هذه طابة، وهذا أُحُدٌ، جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه». ثم دخل المسجد فصلى تحية له، وجلس إلى أصحابه يحدّثهم بما لديه.

وكان في المدينة وما حولها رجال تخلفوا عن اللَّحاق بجيش العُسرة، كما عرفنا قبل، فيهم منافقون كثيرون، وبعض المؤمنين الصالحين، قيل: هم عشرة. أما المنافقون فجاؤوا إلى النبي العظيم يحلفون له ويختلقون الأعذار الواهية المكذوبة، فصفح عنهم دون أن يقبل أعذارهم.

وكانت الآيات الكريمة قد نزلت قبل الرحيل إلى تبوك: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، ما لَكُم، إذا قِيلَ لَكُمُ: «انفِرُوا في سَبِيلِ اللهِ» اثّاقَلتُم إلى الأرضِ؟... كارِهُونَ﴾،(٣) تحث المؤمنين على المشاركة في الجهاد، وتعنّف بحِدّةٍ المتخاذلين والمقصّرين وتهدّدهم بالعذاب الأليم، وتذكّرهم بنُصرة الله لرسوله في الشدائد العصيبة، وتنعَى عليهم التخاذل لعُسر المَغزاة وبُعد القصد، وتعاتب الرسول العظيم على الإذن لهم بالتخلف، مبيِّنة أنهم ليسوا من المؤمنين، ولا مفكّرين

---

(١) انظر المسند ٥: ٤٥٣ وتفاسير البغوي ٢: ٣١٢ والخازن ٣: ١٢٤ والكشاف ٢: ٢٩١ ـ ٢٩٢ والبحر ٥: ٧٢ ـ ٧٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ والدر المنثور ٣: ٢٥٩ وتفسير الجلالين الميسر ١٩٩ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص ٧١٠.

(٢) زاد المعاد ٣: ٥٥١.

(٣) الآيات ٣٨ ـ ٤٨ من سورة التوبة.

في الجهاد أصلًا، بل هم منافقون وفي ريب وشك، وخروجهم في الجيش مثبّط ومسبّب للضعف والفتن، كما كان شأنهم من قبل، في طلب الشر والإيذاء وإثارة المعضلات وادّعاء الأباطيل.

وقد جاء فيما نزل حينئذ أيضًا إعلام بما سيكون منهم، بعد العودة من تبوك. وفي ذلك بشارة بالنصر والعودة بسلام. فالمنافقون المتخلّفون سيُكثرون الزيارة للنبي ﷺ وأصحابه الأكارم، يَفترون الاعتذار من التخلف، ويحلفون على ذلك زورًا وبهتانًا، ويظنون أنهم أرضَوُا الناس عنهم، وصاروا بذلك كالمجاهدين. ولكن أمرهم مكشوف ولن يكون عنهم رضا أبدًا: ﴿يَعتَذِرُونَ إلَيكُم إذا رَجَعتُم... القَومِ الفاسِقِينَ﴾.(١)

هذا ما كان من المنافقين. أما المؤمنون الصالحون ـ ﷺ ومنهم كعب بن مالك ـ فما طاوعتهم نفوسهم أن يضيفوا إلى جريمة التهرب من الجهاد كذبًا وافتراء أعذار، ولم يُوحَ في أمرهم شيء مع ما نزل في حق المعذّرين والمنافقين. ورُوي عن كعب ﷺ أنه كان أيام التهيؤ لتبوك يسعى في ذلك، دون أن ينجزه، وهو يمنّي نفسه بما بعد، حتى رحل المجاهدون ولم يبق إلّا منافق أو عاجز معذور. ولمّا رجَعوا من الغزوة استقدمه النبي ﷺ وسأله عن عذره، فأبى أن يختلق عذرًا وقال: لا ـ واللهِ ـ ما كان لي عذر. واللهِ، ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك. فقال النبي ﷺ: أمّا هذا فقد صدقتَ فيه. فقمْ حتى يقضي الله فيك.

فتبعه بعض أصحابه من قومه، وهم يلومونه أن لم يعتذر ويطلب الاستغفار، فحدّثته نفسه أن يرجع إلى النبي الأعظم، ليكذّب ما قال قبلُ، ثم سأل: هل لقي هذا أحدٌ غيري؟ قالوا: نعم. رجلان: مُرارة بن الربيع وهلال

---

(١) الآيات ٩٤ ـ ٩٦ من سورة التوبة.

ابن أُمية رضي الله عنهما. وهما فيما يَعلم من الصالحين وفيهما أُسوة. فعدل حينئذ عما حدّثته به نفسه.

وروي أن سبعة من المتخلّفين ربطوا أنفسهم بسَواري المسجد، ولمّا مرّ بهم النبي ﷺ سأل: ما شأنهم؟ فقيل: تخلّفوا عنك ـ يارسول الله ـ فأوثقوا أنفسهم حتى تَعذرهم وتُطلقهم. فقال: وأنا أُقسِمُ، لا أُطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم. رغبوا عني، وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين.

لذا بقي حكمهم مع الثلاثة معلَّقًا، وأمر النبيُّ ﷺ ألّا يكلّمهم أحد، فاعتزلهم الناس جميعًا، لا يعرفون: ماذا يكون فيهم؟ وتغيّر أقرباؤهم لهم، وتنكّرت لهم الأرض بذلك ٥٠ ليلة، فلزم الصحابيان الباقيان رضي الله عنهما المنزل مستكينَين، وخرج كعب رضي الله عنه يطوف بالأسواق، ويحضر الصلاة مع النبي ﷺ ويسلّم عليه فلا يُرَدّ له جواب، مع إعراض عنه بالنظر.

وبينما هو في السوق ذاتَ يوم، سمع رجلًا من النَّبط يقول: «من يدل على كعب بن مالك»؟ وإذا معه كتاب من ملك غسّان يقول فيه: «أمّا بعدُ فإنه قد بلغَنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضيَعة. فالحقْ بنا نُواسِك». فقال في نفسه: «وهذا من البلاء أيضًا. قد بلغ بي ما وقعتُ فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشِّرك». ثم أحرق الكتاب.

وهذا يعني أن المُوادَعة في تبوك كانت على دَخَن، ولن يهادن الكافرون المسلمين بجِدّ وحزم أبدًا. وبعد ٤٠ ليلة من المقاطعة جاء أمر النبي ﷺ أن يعتزل الثلاثةُ نساءهم أيضًا، فلبثوا على ذلك ١٠ ليال حتى اكتمل لهم ٥٠ ليلة. وفي صباح الخمسين من أيام المقاطعة والاعتزال، كان مالك يصلي فسمع صوت صارخ: «يا كعبَ بنَ مالك، أبشِرْ». فخرّ ساجدًا، إذ عرف أنه جاء الفرَج، ونزع ثوبَيه وليس عنده غيرهما، وأهداهما إلى مَن بَشّره. ثم

استعار ما يلبَس ويتستر به وخرج للناس حتى دخل المسجد، وهم يقولون: لِيَهنِك توبةُ الله عليك.

فقد نزل الوحي الكريم بالتوبة على هؤلاء المتخلّفين، وخَصّ الثلاثة بالذِّكر(١): ﴿لقَد تابَ اللهُ علَى النَّبيِّ والمُهاجِرِينَ والأنصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ في ساعةِ العُسرةِ... وعلَى الثَّلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا، حَتَّى إذا ضاقَت علَيهِمُ الأرضُ بِما رَحُبَت، وضاقَت علَيهِم أنفُسُهُم، وظَنُّوا أن لا مَلجَأَ مِنَ اللهِ إلّا إلَيهِ، ثُمَّ تابَ علَيهِم لِيَتُوبُوا. إنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن هذا ترى أن النص القرآني المشرّف جعلهم في الحكم كالمجاهدين في تبوك، بل لقد زاد أن وصفهم بالمخلَّفِينَ في نوال التوبة، إشعارًا بإرادة الرحمن لهم الامتحانَ لإثبات الإخلاص والتقوى والإحسان. ومما هو جدير بالملاحظة ههنا أنه كرر لهم ذكر التوبة بعدَ «ثم»، مع شمولها لهم من قبل بالعطف، لتوكيد الحكم وتحقيقه، فلا يُظنّ فيهم التبعية والقصور.

وهكذا أسرعوا إلى المسجد، فلمّا سلّم مالك على النبي الكريم أجابه، ووجهه يبرُق من السرور: أبشِر بخيرِ يومٍ مرّ عليك، منذ وَلدتك أُمّكَ. قال: أمِن عندك - يارسول الله - أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. فقال: إن من توبتي إلى الله - عز وجل - أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. فأجابه: أمسِك عليك بعض مالك. فهو خير لك. قال: «إني مُمسك سهمي الذي بخَيبر. إن الله قد نجّاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله ألّا أُحدّث إلّا صدقًا ما حَيِيتُ». وقبل الرسول الكريم من المتخلّفين صدقاتِهم بأمر الوحي، ليطهّرهم ويزكّيهم بها وبصَلاته عليهم.(٢)

---

(١) الآيتان ١١٧ و ١١٨ من سورة التوبة. وانظر الآية ١٠٢ منها.

(٢) انظر الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

هنالك ظن بعض الصحابة أن الجهاد قد انتهى، بانتهاء أمر المنافقين ويهود والمشركين، وانصراف الروم عن متابعة الحروب، فجعلوا يبيعون أسلحتهم ليتخفّفوا منها. ولمّا بلغ الرسولَ العظيم ذلك نهاهم، وقال لهم: لا تزال عِصابة من أُمّتي يجاهدون على الحق، حتى يخرج الدجّال.

٦ ـ **سرية خالد:**(١) كان أُكَيدر بن عبد الملك قد أعلن الحرب على النبي ﷺ، كما رأينا في غزوة دُومة الجندل، وهو يحشد النصارى ومَن معهم للغزو في الوقت المناسب له. وعندما كان رسول الله ﷺ في تبوك من رجبِ السنة التاسعة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه في ٤٢٠ فارسًا سَريّة إلى أُكَيدِر هذا، فلقيه في الليل يصيد البقر الوحشي مع أخيه حسان وصحبه.

كانت المعركة يسيرة، قُتل فيها أخوه حسان، وصالَحَ خالد رضي الله عنه أكيدرًا بعد أسره، على أن يفتح حِصن دُومة الجندل، وعلى ٢٠٠٠ بعير و ٨٠٠ رأس من الغنم و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح. فغنِم الصحابة هذا وعادوا بأُكَيدر وأخيه مصاد أسيرين، ليعلنا إسلامهما رضي الله عنهما ويبايعا عن قومهما، فكتب لهما الرسول ﷺ كتابًا بما له وما عليه، وختمه بظُفره، وأقرّ أكيدرًا على دُومة وتبوك وتيماء.

ولما رأى المسلمون في المدينة هذا المَلِك صاروا يتلمّسون جُبّته بأيديهم، ويتعجّبون منها، لأنها من الديباج منسوج عليها بالذهب. فقال الرسول العظيم لهم: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده، لَمَناديلُ سعدِ بن مُعاذ في الجنّة أحسنُ منها». وقال بُجير بن بُجَرة الطائي رضي الله عنه، يذكر ما قدّره الله من

---

(١) السيرة ٢: ٥٢٦ ـ ٥٢٧ وأنساب الأشراف ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣ والروض الأنف ٤: ١٧٨ والطبقات ٢: ١٦٦ وزاد المعاد ٣: ٥٣٨ ـ ٥٤٠ والبداية والنهاية ٤: ٣٠ ـ ٣١ والوثائق السياسية ص ٢٤٦ ومعجم البلدان ٢: ١٥ و ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

صيد البقر في الليل، ليقع الملك أُكيدِر في الأسر، ويهتدي إلى الإيمان:(١)

تَبارَكَ سائقُ البَقراتِ، إنّي ... رأيتُ اللهَ يَهدي كُلَّ هادِي

فمَن يَكُ حائدًا عَن ذِي تَبُوكٍ ... فإنّا قَد أُمِرْنا بالجِهادِ

٧ ـ سرية أُسامة:(٢) كانت الاعتداءات المتكرّرة على المسلمين ـ وقد ذكرناها قبل ـ قد سبّبت غزوة مؤته، ومنها ما فعل شُرَحبيل بن عمرٍو الغساني، لأنه قتل رسول النبي ﷺ حين جاءه بالدعوة إلى الله، وقد استُشهد في تلك الغزوة كثير من المسلمين، ومنهم قائدهم الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه.

ولذلك عزم النبي ﷺ في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة أن يوجه أُسامة بن زيد في جيش إلى شُرَحبيل هذا للثأر وردّ العدوان، وأوصاه أن يسير إلى موضع مقتل أبيه، ويُوطئ الخيلَ تُخومَ البلقاء والداروم من مشارف الشام بالأُردنّ. فلمّا صار المنافقون يُرجِفون في ذلك لصِغَر سِنّه، إذ كان في حوالَي العشرين، ويقولون: «يَستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين»، خرج النبي ﷺ عاصبًا رأسه، فجلس على المنبر وقال: أيها الناس، أنفِذوا بعث أُسامة. لئن قلتم في إمرته لقد قلتم في إمرة أبيه قبله. ولقد كان أبوه للإمارة خليقًا، وإنه [أي: أسامة] لخليق بها.

وعلى هذا تجهز الناس وأوعب مع أسامةَ المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، وفيهم كبار الصحابة من مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم خرج الجيش وعسكر بالجُرْف، استعدادًا للمسير. ولكن المرض اشتد بالنبي ﷺ، ولم يتهيّأ له القيام

---

(١) السيرة ٢: ٥٢٦ ـ ٥٢٧ والروض الأنف ٤: ٢٤٦ ومعجم البلدان ٢: ١٥.

(٢) الأحاديث ٣٥٢٤ و ٤٠٠٤ و٤١٩٨ و ٤١٩٩ في البخاري وأنساب الأشراف ١: ٤٧٣ ـ ٤٧٤ وتاريخ الطبري ٣: ١٨٤ والكامل ٢: ٣٣٤ ـ ٣٣٦ والسيرة ٢: ٦٤١ ـ ٦٤٢ والطبقات ٢: ١٨٩ ـ ١٩٢.

بالإشراف والتوديع، فأمر أن يُنفَذ الجيش إلى غايته.

ولمّا توفي رسول الله ﷺ جاء الناس يَثنون عزم أبي بكر رضي الله عنه عن إنفاذ الجيش، لأن انتقاض بعض القبائل يتطلب الاحتفاظ به في عمليات الدفاع والتأديب، فقال لهم: والذي نفسي بيده، لو ظننتُ أنّ السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة، كما أمر النبي. ثم خاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو.

ولكن أُسامة أرسل عُمرَ إلى أبي بكر رضي الله عنه، يستأذنه بالعودة إلى المدينة للحفاظ على الخلافة، وحمّل بعضُ الأنصار أيضًا عمرَ رضي الله عنه أنه إذا أبى عودة الجيش فليؤمّر عليه من هو أقدم سنًّا من أُسامة. وأصرّ أبو بكر رضي الله عنه على إنفاذ الجيش، قائلاً: ولو لم يبق في القُرى غيري لأنفذته. ولما ذكر عمرُ رضي الله عنه له طلب إمارة من هو أكبر من أُسامة وثب من مجلسه، وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكِلَتك أُمّك، يا بن الخطاب. أستعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله؟

ثم خرج بنفسه في مطلع ربيع الآخِر يشيّع المجاهدين ماشيًا، وأُسامة رضي الله عنه راكب، فرجاه مرارًا أن ينزل هو ليركب أبو بكر رضي الله عنه، فأبى عليه ذلك وأوصاه بحفظ الأمانة، وألّا يغدروا ولا يمثلوا بأحد، ولا يقتلوا طفلًا ولا شيخًا ولا امرأة، ولا يُفسدوا زرعًا أو نَعمًا، وأن يدَعوا الرهبان في الصوامع لِما فرّغوا أنفسهم له.

وهكذا مضى أُسامة رضي الله عنه في طريقه إلى الجهاد، فقتلَ قاتلَ أبيه في الغارة، وأوقع في طريقه بالمُرتدِّين من قُضاعة، وعاد سالمًا غانمًا بعد ٤٠ يومًا، فسُرّ الناس بذلك، إذ رسخ في نفوس المُرجِفين أن إرسال الجيش في سبيله يعني قوة الدولة واستقرار البلاد، مع ما كان من كثرة رِدّة القبائل ونفاق من في المدينة. أما هِرقل فإنه لما بلغه بحمص ما صنع أُسامة أرسل جيوشًا تُرابط في البلقاء، وبقيت كذلك حتى كانت الفتوح في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أسباب وأسباب:

تلك قصة مَغازي النبوة لأصحاب النصرانية عامّة، رأيتَ تفصيلاتها كما عرضها التاريخ، بدقة وأمانة، إذ بدأت بحوار وِدّي بين الطرفين، ساده الاحترام والمودة وتبادل الهدايا، وإقرار كلٍّ على مذهبه دون خصام، مع إسلام بعض النصارى. حتى إن ملوك النصرانية الثلاثة في الشام ومصر والحبشة أُعجبوا بالدعوة الإسلامية، وأسلم منهم النجاشيْ أيضًا وبعث إليه بهدايا، وزوّجه أُمَّ حبيبة بنت أبي سفيان ـ وهي مهاجرة عنده ـ ومهَرَها عنه ٤٠٠ دينار.(١)

فالموضوع انبثاق رسالة سماوية، يراد لها أن تَبلغ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. فليكن لها ميدان مقرّر تُبلَّغ فيه أصولها ومبادئها والشريعة والعبادة والأخلاق والمعاملات، ليرى الناس الحقائق ويتخذوا منها بفِطرتهم موقف الوفاق أو الخلاف. ولا مُشاحّة في ذلك بين الطرفين، إذ مشيئة الإنسان هي الحَكَم الفصل، ثم لكم دينكم ولي دينِ.

لكنّ مساعي أبي عامر الخبيثة، امتدت من المدينة إلى مكة فالشام، تثير الأحقاد وتحرّض الأفراد وتجيّش الأجناد، للحفاظ على مناطق النفوذ المُنتنة، وقطع السبيل على انداح دائرة دعوة الإسلام، فإذا برسول للنبي الكريم يُقتل في مؤتة، وأمير يهبّ للحرب خوفًا على مُلكه، وأُسقفّ وآخَرِين يقتلون لأنهم أسلموا، وجيوش تحتشد في مؤتة لغزو المسلمين في ديارهم.

هكذا كانت سلسلة الأحداث، حيث تولّد منها سرايا وغزوة نبوية واحدة، انتهت بالثأر من شُرَحبيل الغساني القاتل لحامل كتاب رسول الله ﷺ، وتكبيد أهل الشام الهزائم، وتفتيت الروابط الساسية التي تشدها إلى دولة بيزنطة الرومية. هنا وقفتْ حركة المقاومة سِلمًا وحربًا في عصر النبوة، وسيكون لها

---

(١) المحبر ص ٧٦ وسبل الهدى والرشاد ١٢: ٣٦٨ ـ ٣٧٠.

شأن آخَر بعد ذلك لأسباب لا يعلم حقيقتها إلّا الله والراسخون في العلم.

كان مضمون الرسائل النبوية المبعوثة إلى الملوك والأمراء يتكرّر فيه، بعد التحية: «أسلِمْ تَسلمْ، يؤتِك الله أجرَك مرّتين، فإن تولَيتَ فعليك إثم...». وإنك لترى معنا أن ما في ذلك دعوةٌ ونصح وتوجيه، والسلامة المذكورة فيه مفسَّرة بالجملة بعدها: «يؤتِك الله أجرَك مرّتين»، بدليل جزم الفعل «يؤتِ» على أنه بدل من الفعل «تسلمْ»، وجملة الفعل الثاني هي بدل من جملة الفعل الأول أيضًا، للبيان والتوكيد.

فالسلامة هي من الإثم مع الظفر بالأجر الرباني المضاعف، وليست تهديدًا أو وعيدًا، حتى يقول الأمير الثائر: «من ينزعُ مني مُلكي؟ إني سائر إليه». ثم هي تقتضي العظة والتبصّر لينجو المخاطَب بمضاعفة الأجر، وينقذ الرعية من متاهات الضلال. وإلّا كان مانعًا لها من النجاة، يحمل إثمها إلى إثمه أمام الله، عز وجل. ليس في الكلام تهديد شخصي أو ديني أو جماعي، وإنما هو تبليغ واجب على النبي ﷺ وحق للمخاطَبين الحاكمين، لا يجوز إهمالهما أو التهاون فيهما.

أما جملة «يبقى لك ملكك»، في بعض تلك الرسائل، فالفعل فيها مضارع مرفوع بالضمة المقدرة، للدلالة على الحال والاقتران، ولم يجزم ليصير فيه التهديد بتقدير: إن تسلم يبقَ لك ملكك، وإلّا فلا. هكذا تُفهم العبارات، وما كان المخاطَبون أو التراجم ليغيب عنهم مثل ذلك. ولكن المصطادين في الماء العكر وجّهوا الأُمور في الطريق الوعر، وهيؤوا نفوس القوم للخصام والتحدي والقتال، فكان لا بد من مقاومة ذلك بالسلاح، والتخلي عن الصمت والصبر، ولا يفيد فيها تسكاب الدموع حزنًا وأسى، أو الاحتجاج والشكوى والتظلم إلى العدو نفسه:

إنَّ الحَدِيدَ تُلِينُ النّارُ قَسْوتَهُ، ولَو صَبَبْتَ علَيهِ البَحرَ ما لانا

فإن قلتَ: كانت على تلك الأحداث الفردية الطائشة أن تعالج بمنطق الحوار والاحتكام، أي: المفاوضة والفزَع إلى الحكماء للفصل فيها بين الجانبين، فيكون تهدئة وتعويض ونشر للسلام والوئام، كما هو منطق العصر الحاضر بين الدول والحكومات المختلفة، فيما يسمى بالمنظمات والمحاكم الدولية، والمؤتمرات المحلية والعالمية، ولجان التحكيم والفصل في الخلافات.

والجواب أنك تفهم الأُمور على غير وجهها، فتُسقِط أعراف العصر الحاضر المُنتنة على الماضي، مع الفارق البعيد بينهما. فما كان هناك سِفارات منظمة تستنفد ملايين الملايين جُزافًا من قوت الشعوب، ولا قُنصليات مقرَّرة ترعى حقوق رعاياها لدى الدول الأُخرى، ولم يكن مجلس للأمن أو أمم متحدة أو محكمة دولية، تفض النزاع بالوسائل السلمية المزعومة، أي: بالظلم والقهر والغطرسة، عن طريق القانون العَولمي والرأي البوشيّ العامّ.

لقد كانت الدول والإمارات والقبائل تعمل بوحي مصالحها والأهواء والمطامع، وما كان الرسول الكريم ﷺ ليستطيع أن يُلجم هذه المنطلقات من الناس، أو ليَسكت على تلك الاعتداءات المنكَرة المتكرّرة، والتكتلات العسكرية التي هيأها الروم لتحطيم دعوة الإسلام. ثم أين أنت من الواقع؟ بل أين أنت من الخيال؟ فهل يوقف العدوانَ إلّا القوة الرادعة، ومتى رأيت دولة ناشئة استطاعت أن تحفظ حقوقها أمام الدول العظمى؟ إنك تخدع نفسك وتكذب على الآخرين، وتتجاهل واقع الأحداث والفصل في المعضلات، وتريد أن تضلل الفكر والتدبر بالأباطيل والترّهات.

فلقد رأيتَ وعلمت منذ قرنين إلى اليوم ما جرى في العالم الإسلامي، من مجازر وتخريب وتحريق واستنزاف وتكفير وتضليل وانتهاك للحرمات وإبادة بالملايين، وقتل للعلماء والمجاهدين خاصة، وسلب للثروات والأوطان

والضمائر والعلوم والفنون والكنوز التراثية، وانتهاك لحرمات العقائد والعبادات والشرائع والقيم والأذواق واللغات والآداب والسلوك والعمل.

وما كان لمنطقك المذكور أن يقدم للأعداء إلّا المزيد من الطغيان والبغي والعدوان. وها أنت ذا ترى الآن ما يجري في فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والشيشان والسودان والصومال والبوسنة وداغستان، وكل بلد عربي أو مسلم، أمام بصر المنظمات الدولية، ومع وجود السِّفارات والقنصليات والمؤتمرات الإنسانية، بل بأمر منها وتوجيه وتشجيع ودعم في كل مناسبة أو بلاء.

وليس هذا خاصًّا بما تراه الآن وتسمعه. فقد كان في القرن الماضي حربان عالميتان بين الدول العظمى، لأسباب خُرافية مصطنعة. فالأُولى منهما اشتعلت لمقتل زعيم في بلد مجاور، والثانية لدعوى طيش الزعيم الألماني كذبًا وبهتانًا. والحق أن أعداءه الحلفاء هم أصحاب الطيش والطمع والجشع، للقضاء على منافس لهم جديد في ميادين الاستعمار، ولسرقة أسرار الصناعات الحربية وعلومها التي افترعها الألمان آنذاك. وهذه تصرّفات الحلفاء في ديارنا الآن، على الرغم من رفض شعوبهم لها، تبين لك الحقيقة بكل شناعاتها وحقاراتها، مع اتهامنا بأننا نحن المعتدون المثيرون للفتن والحروب.

فهل كان لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تلك الأحداث العدوانية والتحديات السياسية المغرقة في البغي، أن يلجأ إلى غير ما فعل؟ لقد جهز جيشًا يخضد به شوكة المعتدين الهازئين بالدعوة والدُّعاة، وما كاد يصل ذلك الجيش إلى مقتل سفيره حتى وجد حشد الروم على قدم وساق، فاشتبك الفريقان في موقعة حامية، استُشهد فيها ثلاثة من أبطال قُوّاد المسلمين. ولولا حِنكة القائد الجديد خالد بن الوليد، وأسلوبه الفائق في تعبئة الجيوش، لما نجا من المجاهدين أحد.[1]

---

(١) القرآن والقتال ص ٦٤.

وهكذا ترى أن المعركة كانت ردًّا على الاعتداءات والتحديات، وعلى حشد الجيوش لمتابعة العدوان. ولكن المؤرخين من المستشرقين يفهمون الأمور ويوجهونها بالخيال والأوهام، فيبتكرون لها مسوّغات لا يقرّهم عليها صغار الأطفال، بلهَ أن تصح في منطق الحق والتاريخ والحياة.

هذا «فيليب حتّى» يتجاهل الأسباب الواقعية لمعركة مؤتة، ليرى أن الباعث الجوهري هو رغبة النبي ﷺ في الحصول على السيوف المَشرَفية التي كانت تصنع في مؤتة ونواحيها، ليسلّح بها رجاله في الهجوم على مكة.[1] فالطمع في السيوف المَشرفية هو السبب الرئيسي. أما قتل السفير والمؤمنين وحشد الجيوش الرومية للهجوم فسببان تافهان في رأيه، لا يُعتد بهما أمام الجشع الحربي المزعوم.

وهذا كارل بروكلمان المؤرخ المزوِّر لماضينا عند ربائب الاستعمار وصنائعه يكتشف سببًا آخر أبعد في الخيال، إذ يرى أن غزوة تبوك قامت ليَشغل النبي ﷺ قومه عن عدم ارتياحهم لتقسيم غنائم حُنين، أو لإخضاع مَن بقي مِن نصارى العرب في ظل التوجيه الرومي إمدادًا ومساندة.[2]

بل إن فان فلوتن يزعم أن تلك المعركة غارة شنها النبي ﷺ على النصرانية، إذ يقول[3]: «كان من أثر اصطدام الرسول باليهود والنصارى في بلاد العرب أن طرد اليهود من المدينة، وشن الغارات على المسيحية». ولعلك واجد لدى المستشرقين الآخرين والمستغربين مسوّغات ومسوّغات، تدلك على منطقهم المأفون، ومساعيهم الخبيثة في تشويه الحقائق ومسخ التاريخ البشري.

أفيكون الطمع في السيوف سبب حرب إسلامية؟ ما هذا التفكير التاريخي

---

(١) العرب ص ١٩٩.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٥.

(٣) السيادة العربية ص ٩.

الحصيف؟ لعله يتفهم الأمور بمنطق العصر الحاضر، إذ كانت الحرب العظمى الثانية طمعًا في السلاح الذي طورته ألمانية، كما قلتُ، وخشي الحلفاء احتباسه بين أيدي أعدائهم، فأحرقوا العالَم للحصول عليه، وقتلوا عشرات الملايين، ودمّروا نصف المعمورة، ثم خرجوا بأباطيل الاتهام للزعيم الألماني وزبانيته.

ثم لماذا يطلب النبي سيوف المَشارف، وقد عقد معاهدة هُدنة لعشر سنوات بينه وبين أهل مكة؟ وهل ينتظر من ٣ آلاف جندي أن يخوضوا حرب إمارات وممالك عربية لإخضاعها، وهي في ظل الإمبراطورية البيزنطية العظمى آنذاك؟ وهل يتوقع من هذه الآلاف الثلاثة، وقد علمتَ بالحشد الرومي، أن تكتسح تلك الإمبراطورية لتعود بالسيوف المشرفية؟ ومَن اعتدى على مَن؟ أوَاصطدم الرسول الكريم بأهل الكتاب أم اصطدموا هم به؟ ألست ترى في هذه التصورات صبوات أطفال وترهات عجائز؟

أفتكون مسالمة اليهود بالمعاهدات الموثقة، وإثارتهم الفتنَ والحروب ومحاولتهم لقتل النبي ﷺ، اصطدامًا له بهم؟ أ ثمّ يُعتدّ تبليغُ الدعوة برسالة اصطدامًا بالنصرانية، وقتلُ المسلمين والسفير وحشدُ الجيوش لغزو المدينة المنورة وَداعةً ومُسالمة؟ أم يراد من النبوة أن تستأثر بالدعوة، كما اليهوديةِ، وتحبسها عن الناس، وهي لهم جميعًا، ليقابَل التحدي والعدوان بالخنوع والاستسلام؟ تلك إذًا هي قِسمة ضِيزى، لا يعقلها أو يقرّها إلّا المهوَّسون المتطفلون على التاريخ وأهله.

بين السمسرة والمقاومة:

لقد كانت معارك المسلمين مع الروم مقاومة سلمية ثم حربية، للدفاعِ عن كرامة الدِّين والدولة، والاقتصاصِ ممن قتل المسلمين أو ساعد في القتل أو رضي به لقطع الطريق على تبليغ الدعوة. هذا هو القول الفصل، ولا مجال

للتُّرّهات والأباطيل في تفسير الواقع المكشوف للجميع. وحسبنا ما سردنا قبلُ من أحداث تاريخية، يؤيد بعضها بعضًا، ويحقق نهج النبوة في مشروعية الجهاد، بعيدًا عن الأطماع والجشع وإخضاع الرعايا في إمبراطوريات الغير.

ثم هذه آخر جولة عرفناها أيام تموز سنة ٢٠٠٦، عُدوان اليهود ومتهودي حلفاء الغرب والشرق على الجنوب اللبناني، انقضّت فيه النصرانية الغربية المتهوّدة والوثنية الشرقية الملحدة، بأحدث السلاح والذخائر الفتاكة المحرّمة لفرض الذلة والاستسلام. ولمّا لم يكن في لبنان جيش نظامي مُعدّ للحرب، وتهرّبَ المسؤولون السياسيون عن الوطن تيسيرًا للغزو الماحق، فقد تصدّت للعدوان فئة من المؤمنين، بشبابها المدرّبين للجهاد بالقرآن والعقيدة والشريعة، تصدت لمُهِمة الدفاع وكسر نطاق الحصار والبغي والتهديم.

دارت المعارك بين جيوش عالمية بأحدث الأسلحة والذخائر والخِبرات، وشباب غض موجَّه بالقرآن الكريم وتعاليم الإسلام ويسير من السلاح والخبرة، ومتعطش إلى الشهادة في سبيل الله، في حين أن الجيوش العربية والإسلامية قابعة في جحورها، تراقب الوقائع باستخزاء وصَغار، وتحفظ أمن العدو من جميع الجهات، خشية أن تنهال عليه جماهير المسلمين لعون البلد المنكوب، بكتائب للمقاومة تلو كتائب. أفلستَ معي في أننا نحن الذين نقتّل المجاهدين والأطفال والنساء والشيوخ، ونحقّق بأيدي اليهود ما ينزل بنا من الذلة والدمار؟

بلى، ومع هذا كله فقد كانت الغلبة للشباب المؤمن أمام الغزو الهمجي الفتاك، واستطاع أن يوقف الزحفَ ويحاصر المعتدين بما معهم ومَن وراءهم في وسط الميدان، ويسجل نصرًا اعترف به الأعداء قبل الأصدقاء. لقد خطط أن يكون للغُزاة استدراج بدخولٍ جشع ثم استعصاء بلا عودة تحت نيران القصف والتفجير، وأن يسقط منهم ومن المستوطنين المجرمين مئات القتلى وآلاف الجرحى، ويجهِّز مَن بفلسطين من مهاجري اليهود أنفسهم للعودة إلى

بلادهم التي كانوا قد نزحوا منها، بقصد الغزو والتسلط والتقتيل والتخريب والإفساد والارتزاق والاستنزاف.

إنها معركة صغيرة الحجم حقًّا في المقاييس الدولية، ولكنها عظيمة القدر حقًّا في ميزان المعايير الحربية العالمية، تبشّر بسلاسل من وقائع النصر الإسلامي الكريم، لتحقيق التحرر والاستقلال والعزة السيادة. فهي تمسح بأياديها الحانية القاهرة ما كدّسته الأعوام الستون من ركام الهزائم والخزي والقماءة والاستسلام، وتزيل عن الشعب اللبناني ما علق بالأذهان زورًا وبهتانًا، من التسيب والتخنث والميوعة.

فالوسائل الإعلامية التي كانت تضخم السطح الانهزامي في لبنان، من قطاعات الفواحش والمنكرات والانسحاق، أذهلتها عزيمة الشباب المؤمن على الجهاد ودحر المخططات العالمية بأيام قلائل. وهكذا انقشع ذلك السطح الانهزامي، وامّحقت القطاعات الماجنة المستهترة، لتسود في النفوس والعقول شعلة المقاومة بكل وسائل الجهاد، حتى يتحقق النصر على العدوان، وتحريرُ العالم الإسلامي كله من ذيول العَولمة والتبويش، وعملاءِ البغي والتسلط والاستنزاف والابتزاز والارتزاق.

ولئن كانت غزوة بدر المباركة، على صِغَر حجمها وقلة حصادها، غُرّة القرن الهجري الأول وشعلة المغازي النبوية المِائَة ومنطلق الفتوح العظيمة في التاريخ... لئن كان هذا حقًّا بشهادة الله في قرآنه الكريم، إن معركة تموز المظفرة هذه هي غُرّة القرن الخامس عشر، وشعلة انطلاق المقاومة الإسلامية القديمة الجديدة الأبدية، في ميادين النصر المؤكّد والفتح المستقبلي العظيم.

ستون عامًا أمضيناها في مجاهيل دعاوى الدول العربية والإسلامية أنها تتوجّه، بجيوشها وعتادها وذخائرها وسياساتها الحربية، لمقاومة الغزاة المحتلين ديارَ فلسطين، والمعاركُ تلو المعارك تنتهي بهزائم مصطنعة متكررة، وتوسّع

للغزاة على حساب الوطن العربي الإسلامي، مع التدمير للبلاد والعباد، وآلاف القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين والمشردين في الشرق والغرب من تلك الجيوش، وتطامن بعض القيادات للاستسلام والتطبيع.

والشعوب العربية والإسلامية تضحي بأبنائها وبلادها وأموالها وأملاكها وكرامتها حاضرًا ومستقبلًا، لكسر حِدّة العدوان، ثم تعود بالهزيمة والذلة والصَّغار والخسران، دون أن نسمع بمقتل واحد أو أسره أو عزمه على الرحيل، من الغزاة والمستوطنين أدعياء اليهودية.

وآلاف المؤتمرات والندوات والاجتماعات الإسلامية والعربية والدولية والمحلية والأُممية، مع مئات الألوف من القصائد والمقالات والكتب والمصنفات والصحف والمجلات، والأغاني والأناشيد والقصص الأقاصيص والمسرحيات والأفلام والتمثيليات والمسلسلات، وفنون الرقص والرسم والنحت والرياضة، والمعارض والحفلات الداعرة والخيرية والمِهرجانات الصاخبة والخَطابات السياسية، والإذاعات والتلفزات والقنوات الفضائية ووسائل الإعلام المختلفة، والمقررات والقوانين والأنظمة لمصلحة فلسطين، وجمع التبرعات والهبات والضرائب والإتاوات وريع الحفلات... على مدى ٦٠ سنة.

كل ذلك من المساعي الغوغائية المضللة، بالإضافة إلى المواجهة بمزاعم التعقل والحكمة والصبر والمقاومة السلمية، والتمنيات الخيالية الباطلة، وشعارات الإنسانية والقومية والوطنية، والمطالبة بحقوق الإنسان والعدل والإنصاف، واللجوء إلى الضمير الإنساني والرأي الدولي والسلام العالمي، والشكاوى والبرقيات والاحتجاجات إلى المنظمات المحلية والدولية ومحاكم العدل وجمعيات حقوق الإنسان والحيوان، والمؤسسات الدينية والقومية والوطنية والمحلية والعالمية...

كل ذلك مع كل هذا أيضًا كان بنُعرة قومية أو وطنية، مجرَّدًا من الإيمان

بالله والجهاد في سبيله، [1] فإذا هو لم يقدم إلى القضية قلامة ظُفر من بارقة أمل بعودةِ الوطن والنازحين المشردين والكرامة المُهدرة والأعراض المستباحة وغسلِ الدماء المسفوحة، وبعضِ الثأر لمن قتل أو عذّب أو طرد وانتهكت حرماته وكرامة أُمته معه. بل يكون معه التقهقر والانهزامية والتطامن والاستسلام والمواعيد الباطلة بالتحرير المنتظر، مع التوجّه إلى مراحل متوالية لما يعرف بشعار: كامبديفيدات.

لم يقدم كل ذلك بارقة أمل للقضية، بل كدس النكبات إثر النكبات، لأنه كان سمسرة بالقيم والشعوب، وتواطؤًا واستدراجًا بالدعاوى والشعارات الخاوية، لتخدير روح المقاومة وشعلة الجهاد وامتصاص النقمة العارمة والاستبسال الاستشهادي، وإقناع الأُمّة أنها قامت بواجبات التحرير والمقاومة الحربية. ومن ثّمّ تستقر بأمر زبانية الاستعمار، مع تأسيس الجامعة العربية، دولة لليهود في قلب الوطن الإسلامي، وتكون كالمتفجرات المَعَدّة للتطاير والتخريب والتهديد والتوسع في أرجاء البلاد والنفوس والمصالح والثروات. تلك حصيلة السمسرة في ٦٠ عامًا، تتلمس خزاياها في كل بقعة من العالم الإسلامي والوطن العربي.

ثم تجد فئة قليلة من المؤمنين بالله واليوم الآخِر تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، فيقف الزحف العدواني، وينكسر الحصار الشيطاني، ويسارع مئات الألوف من المستوطنين المعتدين إلى الرحيل عن فلسطين بلا عودة. ذلك لأنهم جنود مرتزقة جاءت بهم رياح الغرب والشرق، يزوَّدون بالمال والسلاح والخِبرات كالحربة في قلب الوطن الإسلامي، تُحرَّك بخيوط من وثنية نصارى الحلفاء ويهودية العالم المتوحشة، لئلّا يُسمح لنا باستقرار أو طمأنينة أو استعداد بالقوة والرباط.

ولما سُدت السبل من كل صوب، على الغزاة في هذه المعركة الأخيرة، إذ تم حصارهم تحت نيران المقاومة، وإعدادهم للإبادة دُفعة واحدة، قامت

---

(١) انظر اليهود المعتدون ص٢٦٨ - ٢٧١.

قيامة دول العالَم تسعى لإنقاذهم بدعوى الحرص على السلام وحماية لبنان. وقد شاركت في ذلك أيضًا مؤتمرات الدول العربية لوقف القتال، وتمكين بقية الغزاة من الانسحاب بسلام، استعدادًا لمرحلة أُخرى يكون فيها اليهود أشد بأسًا وأكثر تهيُّؤًا وأملًا بالنجاح.

بل لقد اقترح المؤتمرون هؤلاء وفرضوا على البلد العربي المغزو جيوشًا من أعوان اليهود، تنزل في جنوبيه، لتُمد مرتزقتَها بالسلاح والمال والتآمر والجاسوسية والتهريب، وتهيمن على لبنان وتفصله عن سورية والبلاد العربية، وتخنق المقاومة الإسلامية بما لها من سلطان دولي وقوى متميزة، وسماسرة يؤيدونها ويهيئون لها سبيل التحكم والبغي والتخريب. وهكذا نجا الغزاة من الفناء المحقَّق، وكان زعم تخلّص لبنان من الغزو والحصار، فقُطع عليه طريق النصر النهائي، ليصبح تحت الوصاية المؤسِّسة للاحتلال اليهودي، والراعية له في كل مجال ومحفل وميدان.

وفي هذا عِبَر واعتبار، ذكرنا بعض ما مضى منه، ولنا شيء أغفلته وسائل الإعلام والتوجيه في الوطن العربي والعالَم كله. ألا وهو القفزة العالية التي حققها التوجيه القرآني وأدب المقاومة الواقعي في نفوس المجاهدين للعدوان، مقابل انهزام دواوين الشعر والأناشيد والأغاني ونُفايات الحفلات والمِهرجانات والخطب والمؤتمرات والمقررات والشعارات الباطلة.

فقد استطاع الوعي الإسلامي في عدة سنوات، من الترشيد المؤمن والتوجيه الأدبي العسكري الصالح، بعيدًا عن الفنون برُمّتها والشعارات الواهمة، أن يغرس العزة والإيمان والفداء في قلوب الشباب، ويجهزهم للمقاومة واستقبال الجهاد الحربي باستبسال نادر المثيل، يضعضع مقاييس السياسة المحلية والوطنية والقومية والدولية في العالم. وبذلك تحصل بعد ٦٠ سنة أول دحر منذ بضع سنوات لاحتلال اليهود جنوب لبنان، فكان الجلاء قسرًا، وتحرر بعض الوطن السليب.

ثم في لقاء شهر حربي واحد أيضًا، تسنى للشباب المجاهد بالسلاح الضعيف المحدود أن يمسح عن وجوه مليارين من المسلمين والعرب عار ٦٠ سنة من الذلة والاستخزاء، ويشمخ برؤوسهم معتزة مفتخرة، ويقنعهم أن الانتصار على اليهود، لا إسرائيل كما يقال لنزع الصِّبغة الدينية بالأباطيل، وعلى مَن وراءهم من دول الغرب والشرق هو يسير يسير بمشيئة العلي القدير.

فهو يسير إذا اعتمدنا على الله وحده، ونشّأنا أطفالنا وشبابنا بروح القرآن الكريم والسيرة النبوية، وبالتدريب العملي على الجهاد، والعزة والكرامة والاستشهاد، أي: طلب الشهادة في سبيل الله، لا على الأناشيد والأشعار والأغاني والفنون والشعارات الفارغة، والذلة والهوان والامّحاق ومسخ الآمال والطموحات والأشواق المتفتحة، بأساليب التجنيد العَولمي المشوِّة للنفوس والعقول، والمعطِّل لجميع القدرات عن المقاومة للبغي والثأر والانتقام من الغزاة والمُعَدّ لسحق المواطنين واللاجئين.

فالمواطن الذي فقد عقيدة الإيمان والغذاء الروحي والكرامة والآمال، وتدرب على الخنوع والذلة والانكسار والامّحاق، وافتقاد العزة والإباء والشمم تحت سياط الإذلال والطغيان، لا يعرف معنى المقاومة والتضحية والفداء، ولا يفهم معنى القومية والوطنية والإنسانية والدين والاستقلال والسيادة والاستعلاء. بل يستسلم لكل يد مذلة طاغية، ودولة غازية معتدية، وظروف مُهينة ماحقة، ليضمن لقمة العيش واستمرار البقاء، بأيِّ مستوى كان.

ومع ذاك الشموخ الحربي المذهل، الذي رفع رؤوسنا في العلاء، ولطّخ بالخزي والعار رؤوس الأعداء، فإن بعض وسائل الإعلام العربية أرادت أن تمسخ المعركة وتسلخ حقيقتها، لتعيدها إلى مستنقع السنوات الستين الماضية، فكانت تنسب النصر فيها فقط إلى المقاومة الوطنية أو اللبنانية أو العربية أو الشعارات الهلامية الرجراجة، وتغفل وجهها الإسلامي الأصيل. نعم هي

وطنية ولبنانية وعربية، ولكنها قبل ذلك كله إسلامية، ولولا هذه الصِّبغة الأخيرة لما كان لها هذا الشموخ، وذاك النصر العظيم.

فلماذا تجرّد الجهود القرآنية المؤمنة التي انقذتنا وغرست فينا روح التمكن والاقتدار؟ لماذا تجرد من ثوبها المتألق بنور الإسلام والفداء؟ ثم إذا كانت الدول العظمى، ومن معها من الحلفاء والأذناب، تخشى الإسلام والمسلمين فلماذا يخشى المسلمون والعرب ذكر الإسلام؟ حسبنا انسياقًا وراء العَولمة واستسلامًا للتبويش الخبيث ومخططاتهما الرهيبة.

لقد أريد بالغزو الأخير للجنوب اللبناني أن يقضيَ على كل مقاومة ترفض الاحتلال والعدوان، ويخترقَ لبنان إلى بقاع جديدة من سورية، ولكنه وقع هو وأصحابه ومَن وراءه في سعير المقاومة الإيمانية، فكان المجاهد الفرد بسلاحه القديم الخفيف يقابل العشرات من الغُزاة، ويحصرهم في الشعاب والوديان مع دباباتهم ومدرعاتهم وسلاحهم الفتاك المحرّم، ليصب عليهم نيرات الانتقام والعزة والانتصار.

وبذلك كانت حصيلة القتلى من جنود المتهوّدين أضعاف عدد شهداء المجاهدين، فقامت قيامة المجتمع الدولي والشعور الإنساني النبيل، لإنقاذ المعتدين من محابسهم المحصورة بنيران المقاومة الإيمانية، والمهددة مع من فيها وما فيها بالإبادة والتدمير أو الأسر والهوان. وعملًا بالمواثيق الدولية البوشية، وتنفيذًا للمؤامرات العالمية المرسومة لإضعاف المسلمين والعرب، كانت صرخة الضمير العالمي واللسان العربي، لوقف القتال وإنقاذ كرامة اليهود والمتهوّدين ومَن وراءهم من وحل الخزي والانسحاق.

ثم ترى وتسمع مسؤولًا لبنانيًا غير مسؤول يطوف عواصم الغرب والشرق، ويتصدى للقنوات الفضائية المختلفة فيعجب من افتخارنا باستشهاد المجاهدين واعتزازنا بالموت في سبيل الله، ويقول: «إننا خسرنا المعركة، وهُزمنا أمام

العدو». وقد أنكر عليه بعض زعماء العالم تلك الدعوى، وعجبوا من امرئ عربي يقول ذلك الكلام. والحق أنهم أخطؤوا في تفسيره وفهم دوافعه وتوجهاته، إذ لم يفصحوا عن الوصف الواقعي لصاحبه.

ولو أنهم فعلوا ذلك وأعطوا كل معنى عبارته اللائقة به، لعلموا أن ذلك المنهزم يتكلم بلسان الغُزاة، ولردّدوا معه مقولاته: نعم لقد خسر هو المعركة، لأنه يمثل بعمله وأقواله ونياته ومقاصده معسكر الأحلاف المتهوّد، ويسير في ركابه لتنفيذ خططه ومؤامراته، للقضاء على تفتح المقاومة، وتقديم الوطن طعمة سائغة لأسياده وحُماته ومسيّريه بتطبيع إجرامي جديد. فلا غرو أن يكون في معركة النصر للمقاومة الإسلامية هو المنهزم مع معسكره ومخططاته وأحابيله الإجرامية الخبيثة.

وأخيرًا وليس آخرًا، فإن معركة الفخار والاعتزاز والانتصار هذه لم ينفرد بها «حزب الله» بالمقاومة، بل شارك معه شُبان الجنوب اللبناني وشيوخه وبعض نسائه، وإن لم يكونوا من أنصار الحزب وعناصره. هذا ما حدثَنا إياه رجالات الحزب بكل سرور ورضًا واعتزاز.

فقد كان أولئك الجنوبيون المسلمون لا يعرفون من الحرب القتالية شيئًا، لأنهم لم يُعَدّوا لذلك وجرّدوا من كل وسائل الجهاد كبش فداء وقربان، فدرّبهم رجال المقاومة بسُويعات معدودة، وسلّموهم السلاح ليكونوا في خط النار الأمامي معهم، يحمون الوطن والعرض والكرامة، فظهرت منهم البطولات العُظمى والتضحيات الخارقة، والأعمال التي لا تحسنها جيوش عربية منظمة، أُنفقت عليها خزائن الأمة وجهود عشرات السنوات من التدريب والإعداد والتوجيه. وهذا يعني أن القضية ليست لحزب أو فئة أو جماعة، وإنما هي مقاومة إسلامية لأصحاب الوطن المهدّد بالغزو والمحق والاحتلال.

وصحيح أن التربية العسكرية لأبناء المقاومة كان فيها بعض القصور بالتوجيه المذهبي المحدود، ولم توسِّع أفقها لتنطلق في رحاب التوجه الإسلامي الخالص، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تجند أبناء الجنوب المسلم معها للفداء وسحقِ العدوان والغُزاة في أرض المعركة، وحملِهم على الاستغاثة للإنقاذ من المحق النهائي. وهكذا استطاعت التربية الضيقة المحدودة أن تفعل الأفاعيل، وتحقق نصرًا هزَّ العالَم كله، وخرّب على الحلفاء المتهوّدين ما كان عندهم من خطط وآمال وتطلعات.

فما قولك في معركتنا هذه، إذا جُرّدتْ لله ـ جل ثناؤه ـ ولرسوله ﷺ، وطُبعت بطابَع الإسلام الإسلامي الأصيل، كما صنع الرسول العظيم في مغازيه المِائَة، بعيدًا عن التمذهب بالإسلام الأمريكي والاتحادي والفرنسي والروسي والسوري والمصري والإيراني والباكستاني والسوداني والأردني والأُصولي والسلفي والتكفيري والصوفي والوهابي والكواكبي[1] والبوشي...

---

(١) الكواكبي: المنسوب إلى عبد الرحمن الكواكبي الذي انقذته من جزاء خيانته القنصلية الإيطالية في «مَسقط» بتوصية من القنصل الإيطالي في «حُديدة»، واحتضنته في سفينة حربية ضخمة بقبطانها وبحّارتها مع الخدم والجنود والسلاح والذخائر، والتغذية المادية والمعنوية، وهو يطوف في العالَم ناعمًا بالعناية والحماية العسكرية. ولذلك أُعجب بالأنظمة الأوربية الماسونية في فصل الدين عن الدولة، فزاد في كتابه «أُمّ القرى» ص ٢٠٨ ـ ٢١١، بعد طوافه هذا وتشبّعه بالروح الصفوية المعادية للخلافة الإسلامية، زاد وجوب نقل النظم السياسية من أوربة إلى بلاد المسلمين، فدعا إلى تأسيس باباوية كواكبية في الحجاز، تمثل الجانب الروحي الخالص ولا دخل لها في السياسة العامة والأمور العسكرية. ولم يكن تخصيص العرب بالخلافة هذه إلّا تعبيرًا عن عداوته الصفوية للعثمانيين، وتقية لتمرير المخطط المشبوه، ثم تنتقل الخلافة إلى الصفويين بما يواتي من الظروف السياسية والعالمية.

أما سائر الأقطار العربية والإسلامية فتقوم فيها، كما يقول، مملكات ودول وإمارات هي في حلّ من التزام الجانب الروحي وما يتفرع عنه شرائع وأحكامًا وأنظمة وقوانين. وقد سانده في كثير من ذلك أساطين الاستعمار وعملاؤهم، بالفكر واللسان والمال والسلاح والأبدان، =

= حتى صار رمز النهضة والفكر والإصلاح والبيان للعروبة والإسلام، وأقيمت له الاحتفالات في مدينة حلب، لأنه أول من طالب بفصل الدبن عن الدولة بين المسلمين، كما صرّح أحد حفدته في احتفاليات مدينة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية، مدعيًا أن ذلك كان لمراعاة عواطف الآخرين.

فالكواكبي هو الجدّ الروحي لـ «طه حسين»، وحامل لواء أصول: «مستقبل الثقافة في مصر» والمبشِّر به، وأول مستغرِب في الشام، ورائد العلمانية في الشرق، هذه النزعة الأوربية التي انتقلت إلى ديارنا من قنوات الانبهار والامّحاق، حتى زعم بعض الإسلاميين أنها ستكون جسرًا لنصر الدين الحنيف. فقد نسي هذا الداعية أو تجاهل ما تقوم عليه العلمانية من عداوة لكل شيء غيبي، وما توجِّه به مشروعاتها العلمية نحو الإلحاد والكفر بالله والأنبياء واليوم الآخر، وتحارب به أبسط مظاهر الإيمان، كالحجاب الإسلامي للمرأة مثلًا، والسخرية بالرسول والقرآن الكريم وكل طابع شرعي قويم.

ولقد نفذت الدول الأوربية مخطط الكواكبي فيما فرضته على العالم الإسلامي، فور احتلال أراضيه، إذ جعلت منه ممالك ودولًا وإمارات ومحميات، بعيدة عن الإسلام في الواقع العملي، حول ما في الحجاز من دولة تدعي الشرعية وتنغمس في مستنقعات العَولمة والتبويش. وبهذا كانت جحافل الاستعمار هي المبرمِجة المدبلِجة للكواكبي، بما شاع في ديارها، والمحققة لأحلام زعيم الإصلاح الديني، كما يُسمّى زورًا وبهتانًا، ولِما كان قد رسمه أيضًا قبله بقرابة ١٠٠ سنة مستر بلانت في كتابه: مستقبل الإسلام.

ومع هذا فإن كثيرًا من الكتاب والدارسين والباحثين والمدرسين يتجاهلون أو ينكرون ما في «أُمّ القرى» من ذلك، لأنهم يقرؤونه في ضوء الهالات الإعلامية التي أُحيط بها، من تمجيد وتعظيم وزعم الريادة الإصلاحية للعروبة والإسلام، أو يتجاهلون الحقائق جريًا مع التيارات العارمة للكسب الرخيص.

انظر إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٧: ٤٨٠ و ٤٨٢ والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١: ٢٥ و ٢٨٠ - ٢٨٤ و«عبد الرحمن الكواكبي» لقدري القلعجي والرحالة كاف لعباس محمود العقاد ص ٤٢ و ٥٨ و ١٠١ وتركية ميدان الصراع بين الشرق والغرب ص ١٣٣ - ١٣٥ و ص ٩ - ١٠ من كتابنا: «ولا يزالون يقاتلونكم في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان». فليرجعْ دعاة التوثيق إلى أوراقهم في المصادر العلمية قبل أن ينكروا الحقائق الناصعة البيان.

والعَولمية، وعن الارتباط بدولة أو جماعة مقيَّدة بخط سياسي محدود؟

هنالك تكون المعجزات الربانية التاريخية الخارقة، في اكتساح السياسات العالمية، وزلزلة المقاييس العسكرية والدولية، ومحق خطط الاستعمار المرسومة منذ خمسة قرون، تهددنا وتسحقنا في كل ميدان. وهذا الروح المتألق هو ما يُفزع دول البغي والعدوان، ومَن ومعها مِن سماسرة القيم والشعوب في ديار الإسلام. فإلى ذلك السبيل، لنحيي مسيرة المقاومة بالوجه القرآني الناصع والنهج النبوي الكريم في سبيل الله.

ثم كيف إذا أحيينا سُنّة الرسول العظيم فيما كان عليه أهل الصُّفّة ﷺ، من رباط في سبيل الله، لتعلّم القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة ومدارَستهما في العلوم المختلفة والتهيُّؤ للمقاومة الجهادية؟ كيف إذا جعلنا حول كل بلد إسلامي فيه محتلٌّ، كفلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان والصومال والبوسنة وداغستان ومنغولية، وفي حدود كل ما يلاصق منه دولة معادية ثُغورًا للمرابطة، على غرار ما يقوم به «حزب الله»، ليعيش الشُّبّان والكهول دائمًا من جميع الفئات في ممارسة أساليب القتال، والاستعداد لمواجهة المعتدين الباغين، مع الأسلحة والذخائر والخطط العملية الفعالة؟ كيف كيف كيف؟

إذ ذاك تولّي جيوشُ الاحتلال ظهورها بالهرب من الوطن الإسلامي، إن شاء الله، وتحاول الخروج منه، ولو بلا جلد ولا ماء وجه، كما هي تتمنّى الآن في أفغانستان والعراق وفلسطين والصومال، ثم تعيد النظر ملايين المرات قبل أن تفكر في تهديد بقعة أو دولة أو جماعة إسلامية، بلهَ أن تقوم بعمل عسكري لغزوها، هي ومن خلفها من قراصنة الحلفاء وسماسرة السياسة الدولية أو المحلية.

وخير دليل على ذلك ما ذكرناه عن المعركة بين الإسلام واليهودية في جنوبيّ لبنان. فقد استطاع أدب المقاومة الواقعي، بشهر واحد من الجهاد

الاستشهادي والتوجيه الإسلامي، أن يطوي طوفان الوسائل الخُلّبيّة كلها، ويغيّر وجه التاريخ الحربي الحديث، ويرسم لمعاركنا مع اليهود وما وراءهم من دول البغي والعدوان خطًّا جديدًا، يبشر بالنصر المحتم والعزة والسيادة - إن شاء الله تعالى - بعد أن كان التوجّه الهلاميّ يراوح في عملياته، ثم يتراجع إلى الوراء، لاعتماده على قيادات مشبوهة تفسد كل خير.

وقريب من هذا التراجع الخبيث ما كان في العراق وإيران وما زالت آثاره حتى الآن، من عمليات استقلالية تحررية في أواخر القرن الماضي، إذ اعتمد أحدهما على الدولة الأمريكية والثاني على الدولة اليهودية، فكانت المقاومة القتالية بينهما خسارة للطرفين، ولجميع الأمة الإسلامية. وكذلك ما عرفناه في تلك الآونة عن مقاومة الدول الإسلامية للاتحاد السوفييتي، كالبوسنة والشيشان وأفغانستان، إذ لم تعتمد على جهادها الإيماني الخالص، وانقادت في ذلك للدولة الأمريكية التي تمدها بالسلاح والتوجيه، فرجعت خاسرة إلى حظيرة التبويش والعولمة.

ولكنها الآن أدركت خطأ الاعتماد على غير اللهِ والمقاومةِ الجهادية المؤمنة، فشقت لنفسها طريقًا جديدة، يكون للعمل وأدب المقاومة فيها الفاعلية العظمى، ولتباشير النصر والتحرر قرب تحقق، بفضل المولى عز وجل. فقد عرف كل منا سبيل التحرر والاستقلال، مجردًا من التبعية والعبودية لغير الله، فأصبح للمقاومة الحربية فينا طابع متميز من الصفاء والوضوح، يكون للأدب والتوجيه فيه أثر كبير، وللاستقلال والسيادة وجه مشرق محقق، بعون الله.

الخاتمة

حصائل البحث

نقف الآن نلتقط أنفاسنا، بعد تلك الجولة الشاملة للمقاومة سلمًا وحربًا في حياة النبوة المطهَّرة، وما اتصل بها في العصر الحديث وأيامنا هذه، نلتقط أنفاسنا ونتملَّى الوقائع، بما فيها من جهاد غزوات وسرايا وبعوث ومقاومات مختلفة الأشكال، لنستقصي بشيء من التفصيل ظواهر كل منها ذوات الصلة ببحثنا، ونحدد ما كان منها أقرب إلى الصواب، في تعزيز مسوّغاته الشرعية وتحديد مراميه وتوضيح مقاصده، وتعيين القيمة التاريخية لأدب المقاومة الإسلامي.

تأريخ المغازي

عندما نقلّب صفحات التاريخ، لمتابعة أخبار الغزوات والسرايا والبعوث المباركة، تبهرنا الجهود المخلصة الطيّبة التي بذلها العلماء في الجمع والعرض والبسط والتوثيق والتفسير والبيان. فقد نقلوا إلينا الوقائع بكثير من التفصيل والاستيعاب، مع تعيين الأزمنة والأمكنة والأشخاص وأنساب المشهورين منهم والمغمورين، والأسانيد النهجيّة الموثَّقة والعبارات المؤكِّدة والتعليقات الموضِّحة، بشكل لا ترى له مثيلًا في سائر تواريخ العالم كله.

وقد استطاعوا بما بذلوا وأصّلوا من أساليب ومناهج، وعرضوا من وقائع وأحداث وأوصاف ومقولات وحوار وتحليل للظواهر والأجواء المرافقة، أن يؤسسوا عِلمًا جديدًا للتراجم الشخصية المفصلة، ما كان له ذكر أو معرفة من قبل وليس له نظير من بعد، هو علم المغازي والسِّيَر. وإنك لترى في المصادر

التراثية عشرات المجلدات، على ممر العصور وتباعد الأقطار، تتناول هذه الأحداث والوقائع، من زواياها المختلفة، لتقدم الصورة الشِّبه الكاملة والمعلومات القريبة من الوافية، في حدود الإمكانات المادية والمعنوية.

ذلك لِما كان هؤلاء الرواة والعلماء يعتقدونه، من أنهم يقومون بعبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يروُون ويسجلون من عملهم الكريم، وأنهم يحملون إلى الأُمة المسلمة نفحات عزيزة من حياة المقاومة الجهادية لحبيبهم الغالي، الرسول الكريم ﷺ. إنهم يرسمون دستور النشاط السياسي والتعبوي والحربي للأمة الإسلامية، ويقدمون لها الزاد الإيماني لتخطيط الحاضر والمستقبل في جميع تلك الميادين. فلا بد أن تتكاتف الجهود الطيبة البالغة الإخلاص، وتتعاون الوسائل وتتجرد النيات، للإحاطة بما يمكن من الأحداث والمقولات المرويّة والجزئيات المختلفة، وللعرض الوافي المفيد لما يتيسر في حياة الأمة المقتدية بقائدها العظيم.

ولهذا أيضًا فإنك واجد اتفاقًا ظاهرًا بين المؤرخين في كثير من مسائل التعيين والتحديد والأخبار العامة والخاصة، والعبارات الواردة في ثنايا الأحداث والنصوص المسوقة. الأمر الذي يساعد الباحث على الوصول إلى قواعد من الطمأنينة، فيما يعرض ويحلل ويستخلص من النتائج العلمية المَرْضية.

لكن ذلك الاتفاق الباهر لم يحُلْ دون خلاف بينهم في بعض المغازي، من حيث تعيين الأعداد والعناوين والأزمنة والأمكنة والقيادات، وتوالي جانب من الأحداث والتفصيلات والحصائل الحربية. ونحن قد عرضنا بعون الله ـ عز وجل ـ وتيسيره قدرًا مهمًّا من الإيجابيات والسلبيات في الفصول الماضية، ويمكننا أن نتلبث هنا، لتلخيص ذلك وبيان ما يتحصل.

فأكثر علماء التاريخ يفرّقون بين الغزوة والسَّريّة، كما ذكرنا في التمهيد

لهذا البحث. غير أنه قد يعبِّر بعضهم بالغزوة عن الوقائع الحربية عامة، ثم يُغفل منها ما لم يكن فيه قتال أو أحداث مهمة، فيختلف بينهم تعداد المؤرَّخات.[1] ولذا ترى أن الغزوات في المصادر التراثية هي ١٩ أو ٢٧، والسرايا هي ٣٥ أو ٣٦ أو ٣٨ أو ٤٧ أو ٤٨ أو ٦٥.

وإنما كثر الخلاف في عدد السرايا، لأن مفهومها الاصطلاحي فيه وجهات نظر بين العلماء، ولا مشاحّة في الاصطلاح. فحصول الحرب والقتال قد يُشترط في السَّريّة، وبَعث فرد أو أفراد للقاء شخص واحد قد يُستبعد منها، والوقائع المتقاربة زمانًا ومكانًا ومقصَدًا قد تُجمع تحت عنوان واحد، فيكون هذا وذاك وذلك عوامل مؤثرة في التعداد والتعيين للأحداث المرويّة. أما في الغزوات فقد يكون القصد منها فقط، لِكل مسيرة حربية نبوية، أو لِما كان من ذلك ذا معارك قتالية أو حدث كبير وأثر ظاهر في التاريخ الكريم. فلا غرو أن تقل هنا عوامل الخلاف والنتائج الصادرة عنها.

ونحن قد التزمنا الاصطلاح العامّ المعتبر لكل من الغزوة والسَّريّة، ثم حاولنا استقصاء ما انتثر في بطون المصادر التاريخية وتراجم الرجال من ذلك، فكان لدينا ١٠٠ حدث حربي[2] في حياة النبوة، بل في المرحلة المدَنية منها خاصة. وهذا يعني أن السنوات العشر التي قضاها الرسول ﷺ في المدينة المنورة اقتضت تلك الوقائعَ المِائَةَ، من بين غزوة أو سرِيّة، ولو وزعتَها أنتَ

---

(١) انظر السيرة ٢: ٦٠٨ - ٦٠٩ وتاريخ الطبري ٣: ١٥٤ - ١٥٨ والطبقات الكبرى ٢: ٥ - ٦ ومشارع الأشواق ص ٨٤٤ - ٨٤٥.

(٢) تحصّل هذا، فكان بعدد الأسماء الحسنى للمولى - عز وجل - مع لفظ الجلالة. انظر تفسير الجلالين الميسر ص ٢٩٣ والحديث ٣٥٠٢ في الترمذي. وقد أغفلنا قليلًا من الوقائع المارة في بعض المصادر، لأنها لم تكن ذات وضوح وبيان وتعيين، أو ربما كانت تكرارًا لوقائع مشهورة، ولكن بأسماء مخالفة.

بالأسلوب الرياضي الصِّرف كان لكل سنة ١٠ منها.

هذه حال القائد الأعظم في سياسته الدولية من حياته الكريمة، وقد تجاوز الخمسين من عمره المبارك: جهادٌ حربي على جبهات متعددة، تقتضي الوعي للواقع وسعة الأفق والبذل والتضحية والفداء، وتتطلب التنسيق والتوزيع والتوفيق والمشاركة أو التوجيه، وتفرض تقبُّل محصّلات الشهادة والجراح والأسر واليُتم والتأيُّم والسبي والسلب والخراب والدمار.

كل هذا مضاف إلى أعباءِ الدعوة بين جاهليين وثنيين ونصارى ويهود ومجوس وملحدين، ومراعاةِ أحوال الجماهير من مؤمنين ومنافقين وكافرين، ومخادعين وغادرين ومرتدّين وخائنين ومؤتمرين ومتنبئين، ومتربصين ومحاربين مقاتلين. ثم لا بد من المسيرة الحكيمة بين هؤلاء جميعًا للنجاح في التبليغ والهداية، وتأسيس دولة منتظمة رائدة، في بيئة من الجهل والقبلية والفردية المغرقة، والزعامات المتجذرة منذ عشرات القرون والعشرات.

ولقد استقصينا تلك المغازي، بحسب مقدرة الإنسان وتيسّر الإمكان وما تبقى من المصادر في هذا الزمان وهذه البيئة المحاطة بالحرمان، ولم يفُتنا إلّا النادر من الوقائع لغموض عرضه وانفراد مآخذه بالإشارة أو العبارة الغامضة المقتضبة. ومن ثَمّ كان علينا أن نوزع ما تحصل من ذلك لدينا، بين الجماعات المتمايزة التي أثارتها وانصبّت فيها وعليها، لنستطيع دراسة الأسباب الشرعية، في تتبع كل فئة على حدة، بتبيُّن ما يؤدّي بعضه إلى بعض فيها، ويفسّر الحركة التاريخية للوقائع المَعنيّة بها. وعلى هذا كان لدينا أربع فئات: قريش والقبائل وبنو إسرائيل والروم.

وعندما وزعنا تلك الوقائع لنميز نوعيها المذكورين قبل، كان بين أيدينا: ٣٠ غزوة و ٧٠ سرية، ومن الغزوات ١٣ لقريش وشقيقاتها و ١٠ للقبائل

العربية و ٥ لبني إسرائيل و ٢ للروم، ومن السرايا ١٠ و ٥٠ و ٥ و ٥. وهذا ما ستراه بعدُ في جداول وحقول مفصلة، مع تحديد التنسيق الزمني وتواليها فيه، إن شاء الله تعالى.

أما الخلاف في عناوين تلك الأحداث فقلّ في الغزوات، لأنها تعيَّن باسم مكان حدوثها أو الجماعة المقصودة بها، وكثر في السرايا، لأن المؤرخين قد يطلقون على السَّرِية اسم مكانها أو قائدها أو حدث بارز فيها أو مَن سرت إليه، قبيلة أو جماعة أو فردًا. ولمّا كان بعض ذلك قد يتكرر فيه اسم المكان أو الجماعة أو القائد، لتعدد سراياه، اضطُررنا ان نعدّل منه ما أمكن، بتبديل المكرَّر تمييزًا له ودفعًا للتداخل والاختلاط والأوهام.

وأما قضية الزمان فمبنية على اختلاف المؤرخين في تعيين السنة الأولى من الهجرة، إذ كان منهم من يرى أن ربيعًا الأول الذي حصلت فيه هجرة الرسول العظيم يمثل بدء التاريخ، فهو مع أشهر سنته عام واحد، وبعدُ تكون الأعوام التالية. هذا في حين أن الآخَرين جعلوا شهر محرّم التالي لتلك الأشهر بدءًا للعام الأول الهجري. ولذا وبالإضافة إلى اختلاف آخر في تعيين تاريخ بعض المغازي، حصل بين العلماء والرواة ما تقف عليه في المصادر التراثية من تعدد التواريخ للواقعة الواحدة أحيانًا. ونحن اعتمدنا المذهب الأول، للخروج من تعدد الأقوال والروايات.

وقريب من هذا ما كان من التواليات المختلفة للنسق التاريخي أيضًا، إذ ترى في مصادر التراث تباين أشكال ذلك في قليل من الوقائع، يُجعل بعضها متقدمًا والبعض متأخرًا، تبعًا لِما جاء في الروايات المتعددة. وقد اعتمدنا على أشهر ما قيل في هذا، مستفيدين من عبارات تساعد على تحديد التتابع في النصوص المروية.

وأما الخلاف المكاني فتفسيره أيسر مما مضى. إذ قد تحدث المغزاة في أرض لها تسميات عامة وأُخرى خاصة أو أخص، وقد تنتقل عملياتها الحربية بين عدة مواضع، فيختار الراوي أو المؤرخ من ذلك ما لا يختاره غيره، ومن ثَمّ يكون توزع واختلاف في التسميات، والتباس أو تداخل بين بعض الوقائع.

وأما القيادات فمحصور خلافها في السرايا، وقد خلت الغزواة من ذلك لأنها كانت بقيادة الرسول ﷺ حصرًا. ولما كان بعض السرايا قد تتعدد دفعاتها، مع رئاسات متمايزة، فقد سبب ذلك في بعض المواقف اختلافًا بين العلماء، إذ يختار كل منهم ما يغلب على ظنه أنه أقرب إلى البيان والتعيين، أو ينقل ما وصل إليه من خبر تلقاه دون غيره.

وأخيرًا فإن الأحداث الجزئية والأوصاف المتفرقة، للمَغزاة الواحدة، جاء عنها مقولات تختلف في نوعها وأعدادها أيضًا. وذلك لِما وقع عليه بصر الراوي أو وصل إليه عن المشاهدين، وهو أمر مألوف في مثل هذه الحوادث، يشهدها كثير الناس من زواياها المختلفة، فتأتي الأقوال في صور متعددة متوافقة أو متباينة.

ومع هذا كله، فإن مجموع الوقائع كما جاء في المصادر المتعددة لم يمسَّه شيء من التغيير أو الانتقاص، وما زال بما فيه من الخلافات المذكورة يقدم للباحث مجالًا واسعًا للدراسة والتحليل والاستنتاج، ومواد وافية لاختيار ما هو أقرب إلى الصواب والبيان. ولن ترى في تاريخ العالم كله حتى اليوم نظيرًا لذلك في الأمانة والدقة والاستيعاب والوفاء.

فنحن جميعًا في هذا العصر ما نزال مُعَولمين بأباطيل الحلفاء عن حربَينِ عالميتين في القرن الماضي، تتهم الألمان وأنصارهم بالأكاذيب والترهات لتسوغ سرقةَ المخترعات الحربية والعلمية، ومنْعَ ألمانية أن تتزعم السياسة

الاستعمارية، وتُنازع الحلفاء في السيطرة على العالم واقتسام الغنائم.[١]

وكذلك حال التضليل فيما يبلغنا عن مجازر فلسطين وأفغانستان ومنغولية والشيشان والعراق والسودان والصومال والبوسنة ولبنان... لسرقة الثروات الطبيعية وخيرات البلاد وتلويث الإنسانية والإنسان. بل إن ما حدث بالأمس في بقعة قريبة منّا لانعرف عنه إلّا ما تصطنعه اليهودية العالمية، في وسائل الإعلام من قنوات وإذاعات وصحف ومؤتمرات، ولا تسمح بغير ذلك مما يسيء إليها أو يخزيها بهزائم سياسية أو حربية وفضائح إنسانية شنيعة وكأنها تردّد على لسان القيادة الأمريكية الطاغية مقولة فرعون: ﴿ما أُرِيكُم إلّا ما أَرَى وما أهدِيكُم إلّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾.[٢] وهكذا يعيد التاريخ نفسه، لنحظى بتوجيه فرعون جديد.

وما وعدناك به من الجداول والرسوم تراه بعد ص٤٠٠.

---

(١) لذلك يتهمون القيادة الألمانية بالجنون والطيش والتهور والطغيان والعدوان وإثارة الحروب، ويضخمون شأن المحرقة اليهودية، لاستدرار عطف العالم على شياطين البشر. والحق أنهم هم ذوو تلك الصفات، وأمثال هذه العقوبة المذكورة قدرٌ محكوم به على خيانات اليهود وجناياتهم إلى الأبد، جاء الإقرار به على لسان سيّدهم حُيَيّ بن أخطب منذ ١٤ قرنًا حين قُدّم للقتل، فخاطب النبي ﷺ بقوله: «أما والله، ما لمتُ نفسي على عداوتك، ولكنه من يَخذُلِ اللهَ يُخذَلْ»، ثم توجه إلى الجميع قائلًا: «أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله. كتاب وقدَر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل».

ونحن كنا ننتظر أن تشمل تلك المحرقة أعدادًا أضخم مما حصدته، لإنقاذ العالم من أكبر قدر ممكن من شرور بني إسرائيل وأقذارهم، وتخفيف المآسي والجرائم الدولية التي يسعون لها ويوجهون القادة السياسيين والناس إليها. لكن إرادة الله غالبة، ولا بد أن تبقى في العالم شراذم من سلالة إبليس وشياطين البشر متفرقة، ثم تجتمع في الأرض التي بارك الله حولها: فلسطين. وهناك تكون الملحمة الحقيقية، بإبادة اليهود الأصليين على أيدي المؤمنين، وهرب المرتزقة المتهوّدين إلى ديارهم التي جاؤوا منها جشعًا وطمعًا في الصيد القذر والكسب الرخيص.

(٢) الآية ٢٩ من سورة غافر.

المسوّغات العامّة للمغازي:

وقف العلماء في القرون الإسلامية أمام الوقائع الحربية النبوية، أكان فيها قتال أم لا، ينظرون في حقائق حدوثها والمسوّغات التي سببتها، فانقسموا بحسب ما وصل إلينا من المعلومات خمسة فرقاء، لكل منها مذهبه في مفهوم الجهاد، يريد أن يجد له في السُّنّة المطهَّرة أدلة تؤيده ويُحتج بها، وإن كان البعض من هؤلاء قد تقلب بين أكثر من فريق في مقولات مختلفة. ونحن نستطيع أن نلخص ذلك فيما يلي:

١ - **القيام بفريضة الجهاد**: وهذا يعني أن المغازي كانت تحقيقًا للجهاد القتالي، دفاعية ردًّا على عدوان سابق أو متوقع، وهجومية بدءًا بقتال الكفرة بعد دعوتهم إلى الإسلام، إذا رفضوا الاستجابة له أو لم يسلّموا السلطةَ النبيَّ الكريم. وذلك تحقيق لفرْضية الجهاد وللحكم الشرعي في البلاد.

أما الدفاعي فأمره يسير واضح في الأذهان، وأما الهجومي فهو الجهاد الطلبي، مرادًا به إزاحة ما يقف في سبيل تعميم الدعوة في العالَم من عوائق، سواء أكانت دولة أو أفرادًا أو جماعات، وإن لم يظهر منهم عدوان أو منع. فواجب القيادة الإسلامية، كما يرى أصحاب هذا المذهب، هو إزالة ما يعوقها من تلك العقبات، لتتسلم هي أزمّة الحكم بنفسها وتنفذ الشرع الحنيف في جميع البلاد، أدخل الناس في الإسلام أم لازموا أديانهم السابقة، وصاروا أهل ذِمّة رعية للدولة الإسلامية؟

وهذا ما عبر عنه بعض الفقهاء،[1] كالحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤)، باستجابة رسول الله لفريضة الجهاد في قتال الروم بغية نشر

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢: ٥ والمغني لابن قدامة ١٠: ٥٧٥ ومغني المحتاج ٤: ٢١٠ وبدائع الصنائع ٧: ١١١ والمجتمع المدني ص ٢٢٧ والعلاقات الدولية في القرآن والسنة ص ١٢١ - ١٣٢ ومعارك خالد بن الوليد ص ٣٧.

الإسلام، وإن لم يكن منهم اعتداءات، كما قيل. فجماهير الروم أقرب الناس إليه، وأولاهم بالدعوة إلى الحق، لقربهم إلى هذا الدين وأهله. وفي ذلك تنفيذ لقول الله، سبحانه وتعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفّارِ، ولْيَجِدُوا فيكُم غِلظَةً﴾.(١)

ثم جرى على تعميم هذا التوجّه بعض المعاصرين، فبسطوا أمر المغازي من خلال منظورهم المذهبي، واستبعدوا محاولات التعليل بمسوّغات دفاعية لكل منها. بل حكموا على تلك المحاولات بأنها لا تغيّر مفهوم النشر للإسلام بالسيف، ولا تؤثر في تفسير الوقائع. فمشروعية الجهاد تقتضي إخضاع القبائل العربية المشركة، وتوسيع المجال الإسلامي بإخضاع النصارى من العرب، ومجابهة الروم قبل اعتدائهم أو ظهور قصد عدوان منهم.

وعلى هذا التوجه المعتقد لديهم، فإن السُّنّة النبوية تبيّن أن الجهاد بدءُ الكفار بالقتال، وهدفه الأول إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام. وهو ظاهر في مبادأة الرسول قريشًا بالمواجهة الحربية، حين خروجه إلى بدر لأخذ القافلة بالقوة، دون أن تبادر قريش بحرب أو عدوان على المدينة، وفي سَرِيّة مؤتة وغزوة تبوك لقتال الروم، ولم يكن منهم غزو أو حرب للمسلمين قبل. وقد كان رسول الله ﷺ يوصي قادة السرايا حين يوجّههم بقوله: «اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله».(٢)

وإذا كان لبعض الغزوات تفسير دفاعي، كما جرى في أُحد والخندق مثلًا، فليس من الواجب عند أصحاب هذا المذهب متابعة ذلك أو الاهتمام به لأنه قليل الحصول، في حين أن أكثر المغازي حصل هجوميًا بقصد المسلمين مبادأَةَ القتال، لنشر الإسلام وتطبيق شريعته على الناس كافة.

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة التوبة.

(٢) الحديث ١٧٣١ في مسلم ص ١٣٥٧.

٢ ـ **الجهاد الدفاعي**: وهذا يعني أن تكون التحركات العسكرية لمقاومة اعتداء، دفاعًا عن النفس والأهل والمال والوطن، أو عن الدعوة والمؤمنين بها، لقتال من أعلن الحرب أو باشر في الاستعداد لها أو قام بالقمع للمسلمين والمنع لدعوة الإسلام.

وهنا نرى ما جاء عن الإمام ابن تيمية، إذ يقول في تفسير جميع العمليات العسكرية النبوية:(١) كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه لم يقاتله. وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي، تنطق بذلك، وهو متواتر من سيرته ـ عليه السلام ـ إذ لم يبدأ أحدًا بقتال.

ثم يخص الإمام وقائع النصرانية بالذكر، فيبين أنها كانت بمراسلات ودّية بين الجماعتين، فدخل في الإسلام من دخل برضاه واطمئنانه، ولكن بعض النصارى اعتدوا على من أسلم منهم فقتلوه. ولمّا بدأ النصارى بالاعتداء على المسلمين كانت سَرِيّة مؤتة ـ وهي أول قتال قاتله المسلمون للنصارى ـ حيث اجتمع منهم خلق كثير في الشام للحرب والمواجهة.

وقد كان من قبل هذا القول للإمام الشافعي رضي الله عنه موقف مماثل له، مع خلاف يسير في بقية المشركين من العرب. فهو يرى أن الآيات المَعنيّة بالجهاد نزلت في أهل مكة، وفُرض القتال لهم إطلاقًا، ثم نسخ ذلك الإطلاق بعد الحُديبية، بالنهي عن قتالهم حتى يبدؤوا هم به. وأما من يجب جهاده بعد هؤلاء فالمشركون العرب حتى يسلموا، الأقرب منهم فالأبعد، والأنكى منهم فالأضعف، ثم المعادي المحارِب من أهل الكتاب وغيرهم، حتى يسلم أو يستسلم ويعطي الجزية.(٢)

---

(١) رسالة القتال ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) الأم ص ٧٥٩ ـ ٧٦٨.

وقد تابع ابنَ تيمية، في رأيه كاملًا، بعضُ الباحثين المعاصرين، فكان لهم القول بالمذهب الدفاعي. وهذا ما تراه فيما فصّلوه من أقوال،[1] إذ يكون قتال المسلمين لمن يعتدي عليهم أو يظلم أو يثير الفتن. فهو الموقف الدفاعي المحض، وما يقال من التسلسل المرحلي من الدفاع إلى الطلب هو في رأي هؤلاء تمييع للمبادئ المستقرة، وتشويه للجهاد على حساب الحق وقواعده الراسخة.

وجاء التعبير عن مجمل ذلك بأن النبي ﷺ لم يقاتل إلّا من قاتله من المشركين وأهل الكتاب، دفاعًا أو ردًّا لبغي أو قضاء على فتنة. وعُبِّر عنه أيضًا بالحِرابة من عدوّ أو مواطن، أي: المُحارَبة، وهي الاعتداء على حرمات الإسلام والمسلمين وإشاعة البغي والفساد، أو الخروج على الدولة الإسلامية أو على حكم شرعي. فمناط المقاومة بالسلاح أن يتحصل عدوان أو يتجلى ظهورُ قصده، بإحدى دلائله المتنوعة، فيكون وجوب التصدي أو الهجوم والمباغتة، لحماية أمن المسلمين ورعاية سلمهم، وتهيئة الأجواء العامّة لحياة إنسانية، تكوّن أمة متفتحة ودولة مستقرة تنشد الاستقرار والتألق والخلود.

وبناء على هذا، فلكل وقيعة نبوية تحرك عدواني سابق، من المشركين أو اليهود أو النصارى أو البغاة من المواطنين. فالذين ينادون بالتوسّعية، ويستبعدون البحث عن الأسباب العدائية والبغي، يتجاهلون حقائق التاريخ: تألبَ قبائل الشرك على الإسلام والمسلمين، وتدفقَ ١٠٠٠٠٠ رومي من موطنهم أوربة إلى حدود الحجاز، لضرب الدين الجديد ومنع تسلله إلى شمالي الجزيرة العربية، وخروجَ المتنبئين على النظام للدولة، والمنكرين

---

(١) انظر الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ص ٢٧٧ والقرآن والقتال ص ١٢٦ وآثار الحرب ص ٩٣ وأصول العلاقات الدولية في الإسلام ص ٧٧ وجهاد الدعوة ص ٢٢ - ٢٣ والإسلام ملاذ المجتمعات ص ٢٢٩ وصور وعبر ص ٣٧ - ٤٧ والجهاد في الإسلام ص ١٠٦ - ١٠٨.

لبعض الأحكام كالصلاة والزكاة مثلًا. فتفسير أصحاب السيف المغازيَ النبوية بالجهاد الطلبي بتر للأحداث عن جذورها، وهو من أغرب ما يقال.

٣ ـ **الجهاد المرحلي:** يرى بعض الباحثين أن الحركات القتالية في عهد النبوة كانت ذات صفتين متمايزتين: أُولاهما دفاعية خالصة، وهي الغزوات والسرايا التي انتهت بالخندق، حيث قال النبي ﷺ بعد تلك الغزوة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم». وفي هذا إيذان بانتهاء مرحلة المقاومة الدفاعية، لبدء مرحلة الطلب والتوسّع للدين الإنساني، أي: دعوة الناس عمومًا إلى الإسلام، وقتال كل مَن أعرض عنه، أو وقف في وجهه، أو منعه أن يبلغ مداه.

فهناك إذًا مرحلتان للجهاد النبوي: الأولى مقاومة دفاعية استمرت حتى الحُديبية، والثانية حرب طلبية كانت بعد ذلك، إذ تفرغ رسول الله لبعث السرايا إلى مختلف أبناء العرب وثنيين أو نصارى، وإلى الأمم المجاورة في الحجاز والشام والعراق وإفريقية، للقيام بوظيفة الدعوة والتبليغ. فإن لم يستجيبوا بعد الفهم والوعي، واستكبروا عن الاعتناق أو عن الخضوع، وجب قتالهم. إلّا أن هذا لا يعني إكراه الأفراد لاعتناق الإسلام، بل يُكتفى بإكراه الشعوب والأُمم على تطبيق الشريعة والخضوع لأحكامها.[1]

٤ ـ **احتمال الوجهَين:**[2] ويقتضي هذا أن المغازي تحتمل التفسير بالدفاع والطلب. فما كان منها لقريش يُنظر إليه من زاويتين: الأولى أن مشركي مكة بدؤوا بالعدوان تقتيلًا وتعذيبًا وتشريدًا وسلبًا ومصادرة، والثانية أنهم لم

---

(١) فقه السيرة ص ٢٧٠ ـ ٢٩٦. وانظر الجهاد والقتال ص ٥٠٦ ـ ٥١٤ وأحداث التاريخ الإسلامي ١: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) الجهاد والقتال ص ٥١٥ ـ ٥٣٩.

يحاربوا دولة المدينة، بل جاء جيشهم إلى بدر لحماية القافلة والتفاخر واللهو، وفي أُحد انتقامًا لما كان في بدر.

وكذلك فتح مكة، لأن نقض المعاهدة قد يفسر بإعلان الحرب، وإن كان لا يقتضيه فعلًا، وغزوات بني إسرائيل شبيهة بهذا الفتح، إذ وقعت لنقض العهود وتأليب المشركين على الإسلام والمسلمين، مع خلاف هو إسلام المشركين بالعفو عنهم، وإصرار يهود على الكفر والعداوة والخيانة، ما عدا أفرادًا منهم أسلموا بالعفو أيضًا.

أما مغازي القبائل العربية ففيها الدفاعية لعدوان منها، والوقائية لحماية أمن المسلمين واستقرارهم، ومنع هجوم عليهم في المدينة المنورة. ومن هذا القبيل ما كان من مغاز للنصارى، إذ كان فيها دفاع لعدوان هؤلاء، وهجوم من المسلمين لإزاحة عقبة تقف في سبيل الدعوة، وتأمين سبل التبليغ والإعلام.

ومراسلات الملوك والأمراء كانت تسير خطواتها في هذه السبيل، إذ تقوم بواجب تبليغ الدعوة، فيتلقاها البعض بالإيمان والتسليم، وبالموادعة والمسالمة، أو بالمنع والمحاربة والاستعداد للهجوم. ثم تكون المعارك الفاصلة في ذلك وقاية أو دفاعًا.

٥ ـ **الحصار الاقتصادي**: وفي التقسيم الثنائي لأسباب المغازي، طرح بعض الدارسين ضربًا جديدًا من الدوافع الحربية. فمع الدفاع الحاصل أحيانًا لرد المغيرين على المدينة، كانت حملات قتالية يجهزها النبي ﷺ ويرسلها أو يشارك فيها، لفرض الحصار على قريش وأحلافها، يمنع التحركات التجارية التي تمدّ العدوّ بأسباب المعاش والحياة.(١)

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٨٢ وأحداث التاريخ الإسلامي ١: ٣٢ ـ ٣٣.

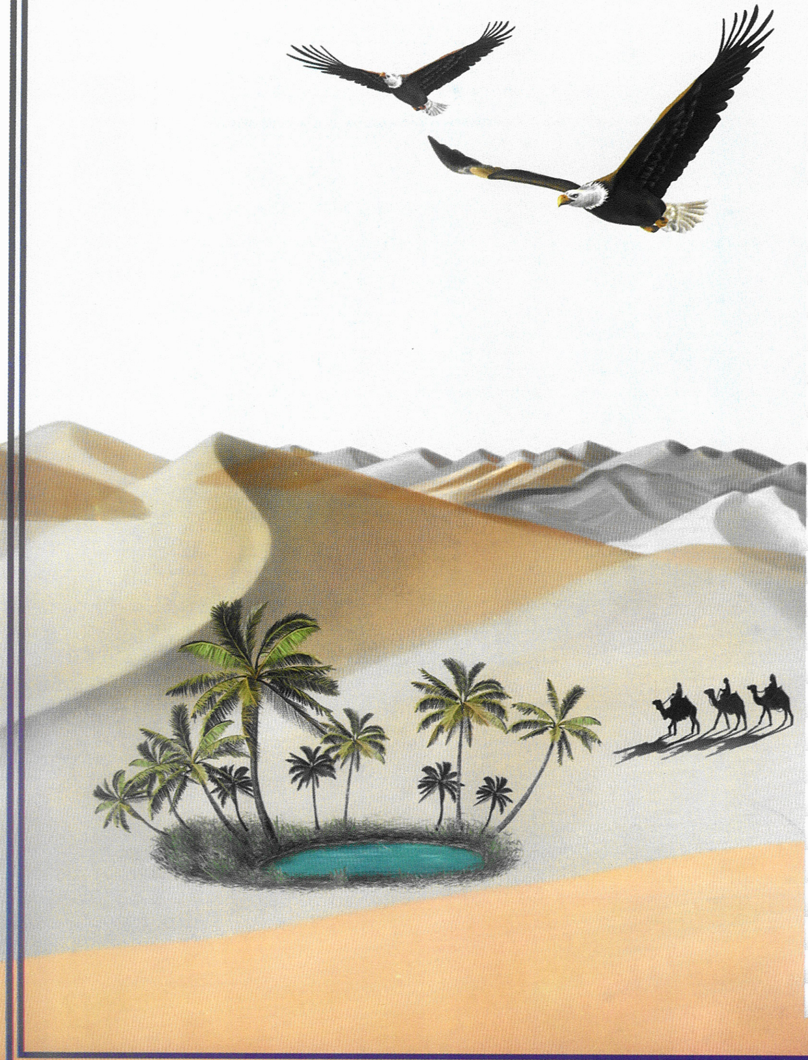


بلاد الشام
العراق
القدس
غسان
مؤتة
قضاعة
أيلة
كلب بن وبرة
تبوك
مدين
أسد
تميم
نجد
خيبر
طي
وادي القرى
حنيفة
فدك
عبس
ذبيان
غطفان
جهينة
ينبع
المدينة
جبل أحد
لحيان
بدر
سليم
مزينة
غفار
رابغ
خزاعة
البحر الأحمر


خريطة المغازي
الأرقام الزُهر مغازي قريش
الأرقام السود مغازي القبائل
الأرقام الخُضر مغازي بني اسرائيل
الأرقام الكُحل مغازي الروم
مكة
الطائف
خزيمة
هوزان
ثقيف
مازن
نجران
همدان
صعدة
جرش
اليمن
خولان
البحر العربي
٣١
٢٢
١٦
٨
١٥
٢
٥٢
٤٦
٤٨
٤٧
٦
٢٣
٣٥
٢٨
٥٠
٥٩
٥٥
٥٨
٥٣
٥٧
٥٦
٦٠

توزيع المغازي مع التنسيق التاريخي

مسلسل	مغازي قريش	الشهر	العام	مغازي القبائل	الشهر	العام	مغازي بني اسرائيل	الشهر	العام	مغازي الروم	الشهر	العام
١	سرية حمزة	رمضان	١	غزوة ذي القَصة	محرم	٣	سرية عُمير	رمضان	٢	غزوة دومة الجندل	ربيع الأول	٥
٢	سرية عُبيدة	شوال	١	سرية أبي سلمة	محرم	٣	غزوة قينقاع	شوال	٢	سرية عبد الرحمن	شعبان	٦
٣	سرية سعد	ذو القعدة	١	غزوة الكُدر	محرم	٣	سرية كعب	ربيع الأول	٣	سرية مؤتة	جمادى لأولى	٨
٤	غزوة ودّان	صفر	٢	سرية غالب	محرم	٣	غزوة النضير	ربيع الأول	٤	سرية ذات السلاسل	جمادى الآخرة	٨
٥	غزوة بُواط	ربيع الأول	٢	غزوة الفُرُع	ربيع الآخِر	٣	سرية أبي رافع	ذو القعدة	٥	غزوة تبوك	رجب	٩
٦	غزوة سَفَوان	ربيع الأول	٢	سرية الرجيع	صفر	٤	غزوة قريظة	ذو القعدة	٥	سرية خالد	رجب	٩
٧	غزوة العُشيرة	جمادى الآخرة	٢	سرية بئر معونة	صفر	٤	سرية ابن رواحة	شوال	٦	سرية أُسامة	ربيع الآخر	١١
٨	سرية نخلة	رجب	٢	غزوة ذات الرقاع	جمادى لأولى	٤	غزوة خيبر	محرم	٧			
٩	غزوة ينبع	شعبان	٢	غزوة بني لحيان	جمادى لأولى	٤	سرية محيّصة	صفر	٧			
١٠	غزوة بدر	رمضان	٢	سرية سالم		٤	غزوة وادي القرى	جمادى لأولى	٧			
١١	غزوة السَّويق	ذو الحجة	٢	غزوة عُمير	رمضان	٤						
١٢	سرية القَرَدة	جمادى الآخرة	٣	غزوة المصطلق	شعبان	٥						
١٣	غزوة أُحُد	شوال	٣	سرية ابن أنيس	محرم	٦						
١٤	غزوة حمراء الأسد	شوال	٣	سرية ضرية	محرم	٦						
١٥	سرية الضمري	صفر	٤	سرية الصدّيق	ربيع الأول	٦						
١٦	غزوة بدر الآخرة	شعبان	٤	سرية القرطاء	ربيع الأول	٦						
١٧	غزوة الخندق	ذو القعدة	٥	سرية الغَمرة	ربيع الآخِر	٦						
١٨	سرية زيد	جمادى الأولى	٦	سرية أبي عُبيدة	ربيع الآخِر	٦						
١٩	غزوة الحُديبية	ذو القعدة	٦	سرية الجموم	ربيع الآخِر	٦						
٢٠	سرية الكديد	صفر	٨	سرية الطرَف	جمادى الآخرة	٦						
٢١	فتح مكة	رمضان	٨	سرية حِسمَى	جمادى الآخرة	٦						
٢٢	سرية العُزّى	رمضان	٨	غزوة ذي قَرَد	جمادى الآخرة	٦						
٢٣	سرية جَذيمة	شوال	٨	سرية علقمة	جمادى الآخرة	٦						
٢٤				سرية وادي القرى	رجب	٦						
٢٥				سرية فدك	شعبان	٦						
٢٦				سرية زيد	رمضان	٦						
٢٧				سرية كُرز	شوال	٦						



٢٨	سرية عمر	شعبان	٧
٢٩	سرية أبي بكر	شعبان	٧
٣٠	سرية بشير	شعبان	٧
٣١	سرية المَيفعة	رمضان	٧
٣٢	سرية الجناب	شوال	٧
٣٣	سرية بني سُليم	ذو الحجة	٧
٣٤	سرية غالب	صفر	٨
٣٥	سرية شجاع	ربيع الأول	٨
٣٦	سرية ذات أطلاح	ربيع الأول	٨
٣٧	سريةعَمرو	رجب	٨
٣٨	سرية الخبط	رجب	٨
٣٩	سرية مَدْيَن		٨
٤٠	سرية بني مُرّة		٨
٤١	سرية أبي قتادة	شعبان	٨
٤٢	سرية إضم	رمضان	٨
٤٣	سرية عُيينة		٨
٤٤	سرية سُواع	رمضان	٨
٤٥	سرية مناة	رمضان	٨
٤٦	غزوة حُنين	شوال	٨
٤٧	سرية الطفيل	شوال	٨
٤٨	غزوة الطائف	شوال	٨
٤٩	سرية بني العنبر	محرم	٩
٥٠	سرية قُطبة	صفر	٩
٥١	سرية الضحاك	ربيع الأول	٩
٥٢	سرية علقمة	ربيع الآخر	٩
٥٣	سرية علي	ربيع الآخِر	٩
٥٤	سرية عُذرة وبَليّ	ربيع الآخِر	٩
٥٥	سرية نجران	ربيع الأول	١٠
٥٦	سرية اليمن	ربيع الآخِر	١٠
٥٧	سرية جُرش		١٠
٥٨	سرية مذحِج	رمضان	١٠
٥٩	سرية جرير	رمضان	١٠
٦٠	سرية المهاجر		١٠

لقد بدأ المشركون في مكة بمثل ذلك، حين قاطعوا المسلمين اجتماعيًّا واقتصاديًّا، بالصحيفة المشهورة عُلّقت في جوف الكعبة، وتعاقدت فيها جماعات قريش ألّا تبايع أصحاب النبي ﷺ ولا تناكحهم، وتعاهدت على ذلك وتواثقت، ومنعت أن يتصل بهم أحد للعون والمساعدة. وبذلك اضطُرّ هؤلاء أن يلجؤوا إلى شِعب أبي طالب، ويعيشوا في حاجة وضنك، ويقتاتوا بالأعشاب وسيئ الغذاء.

وقد أدرك النبي ﷺ في العهد المدني، كما يقول أنصار هذا المذهب، ما للعنصر الاقتصادي من أهمّية في حرب قريش وإضعافها وإلجائها إلى الاستسلام، فقام بالحملات المتوالية على قوافلها التجارية مع بلاد الشام. بدأ ذلك باعتراض العِير في أرض الحجاز، حتى قطع عليها الطريق، فتحولت القوافل إلى المسير من نجد، وداهمتها هناك سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه، فصارت قريش في حصار كامل لا منفذ منه. وإذ ذاك شعر زعماء قريش بالضيق والبلاء، حتى قال لهم صفوان بن أمية: إن أقمنا في دارنا بمكة أكلْنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا على التجارة.

وقد شُدّت الحلقة الخانقة حول أعناق مشركي مكة بتحالف النبي ﷺ والقبائل المحيطة بهم، إذ تمت المعاهدات مع بني ضمرة وآخرين، بالمسالمة والموادعة. وهذا يعني أن أحلاف قريش ومناصريها أو مسالميها صاروا مع المسلمين يدًا واحدة حتى أقصى اليمامة، تهدد التحركات التجارية والحربية التي يقوم بها المشركون من مكة. وهو حصار مركّب بطوابع السياسة والاقتصاد والحرب.

* * *

تلك نظريات متعاندة ومتداخلة، طُرحت لتحليل مسوّغات المغازي، وكل منها يحاول الانفراد بحيازة الأدلة المناسبة، وتطويعها للاحتجاج على ما زعمه من توجّه وتفسير، متجاهلًا ما بين الأحداث من تواصل ووفاق. ثم ترى

بعدها من يقتضب المسيرة كلها ويستبعد المذاهب دُفعة واحدة، وينطلق من أن مهمة الجهاد هي نشر الدين الإسلامي في العالم كله، ليحل محل الدِّيانات المتقدمة، ويجمع الناس في كل زمان ومكان على عقيدة واحدة، قوامها التوحيد والعدل والمساواة.

وهذا يعني[1] أن الجهاد تابع لرأي القيادات. فحين تجد نفسها قادرة على الغزو مريدة له،[2] تدعو أهل البلد المقصود إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا كانوا هم والمسلمون سواء، وإلّا وجب عليهم تسليم بلادهم لحكم المسلمين مع دفع الجزية، ليصيروا في ذمّة الله ورسوله، وإن أبَوا ذلك أُعلنت عليهم الحرب لقتل المحاربين ومن يعينهم. وإذا طلبوا الصلح خلال المعارك أُجيبوا إليه متى رأى الإمام ذلك.

وثمة فئة أُخرى من الدارسين، وهم الصفويون أعداء الخلافة الإسلامية، يرون أن مقاوماتها الحربية لدول الفرنجة هي غارات وغزوات ومجازر، شبيهة بما كان من الفاتحين: الإسكندر المقدوني وهولاكو وجنكيز خان، في الهجوم على الغير وتدمير البلاد وتقتيل العباد وحيازة الغنائم.

وقد ظاهر هذه الفئةَ عبدُ الرحمن الكواكبي، وهو من أصل إيراني صفوي أردبيلي،[3] احتضنته الحماية الإيطالية، كما ذكرنا من قبل، فزعم أن حروب الخلافة على مدى بضعة قرون كانت عدوانًا ملحقًا بغارات البرابرة الشماليين على أوربة، للتلاعب السياسي وقيادة الناس، وإرهاب أوربة وما وراءها باسم الخلافة والأُمة الإسلامية.[4]

---

(١) أحداث التاريخ الإسلامي ١: ٧٧.

(٢) فجر الإسلام ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) أعلام النبلاء ٧: ٤٨٠ و ٤٨٢ وتركية ميدان الصراع ص ١٣١ ـ ١٣٣.

(٤) أم القرى ص ٢١٣ وتركية ميدان الصراع ص ١٣٢.

الأسباب الشرعية:

رأينا فيما مضى عدة نظريات لمسوّغات الوقائع الحربية المطهرة، وهي تقوم في مجملها على تعميم الأحكام، بعيدًا عن التخصيص والدرس الدقيق المفصل. وقد تبدى لنا أن البحث العلمي لمثل هذه القضايا المتشعبة المختلفة يقتضي وضوح الصورة التفصيلية للمغازي، بحيث يمكن أن نتبيّن منها تتابع الأحداث وارتباط بعضها ببعض، واكتشاف العوامل المشتركة والمتمايزة.

ولذا عرضنا تلك الوقائع موزعة على فئات أربع: قريش والقبائل وبني إسرائيل والروم. فتاريخ كل من هذه الجماعات مع الدعوة الإسلامية مرتبط بأوضاع وأسباب متمايزة، قد تتماسّ بها الفئات الأخرى وتشاركها في الميدان أحيانًا، ولكن تبقى فوارق خاصة تحتاج إلى توضيح وبيان. ولا غرو أن تكون مواقف النبوة من ذلك مختلفة أيضًا، ليخاطب الرسول ﷺ الناسَ باللسان والسنان كلًّا على قدر موقفه وتصرفاته نحو الدعوة وأصحابها.

وبالدراسة العلمية لتلك الأحوال كلًّا منها على انفراد، مع متابعة الشريط الرابط بين تفرعاتها، نستطيع أن نضع أيدينا على المسوّغات الحقيقية للإجراءات الميدانية في المغازي بشكل علمي موضوعي مفصّل، إن شاء الله، منبثقةً من الواقع التاريخي والظروف المحيطة به. ومن ثَمّ يمكننا تصنيف ذلك في حقول متعددة، يجمع الواحد منها الأشباه والنظائر من الأحوال والأعمال الجهادية في العهد المدني من القيادة النبوية العظيمة. وقد تبين لنا، من خلال هذا النهج العلمي للبحث، أن أسباب المغازي تتوزع على ثلاثة أشكال، هي ما يلي:

١ ـ **الجهاد للمحارب**: وهو أن يكون القتال لمن يوصف بالحِرابة، أي: محاربة فعلية للإسلام أو المسلمين، بعدوان فيه غارة أو قتل أو تشريد أو سلب ونهب وبغي وترهيب وإفساد، أو ارتداد عن الإيمان بإنكار بعض

أركانه، أو منع بالقوة لتبليغ الدعوة بحكمة وموعظة حسنة. فليس المراد منها إذًا مجرد القصد أو الكيد أو التخطيط[1] ـ وهو ما ذهب إليه أحد المعاصرين ـ لأن هذه التصرفات الأخيرة هي نوع آخر من المواجهة تقتضي مقاومة أُخرَى أيضًا، تَرِد في موقعها قريبًا، إن شاء الله عز وجل.

وهنا في هذه الدائرة العصيبة، تستوقفنا وحشية صناديد قريش، إذ يستعينون بمن حولهم من الكِنانيين والأحلاف، ليعذبوا المسلمين الأوائل في مكة ويردوهم عن الإيمان، فيقتلوا منهم من وصلوا إليه، ويحاصروا الباقي في الشعاب، ويمنعوا كل من يريد مساعدتهم، ثم يشرّدوا أكثرهم إلى الحبشة مرتين، وغالبيتهم إلى المدينة المنورة، مع سلب المال والأهل والوطن. وقد ذكرنا نماذج ذلك من قبلُ بالتفصيل.

بل إنهم حاولوا قتل بعض الأنصار أيضًا قبل الهجرة، ليحولوا دون تحققها، وينفردوا بحصر المسلمين ودعوة الإسلام، ويُجهزوا على ذلك كله، دون أن يكون له متنفَّس للحياة. ولمّا تملص الأمر من بين أيديهم أجمعوا على قتل النبي ﷺ، وعندما هاجر تاركًا لهم كل ما يملك، تتبعوا آثاره ليقضوا على الدعوة وأصحابها بقتله، عليه الصلاة والسلام.

لكن إرادة الله غالبة، يسرت النجاة للجميع، وفتحت لهم أبواب عهد جديد من القوة والعزة والمنَعة، والنشر لرسالته في البقاع والنفوس الكريمة. وإذ ذاك أُسقط في أيدي المشركين، وضاع رشادهم وخابت وسائلهم، فلجؤوا إلى تهديد الأنصار أيضًا بالحرب، إن لم يدعوا الحؤول بينهم وبين أبناء عمهم المسلمين. هكذا فالمسلمون عَصَبة لهم، وهم أحرار في إبادتها، وليس لأحد أن يقف دون ذلك، وإلّا فهو عدو لهم، وله منهم الحرب والقتال والفناء.

وعلى هذا ترى أن حرب جماعة قريش وشقائقها الكِنانيات للإسلام

---

(١) انظر الجهاد في الإسلام ص ١٠٨ ـ ١١١.

والمسلمين مُعلَنة، قائمة بكامل مظاهرها وحقائقها، لأنها قتّلت وشرّدت واغتصبت الأملاك وحرية العقيدة، وهي تمنع المسلمين من وطنهم وديارهم، وتستبد بالتصرف في الأموال والأهل والأملاك، وتصرّ على التسلط والبطش والعدوان، ثم تهدّد الأنصار بالقتل والمنع من زيارة البيت الحرام، بسبب إيوائهم الدعوة والمؤمنين بها.

ولهذا كانت المقاومة الحربية: سرايا حمزة وعُبيدة وسعد ﷺ، ثم غزوات ودّان وبواط وسَفَوان والعُشيرة، تجابه تلك المجموعة بمثل فعلها: التهديد والوعيد والبطش والغنيمة بما يتيسر. وتلا ذلك ما كان في سرية نخلة، لتتبع أخبار المعتدين، والانقضاض عليهم في الوقت المناسب. ولكن الله غالب على أمره، إذ حصل أول لقاء حربي من دون قصد للطرفين، فقُتل أحد المشركين وأُسر منهم اثنان، ورجع المجاهدون بالغنيمة طيبة مباركة.

فقد اشتعلت الحرب المسلحة إذًا، أشعلها المسلمون هذه المرة على غير قصد أو تدبير، لتتم إرادة الله - سبحانه وتعالى - في المسيرة بين الإيمان والشرك إلى مداها النهائي. وبناء على ذلك شرع النبي الأعظم يتتبع تحركات قريش، ليفاجئها بالانتقام: غنيمةً بالمال أو تقتيلًا للرجال.

تحصل عن هذا أن خرج بنفسه لغزوة ينبُع فنجت فلول قريش من قبضته، ثم قصد التجارة ببدر فتحصلت نجاتها مع مقتل وأسر العشرات من جبابرة الشرك والعدوان، وغنائم عظيمة بفضل الله، وكان أن دخل شاعر ثقيف أُمية بن أبي الصلت في الميدان، لينضم مع قومه إلى صفوف المشركين.

ولمّا أراد أبو سفيان بنُ حرب الانتقام لِما حصل في بدر، وجاء بجيشه مباغتًا المدينة بغزوة السويق فقتل وحرّق، خرج المجاهدون بقيادة رسول الله ﷺ فهربت فلول المشركين من اللقاء، ولم يكن بين الجماعتين قتال. وبهذا استقر في نفس الزعيم القرشي أن طريق التجارة المدني إلى الشام أصبح

محاطًا بالمهالك، فوجّه العِير إلى طريق نجد فالعراق، للوصول إلى غايته، ولكن القيادة النبوية العظيمة تابعت ذلك، فشنت على القافلة سَرية القَرَدة، إذ عاد المسلمون بحمولات المشركين ودليلهم في المسير مسلمًا، وهرب جميع محاربيهم يطلبون النجاة.

فلا عجب أن يخرج المشركون، من قريش والكِنانيين بعدُ، للانتقام ثانية بما كان في بدر وما حولها من سرايا وغزوات، ويهاجموا المدينة في صحبة أبي عامر ومَن معه من نصارى العرب، فتكون غزوة أُحد بنصرهم. ولمّا أراد هؤلاء معاودة المباغتة، للإجهاز على المسلمين نهائيًّا، انطلق إليهم الرسول العظيم بغزوة حمراء الأسد، فحملهم على عدم اللقاء، والانصراف دون قتال، للنجاة بالكسب القريب.

ثم اعتدى بنو عَضَل والقارة بنو عم الكِنانيين على المسلمين غدرًا، بعد الزعم أنهم مسلمون وفي حاجة إلى من يعلّمهم العقيدة والشريعة والعمل، فسبّبوا مقتل أهل الرجيع، وعلم النبي ﷺ بعد ذلك أن أبا سفيان أرسل مِن قريش من يغتاله، فأسرى عمرَو بن أُمية الضمري لقتل أبي سفيان، ولم يصل هذا إلى غايته.

وعندما انصرف أبو سفيان من أُحد جدّد العهد بغزو المدينة في موعد حدّده. ولذا جهز جيشه من المشركين لغزوة بدر الآخِرة، واستعد النبي ﷺ للقائهم، فنكص هؤلاء على أعقابهم يتهيبون الحرب والقتال، ويهيئون أنفسهم لمعركة تناسب الأوضاع والقدرات، فتكون فاصلة بالقضاء على الدعوة وأصحابها.

وقد أشعل يهود بني النَّضير فتيل الصراع بين الطرفين من جديد، حين ألّبوا قريشًا وأحابيشها وبني وائل الأسدِيّين من مشركين ونصارى، وبني فَزارة وأشجع ومُرّة من غطفان، ويهود بني قُريظة، وجمعوا حشودهم حلفاء في غزوة

الخندق، لاستئصال الدعوة والدولة الفتية. غير أن ما سببه الخندق لهؤلاء الحلفاء من الضيق والعجز، وما زرعه المسلمون بينهم من النزاع والخلاف، وما أرسله الله ـ عز وجل ـ من العون السماوي، كل ذلك معًا جعلهم مختصمين، وردّهم على أدبارهم هاربين من الموت. وبذلك فقدوا كل أمل في الغزو بعدُ، وأصبحوا جميعًا عرضة لانتقام المجاهدين، يكيلون لهم الصاع صِيعانًا، بالمقاومة والغزو والحرب والنزال.

وقد تلا هذا سرية زيد بن حارثة ﷺ تعترض عودة تجارة المشركين من الشام، ثم أرادت قريش والأحابيش منع المسلمين من دخول مكة للعُمرة، وتهجّموا عليهم في الحُديبية، وانتهوا إلى العهد بالهُدنة ١٠ سنوات مع المسالمة والموادعة، لكل من الطرفين ومن يدخل في حلف أحدهما. وخلال بضعة عشر شهرًا من تلك الهُدنة، احتشد بنو الملوّح الكِنانيون ابتغاء الكَديد لغزو المدينة المنورة، فأسرى القائد الكريم إليهم من شن عليهم الغارة، وعاد بالنصر المبين. ثم تلا ذلك نقض قريش وحلفائها بكر بن عبد مناة الكِنانيين هدنةَ الحُديبية، بالاعتداء على حلفاء المسلمين وتقتيلهم في الحرم المكي.

فلا عجب أن تسير جيوش المدينة للانتقام من الغادرين الناقضين للعهد، وغزو مكة وفتحها بالإيمان والسلام، والعفو عن أهلها طُلقاء من الحساب والعقاب، ثم يلي ذلك الإسراءُ بخالد بن الوليد ﷺ لتحطيم العُزّى، أعظم صنم لقريش والكِنانيين. وهكذا أُسدل الستار على بغي مشركي مكة ومن معهم، وانتهت مقاومة المواجهات للمحاربين منهم بالعودة إلى الأُخوّة، والبيعة على الإسلام والجهاد في سبيله، مع الأنصار والمهاجرين وكل مؤمن صادق النية والقول والعمل.

ثم كان للشرك أساليب حربية تقوم على الغدر والخيانة والرِّدة، أي: الحِرابة، بدأ بها بعض القبائل العربية المجاورة للمدينة منذ العام الهجري

الرابع. فقد ادّعى وفد من بني عَضَل وقارة الخُزيميِّين أبناء عم كِنانة أنهم أسلموا، وصحبوا من يعلّمهم أصول الدين إلى بئر الرجيع. وهناك أعلنوا الحِرابة بالرِّدة والانقضاض على المسلمين، فغدروا بهم مستعينين ببني لِحيان. غير أن النبي ﷺ لم يستطع إدراكهم، ثم غزا بني لحيان وأغار عليهم فهربوا، وتركوا أموالهم غنيمة للمجاهدين.

وعندما وصل رسولُ النبيِّ العظيم إلى عامر بن الطُّفَيل قتله هذا، واستعدى على الوفد بني عُصيّة ورِعل وذكوان من سُليم الغطفانيِّين وقومَه بني عامر من هوازن ليقتلوا أفراده المسالمين. وقد تهرب الغادرون من اللقاء، ثم جاؤوا مسلمين تائبين مبايعين، فلم يكن لهم عقوبة أو حرب. ثم ارتدّ الحارث بن سُويد، وقتل أحد المسلمين وهرب إلى مكة معلنًا الحِرابة، فأُهدِر دمه.

هنالك انتصر له أبو عفَك، يبكي حال الأنصار زاعمًا ذِلّتهم وتفرُّقهم، ومحرّضًا لهم على الإسلام والمهاجرين، فأسرى إليه النبي ﷺ سالم بن عمرو رضي الله عنه فقتله. وقد آذى مقتله بعض الأوسيِّين اليهود، فهبت عصماء بنت مروان - وهي يهودية أوسية من بني أُمية بن زيد - في قومها الأوس تهجو الأنصار، وتدعوهم إلى اغتيال النبي ﷺ فأسرى إليها عُمير بن عدي رضي الله عنه ليقتلها أيضًا.

ولمّا كان بعض العامريين المشاركين في بئر معونة لم يُدرَكوا بالعقوبة اللازمة، على ما فعلوا من القتل غدرًا، فقد أسرى النبي ﷺ إليهم في محرّم السنة السادسة محمد بن سلمة الأوسي في فرسان من الأنصار رضي الله عنهم، ثم كانت إليهم أيضًا سَرِيّة القُرطاء وسرية شجاع بن وهب رضي الله عنه. وكذلك كان شأن سرية أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع.

وأغار بنو ضُليع من جُذام في حِسمَى على رسولِ النبي ﷺ العائدِ من عند قيصر الروم، فبعث إليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه في سرية انتقمت منهم، وأغار عُيينة بن حِصن ببعض فَزارة من غطَفان على إبل في المدينة فخرج إليه

النبي ﷺ في غزوة ذي قَرَد، ثم أسرى علقمةَ بن مجزِّز للثأر بأخيه رضي الله عنهما وقّاص الذي كان قد استُشهد في تلك الغزوة، ثم كانت سرايا أبي بكر وبشير ابن سعيد وغالب بن عبد الله رضي الله عنه مرّات وابن أبي العوجاء وغالب بن عبد الله رضي الله عنهما لمثل ذلك أيضًا.

وفي عودة زيد بن حارثة رضي الله عنه بتجارة من الشام، أغار عليه بنو فَزارة، وقتلوا بعض أصحابه، فبعث به النبي ﷺ في سرية تسترد ما سُلب منه، ثم جاء العُرَنيون المرضى، وقتلوا وسلبوا وبغوا وأفسدوا ومثّلوا بالصحابي الكريم بعد شفائهم وارتدّوا معلنين الحِرابة، فأسرى إليهم النبي العظيم كُرز بن جابر رضي الله عنه، وجيء بهم للعقوبة اللازمة بالمِثل.

وكان أُمية بن أبي الصلت الثقفي قد انضم إلى مشركي مكة بعد غزوة بدر، كما رأيتَ من قبل، ثم شارك قومُه في قتال غزوة حُنين وهربوا ملتجئين إلى حِصن الطائف، فقصدهم النبي ﷺ بالغزوة المشهورة، وكان بنو العنبر قد أسلموا ثم خرجوا على الحكم الإسلامي ودولته بالحِرابة، فأسرى إليهم النبي عُيينة بن حِصن رضي الله عنه، يردهم إلى الطاعة.

وكذلك كانت سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتمرد بني مَذحِج في نجران، وسرية المهاجر بن أبي أُمية رضي الله عنه، إذ خرج عليه المتنبئ العنسي، فانتهى أمره بالقتل. وبذلك كله انتهت أيضًا مواجهات المقاومة الحربية، يشنها المجاهدون على من يقوم بالحِرابة، أو يجاهر بالبغي أو الاعتداء.

ثم ننتقل إلى أُمّة الغدر والخِسة، لنرصد تحركاتها العدوانية، فإذا هي مقيدة بالميثاق النبوي ألّا تكونَ مع المسلمين ولا عليهم في حرب، وإلّا كان عليها الجلاء لأنها لاجئة في بلاد العرب، وأن تُمدَّ أهل المدينة بالمال والسلاح والمؤونة إن داهمهم عدو، وإن وجهت ذلك إلى عدو أو محارب فهي معه من المحاربين المعتدين.

ومع هذا، فإنه بدا تملصها من الميثاق بإظهار العداوة والنشاط لتحريض المشركين بُعيد بدر. فكأن انتصار الإسلام على الوثنية يعني لدى يهود بني إسرائيل انتصاره على عقيدتهم أيضًا لشبهها بتلك. ومن ثَمّ رأينا ما كان من تأثُّر عصماء اليهودية الأوسية بقبائح الإسرائيليين، وتحريضها على قتل النبي ﷺ، ومصيرها النهائي المحتوم.

وفي سوق بني قينِقاع كانت الفتنة باعتدائهم على امرأة أنصارية، وإشعال نار القتال بين الجانبين، ممّا أدى إلى غزوهم بالحصار وجلائهم. ثم قام كعب بن الأشرف ينقض العهد النبوي، ليناصر قريشًا ويرثي قتلاها، ويهجو النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، ويتهجم على زوجاتهم بالغزَل، حتى انتهى أمره بالقتل.

ثم أعان بنو النضير أبا سفيان في غزوة السَّويق، وائتمروا بقتل النبي الكريم فعلًا في ديارهم، وامتنعوا من الجلاء - وهو شرط في العهد النبوي لهم - وآذنوا بحرب المسلمين، فكان حصارهم ونزولهم على حكم الجلاء أخيرًا إلى خيبر، مع سيّدهم أبي رافع بن أبي الحُقيق. وقد تابع هذا نقض العهود، وسعى في تحزيب الأحلاف يوم الخندق، فسرى إليه من قتله.

أما بنوقُريظة فقد انساقوا وراء أبي رافع هذا، فأعلنوا الحرب مع الأحزاب وأيّدوهم بالمال والسلاح، فغزاهم النبي ﷺ وحاصرهم حتّى نزلوا على حكم حليفهم القديم سعد بن معاذ رضي الله عنه. وكذلك فعل بنو النَّضير في خيبر مع من فيها بعد جلائهم إليها، إذ تجهّزوا لغزو المدينة في حصار الخندق، وحاولوا مرة ثانية أن يغزوها في أيام الحُديبية فلم يفلحوا.

ولذا عاجلهم النبي ﷺ بالحرب، فحاصر حصونهم وقطع عنهم مشربهم، وفصل بينهم وبين أعوانهم من بني غطفان، ثم شن عليهم الغارات المتواصلة، فكانت منازلة بين الفرسان، وهجمات بالزحف والنزال، إلى أن فُتحت عدة

حصون واحدًا بعد الآخَر عَنوة، والباقي بالصلح على نصف الأموال، وشرط الإخراج والجلاء إن كان غدر أو إيذاء.

أمّا الدولة الرومية فقد كان لها نفوذ ظاهر في الشام من بلاد العرب، وجاء إليها أبو عامر الفاسق يحرضها على المسلمين، ويخوّفها انتشار الدين الجديد بين إخوانهم ورعاياها في تلك الأصقاع، فيزول سلطانها عنهم وتضعف أمام نفوذ الفرس. ولذا كانت هناك مجابهة دمويّة لِما هو إسلامي، إذ قُتل أمير مَعان رضي الله عنه لأنه أسلم، وقَتل أميرُ مؤتة رسولَ النبي الأعظم، وقابل الملك الغساني رسالة النبي ﷺ بالتحدي وتجهيز جيش لغزو المدينة.

فقتلُ حامل الرسالة ومن أسلم يعني إعلان الحرب والعدوان على الدعوة وأصحابها، وقد تأكد ذلك بتجهيز الجيش لقصد القتال. ولمّا بلغَتِ النبيَّ ﷺ تلك الأنباء بعث سرية بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حيث قُتل حامل رسالته، فكان لقاء حربي عنيف، استُشهد فيه قُوّاد ثلاثة وكثير من المسلمين رضي الله عنهم، وانتهى بتحاجز الطرفين دون نصر أو هزيمة.

فالحرب إذًا معلنة بين المسلمين والروم، وكلٌّ من الجمعَين يستعد لمعارك متواصلة، وأبو عامر يتابع تحركاته لتجديد القتال. وعلى ذلك احتشدت جيوش الروم وبعض القبائل العربية للغزو ثانية، وخرج النبي ﷺ بجيش العُسرة إلى تبوك، فوجد القومَ قد تفرّقوا حذر اللقاء، وجاءه بعض أمراء المنطقة بالموادعة والمسالمة، فكان لهم معاهدة وميثاق.

وأخيرًا حصلت سرية أُسامة بن زيد رضي الله عنهما، بالمسير إلى مؤتة حيث استُشهد أبوه في المعركة المشهورة قبل، فاستطاعت أن تثأر بما كان هناك، وتُثبت هيبة الدولة الإسلامية الناشئة بين القبائل الشامية عامّة ودولة الروم خاصّة، وأن تُعيد إلى الإيمان من ارتدّ من بني قُضاعة وأمثالهم في شماليّ الجزيرة.

هذه قصة المقاومة الجهادية لمن حارب الإسلام والمسلمين في عهد

النبوة، وهم مجموعات غفيرة من العرب وبني إسرائيل والروم. فقد مر بنا جمع غفير من القبائل العربية:

قريش والأحابيش وعَضَل وقارة، ووائل بن قاسط وعامر بن صعصعة وسُليم بن منصور ومحارب وثعلبة بن سعد من ذبيان مع فروع من غطفان، وجُذام وسلامان وسعد بن هُذيم وضُليع من جُذام، وفَزارة وكِلاب وعُرينة وسعد بن ذبيان، وعُوال وعبد بن ثعلبة وأفناء من قُضاعة وجُشم وهوازن وثقيف، والعنبر ومَذحج وغسان وعاملة ولخم...

كل من هؤلاء جاهر بالعداوة للمسلمين والإسلام، وباشر بالحرب قتالًا أو حِرابة، فكانت عشرات اللقاءات، في أحد طرفيها غزوات النبي ﷺ وسراياه وبعوثه، وفي الطرف الآخر حشود من جيوش القبائل والأعراب والدولة الرومية وفلول بني إسرائيل.

والحرب سِجال، إلّا أنها تنتهي مع كل مجموعة من المعتدين بالنصر عليهم، فإمّا أن يستجيبوا للدعوة مسلمين مبايعين، وإمّا أن يوادعوا ويعاهدوا بالمواثيق للمسالمة، وإمّا أن يتفرّقوا مبتعدين عن مواطن التهديد، وإمّا أن يصروا على الخِسّة والبغي، فيكون لهم الجلاء أو القتل لأنهم لاجئون في ديار العرب، يتنكرون بالغدر والخيانة لواجبات الضيف والتزامات مواثيق العهود.

٢ ـ **الجهاد الوقائي:** هو أن تكون المقاومة الحربية لحماية أمن المسلمين واستقرارهم، ومنع هجوم عليهم في ديارهم المنوّرة. وفي هذه السبيل ما كان من بعض مغاز للقبائل العربية ونصارى بني إسرائيل، إذ حصلت فيها مباغتة لعدوان هؤلاء، وهجوم من المسلمين على حشود عدوانية لقمعها وردع مَن خلفَها، أو لإزاحة عقبة تقف في سبيل الدعوة، وتأمين وسائل التبليغ والإعلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

أمّا الردع هنا فهو كفُّ المعتدي تهيّؤًا، عن عمله بالاستعداد والإقدام

والترهيب والتهديد، ومنعُ مَن كان وراءه أن يفكر في مثل ذلك، وأمّا القمع فهو الضربُ بشِدّة للقهر والإذلال، ومجابهةُ العدوان والبغي بالمقاومة لصرف الظالم عما هو فيه. فإن لم تنحل القضية بهذا أو ذاك وجبت المواجهة الحربية، أي: الجهاد لإعلاء كلمة الله: نصرةٍ لدينه وتحرير الناس وعقائدهم من الطغيان، وتحقيق العدالة بينهم والاستقرار والأمان، أو وقايةٍ من هجوم الأعداء أو غزوهم للديار والحرمات.

وفي كلتا الحالين تكون العمليات الحربية بعيدة عن ديار المسلمين، لئلّا تكون استباحة لها، إذ ما غُزِيَ قوم في ديارهم قطُّ إلّا ذَلُّوا. وفي هذه السبيل من المقاومة الجهادية أيضًا، ترى كثيرًا من المغازي انصبت على القبائل العربية غير القرشية، وبني إسرائيل، ونصارى الروم.

فمن الفريق الأول تصادفنا أول مَغزاة لرسول الله ﷺ وهي غزوة ذي القَصّة، حين عزّ على بني غطفان نشوء دولة الإسلام مجاورة لهم، أي: قوة جديدة ليست كوحدات القبائل يتوزعها الخلاف والصراع ومطامع الغزو والسلطان، فحشدوا من أفنائهم وقبائل مُحارب بن خَصَفة وثعلبة حشودًا، لمباغتة الدولة الفتية بالغزو في عقر دارها المنوّرة.

وعندما بلغ النبيَّ ﷺ ذلك تجهز بجيش صَحابي، داهم به مقر الحشود، فإذا هي هاربة من الفزع في رؤوس الجبال، ثم أعاد الغطفانيون الكرّة مع بني سُليم بن منصور وآخَرِين من أفناء غطفان، فعاد إليهم النبي ﷺ بغزوات الكُدر والفُرُع وذات الرقاع، فلجؤوا إلى الفرار. وشعاره في ذلك كله: وإن عدتم عدنا.

ثم تابع مطاردتهم مع بني مُرّة وسُليم وغيرهم من غطفان، بسرية غالب ابن عبد الله الليثي رضي الله عنه، فقتّل منهم من قتّل وهَزم الباقين مولين الأدبار، وسرايا: أبي عُبيدة رضي الله عنه والجَموم والطَّرَف، وأبي بكر رضي الله عنه بضريّة، وبشير بن سعد رضي الله عنه بفدك وبالجِناب، وغالب بن عبد الله رضي الله عنه بفدك وبالمَيفعة وبغيرهما،

وابن أبي العوجاء ﵁ للقاء بني سُليم، وأبي قَتادة ﵁ بالغابة.

وكذلك ما كان من موقف بني أسد، مصدره التخوف أن تضيق عليهم سبلُ التسلط والبغي والعدوان، ونتيجته أن تجهزوا لغزو المدينة، فأسرى إليهم أبا مسلم عبد الله بن عبد الأسد ﵁ في جيش من الصحابة. وحينما علم أولئك بقدوم الجيش لاذوا بالتشتت والفرار، فيما حولهم من القفار. ثم نرى بني المُصطلِق يحتشدون فيما انضم إليهم من العرب عند ماء المُريسيع، يريدون غزو المسلمين في ديارهم، فيغزوهم النبي ﷺ بالقتل والمطاردة، فينتهي أمرهم بالتضعضع والامّحاق.

ويستعدُّ خالد بن سفيان الهُذلي مع بعض قومه لغزو المدينة وقتل النبي ﷺ، فيُسري إليه عبدَ الله بن أُنيس ﵁ ليحتال عليه ويقتله، ويجتمعُ بوادي القُرى بعض مَذحج وقُضاعة وأفناء مضر لغزو المسلمين في ديارهم، فتفرقهم سرية بقيادة زيد بن حارثة، ثم سرية كعب بن عُمير، وسرية عُكّاشة بن مِحصن ﵁ لبني عُذرة وبليّ.

وما اجتمع من بني سعد بن بكر من هوازن بفدَك لإمداد يهود خيبر تشرّدهم سرية علي بن أبي طالب ﵁، وما اجتمع من بني عامر بن صعصعة يُسرَى إليهم شجاع بن وهب ﵁ ليغير عليهم، وحشود هوازن وثقيف في حنين يغزوها النبي ﷺ من مكة، فيقضي عليها بالاستسلام.

وقد اشتركت غطفان ويهود خيبر غيرَ مرّة في الصراع الحربي مع المجاهدين. حتى إنه لما انتهى أمر ابن أبي الحُقيق صارت سيادة خيبر لليُسير ابن رِزام، فجمع هذا قومه وبني غطفان لغزو المدينة المنوّرة، فأسرى إليه النبي الكريم عبد الله بن رَواحة في بعض الصحابة ﵃، وقضوا عليه.

وكانت إمارات نصارى الشام الخاضعةُ للروم قد حزّ في نفوسها استقرار الدولة الإسلامية، وانداح سلطانها فيما حولها من البقاع والأقوام، وتغلبها على

مجموعات قريش وغطفان وهذيل وأسد، فقام بنو كلب الكِنانيون أشقّاء قريش بإعداد غزوة للمدينة. وعندما علم النبي ﷺ بذلك خرج إليهم ليلقاهم في دُومة الجندل، ولكنهم هربوا تاركين سوقهم وما فيها من الأموال. ثم بعث إليهم من تبوك خالد بن الوليد رضي الله عنه في سرية، جاء بسيّدهم مُسلمًا مُبايعًا.

وكذلك احتشدت جموع النصارى من قُضاعة وعاملة ولخم وجُذام، لغزو المدينة أيضًا، فبعث إليهم القائد العظيم عمرَو بن العاص رضي الله عنه في سرية، ثم أبا عبيدة رضي الله عنه لنصرته وعونه، فكان اللقاء في ذات السلاسل، حيث قضيا على التجمع بالقتل والتشريد والهرب.

وبمجموع ما مضى من المغازي الوقائية، أصبحت الحدودُ الإسلامية آمنة مطمئنة، والأعداءُ من مختلِف الفئات إمّا مسلمون مبايعون، وإما مسالمون معاهدون، وإما هاربون في الفلوات وبين الجبال، وإما مشرّدون في بقاع الشام يلتجئون إليها للكيد وإثارة الفتن، وتحريض الناقمين والطامعين في الزعامات والتكسب والارتزاق والسلطان.

٣ـ الجهاد الطلبي: رأينا في «التمهيد» لهذا البحث أن الجهاد لـ «الناس» هو خاصّ بقريش وعامّ للمشركين العرب، على ما ذكر الإمامان مالك والشافعي رضي الله عنهما، جزاء ما كان لهم من معاداة دائبة ومصادرات ومكايد، وحشود متوالية تبغي القضاء على الدعوة وأصحابها، في العهدين المكي والمدني. وقد نزل تعميم ذلك في قول الله، عز وجل: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفّارِ، ولْيَجِدُوا فيكُم غِلظَةً﴾،(١) فذكر ابن زيد أن المراد بهذه الآية وقتَ نزولها هو العرب.(٢)

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة التوبة.

(٢) تفسير القرطبي ٨: ٢٧٩. وانظر تفسير الجلالين الميسر ص ٢٠٦.

وكان توضيح ذلك من قبل، في القول المبارك: ﴿وقاتِلُوا الـمُشرِكِينَ كافّةً، كَما يُقاتِلُونَـكُم كافّـةً﴾.[1] ومن ثَمّ أصبح حكم النظم الكريم في هذا الموضوع عامًّا للمشركين من العرب أو من صار مثلهم في الاعتداء والبغي من أهل الكتاب وغيرهم، في التاريخ الإسلامي. وهذا ما ذكرنا تفصيله من قبلُ، بعون الله تبارك وتعالى.

فهؤلاء يُطلبون بالجهاد حربًا من دون هوادة، ثم يُدعون إلى الإسلام مرارًا قبل اللقاء. فالمشركون لهم خيار بينه وبين القتال، وغيرهم لهم خيار آخر هو الجزية. وعلى هذا فقد بعث النبي ﷺ سرية بقيادة كعب بن عُمير رضي الله عنه إلى بعض قُضاعة في ذات أطلاح وأميرهم سدوسٌ ليدعوهم، فأبوا عليه ذلك وقاتلوه حتى أجهزوا على من كان معه من المجاهدين، ونجا هو متحاملًا بجراحه.

ثم كانت سرية عمرِو بن العاص رضي الله عنه إلى بني الأزد في عُمان، فآمن سيداهم جَيفر وعِياذ ابنا الجُلندَى مع كثير من القوم، وساعدوه في جمع الصدقات وتوزيعها على الفقراء. أما المجوس منهم فلزموا ديانتهم باختيار ورضًا، ودفعوا الجزية ليكونوا في ذمّة الله ورسوله.

وكذلك مضى زيد بن حارثة رضي الله عنه بسرية إلى مَديَن، وأبو عُبيدة بسرية الخَبَط إلى جُهينة في ساحل البحر، وأبو قتادة إلى إضم بطريق الشام، وعُيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم، وعمرو بن العاص لهدم سُواع صنم هُذيل، وسعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة صنم الأوس والخزرج وغسان وآخرين، والطفيل بن عمرو لهدم ذي الكفَّين صنم الدَّوسيين، وخالد بن الوليد إلى جَذيمة الكِناني بناحية يلملم لهدم العُزَّى، وقُطبة بن عامر رضي الله عنه إلى بني خثعم في بيشة.

ولما وصل الضحاك بن سفيان رضي الله عنه، برسالة النبي الكريم إلى رِعية

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة.

السُّحيمي سيد بني كلاب، احتقر الدعوةَ هذا وحارب المجاهدين، فكان أن هرب وجاء المدينة بقومه مسلمين مبايعين، ثم أسرى النبي ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دُومة الجندل وما فيها من نصارى يعتدون على المسلمين، فأسلموا مع سيّدهم الأصبغ بن ثعلبة، وعلقمةَ بن مجزِّز رضي الله عنه إلى جزيرة في البحر لتبليغ مشركي الحبشة، وعليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم الفُلس صنم قبيلة طيّئ.

وبعث القائد العظيم الصحابة رضي الله عنهم: عُكّاشةَ بن مِحصن إلى بني عُذرة وبليّ، وخالدَ بن الوليد إلى نجران فأسلموا، وإلى اليمن ثم أردفه بعلي بن أبي طالب فأسلم بنو همْدان، وصُرَدَ بن عبد الله إلى قومه في جُرَش فأسلم بنو الأزد وخثعم، ومحيِّصةَ بن مسعود إلى يهودِ فدَك فصالحوا على الجزية.

ثم غزا رسول الله ﷺ شراذم اليهود والمشركين في وادي القُرى، فقاتلوه وصالحوا على الجزية. وأخيرًا أسرى جريرَ بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه، إلى تَبالة، لهدم صنم «ذي الخَلصة». وهو مروةٌ بيضاء تعبدها بَجيلة وخثعم وأزد السراة، ويقال لها: الكعبة اليمانية والكعبة الشأمية، فأنهى أمرها تحريقًا.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة:

هذه مسيرة المَغازي النبوية الكريمة، تتوزعها المواجهات الثلاث: المقاومة المسلحة للمحاربين، والوقائية، والطلبية. وهي بمجموعها خاصة لمن ليس له عهد من الأعداء أو جوار. أما المعاهِدون أيًّا كان دينهم فلهم ما في مواثيقهم من الحقوق والواجبات، ما داموا ملازمين الحِفاظ عليها، ولا يجوز للمسلمين أن يُخِلّوا بشيء منه، حتى نهاية مداه التاريخي المحدد، ولو بلغ القرون تلو القرون.

وأما الجِوار فللمؤمنين والمؤمنات أن يجير كل منهم من يتوسَّم فيه

مخايل الإيمان والصلاح أو الموادعة والوفاق، «وذمّة المسلمين واحدة، يَسعى بها أدناهم»،[1] شريطة ألّا ينقض المُجيرُ حكمَ ولاة الأمور، وأن يُعلمهم بما فعل لتبني جواره واحترامه، وتحريم نقضه على الآخرين. وقد كان لبعض النسوة من هذا أحداث مشهورة، تذكر بالتمجيد والاعتداد.

فإذا تصفحتَ معنا بالمنظور الذي أوردنا مجموع المغازي الشريفة، من غزوة أو سرية أو بعث، لم تحظ بجهاد هجومي، يبدؤه النبي العظيم أو جنوده، على قوم ليس لهم سابق عدوان. أما العمليات العسكرية التي هاجم فيها المسلمون غيرهم فإنما كانت على من بدأ باعتداء أو حشَدَ جيشه لذلك، أو نقضَ العهود والمواثيق، أو قتلَ بعض المسلمين أو اعتدى عليهم، أو حال دون وصول الدعوة إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، أو شرعَ في الكيد والغدر والمؤامرة لغزو حمى المسلمين.

ومع هذا فإن النبي ﷺ كان إذا غزا أو أسرى أحدًا، في الجهاد الطلبي أيضًا، يوجب أن يتقدّم العملياتِ الحربية عرضُ دعوة الإسلام عليه مرارًا. وربما أُمهل يومًا أو أكثر للتدبر والاتعاظ، فإن أبى كان النزال واللقاء وجهًا لوجه بالسلاح والجلاد. وقد أكّد النبي ﷺ ذلك عمليًّا بنفسه، أو بوصاياه لقادة الجيوش وأمراء السرايا أيضًا.

هكذا كانت المسيرة المقاومة الجهادية في حياة النبوة، تحقيقًا لنصوص القرآن وتنفيذًا لها بالدقة والالتزام والوفاء. بدأت من قريش وأحلافها بمجاهدة مسلحة للمعتدين، ثم تخللتها واختلطت بها مقاومات الجهاد الوقائي في القبائل وأهل الكتاب، وأخيرًا توالت أحداث مقاومة الجهاد الطلبي على المشركين من العرب ومن ماثلهم في العدوان، من بني إسرائيل والنصارى والروم.

---

(١) الحديث ٣٠٠٨ في البخاري.

فنيران الحرب منطلقة من جبهات مختلفة متعددة. وإذا رجعتَ إلى مخطط «توزيع المغازي» بتنسيقها التاريخي، كما عرضناه من قبل، تبين لك أن النبي الكريم قابل ذلك بحكمة القائد الملهم الخبير بأساليب الجهاد الشرعية. فقد فكّك اشتباكها وتداخلها، ثم وزعها على مراحل بحسب الفئات، وفي كل مرحلة يتصدى لبعض من تلك الفئات بالتدرج المؤدي إلى الاستيعاب:

لقد ضبط بني إسرائيل بعهد المسالمة، ومشركي المدينة المنورة وأهل كتابها بميثاق الوحدة والمناصرة، ليتوجه بأوائل المغازي إلى جهاد البغي القرشي. ولمّا خذّل بعضَ أحلاف قريش بالعهود، وكسر حدة العدوان وأخزى أصحابه في بدر، بالمَقاتل والأسر والهزيمة، انصرف إلى بني إسرائيل فحلّ مُعضلة تمرد بني قينِقاع.

ثم كانت غزوة السَّويق بهزيمة ثانية لمشركي مكة، فتيسر التفرغ لاعتداءات القبائل المجاورة وخيانة كعب بن الأشرف. وبعد غزوة حمراء الأسد، وإرهاب قريش ومَن حول المدينة لينسَوا مكاسب أُحد، عاد التوجه إلى القبائل الغازية والغادرة، فانتهى أمرها وأمر بني النَّضير، والمحتشدين في دُومة الجندل من النصارى المجندين لخدمة سلطان الروم.

وعندما نجا الأحزاب بجلودهم متعادين ومتخاصمين خاسرين، تمكن النبي القائد الملهم من القضاء على بني قُريظة، وهزيمة كثير من القبائل المجاورة المعتدية، ثم لجأ إلى تقييد قريش وحلفائها بعهد الحُديبية، يتفرغ لإنهاء أمر يهود بني إسرائيل في خيبر وما حولها، ويُجهِز على غزوات العديد من القبائل المشركة، ويوقف في اللقاء الحربي بمؤتة زحف الجيش الرومي ومَن معه مِن نصارى الشام.

وأخيرًا كان فتح مكة، واستجابت قريش وأحلافها إلى الإيمان والطاعة

والمناصرة في الجهاد، فتوالت المغازي للقضاء على الوثنية وأصحابها في الشرق والغرب والجنوب، جماعةً بعد أُخرَى، ولإرهاب نصارى الروم والشام ومَن حولهم من الأعراب بجيش تبوك.

وقد انصبت في هذه المغازي، كما رأيتَ، على المدينة المنورة سيول من الجماعات العربية، تمثل جمهور عرب الجاهلية ومن بينهم، لتحاصر الدعوة وأصحابها من جميع الجهات، بأخلاط من الوثنيّين واليهود والنصارى والمجوس. كان فيها من العدنانيين فرعا نزار:

قبائلُ الياس بن مضر بن نزار: كنانةُ بقريش ولؤي وضمرة، وخُزيمةُ بعضَل وقارة، وهُذيلٌ بلِحيان، وتميمٌ بالعنبر، وقبائلُ قيس عَيلان بن مُضر بن نزار: خَصَفةُ بهوازن وبكر وجُشم ومعاوية وعامر بن صعصعة وثقيف وكلاب، وغطفانُ بمحارب وثعلبة وسُليم وعُوال وفزارة ومُرّة وسعد بن هذيم. ثم نرى بين القبائل أمثالَ وائل وأسد من بني ربيعة بن نزار، ومن القحطانيّين قبائلَ طيئ وجُذام وضُليع ومَذحِج وغسان وعاملة ولخم وخثعم والأزد، وقبائلَ حِمْيَر بقضاعة وسلامان وعُرينة وعُذرة وبليّ.

وكثيرًا ما كان اختلاط وتعاون وتناصر بين بعض تلك القبائل أو فروعها، أو بينها وبين بني إسرائيل والروم. ومع هذا كله، فقد انتهت تلك السيول بالهزيمة والاستسلام: الوثنيّون فيها مسلمون مبايعون، وغيرهم مسالم موادع بعهودٍ ومواثيقَ تقيد الهمجية وتستبعد العدوان. وبذلك استتبّ الأمن للدعوة والدعاة، وانثالت وفود سائر القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر، معلنة الاستجابة للإسلام وقائده، بطواعية وانقياد وانصهار في أحياز الدولة الرائدة، وصارت الجزيرة العربية نواة صلبة متفتحة لمستقبل مشرق بالإشعاعات الإيمانية نحو بقاع المعمورة، تبدد الظلمات وتنشر النور الرباني الكريم.

على أن هذا لم يقطع دابر الكيد والفتن والعدوان. فالذين جلَوا إلى بلاد الشام من بني إسرائيل، والمنهزمون في غزوة تبوك وسرية أُسامة بن زيد رضي الله عنهما، لم يلقوا السلاح ولم يتخلّوا عن قصد المواجهات الحربية. أضف إلى ذلك نفوذ الفرس في العراق والجزء الشرقي من الشام، وأن بعض المسلمين المبايعين من العرب حديثًا لم تطمئن نفوسهم لكل شيء في الدين الجديد.

فهؤلاء في استسلام لشخص النبي ﷺ، بحسَب فهمهم للقيادة والزعامات المعاصرة البائدة، وأولئك في غيظ وشِبه قنوط، وحشد الجهود لاستعادة الهيبة ومناطق النفوذ المتسربة والمتداعية، أو الغارقة في الانهزامية والاستعداد للاستسلام والانصهار في حنايا دولة النبوة والإسلام. ثم جاءت وفاة النبي القائد الذي كان يواجه كل معتد أو ناقم بالوسائل المناسبة، فاحتدمت الصراعات وزُلزلت الأرض زلزالها.

لقد كانت تلك الوفاة الهائلة هزة عنيفة للأُمّة الإسلامية، زعزعت أركانها أولًا بين قبائل جزيرة العرب، إذ ارتدّ كثير منها عن الإسلام، أو خرج عن الطاعة للدولة وعلى بعض الأحكام، ولم يبق مبايعًا غيرُ قريش وثقيف. وإذ ذاك اشرأبّت أعناق النصرانية واليهودية والمجوسية، للانتقام وبسط النفوذ.

ذلك أن الحياة القبيلية التي أَلِفها العرب، عشرات القرون والعشرات، يتعذر عليها في بضع سنوات اعتياد التزام الخضوع لدولة واحدة، تجمع الشمل وتقود البلاد والعباد. وقد انصبت عليها، بلا شك، مكايد الدول والمنافقين والأحقاد المجاورة الناقمة، فكان ما يشبه الثورة والعصيان المسلح، أو ما يعرف في الحكم الشرعي بالحِرابة، أي: البغي والفساد في الأرض. وهذا علاجه بالجهاد الحربي، والعقوبات الرادعة، كما رأينا من قبل.

صحيح أن غياب القائد هزّ الأُمة وأفقدها كثيرًا من التوازن والاستقرار، في لحظات الصدمة الكبرى، لكن حزم الخليفة الأول رضي الله عنه مع إخلاص

الصحابة الأوفياء ﷺ للرسالة والتفافهم حوله هيأ للقلاقل المتصاعدة منافذ تجتابها وتُسقطها بالروح الجهادية الإسلامية المعهودة: القرآنية النبوية نفسها، من دون إخلال أو قصور.

فقد كانت القيادة الراشدة ومن معها من الولاة والأمراء فقهاء حكماء، بتربية الوحي والرسالة المُحكَمة، والخبرة الحربية المتعددة الجبهات في عهد القائد الراحل، وقد انتهت في كامل مراحلها وجبهاتها بالنصر المظفر.

فهؤلاء الأصحاب الكرام ﷺ متقنون لفقه المقاومة الجهادية بأنواعها: للمعتدي وللوقاية وللطلب، وحافظون بوعي لنصوص القرآن الكريم والسيرة المعطّرة من تفصيلات لذلك أقوالًا وأفعالًا وتوجيهات وإشارات، وبصيرون ماهرون في خوض جميع أشكال المعارك وأساليب الجهاد، ومواجهة كل مشكلة سريعًا بالعلاج الشرعي المناسب، مع الإيمان والتعقل والبذل والتقوى والاعتماد على الواحد الأحد.

فلا عجب أن ترى الخليفة الراشد ﷺ، بشيخوخته وهرمه واضطراب البلاد وتنمر الأعداء والحاقدين، يُنفِذ سرية أُسامة بن زيد ﷺ إلى مشارف الشام كما رأينا رغم ما في ذلك من مخاطر، ثم يَخرج بنفسه من المدينة المنورة، يقود الجيوش ويوجهها للقضاء على البغي والفساد والحِرابة، وتحدي المتربّصين الناقمين من دول وقبائل وعباد.

وبكل حكمة ورباطة جأش، وزّعَتِ الخلافةُ المباركة جيوشها على القبائل الباغية، فكان منها في شماليّ الجزيرة ما انصبّ على قُضاعة، وفي نجد ما لقي جماعات أسد وتميم وهَوازن وسُليم، وفي الشرق ما زحف إلى بني حَنيفة باليمامة ومن ارتدّ في البحرين، وإلى الجنوب بما فيه من أهل حضرموت ومَهرة وعُمان.

كل ذلك تم تنسيقه وتوجيهه وإنجاز مَهامه الحربيه في عام واحد هو

السنة ١١ من الهجرة المباركة. وهكذا قُضي على الفتن الداخلية في مهدها، قبل أن يصل لهيبها إلى صلب الدولة وأن تصل إمدادات الروم والفرس لها، ونال رجال الحِرابة جزاءهم العاجل بالحكمة والقوة والسلاح، واستعادت القبائل الثائرة عهودها والمواثيق، وعادت فيه أزمّة الأُمور إلى يد الدولة الكريمة ثم رجَع أُسامة رضي الله عنه من مسيرته الحربية بخضد شوكة ذيول الروم، والقضاء على كثير من الناقمين الثائرين، في طريق عودته.

هنالك كان على القائد الأعلى المظفر رضي الله عنه أن يواجه، بالأساليب الشرعية الناجعة أيضًا، مجموع الأحقاد والاستعدادات الناقمة في الدول والإمارات المجاورة، فأرسل خالدًا إلى العراق، ليتألف ما بها من الفرس ومَن في ملكهم من الجماعات. وبذلك سالمته القبائل العربية على معاهدات ومواثيق، بعضها أسلم وبايع، وبعض بقي على النصرانية أو المجوسية مع الجزية. وهذا أول الكسب في مواجهة الدولة المجوسية المحرِّضة الناقمة.

ولبث النصارى من بني بكر وتغلب ابنَي وائل مع الفُرس في تهيئة الجيوش والاستعداد للقاء. على أنهم خاضوا بعض المعارك عامًا واحدًا أو أقل، ثم انخزلوا عن الفُرس، وبقي هؤلاء المجوس ينافحون بالقتال عن سلطانهم ونفوذهم، حتى انتهى تاريخهم بلا عودة، وأصبحت بلاد فارس جزءًا من الدولة الإسلامية الناشئة.

فقد اندفعت تلك الأُمّة الشرقية المجوسية المجاورة ومَن وراءها من الوثنيات، واحدة بعد الأُخرى، تتهافت على أتُّون المعارك لحرب الإسلام والمسلمين، لتستبق الأحداث خشية القوة العظمى الجارفة، فكان الاصطدام الدامي، وانداحت الدائرة الإسلامية تكتسح من احتك بها أو ناوشها القتال. وهو استمرار في سلسلة هندسية من الوقائع والجلاد والفتوح العظيمة.

وبمتابعة ذلك، فُتحت المدن والثغور في السنوات التالية كما ترى: العام

١٢ لفتح الحِيرة، و١٤ للقادسية، و١٦ للمدائن وتكريت، و١٧ للأهواز وتستر والسوس، و ٢١ لنهاوند وأصبهان، و٢٢ لجرجان وطُبرُستان وأذربِيجان، و٢٣ لإصطخر وكرمان ومَكران وسِجستان، و٣٢ لطخارستان ومَرْو.

هذا في عهد الراشدين الأبرار ﷺ، حيث انتهى الأمر عند نهر جَيحون. وبعد استتباب الأمور في عهد الأُمويين، تجاوزت المَسيرات الجهادية هذا النهر فكان العام ٨٧ لفتح بُخارى، و ٩٢ لمَكران أيضًا وبلوجستان، و ٩٣ لخُوارزم وسمرقند والدَّيبُل، و٩٤ لكابُل وفرغانة ونِيروز، و ٨٥ لمُلتان، و ٩٧ لجُرجان، حيث وقف الزحف بمسالمة من وراء ذلك من الأُمم والشعوب.

تلك الحصائل في الشرق البعيد. أمّا في الشرق القريب من بلاد العرب وغربها، فقد عاد خالد ﷺ إلى تُخوم الشام والعراق والجزيرة منها بالنصر المظفّر. وعندما أدرك الفِراضَ حَميَتِ الروم واغتاظت، وهبت للحفاظ على نفوذها مستعينة بما بقي من مسالح الفرس وقبائل تغلب وإياد والنمر، وأثارت مَن كان قبلُ في حوزتها من نصارى العرب. وكان ممن نقض عهد المُسالمة بين هؤلاء أُكيدرٌ صاحب دُومة الجندل، فسار إليه خالد ﷺ سنة ١٢ وأجهز عليه.

ثم توالت الفتوحات يسيرة سريعة، بتعاون القيادات الخارقة الملهمة والمواطنين العرب الناقمين على الروم، إذ انخزلت القبائل العربية عن مَعونة هؤلاء، فكان العام ١٣ لليرموك ودمشق وبيروت وما حولها، و١٥ لحمص وحماة واللاذقية وقِنّسرين وحلب وأنطاكية ومنبج ومرعش وقَيسارية وأجنادين ورفح وغزة ونابلس واللدّ والرملة ويافة وبيت المقدس في الشام، و١٩ للفرمة وبِلبيس وأُمّ دُنَين، و٢١ للإسكندرية، و٢٢ لبَرقة وطرابلس، و٢٥ لتونس في إفريقية، و٢٨ لقبرص و٣٢ لمضيق القِسطنطينية.

وفي عهد الأُمويين، جدد الخلفاء ﷺ العزم على لقاء الناقمين من الروم، فبدأ في عام ٤١ فتح جَلولاء وسُوسة وبَنزرت، وجاء عام ٤٩ لحصار

القِسطنطينية، و٥٣ لرُودس، و٥٥ لبناء القَيروان، و٧٠ لغَدامس وقَفصة وقَسطيلية وتِلمسان وقَرطاجَنّة، و ٧٧ لِهرقلة، و٧٨ لطنجة، و٨٧ لسردينية، و٨٩ لمَيُورقة، و٩٢ للأندلس، حيث وقف الزحف الإسلامي في بَواتِية عام ١١٤.

كانت تلك المعارك في الغالب وقائية، إذ تتهيأ الجماعات الكافرة مدافعة لحماية دوائر نفوذها وسلطانها، ومتهيبة من توسع المدّ الإسلامي، تتهيأ للانقضاض على جيوش المسلمين الفاتحين في الأصقاع المجاورة، فيباغتها المجاهدون بالزحف الحاسم لكل خطة وتصور ومطمع.

والقليل منها لحرب المعتدي، إذ تهاجم بعضُ الجماعات المدنَ المفتوحة، فيتلقاها المسلمون بجهاد المستبسلين المستشهِدين، ويردونها على الأعقاب مدحورة خاسرة، ليحتلوا مواقع جديدة في شرقي المعمورة وغربيها. وفي كلتا الحالين يتيسر فتح ليولّد آخَر، له احتكاك بما حوله، فتتولد عنه معارك تلو الأُخرى.

وبهذا انداحت دائرة النفوذ الإسلامية واتسعت وتمددت في افتتاح القلوب والضمائر قبل البلدان، بتدافع الناقمين إلى ساحتها وسقوطهم في دُوّاماتها، وهي تلتهمهم وتستوعب تحت جناحيها عوالم عربية مستعجِمة أو أعجمية متعددة الجنسيات. وقد استمرت آثارها مع القرون تتعمق في نفوس أجيال تلك الأُمم، فكان عنها ما عُرف بعدُ بغزو التترِ والمغول من الشرق لديار الإسلام، ودولِ الفرنجة من الغرب بحروبها المنسوبة إلى الصليب، تَشغل القرون المتوالية والشعوب بوقائع حربية، ومعارك قتل وتهديم وتحريق وسلب للثروات والعلوم والحضارة.

ولقد تكدّست عقابيل ذلك الإرث القتالي حتى العهود القريبة منا والمعاصرة لنا، كما ترى وتسمع مما جرى ويجري في الهند والصين الشعبية ومنغولية واليابان وأندونيسية وباكستان وكشمير وبنجلادش والشام وأصقاع إفريقية وأمثالها، في القرنين الماضيين وذيولهما، وما يكون من رجالات الحكومات المعادية لنا

فيها أو حولها حلفاءَ لليهودية العالمية، أو منافسين لبويش الصغير من زعماء أوربة وإنكلترة والصين، وما يقترفونه في فلسطين وأفغانستان والشيشان والبوسنة والعراق ولبنان والسودان والصومال والفيليبين ومنغولية وسائر بلاد المسلمين.

ولا شك أن حال هذه المعارك تخالف ما أحاط بالفتح الإسلامي آنذاك، لأن أصحابها والقائمين بها هم في الغالب قادمون من ديار بعيدة جدًّا للغزو والبغي والعدوان. وقد نقل إلينا التاريخ بعض ما قدّمت أيديهم، في اكتساح العالَم الإسلامي من تدمير ومجازر وإحراق وسلب ونهب وتلويث وبلبلة، هو كاف للدلالة على أن لقاءهم بالمقاومة الحربية حقُّ جهاد، لما هو أشنع من جرائم المعتدي وأبعد في الوجوب والإلزام.

ولكنهم انتهَوا قديمًا إلى خلاف في المصير، لأن الشعوب الشرقية الغازية دخلت في الإسلام، وعادت إلى ديارها مبشّرة به وداعية إليه. هذا على حين أن الشعوب الأوربية ومَن وراءها كانت «يهودَ الروح» مشبعين بالحقد الوراثي،[1] ثم انصبت عليهم لعنة صِهيَون «يهود الروح والجسد» لتأسيس إسرائيل الجديدة على جماجم البشر، مرويّة بالدماء والأعراض والأوطان.

وكان عن ذلك أن أسّسوا واقعهم الأخير بالتوجه اليهودي المعاصر، بعيدًا عن حقائق النصرانية الكريمة، إذ جعلوا بقعة صغيرة للبابوية، شعارها روحي خالص منكمش على ذاته، وسائر الدول يحكمها الطواغيت الشيطانية والشهوات العارمة، متنكرة لتعاليم السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وعقيدة السماحة والأخوة الإنسانية.

ولما كان السوري الحلبي المشهور عبد الرحمن الكواكبي قد تبنّت حمايتَه القنصليةُ الإيطالية في مسقط، فآواه رجالها بالسفينة الحربية من «حُديدة»

---

(١) إحياء البحث العلمي الإسلامي ص ٩٨ ـ ١٠٤.

اليمنية وجنّدوه مستغلين أصله الصفوي الإربيلي لتغذية حرب الخلافة العثمانية، فإنه قبِلَ إكرامَهم وكافأه بتبني ما هم عليه من الضَّياع الديني، ونقلَ بتوجيه منهم وتشجيع وعون أشكال النظم السياسية من أوربة إلى بلد العرب، يدعو لها ويستقطب رجال العلمانية والإلحاد.

ظهر هذا في دعوته إلى تأسيس باباوية كواكبية عربية في «أُمّ القرى»، تمثل الجانب الروحي الخالص المنكمش على ذاته، ولا تتدخل في الأمور السياسية، وأمور الجيوش والحروب، ثم يكون في سائر الأقطار مملكات ودول هي في حلّ من التزام الإسلام وما يتفرع عنه شرائع وأحكامًا وأنظمة وقوانين.

وقد سانده في كثير من ذلك أساطين الاستعمار وعملاؤهم والسُّذّج من العروبيين والإسلاميين، ساندوه بالفكر واللسان والسلاح والأبدان، حتى صار بالكذب والبهتان رمز النهضة والفكر والبيان والإصلاح العربي والإسلامي، واستطاعت دعوته أن تجد لها منافذ في العالم العربي.

وها نحن أولاء نرى ما رسمته يد الماسونية الإيطالية، من البابوية الكواكبية في «أُمّ القُرى»، قد نفّذته بحذافيره فعلًا مخططات حلفاء الحربَين العالَميتين. فقد أُنشئت في الحجاز دولة فيها أمير المؤمنين سُمّي الشريف، ثم صارت مملكة واسعة النطاق، وهي تحمل شعارًا روحيًّا خاويًا من كل مضمون إسلامي إيجابي، تحت المِظلة الغربية وقيادتها وتوجيهها، وسائرُ بلاد العرب والمسلمين دساتيرها مستمدة من اليهودية الوثنية لفظًا ومعنى.(١)

ثم إذا عدنا إلى ذلك العالَم الأوربي منذ قرون نرى أنه تلقحت فيه أحقاده التاريخية بـ «ملحمة بني إسرائيل»، وتبنت التُّلمودَ الجديد على أنه كتابها المقدس، واللغةَ العِبرية على أنها لغةُ المملكة الوشيكة، ولسانُ الشعب

---

(١) انظر ص ٩ ـ ١٠ من كتاب: ولا يزالون يقاتلونكم.

الربّاني المختار، فكان ثمار غِراس رجال اليهود من الوثنية والوحشية أن تسنّم ذروة الكنيسة الأوربية في عصرنا هذا «بابا» يبرّئ اليهود من التصليب، ويتلوه من يتهجم على الإسلام وشعائره والرسول العظيم بوضوح وشراسة، ويفتح لوسائل الإعلام في عديد من دول الغرب المتهوّدة أبواب الخوض في هذه التفاهات الخبيثة، ويشجع من يسيء إلى المصاحف الشريفة بدناءة وصفاقة.

ومن ثَمّ ترى وتسمع يومًا بعد آخر ما يتوالى علينا، من الفتن المصطنعة، فقّاعات مثيرة في وسائل الإعلام، لتحملنا على التصرفات الغوغائية والأعمال السلبية، تشغلنا عن واجبات القمع والجهاد والتحرر والاستقلال.

وحكمُ ذلك التهجم وذاك الخوض وهذه الفتن هو ما صدر على كعب بن الأشرف وأمثاله في عهد النبوة، لا مجرّد الاحتجاج والمقاطعة الاقتصادية، ولا استجداءُ الاعتذار كما يسعى المتنطّعون.(١) ولذلك انعكست الآية على هؤلاء،

---

(١) هم يطالبونه في وسائل الإعلام «أن يعتذر البابا عن الإساءة»، وكان عليهم مطالبته «أن يعتذر من الإساءة» لا عنها. لأن ما ذكروه يعني أن تتحقق إساءته ولا يتراجع عنها ثم لا يعود إلى مثلها. ولو أرادوا تنصله من ذلك ومحو أثر الغضب، بالرجوع عما كان منه، لوجب عليهم التعبير بـ «من» لا بـ «عن»، كما قال أبو عمرو بنِ العلاء:

هَجَوتَ زَبّانَ، ثُمَّ جِئتَ مُعتَذِرًا ... مِن هَجوِ زَبّانَ، لَم تَهجُو، ولَم تَدَعِ

وقال النعمان بن المنذر:

قَد قِيلَ ذلِكَ، إن حَقًّا، وإن كَذِبًا ... فما اعتِذارُكَ مِن شَيءٍ، إذا قِيلا؟

انظر الخزانة ٢: ٧٨ و ٦١ والكتاب ١: ١٣١ واللسان والتاج (عذر). وقول النعمان يعني أن الاعتذار في مثل هذه المواقف لا يجدي، والعلاج هو ما ذكرناه قبل، لئلّا يجرؤ أحد على ارتكاب الحماقات بعد. ثم يجوز أيضًا أن تحل اللام محل «من»، فيقال: أن يعتذر للإساءة.

تلك هي سُنّة الله في خلقه، عرضها علينا مرارًا في القرآن الكريم، بما نال الساخرين والمستهزئين في عهد نوح وما بعده إلى البعثة الشريفة، من استئصال بالطوفان والخسف=

إذ استجاب لهم البابا الآخَر باعتذار يتهمهم فيه بالغباء فعلًا لأنهم، كما قال، لم يفهموا كلامه وحملوه على غير ما أراد، فإذا هو يسخر من علماء المسلمين ورجالات الدعوة والفكر الإسلامي، كما يقال.

وها أنت ذا ترى اليوم ما يجري بفعلِ تلك العقيدة اليهودية الجديدة في غزو الحلفاء لبلادنا،(١) موقدين الحروب للتقتيل وتشريد الناس من ديارهم، وإشاعة الدمار والفتن والكفر والفواحش والمنكرات والمخدرات والتآمر والخيانة. كل هذا بادعاء أنهم يحاربون الإرهاب، وهم أهله وناشروه ومنفذوه وموقدوه في أرجاء المعمورة، بدعوة وتأييد وتيسير ومعونة من سماسرة القيم والشعوب بين المسلمين.

فموقف هؤلاء الغازين من أقاصي قارات العالم أشنع مما كانت عليه قُريش وأحلافها، لأنها في مكة صاحبة الديار التي تتحكم في مصيرها وتدافع عن مواريثها الدينية والاجتماعية والمالية. فلا غرو أن يكون غزو الأوربيين وحلفائهم لديارنا أشدّ نكيرًا مما كان في العدوان القرشي، وأبعد مدى منه في البغي والطغيان، فيتعذر عليك وصفه بما رأينا من أنواع في مشروعية الجهاد.

إنه ضرب جديد من الحروب يحتاج إلى صياغة صفة له، تستوعب ما يتضمنه من الهمجية والدناءة والقذارة، ويتطلب مقاومات جهادية عالية

= والأعاصير والتقتيل. وقد لخصها للنبي الكريم بقوله: ﴿ولَقَدِ استهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ، فحاقَ بالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُم ما كانُوا يَستَهزِئُونَ. قُلْ: سِيرُوا في الأرضِ، ثُمَّ انظُرُوا: كيفَ كانَ عاقِبةُ المُكَذِّبِينَ﴾؟

(١) الحق أن خمُس يهود العالم ينكرون هذا الغزو ويعتقدون أنّ الله كتب عليهم التشرد والتفرق في البلاد لِما ارتكبه أجدادهم من الكفر والعصيان والفساد، وأنّ اجتماعهم في فلسطين هو من الكفر أيضًا، وسيكون سببًا لهلاكهم. فخير لهم العودة إلى التشرد والضياع. انظر الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية لروجيه غارودي ص٣١ وكتاب ومضات لمحمد كلزية ص٤٩-٥١.

المستوى عظيمة القدر، تناسب ما تفرزه الأيام من جرائم الغازين وحقاراتهم الفظيعة. فهؤلاء الحلفاء سيول من تلك البحار التاريخية القديمة، تحمل الحقد والثأر والنقمة بالوراثة المتأصلة والتربية الوثنية اليهودية، وتبغي القضاء على كل شيء إسلامي.

ولكن الله غالب على أمره، وليُغلَبَنَّ مُغالِب الغلّاب. فقد ظنّ بعض الأفّاقين أن القضية انتهت باستبداد الغازين منذ قرن تقريبًا. هذا هو الإنكليزي الجنرال اللّنبي يقول في القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية»، ثم ترى أيضًا الفرنسي الجنرال غورو حين وقف، أمام قبر صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - يتحداه بنشوة الظفر، ويطلب منه أن يهبّ من مرقده، ليشهد عودة الجيوش الصليبية. على أن هذا الجنرال المأفون مع من قبله قد أخطأ، فيما ادعاه، مرتين:

أُولاهما: أن الحروب الصليبية لم تضع أوزارها بانتصار دول الاستعمار آنذاك، وإنما ألقت الأسلحةَ الحديدية، وتلبست أقنعة الوصاية والصداقة والاستشارة والتمدين محاولة تضليل المسلمين، واستنزاف قدراتهم المادية والمعنوية، وسحق ما فيهم من بقايا الدين الحنيف. وإذا كان بعضنا قد انطلت عليهم المكايد والحيل، أو سوّغها وتقبلها لحاجات في نفسه، فإن أكثر العرب والمسلمين أدركوا الحقيقة، وانطلقوا في ثورات ومقاومات ومعارك حربية وفكرية متميزة ، وهم يستعدون للقاءات ولقاءات.

وثانيتهما: أن ذاك الانتصار إنما هو نهاية جولة، لا خاتمة المطاف، والأيام سجال يداولها الله - سبحانه وتعالى - بين الناس، ولا بد من جولات وجولات حتى يستقر الحق ويزهق الباطل بكل ألوانه، وينفرد الإسلام الإسلامي بالحكم في جميع وطننا. والعاقبة للمتقين، وما ذلك على الله بعزيز.

فمن المحال أن تنتهي الحرب بين أنصار الله وأتباع الضلال ، لأنها

أبدية خالدة، كما أعلمنا العلي القدير: ﴿ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم، حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا﴾.[1] وقد صرح الرئيس الأمريكي بُويش الصغير الحادي عشر في أيامنا هذه، عن غزواته لنا هو والحلفاء، بأنها امتداد للحروب الصليبية، وما زال يتابع ذلك في كل ميدان، ثم يكذّب نفسه مراوغة وتضليلًا لأغبياء سماسرة القيم والشعوب، حتى يتوهموا ويدّعوا أنها حروب سياسية لا علاقة لها بالأديان.

ففي تلك المسيرات الجهادية الإسلامية القديمة والمتأخرة والجديدة والقادمة سلسلة محكمة الحلقات، تحقق نداءَ السماء لنا منذ ألف وأربعِمِائَة سنة ونيف، وتنبيهَنا إلى اتخاذ الموقف اللازم من القوة والمرابطة، أي: إعداد السلاح ومواصلة التدرب والمرابطة للجهاد في سبيل الله. وذلك النداء الأبدي يصف به الله ـ عز وجل ـ لنا موقف جميع الدول الكافرة من الأُمّة المسلمة، في كل عصر وكل قطر.

فالفعل الأول في «لا يزالون» يعني الاستمرار الدائم من الغزاة المعتدين في المقاتلة للرد عن الدين إلى الأبد، ما دام في الكون إيمان وإسلام، وإذا توقفوا قليلًا أو قصّروا يومًا في ذلك فلأنهم عاجزون عن المتابعة يستعدون لها في القريب العاجل.

أما الفعل الثاني في «يقاتلونكم» فيفيد أنهم هم الذين يبدؤوننا بالحروب، لأن الفعل «يقاتل» يعني المشاركة يبدؤها الفاعل، ونحن نشاركه فعله بواجب المقاومة الجهادية للمعتدي. وهذا هو نصيب المسلمين من غيرهم، في كل زمان وفي كل مكان، إلى الأبد.

ثم أنت ترى أن الفعل الثالث هو الغاية النهائية لتلك الحروب. فهم

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

مستمرون في عدوانهم الوحشي، بأشكاله المختلفة، من القتل والتشريد والتعذيب والحصار والدمار وهتك الأعراض واستنزاف القدرات وسلب الثروات وشراء الضمائر وتلويث الإنسانية والإنسان والبيئة والمجتمع، حتى يُخرجونا عن الإسلام، على أيّة صورة كانت.

فهم لا يهمهم أن نصبح من النصارى أو اليهود، ولا مجوسًا ولا وثنيين ولا ملحدين. كل ما يريدونه هو أن نتخلى عن ديننا، ونترك الإسلام الحقيقي والإيمان القرآني. وهذا يعني أن حربهم في الحقيقة هي للدين الإسلامي، بقصد الإجهاز عليه ومحقه، والعياذ بالله. هنالك يلقون السلاح، ويدَعون الحروب المادية والمعنوية، ويَلزمون المسالمة الحقيقية والموادعة السياسية، والرعاية والعون والحماية لمن سار في الطريق المنشود. وهذا يعني أيضًا أن الدولة أو الجماعة منا إذا سالموها وحالفوها فقد يكون ذلك لأمرين:

أولهما هو: أنهم عجزوا عن غزوها واحتلالها كما ذكرنا قبل، إذ القيد الشرطي مع جوابه المحذوف في آخر العبارة الكريمة «إنِ استطاعوا قاتلوكم حتى يردوكم» هو في محل نصب حال من فاعلَي الفعلين: يقاتل ويرد. يعني أنهم لم يقاتلوا لفقدهم الاستطاعةَ والقدرةَ على ذلك. ولما كانت هذه الاستطاعة مقيدة بشرط احتمالي، غير متيقَّنٍ حصولُ مضمونه، تبيّن أنهم سيواصلون الاستعداد ومحاولات الغزو دائمًا

والثاني هو: أنهم قد جندوها وحالفوها واستعانوا بها في تحقيق سياستهم وغزواتهم لقتال بعض المسلمين، لأنها حققت فيها حكم الله ـ عز وجل ـ على أكمل وجه، أي: ارتدت عن دينها الحنيف، ودخلت متاهات اليهودية الوثنية بشكل مّا، وأصبحت ممن يقابلهم هؤلاء بالصداقة والعون والحماية.

أما إذا منحوها الرضا والمحبة فتكون قد حكمت على نفسها أنها صارت في ملتهم بكفاية وجدارة، كما جاء في الآية ١٢٠ من سورة البقرة. وهذه هي

الدرجة الثالثة في مرتبة دولنا من الإسلام: الإيمان أو الرِّدّة أو التنصّر والتهوّد. فلتختر كلٌّ منها ما يناسبها وتضع فيه نفسها من تلك المراتب.

أما شعوبنا المؤمنة فقد عرفت منزلتها، واختارت الطريق الأول، طريقها في مقاومة حروب الأعداء بالجهاد الدائم، ترفضُ التنازلات وتثور بكل جرأة وتحدٍّ وعناد، وتتابعُ سبل الاستشهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ حتى ترد العدو عن البلاد، وتملك الحرية والاستقلال والسيادة، وتعيد زمام قيادتها إلى المؤمنين المخلصين.

ولهذا أيضًا ترى قوافل الجهاد والشهداء لا يحدّها قرارات دولية مزوّرة، ولا يوقفها بيانات أمريكية يهودية مصنوعة مأفونة، ولا أخبار ترهيبية مختلفة متوالية، ولا توصيات مؤتمرات دينية مشبوهة، ولا ندوات تسوّغ المقاومة السلمية(١) وتوهّن قيمة الجهاد، ولا سلاح الدمار الشامل في أيدي غزاة الحلفاء وأذنابهم من المتمسلمين، ولا وصفها كذبًا وزورًا وبهتانًا بأنها إرهابية أو منتحرة.

لقد حاروا في حل معادلة صعبة المنال مستحيلة الانحلال متعاندة الجناحين، لا يكسر شِفرتها كل ما لديهم من أحابيل الغصب والنصب والاحتيال، وتعجز عن فك رموزها أعلى المبتكرات الآلية والتِّقنية والحربية والسياسية، مع أنها بسيطة عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. نعم إنها بسيطة صاغها الرحمن حين فرض المقاومة الحربية، فصار المجاهدون منا والمعتدون منهم في ميادين اللقاء كما قال سيف الله خالد بن الوليد: نحن قوم نحب الموت في سبيل الله، وهم قوم يحبون الحياة.

---

(١) قد تفيد المقاومة السلمية إذا واكبت المقاومة الحربية وقام بها بعض المجاهدين المخلصين، لئلّا تتوجه أنظار العدو إلى القيادات وأسرار العمليات الجهادية. أما مساعي المنافقين وسماسرة القيم والشعوب في المسالمة فلن يكون منها إلّا التضليل والانشغال بالأباطيل.

فالجهاد ماض في هذه السبيل حتى يتحقق استقلال العالم الإسلامي ويتحرر من الغزو الأثيم ويستقر فيه حكم الإسلام وحده، أو حتى يرث الله الأرض وما عليها، ما دام إسلام ومسلمون بحق، لأن دوافع العدوان علينا لا تنتهي ولا تستنيم كما جاء في الآية الكريمة، ولن يطفئ أوارها ما ينادَى به اليوم من الحوار الحضاري والتقريب بين الأديان وأثرهما في إشاعة السلام. والقضية عداوة من طرف واحد، هو أمم الكفر والوثنية واليهودية والإلحاد، لا يوقف زحفها إلّا عجز آني أو ردّة المسلمين عن الدين الحنيف. فلندَع تلك الشعارات الوهمية البالية التي تخدع بعض السفهاء، ويروّج لها زبانية العدوان وأذناب العَولمة والتبويش.

ثم إن هذه القوافل الاستشهادية لا تترقّب عودة الإمام المنتظر، ليسمح لها بالجهاد كما يدعي بعض المثبطين، إذ كل فرد منها هو إمام نفسه في ذلك، ما دام في أرض الإسلام عدو غاصب. وقد فصلنا حكم ذلك فيما مضى، بحمله على ما يرد في أمور الصلاة. فالمسلم يلتحق بصلاة الجماعة إن وُجد إمام، ويؤمّ نفسه ويأتم بها إن لم يجد من يأتم به.

وقد بيّن لنا النبي الكريم ﷺ ظروف واقعنا المستقبلي على أنها حقيقة دامغة، وجعلها قريبة دائبة تهددنا في كل لحظة، حين قال: «يُوشِكُ أن تَداعَى علَيكمُ الأُممُ، كَما تَداعَى الأكَلةُ على قَصعتِها».(١) فنحن مستهدفون دائمًا بالغزو، مهدَّدون أبدًا بالفتك والاستنزاف والدمار والإبادة، ما دمنا مسلمين.

ثم أوضح لنا سبيل الحياة الكريمة في تلك الظروف. وهي مواصلة الجهاد استعدادًا وتهيئة وبذلًا واستشهادًا، أي: طلبًا للشهادة. وذلك في قوله

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٢: ١٢٠.

الشريف: «الجِهادُ ماضٍ مُنذُ بَعَثَنِي اللهُ إِلَى أن يُقاتِلِ آخِرُ أُمّتِي الدَّجّالَ».[1] وهذا هو ما تشاهده أو تسمع به كل يوم وساعة ولحظة، في ميادين فلسطين والعراق وباكستان والشِّيشان والصومال وسائر الديار الإسلامية، من مجابهة للغزو باستبسالات من قوافل الشهداء الأبرار، تسميها أبواق البوشية اليهودية «هجمات وحوادث انتحارية»، لتُرضي بذلك أسيادها من المعتدين الغاصبين.

أدب المقاومة

سرنا معًا في تلك الفصول المتوالية، نرصد نماذج المقاومة الجهادية في حياة النبوة المشرّفة، خلال المرحلتين المكية والمدنية، وكنا خلال ذلك نتلقى النصوص التي تُنثر بين الأحداث، من آيات كريمة وعبارات شريفة للأمينين جبريل والرسول ـ صلى الله وسلم عليهما ـ وأقوال من النثر والشعر للصحابة الكارم، تراها مبثوثة في مصنَّفات السِّيَر والتاريخ، وتتلمس آثارها في الحركة التاريخية، بتكوين الصورة المثلى للعمل النبيل، يساهم في رسم خطوات الدعوة الإيمانية الكريمة.

فقد رافقَتِ الإجراءاتِ العملية نصوصٌ قولية، تمثل الأدب الفني الذي يلوّن الأحداث والوقائع بطوابعه الخاصة والعامة، ويكون له فعّاليات مختلفة الدرجة والنوع، بحسب مصدره وتكوينه ومقاصده وصدق مضمونه وأبديته. إنه أدب المقاومة في ميادينِ الدعوة، وسبلِ الحياة بين الجماعات الإنسانية، يغذيها بروحه وتوجيهاته وأساليب الخطاب والبيان، ويتخذ منزلته بحسب فعّالياته وآثاره الآنية أو الخالدة الأبدية، والمحلية الخاصة أو العالمية العامة.

---

(١) الحديث ٢٥٣٢ في أبي داود.

فقد تنزلت توجيهات السماء وانطلقت أناشيد الأرض، تحيط بالأحداث وتختلط بها، كما رأينا في وقائع المغازي، وتتجاوب أصداؤها في كثير من المواقف والعناصر المكونة لها. ولسنا ههنا في صدد المقارنة بين فعّالية كل من الإيحاء الأرضي والوحي السماوي، لأن الفرق شاسع جدًّا لا يجوز التفكير فيه، بلهَ القيامَ به، وأين الثرى من الثريّا؟

وإنما نريد أن نضع لمسات تبين الخِدمات التي قدمها توجيه السماء والإنسان، في مواطن الجهاد بين الحق والباطل، لنزيل التُّرّهات التي غرسها رجالات الاستعمار الباغي في تفكير أجيالنا الحديثة والمعاصرة. فقد انقض هؤلاء بالغزو أيضًا على المفاهيم الإنسانية والمصطلحات العلمية، يعبثون بها ويشوهون معانيها ويلوثون وظائفها ومقاصدها، ويلبسونها ثيابًا قميئة بالدس والتحريف والتضليل.[1]

ومن ذلك ما ألقوا في مصادر التربية والتعليم والثقافة والتفكير والتدبر والفعّاليات الإنسانية، ليزيحوا القرآن الكريم والحديث الشريف عن منصة القيادة، ويُحلّوا محلهما ما تنتجه القرائح من الأدب الفني. فقد زعموا لنا أن الأدب الغنائي هو الذي يحرك الأمم، ويقودها في مجاهل الحياة، ليُصلح أمورها ويُسيّرها في سبل التحرر والسيادة والحضارة والعلوم والمعارف، وأن الشعر هو الصورة الحقيقية للأمم، والمرآة التي تعكس الواقع الفعلي لها.

وقد زرع تلاميذهم وربائبهم ذلك في أرضنا الثقافية، فجعلوه أصلًا متداولًا بين أيدينا، في مقررات التدريس ومصنفات الأدب، ومؤتمراته وندواته ومحاضراته، وفي وسائل الإعلام من صِحافة وإذاعات وتلفزات وقنوات فضائية. وبمثل هذا بشّرت ذيولهم، فيما ألفوا من تاريخ للأدب، ودراسات

---

(١) انظر ص ٤٥ ـ ٥٠ من كتابنا: ولا يزالون يقاتلونكم.

للأدباء وتطور المجتمعات، وصنفوا من أقاصيص وقصص وتمثيليات ومسرحيات ونقد وتوجيه وتقويم. فلا غرو أن يتصدر الأدباء إذًا مسيرة الحياة زُورًا وبهتانًا ليرسخوا الضلالة والاستخزاء، ويعيش القرآن الكريم والحديث الشريف في زوايا المآتم والحفلات ، ضمن إطار من التغني والاستمتاع .

ذلك ما غُرس في عقولنا، منذ عشرات السنين، ودُعّم بالأدلة المفتعلة والشواهد الملتوية، حتى نسينا أن أدب الجاهلية، على ما فيه من نضج وتألق وإبداع قبل الإسلام، لم يستطع أن يحرك العرب خطوة واحدة نحو الخير أو التفتح والاستقلال عن سيطرة الروم والفرس، ليكون خطابًا ثوريًّا للجماعة بعيدًا عن الذاتية المغرقة، كما يزعم المخرِّبون للعلوم والفنون والثقافة اليوم.

فلقد لبث نتاج الشعراء قبل الإسلام قرونًا بعد قرون، يعيش في ركاب التبعية، للقيم السائدة وتوجهات صناديد القادة والزعماء والكهان وجهلاء الطيش والرعونة والغباء، ليزيد الأمة انحدارًا وعبودية لغير الحق. وهو ما نراه اليوم ونقرؤه ونسمعه ضمن كثير من وسائل الإعلام المختلفة، ونتاج مرتزقة الأدباء في وطننا الإسلامي وبلاد العالم كله .

كلنا يعلم أن الأدب الفني شعرًا ونثرًا هو رؤية لصاحبه وصبوات وأشواق وتطلعات، تتيح له الانطلاق من الواقع، ليصوغ إنتاجًا يملأ نفسه، ويحقق له الإبداع واللذة وإيحاء الفاعلية والانفعال. فهو لا يَسأل عن الصدق الواقعي ومصلحة الإنسانية، بقدر ما يتلمس الصدق الفني والتغني بالرؤى والصبوات، للتعبير عن تجاربه المصطنعة وأحلامه المتصورة وعواطفه الذاتية المرهفة وأشواقه المجنحة، وتوليد ما يُشعر بالإبداع والتفنن.

وإليك مثلًا زهيرَ بن أبي سُلمى، الذي عُرف منذ نصف قرن في عالمنا الأدبي بأنه شاعر الحكمة والسلام، ونُشرت حوله هالات الصلاح والقيم

والإنسانية، وأُلفت كتب توسّع ذلك في شخصيته وشعره. فلقد عاش هذا الشاعر الكبير في بني ذبيان ٤٠ سنة مع حرب داحس والغبراء، يتغنى بالعدوان كيدًا ونُجعة، ويمتدح القادة بما يخوضونه من المعارك، في قتال إخوتهم بني عبس، ويمجّد القتل والتشريد والسبي وسلب الغنائم. ثم تراه، حين اتفق الزعيمان على الصلح، راح يُشيد بالسلام ويشنّع ما تجرّه الحروب من ويلات وبلايا.

فأين استقلاله الفكري؟ وأين قيادته للإصلاح، وهو أقرب أنداده إلى الحكمة والتعقل والصلاح؟ وهل غيرُه من الشعراء كانوا أفضل منه في ذلك؟ الحق أن العرب عاشوا مع الجاهلية والطيش والتبعية، عشرات العشرات من القرون المتطاولة، وما كان لأدبهم الرفيع أن يزحزحهم قيد أنملة عن ذلك. بل كان يغوص بهم في حمأة التضعضع والتبعية لباطل الأباطيل، من وثنية وجهل وعبوديات فارسية ورومية.

حتى إذا دوّت آيات الله ومقولات النبوة في أسماعهم وقلوبهم هزت أركان الضياع، ودفعتهم نحو التحرر والقيادة وصناعة الحضارة والتاريخ. وعندما شُغلنا نحن بأباطيل المستشرقين وصنائعهم، رجعنا إلى الجاهلية الجهلاء في ضعف وعبودية للمعتدين الغاصبين، واستسلام لكل أنواع الذلة والتبعية والاستخزاء. تلك هي حقيقة القيادات الفكرية في تاريخنا قديمًا وحديثًا، وليس للأوهام أن تزيل بأكاذيبها الحقائق الدامغة. وها نحن أُولاء الآن نفصل الموضوع فيما يلي:

١ ـ **أصداء الوحي والحديث في المغازي:** توجّه نداء السماء والنبوة للأرض منذ فجر الدعوة، وكان بترجمة النبي ﷺ له روحًا وعملًا يتابع الأحداث بالرعاية والتوجيه، قبل مرحلة الجهاد القتالي، ليغرس صفاء العقيدة والعبادة والشريعة والسلوك، ويُعِدّ أُمة جديدة لتسنم ذروة التاريخ والحضارة الإنسانية.

وقد رافق ذلك مقولات للصحابة الكرام ﷺ، تفتح بعض الجوانب العملية في حياة المقاومة الجهادية، صدرت عن الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ممثلة تبادل التأثر والتأثير بين الفعل والقول في أحداث الدعوة وصراعها مع الصناديد والبغاة، وما كان للشعر ذكر ظاهر في المرحلة المكية تلك. وبذلك استطاعت الآيات الكريمة والمقولات النثرية أن تهيئ وحدها نفوس الصحابة، بالجهاد الأكبر سنوات، لخوض ميادين الجهاد الأصغر بعدُ، في نجاح وظفر وانطلاق.

ففي مراحل التوجيه المبكرة، صُقلت النزعات الفردية والقبلية والعصبية، لتصبح ولاء لله وحده، وطاعة للرسول ﷺ في السرّاء والضرّاء. وبامتحان التعذيب والتشريد وافتقاد الوطن والأهل والمال، أصبح مفهوم المقاومة ممهورًا بطابع الجهاد، الجهاد في سبيل الله، ونصرة دينه والمسلمين والوطن الإسلامي.

وخلال ذلك كنت تسمع ما يوحَى من الآيات الكريمة، وما يصدر من توجيهات الأمينَينِ جبريل والرسول - صلى الله عليهما وسلم - وأقوال المجاهدين المؤمنين الصابرين، في مقاومة البطش والتنكيل والتعذيب والتقتيل والتشريد، تسمع ذلك كله وترى كيف يهيئ النفوس لصنع المستقبل الرشيد، ويرسم للأجيال القادمة سبل العمل في مثل تلك الظروف العصيبة؟

وبعد بضع عشرة سنة من التربية والتوجيه بالقول والفعل، صار بين يدَيِ النبي القائد ﷺ جنود فدائيون رهن الإشارة، وأداة طيعة للبذل والتضحية والمقاومة والاستشهاد. فما بقي لهم وطن محدود بمكة أو المدينة، ولا مال أو عقار يخشون ذهابه، ولا أهل يخافون ضياعهم، لأن الله هو الحامي والمعين والخليفة في الأهل والوطن والمال والولد.

كذلك كانت مسيرة التوجيه الإسلامي منذ نشأة الدعوة، ثم رافق وقائعَ المغازي بالعناية، يرسم خطواتها للتنفيذ وقت اللزوم ويعدل نقائصها، ويكشف

خطط العدو ومؤامراته وخياناته للعهود والمواثيق، ويفتح للمعارك طرق العمل القويم، ويبيح ما كان محظورًا ويحرّم ما كان ميسورًا في الجاهلية، ويبارك الخطوات الحربية والسلمية الجريئة بالرضا والقبول والتشجيع والثواب العظيم.

وأخيرًا خَتمَ المسيرةَ بأن ما تنزّل من القرآن العظيم، وتحقّق في السُّنّة المطهّرة من مقولات النبوة والصحابة كل الصحابة رضي الله عنهم قد أكمل الدين وأتم نعمة الله. فلا خوف على المسلمين، ولا بأس أن تنطلق مساعيهم في أرجاء المعمورة، وهي في ظفر وتألق وانداياح. وفي هذا كله أحكام للماضي والحاضر والمستقبل، تنير السبل للخلفاء والأمراء والولاة والقادة والأمّة، وقضاة الأمصار فيما يكون من معضلات الفتح القريب.

وحسبنا هنا أن نقتصر على أصداء الوحي في تلك الحقبة من التاريخ، مع العلم أننا لا نعني به النصوص القرآنية وحدها، لأن الرسول الكريم ﷺ أُوتي القرآنَ ومثلَه معه. فلا بد أن نضم إليها ما كان من إيحاء رباني بكلام آخَر على لسان جبريل أو إلهام على لسان الرسول الأعظم يعرض للمشكلات والأحداث، ويكون له أثر ظاهر في تصرفات النبوة قيادة وتوجيهًا وسعيًا، ضمن تضاعيف المقاومة الجهادية.

فقد ظهر لهذا الإلهام وذلك الإيحاء حضور عظيم في مراحل الجهاد الدامي، سجله لنا التاريخ، وترك بصماته في كثير من الظروف العسيرة المجهدة. وأول ما يبدو من ذلك، بعد الإعداد والتهيئة للفداء، ما ذكرناه في «التمهيد» من توضيح لمفهوم الجهاد وتحديد لوسائله وغاياته وقيوده الشرعية، وتحبيب بالاستشهاد وتكريم للمجاهدين والشهداء كما رأينا من قبل.

وقد شاركت في ذلك مقولات ربانية ونبوية وعبارات من الصحابة رضي الله عنهم، تغذي مسيرة الكفاح والمجالدة. إلّا أن ما حازه الوحي، بالمفهوم الذي ذكرنا،

كان له النصيب الأوفي والسهم الوافر، في صنع جيل الدعوة والجهاد، وتخطيط نهج المقاومتين السلمية والحربية، وتحقيق النصر في جميع المواطن، وتقديم الدستور العملي لأجيال الأمة عبر التاريخ المستقبلي القادم.

وهذا وأمثاله، من نعم الوحي، هو ما لم يحظ بشيء منه جميع المقولات الشعرية التي ألقيت في ميادين الجهاد، وتغنى بها العشرات من أصحاب الشعر رجالًا ونساء. وفرق كبير بين تلك التوجيهات الخلّاقة وبين أنغام التغني بالمديح والهجاء والفخر والوصف للمشاهد والأعمال الجزئية الصغيرة المتناثرة.

ومع ذلك أيضًا، فقد جاء في تضاعيف الآيات الكريمة تسجيل تاريخي لبعض المغازي. ونحن قرأنا فيها معًا ما ورد عن نصر المؤمنين ببدر وهم أذلة، وغُدوِّ النبي من أهله في أُحُد يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، وكفِّ أيدي المشركين يوم ذات الرقاع إذ هموا بالهجوم وقت صلاة المسلمين، واحتشاد الأحزاب حول المدينة يوم الخندق وإرسال الريح والملائكة عليهم، وإنزال بني قُريظة من حصونهم للتقتيل، وجعلِ عهد الحديبية ظفرًا وبشارة بالفتح القريب، والنصرِ في مواطن كثيرة ويوم حُنين بعدما أعجبَتِ المسلمين كثرتهم، فلم تغنِ عنهم من الله شيئًا، وكفِّ أيدي المسلمين والمشركين يوم الحُديبية وفي فتح مكة، وما سيكون بعد العودة من تبوك.

فهذه لمحات عابرة تعيّن الوقائع وتبين ما كان فيها أو ما سيحصل بعدها أيضًا، فتخص غزواتٍ للنبي ﷺ وتسجل منَّ الله على المؤمنين بكثير من السَّكينة والعون والتوجيه والحماية والإنقاذ.

ولما استغل اليهود والمشركون ما كان في سرية نخلة، في الشهر الحرام، جاءت الآيات تندد بمزاعمهم، وتبين أن فتنة المسلمين عن دينهم وحرب الدعوة الإيمانية في البيت الحرام والأشهر الحرم هما القمينتان بالتنديد والتشهير،

لا قتال حربي كان مواجهة بالسلاح، ثم تبشر المجاهدين في تلك الموقعة بأن لهم أجرًا عظيمًا ورحمة من الله، تعالى.

وإنك لتجد معنا أن الوحي الرباني قد أباح القتال في العهد المدني بعد حظره على المؤمنين في مكة، بل أمر به لمجابهة المعتدين من قريش وحلفائها، وللقضاء على أهل البغي والفساد في الأرض، ثم عممه على المشركين من العرب، وعلى المحاربين للدعوة أو لأبنائها أو أحكامها والمتهيئين لغزوها من بني إسرائيل ونصارى الروم والأعراب.

وقبل الدخول في معركة بدر، جاء الوعد على لسان جبريل بالنصر والظفر بإحدى الطائفتين، وبشر النبيُّ الكريم الصحابة ﷺ بذلك، ثم تحقق وقوعه بأمر الله وعون الملائكة. وخُتمت الغزوة بالسخرية من استفتاح قريش إذ انقلب عليها، وبالعتبِ على المؤمنين لقبول الفدية، وبسطِ حكم الأسرى وافتدائهم وتيسير إيمانهم.

ولما جاهر بنو قينقاعٍ النبيَّ ﷺ بالعداوة ونقض العهد، شنع الله ما أتوا به، وهدّدهم بالنهاية الفظيعة كما كان للمشركين ببدر، وأمر النبيَّ ﷺ أن يقابلهم بنبذ العهد أيضًا، ويعاجلهم بالجهاد، ونعى على المنافقين موالاتهم للكفر والكافرين، وامتدح حزم الأنصار وطاعتهم لله والرسول.

وفي يوم أُحد فوجئ الرسول ﷺ بما أصابه من الجراح بأيدي قومه، وكاد يغضب ويدعو عليهم فيما قال، فجاء الوحي القرآني بأن نهايتهم مع ظلمهم وبغيهم هي بيد الله، هو يهديهم ويتوب عليهم، أو يُنزل بهم عذابه. ثم فوجئ المجاهدون بما كان من التمثيل في حمزة، وعزموا على مضاعفة ذلك في مجابهة المعتدين، فوجههم الله إلى العدل والنصفة، والصبر على المُصاب لإدراك ما هو خير وأفضل.

وبعد ما انتهت المعركة بما انتهت إليه، تنزلت الآيات تصف انخزال المنافقين، ونصر الله للمؤمنين في أول المعركة، وخسارتهم لمّا نسوا التقوى والصبر وطاعة الرسول وصدّقوا مزاعم المشركين بمقتل النبي ﷺ، وخُتم ذلك بتهوين المُصاب، والتذكير بنصر بدر، وعفو الله ورسوله عما بدا منهم، ونسبة التضعضع إلى وسوسة الشيطان وأباطيله، وتوجيه النبي الكريم إلى مشاورتهم في إعداد المعارك، لئلّا يكون ضعف وخسران كما حصل يومئذ.

وبُعيد رجوع المجاهدين من حمراء الأسد، وفزع المشركين من لقائهم مع ما فيهم من الضعف والجراح، امتدح الله استجابتهم لملاحقة الأعداء ومطاردتهم، وما أبدَوه من الثبات والصبر والتوكل عليه إزاء الحشد العظيم. وقد رسخ ذلك في النفوس أن ما كان في الغزوتين المتواليتين هو امتحانٌ ليميز الله المنافقين والمتخاذلين، وتحقيقٌ لما في الصبر والتقوى من سبيل للنصر والسيادة.

ولما نوى بنو النَّضير غدرهم بالنبي، لقتله في ديارهم، جاءه جبريل يخبره ما كان منهم، فكان حصارهم وإباحة الله تدمير منافع المحاصَرين، ومنُّه على المؤمنين بإجلاء الغادرين دون قتال، وتوضيحُه أحكام الفيء، وتشنيعه على المنافقين ما كان منهم في السرّ والعلانية، وجعلهم كالكافرين في نفوسهم وأعمالهم، ومصيرهم في الدنيا والآخرة.

وكذلك ما كان قد نزل في سرية الرَّجيع من تحقير المنافقين بمظاهرهم الكاذبة وخصومتهم اللداء وحكم الشرع في الحِرابة، وما أُوحي فيهم بعد غزوات بني المصطلق والخندق وتبوك، إذ كُشفت ستورهم، وأدينوا بالكذب وتحريض الأنصار على المهاجرين لإثارة الفتن والقلاقل، وهُزِّئوا بمواقف الغدر والانهزام والتوهين والتثبيط.

وقُبيل أيام الخندق، خرج زعماء بني النَّضير يحرّضون المشركين على

غزو النبيّ ﷺ، فسألتهم قريش: أدِينُنا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير، وأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله فيهم قوله الكريم، يسجل عليهم النفاق والطرد الأبدي من رحمته[1]: ﴿ويَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: «هٰؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا». أولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾.

ثم عندما انتهى النبي الكريم ﷺ من مصاعب هذه الغزوة بالظفر، وأراد أن يأخذ شيئًا من الراحة والاستجمام، نزل عليه جبريل يَثنيه عن ذلك، ويبلّغه أمر الله بغزو بني قُريظة الغادرين الناقضين للعهد والمعلنين الحرب مع قريش وغطفان والأحزاب. وقد انتهى أمرهم بحكم سعد بن مُعاذ، ذلك الحكم الذي أقره الله من فوق سبع سماوات، ثم تلي ذلك توجيهُ المؤمنين إلى التزام الأمانة، وتجنب الخيانة لكسب دنيوي، كالذي كان من أبي لُبابة، للحفاظ على المال والأهل وما أشبه ذلك.

وفي غدر بني عَضَل وقارة، ومحاربتهم لله ورسوله، بالرِّدّة والتقتيل والتمثيل فيمن قتلوا من الصحابة، تنزّل الوحي الكريم، يبين حكم الحِرابة والبغي، لعقوبة هؤلاء ونظرائهم، بأن تكون معاملة بالمثل للتنكيلِ بهم، وردعِ من تسوّل له نفسه الخروجَ على أحكام الله وسلطان الدولة الإسلامية، والعدوانَ على المسلمين بالقتل والتمثيل.

ولما تأزمت الحال في أيام الحُديبية، بتأخر عودة عثمان رضي الله عنه من عند قريش، وظُنّ أنهم قتلوه كانت بيعة الرضوان بين النبي القائد والصحابة رضي الله عنهم يدًا بيد على قتالهم حتى الموت. وقد بارك الله ـ جل ثناؤه ـ بوحيه هذه المبايعة، وأعلن رضاه عن أصحابها، بل جعل يده فوق أيديهم حين حصلت، ليؤكد ما حملته من إيمان وإخلاص وتضحيات.

---

(١) الآية ٥١ من سورة النساء.

ولكي يكون الجهاد خالصًا في سبيل الله، يتوجب على المؤمن استبعاد كل غاية شخصية فيه. وإذا داخله شيء من ذلك أصبح عدوانًا كالغزو الجاهلي. ولذا فإنه كان يُعرَض الإسلام على العدو قبل محاربته، فإن استجاب حقن دمه، ولمّا قتل محلّمٌ عامرَ بن الأضبط رغم إعلان إسلامه في سَريّة إضم وبخه الوحي الكريم، لغفلتِه عن الإخلاص وانصرافِه إلى الغنيمة، ثم دُفعت الدية تحقيقًا لذلك.

ولشدة الوطأة في سَريّة مؤتة، وبُعد ميدان الحرب فيها، كان جبريل - عليه السلام - يوافي النبي ﷺ بأخبارها لتطمينه بمسيرة المعركة. وخلال ذلك أعلم النبيُّ العظيم الصحابة ﷺ بما جاءه عن استشهاد القادة الثلاثة: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ﷺ.

وقد لاحق الوحي الرباني المنافقين حتى آخر المغازي، حيث رأيناهم قبل غزوة تبوك يتهرب أكثرهم من الجهاد بأعذار كاذبة، ويحاولون منع المؤمنين عنه، ويبتنون مسجد ضرار، لجمع أمثالهم من الجزيرة والشام كيدًا للإسلام والمسلمين، وخلال الغزوة يثبطون المجاهدين، ثم في طريق العودة يأتمرون باغتيال النبي ﷺ.

كل ذلك كان في أيام تبوك، فتنزّل الوحي بالآيات والإعلام، يحرض المؤمنين على الجهاد وينكر التخاذل والتخلف والتوهين، ويفضح خزايا المنافقين وائتمارَهم بالاغتيال وابتناء المسجد وأكاذيبَهم في الاعتذار. ومقابل ذلك يمتدح الله البكّائين الذين لايملكون وسائل المشاركة في الغزو، ويتوب على المخلصين من المتخلفين، بعد إلقائهم في ضروب من المقاطعة والإعراض والبلاء والهموم والآلام.

وفي أواخر المغازي حصلت سَريّة جُرش، فكان حصار هذه المدينة، وقتال شديد حولها وفيها، انتهى بالنصر والغلبة. وحينذاك وُجد بعض أهلها

في المدينة للتجسس، فبشّر القائد الملهم الصحابة رضي الله عنهم بما وصل إليه من وحي، بخبر تلك السرية في لحظة النصر، ولم يدرك أولئك مضمون البشارة، حتى فسّره لهم الصدّيق رضي الله عنه.

هذه قبسات ربانية من أصداء الوحي في مغازي النبوة، أحاطت مراحل الجهاد النبوي، فأعدّت له وهيأت وسائل تنفيذه، ثم رعته بالتوجيه والتحريض والتشريع والقبول أو الرفض أو الإباحة أو التحريم، وامتدحت ما كان فيه من وفاء وإخلاص وتضحيات، وشنعت ما حصل من نفاق وغدر وتآمر وخيانات، وعاتبت من زلّ في مواطن الشِّدّة، وكشفت مساوئ المنافقين واليهود...

وقد كان لها الآثار الفعّالة العظمى لأنها ليست مجرد أقوال، تلقى في صحف الإعلام، أو من منابر الاحتفالات وخلف مكبرات الأصوات في الإذاعات والتلفزات والمؤتمرات والندوات والمسيرات، ثم تمضي مع رياح الإعلام والتصدير الدعائي والاستغلال السياسي. إنها أصداء لأدب المقامة القرآنية مهمتها التوجيه والتسديد، وقد رافقها أدب من تلك المقاومة ذو تجارب عملية، مشاركة في التحركات الحربية على كل صعيد.

وكان لهذه النصوص الربانية فعّاليات واقعية أيضًا، لأنها مقترنة بأمر الله ـ عز وجل ـ وإنزال العون رياحًا تشرد الأحزاب، وأمطارًا وسكينة تطمئن المؤمنين، وملائكة تحارب وتقاتل وتحقق النصر العظيم، بالإضافة إلى أن مقدّر الأحداث ومسيّر الوقائع هو المُشرِف الأعلى والمشارك في أدق التفاصيل والأعمال. ومن ثَمّ كانت أرفعَ مراتب آداب المقاومة، تمثل الأفعال المباركة في امتزاج بالمعارك إطارًا ومضمونًا.

فالمولى العزيز الجبار كان، عندما يوحي الآيات أو يلهم الأقوال والأفعال، يشارك في تسيير الأحداث والوقائع. فهو أولًا مقدّرها وقاضيها ومدبرها وخالقها، تكون وتسير بإرادته، ثم يضيف إلى ذلك لمسات ربانية

ظاهرة للعِيان أو خفية، يبلّغ المؤمنين والكافرين إياها، لتَزرعَ في نفوس الأوائل الطمأنينة والعزيمة والإقدام، حين يشعرون أنه معهم في الميدان بما يحقق النصر النهائي، وتَقذفَ في قلوب الذين كفروا الفزع والانهزامية. وفي هذا، كما ترى، مشاركة عملية في الضربين من المقاومة: النفسية والحربية، يكون لها فاعليّة جبارة في أفراد جماعتَيِ المؤمنين والكافرين.

تجد هذا في جميع المواقع والأحداث الجهادية، من حياة النبوة المطهّرة. فعندما فتر الوحي عن النبي الكريم بعد نزوله الأول، واستغل المشركون الحال للتوهين والتثبيط، بلّغه الله أنه معه في العون والنصر، ولسوف يعطيه حتى يرضى، موردًا نماذج من ذلك العطاء العظيم.

ولما تفننوا في اتهامه بالصفات المختلفة لتكذيبه أمَرَه الله أن يترك زعيم المكذبين، الوليد بن المغيرة، ليتفرد بعقابه وإذلاله، وكلما ضايقوه بالتعنت والتعجيز والأباطيل وإثارة الفتن هم أو اليهود أو النصارى أو المنافقون، كانت الآيات تتوالى لدعمه وتثبيته بالأدلة الكونية والواقعية، وتسفيه الآراء والمزاعم ومحق الشرور والترّهات، وبالتهديد والوعيد في الدنيا والاخرة. وهذه كانت في عشرات من المواقف مشهورة بمكة والمدينة وغيرهما، لا تحتاج إلى بيان. وكذلك كانت المشاركة الربانية في جميع مواقع المقاومة الجهادية، نذكر بعضها هنا فيما يلي:

فبعد مضي زمن على صحيفة المقاطعة التي عُلّقت في جوف الكعبة، سلّط الله عليها الأرَضة، وبلّغ نبيه ﷺ ذلك فكان كالصاعقة على المؤتمرين بها. وفي الأحداث التي أحاطت بالهجرة النبوية، تجد عون الله ونصره على المؤامرات المدبّرة، وتخريب المكايد التي رُسمت للقضاء على الدعوة، ثم كان الأمر بالهجرة بابًا لنجاة الدعوة من بغي المشركين، وفي الطريق بغار ثور

تقرأ من الوحي ما فيه تخوفُ أبي بكر ﷺ على النبي ﷺ وجوابُه له بأن الله معهما، يؤيدهما بالسكينة والملائكة الحافظين.

وقُبيل غزوة بدر كان الوعد بالنصر على إحدى الطائفتين، ثم تحريض إبليس لتشجيع المشركين على القتال، وتحقيق نصر المؤمنين مع قلة العدد وضعف العُدد. فالله يأمر الملائكة بالمشاركة في المعركة، لضرب رؤوس المشركين قتلًا وبترًا للأيدي التي تحمل السلاح، وهو مع المسلمين والملائكة، يلقي الرعب في قلوب الأعداء، وينزل المطر مساعدة للمؤمنين وتثبيطًا للكافرين، ويهيئ لذلك كله أن يري النبي ﷺ المشركين في المنام قليلين ليُشيع التفاؤل والإقدام.

وكان قبل ذلك قد أرى النبي العظيم في منامه قلة عدد الكافرين، تهوينًا لأمرهم، أرى كلًّا من الجمعين في الميدان قلة ما يحارب، لتفعيل الإقدام وانهاء المعركة بما هو مقدر لها. وفي الختام يوضح للمؤمنين أنه هو الذي قتل المشركين وهزمهم، وهو الذي قدّر للحصى التي رماها النبي ﷺ في وجوه المشركين أن تخذّلهم، ثم تراه يعلّم المؤمنين خُطط القتال بالزحف والكرّ والفرّ وضرب الرقاب والأسر، لما سيكون بعد، ويعدهم أنه معهم إن كانوا صابرين.

وقُبيل غزوة أُحد أيضًا، ينخزل المنافقون عن جيش المسلمين، ليجرّوا معهم بعض القبائل، فتكاد قبيلتا سلمة وحارثة تستجيبان لذلك، ولكن الله تولّاهما بالتثبيت وقطع على النفاق طريق الكيد والخداع، ثم قذف الرعب أيضًا في قلوب المشركين، وصدَقَ المسلمين وعدَه بالنصر في أول المعركة، حتى هرب الأعداء والمجاهدون يطاردونهم بالقتل والتجريح، فأخلَوُا الميدان مخلفين الغنائم والأسلحة. ولولا اختلاف المسلمين وتقصيرهم في الصبر والتقوى والحفاظ على الطاعة، لتم لهم النصر في الخاتمة.

ولمّا نقض بنو النضير عهودهم، وهمّوا بقتل النبي ﷺ حاصرهم في حصونهم المنيعة، وأخرجهم الله بالصَّغار والاستسلام، مع أنهم كانوا هم والمسلمون يظنونها تمنع وتحفظ من العجز والانهزام. لقد قضى عليهم بالجلاء، فقذف في قلوبهم الرعب، حتى استسلموا وشرعوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وتشرّدوا أفرادًا وجماعات في مختلِف البلدان.

وفي غزوة ذات الرِّقاع، يحتشد المشركون ويرقبون المسلمين، ليُشغَلوا بالصلاة جماعة عن المقاومة، ويباغتوهم بالفتك والإبادة، فيُنزل الله عليهم حكم صلاة الخوف. وبذلك ينظّم لهم أمرها بحيث يقطعون على الأعداء طريق المباغتة. ولذا تراهم بعد أن استعدّوا للهجوم، وهمّوا أن يبسطوا أيديهم بالفتك والتقتيل، كفّ الله ـ جلت عظمته ـ أيديهم عن غايتهم وحصّن جبش المسلمين برحمته، وأنقذهم من الهلاك المحتم. وخلال ذلك كله كانت التقديرات الربانية تشارك بكل وسائل العون والتأييد.

ترى معي وتسمع أنه حين شرع المسلمون يحفرون الخندق، اشتدّ الأمر عليهم لإحاطة المشركين واليهود بهم من كل جانب، ولعسر ما يظهر في الخندق من صعوبات عملية لا يعرفها العرب من قبل. ولمّا ساهم النبي ﷺ في تحطيم صخرة عظيمة من ذلك لمعت البوارق تحت المِعول ثلاثًا، وبشّره الله في كل منها بنصر للمسلمين على جانب من المعمورة، حتى شمل العالم الأرضي كله. وكان في هذا إزالة لما علق في النفوس من الوهن، وتزويدها بدفقات وأمواج من التفتح والإيمان بالنصر المحقق.

ثم ألهم نُعيمَ بن مسعود أن يجيء إلى النبي ﷺ مؤمنًا، ويرجع إلى الأعداء يخذّلهم عن المسلمين، ويحرّض بعضهم على بعض، حتى اختصموا وتنابذوا ونقضوا العهود التي بينهم، ومالت نفوسهم إلى الانسحاب. وأخيرًا أرسل الله عليهم الرياحَ تقتلع معسكرهم وتخمد نيرانهم، والملائكةَ تشد

المطاردة في آثارهم، فإذا هم ناكصون بالهرب وطلب النجاة، وإذا بالضوائق تنفرج عن المؤمنين، بعد شهر من الحصار العصيب.

وفي إثر هذا، يتنزل جبريل بأمر الله أن يحاصر المسلمون بني قريظة في حصونهم، وأنه هو بعظمته وجلاله مع الملائكة الذين ما وضعوا السلاح عنهم، وهم مستعدون لمشاركة المؤمنين في عقاب أولئك الغادرين من يهود. ثم مرّ جبريل في صورة أحد السادة الأشراف، أمام المسلمين، ليزلزل ببني قريظة حصونهم، ويلقي في قلوبهم الفزع، فإذا هم ينزلون من الحصون راضين بحكم سعد بن مُعاذ رضي الله عنه.

ويوم الحُديبية يرسل النبيُّ عثمان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش بالموادعة، ثم يُشاع أنهم قتلوه، فيدعو المجاهدين إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة للمقاوة الحربية، فيبلّغهم الله أنه كان يبارك مبايعة كل منهم على ذلك، ويده فوق أيديهم توكيدًا وتحقيقًا. وبعد عقد المعاهدة، يبلّغهم أيضًا أنه كفّ أيدي المشركين عنهم، ويبشرهم بأن تلك المعاهدة هي نصر من عنده وفتح قريب، فيما سيلي من الأعوام.

وبعد انقضاء فتح خيبر حصنًا حصنًا، كان جلاء بعض اليهود ومصالحة آخرين على الجزية، فدست امرأة سلام بن مشكم السم فيما أكرمت النبي ﷺ به من الضيافة. وعندما لاك لقيمة من الطعام ألهمه الله ما فيها، فلفظها واعترفت المرأة له بما فعلت، فعنفها ثم سلّم أهلَ بشر بن براء رضي الله عنه إياها، يقتلونها لأنها سببت من موت ابنهم بذلك السم.

وفي فتح مكة يهيئ الله الظروف لنصر كبير، بمعارك جانبية محدودة، إذ يُشعر الطرفين بوجوب المسالمة، فيكفّ أيديهم عن المهاجمة ومتابعة القتال، وفي يوم حنين مع هَوازن، تبدأ الملائكة بالاستعداد للمعركة مساندة المسلمين، يراها هؤلاء استبشارًا والكافرون تثبيطًا وترهيبًا. وعندما يعتز

المسلمون بكثرتهم في الطريق إلى اللقاء، فتنزل بهم الهزيمة بهجوم الأعداء وتضيقُ عليهم الأرض، يتلقاهم الله بالسكينة تستقر في نفوسهم، ليعودوا إلى الرسول الأعظم ومن معه من الصحابة في الميدان، وبالملائكة لتستأصل الثابتين في الحرب من الكافرين.

وبعد خوض المغازي، وتحقق النهاية الحاسمة فيها لمصلحة الإسلام والمسلمين، جاءت مِنّة الله تذكّر بالفضل والإحسان: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة. فالمشاركة الربانية حاضرة في كل لقاء، ترجّح كِفة المجاهدين، إذ القاعدة الأساسية في جميع الأحوال أنه: وما النصر إلّا من عند الله، والله يؤيّد بنصره من يشاء، وكان حقًّا عليه نصر المؤمنين. وإنما يكون هذا حين يخلصون في سعيهم لرفع شأن الدين وطاعة المولى: إن تنصروا الله ينصرْكم، ولينصرَنّ الله من ينصره. وإذا تحقق هذا انهارت جميع الوسائل المعادية، وصارت بلا أثر ولا عين: إن ينصرْكم الله فلا غالب لكم.

تلك نماذج عملية فعّالة من أدب المقاومة في الوحي الرباني، تظاهر ما كان قبلها من أصداء جانبية تتردد في ميادين الجهادين الأكبر والأصغر، وتقدم للمؤمنين نهجًا مباركًا لما يجب عليهم في مواجهة العدوان والبغي، يسلكون سبيله من جانبيه المتآلفين: المادة القولية توجه وتشجع وتعين، والإجراءات العملية، تجربة وخوضًا وصراعًا وتضحية وفداء. وعلى ذلك نشأ هؤلاء الصحابة ﷺ مع نبيهم الأعظم، وشاركوا باللسان والروح والدم واسنان.

ومن هذا ما تراه في العهدين المكي والمدني، من نصوص نبوية وصحابية، هي أنجع الأدب الإنساني فعّالية وتكوينًا لمسيرة الجهاد سلمًا وحربًا. ولو أنك استرجعت ما انتثر من الأحاديث الشريفة ومقولات المجاهدين في ميدان المقاومة المسالمة وأتّون المعارك، للمست قيمة الشعر والنثر في

تفعيل الأحداث ورسم نهايتها المظفرة، لِما كان عليه أصحابها من مشاركة عملية، وبذل للنفوس والأموال والأهل، وتضحيات بكل غال ورخيص، في سبيل نصرة الدين الحنيف وإعلاء كلمة الله. جل ثناؤه وتباركت عظمته.

ولولا تلك التجارب الإنسانية الخالدة، والمشاركات الفعلية في الصبر والبذل، وخوض المعارك بالنفس والنفيس، لما كان للمقولات إلّا فُقّاعات هُرائية، تنتفخ على سطح الأرض شفافة لمّاعة برّاقة مصحوبة بالتصفيق والتهليل، ثم تتفرقع وتفرنقع في الفضاء، مخلفة وراءها يأسًا وتطامنًا واستسلامًا للعدوان.

والأهم من هذا كله أن الوحي الكريم، بشكليه المذكورين قبل، رسم خطوط المقاومة الجهادية بدقة وتفصيل وإحكام، ونثر أحكامها في جميع المواقف المحتملة من ضروب المحاربين، لتكون نبراسًا للأُمّة في حياتها المستقبلية، محاطًا بسياج من التنفيذ العملي للقائد العظيم الملهم. ففي مراحل العهد السلمي، يوجّه الدعاة إلى التبليغ والصبر والمصابرة والتصبر، وهو معهم في أتُّون المحنة والبلاء، وفي المقاومة المسلحة يهيئ النفوس ويدفعها للاستشهاد والتضحيات العظام. وبهذا يكون النصر محقَّقًا بعد الاستعداد له، وبنائه بالروح والجسد والممتلكات المبذولة في سبيل الله. سبحانه وتعالى.

٢ ـ **أصداء الشعر في المغازي:** لقد تأخّر حضور الشعر كما رأينا في موكب المغازي، لِما نعرفه من اعتداده بنفسه، شأن زعماء أيامنا هذه وشعرائنا وخطبائنا في المشاركة للمجاهدين، إذ أنها غالبًا ما تكون من برجهم العاجي بالبيانات والخَطابات النارية الخُلّبيّة الخاوية تنتشر في الفضاء مع الأثير، وقد أعدوا أنفسهم للهرب حين يقترب العدو.

هذا ما نسمعه في عصرنا ونشاهده. أما الشعر مع تلك المسيرة التاريخية المباركة فقد كان أكثره، في جحيم العذاب المكي وأُخدود المعارك المدنية، يصلاها مع عناصر المحنة والجلاد من الطرفين. وهذا فرق جوهري، لا بد من

مراعاته، لئلا نبخس الناس أشياءهم، ونجور على الحقيقة، في ميدان التمجيد لمفاخر المجاهدين.

فقد كان للمشركين واليهود حضور فني كبير في ميادين الخصومة والمواجهة الحربية، ومزجوا الشعر بدمائهم وأرواحهم، فصدر عنهم أدب مقاومة ضخم، يُذكر في صفحات التاريخ بالعرفان والتقدير، ولا يجوز غمطه حقَّه في مجال البحث العلمي. وهو مبني على تجربات قتالية، وتضحيات نفيسة، انتهت بالقتل والتشريد، أو التسليم بالإيمان والمبايعة والاندماج بصفوف المقاومة الجهادية المسلحة.

أمر آخر يقتضي التنويه به هو كثرة الأناشيد الشعرية في هذا المجال، واستيعابها جمهور الوقائع المهمة حتى قلّ أن تخلو إحداها من مواكبة الشعراء لها. أما الكثرة فقد انتشرت وتوزعت وتكاثفت بشكل ظاهر، تعذّر علينا إيرادها كلها، فاكتفينا بالقليل القليل من أبيات بعض مقطوعاتها أو قصائدها، وأما الاستيعاب فكان سجلًّا أدبيًّا، يقدم للتاريخ والبحث مادة جديرة بالاهتمام.

وإذا استطعتَ أن تتصفح تلك الأناشيد، من الجانبين، رأيت فيها تأريخًا حافلًا بالتفصيلات والدقائق والشخصيات والأعمال، وتعيينًا يحدد المواقع والعمليات والقادة والجنود والقبائل والأحزاب وعدد المقاتلين. حتى إن المسلمين في بدر هم ٣٠٠ ونيف، كما قال كعب بن مالك، والمشركين هم ٣٠٠٠. ثم تتلمس فيه أنه يصف بدء المعارك واحتدامها، وما يتخلل ذلك من مراماة ومطاعنة ومبارزة والتحام وهجوم وكر وفر، أو هرب أو مسالمة أو استسلام، وقتلى وجرحى وأسرى وغنائم وسبايا، وخلاف وشقاق واتفاق وافتراق.

كل هذا وأمثاله من العناصر الحربية تجده واردًا بالتكرار وتعدد زوايا المنظور، مع اختلاف في العرض والتوجيه والتوظيف والاستنتاج. وهو أمر يغري بالبحث والدراسة، لمساعدة التاريخ في توثيقه وإغنائه بما أغفله الرواة

والمتحدِّثون. وقد أغراني فعلًا منذ ٤٠ سنة، فعزمت على جمعه وتحقيقه ضمن عمل علمي ضخم عنوانه «ديوان الفتوح»، ثم حشدت كثيرًا منه ديوانًا للمغازي، وشغلتني مشروعات البحث والتحقيق والإشراف والتدريس عن متابعة السبيل. فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

وبما أن الموضوعات المطروحة في الشعر كثيرة متفرقة، فسأختار منها شذرات كافية. نبدأ أولًا بأسباب الخصومة بين المجاهدين والمعتدين، وهنا ينشدنا الإمام علي ﷺ في شعره أن الله أكرم الرسول ﷺ بدعوة التوحيد، وأوحى إليه قرآنًا عظيمًا يخاطب العقول، فافترق الناس فئتين: إحداهما آمنت فجمع الله شملها، والأُخرى طاشت قلوبها عن الصواب وزادت ضلالًا وطغيانًا، فدارت عليها الدائرة في بدر.

ويلح قائد السرية حمزة ﷺ على مبدأ الخصومة. فقريش استجابت للجهل والطيش، وجابهت المؤمنين في مكة بالظلم والطغيان، دون أن يكون لهم جناية أو ذنب. فهم إنما دعوها إلى العفاف والعدل، فقابلت ذلك بالإصرار على البغي، وجاءت تريد إبادة المسلمين في بدر، مع أن تجارتها نجت ولا مجال للحرب. ويردّ عليه أبو جهل بأنهم أرادوا إضلال عقول المشركين بترك الوثنية، وخرجوا على دين قومهم، فكانت الغزوة للقضاء عليهم جميعًا.

وفي ذلك يحدثنا كعب بن مالك ﷺ أن قبائل معد أغضبها التوجه إلى الإيمان بالله وحده، والكفر بالأوثان والأصنام، فحشدت جيوشها للقضاء على المسلمين، وكان هؤلاء أسودًا لا ينجو من بطشها أحد. أما أبو سفيان بن حرب فيعتد، وهو قائد للمشركين، باحتشاد قبائل نزار لنصر اللّات، ويهدّد به النبي الكريم وأصحابه ﷺ، ثم يطلب من المشركين أن يداهموا يثربَ حتى يبيروا جميع الأنصار. وكذلك الحارث بن هشام يناشد بني لؤي أن يدافعوا عن حماهم وآلهتهم، ويحرّضهم ليثأروا بمقتل أخيه أبي جهل.

وأما الإمام علي ﷺ فهو يجاهد في سبيل الدين الإسلامي، على حين أن من يلقاه من المشركين يأتي لينصر اللّات، فتكون نهايته أن يجدَّل بتقدير الله وعونه. ويقف شداد بن عارض ﷺ ساخرًا من حرب المشركين لنصرة اللّات، وهي عاجزة عن حماية نفسها حين حُرّقت مع كثير من الأصنام، ويتصدّى أبو بكر ﷺ لواجبات تذكير قومه ونصحهم أن يدَعوا الكفر والظلم والبغي والضلال، وإلّا واجهوا الحروب التي تحرّم عليهم طيبات الحياة.

ثم نرى تجدد المعارك الفاصلة بتجدد الظلم والطغيان. فقد خانت قريش عهد الحُديبية، وغدرت ببني خُزاعة حلفاء المسلمين في مكة تقتيلًا وتشريدًا، وافتخر الأخزر البكري في شعره بتذبيح هؤلاء الآمنين المسالمين المعاهدين. إذ ذاك وقف حسان ﷺ يندد بشناعة الغدر والخيانة: كيف تُحزّ رؤوس المعاهدين المسالمين الأبرياء، وتلقى جثث الشهداء في العراء؟ ثم يثير الحفيظة للتحريض على الانتقام وتأديب الغادرين، فيكون فتح مكة وإنهاء مسارب الخيانة والبلاء.

وكذلك شأن بني قُريظة، نقضوا العهود ودخلوا في الحرب أيام الخندق. وفي هذا يشهّر بهم حسان ﷺ أيضًا، فيذكر خيانتهم لله أولًا بتضييع التوراة وكفرهم بالقرآن، ثم بما كان منهم حين أعانوا قريشًا على حرب المسلمين، فكان جزاؤهم الفناء على بكرة أبيهم. ومقابل ذلك تجد قول ثابت ابن قيس ﷺ، يعتز بالوفاء، لأنه تذكّر منّة الزبير بن باطا عليه يوم بُعاث، وحاول إنقاذه من القتل، ليكون كريمًا يجزي الخير بمثله.

وفي أتّون المعارك نسمع أناشيد الشعر، تردِّد بواعث الحرب ودوافع القتال. فكعب بن مالك ﷺ يبيّن أن المؤمنين يجاهدون للدفاع عن دينهم تلك الكتائبَ المعتدية وفوارسَها المدججين بالسلاح، وينقادون لأمر الرسول ﷺ

فيما يوجِّه، وهم في أُحد أنصار على الإيمان والإقدام، والحربُ سِجال لا تنتهي بمعركة واحدة.

وكذلك يتعالى صوته في غزوة الخندق، إذ يردّد أن ابتلاء المؤمنين بقتال المشركين سببه الإصرار على التوحيد، وأن جهادهم هو في سبيل الله ونُصرة النبي ﷺ لقمع الظالمين العاقّين والمصرّين على البغي والعدوان، ولا ينسى عون الله للمسلمين برياح اقتلعت المعتدين من الجذور. وفي بدر يذكر لنا عُبيدة بن الحارث رضي الله عنه أن الجهاد هو قتال العاصين لإرضاء الرحمن. ولذلك فإنه ينتهي بهم إلى زيارة المنايا، والرحيل عن الحياة الدنيا.

أمّا حسان رضي الله عنه فيعنّف قريشًا على اعتراض سبيل المعتمرين في الحُديبية، ويُشيد بمصاحبة جبريل للمجاهدين، وهو روح القدس ليس له كِفاء، وأما نُجيدةُ الخُزاعي رضي الله عنه فيصف نُصرةَ الله لقومه بعد غدر قريش، وهم في مكة مؤمنون صابرون كالمهاجرين، نصرتَه بسحاب من الرحمة، وتحليلَ القتال في مكة لإدراك الثأر من الخائنين للعهود.

وأمّا عبد الله الأسدي رضي الله عنه فينعى على قريش أنها تنكر القتال في الشهر الحرام، وقد جاءت بما هو أعظم حين كفرت بربّ الشهر والمسجد، وشرّدت سكّان بيت الله ومواطنيه الآمنين في حِماه، ظلمًا وعدوانًا، وأمّا ابن رَواحة رضي الله عنه فيهزأ بما في الوثنية من أوهام، ويُشيد بالطاعة للنبي ﷺ والاعتزاز به من دون الناس. هذا على حين أنّ عصماء بنت مروان اليهودية تُنكر على الأنصار استجابتهم له، وهو من قوم آخرين كما تقول، لا علاقة لهم به.

وأمّا فروة الجُذامي رضي الله عنه فيشكو غدر الروم به، وسَجنه لأنه أسلم، ويبلّغ إخوانه المجاهدين أنه سيُقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا، ومطمئنًّا أنهم سينتقمون له من المعتدين. ومقابل ذلك نسمع بين المشركين الأخزرَ يعتز

بغدر قومه في مكة، حين خانوا عهد الحُديبية، ومِقيسَ بن صُبابة يفتخر أنه تنكر للعهد وقتل أحد الصحابة غدرًا في المدينة، وارتدّ إلى الوثنية وهرب إلى مكة. وكذلك نرى عبد الرحمن بن أبي بكر يجابه أباه في أُحد، معتزًّا بسلب ماله في مكة على غرار ما فعل صناديد قريش بأموال المهاجرين، وأنه لم يترك له منه إلّا درعًا وفرسًا وسيفًا يقتله به.

وكما افتخر المؤمنون ﵃ بالنصر في بعض المغازي، وقف شعر المشركين يشمخ بما كان لهم في أُحد. فهذه هند بنت عتبة، تغادر المعركة وهي تتغنى بما نالت من الثأر، وتعِدُ نفسها بما يشفي الصدر، وهُبيرة المخزومي يُشيد بتلك الغزوة، وما كان فيها من مقاتل المسلمين، وابن الزِّبعرَى في عهد كفره تُسعد نفسَه هذه المقاتل، لِما تردّى فيها من السادة الكرام الأبطال، ويتمنى أن يعود قتلى بدر من قَلِيبهم، ليشهدوا ما يُقرّ عيونهم بالانتقام لهم من القاتلين.

ولمّا أراد معبد الخُزاعيّ ﵁ أن يخذّل قريشًا، ويَثنبها عن العودة إلى حمراء الأسد، وصف لأبي سفيان بن حرب جيش المسلمين للقائه، بأنه يهدّ الإبل ويزعزعها وتسيل بكتائبه الأرض، حاملة للمشركين الويل والثبور، مما يعجز اللسان عن بيانه. وعندما عاد النبي ﷺ من غزوة تبوك بالظفر، استقبله أهل المدينة نساء وأطفالًا ﵃، بالنشيد الحبيب الخالد:

طَلَعَ البَدرُ عَلَينـا مِن ثَنِيّـاتِ الـوَداعِ

ثم نسمع أصوات الشعراء تتعالى، فيتغنى سعد بن أبي قاص ﵁ بأول سهم رُمي في سبيل الله، ويُسعِد عبيدةَ بنَ الحارث ﵁ أن يختاره القائد الملهم مع المبارزين للأبطال، فتُقطع رجلُه لينال ثواب الجَنّة ونعيمها، ويعتزّ حسان ﵁ بأن تكون لسيّد من قبيلته قيادةُ الجيش، ويفتخر كعب ﵁ بأن يكون قومه في الصفوف الأُولى من الكتائب للقاء العدو، ويصرّح ابن رَواحة ﵁ بأنه

يطلب الشهادة بطعنة من يد كافر حاقد، ويسجّل حسان وكعب وصفيّة رضي الله عنهم أن الشهداء يحيَون في الجنة بنعيم الله.

وينعَى حسان رضي الله عنه أيضًا على المشركين الجثثَ التي أُلقيت من قتلاهم في القَليب، وخطابَ النبيّ لهم للتبكيت والتعنيف، وهم عاجزون عن الجواب، كما يسجّل عليهم الحقارة، ويسخر ابن رَواحة رضي الله عنه من أبي سفيان لأنه أخلف في بدر الآخِرة موعدَه الذي قطعه على نفسه، إذ لو وفى به وحضر الميدان لعاد ذليلًا بلا نصير أو معين.

وقد كثر هجاء الأعدء بالجبن والفزع والكفر. فهذا حسان رضي الله عنه يعنّف الحارث بن هشام على نجاته بنفسه، متخليًا عن أخيه أبي جهل قتيلًا في العراء، ويعيّر قريشًا أن سقط لواؤهم في أُحد، فلم يستطع رجالهم حمله، حتى صار في يد غلام حبشي ذليل، ثم قُتل الغلام فقادتهم امرأة هي عَمرة الحارثية. فما أذلّ قومًا تحمل رايتهم امرأة!

وهذا كعب بن مالك رضي الله عنه يبكّت أبا سفيان لهربه في غزوة السَّويق مع جيشه الهزيل الجبان. ولمّا أظهر أبو عفك نفاقه بالرِّدّة والطعن في الإسلام هجته أُمامة المُزيرية رضي الله عنها بسوء ما فعل ونقضه عهد المسالمة والموادعة، وحمِدت قتله عقوبة له وتنكيلًا وتأديبًا لغيره.

ثم لم يخل شعر المَغازي من نغمات الرثاء، إذ كان قد رثى خُبيب رضي الله عنه نفسه، و تغنّى بلقائه الشهادةَ في سبيل الله صابرًا محتسبًا، لنصرة دينه على المعتدين وإعزاز المؤمنين، وتفجّعت عَمرة بنة دريد بن الصِّمّة على أبيها، لهرب قومه عنه، وذكّرتهم بما كان لهم من حمايته وقيادته.

وقد بكت شمّاسَ بن عثمان زوجته رضي الله عنها في أُحد بدمع وشِعر، لِما كان عليه من البطولة وقيادة الفرسان، فعزّاها أخوها أبو الحكم بن سعيد رضي الله عنه، بأن

زوجها استُشهد في طاعة الله، مع حمزة الليث الهمّام ﷺ. فالصبر هو اللباس الوحيد في هذه الأحداث العظام.

والظاهرة اللامعة في شعر المغازي نشوء البذور الأولى لفن النقائض. فهذا القالب الشعري الجدلي في حياة الأدب العربي يُنسب إلى العصر الأموي، ويُدرس عند المؤرخين للحركات الأدبية على ذلك، مع أنك تجد له بوادر تقليدية، تلتزم البحورَ والقوافي وموضوع الهجاء ونقيضه، بالإضافة إلى العناصر الجدلية التي يطرحها الشاعر في هجومه على الخصوم واعتداده بنفسه أو بقومه.

فأبو بكر ﷺ يهجو بني لؤي بإصرارهم على الكفر والبغي والعدوان، ويهدّدهم بعذاب الله والحروب الماحقة، في مقطوعة من البحر البسيط، ورَوِيّ الثاء المكسورة، فيجيبه ابن الزِّبعرَى على نفس النَّسَق، بهجاء الجيش الذي لقيهم، وخلال ذلك يعجب أن يدعو المسلمون قومه إلى ترك الوثنية، ميراثهم المجيد، ويهددهم بالفناء النهائي. وقريب من ذلك ما تجده لدى ضرار بن الخطّاب، إذ ينعى على المسلمين احتماءهم بالخَندق، فيردّ عليه كعب بن مالك ﷺ بالصبر والتوكل على الله، وعونه إيّاهم بالرياح، حتى ولّى المشركون هاربين لا يبصرون طريق النجاة.

وكذلك يقال في النقائض بين موهب بن رباح ﷺ وابن الزِّبعرَى بالقافية الدالية، وبين عصماء بنت مروان وحسان ﷺ بالقافية الجيمية، وبين حمزة ﷺ والحارث بن هشام بالقافية الرائية، وبين أبي سفيان وحسان ﷺ بالقافية اللامية، وبين ابن الزِّبعرَى وحسان أيضًا باللام المقيدة، وبين حسان كذلك وأبي سفيان ابن الحارث بقافية الكاف، وبين كعب ﷺ وسمّاك اليهودي بقافية الراء، وبين حسان أيضًا وأبي سفيان بن الحارث كذلك وجبل بن جوال بقافية رائية.

فهذه نماذج مما احتدم بين الشعراء في المغازي، تبشّر بالفن الجدلي الجديد، وتضع أصوله وتطبيقاته في عديد من النصوص، ليكون بعدُ توسعٌ فيه

وتفصيل، ومعارك شعرية لها تاريخ وشعراء ودواوين ودراسات وتقويم.

فإذا انتقلنا إلى ميدان الرجز كنا في تُخوم الشعر، نتصفح ما رأينا صوره من قبل. وإنما نخص هذا الفن الأدبي بالذكر هنا مفردًا لأن بعض العلماء أخرجوه من الدائرة الشعرية، وجعلوه صلة الوصل بين تلك الدائرة وبين النثر، حتى إن أبياتًا منه تراها في المصادر التراثية منثورة مثله.

وهذا الحكم وارد فيما كان من الرجز قبل العصر الأموي، إذ يصدر عن الشاعر في بيت واحد أو بضعة أبيات، تقال ارتجالًا في مواقف العمل والرحيل والقتال، وقد يصاغ تقليدًا لما سُمع في الشكل والمضمون، أي: قبل أن يصير له شعراء متخصصون لكل منهم «أراجيز» محكمة مطوّلة، جمع أُرجوزة، قد تستغرق بجمهورها ديوانًا كاملًا. هنالك دخل الرجز حرم الشعر، وصار يذكر في ميادينه الفنية كواحد من أبنائه الأبرار.

ولو قُدّر لك أن تتقرّى ما ورد من هذا الفن في المغازي لرأيت أنه لاتتعدى المقطوعة منه بضعة أبيات، يصوغها قائلها ارتجالًا، أو ينشدها مما يحفظ عن غيره، في مواقف الحماسة. أعني أنه تحريض وحثّ للنفس أو للغير في مواقف تقتضي التنبّه والتيقّظ والاندفاع في العمل مع الاستمرار فيه، قتالًا في المعارك أو حُداء أثناء الرحيل أو حفرًا في أرض صلبة أو سقيًا للحيوان.

ولهذا فإن ما أُنشد منه في المغازي كان أكثرُ موضوعاته ينصب في ميادين القتال. فالمؤمن يعبّر عن الاندفاع للجهاد في سبيل الله، وطلب تنفيذ العهد بالحماية ولقاء الظالمين والشهادة، والحفاظ على البيعة والإيمان والميثاق والهداية، والفرحة بلقاء الوطن بعد الهجرة، والفخر بالجلاد مع النبي ﷺ والبطولة والرمي والإقدام ومبارزة الأبطال، وتهديم رموز الوثنية والكفر والجهل من أصنام وأنصاب.

ولم يكن طلب الشهادة من المجاهدين غاية في نفسه، وإنما هو تعبيد لسبيل الله، ونصرة لدينه الحنيف، ومحق لكل وسائل العدوان والبغي والتسلط، وتحقيق لمشروعية الجهاد في الآيات المباركات والسّنّة النبوية المشرّفة. هذا هو مذهب المؤمن في مقاومته الجهادية، وتصدّيه للمعتدين الغاصبين، أو المهدّدين لكرامة الإسلام والمسلمين ووطنهم الحبيب.

أما الكافر فهو يحرّض قومه ونفسه على الحرب والعدوان والثأر بالقتلى والجراحات، ويعتز بشجاعته أمام الفرسان، ويطلب مبارزة الأقران، ويعتذر عن التقصير، ويعِدُ أسرته وقومه بالحماية والتضحية، ويتمنى في الشيخوخة أن يستعيد قوته لمواصلة الجلاد، ويهدّد المؤمنين بالهلاك.

ومن حناجر الطرفين هنا أيضًا، تسمع أناشيد الرثاء أكثرُها من النساء، تبكي من قُتل من الأهل والقوم، وتحرّض على الانتقام والثأر، أو ترثي الصنم الذي تزعم أنه كان موئل حماية وعون ورعاية لها وللقوم أيضًا. ثم تجد كثرة النقائض الرَّجَزية، كالذي كان يتردد الإنشاد بين فرسان المؤمنين والكافرين في مواطن المبارزة واللقاء.

والجدير بالذكر هنا أن النبي ﷺ كان يتجنب رواية الشعر، حتى جاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت[1]: «ما جمع رسول الله ﷺ بيتَ شعر قطُّ، إلّا بيتًا واحدًا:

تَفاءلْ بما تَهوَى، يَكُنْ، فلَقَلَّما ... يُقالُ لِشَيءٍ: «كانَ»، إلّا تَحَقّقْ

ولم يقل: (تَحقّقا) لئلّا يُعربَه، فيصيرَ شعرًا».

بيد أنه ﷺ مع ذلك كان يتحسس الجانب الفني ويتذوق آثاره وينفعل به، ويطلب إنشاده ويُنصت إليه، ثم إذا رأى ما يحتاج إلى التسديد فيه بما يقتضيه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٥٥٦ وفتح القدير ٤: ٥٣٥ ومشكلة العامل النحوي ص ٦١.

الدين الحنيف وجّه صاحبه إلى الصواب. فعندما سمع قول كعب بن مالك في الرد على هُبيرة، بأن المسلمين يدافعون عن الأحساب ويقودهم رسول يوحى إليه، وبما كان من كثرة المشركين، وهزيمتهم أمام قلة المسلمين في أول المعركة، وأن الحربَ سجال، وثوابَ الله أكبر من النصر، وفيه قوله:(١)

مُجالَدُنا، عَن جِذمِنا، كُلُّ فَخمةٍ   مُدَرَّبةٍ، فِيها القَوانِسُ تَلمَعُ

قال له النبي ﷺ: أيصلح أن تقول: «مُجالَدُنا عن دِينِنا»؟ قال: نعم. فقال رسول الله: «فهو أحسن».

وبعد غزوة هَوازن لم يرض العباس بن مرداس رضي الله عنه ما ناله من الغنائم، وعاتب النبيَّ ﷺ بأنه أُعطِيَ أقل مما نال عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس رضي الله عنهما، وهو ليس أقلَّ منهما شأنًا:(٢)

فأصبَحَ نَهبِي، ونَهبُ العُبَيـ   ـدِ، بَينَ عُيَينَةَ والأقرَعِ
وما كانَ حِصنٌ، ولا حابِسٌ،   يَفُوقانِ شَيخِيَ، في المَجمَعِ

فقال القائد العظيم لأصحابه: «اقطعوا عني لسانه». فأُعطِيَ حتى رضي. وكان هذا قطْعَ لسانه.

وعندما لقيه قال له: «أنتَ القائل: فأصبح نهبي ونهب العُبيد بين الأقرع وعُيينة»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه يصحح الرواية: «بين عُيينة والأقرع»، فقال الرسول ﷺ: «هما واحد». يعني أن المعنى واحد، إلّا أنه لا يريد لفظ الشعر كما كان. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أشهدُ أنك كما قال الله: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ، ما يَنبَغِي لَهُ﴾.(٣)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٥٥٦ وفتح القدير ٤: ٥٣٥ ومشكلة العامل النحوي ص ٦١.

(٢) السيرة ٢: ٤٩٣ - ٤٩٤ وتاريخ الطبري ٣: ٩١ والكامل ٢: ٢٧٠. والنهب: الغنيمة. والعبيد: فرس العباس بن مرداس. وبينهما أي: دون غنيمة كل منهما. وشيخي أي: أبي.

(٣) الآية ٦٩ من سورة يس.

هذا ما تتلمسه من المجاراة في ميدان الشعر. أما الرجز فقد شارك ﷺ بنفسه في صياغته وإنشاده. ومن ذلك أنه لما تأزمت الأُمور في غزوة حُنين، وانفضّ أكثر المسلمين عن القتال، وقف في ميدان المعركة وهو ينادي في المسلمين: «أينَ؟ أيها النّاس. هَلُمُّوا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله»، ثم نزل عن دابته، وهو يرتجز:

أنـــا النَّبِـــيُّ، لا كَـــذِبْ أنـــا ابـــنُ عَبـــدِ المُطَّـــلِبْ

وعندما أسهم في حفر الخندق مع الصحابة، كان يُنشد ما يشبه الرجز، للتشجيع والتسلية عما يلقى الصحابة من الجَهد:

اللّهُمَّ، لا عَيشَ إلّا عَـيشُ الآخِرَهْ فــأصلحِ الأنــصارَ، والمُــهاجِرَهْ

وعن جُندب بن سفيان أنه ﷺ كان في بعض المشاهد [أي: الغزوات]، وقد دَمِيَت إصبعه، فقال:[1]

هَل أنـتِ إلّا إصبَعٌ، دَمِـيـتِ؟ وفـي سَبِيـــلِ اللهِ مــا لَقِيــتِ

وكان ينقل التراب أيضًا مع الصحابة في حفر الخندق حتى اغبرّ بطنه الشريف، وهو ينشد هذه الأبيات:

واللهِ، لَــولا اللهُ مــا اهـتَدَيـنــا ولا تَــصَدَّقْـنا، ولا صَلَّيـنــا
فأنـزِلَــنْ سَكِينَــةً علَـيـنـــا وثَبِّـــتِ الأقـــدامَ، إن لاقَيـنـــا
إنَّ الأُلَــى قَــد بَغَــوا علَـيـنــا إذا أرادُوا فِتــنــــةً أبَـيـنـــا

ثم يَمدّ صوته بآخرها، و يرفع به صوته ويكرر: **أبَيـنـا، أبَيـنـا**.

ومن ذلك أيضًا أن أحد المسلمين اسمه جُعيل رضي الله عنه، والاسم هذا غير حسن المعنى، وسمّاه رسول الله ﷺ عَمرًا، فصار الصحابة رضي الله عنهم يرتجزون، وهم يعملون في الحفر والنقل:

---

(١) الأحاديث: ٢٦٤٨ و ٥٧٩٤ في البخاري و١٧٩٦ في مسلم.

سَمّاهُ، مِن بَعدِ جُعَيلٍ، عَمرا وكانَ لِلبائسِ، يَومًا، ظَهرا

فكانوا إذا مرّوا بقولهم: «عَمرا» قال رسول الله ﷺ معهم بمدّ للصوت المرتفع: «عَمرا»، وإذا وصلوا إلى قولهم «ظَهرا» ردّد معهم كذلك: **ظَهرا**.

* * *

هذا ما تيسر لنا، من تحليل أدب المقاومة في عهد النبوة، وما تردد من أصداء الوحي الكريم والسُّنّة المطهرة والشعر والرجز والنثر الفني في المجاهدات والمغازي الشريفة.

فالأول منها يمثل أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الإعداد والتوجيه والتهيئة للجهاد على لسان جبريل بأقوال أو بآيات قرآنية، مع التأييد بالعون ملائكةً ومعجزات ربانية، ثم تكون المتابعة أيضًا للأحداث والوقائع، فيسبقها أو يليها، ليتنزل الأمر بالسير للمعركة، والتشجيع والعون والنصر، والأحكام الشرعية تتناول الأقوال والأعمال تحليلًا أو تحريمًا، وكشف حقائق الأمور الخفية والمضطربة، ورسم الحدود اللازمة لكل عمل جهادي في المستقبل.

إنه القائد الإلـهي يشرف على العباد المؤمنين، يسدد خطاهم ويثبت أقدامهم، ويرعاهم بالرحمة والنُّصرة والفضل، ليكون لمشروعية المقاومة الجهادية وجه واضح القسمات، تغذيه السيرة النبوية في خلال ذلك بالخطوط العملية للتنفيذ، والمقولات الشريفة الواعية الموجِّهة، فيبقى كل من الوحي الرباني والأدب النبوي مع الزمن نبراسًا للمجاهدين، حتى يرث الله الأرض وما فيها ومن عليها.

أما الشعر مع رديفه الرجز فقد كان حافزًا للهمم، وتنفيسًا عن الأشواق والصبوات، وتعبيرًا عن العواطف والأخيلة في رؤية الأحداث والوقائع والمقولات، وتغنيًا بالحماسة والنصر والهزيمة والخواطر والآمال. غير أنه

قلما يستبق الأحداث أو يوجّه إلى المستقبل لأنه، في الحقيقة، تابع ورديف ينتظم ما يكون، ولا يستطيع أن يقود أُمّة أو شعبًا أو جماعة.

هذا هو الحق الذي لا مِرية فيه، خلافًا لما انبث في جوانحنا عن القيادية والتفعيل. فالفن الشعريّ وظيفتُه التغني والتنفيس والرؤَى الذاتية الإيحائية والتفعيل الآني، ثم يذهب صداه مع الأيام، وفرق كبير جدًّا جدًّا بين منابع الأرض وتنزيل السماء بالوحي والحكمة النبوية.

ثم لاننسَ أنه في مسيرة المغازي، وما قبلها من ألوان المقاومة، قد رافق الوحيَ والشعر مقولات نثرية غفيرة، للنبي العظيم والصحابة ﷺ والمشركين وبني إسرائيل ونصارى الروم والعرب. ولا شك أنه قد كان لهذه المقولات آثار ضخمة في تفعيل الأحداث وصناعتها وحسم نتائجها، في كثير من الأحيان. ونحن قد أوردنا بعض ذلك، مما له صلة مباشرة بمنهجنا، وهو لا يمثل عشر مِعشارها، إلّا أنه كافٍ للدلالة على سائر ما عداه: الكَمِّ المخزون الذي لا يحيط به إلّا خالق الكون والحياة.

وإذا قارنت تلك النصوص الشعرية بالمقولات النثرية هذه رأيت الثانية أظهر حضورًا في الوقائع ومشاركة فيها وامتزاجًا بها وبدماء الشهداء وأنّات الجرحى والمعوّقين واليتامى والأيامى والمشردين، لأن أكثرها يقال إبّان الوقائع لتحريك مسيرتها عمليًّا، فينصهر بالمقاومة الفعلية، ويصبح جزءًا منها وعنصرًا في بناء شموخها العظيم. نعم كان للرجز شيء من هذا الانصهار، ولكنه قليل جدًّا بالنسبة إلى النثر الذي رافق جميع عناصر الأحداث والوقائع، وغذاها بالتنمية والحيوية.

أما الشعر في هذه المواقع فقد عاش رديفًا على حواشي المغازي، وقلما امتزج بها امتزاج الوحي والسُّنّة والنثر والرجز. ثم إن معظمه ليس له السند الذي يوثّق نسبته إلى من روي عنه، بل إن بعضه قد شك الرواة في نَسبه، أو

وبهذا صار لديهم مقولات أدبية من الشعر والنثر، ممزوجة بدم الشهداء ودمار المنازل والأشلاء الممزقة والتشرد، فإذا بالحَجر في يد الطفل الصغير يُفزِع العشرات من اليهود ضمن المصفحات والدبابات، ومع أحدث السلاح الحربي والخبرات الفنية العالية بالتقتيل والعدوان. فالطفل مشحون بالأدب القرآني والنبوي، وبأغاني البطولة من الفلسطينيين أنفسهم وسَط النار والمتفجرات والمدمرات ووسائل التعذيب والخنق والإعدام.

كذلك تكون فاعلية الأدب الحقيقي، بعيدًا عن السمسرة والتغني على المنابر خلف المِصوات في المحافل وأمام آلات التصوير وأضواء التعظيم والتفخيم، أو خلال بث الإذاعات والتلفزات والقنوات الفضائية، أو تحت سقوف المطابع ودور النشر والتوزيع.

إنه أقوال متفجرة بالتضحية والفداء، وخَطابات بلسان الحال تصنع المستشهَدين من النساء والرجال والأطفال والشباب. فكل منهم يصوغ الأدب عملًا حيًّا، وهو يطلب الشهادة. إنه بنفسه هو القصيدة والخطبة والمجاهد والسلاح والخُطّة والذخيرة، يردد الآيات الكريمة والمقولات النبوية وأشعار المجاهدين، ويصوغ على غرارها ما يمثل عمله في ميدان المقاومة الاستشهادية، ثم يفجّر نفسه ليقتل ما تيسر من المعتدين الغاصبين المجرمين، ومَن وراءهم مِن النصارى المتهوّدين والملحدين والوثنيّين.

وخير دليل على ذلك ما رأيناه في نهاية الفصل الأخير من كتابنا هذا، عن المعركة بين الإسلام واليهودية في جنوبيّ لبنان، وعن المعارك الأخيرة بين المجاهدين والغزاة وصنائعهم في كثير من الوطن الإسلامي الكبير. إنه صناعة جهادية تحقق للناس جميعًا أن الوطن الإسلامي لن يكون بعد اليوم «نهرًا باردًا» للغزاة وعملائهم المأجورين.

المحتوى